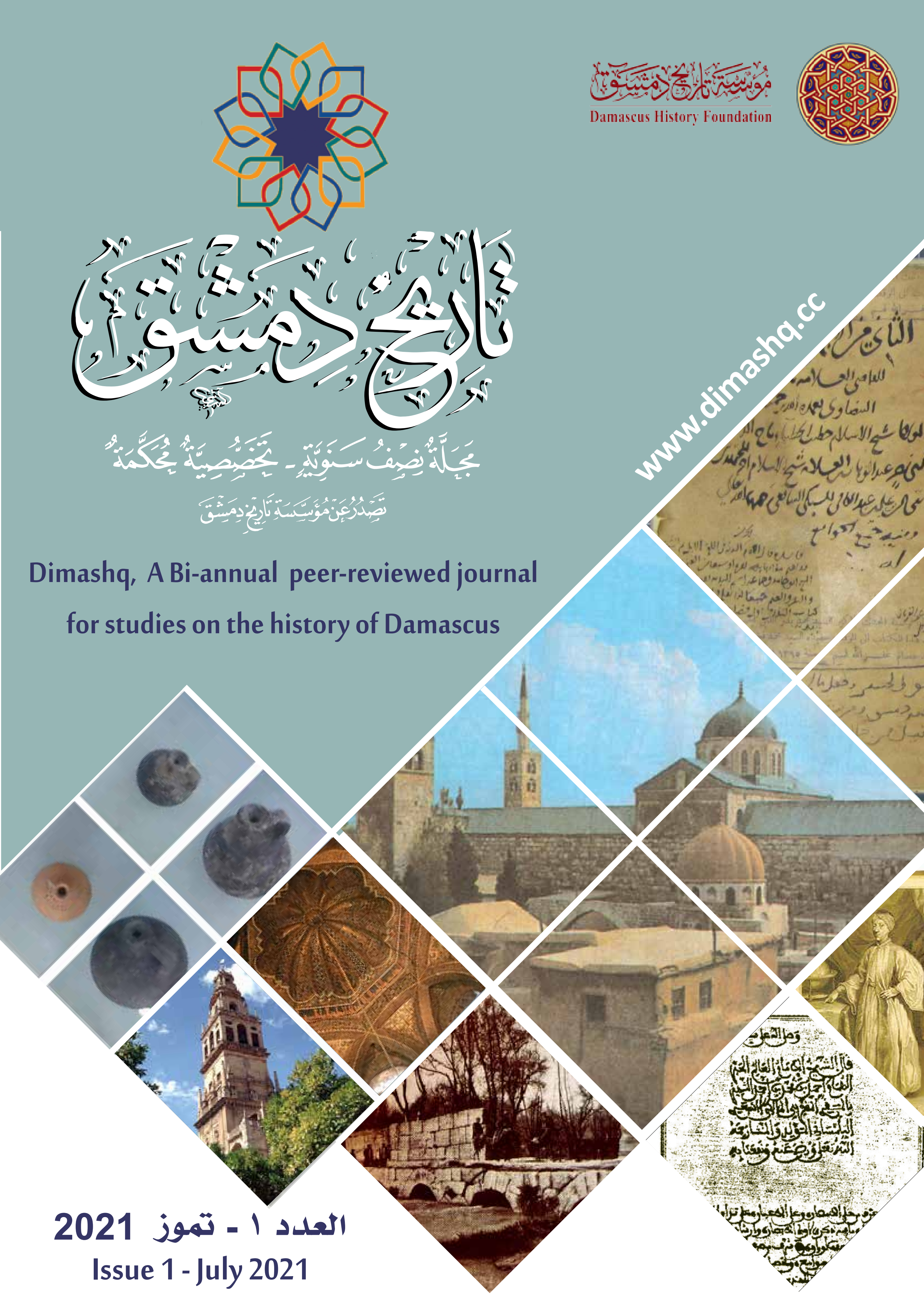


مؤسسة تاريخ دمشق
Damascus History Foundation
تاريخ دمشق
مجلة نصف سنوية - تخصصية محكمة
تصدر عن مؤسسة تاريخ دمشق
Dimashq, A Bi-annual peer-reviewed journal
for studies on the history of Damascus
www.dimashq.cc
العدد ١ - تموز 2021
Issue 1 - July 2021

أغراض المجلة وأهدافها

- العناية بتاريخ مدينة دمشق الذي يمتد على أكثر من عشرة آلاف عام، والتَّأريخ له.

- استدراك التقصير في الدراسات المعاصرة، وتوجيه الأنظار إلى الأحداث المهمة.

- استقصاء وجه مدينة دمشق تاريخيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعمرانيّاً وعلميّاً وفنيّاً ووثائقيّاً.

- إبراز صورة دمشق في كلِّ العصور التّاريخيّة: القديمة والعربيّة الإسلاميّة والحديثة والمعاصرة.

- تفسير الأحداث التاريخية واستقصاؤها، وبيان آثارها، على أسس علميّة منهجيّة.

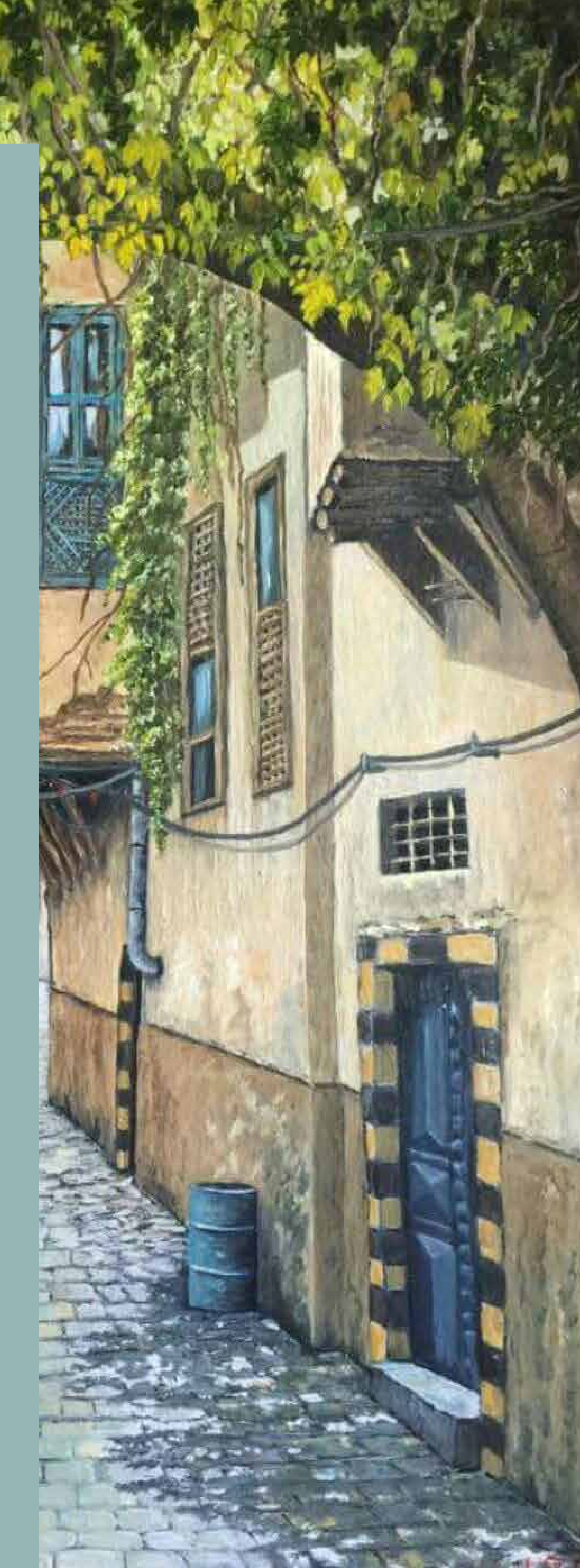
- توجيه الباحثين المعاصرين إلى الموضوعات التاريخية التي تستحقّ الدراسة، وتعزيز الانضباط العلمي والمنهجي والأصالة والجدِّيّة في كتابة البحوث، ومناقشة الظواهر التاريخية.

- إيجاد مصدر علمي ثقافي يتَّصف بالمصداقيّة، ويكون مُتاحاً أمام المهتمين بحضارة دمشق وتاريخها.

- الإفادة من خبرات الباحثين والمختصين وأساتذة الجامعات في تعميق الثقافة التاريخية، وإظهار جوانبها، وتطوير المعارف التاريخية ومناهج دراستها.

- إتاحة المجال أمام طلاّب الدِّراسات العليّا في الماجستير والدكتوراه للمشاركة بأبحاثهم ودراساتهم في المجلة.

- التعاون مع هيئات علميّة داخليّة وخارجيّة تتَّصف بالأكاديميّة والموثوقيّة والمصداقيّة.



إدارة التحرير:

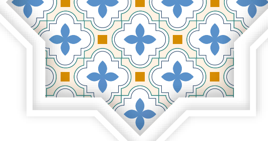
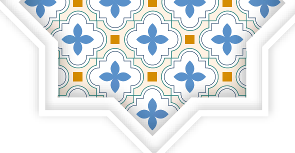
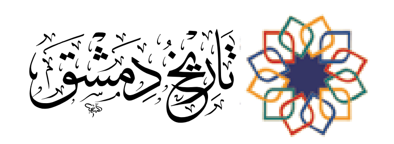
• الموقع الالكتروني: www.dimashq.cc

– تُرسل البحوث والمراسلات بإسم رئيس التحرير على أحد البريدين الالكترونيين:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org

– يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org



مؤسسـة تاريـخ دمشـق هـي مؤسسـة وطنيـة غير حكومية وغير ربحية، تُعنى بتاريـخ مدينـة دمشـق، مـن خـلال إطـلاق مشـاريع وبرامـج بغايـة الحفـاظ علـى وثائق مدينـة دمشـق وجمعهـا وتصنيفهـا، إضافـة إلى البحـث عـن حقيقـة تـراث المدينـة وتاريخهـا وأنمـاط العيـش فيهـا وإعـادة تصويـب مـا شـابها مـن أخطـاء، وحفظهـا مـن الضيـاع والاندثـار.

أشهرت المؤسسة بقرار وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ١٠٤١ تاريخ ١٨ نيسان ٢٠١٧.

أهداف المؤسسة

توثيق تاريخ مدينة دمشق وما يتعلق بها عبر العصور من خلال جمع صور وقصص وأوراق ووثائق تتعلق بتاريخ المدينة.

إقامة المعارض والمتاحف والفعاليات التوثيقية التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق، وذلك من خلال مختلف الوسائل المتاحة سوآءا كانت مادية أو الكترونية.

إطلاق برامج وجوائز سنوية تشجيعية للمؤرخين الشباب والأكاديميين، للبحث في تاريخ مدينة دمشق.

إقامة البرامج التدريبية في مجال التوثيق والأرشفة والبحث العلمي والتاريخي.

إقامة الندوات والمحاضرات والفعاليات والأنشطة المختلفة التي تعنى بتاريخ مدينة دمشق عبر العصور.

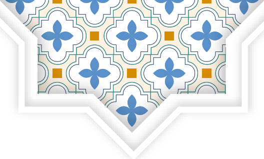
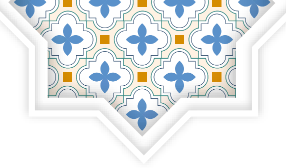
إطلاق بوابة إلكترونية تعنى بتاريخ مدينة دمشق بلغات عديدة إضافة للعربية، يتم من خلالها نشر أبحاث ومقالات تاريخية عن مدينة دمشق، ونشر صور و مواد سمعية وبصرية وأفلام وثائقية تعنى بتاريخ مدينة دمشق.

إبرام الاتفاقيات ومذكرات التعاون مع مؤسسات سورية محلية أخرى والتعاون معها ومع المؤسسات الأكاديمية المحلية المرموقة، بما يعزز تبادل الخبرات مع هذه المؤسسات وبما يسهم في استمرار تطوير عمل المؤسسة.

بناء مكتبة متكاملة تشكل أرشيفا لتاريخ مدينة دمشق تضم نسخا من كل ما نشر عن تاريخ المدينة من كتب ومجلات ودوريات وصحف ووثائق قديمة وعملات وطوابع قديمة، لتوضع في خدمة الباحثين والمجتمع.

التواصل مع المؤسسات التي تعمل في نفس المجال في الدول العربية والعالم، وابرام الاتفاقيات و مذكرات التعاون لتبادل الخبرات بما يسهم في استمرار تطور عمل المؤسسة وخبراتها البحثية.

مؤازرة المؤسسات الرسمية المعنية والمبادرات الهادفة إلى توثيق تاريخ سورية عموما أو مبادرات مماثلة لمؤسسة تاريخ دمشق تخص مدن سورية أخرى



The Damascus History Foundation is a non-governmental non-profit Syrian organization dedicated to the history of Damascus. The DHF carries out a broad spectrum of programmes aimed at collecting, classifying and preserving historical documents pertaining to the city of Damascus. In addition, DHF seeks to design and implement inclusive research projects on the history of Damascus with the aim of preserving the city's heritage and its authentic way of life.

The DHF was founded per decision #1041 of the Syrian Minister of Social Affairs and Labor on 17 April 2017.

Damascus History Foundations aims to...

Document the history of Damascus through the collection of relevant photographs, manuscripts, private papers and official documents.

Launch exhibitions, galleries and documentary initiatives on the history of Damascus through using any available sources.

Design and launch promotional programmes and awards for young historians and academics interested in working on the history of Damascus.

Design and implement training programmes in the fields of documentation, archiving and historical research methods.

Organise seminars, lectures and other activities centred on the different aspects of the history of Damascus.

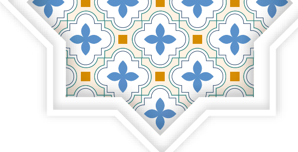
Launch an electronic platform dedicated to the history of Damascus in order to facilitate the publication of photographs, audio-visual material, academic articles and other relevant material on the history of Damascus.

Cooperate with other local Syrian organisations and academic institutions, in order to exchange knowledge and experience, to the benefit of all parties.

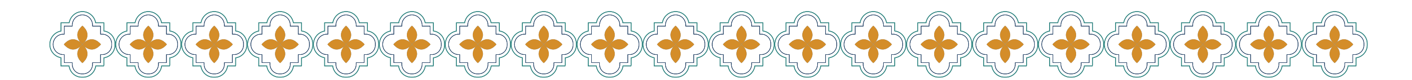
Build an inclusive library dedicated to the history of Damascus, with the aim of collecting all published works on the topic, in addition to magazines, periodicals, news papers, official documents and stamps. DHF will make these material available to researchers and students, and to the general public.

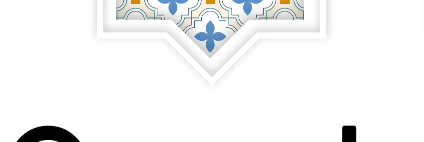
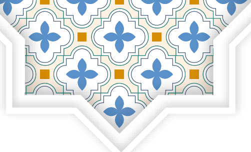
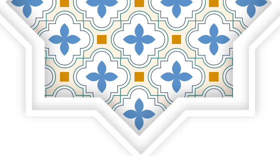
Cooperate with organisation working on similar topics across the world in order to share knowledge and experience.

Support relevant government insinuations and initiatives aimed at documenting the history of Syria and Damascus.

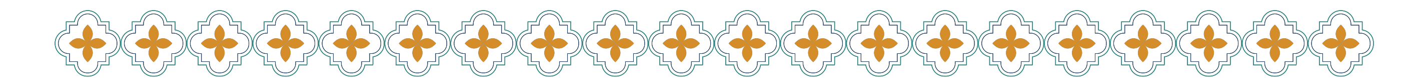



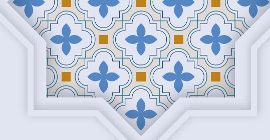
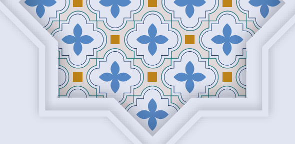
الفهرس

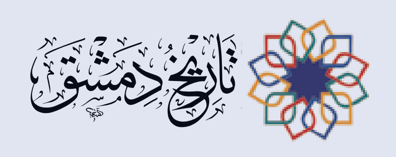


Content





تأسيس مجلَّة تاريخ دمشق

نستهلُ العددَ الأوَّل من (مجلَّة تاريخ دمشق) لنتحدَّث عن الدَّوافع والأغراض التي كانت وراء السَّعي لتأسيسها، والعمل على انطلاقها، والتي تتمثَّل في الوَفاء لمدينة دمشق، والرغبة في الإحاطة بتاريخها الطويل، والتَّطلُّع لإظهار الجوانب المشرقة في حضارتها العريقة، آملين أن تكون هذه المجلَّة مرآة تظهر فيها جوانب من النُّور الَّذي انبثق من دمشق، منذ فجر التَّاريخ، وشعَّ في أرجاء العالَم.

وتكمن أهمِّيَّة مدينة دمشق في مسيرتها التَّاريخيَّة؛ فهي ظاهرة نادرة في التَّاريخ، وليس لأيِّ مدينة في العالم أن تشابهها أو تنافسها في صفاتها الفريدة، خاصَّة أنَّها أقدم عاصمة في التَّاريخ، ومن أقدم المدن المأهولة في العالم بعد مدينة حلب، إذ أكَّدت أعمال التَّنقيب في غوطتها وفي واديها (نهر بردى) أنَّها كانت مأهولة بالسُّكان منذ عشرة آلاف عام على أقلِّ تقدير.

وورد ذكرها عند غالبيَّة الدُّول والحضارات القديمة، وأتت على ذكرها الكتابات الآراميَّة والأكَّاديَّة والحيثيَّة والبابليَّة والفينيقيَّة والرُّومانيَّة واليونانيَّة.

واختلطت في دمشق حضارات الإغريق والفرس والرُّومان مع حضارات سكَّان دمشق الأصليِّين الكنعانيِّين والآراميِّين.

وفي التاريخ العربي الإسلامي أصبحت دمشق عاصمة للدَّولة الأمويَّة (٤١ ـ ١٣٢هـ = ٦٦١ ـ ٧٤٩م)، الَّتي امتدَّت شرقاً إلى حدود الصِّين، وغرباً إلى المحيط الأطلسي، لتدخل عصرها الذَّهبي الأوَّل.

ومرَّ عليها العصر العباسي (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ = ٧٤٩ ـ ١٢٥٨م)، وحكمها خلاله عدَّة دول: الطُّولونيُّون والإخشيديُّون والحمدانيُّون والفاطميُّون والسلاجقة.

وعاشت دمشق عصرها الذَّهبي الثَّاني في العصر الزنكي (٥٢١ ـ ٦٣١هـ = ١١٢٧ ـ ١٢٣٣م).

وفي عام (٥٧٢هـ = ١١٧٦م)، انتقل صلاح الدِّين الأيُّوبي من مصر إلى دمشق فضمَّها إلى دولته.

ثم صارت تحت حكم المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ = ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)، وزهت خلاله بعصرها الذَّهبي الثَّالث.

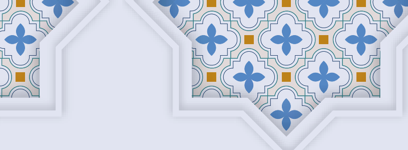
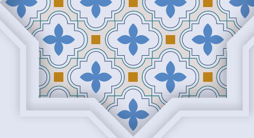
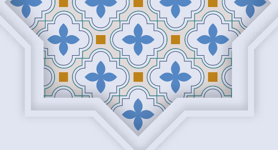
وفي عام (٩٢٢هـ = ١٥١٦م)، سيطر عليها العثمانيُّون، وأصبحت بموجب التَّقسيمات السُّلطانيَّة مركز ولاية تشمل جنوبيَّ سوريَّة الكبرى.

وفي عام (١٢٤٧هـ = ١٨٣١م) دخل إبراهيم باشا دمشق سلماً باسم والده والي مصر محمد علي باشا.

ثم شهدت دمشق منذ منتصف القرن التَّاسع عشر توسُّعاً جغرافيّاً متزايداً في مساحتها وفي عدد سكَّانها، ليصل في النِّصف الثَّاني من القرن ذاته إلى (١٤٣٠٥٧) بحسب الإحصاء الذي أورده نعمان أفندي قساطلي.

وظهرت في دمشق في أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين الأبنية السَّكنيَّة الجميلة، مثل قصر ناظم باشا في حي المهاجرين (قصر خورشيد لاحقاً)، وقصر زيوار باشا العظم في الصَّالحيَّة، وقصر عثمان باشا (قصر نوري باشا) في جادَّة العفيف الذي أصبح مقرّاً لسكن السَّفير الفرنسي ولا يزال، ودار حسن آغا البارودي في القنوات.

ولَّما انتهى الحكم العثماني في بلاد الشَّام عام (١٩١٨م = ١٣٣٧هـ) جاء بعده الحكم العربي بزعامة الأمير فيصل بن الحسين الذي نُصِّب لاحقاً ولمدَّة قصيرة ملكاً حتى عام (١٩٢٠م = ١٣٣٩هـ) قبل أن تحتلَّ فرنسا سوريَّة بعد موقعة ميسلون.


وفي ظلِّ الاحتلال الفرنسي جرت تطوُّرات كثيرة تحتاج إلى أبحاث مطوَّلة، وكذلك الأمر بعد الاستقلال وإلى يومنا هذا.

ومع عظم مدينة دمشق وتاريخها المديد، هنالك تقصير علمي وتوثيقيٌ في حقِّها، ففيها جوانب كثيرة لم تُدرَس، ودِراسات لم تُستكمل، ودراسات بحاجة إلى إعادة نظر، ودراسات متناثرة تحتاج إلى إكمال...

ومع ما يتَّصف به تاريخ دمشق من العراقة والخصوبة فلا تزال الدِّراسات عنه متفرِّقة هنا وهناك، لا يجمعها عقد واحد، فالكتب مشتَّتة عن تاريخها وأعلامها وفضائلها، وعن تاريخها السِّياسي والدِّيني والعلمي والاجتماعي والاقتصادي والإداري والعمراني والوثائقي.

وهنالك جوانب كثيرة عن هذه المدينة لم تأخذ حقَّها من البحث، وهذا الحكم يصدق على جميع الجوانب التَّاريخيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والسِّياسيَّة والعمرانية والعلميَّة والفنيَّة.

ثم إنَّ الدِّراسات الَّتي تحدَّثت عن المدن وتاريخها وخططها وتفاصيلها قليلة، بما في ذلك التَّأريخ لمدينة دمشق، قياساً على فنون التَّاريخ الأخرى الَّتي كُتب عنها مئات المؤلَّفات وربَّما الآلاف.

والمجلة التي بين أيدينا تسعى إلى التَّركيز على تاريخ دمشق، بغرض سدِّ الثَّغرات والتَّعويض عن التَّقصير في حقِّ هذه المدينة العظيمة، التي يمتدُّ تاريخها أكثر من عشرة آلاف عام.

فهذه المجلَّة ستسدُّ ثغرات واضحة في دراسات تاريخ دمشق، وتُسلِّط الضوء على أهم مزاياها التَّاريخيَّة والحضاريَّة.

ومن الضَّروري أن تكون مجلَّة مُحكَّمة؛ لضمان الجدِّيَّة والأصالة والابتكار والتنوُّع في الموضوعات والأساليب والمناهج، التي تظهر في الدراسات المنشورة.

وستكون الأولى من نوعها في العنوان وفي المضمون، والأولى بتفرُّدها التَّخصُّصي عن تاريخ مدينة دمشق.

وستتميَّز بالشُّموليَّة؛ إذ ستشتمل على كلِّ ما يتعلق بدمشق تاريخيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً وعمرانيّاً وعلميّاً وفنيّاً ووثائقيّاً.

وستعمل هذه المجلَّة على امتداد زمني يزيد على عشرة آلاف عام من عُمر هذه المدينة، وهذا يعني أنَّها ستتخصَّص بكلِّ العصور التَّاريخيَّة لدمشق: القديمة والعربيَّة الإسلاميَّة والحديثة والمعاصرة.

وستأخذ هذه المجلَّة صفةً علميَّة منهجيَّة من خلال كادرها العلمي المتخصِّص والمكوَّن من كبار علماء دمشق ومؤرِّخيها وباحثيها.

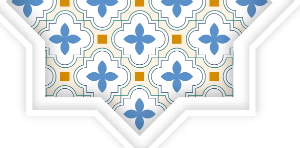
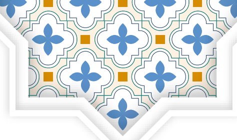
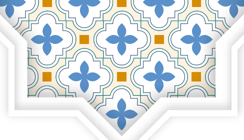
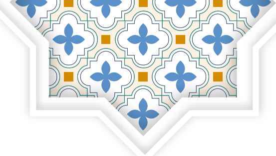
وستتعهَّد هذه المجلَّة أن تكون مضبوطة بالعلميَّة والمنهجيَّة والأصالة والجدِّيَّة من خلال استقبال الأبحاث الرَّصينة والدَّقيقة والمنهجيَّة والجديدة، المتعلِّقة بدمشق فقط.

وستعمل هذه المجلَّة على أن تكون المتنفَّس العلمي _ المُتَّصف بالمصداقيَّة _ لكلِّ المهتمِّين والمتخصِّصين والغيورين على تاريخ هذه المدينة.

فكلُّنا أمل أن يشاركنا الباحثون والمتخصِّصون والمهتمُّون هذا المشروع العلمي الاستراتيجي التَّوثيقي، وأن يعملوا معنا على إنجاحه، فهو ملك للجميع، وثماره متاحة للجميع، فالغاية أن نُشكِّل عملاً جماعيّاً يخدم هذه المدينة بكلِّ تفاصيل حياتها.

والله الموفق

المدير ورئيس التحرير




Damascus Aramaic

Morphology, name, meaning and history

Prof. Jabbagh Saifuddin Qablu



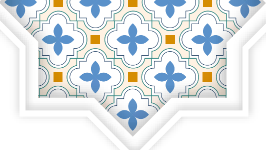
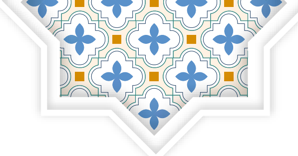


دمشق الآرامية

التشكل والاسم والمعنى والتاريخ

أ. د. جباغ سيف الدين قابلو [1]

[1] أستاذ التاريخ القديم واللغات القديمة في جامعة دمشق سابقاً، ومراكز الأبحاث في ألمانيا حالياً.

ملخص البحث

يتحدث هذا البحث عن تاريخ مدينة دمشق في عصر مملكة آرام دمشق بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق.م. (التَّشكُّل والاسم والمعنى والتَّاريخ). وقد بلغت دمشق في هذا العصر درجة من القوة مكنتها من تزعم العالم السوري - الفلسطيني في مواجهة التوسع الآشوري غربي الفرات، كما تمتَّعت دمشق خلال هذا العصر بقوة اقتصادية كبيرة نتيجة سيطرتها على جزء مهمّ من الطرق التجارية الواصلة بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط والأناضول وجنوبي بلاد الشام.

Research Summary

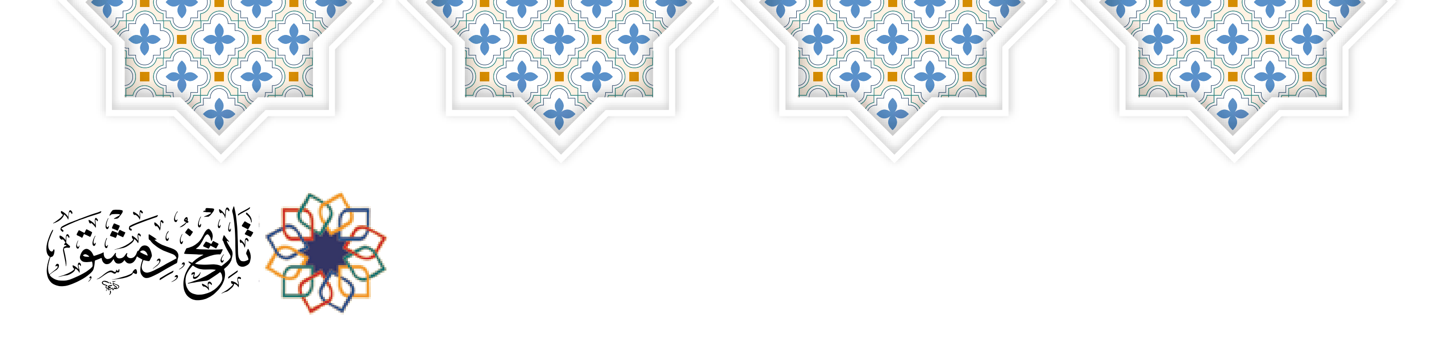
This paper discusses the history of Damascus during the Kingdom of Aram (from the late 12th century BC to 732 BC). It looks into the apex of the city's military might, facing Assyrian expansionism west of the Euphrates River. It also attained economic power, after controlling trade routes linking Mesopotamia and the coasts of the Mediterranean, Anatolia, and southern countries of Bilad al-Sham.

تمهيد:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على تاريخ مدينة دمشق في عصر مملكة آرام دمشق بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن الثامن ق.م. وقد بلغت دمشق في هذا العصر درجة من القوة مكنتها من تزعم العالم السوري - الفلسطيني في مواجهة التوسع الآشوري غربي الفرات. كما تمتَّعت دمشق خلال هذا العصر بقوة اقتصادية كبيرة نتيجة سيطرتها على جزء مهمّ من الطرق التجارية الواصلة بين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط والأناضول وجنوبي بلاد الشام، ونستدل على ذلك من كمية المعادن الكبيرة التي دفعتها دمشق أواخر أيامها كجزية للآشوريين، مع علمنا أن هذه المعادن أو أغلبها غير متوفر في مناطق سيطرتها المباشرة، وإنما حصلت عليها مما كانت تفرضه من ضرائب على القوافل التجارية التي كانت تعبر أراضيها، فتراكم من ذلك ثروات كبيرة وظَّفتها في تدعيم نفوذها على القوى المجاورة لها، وفي حشد القوى للتصدي للآشوريين.

لقد اعتمدنا في هذا البحث بالدرجة الأولى على المصادر الآشورية التي تُعَدُّ مصدراً أساسيّاً لدراسة تاريخ الآراميين في سورية، كما اعتمدنا بالدرجة الثانية على بعض النصوص الآرامية التي تُلقي الضوء على بعض جوانب تاريخ آرام دمشق، واعتمدنا أيضاً على الرواية التوراتية في حال عدم توفُّر المصدرين السابقين، وفي مجال العلاقة بين آرام دمشق وإسرائيل ويهوذا، التي تُعَدُّ الرواية التوراتية مصدرَها الوحيد.

ولكن قبل الدخول في تفاصيل دمشق الآرامية لا بدَّ أن أتوقَّف قليلاً للتعريف بالآراميين من





أقدم أبجدية آرامية

جوانب مختلفة (معنى الاسم، بداية ظهورهم في الوثائق القديمة، أماكن انتشارهم، وأهم الإمارات التي أسَّسوها).

أولاً _ الآراميون في المصادر المسمارية والمصرية:

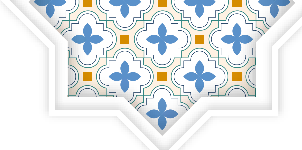
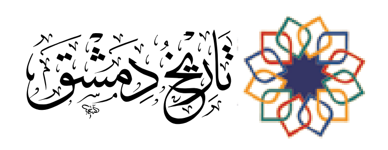
نعتمد في دراستنا للتاريخ الآرامي بمراحله المختلفة بشكل رئيس على المصادر المسمارية من بلاد الرافدين. وترفد النقوش الآرامية العائدة للألف الأول ق.م معارفنا عنهم وإن كان بشكل جزئي.

وهناك من الباحثين وخاصة الأجانب مَن يرى في نصوص العهد القديم مصدراً أساسيّاً لدراسة تاريخ الآراميين وخاصة في جنوبي سورية، ونحن نرى أن مادة العهد القديم يُمكن أن تكون مصدراً في حال عدم توفُّر المصادر الأخرى، لأن النصَّ التوراتيَّ مليء بالتناقضات من ناحية، وهو يعكس حالة العداوة التي كانت سائدة بين الآراميين، وخاصة آراميي دمشق، واليهود في فلسطين. وسنعرض فيما يلي المراحل المُبكِّرة من ذكر الآراميين، كما ورد في الوثائق المسمارية وبعض الكتابات المصرية.

يُمكننا تمييز ثلاث مراحل فيما يتعلق بذكر الآراميين في المصادر المسمارية:

تتمثَّل المرحلة الأولى بذكر الآراميين في الوثائق العائدة للألف الثالث ق.م، حيث ورد اسم «أرامو» في قائمة تتضمن أسماء بعض المواقع الجغرافية من إبلا في شمالي سورية، وهناك ذكر آخر لهذا الاسم في قائمة جغرافية أيضاً من موقع أبو الصلابيخ، وفي قائمة معجمية من مدينة أوروك (الوركاء الحالية)، وكلا هذين الموقعين في جنوبي العراق الحالي. ومع الأسف، لا تُعطينا هذه الوثائق الثلاث الإمكانية لتحديد موقع «أرامو» الذي يرد فيها ذِكرُه [٢].

[2] **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً:** علي أبو عساف، ص 11.

تبدأ الصورة بالتوضُّح أكثر في المرحلة الثَّانية، مع الكتابات العائدة للملك الأكادي نارام – سين (٢٢٦٠ – ٢٢٢٤ ق.م)، فلقد عُثر في خفاجة في جنوبي العراق على نصّ من عهد هذا الملك يذكر فيه انتصاره على «بابا حاكم سيموروم و دوبول حاكم آرامو»، ويُشير الباحثون إلى أن موقع سيموروم ربما في منطقة السليمانية الحالية شمالي العراق، وأما «أرامو» فهي تقع جنوب نهر ديالي، ربما في منطقة أشنونا (تل أسمر الحالي)(٣).

يُقدِّم لنا هذا النص أوَّلَ تحديد لموقع جغرافي يحمل اسماً على صلة بالآراميين، وهو منطقة وادي الديالى شرقي نهر دجلة، وإن كنا لا نستطيع التأكُّد من أن سكان هذا الموقع هم من الآراميين، وإن كانوا كذلك، أي هم من الآراميين، فهل هم سكان أصليون في المنطقة أم أنهم قدموا إلى هنا من مناطق أخرى ربما تكون من منطقة الجزيرة أو البادية السورية؟

ولا يختلف الأمر كثيراً مع وثائق الألف الثانية ق.م، إذ يُذكَر اسمُ «أرام، آرامو» كاسم لمدينة أو أقليم، وأحياناً كاسم علمٍ في وثائق تجارية من دريهم (بوزور – داجان القديمة في جنوبي العراق)، ومن ماري (تل الحريري في سورية)(٤).

ومن الوثائق المهمة التي يرد فيها اسم الآراميين، بعد منتصف الألف الثاني ق.م، الوثائق المصرية وهي المرحلة الثالثة، فهناك وثيقتان يرد فيهما اسم «أرام» في الوثائق المصرية، واحدة تعود لعهد الملك أمنحوتب الثالث (١٣٩١ – ١٣٥٣ ق.م)، ذُكر فيها «شخص من آرام» أي من إقليم آرام، ويرى الباحثون أن المقصود هو إقليم يقع في وسط سَورية. وأما الوثيقة الأخرى فهي ما يُعرف باسم بردية أنستاسيا الثالثة، التي تعود إلى عهد الملك مرنبتاح (١٢١٣ – ١٢٠٣ ق.م)، وتتضمَّن تقريراً من ضابط على الحدود الشرقية لدلتا النيل نحو العام ١٢١٠ ق.م، يتحدث فيه عن قدوم زميل له من بلدة أو مدينة «في منطقة آرام»(٥).

ومن الوثائق المهمة (المرحلة الثالثة) من سورية في هذه المدة أيضاً ما ورد في وثائق من أوجاريت (رأس الشمرا على الساحل السوري)، حيث تكرَّر فيها ذكر الاسم «أ ر م» في أكثر من موقع. ولكن هناك وجهتَي نظر في هذا الموضوع، تقول إحداهما إن مَا يرد في وثائق أوجاريت سواء الأبجدية أو المسمارية المقطعية ما هي إلا أسماء أعلام، لا تحمل أي دلالة عرقية أو قبلية(٦).

أما وجهة النظر الثانية فتقول إن الاسم «آرام» في نصوص أوجاريت إنما يشير إلى منطقة أو إقليم في محيط أوجاريت، وبما أننا نعلم أن الآراميين لم يُقيموا أيَّ كيان سياسيّ لهم على طول الساحل السوري، فلا بدَّ أن يكون الإقليم الآرامي الذي تُشير إليه وثائق أوجاريت يقع إلى الشرق منها، أي في سورية الداخلية، ربما في مكان ما من محافظة حماه الحالية(٧).

ونحن نرى أن الإقليم الذي يرد ذكره في نقوش أوجاريت هذه ربما كان نفسه الإقليم الذي تُشير إليه النصوص المصرية، ويقع في وسط سورية، أي في حدود محافظة حماه كما أشرنا أعلاه.

---

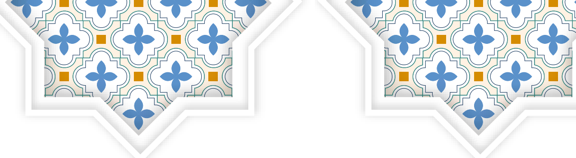
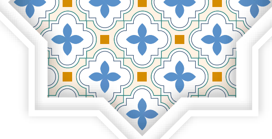
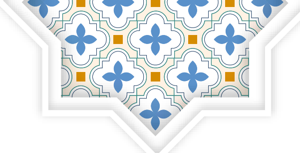
(3) **The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion.** Edward Lipinski, p 27.

(4) **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً:** علي أبو عساف ص 11، 12.

(5) **A Political History Of The Arameans:** K. Lawson Younger Jr. p35.

(6) **A Political History of Arameans:** K. Lawson Younger Jr. p 36.

(7) **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً:** علي أبو عساف ص 18.


ثانياً - الأخلامو والآراميين:

يكثر في وثائق الألف الثاني ق.م، سواء الرافدية أو المصرية، ذكر أسماء مجموعات قبلية تُوصف بأنها بدويّة؛ فمثلاً تَذكرُ النصوص الرافدية قبائل السوتو والخابيرو، في حين تَذكر النصوص المصرية قبائل الشاصو البدوية، ومن خلال سياق هذه النصوص المختلفة نلاحظ أن مكان تواجد هذه القبائل كان بشكل أساسي في المنطقة السورية، ولذلك فإن الكثير من الباحثين يرى أن هذه تسميات عامة يُقصد بها تجمعات قبلية مختلفة، ربما كان الآراميون واحداً منها[٨].

إلا أن الاسم القبلي الأكثر التصاقاً بالآراميين هو اسم قبائل الأخلامو، الذين يبدأ ذكرهم في وثائق مختلفة من بلاد الرافدين ومصر بدءاً من القرن الثامن عشر ق.م (وثائق ماري)، ويزداد هذا الذكر كلَّما تقدَّم بنا الزمن من أماكن مختلفة، فتارة نجدهم في الجنوب الرافدي (وثائق نيبور وسيبار - أمنانوم)، وتارة في منطقة الفرات الأوسط والبادية السورية ومصر (وثائق إيمار على الفرات، ووثائق تل العمارنة المصري).

ولكن الأمر الذي يهمنا في موضوعنا هذا أن ذكرهم ترافق مع ذكر الآراميين (الأخلامو الآراميين) بدءاً من عهد الملك الآشوري تيغلات بلاصَر الأول (١١١٥ – ١٠٧٦ ق.م)، الذي يحدد موقعهم في منطقة البادية السورية، ويجعل مركزهم الرئيسي عند سفوح جبل بشري إلى الشمال الشرقي من تدمر.

ولقد حرَّكت هذه التسمية المزدوجة نقاشاً بين الباحثين حول العلاقة بين هاتين المجموعتين القبليتين، فذهبوا في ذلك مذاهب شتى.

ونحن نرى أن الأخلامو كانوا جزءاً من تجمُّع قبلي كبير هو مجموع القبائل الآرامية، ولكن فرع الأخلامو هو الذي كان أكثر نشاطاً في البداية، وهو الذي احتكَّ مع الدول المجاورة للبادية السورية فبدأ ذكرهم أولاً، ولكن ومع توسع نشاط المجموعة ككل بدأ يذكر الاسم الجامع (الآراميين) ليحل محل الاسم الفرعي (الأخلامو)[٩].

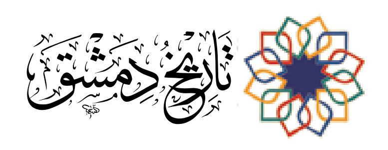
إذن أول ذكر واضح للآراميين، كتجمُّع قبلي كبير، يعود إلى عهد هذا العاهل الآشوري، الذي اضطرَّ إلى خوض صراع طويل معهم ومهاجمتهم في مواطنهم الأصلية في البادية السورية، لإبعاد خطرهم ومنعهم من مهاجمة حدود بلاده.

وقد ترك لنا تيغلات بلاصر الأول عدداً كبيراً من النصوص التي تتحدَّث عن حروبه هذه، وكمثال على ذلك نذكر النص الآتي: ثمانياً وعشرين مرةً عبرتُ نهر الفرات، باتجاه بلاد الحثِّيّين، خلف الأخلامو الآراميين، مرتين في كل عام. من سفوح (جبال) لبنان، تدمر في أمورو، عناة في سوحي، حتى رابيقو في كاردونياش (بابل)، أنجزتُ أنا القضاء عليهم، غنائمهم وثرواتهم، أنا نقلتُ إلى مدينتي آشور» [١٠].

وتنبع أهمية هذا النص والنصوص المشابهة له من عهد تيغلات بلاصر الأول في أنه يُحدِّد

[8] **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً:** علي أبو عساف ص 14، 15.
[9] **الأخلامو في وثائق الشرق القديم:** جباغ قابلو، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق العدد المزدوج 123، 124 العام 2013، الصفحات 112 – 131.
[10] **(Assyrian Rulers of the early First Millennium BC, 1 (1114 – 859):** A. Kirk Grayson P. 37 – 38. (RIMA2.





لنا مناطق انتشار الأخلامو الآراميين قرب نهاية الألف الثاني ق.م، ومطلع الألف الأول ق.م، وهي المنطقة الواقعة في جبال لبنان غرباً حتى الفرات شرقاً إلى رابيقو (منطقة الفلوجة في العراق) جنوباً. ومن هذه المنطقة كانت هذه القبائل تتوغَّل في عمق بلاد الرافدين جنوباً، أو تُهاجم حدودَ الدولة الآشورية، كما كانت تُشكِّل تهديداً كبيراً للطرق التجارية الواصلة بين بلاد الرافدين وشواطئ البحر المتوسط، أو بين بلاد الرافدين وآسيا الصغرى.

بعد عهد تيغلات بلاصر الأول يغيب تقريباً ذكر الآراميين من النصوص الآشورية، لما يقرب من قرن من الزمن، ولابد أن الضعف الذي أصاب الدولة الآشورية في هذه المدة الزمنية، وتوقُّف حروبها الخارجية، وتقوقُعَها ضمن حدودها التاريخية، كان السبب الرئيس وراء غياب ذكر الآراميين عن هذه النصوص.

مع عودة ذكر الآراميين في الوثائق الآشورية في عهد الملك حدد – نيراري الثاني (٩١١ –٨٩١ق.م) نرى أن الآراميين قد انتقلوا من مرحلة العيش كبدو متنقلين يغيرون على حدود الدولة الآشورية ويُهدِّدون الطرق التجارية، إلى مرحلة تأسيس الدول، التي اتَّخذت ما يُمكن أن نُسمِّيَه شكل دويلات المدن، أي أن الدولة تتألف من مركز رئيسي هو العاصمة مع ما يحيط بها من أرياف.

ويبقى المسار الذي أدَّى إلى تشكيل الآراميين لدولهم غير واضح بالنسبة للباحثين، ولكن يمكن القول بأن التغيُّر في الوضع الدولي في منطقة الشرق القديم كان له دور مهمٌّ في تمكُّن الآراميين من الانتقال من البداوة إلى التمدن وتأسيس الدول، فزوال القوة الكبرى التي كانت تسيطر على أجزاء من سورية أو ضعفها فتح المجال أمام هذا التحوُّل في حياة الآراميِّين.

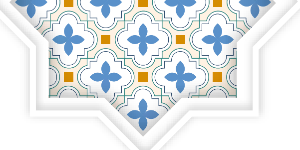
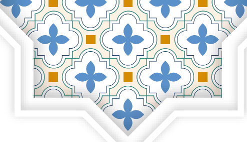
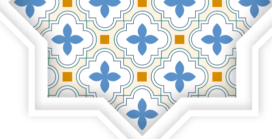
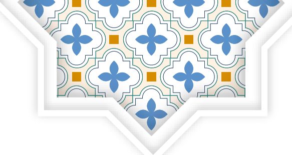
ويتلخَّص هذا التغيُّر بزوال الإمبراطورية الحثِّية من المسرح السياسي للشرق القديم، نتيجة هجوم شعوب البحر، وقيام مجموعة من الإمارات الصغيرة على أنقاضها، سواء في وسط وجنوبي آسيا الصغرى أو في الشمال السوري، ومن المعلوم أن الإمبراطورية الحثِّية كانت تُخضع شمالَ سورية ووسطَها لسيطرتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وأما مصر التي كانت تُسيطر على الأجزاء الجنوبية من سورية فقد انشغلت بالدفاع عن حدودها في وجه شعوب البحر أنفسهم التي أسقطت الإمبراطورية الحثية، فشعوب البحر هاجمت مصر أواخر الألف الثاني ق.م، وتحديداً في عهد كلٍّ من مرنبتاح (١٢١٣ – ١٢٠٣ ق.م)، ورمسيس الثالث (١١٨٦ – ١١٥٥ ق.م). أما الآشوريون الذين هاجموا الأخلامو الآراميين في عقر دارهم، في البادية السورية وجوارها، فقد أصاب دولتَهم الضَّعف بعد عهد تيغلات بلاصر الأول، فلم يعد بمقدورهم القيام بالدور الذي كانوا يقومون به فيما مضى في سورية[١١].

وتسمح لنا النصوص الآشورية العائدة لملوك الإمبراطورية الآشورية الحديثة (٩١١ – ٦١٠ ق.م)، وخاصة الأوائل منهم، بالتعرف على خارطة توزُّع الدويلات الآرامية في سورية وفي جنوبي بلاد الرافدين. ففي سورية كانت أهم الدويلات الآرامية هي بيت بحياني (تل حلف في محافظة

---

[١١] **عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم (حتى أواخر القرن الثامن ق.م):** محمد حرب فرزات، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١٩ – ٢٠ العام ١٩٨٥، ص ١٧٠ وما بعدها.



الحسكة)، وبيت زماني (في منطقة ديار بكر الحالية)، ونَصيبين وبيت عديني (تل أحمر على الفرات)، وبيت آجوشي (تل رفعت في محافظة حلب)، وشمأل (على سفوح الأمانوس عند منابع نهر قره صو في تركيا الحالية)، وحماه ودمشق، إلى جانب بعض الإمارات الصغيرة في حوران والبقاع والجولان مثل صوبه وبيت رحوب وجيشور وآرام معكه وغيرها.

وما يلفت الانتباه أن هذه الدول سُمِّيت في المصادر الآشورية بطريقتين: إما «بيت كذا»، فعندما نقول بيت عديني مثلاً، فـ«عديني» ربما كان هو زعيم القبيلة الآرامية التي أسَّست هذه الدولة الآرامية، أو ربما كان هو الجد الأول لهذه القبيلة الآرامية، ويُقاس ذلك على باقي الدول التي سُمِّيت بهذا الأسلوب.





اللغة الآرامية

وأما الطريقة التي سُمِّيت بها الدول الآرامية في المصادر الآشورية فكانت ذكرَ اسم الدولة نسبة لأراضيها، مثل: حماه ودمشق، فهذه لم تُنسب للقبيلة الآرامية التي أسَّستها أو لشيخها[١٢].

وفي الحقيقة لا يوجد تفسير وضاح لهذه الظاهرة، ولكن ربما كان تفسير ذلك يكمن في حال كون الدولة الآرامية الجديدة قد قامت في مكان مركز حضاري كبير سابق، فإنها نُسبت إلى هذا المركز كدمشق وحماه، وأما إذا كان مركزها حديثاً كليّاً أو نسبياً فتُنسَب إلى القبيلة التي أسَّستها أو لزعيم هذه القبيلة (بيت عديني، بيت بخياني... الخ)[١٣].

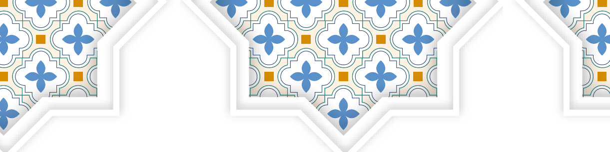
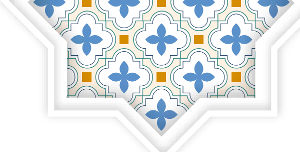
ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه لم تكن هناك حدود واضحة بين مجموعة الدول الآرامية هذه، أو بينها وبين غيرها من الدول التي كانت قائمة في المنطقة السورية بشكل عام، وهذا فسح المجال لقيام منازعات وحروب بين هذه الدول[١٤].

والأمر الآخر الذي لا بدَّ من الإشارة إليه هو أن الدول الآرامية، رغم انتمائها العرقي الواحد ولغتها الواحدة، فإنها لم تتمكَّن من التوحُّد في ظل دولة واحدة، تستطيع من خلالها مواجهة التحدّيات والمخاطر، وخاصة الخطر الآشوري الذي شكل خطراً وجودياً بالنسبة لها، وكان أكثر

(12) - History: Helene Sader. In: **The Aramaeans in Ancient Syria**. P. 23 – 24.

(13) - **العلاقات بين الدولة الآشورية ودول المدن الآرامية في شمال سورية حتى منتصف القرن التاسع ق. م:** جباغ قابلو (رسالة دكتوراة غير منشورة باللغة الروسية) تبيليسي، ص 65، 66.

(14) - History: Helen Sader. In: Thhe Aramaeans in Ancient Syria. P 26.

ما تمكّنَت من تحقيقه هو تشكيل بعض التحالفات فيما بينها عندما يشتدُ خطرٌ ما لمواجهته، وسرعان ما يَنفكُ عقد هذا التحالف مع نهاية هذا الخطر، وهذا ما سهل على الآشوريين القضاء على هذه الدول الواحدة تلو الأخرى بعد أن كان يتخلَّى عنها الحلفاء[١٥].

واللافت للانتباه أن دمشق الآرامية كانت هي مَن وقف على رأس أغلب التحالفات، التي جمعت الدول الآرامية وغيرها من الدول السورية، للوقوف في وجه الآشوريين، أو للوقوف في وجه أي دولة سورية تحاول خرق «الحالة الراهنة» للوضع السوري.

ثالثاً _ مملكة دمشق الآرامية (آرام دمشق)، الطبيعة والاسم والمعنى:

تُعَدُ دمشقُ أهمَّ الدول التي أسَّسها الآراميون سواء في سورية أو في بلاد الرافدين، وكانت لها الزعامة على باقي الدول السورية – الآرامية خلال قرن من الزمان. وقبل الدخول في تفاصيل دمشق الآرامية نتوقف قليلاً لنُبيِّن الوضعَ الطبيعي الذي أتاح لدمشق شغل هذه المكانة العالية.

١ _ طبيعة دمشق ودورها في صناعة مكانتها:

لقد توافرَ لدمشقَ ومحيطها كلُّ الشروط المناسبة للاستيطان البشري في العالم القديم، فالظروف مهيّأة لقيام زراعة واَسعة النطاق من حيث توفُّر الأراضي الزراعية المناسبة والأمطار الكافية، إضافة لوجود مجرى مائي دائم يسمح بري مساحات واسعة من الأراضي داخل المدينة وفي محيطها. كما أن الأمطار التي تهطل في منطقة دمشق تكفي لقيام نشاط رعوي واسع يُغطّي الحاجة من الأصواف اللازمة لقيام صناعة نسيج متطورة[١٦].

وأما العامل الثاني الذي ساعد في ازدهار دمشق وغناها فهو موقعها الجغرافي على الطرق التجارية الواصلة بين الأناضول والجنوب السوري من ناحية وبين بلاد الرافدين وسواحل البحر المتوسط ومصر من ناحية أخرى. وهناك دلائل كثيرة على الغنى الذي حصلت عليه دمشق من موقعها التجاري سنعرض لها في حينه.

٢ _ اسم دمشق في الوثائق القديمة:

وننتقل الآن للحديث عن ورود اسم دمشق في الوثائق القديمة، ومحاولة تفسير معنى هذا الاسم.

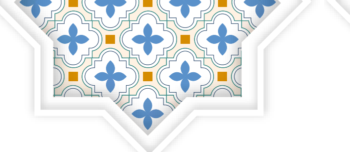
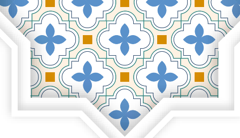
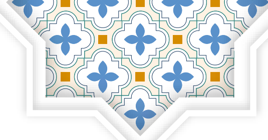
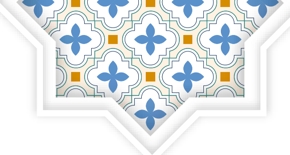
عُرفت منطقة دمشق (ولا نقصد المدينة هنا) في مصادر الدولة الآشورية القديمة، وفي رسائل العمارنة من مصر (القرن الرابع عشر ق.م) باسم بلاد « آبوم، آب، آبو»، وهذه كلمة أكّادية تَعني القصب، أي أن هذه البلاد تُسمَّى بلاد القصب، ومن المعروف أن القصب ينمو في المناطق التي تتوفَّر فيها كميات كبيرة من المياه، وهذا يدل على أن منطقة دمشق كانت غنية بمواردها المائية.

وإذا ما عُدنا إلى النصوص التي يَرِد فيها هذا الاسم، للدلالة على منطقة دمشق، نجد مثلاً

---

(15) - العلاقات بين الدولة الآشورية ودول المدن الآرامية في شمال سورية حتى منتصف القرن التاسع ق. م: جباغ قابلو، ص 126.

(16) الأقاليم الجغرافية السورية: عادل عبد السلام، ص 355 وما بعدها

في أرشيف ماري (النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م) رسالةً أرسلها أحد قادة ملك آشور شمشي أدد الأول (١٨١٠ – ١٧٨٠ ق.م)، الذي كان يقود حملة عسكرية في مناطق بلاد أبوم، يُشير فيها إلى أنه وصل إلى منطقة حدارا (ربما عدرا القريبة من دمشق)، ولكنه يعجز عن التقدُّم أكثر بسبب كثافة القصب. وأما في الوثائق المصرية فيرد ذكر بلاد أبوم في الرسالة ٥٣ من رسائل العمارنة، وهي الرسالة التي وجهها أكيزي ملك قطنا (تل المشرفة الحالية بالقرب من حمص) إلى ملك مصر أمنحتب الرابع (١٣٥٢ – ١٣٣٦ ق.م)[١٧].

أما أوَّلُ ذكر لاسم دمشق فيأتينا من النصوص المصرية، إذ ذُكر الاسم بصيغة (ت م س ق) على جدران معبدَ الكرنك ضمن القائمة التي تضمَّنت أسماء المدن التي غزاها الملك المصري تحوتمس الثالث (١٤٦٨ – ١٤٣٦ ق.م)، في عام حكمه الثالث والثلاثين[١٨].

والتهجئة نفسها للاسم تَرد في نصٍّ يَعود لعهد الملك أمنحوتب الثالث (١٣٩١ – ١٣٥٣ ق.م)[١٩].

ويَرد الاسمُ في أربع رسائل من رسائل العمارنة بصيغة مشابهة تقريباً للصيغة الحالية للاسم: ففي الرسالة رقم ٥٣ يرد الاسم بصيغة تي – ما – اش - قي، وفي الرسالة ١٠٧ يرد الاسم بصيغة دي – ماش - قا، وفي الرسالة رقم ١٩٧ ترد الصيغة دو – ما – اش - قا، وفي الرسالة ٢٩٧ وهي مرسلة من كامد اللوز إلى مصر، وتُعَدُّ من رسائل العمارنة، كُتب اسم دمشق فيه بصيغة تا – ما – اش - قا، وتجب الإشارة هنا إلى أن نهاية الاسم هي نهاية إعرابية ولا علاقة لها بأصل الاسم[٢٠].

إذن وثائق العمارنة تُشير إلى البلاد باسم «أب، آبو»، وإلى عاصمة هذه البلاد باسم دمشق.

وإذا ما انتقلنا إلى العهد القديم فنرى أنه يذكر المدينة بأكثر من موقع بصيغ قريبة من الاسم الحالي للمدينة، وإن كان بتشكيل مختلف لبداية الاسم، فمرّة يكتب دَمَشق وأحياناً دُمشق، ولكن ما يلفت الانتباه في العهد القديم ذكرُه لاسم المدينة بصيغة دارمسق[٢١].

وأما النصوص الآشورية فتُشير إلى المدينة باسمها كما هو، أي: دمشق، وفي أحيان أخرى تُشير إليها باسم: شا إم ريشو.

وأخيراً يَرد الاسمُ دمشقُ في نقش السفيرة الآرامي بنفس صيغته الحالية.

مما سبَق نرى أن اسم دمشق يرد في نصوص مختلفة من سورية ومصر وبلاد الرافدين، منذ منتصف الألف الثاني ق.م، بصيغة لا تكاد تختلف عن الاسم الحالي للمدينة، وينحصر الخلاف أنه في بعض الأحيان يُستبدَل حرف الدال في بداية الاسم بحرف التاء.

ونُشير أخيراً إلى أنه ورد في بعض النقوش _ الآشورية أو الآرامية _ تسمية آرام للتعبير عن مملكة دمشق الآرامية، وليس عن المدينة تحديداً، وربما كان ذلك تعبيراً عن أهمية آرام دمشق وتفوقها، من حيث القوة العسكرية والاقتصادية، على باقي الإمارات الآرامية التي كانت قائمة في المنطقة السورية، وأصبح من المتعارف عليه في الأوساط العلمية أنه عندما يرد في النقوش القديمة

---

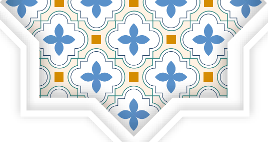
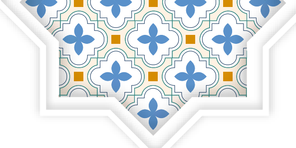
(17) **مراسلات العمارنة الدولية، وثائق مسمارية من القرن 14 ق.م:** فاروق اسماعيل. الرسالة 53.

(18) **المصادر القديمة في تاريخ دمشق:** علي أبو عساف، مجلة دراسات تاريخية العدددان 41 – 42 العام 1992 ص 66.

(19) **Ancient Damascus: Wayne Pitard. p 7 :-**.

(20) **أخبار دمشق وبلاد أُب في مراسلات العمارنة:** فاروق اسماعيل، الحوليات الأثرية العربية السورية. المجلدان 45 – 46، العام 2002 - 2003 ص 66.

(21) **المصادر القديمة في تاريخ دمشق:** علي أبو عساف ص 66.

اسم آرام دون أن يكون مُلحَقاً به اسمٌ آخر فيكون المقصود هو آرام دمشق. وكمثال على ذلك نورد ما ورد في نقش زكور ملك حماه ولعش: «فوحد ضدي برهدد بن حزائيل ملك آرام ستة عشر ملكاً (هم) برهدد وجيشه ...»[٢٢].

٣_ معنى اسم دمشق:

ونحاول الآن أن نُلقي نظرة حول معنى الاسم دمشق، ففي الحقيقة لا يوجد اتِّفاق بين الباحثين حول أصل الاسم ومعناه. ففيما مضى كان هناك شبه اتِّفاق بين الباحثين على أن الاسم ذو أصل ساميّ، ويمكن أن نجد له معنى من خلال البيئة العامة للمدينة ومحيطها.

فمن الباحثين من يرى أن الدال في بداية الاسم هي اختصار لكلمة «دار»، وأما «مسق» فهو اسم مفعول من الفعل سقى المشترك ما بين لغات المشرق العربي القديم، والذي يحمل المعنى نفسه للفعل بالعربية، وبالتالي يصبح معنى الاسم: الدار المَسقيّة.

وهناك معنى آخر للاسم يقترب من المعنى الأول، ولكنه ينطلقَ من أن الدال في بداية الاسم إنما تشير إلى الاسم: ذو أو ذات، بالإضافة إلى مشق (ويُراعَى هنا إمكانية التبادل بين الشين والسين) والتي هي من الفعل «سقى»، ومن ثم يصبح المعنى: «ذات السقاية أو ذات السقي».

وهنا يمكن أن نجد تفسيراً آخر للاسم إذا كانت الميم في الاسم مُشدَّدة كما ترد في العهد القديم (أخبار الأيام الثاني)، فيُصبح معنى كلمة مسق / مشق: التربة الكلسية أو الغضارية بالمقارنة مع اللغة العربية، فالمشق في اللغة العربية تعني التربة الغضارية، وبالتالي يصبح معنى اسم دمشق «ذات التربة الكلسية أو الغضارية»[٢٣].

وكما أشرنا أعلاه فإن هذه التفسيرات تنطلق من ملاحظة البيئة الطبيعية للمدينة، من حيث وفرة مياهها وطبيعة تربتها.

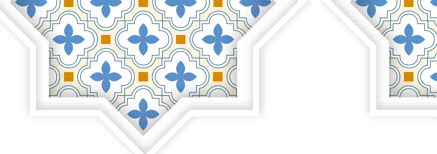
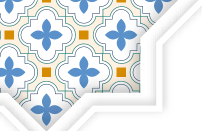
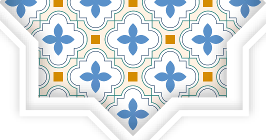
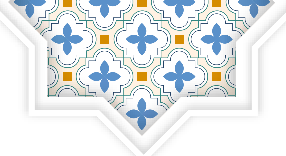
وأما عن تفسير الاسم كما ورد في بعض أسفار العهد القديم «دار مسق»، فقد اقتُرح أن الاسم مركب من اسم المكان «دار» والاسم «مش» الذي هو _ كما يقول أصحاب هذا الرأي _ اختصار لاسم إله الشمس « شمش » ، وقد أُلحق حرف القاف في نهاية الاسم بدلاً من المقطع «كي» الذي يُشير في اللغة الأكّادية عادةً إلى أن الاسم المعني هو اسم مكان جغرافي[٢٤].

ونحن لا نميل إلى هذا الرأي، لأن مدينة دمشق لم تكن معروفة كمركز من مراكز عبادة إله الشمس، والآراميون عامة كانوا يَعُدُّون إله الطقس « حدد أو أدد » هو معبودهم الرئيس.

ولكن عند الحديث عن أصل الاسم ومعناه، لا بد من الإشارة إلى اتجاه آخر في البحث في هذه القضية، يرى أن التفسيرات التي انطلقت من أن الاسم ساميُّ الأصل لم تُعط تفسيرات مقنعة لمعنى الاسم، وهي تُركِّز بشكل أساسي على عدم وجود تفسير واضح لوجود حرفَ الدال في بداية الاسم، الذي فُسر كما رأينا أعلاه بوجوه مختلفة تنطلق كلها من قواعد لغات المشرق العربي القديم، مع

---

(22) **اللغة الآرامية القديمة:** فاروق اسماعيل، ص 211.
(23) **اللغة الآرامية القديمة:** فاروق اسماعيل ص 66، 67.
(24) **المصادر القديمة في تاريخ دمشق:** علي أبو عساف دراسات تاريخية العددان 41 – 42 العام 1992. ص 67.


مقارنته باللغة العربية، ولذلك يرى بعضٌ من أصحاب هذا الرأي وجوبَ البحث عن أصل اسم دمشق خارج إطار لغات المشرق العربي القديم، دون أن يُحدِّدوا الإطار الذي يجب البحث فيه[٢٥].

وأخيراً _ فيما يخص اسم المدينة وتفسيره _ لا بد من الوقوف عند الاسم الذي يرد في بعض نصوص الإمبراطورية الآشورية الحديثة ألا وهو: شا – إمري – شو، أو كما يُقرأ أيضاً شا - حمير – شو.

وأما عن معنى هذه التسمية فقد طُرحت فرضيات عديدة، ولكنها في معظمها تنطلق من مبدأ أن الكاتب الآشوري وقع في خطأ أثناء الكتابة، فعوضاً من أن يكتب دمشق، كتب الاسم بالشكل الذي أوردناه قبل قليل، ولكن هذه التفسيرات لاقت رفضاً من قبل أغلبية الباحثين، لأنه من غير المعقول أن يُخطئَ كاتب في القصر الآشوري بكتابة نص ملكي، وخاصة عندما يكون الأمر متعلّقاً باسم مدينة معروفة، تُعَدُّ من خصوم الآشوريين الرئيسيِّين في هذه المرحلة من تاريخهم.

وما يذهب إليه معظم الباحثين اليوم هو أن الكتابة صحيحة، ومعناها «بلاد الحمير، أو كما ترد أحياناً بلاد حميره». أما عن تفسير سبب تسمية الآشوريِّين المدينةَ بهذا الاسم، فلا شك أنه ينبع من موقع دمشق التجاري ودورها في تجارة العالم القديم، فمن المعلوم أنه كانت هناك عدة طرق تجارية تنطلق من مواقع مختلفة من نهر الفرات، حاملة بضائع بلاد الرافدين نحو شواطئ البحر المتوسط أو الجنوب السوري، وكانت الطريق التي تتَّجه إلى الجنوب السوري تصل أولاً إلى تدمر فقطنة (المشرفة حاليا ً)، ومنها نازالا (القريتين حالياً)، ومن ثَمَّ تنحدر جنوباً نحو دمشق، ومنها تُتابع الطريق إلى غزة عبر أعالي وادي الأردن فمصر.

وفيما يتعلَّق بالطرق المتجهة من الأناضول جنوباً، فإنها تستخدم الممرات الطبيعية كسهل العمق وسهل الغاب وصولاً إلى دمشق لتتَّحد مع الطريق القادمة من بلاد الرافدين وتتابع معها نحو الجنوب.

كما أن الطريق القادمة من جنوبي الجزيرة العربية كانت تتفرَّع بعد وصولها إلى شمالي الجزيرة العربية إلى عدة طرق، يتَّجه واحد منها إلى دمشق ويُتابع نحو بلاد الرافدين أو شمالي سورية فالأناضول.

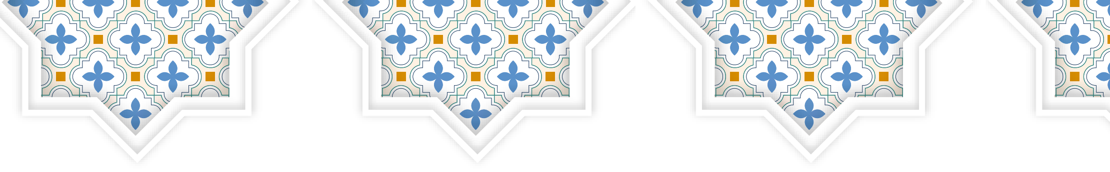
ونشير هنا إلى أن الحمير كانت واسطة النقل الرئيسة في هذه التجارة، قبل تدجين الجمل وحلوله محل الحمار في هذا الدور، وكانت دمشق بحاجة لأعداد كبيرة من الحمير لتُغطّي حاجات تجارتها الواسعة، ومن هنا كانت أعدادها كبيرة في المدينة ومحيطها، وهذا جعل الآشوريين يطلقون عليها هذا الاسم[٢٦].

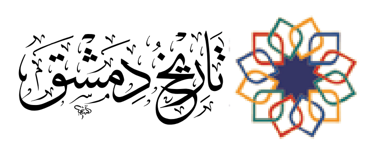
رابعاً _ تاريخ دمشق في عصرها الآرامي:

بعد أن استعرضنا أسماء دمشق كما وردت في مصادر مختلفة وبيَّنا معنى الاسم، سنحاول الآن استعراض تاريخ المدينة في عصرها الآرامي، وذلك من خلال نقاطٍ عدة أهمها المصادر التي

[25] Ancient Damascus: Wayne Pitard, P 7 – 8.

[26] **دمشق في النصف الأول من الألف الأول ق.م عوامل اقتصادية وسياسية:** جباغ قابلو، مجلة مهد الحضارات، العدد 13 -14 ص 41.





نعتمدها عند دراستنا تاريخ دمشق الآرامية، ونشوء هذه المملكة وتوسعها، وعلاقتها مع مختلف الدول التي كانت في محيطها، ونهايتها على يد العدو التاريخي للآراميين ألا وهو الآشوريون.

١_ مصادر دراسة دمشق الآرامية:

للأسف، فإننا نفتقد عند دراستنا لتاريخ دمشق في عهودها القديمة للمصادر المحلية، أي وثائق ونصوص ومعطيات أثرية من المدينة نفسها أو محيطها القريب، فالمدينة، وبسبب تواصل السكن فيها منذ ما لا يقل عن أربعة آلاف عام، لم تجر فيها أعمال تنقيب أثرية مُوسَّعة تُقدِّم لنا معطيات مهمة عن تاريخها، سواء أكانت هذه المعطيات مادية (أي بقايا أبنية أو لقى مما كان يستعمله الناس في حياتهم اليومية)، أو كتابية يمكن أن تُلقي الضوء على تاريخ المدينة من وجهة نظر أهلها، وليس من وجهة نظر أعدائها كما هو الحال حاليّاً عندما ندرس تاريخ المدينة، وكما سيمر معنا بعد قليل.

المصدر الأول الذي يرد فيه ذكر لدمشق هو العهد القديم، الذي يتحدث عن بداية تأسيس ملكة آرام دمشق، ويُفصِّل فيما بعد في الحوادث التي جرت بين ملوك آرام دمشق وملوك كلٍّ من إسرائيل ويهوذا.

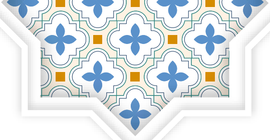
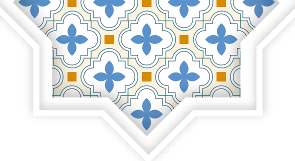
ولكن وكما أشرنا أعلاه فإن هذا المصدر يجب التعامل معه بحذر شديد، فهو مليء بالتناقضات، ويتناول الأحداث بعمومية، فعندما يتحدَّث عن الحروب بين الطرفين فإنه في الأغلب لا يذكر سبباً واضحاً للحرب، ولا يُحدِّد مكانها أو وقتها بدقة، وكم كان عدد القوات، وكم كانت الخسائر، ويربط نتائج هذه الحروب دوماً بغضب الإله أو رضاه عن ملوكهم، فعندما يُهزمون فإن ذلك عائد إلى أن هؤلاء الملوك أذنبوا بحق الرب، وإذا ما انتصروا على ملوك آرام دمشق فذلك ناتج عن رضا الرب عن ملوكهم لأنهم أحسنوا بعين الرب.

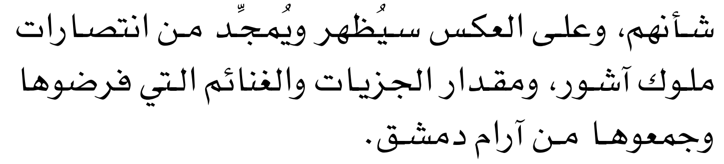
لذلك نقول إن هذا المصدر يُمكن أن يُستأنس به في حال انعدام المصادر الأخرى الأكثر مصداقية منه.

وأما المصدر المهم الثاني، الذي يُعتمد عليه في دراسة تاريخ آرام دمشق، فهو المصادر الآشورية، فمن المعلوم أن حرباً استمرت قرابة قرن من الزمان جرت بين الآشوريين وآراميي دمشق، وإن كانت على أوقات متقطعة، وأن آرام دمشق تزعَّمت الإمارات السورية الآرامية وغير الآرامية (الفينيقية والحثية الجديدة وإسرائيل)، في أكثر من مواجهة مع الآشوريين، الذين كانوا يحاولون فرض سيطرتهم على مناطق غرب الفرات.

ولقد ترك لنا الملوك الآشوريون المختلفون من عهد شلمناصر الثالث (٨٥٩ -–٨٢٤ ق.م) وحتى سقوط دمشق على يد الملك تيغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ -–٧٢٧ ق.م) مجموعة كبيرة من النصوص التي تتحدث عن هذه الحروب.

وهذه النصوص لا تختلف كثيراً من حيث الشكل عن نصوص العهد القديم، من ناحية أن كاتبها يُمثِّل وجهة النظر المعادية للآراميين، وبالتالي فإنه سيُخفي كلَّ ما من شأنه أن يُعلي من



شأنهم، وعلى العكس سيُظهر ويُمجِّد من انتصارات ملوك آشور، ومقدار الجزيات والغنائم التي فرضوها وجمعوها من آرام دمشق.

ولكن النصوص الآشورية بالمقابل تختلف عن نصوص العهد القديم، من حيث أنها تُقدِّم تفصيلات للحروب التي جرت بين الطرفين، بحيث تتشكل لدينا صورة واضحة تقريباً عن هذه الحروب؛ فمثلاً عند الحديث عن معركة قرقر يذكر الملك الآشوري مسار رحلته حتى وصوله إلى المكان الذي جرت فيه المعركة، ويذكر القوى التي واجهها، وكان على رأسها ملك آرام دمشق وحلفاؤه الستة عشر، كما يذكر مقدار القوات التي قدَّمها كل واحد من هؤلاء الحلفاء في هذه المعركة الحاسمة، فالنص هنا يُقدِّم صورة حيّة عن هذه المعركة، وإن كان يبالغ في نتيجتها كما سيمرُّ معنا، كما تُفيدنا النصوص الآشورية في التعرف على المناطق التي كانت خاضعة لحكم ملوك دمشق، ومدى توسُّع نفوذهم، وهذا ما لا نجده في أيٍّ من المصادر الأخرى.

وأما المصدر الثالث، الذي نعتمده في دراسة تاريخ دمشق الآرامية، فهو النصوص الآرامية، وبحوزتنا بعض النقوش الآرامية التي تلقي ضوءاً، ولو بسيطاً، على جزء من تاريخ المدينة، وهذه النقوش جاءتنا في معظمها من خارج دمشق، ويعود بعضها لملوك دمشق الآراميين، وبعضُها يُذكر فيه اسم بعض هؤلاء الملوك، وإن كان النقش يعود لملوك من خارج آرام دمشق.

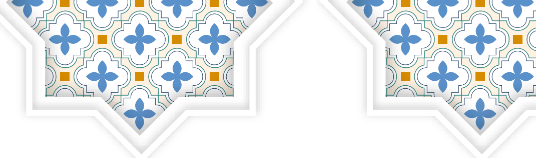
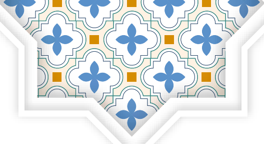
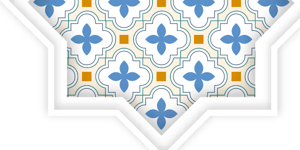
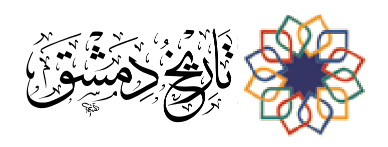


صورة الإله حدد

٢_ حدود آرام دمشق والمناطق التابعة لها:

في الحقيقة، لا نستطيع إعطاء تصوُّر واضح عن حدود آرام دمشق واتِّساع نطاقها، فالمصادر لا تُسعفنا بذلك، ولكن النصوص الآشورية تُعطينا تصوُّراً عامّاً عنها وعن أهم مدنها، وسنحاول فيما يلي إلقاء الضوء على هذا الجانب من تاريخ آرام دمشق.

مما لا شكَّ فيه أن بدايات آرام دمشق كانت تقتصر على المدينة، والبلدات القريبة منها التابعة

لها التي تقع في إطار ما نسميه اليوم «الغوطة والمرج»، وهي في ذلك لا تختلف عن باقي دول المدن الآرامية التي قامت على أساس مدينة مع المناطق الزراعية المحيطة بها.

ولكن آرام دمشق ما لبثت أن بدأت بالتوسُّع في اتجاهات محدَّدة: نحو الجنوب (مناطق حوران والجولان وشرقي الأردن)، ونحن نعلم أنه كانت توجد هنا مجموعة من الدويلات الآرامية الصغيرة مثل بيت رحوب، التي توضَّعت بين نهري الزرقاء في الجنوب واليرموك في الشمال، وقبيلة طوب التي انتشرت إلى الشرق من بيت رحوب، وهناك جيشور في الحولة والجولان وعلى جانبي نهر الأردن، وصوبه التي كانت أقوى هذه الإمارات والقبائل في منطقة البقاع الغربي، ومعكة التي توضَّعت على سفوح جبل الشيخ الجنوبية والغربية وفي البقاع الجنوبي، ونحو الشمال الشرقي[٢٧].

وربما كان الهدف من التوسُّع في هذا الاتجاه تأمين جزء من الطريق التجاري القادم من الشمال، الذي تحدثنا عنه آنفاً، ووضعه تحت سيطرة آرام دمشق.

ويبدو أن مدينتي يبرود وحوارين الواقعتين إلى الشمال من دمشق، كانتا نقطتين مُهمّتَين على الحدود الشمالية لدمشق الآرامية، ولكن بالمقابل فإن وجود مملكة حماة الآرامية شمالي دمشق لا بدَّ من أن يكون قد حدَّ من توسُّع دمشق في هذا الاتجاه[٢٨].

وأما التوسُّع نحو الغرب، أي نحو البقاع الغربي فلا بدَّ أنه تمَّ في مرحلة لاحقة من تاريخ دمشق الآرامية.

ولا بد من القول في هذا المجال أن حدود آرام دمشق ومناطق سيطرتها اختلفت خلال مراحل تاريخها المختلفة، ولكن يبدو أنها بلغت أقصى اتِّساع لها في عهد ملكها حزائيل، الذي حكم في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م.

وكما قلنا أعلاه فإن نصوص الملوك الآشوريين تأتي على ذكر بعض المدن، التي كانت تتبع لآرام دمشق، ولو لم تكن لهذه المدن أهمية لَما ورد ذكرها في هذه النصوص.

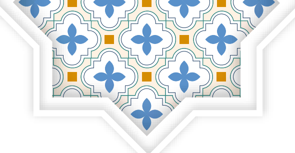
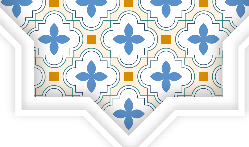
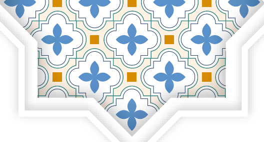
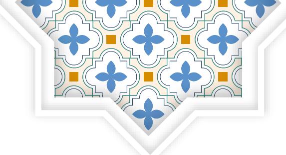
إن أول ذكر لأحد ملوك دمشق يأتينا من عهد الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م)، وذلك في النصوص التي وضعها تخليداً لذكرى معركة قرقر، التي وقعت في العام السادس من حكمه، وواجَه فيها تحالُفَ الإمارات السورية برئاسة حاكمَي دمشق وحماة، ورغم أن شلمناصر الثالث ادَّعى انتصاره في هذه المعركة، إلا أنه لم يتابع طريقه جنوباً وعاد أدراجه إلى عاصمته، وبالتالي فلا يوجد أي ذكر لمدن تتبع لآرام دمشق في النصوص التي وُضعت لتخليد ذكرى هذه المعركة، لأن الجيوش الآشورية لم تصل بالأصل إلى حدود آرام دمشق.

أما أول ذكر لمدن تتبع لآرام دمشق فتعود إلى حملات شلمناصر الثالث ضدَّ آرام دمشق في العامين (٨٣٨ و٨٣٧ ق.م)، ويقول شلمناصر الثالث في أخبار هذه الحملات إنه واجه جيش حزائيل ملك آرام دمشق عند جبل «سنيرو»، وأنه ألحق الهزيمة به، فتراجع حزائيل إلى عاصمته دمشق متحصناً فيها، على حين تابع هو حملته نحو جبل حوران، ويذكر في أثناء ذلك تدميره مدينتي

---

[27] **المصادر القديمة في تاريخ دمشق:** علي أبو عساف، ص73.

[28] **A Political History Of The Arameans:** K. Lawson Younger Jr, P 557.

«دانابو ومالاخو»[٢٩]، وقد تعددت الآراء بخصوص تحديد هذه المواقع الثلاثة.

ففيما يتعلق بجبل «سنير» كان يُنظر إليه فيما مضى على أنه جبل الشيخ، ولكن طُرحت شكوك كثيرة حول صحة هذا الافتراض، وتعلَّقت الحجّة الأساسية لهذه الشكوك، بتصرف حزائيل ملك آرام دمشق، فهل من المعقول أن يحشد جيشه عند سفوح جبل الشيخ ويترك عاصمته دون أي حماية، خصوصاً أن طريق حملة شلمناصر الثالث لا يمكن أن يكون من الجنوب (حيث يقع جبل الشيخ بالنسبة لدمشق)، والأرجح أن الحملة كانت إما قادمة من الشمال أو من الغرب من سهل البقاع، لذلك كان الاقتراح البديل عن جبل الشيخ هو جبل الزبداني.

وأما فيما يتعلَّق بمدينة «دانابو» فلا يوجد رأي نهائيٍّ حول موقعها، إذ اقترح البعض أنها ربما تكون صيدنايا إلى الشمال من دمشق، واقترح آخرون أنها ربما تكون إحدى المدن التي كانت معروفة في العصور القديمة بين إزرع والشيخ مسكين. ويرى أبو عساف أنها الدنيبة / الذنيبة بجوار إزرع من ناحيتها الجنوبية الغربية[٣٠]. في حين يرى طرف ثالث أن المعطيات التي بين أيدينا حتى الآن لا تسمح بتحديد مُقنع لهذا الموقع لذلك لا بد من الانتظار حتى تتوفَّر معطياتٌ أخرى تسمح بإعطاء جواب أكثر دقة عن هذا الموضوع[٣١].

وأما المدينة الثانية التي يذكرها النص فهي مدينة «ما لاخو أو مالاحا» التي تُوصف بأنها مدينة ملكية لحزائيل، وفيها معبد للإله «شرا»، وهذا يعني أنها مدينة كبيرة، وربما كانت المدينة الثانية في مملكة آرام دمشق. وتوجد هنا أيضاً اقتراحات عدة من الباحثين لتحديد الموقع الحالي لهذه المدينة، وكل المقترحات في هذا الصدَّد تنطلق من البحث عن موقع موجود حاليّاً يحمل اسماً قريباً من الاسم القديم، وتتوفَّر فيه شروط تتطابق مع وصف المدينة بأنها مدينة ملكية، أي كبيرة ومحصنة، وفيها معبد للإله «شرا»، وكان من المقترحات التي قُدمت في هذا المجال قرية المليحة الواقعة في الغوطة الشرقية على بعد بضعة كيلومترات من دمشق. وهناك أيضاً بعض القرى في محافظة درعا تحمل أسماء يدخل فيها الجذر «م ل ح»، مثل: «ملح العطش وملح الشرقية وملح الغربية»، ولكن هذه الاقتراحات كلَّها لم تلقَ القبول من الباحثين، لأن هذه المواقع كلَّها لا تتوفَّر فيها المواصفات المطلوبة لتكون مدينة ملكية لحزائيل ملك آرام دمشق، حيث لم يُعثَر فيها على آثار تعود لتلك المدة الزمنية.

وتقترح هيلين صادر أن يكون الموقع هو موقع قرية «صافية ملاح» بالقرب من صلخد، حيث توجد هنا أطلال تعود لما قبل العصر الهلنستي[٣٢]. ويُوافق علي أبو عساف على هذا الرأي مؤكداً أنه كان هنا معبد للربّ شرا في العصر النبطي، وتمتَّعت بأهمية في العصر الروماني، ولكنه يُسمِّيها قرية «ملح»، ويقول إنها تقع إلى الشرق من مدينة صلخد على أطراف البادية[٣٣].

وقد عدَّ بعضُ الباحثين أن هذا الموقع بعيد جداً إلى الشرق، وأنه يجب البحث عن موقع

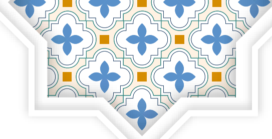
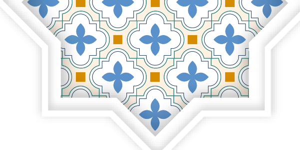
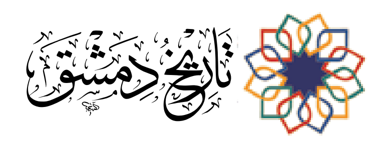
(29) **Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745):** A. KIRK Grayson. P 59.

(30) **المصادر القديمة في تاريخ دمشق:** علي أبو عساف، ص 78

(31) **The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion:** Edward Lipinski. P 352.

(32) **Le Eetats Arameens de Syrie:** Helen Sader, P 266.

(33) **المصادر القديمة في تاريخ دمشق:** علي أبو عساف ص 77.

«ملاخو» في منطقة إلى الجنوب من بصر الحرير، تحتوي في أسمائها على الجذر «م ل ح»[٣٤].

ونشير أخيراً في هذا المجال إلى رأي ليبينسكي الذي اقترح أن يكون موقع «ملاخو» هو موقع حاصور (تل القدح حاليّاً)، الواقعة جنوب غربي بحيرة الحولة وشمال بحيرة طبرية، وينطلق ليبينسكي في رأيه من أن حاصور كانت تشكل أهمية استراتيجية بالنسبة لآرام دمشق، فهي تقع عند تقاطع الطريق الشمالي الجنوبي المؤدي إلى وادي البقاع والطريق المؤدي إلى دمشق الذي يعبر نهر الأردن عند نقطة العبور الوحيدة الممكنة أسفل بحيرة الحولة، التي تم تحديدها اليوم عند جسر بنات يعقوب. ومن ناحية أخرى يفترض ليبينسكي أن مالاخا (خو) هو الاسم الآرامي المبكر لحاصور، وأنها تحتوي على آثار تعود إلى القرن التاسع ق.م، تجعل منها مدينة ملكية، وأن هذه الآثار يجب أن تُنسب إلى حزائيل ملك آرام دمشق، وليس إلى آخاب التوراتي[٣٥].

ونحن نميل إلى الأخذ برأي ليبينسكي في هذا المجال، خصوصاً أن هذه المناطق مثّلت المجال الجغرافي الذي جرت فيه حروب حزائيل التوسعية، التي وصلت به إلى شمالي فلسطين.

ومن المناطق التي توسَّعت إليها آرام دمشق في هذه المدة، أي مدة الملك الآشوري شلمناصر الثالث وملك آرام دمشق، التي نستقي أخبارها من العهد القديم: منطقة راموت – جلعاد. وقد اقتُرحت ثلاثة أماكن معاصرة لتكون موقع راموت – جلعاد القديمة: تل الرميت / رُميت، تل الحصن، والرمثا. ولكن المواقع الثلاثة لم تُعطِ دلائل حاسمة على أنها راموت – جلعاد القديمة، وإن كانت الكفة تميل لصالح الرمثا الواقعة علىَ بعد ١٥ كم إلى الشرق من إربد في الأردن الحالي[٣٦].

ومن المدن الأخرى التي تُذكر في النصوص وتُصوَّر على نحت بارز يعود لعهد الملك الآشوري تيغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م): عشتروت، وهناك إجماع بين الباحثين على أن موقع تل العشارة الحالي، الواقع على بعد ١٠ كم إلى الشرق من الشيخ مسكين في محافظة درعا، هو موقع «عشتروت» القديمة[٣٧].

ولدينا مصدر آخر من الممكن الاستئناس به عندما نريد معرفة مناطق سيطرة آرام دمشق، وإن كان بصورة غير مباشرة، ونقصد بذلك نصوص الملك الآشوري تيغلات بلاصر الثالث، فمن المعلوم أن هذا الملك هو من كان قد أنهى الوجود السياسي لآرام دمشق، بعد سلسلة من الحملات خاضها ضدَّها بين العامين ٧٣٨ – ٧٣٢ ق. م، إذ يقول تيغلات بلاصر الثالث في إحدى الكتابات المتعلِّقة بهذا الشأن: «حاصرتُ واستوليتُ على مدينة (حدارا)، موطن أجداد رحيانو من بلاد دمشق، المكان الذي وُلد فيه. حملتُ ٨٠٠ شخص مع ممتلكاتهم وثيرانهم وغنمهم وماعزهم. نقلتُ ٧٥٠ أسيراً من مدينتي كوروصا و ساmaيا، بالإضافة إلى ٥٥٠ أسيراً من مدينة ميتونا. مثل التل بعد الطوفان، دمَّرتُ ٥٩١ مدينة من مناطق بلاد دمشق الستة عشر»[٣٨].

ويُفيدنا هذا النص في التعرُّف من ناحية على مدن أخرى كانت تتبع لآرام دمشق، وهي مدن

---

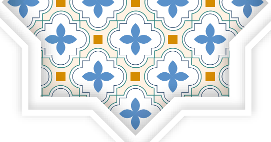
[34] **A Political History Of The Arameans:** K. Lawson Younger Jr. P 560.

[35] **The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion:** Edward Lipinski. P 350 -351.

[36] **The Boundary between the Aramaean Kingdom of Damascus and the Kingdom of Irael:** - Lemair, Andre In: Aramaean Borders. Founding Editor M.H.E. Weippert. P 253.

[37] **The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion:** Edward Lipinski. P 365.

[38] - The Royal Inscriptions of Tiglath-pileser III (744 – 727 BC), and Shalmaneser V (726 – 722 BC) , Kings of Assyria P 59.



حدارا و كوروصا وساماليا وميتونا، ومن ناحية أخرى يُخبرنا النصُ بأن آرام دمشق كانت مقسَّمة إلى ستَّ عشرة مقاطعة، وإن كان لا يُخبرنا بأسماء هذه المقاطعات.

وأما فيما يتعلق بموقع هذه المدن الأربع، التي وردت في هذا النص، فباستثناء حدارا التي هناك شبه إجماع بين الباحثين على أنها مدينة عدرا الواقعة على بعد نحو ٢٥ كم في الشمال الشرقي من مدينة دمشق، وكما يُفيد النصُ فهذه المدينة كانت موطن رحيانو آخر ملوك آرام دمشق، فإن المدن الثلاث الأخرى لا يوجد تحديد مُؤكَّد لها حتى الآن، وأغلب الفرضيات تضعها في مناطق الجنوب السوري أو الأردن الحالي[٣٩].

٣_ تاريخ آرام دمشق:

كنا قد أشرنا آنفاً إلى أن الأخبار الأولى عن آرام دمشق تأتينا من العهد القديم، ففي سفر صموئيل الثاني الإصحاح الثامن (٣-٨) يرد: «وتغلَّب داود على هدد عزر بن رحوب ملك صوبه، الذي كان ذاهباً ليسترد سلطته على نهر الفرات، وأخذ منه ألفاً وسبعمئة فارس وعشرين ألفاً من المشاة، وقطع مفاصل أرجل خيل جميع المركبات، وأبقى منها ما يكفي لمئة مركبة، فجاء الآراميون من دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبه، فقتل منهم اثنين وعشرين ألف رجل، وأقام حكماً عليهم ...» (صموئيل الثاني، ٨).

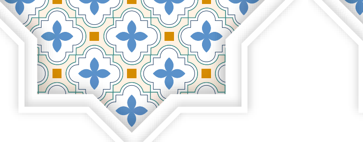
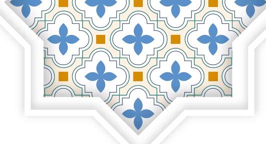
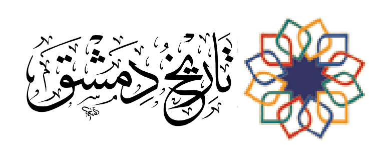
والحقيقة أن هذا المقطع من النص يطرح علينا تساؤلات عديدة، لا نجد إجابات واضحة عليها، أولها الخلط بين صوبه ورحوب، فهول يقول: إن هدد عزر ملك صوبه كان ابن رحوب. ومن المعلوم أن رحوب كانت لهم إمارة مستقلة عن صوبه، مع إمكانية أن تكون تابعة لها، وإن كان بطريقة غير مباشرة، أو أن هدد عزر كان من رحوب، وتمكَّن من جمع الإمارتين رحوب وصوبه تحت سلطته. والأمر الثاني ما ذكره النص أن داود تغلَّب على هدد عزر عندما كان عند الفرات يسترد سلطته هناك، فإذا أخذنا هذا النص بحرفيته فهذا يعني أن داود لم يَهزم هدد عزر، لأنه لم يكن موجوداً في صوبه أصلاً، وإنما بعيداً عنها مئات الكيلومترات. ويبدو أن غياب هدد عزر عن صوبه هو الذي دفع بآراميي دمشق للتوجُّه إليها لنجدتها.

ولكن يبقى من غير الواضح بالنسبة لنا أمران اثنان هنا: أولهما العلاقة بين صوبه ودمشق، أي هل كانت دمشق بالفعل تتبع لصوبه؟ وثانيهما هل كانت منطقة الفرات تتبع بالفعل لصوبه؟ ومَن هي الجهة التي نازعتها سلطتها هناك؟

من جهتنا نقول إن دمشق ربما كانت تتبع لصوبه، ولكننا نشكُّ في أن منطقة الفرات كانت تتبع لها، وذلك لبعد المسافة بين المنطقتين وفاصل البادية بينهما، فلو كانت بالفعل منطقة الفرات تتبع لها، لكانت صوبه بمثابة مملكة كبيرة جداًّ بمفاهيم تلك الأيام، ولكان لها قوة وسلطان أكبر من الذي نعرفه عنها. ويمكن القول بأن هدد عزر لم يكن موجوداً فيها عند مهاجمتها من قبل داود، ولكن ليس في منطقة الفرات.

وأما عن استيلاء داود على دمشق فلا يوجد سوى هذا الخبر المقتطع، أي أنه انتصر على القوة

(39) - **The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion:** Edward Lipinski P 364.

التي هبَّت لنجدة صوبه، وعيَّن ولاة على دمشق وفرض عليها الجزية دون أي تفاصيل حول المكان الذي هَزم فيه هذه القوة، ومَن كان في دمشق حين تغلب عليها؟ وهذا ما يرد في سفر صموئيل الأول عن العلاقة بين داود وآرام صوبه وآراميي دمشق.

أما سفر الملوك الأول فيُورد خبراً يتعلَّق بقيام مملكة آرام المستقلة، ولكن المستقلة عمَّن؟ فسفر صموئيل يذكر، كما أوردنا قبل قليل، أن داود احتلَّ دمشق وأقام فيها حاكماً وفرض الجزية عليها وعلى سائر الآراميين، ولكن سفر الملوك يقول إن رزون بن أليداع فرَّ من عند سيده هدد عزر ملك صوبه وأقام له حكماً في دمشق، وهذا التناقض في الرواية لا نستطيع إيجاد تفسير له، سوى أن داود ربما انتصر على آرام صوبه عندما كان هدد عزر عند الفرات، وربما في هذه المدة أيضاً استطاع احتلال دمشق لغياب ملكها مع قواته عنها بعيداً عند الفرات، ولكنه عندما عاد إلى منطقته استطاع استعادة أملاكه من داود، وبرأينا فإن هذا هو التفسير الوحيد الذي يُمكن أن يجعل الروايتين مقبولتين.

أما كيف تطورت الأحداث بعد داود، فسفر الملوك الأول (الإصحاح ١١؛ ٦ – ٨) يذكر أن سليمان بن داود عصى الله، أو كما يقول «فعل الشَّرَّ أمام عيني الربّ، ولم يتبع الرب بكل قلبه مثل داود أبيه»، فقرَّر الربُّ معاقبته وتسليط الأعداء عليه، وكان من بين هؤلاء الأعداء رزون بن أليداع، وأثار الربُّ خصماً آخر لسليمان هو رزون بن أليداع، وكان هرب من عند مولاه هدد عازر ملك صوبه، فجمع إليه رجالاً وصار رئيس غزاة عندما كان داود يُدمِّر صوبه، فذهبوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا فيها، وكان خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان. (الملوك الأول ١١ : ٢٣ –٢٥).

٤- رزون حاكم دمشق:

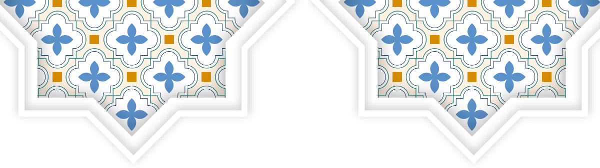
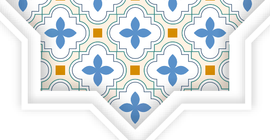
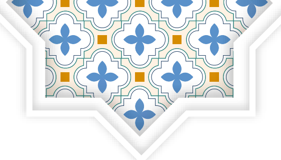
يُبيِّن لنا النصُّ الذي أوردناه أعلاه أن رزون استغلَّ هزيمة هدد عزر ملك صوبه أمام داود (نستذكر هنا ما ورد أعلاه من أن داود لم يُقابِل هدد عزر)، لينتقل إلى دمشق هو وجماعة من أنصاره ويُؤسِّس له مُلكاً في دمشق.

إذا أخذنا هذه الرواية بعين الاعتبار يكون رزون هو الملك المؤسِّس لآرام دمشق، ولكن نستطيع القول بأنه كان في الأصل في دمشق التي كانت تتبع لصوبه، ومن ثَمَّ استقلَّ عنها وأسَّس ملكاً خاصّاً به، ومعه انتقل مركز الثقل الآرامي جنوبي سورية من صوبه إلى دمشق.

وإذا كان رزون معاصراً لأواخر أيام داود، وعاصر حكم سليمان، فهذا يعني أنه حكم دمشق نحو منتصف القرن العاشر ق.م.

وأما عن تتمّة السُلالة الحاكمة في هذا الوقت في دمشق فيُفيدنا في ذلك مقطع آخر من السفر نفسه، أي سفر الملوك الأول الذي يرد فيه أن آسا ملك يهوذا جمعَ كلَّ ما لديه من ذهب وفضة وبعث بها إلى «بنهدد بن طبريمون بن حزيون ملك آرام الساكن في دمشق، وقال له: ليكن بيني وبينك عهد، كما كان بين أبي وأبيك، وهذا الذهب والفضة هدية مني إليك، فانقُضْ عهدَك مع بعشا ملك إسرائيل فينصرف عني». (ملوك أول ١٥ : ١٨ – ٢٠).

يُقدِّم لنا هذا المقطع من سفر الملوك الأول سلسلة من ثلاثة ملوك، من ملوك آرام دمشق، وهم:



الآرامية

بن هدد، والذي يُعرف في الآرامية باسم «برهدد» أي ابن هدد، وهدد هو إله العاصفة والطقس عند الآراميين.

والملك الثاني هو «طبريمون»، بالآرامية «طب رامان»، بمعنى الخير، هو الإله رامان، ورامان هو صفة للإله هدد الآرامي.

والثالث هو «حزيون»، وربما هذا الاسم مشتق من الفعل الآرامي «حزا»، بمعنى «رأى».

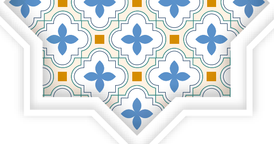
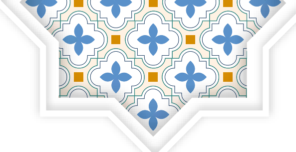
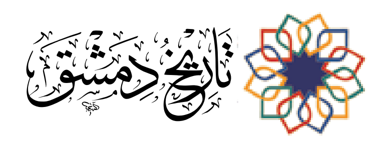
ولكن ما استوقف الباحثين، في هذه السلسلة، العلاقة بين حزيون ورزون: فهل حزيون هو ابن رزون؟ وإذا كان كذلك فلماذا لم يُتابع النصُّ السِّلسلةَ ويقول حزيون بن رزون (وهنا تقف السلسلة لأن رزون حسب رواية سفر الملوك الأول هو مؤسِّس الأسرة الحاكمة في دمشق).

وهنا ذهب الباحثون مذاهب شتى:

فمنهم من قال إنه لا داعي لذكر السلسلة كلِّها، وأن حزيون هو بالفعل ابن رزون.

والبعض الآخر ذهب إلى أن حزيون ورزون هما شخصية واحدة باسمين مختلفين، ونحن لا نميل إلى هذا الرأي لسبب رئيس وهو أنه من غير المعقول أن يُذكر ملك باسمين مختلفين في السفر نفسه من أسفار العهد القديم.

ومنهم من قال إن رزون هو بالفعل كان استقلَّ بدمشق عن صوبه، وأسَّس فيها مُلكاً خاصّاً،

ولكن حزيون جلس على العرش من بعده، ولم يكن ابناً له، وهو الجدُ للأسرة التي حكمت دمشق خلال العقود التالية[٤٠].

والحقيقة لا توجد لدينا أي معلومات عن طبريمون وحزيون من أي مصدر كان، وحتى برهدد (الأول) تقتصر معلوماتنا عنه في النص الذي أوردناه أعلاه من سفر الملوك الأول، الذي يُفيدنا في أن دمشق في عهده بلغت درجة من القوة دفعت بآسا ملك يهوذا لطلب مساعدته العسكرية ضدَّ خصمه بعشا ملك إسرائيل، وهو في سبيل إقناع برهدد بهذا الطلب قدَّم له كل ما يملكُ من ذهب وفضة هديةً، وبالفعل لبَّى برهدد طلب آسا، وتوجَّه بقواته ضد بعشا وألحق به هزيمة كبرى.

أما الأمر الآخر الذي رُبط لمدة طويلة مع هذا الملك، فهو النقش الآرامي الذي عُثر عليه في البريج شمالي حلب في عام ١٩٣٠م، وحسب القراءة الأولى للنقش، التي سادت لمدة طويلة، واستندت إلى ترميم مكان اسم واضع النقش، فإن برهدد أقام نصباً للإله ملقارت في هذا المكان[٤١]. وقد استُدلَّ من ذلك أن دمشق في عهده كانت ذات نفوذ كبير (سواء كان هذا النفوذ مباشراً أم غير مباشر)، حتى تمكَّن ملكُها من أن يُقيم نصباً له هناك. ولكن القراءة الجديدة للنص التي قام بها الباحث الأمريكي بيتارد في العام ١٩٨٥م، أكَّدت أن لا علاقة لبرهدد الدمشقي بالنقش، وأن النقش يعود إلى حاكم لم يكن معروفاً فيما مضى، اسمُه برهدد بن عتر همك، وأنه كان حاكماً في منطقة حلب، وربما كان من السلالة نفسها التي حكمت في أرفاد، أي سلالة آجوشي[٤٢].

وأما عن المدة التي حكم فيها هؤلاء الملوك الثلاثة فنستنتج من رواية سفر الملوك الأول أن برهدد (الأول) قد اعتلى العرش عند مطلع القرن التاسع ق.م. وبالتالي فإن والده طبريمون وجدَّه حزيون يكونان قد حكما في النصف الثاني من القرن العاشر ق.م، بعد رزون الملك المؤسِّس للأسرة الحاكمة[٤٣].

٥ـ برهدد الثاني (النصف الأول من القرن التاسع ق.م):

تولَّى عرش دمشق، بعد برهدد الأول، ابنُه برهدد الثاني، الذي نتعرَّف عليه من خلال النصوص الآشورية، إلى جانب نصوص العهد القديم، وسنتوقَّف أولاً عند النصوص الآشورية.

يَتبيَّن لنا من خلال النصوص التي تركها لنا الملك الآشوري شلمناصر الثالث (٨٥٩ – ٨٢٤ ق.م)، المتعلقة بمعركة قرقر التي جرت في العام السادس من حكمه، أن برهدد الثاني كان الحاكم الأقوى في المنطقة السورية الفلسطينية بأكملها، وأنه حاول جمع مختلف القوى، التي كانت موجودة في هذه المنطقة، للوقوف في وجه التوسُّع الآشوري في المنطقة السورية.

لقد أمر شلمناصر الثالث بوضع مجموعة كبيرة من الكتابات المتعلقة بمعركة قرقر، كان بعضها مختصراً والبعض الآخر مُطوَّلاً.

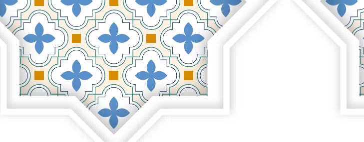
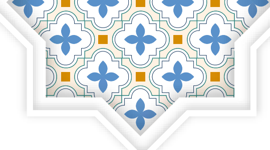
---

(40) **Ancient Damascus::** Wayne Pitard. Pp 100 ,.
pp. 100 , وما بعدها

(41) حول هذا النقش انظر: **اللغة الآرامية القديمة:** فاروق إسماعيل، ص155.

(42) **اللغة الآرامية القديمة:** فاروق اسماعيل، ص158.

(43) **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً:** علي أبو عساف، ص62.

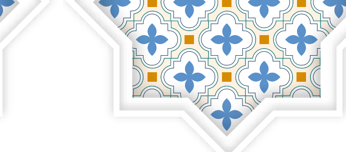
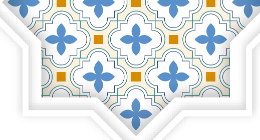
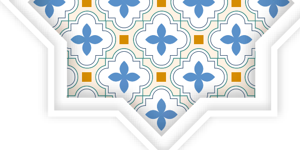
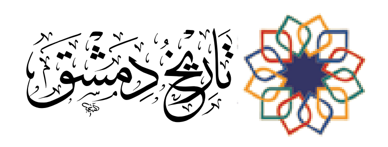





الممالك الآرامية

ونُورد فيما يأتي أحدَ هذه النصوص: «خرجتُ من مدينة خلمان (حلب)، احتلَّيتُ مدن أرخوليني الملكية بارغا وأرغانا، أخذتُ معي ثرواته وغنائمه ومتاع قصوره، قصوره أسلمتُها للنيران. توجَّهتُ من أرغانا إلى مدينة قرقر، اقتربتُ أنا مدينة قرقر، مدينته الملكية، مدينتُه الملكية دَمَّرتُ وأسلمتُ للنيران؛ ١٢٠٠ عربة حربية، ١٢٠٠ فارس، ٢٠ ألف جندي تابعين لحدد إيدري (برهدد)، ملك بلاد الحمير (أي دمشق)، ٧٠٠ عربة حربية، ٧٠٠ فارس، ١٠ آلاف جندي تابعين لإرخوليني (ملك) حماة؛ ٢٠٠ عربة حربية، ألف جندي تابعين لآخاب (ملك) إسرائيل؛ ٥٠٠ جندي من جوبلا (جبيل)؛ ألف جندي من بلاد عرقاتا؛ ٢٠٠ جندي تابعين لماتي بعل (ملك) أرواد؛ ٢٠٠ جندي من بلاد أوسناتا؛ ٣٠ عربة حربية وألف جندي تابعين لأدون بعل (ملك) سيانو، ألف جمال (هجانة) تابعين لجندب شيخ العرب، ألف جندي تابعين لبعسا بن (عشيرة رحوب) ملك بلاد العمونيين...؛ هؤلاء الملوك الاثنا عشر جاء بهم كحلفاء له...»[٤٤].

ويُبيِّن لنا هذا النص مكانة وزعامة دمشق على باقي الدول السورية الفلسطينية، وقد أهَّل دمشق لهذه الزعامة حجمُ القوة العسكرية التي قدمتها لهذا التحالف، فهي قدمت لوحدها أكثر مما قدَّمَه باقي الحلفاء مجتمعين، كما أن وضع اسم برهدد (الذي يُسمَّى في النص حدد – إيدري)

(44) Babylonian and Assyrian Historical text: A.L. Oppenheim. In: Ancient near Eastern Text. James Pritchard. P, 278 – 279.

على رأس قائمة المتحالفين يُؤكِّد زعامة دمشق عليهم، ومع أن المعركة جرت على أراضي حماة إلا أن اسمَ حاكم دمشق سبق اسمَ حاكم حماه.

وأما عن نتائج هذه المعركة، فرغم أن شلمناصر الثالث ادعى الانتصار فيها، إلا أن الواقع ربما كان غير ذلك، فشلمناصر يقول إن المتحالفين فرُّوا من أمامه، إلا أنه لم يلاحقهم، وعاد أدراجه إلى عاصمته، فلو كان بالفعل انتصر كما يدَّعي للاحَقَ على الأقل دمشقَ زعيمة المتحالفين ضدَّه. والأمر الآخر الذي ربما يؤكد عدم تحقيق النصر في هذه المعركة، أنه لم يعُد إلى سورية إلا بعد سنوات، ربما قضاها في التجهيز لحملة تكون حاسمة.

وأما عن أخبار العهد القديم فيما يتعلَّق بالعلاقة بين برهدد الثاني وكلاً من إسرائيل ويهوذا، فسفر الملوك الأول يقصُّ علينا أخبار حروب جرت بين الطرفين. ويبدو أن شرارة الحرب انطلقت بعد أن طالب برهدد الثاني آخاب ملك إسرائيل بتسليمه كلَّ ثرواته ونسائه وأفضل أبنائه (ملوك ١؛ ٢٠ : ١ – ٣)، وبعد أن وافق آخاب على هذا الطلب في البداية عاد وتراجع عن ذلك بتحريض من أحد الأنبياء، فما كان من برهدد الثاني إلا أن جمع جيشه وجيوش حلفائه وفرض الحصار على السامرة، ولكن وحسب رواية سفر الملوك فإن هذا الجيش فشل في اقتحام المدينة، وعلى العكس من ذلك تعرَّض لهزيمة كبيرة، وانتهت هذه المرحلة من الحرب (ملوك أول ٢٠ : ١٦ – ٣٤).

وأما المرحلة الثانية من الحرب فجرت بعد ثلاث سنوات من هذه الأحداث. وحسب رواية سفر الملوك الأول فإن ملك إسرائيل آخاب اتَّفق مع ملك يهوذا يوشافاط، لمحاربة آرام دمشق واستعادة راموت جلعاد منها، بدعوى أنها بالأصل من ممتلكاتهم، ولكن المعركة هذه المرة انتهت بانتصار برهدد الثاني على خصومه، ومقتل آخاب ملك إسرائيل (ملوك أول ٢٢ : ٣٠ – ٤٠).

ومما يمكن استنتاجُه من النصوص المتعلِّقة بمعركة قرقر، وأخبار سفر الملوك الأول، أن القوى في سورية كانت تتَّحد عندما يدهمها عدوٌّ خارجيٌّ، وهو في حالتنا هذه الآشوريون، وعندما يبتعد خطر هذا العدو تعود هذه القوى لمنافساتها وحروبها بعضها مع بعض.

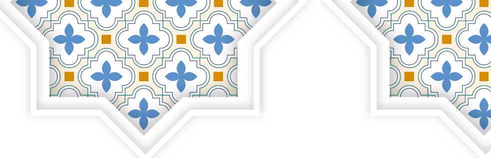
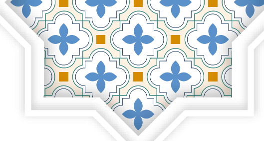
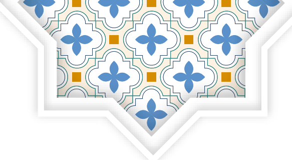
٦ _ حزائيل (النصف الثاني من القرن التاسع ق.م):

حسب رواية العهد القديم، فإن حزائيل (ومعنى الاسم بالآرامية: لقد رأى الإله إيل) استغلَّ شيخوخة برهدد الثاني ومرضه، ليتخلص منه بخنقه، ويجلس على عرش آرام دمشق مكانه (ملوك ثاني ٨: ١٤ – ١٥).

أما أحد نصوص شلمناصر الثالث ملك آشور فيذكر: «حدد عزر انتهى إلى الأبد، حزائيل ابن لا أحد امتلك عرشه»[45]. إن وصف النص الآشوري لحزائيل بأنه «ابن لا أحد» يدلُّ وفق المصطلحات الآشورية على أن حزائيل لم يكن من الأسرة المالكة، وأنه مُغتصب للعرش.

ولم يُغيِّر التبدُّل في الأسرة المالكة في دمشق من موقف آرام دمشق من الآشوَريين ومن إسرائيل ويهوذا، وهذا يدل على أن هذه المواقف كانت استراتيجية اتَّبعها ملوكُ دمشق، وأن الأمر لم يكن مُتعلِّقاً بالأشخاص الذين يتولَّون عرشَها، فحزائيل استمرَّ على نهج سلفه برهدد الثاني في الوقوف

(45) Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745): A. KIRK Grayson p 28.


في وجه التوسُّع الآشوري في سورية، وحاول جاهداً استمرار الحلف الذي كان قائماً في معركة قرقر، وإن لم يكن حليفه في هذا المجال دائماً، أما فيما يتعلَّق بإسرائيل ويهوذا فقد تمكَّن حزائيل من فرض سيطرته وسطوته عليهما.

بدأ حزائيل حكمَه بمحاربة إسرائيل ويهوذا، فحسب سفر الملوك الثاني «وخرج أخزيا مع يورام بن آخاب لقتال حزائيل ملك آرام في راموت جلعاد، فجرح الآراميون يورام فرجع للعلاج في يزرعئيل، ونزل أخزيا الملك إلى هناك ليعوده في مرضه». (ملوك ثاني ٨: ٢٨ – ٢٩).

يُبيِّن هذا النصُّ تحالُفَ يهوذا وإسرائيل للوقوف معاً في وجه حزائيل، وأن المعركة بينهما جرت في راموت جلعاد، وهي مناطق عجلون في الأردن، ومع أن كاتب النص لم يَذكر نتيجةَ المعركة، ولكن من الواضح أن حزائيل تمكَّن من تحقيق النصر على أعدائه، وأن ملك إسرائيل يورام أُصيب بجرح مات على إثره.

وفي أماكن أخرى من هذا السفر يُذكر أن الربَّ، وبسبب غضبه على ملوك إسرائيل ويهوذا، قام بتسليم بلادهما لحزائيل ملك آرام دمشق.

هذا عن العلاقة مع إسرائيل ويهوذا، أما عن العلاقة مع الآشوريين فكانت أكثر تعقيداً وصعوبة بالنسبة لدمشق، نظراً للقوة العسكرية الكبيرة التي كان بإمكان آشور حشدها في وجه خصومها. وكنا تحدَّثنا سابقاً عن معركة قرقر، وكيف تحالفت الدول السورية بزعامة دمشق وحماه، للوقوف في وجه تقدُّم القوات الآشورية في سورية.

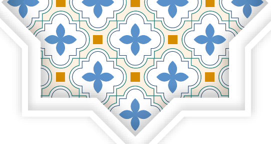
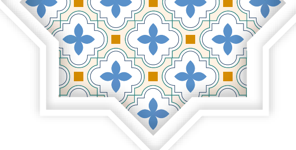
وتكرَّرت حملات الآشوريين بعد ذلك مرات عدة. ولكن المواجهة الأولى بينهم وبين حزائيل كانت في عام حملة العام الثامن عشر من حكم شلمناصر الثالث، حيث يقول في إحدى كتاباته المتعلقة بهذه الحملة: «في العام الثامن عشر من حكمي عبرتُ نهر الفرات للمرة السادسة عشرة. حزائيل (ملك) دمشق وضع ثقته في جيشه الكبير، وحشد فرقَه التي لا تُحصى. جعل جبل سانيرو المقابل للبنان قلعة له (قاعدة له). أنا قاتلتُه وهزمتُه، وقتلتُ بالسلاح ستة عشر ألفاً من جنوده، وسلبتُ منه ألفاً ومئة وإحدى وعشرين عربة حربية وأربعمئة حصان وكامل معسكره. ومن أجل أن يُنقذ حياته فرَّ (من أرض المعركة). سِرتُ وراءه وحاصرته في دمشق، مقرِّه الملكي. قطعتُ أشجار بساتينه»(٤٦).

وقد تابع الجيش الآشوريُّ طريقَه بعد ذلك إلى حوران، حيث أحرق مجموعة من القرى والمدن، ومن ثَمَّ استلم الجزية من مدن ساحل البحر صور وصيدا ومن ياهو بن عمري ملك إسرائيل.

وقد كرَّر شلمناصر الثالث حملتَه على جنوبي سورية ودمشق خصوصاً، في العام الحادي والعشرين من حكمه (٨٣٨ ق.م)، ولكنه وفي هذه المرة أيضاً لم يتمكَّن من دخول دمشق، وعوَّضَ عن ذلك باحتلاله _ كما يقول _ لأربعة من المدن التابعة لها، ومن ثَمَّ أخذ الجزية من صور وصيدا وجبيل.

وممّا أورده شلمناصر الثالث في حولياته، عن هاتين الحملتين، نرى أن دمشق تمكَّنت لوحدها

(46) Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745): A. KIRK Grayson, P 48 (1 – 27).

من الوقوف والصمود أمام الجيوش الآشورية، وأن حزائيل، رغم الخسائر التي لحقت ببلاده وقواته، إلا أنه أصر على عدم الخضوع للآشوريين، إذ لا يَذكر شلمناصر الثالث في أيٍّ من كتاباته أنه استلم الجزية منه. والأمر الآخر المهم هو تخلِّي حماه عن التحالف مع دمشق في وجه الآشوريين. وشكَّل هذا الأمر ـ طبعاً ـ ضربة قوية لدمشق، فحماه كانت تُشكِّل سنداً مُهمّاً لدمشق في مقاومة الآشوريين من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن خروج حماه من الحلف جعل المواجهات بين الآشوريين وآرام دمشق تجري ـ كما مر معنا ـ على أراضي دمشق، بعد أن كانت تجري فيما مضى في مناطق بعيدة عنها، وغالباً على أراضي حماه.

ولم تقع أي مواجهات بين دمشق وملكها حزائيل من ناحية، والآشوريين وملكهم شلمناصر الثالث من ناحية أخرى بعد ذلك. ويبدو أن السبب الرئيس وراء ذلك كان التمرُّد الذي وقع في آشور ضد الملك شلمناصر الثالث، الذي كان على رأسه ابنُه ووليُّ عهده السابق، وقد كلَّف شلمناصر الثالث ابنَه الآخر شمشي أدد (الخامس) بالقضاء على هذا التمرُّد، الذي استغرق السنوات الأخيرة من حكم شلمناصر الثالث، والسنوات الأولى من حكم شمشي أدد الخامس (٨٢٤ – ٨١١ ق.م).

وبالإضافة إلى ما تُقدِّمه لنا نصوصُ العهد القديم، والنصوص الآشورية، عن حزائيل، يوجد لدينا نصّان آراميّان يُفيدان ولو بشكل جزئي في التعرُّف على النشاطات العسكرية لهذا العاهل الآرامي الدمشقي.

النقش الأول مُدوَّن على حلية برونزية (لجام فرس)، عُثر عليها في جزيرة ساموس في اليونان، يُؤرَّخ بأواخر القرن التاسع ق.م، وهذا نصُّه: «الذي أعطى الإله هدد لسيدنا حزائيل من الوادي (العمق). في سنة عبور سيدنا النهر»[٤٧].

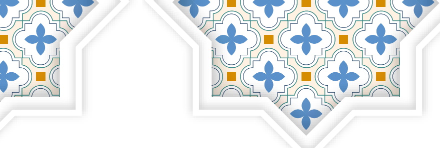
ونُشير هنا إلى وجود تفسيرات عدة لهذا النقش، فمن الباحثين من يرى أن المقصود هو سهل العمق في الشمال الغربي من سورية، وأن المقصود بالنهر هو نهر العاصي. ومنهم من يرى أن المقصود هو سهل البقاع اللبناني الذي كان يُسمَّى أيضاً العمق. وهناك رأي ثالث يقول إنه لا يجب التوقُّف كثيراً عند اسم السهل بقدر ما يجب التوقُّف عند عبارة «عبر النهر»، فحسب رأي هؤلاء فحيثما وردت هذه العبارة في النقوش القديمة فكان يُقصد نهر الفرات، وأن حزائيل استغلَّ التراجع الآشوري في السنوات الأخيرة من حكم شلمناصر الثالث، ليهاجم آشور على حدودها[٤٨].

وأنا أميل إلى أن المقصود في هذا النقش منطقة العمق في الشمال الغربي من سورية، وأن حزائيل قام بحملات إلى مناطق في الشمال السوري ومنها سهل العمق، وربما كان وضع هذا النقش من قبل أحد قادته في هذه الحملات. ويمكن الافتراض أن حزائيل قد استغل انشغال الآشوريين بمشَاكلهم الداخلية، التي أشرنا إليها آنفاً، ليدعم سلطتَه في الشمال السوري. كما أنه من الممكن أن يكون للتغيُرات التي حدثت في حماه نتيجة استيلاء شخص اسمه زكور على السلطة فيها دور في هذه الحملات.

وأما النقش الآخر فهو النقش المعروف باسم نقش تل القاضي، وقد عُثر عليه عام ١٩٩٣م

(47) **اللغة الآرامية القديمة:** فاروق اسماعيل، ص 29.

(48) Les Arameens A L` Age du Fer : Dion, P.E: P 201 – 202.


على سفوح جبل حرمون في فلسطين. ورغم الشكوك المثارة حوله، فإن النقش يتحدَّث مبدئيّاً عن حروب جزائيل في تلك المناطق والانتصارات التي حققها هناك، وبهذه المناسبة أقام هذا النصب هناك.

وتبقى أخبار السنوات الأخيرة من حكم حزائيل غير واضحة بالنسبة لنا، ولكن ومن خلال بعض الإشارات الواردة في سفر الملوك الثاني استمرَّت حروبُه خلال هذه المرحلة ضد إسرائيل ويهوذا، وتوجَّهت أنظاره نحو الساحل الفلسطيني ومدينة القدس، وهذا الأمر أرعب حكامها فاسترضوه بهدايا ثمينة[٤٩].

وكانت نهاية حكم حزائيل بين العامين ٨٠٤ -٨٠٢ ق.م، وتولى السلطة من بعده ابنُه برهدد الثالث (مرئي في النصوص الآشورية).

٧_ برهدد الثالث (مرئي):

تولَّى برهدد الثالث السلطة في آرام دمشق في وقت جرت فيه تبدُلات إقليمية كبيرة، فمن ناحية استقرَّت الأمور في آشور بعد القضاء على تمرُّد وليِّ العهد السابق، وانشغال الملك الجديد بجبهات ربما كانت أكثر أهمية بالنسبة له، حيث حارب ضدَّ أورارتو في الشمال الشرقي من آشور، وضدَّ بابل إلى الجنوب منها. ولكن ومع صعود أدد – نيراري الثالث (٨١١ – ٧٨٢ ق.م) تبدَّل الوضع وعادت آشور لمهاجمة سورية، ومن ناحية أخرى استولى المدعو زكور على السلطة في حماه، وبدأ بممارسة سياسة توسُّعية، مُهدِّداً بذلك المكانة العليا التي كانت تتمتَّع بها دمشق، طوال القرن الماضي في المنطقة السورية، لذلك كان على برهدد مجابهة هذه الأخطار مجتمعة.

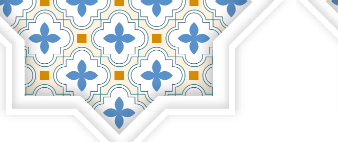
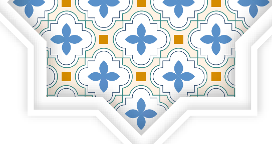
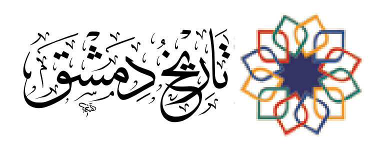
إن المصدر الأول المهم الذي يذكر برهدد الثالث هو نقش زكور ملك حماه ولعش، أو كما يُسمَّى أيضاً نقش آفس (نسبة للمكان الذي عُثر فيه على النقش بالقرب من سراقب).

وقد أمر زكور بوضع هذا النقش تخليداً لذكرى الحصار الذي فرضه عليه مجموعة من حكام الدول السورية خاصة الشمالية منها. واللافت أن مَن كان على رأس هذا الحلف هو برهدد ملك آرام، مما يدل على استمرار زعامة دمشق على العالم السوري في هذا الوقت.

يقول زكور في كتابته: « ... فوحَّد ضدّي برهدد بن حزائيل ملك آرام ستة عشر ملكاً (هم) برهدد وجيشه وبرجش وجيشه وملك قوه وجيشه وملك عمق وجيشه وملك جرجم وجيشه وملك شمأل وجيشه وملك ملز وجيشه... »[٥٠].

ويبدو أن هذه الأحداث وقعت نحو عام ٨٠٠ ق.م. وأما عن السبب الذي كان وراء تزعُم برهدد لهذا الحلف، فلا بد من أن يكون وراء ذلك سببان، أولهما استيلاء زكور على السلطة في حماه، بعد خلع الأسرة التي كانت تحكمها منذ ما يزيد على نصف قرن، والتي دخلت في حلف مع دمشق أكثر من مرة في مواجهة الآشوريين كما مر معنا آنفاً، وثانيهما، ربما كان سياسة توسُعية بدأ بانتهاجها زكور، ونستنتج ذلك أيضاً من أمرين يتَّضح أولهما من اللقب الذي اتخذه لنفسه « زكور ملك حماه

(49) **اللغة الآرامية القديمة**: فاروق اسماعيل، ص 31.
(50) **اللغة الآرامية القديمة**: فاروق اسماعيل، ص211.

ولعش»، إذ ضمَّ إليه منطقة لعش الواقعة إلى الشمال من حماه، وهذا ما أثار حفيظة برهدد الثالث الذي رأى في هذا الأمر تقويضاً للتوازن الذي كان قائماً بين الإمارات السورية المختلفة، وأما الأمر الثاني الذي نستنتج منه أن زكوراً مارس سياسة توسُعية هو القوى المشاركة في الحلف ضد زكور، التي كانت في معظمها إمارات من شمالي سورية، ويأتي على رأسها وبعد دمشق برجش ملك أرفاد (تل رفعت في منطقة عفرين). ومن المؤكد أن هذه الإمارات كانت المتضرِّر الأكبر من سياسة زكور التوسُعية، وهذا دفعها للتحالف ضدَّه والاستعانة ببرهدد (ملك آرام) كما يسميه زكور في نقشه هذا.

أما كيف كانت نهاية هذا الحصار، فكما يقول زكور في نقشه أن الإله بعل شمين وقف معه، وأنقذه من كل هؤلاء الذين حاصروه. وحين نربط الأحداث التي وقعت في سورية في ذلك الوقت، مع ما ورد في النصوص الآشورية، نستنتج أن تدخُل الملك الآشوري أدد نيراري الثالث في سورية في هذا الوقت كان السبب وراء فكّ القوى السورية حصارها عن زكور، وعودة كل واحدة منها إلى بلدها.

المصدر الثاني المهم الذي يذكر برهدد الثالث هو نصوص الملك الآشوري أدد نيراري الثالث، فهذا الملك يذكر في كتابات له تتعلَّق بحملاته على سورية ما يأتي: «سرتُ إلى دمشق، مرئي، ملك دمشق، أنا حاصرتُه في دمشق، مدينته الملكية ... أنا استلمتُ منه ٢٣٠٠ تالنت فضة، ٢٠ تالنت ذهب، ٣٠٠٠ تالنت برونز، ٥٠٠٠ تالنت من الحديد، ملابس كتانية مزركشة، سرير عاجي، أريكة مطعمة بالعاج، ممتلكاته وثرواته التي لا تُحصى (تلقيتُ كلَّ هذا) في قصره في دمشق، مدينته الملكية»[٥١].

ويبدو أن إطلاق اسم «مرئي» على برهدد الثالث في النص الآشوري، كان انعكاساً للصيغة التي يخاطبه بها أتباعه الآراميون، فكلمة «مرئي» بالآرامية تعني «سيدي»، وبالتالي فإن الكاتب الآشوري استخدم هذا الاسم للتعريف بحاكم دمشق الآرامي كما كان يفعل أتباعه.

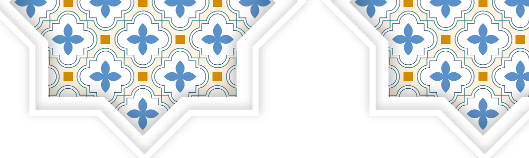
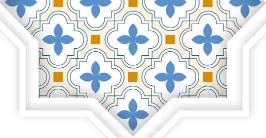
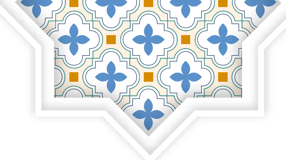
والأمر المهمُ في هذا النص أيضاً هو أن الآشوريين تمكَّنوا من دخول دمشق، وأن دمشق ولأول مرة في تاريخها دفعت الجزية للآشوريين، وقد اشتملت على كميات كبيرة من المعادن الثمينة وغير الثمينة، بالإضافة إلى أقمشة ومفروشات عاجية.

ولقد أدَّت عدّةُ عواملَ دورَها في هذا الأمر، منها أن دمشقَ أنهكَتها الحروبُ التي خاضَتها في المدة الماضية، سواء ضد الآشوريين أو العبرانيين، وبالتأكيد فإنها خسرت خلال هذه الحروب الكثير من قواها العسكرية.

ومن الأمور الأخرى، التي كان لها أثر مُهمٌ في هذا الأمر، فقدان دمشق للحلفاء، فبعد أن كان هناك حلف دائم يتشكَّل بزعامة دمشق للوقوف في وجه الآشوريين، نرى دمشق تقف في السنوات الأخيرة لوحدها في وجه الآشوريين، ولعل ما يلفت الانتباه هنا أن الإمارات السورية توحَّدت للوقوف في وجه طموحات زكور ملك حماه، في حين فشلت في التوحُد للوقوف في وجه الآشوريين؛

---

[51] **Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745):** A. Kirk Grayson P, 213, (15-21).


فالقوى التي كانت تُحاصر زكوراً، عوضاً من أن تفكَّ حصارها عنه وتتوجَّه لمواجهة الآشوريين، فكت الحصار وعادت كل واحدة منها إلى بلادها لتدافع عنها منفردة، مما أوقعها في النهاية فريسة سهلة في يد الآشوريين.

ولم تقتصر خسائر دمشق عند هذا الحد (أي دفع الجزية للآشوريين)، وإنما بدأت تفقد أيضاً بعضَ ممتلكاتها الجنوبية، التي كانت ضمَّتها إليها في العهود السابقة، وخاصة في عهد حزائيل.

٨_ دمشق بعد برهدد الثالث:

كما أننا لا نعرف بالضبط متى بدأ حكم عهد برهدد الثالث، فإننا لا نعرف أيضاً متى انتهى حكمه، ولكن ومن خلال النصوص الآشورية نعلم أن مَن تولَّى السلطة من بعده في دمشق كان خديانو. ونحن نقرأ اسمه في نقش يقصُّ أخبار حملات عسكرية جرت في عهد خليفة أدد نيراري الثالث، وهو ابنُه الملك شلمناصر الرابع (٧٨٢ – ٧٧٣ ق.م). وفي إحدى هذه الحملات التي وصلت إلى دمشق، دفع ملكها خديانو الجزية مجدَّداً للآشوريين.

ولكن اللافت في هذا النص أن من قام بهذه الحملة لم يكن الملك الآشوري نفسه، وإنما قائد الجيوش الآشورية، والذي يحمل لقب «التورتان» المدعو شمشي – إيلو. يذكر النص: «عندما سار شمشي – إيلو، التورتان، إلى دمشق، تلقَّى الجزية من خديانو الدمشقي – فضة، ذهب، نحاس، سريره الملكي، أريكته الملكية، ابنته مع مهرها الكبير، ثروات قصره التي لا تُحصى - أنا تسلَّمتُ منه»[٥٢].

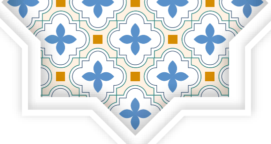
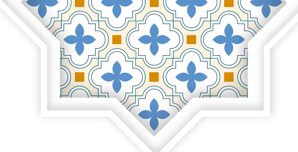
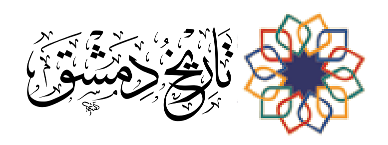
٩_ آخر ملوك دمشق:

وأما آخر ملوك دمشق فهو رزين أو رصين (حسب التسمية التوراتية)، والذي يرد اسمه أيضاً بصيغة رحيانو ورقيانو، والذي يبدو أن الاسم مشتق من الرِّضا بالآرامية.

وحسب أحد نصوص تيغلات بلاصر الثالث، التي سنعود إليها فيما بعد، فإن رزين / رحيانو كان ينحدر من حدارا، وهي تتطابق مع عدرا الواقعة إلى الشرق من دمشق، وهذا حمل بعض الباحثين على افتراض أنه لم يكن ينتمي إلى العائلة الحاكمة في دمشق، وهو الذي عاصر صعود تيغلات بلاصر الثالث العرش الآشوري (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م)[٥٣].

وقبل الحديث عن رزين ملك دمشق، لا بد من الإشارة إلى أن الدولة الآشورية بعد أدد نيراري الثالث دخلت مرحلة من الضعف والتراجع عن النشاطات العسكرية الكبرى، واستغرق ذلك عهود أبنائه الثلاثة الذين تولَّوا الحكم من بعده. ولكن مع صعود تيغلات بلاصر الثالث العرش الآشوري تبدَّل الأمر رأساً على عقب، فبعد عامين قضاهما الملك الجديد في إعادة تنظيم الإدارة والجيش، عاود الجيش الآشوري نشاطاته التوسُّعية وباستراتيجية جديدة هذه المرة، فعلى خلاف الملوك الآشوريين الذين كانوا يكتفون بأخذ الجزيات من حكام المناطق التي يمرُّون بها، نرى تيغلات

[52] **Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745:** A. Kirk Grayson P 240 (4 – 10).
[53] **- The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion: Edward Lipinski.P 406.**

بلاصر الثالث يسعى جهده للقضاء على استقلال الدول والإمارات المختلفة سواء في سورية أو في غيرها من المناطق وتعيين ولاة آشوريين عليها، وهذا الأمر كان من نصيب الإمارات الآرامية في سورية (بيت آجوشي وشمأل ودمشق).

وأولى حملات تيغلات بلاصر الثالث التي وصلت إلى دمشق كانت في العام ٧٣٨ ق.م، ويذكر الملك الآشوري في أخبار هذا العام أنه حصل على الجزية من رحيانو /رزين/، يقول: «من رحيانو (رزين) من بلاد دمشق ٣ تالنت من الذهب، ٣٠٠ تالنت من الفضة، ٢٠٠ تالنت من...»[٥٤].

ونلاحظ هنا ضآلة كميات المعادن التي تلقّاها تيغلات بلاصر الثالث من رحيانو، بالمقارنة مع ما سبق وتلقاه أدد نيراري الثالث من كميات من المعادن نفسها، وهذا يدلُّ على ضعف بدأ يحلُّ في دمشق من جوانب مختلفة وخاصة الاقتصادية منها، والتي كان لها انعكاس كبير على قوتها العسكرية ونفوذها في سورية بشكل عام.

وخلال الأعوام التالية انشغل تيغلات بلاصر الثالث في حملات عسكرية وجَّهها ضد ميديا إلى الشرق من آشور، وضد أورارتو إلى الشمال والشمال الشرقي من آشور.

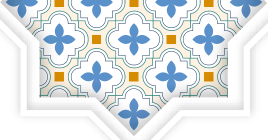
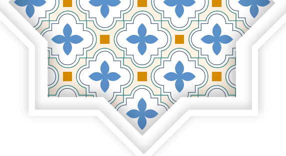
وفي هذا الوقت بدأ بالتشكُّل حلفٌ بين دمشق بقيادة رزين وفقح بن رمليا ملك إسرائيل، وكان هذا الحلف موجَّهاً أساساً ضد يهوذا. ويبدو أن فقح أخذ ينتهج سياسة مناوئة لآشور، قرَّبته من رزين الدمشقي. وحسب سفر (الملوك الثاني ١٦ : ٥ – ٧) فإن الحليفين توجَّها إلى أورشليم، وفرضا الحصار عليها، وعلى الأغلب فإن الحليفين أرادا إجبار ملك يهوذا على الانضمام إليهما في الحلف المعادي للآشوريين[٥٥]، ولكن ملك يهوذا اتَّخذ خطوة مضادّة، فما كان من ملكها آحاز إلا أن طلب معونة تيغلات بلاصر الثالث مُقدِّماً له كلَّ ما يملكه من ثروات.

وحسب رواية السفر نفسه فإن تيغلات بلاصر الثالث استجاب للطلب، وجاء إلى دمشق فاستَولى عليها وقتلَ ملكها رصين. ومن المؤكد أن استجابة تيغلات بلاصر الثالث لهذا الطلب كانت بالدرجة الأولى لأنها تحقِّق الأهداف التي كان قد وضعها لدمشق.

ونحن نجد تفصيلاً لهذه الأحداث في كتابات تيغلات بلاصر الثالث، المتعلقة بأخبار العامين ٧٣٣ و٧٣٢ من حكمه، إذ يتحدَّث تيغلات بلاصر الثالث عن معركة جرت بين قواته وقوات رصين / رحيانو في منطقة لم يُحدِّدها، وعلى ما يبدو فإن قوات آرام دمشق لم تستطع الصمود أمام قوات تيغلات بلاصر الثالث، فاضطرَّ رصين / رحيانو للفرار والتحصُّن داخل أسوار مدينته. ويتابع تيغلات بلاصر الثالث إخبارنا بما جرى، فيقول إنه فرض الحصار على رحيانو مدة خمسة وأربعين يوماً: « من أجل إنقاذ حياته، هرب رحيانو بمفرده ودخل بوابة المدينة مثل النمس...، خمسة وأربعين يوماً، أقمت معسكري حول مدينته وحبسته هناك مثل طائر في قفص...، حاصرتُ واستوليت على مدينة حدارا، موطن أجداد رحيانو من أرض دمشق، القصر الذي وُلد فيه. حملتُ ٨٠٠ شخص مع ممتلكاتهم وثيرانهم وأغنامهم وماعزهم. نقلت ٧٥٠ أسيراً من مدينتي كوروشا وسمايا، بالإضافة ٥٥٠ أسيراً من مدينة ميتونا. مثل المراعي بعد الطوفان، دمَّرت ٥٩١ مدينة من

[54] The Royal Inscriptions of Tiglath-pileser III (744 – 727 BC), and Shalmaneser V (726 – 722 BC) , Kings of Assyria. P.38 (1 – 10).

[55] **Les Arameens A L` Age du Fer:** Dion, P.E P 211.

١٦ منطقـة مـن أراضـي دمشـق»[٥٦].

وفي الحقيقة فإنَّ هذا النَّص لا يوضح أين حوصر رصين، هل في دمشق، أم أنَّه تمكن من الفرار منها والالتجاء إلى مسقط رأسه حدارا (عدرا) حيث كانت نهايته هناك، وإن كنَّا نرجِّح ذلك.

كانت هذه المحطة الأخيرة في تاريخ دمشق الآرامية، فالآشوريون بعد استيلائهم على المدينة اتَّخذوا مجموعة من الإجراءات العقابية تمثَّلت بتهجير جزء من سكان دمشق مع ثرواتهم ومواشيهم، وأسر مجموعة من سكان مدن أخرى كانت تتبع لآرام دمشق، وتدمير ٥٩١ مدينة أخرى، ومع تشكيكنا بالرقم، فإن المقصود ربما كان مجموعة كبيرة من القرى التابعة لها. وأما الخطوة الأخيرة فكانت تقسيم أراضي آرام دمشق إلى ستَّ عشرة مقاطعة، وهذا يدلُّ على المساحة الكبيرة التي كانت تشغلها أراضي مملكة آرام دمشق.

_ الخاتمة:

يتَّضح لنا من خلال ما سبق أن مملكة آرام دمشق قامت كمملكة مستقلة نحو منتصف القرن العاشر ق.م، وتمكَّنت من بسط سيطرتها على مناطق واسعة من جنوبي سورية وفلسطين، بالإضافة إلى فرض نفوذها على معظم الإمارات التي قامت في المنطقة السورية – الفلسطينية.

وتبيَّن لنا أن دمشق سخَّرت قوّتها وقوة حلفائها للوقوف في وجه التوسُّع الآشوري غرب الفرات، وتجلَّى ذلك بشكل واضح في معركة قرقر، التي واجه فيها تحالفُ الإمارت السورية قوات شلمناصر الثالث في العام السادس من حكمه نحو العام ٨٥٣ ق.م، حيث قدَّمت دمشق في هذهَ المعركة ما فاقَ كلَّ ما قدَّمَه سائرُ حلفائها من قوات من أصناف مختلفة، واستمرَّ هذا الأمر في السنوات التالية.

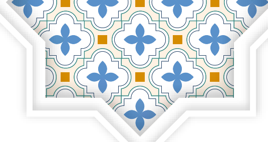
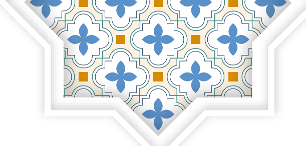
وبلغت دمشق أوجَ قوتها في عهد ملكها حزائيل (النصف الثاني من القرن التاسع ق.م)، عندما تصدى للقوات الآشورية لوحده بعد تخلِّي الحلفاء عنه، ورغم وصول قوات شلمناصر الثالث إلى أبواب دمشق، إلا أنه أصرَّ على المقاومة رافضاً دفع الجزية لهم.

والنصوص التي وصلتنا تُثبتُ أن دمشق كانت قويّة في عهد حزائيل، بحيث فرضَ سلطته العليا على العبريين في فلسطين، كما قام بحملات عسكرية إلى مناطق سهل العمق شمال غربي سورية. إلا أن قوة دمشق بدأت بالتراجع بعد ذلك نتيجة إنهاكها عسكريّاً واقتصاديّاً بسبب الحروب الكثيرة التي خاضتها مع الآشوريين وغيرهم.

والأمر الآخر الذي نشير إليه في هذه الخاتمة هو القوة الاقتصادية الكبيرة التي تمتَّعت بها دمشق في عصر مملكة آرام دمشق، ونستنتج هذا من كمية المعادن الثمينة وغير الثمينة التي دفعتها للآشوريين عندما بدأ الضعف يدبُّ في أوصالها.

---

[56] The Royal Inscriptions of Tiglath-pileser III (744 – 727 BC), and Shalmaneser V (726 – 722 BC) , Kings of Assyria Op. cit. P. 59 (8b- 14 a).

ملحق

_ ملوك آرام دمشق:

رزون	منتصف القرن العاشر ق.م
حزيون / حديان	الربع الأخير من القرن العاشر ق.م
طب – رامون	نهاية القرن العاشر ق.م
برهدد الأول	٩٠٠ – ٨٨٠ ق.م
هدد عزر (برهدد الثاني)	٨٨٠ – ٨٤٣ ق.م
حزائيل	٨٤٣ – ٨٠٢ ق.م
برهدد الثالث / مرئي	٨٠٣ – ٧٧٥ ق.م
(حديانو الثاني)	٧٧٥ – ٧٥٠ ق.م
رزون / رحيانو	٧٥٠ – ٧٣٢ ق.م[٥٧]

مصادر البحث ومراجعه

_ مراجع البحث العربية:

_ الأقاليم الجغرافية السورية: عادل عبد السلام، دمشق، جامعة دمشق ١٩٨٩ – ١٩٩٠ .

_ أخبار دمشق وبلاد أب في مراسلات العمارنة: فاروق اسماعيل، الحوليات الأثرية العربية السورية. المجلدان ٤٥ – ٤٦، العام ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ .

_ الأخلامو في وثائق الشرق القديم: جباغ قابلو، مجلة دراسات تاريخية، العدد ١٢٣ – ١٢٤، العام ٢٠١٣ .

_ الآراميون تاريخاً ولغة وفناً: علي أبو عساف، طرطوس، دار أماني، ١٩٨٨ .

_ دمشق في النصف الأول من الألف الأول ق.م، عوامل اقتصادية وسياسية. مجلة مهد الحضارات، العدد ١٣ – ١٤، العام ؟؟؟

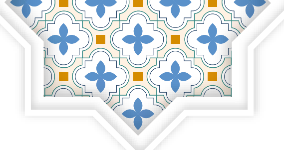
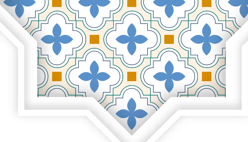
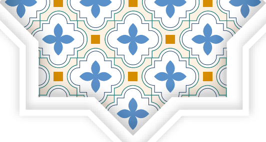
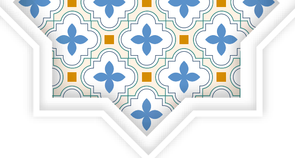
_ عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم (حتى أواخر القرن الثامن ق.م): محمد حرب فرزات، مجلة دراسات تاريخية، العدد ١٩ – ٢٠، العام ١٩٨٥ .

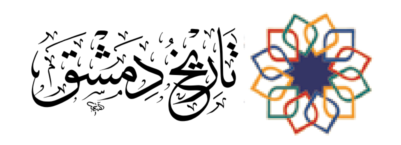
_ مراسلات العمارنة الدولية، وثائق مسمارية من القرن الرابع عشر ق.م: فاروق اسماعيل، دمشق، إنانا للطباعة والنشر، ٢٠١٠ .

_ المصادر القديمة في تاريخ دمشق: علي أبو عساف، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٤١ – ٤٢، العام ١٩٩٢ .

_ العلاقات بين الدولة الآشورية ودول المدن الآرامية في شمال سورية حتى منتصف القرن التاسع ق.م: جباغ قابلو (رسالة دكتوراة غير منشورة باللغة الروسية)، تبيليسي، ١٩٩١ .

(57) بتصرف عن:
The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion: Edward Lipinski. P 407.



مراجع البحث الأجنبية:

1 - **Ancient Damascus: Wayne Pitard, Winona Lake, In:** Eisenbrauns, 1987.

2- **A Political History Of The Aramaeans:** K. Lawson Younger Jr, Atlanta, SBL Press. 2016.

3 - **The Aramaeans , Their Ancient History, Culture, Religion:** Edward Lipinski, Leuven – Paris, 2000.

4 - **Les Arameens A L` Age du Fer :** Dion, P.E, Paris, 1997.

5 - **Assyrian Rulers of the early First Millennium BC, 1 (1114 – 859):** A. Kirk Grayson, University of Toronto Press 1991.

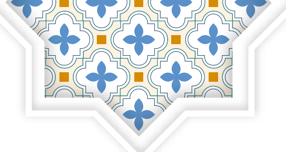
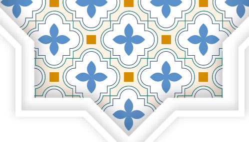
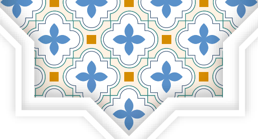
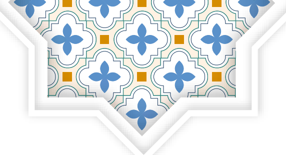
6 - **Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC II (858 – 745):** A. KIRK Grayson, Toronto, London, University Toronto press, 1996.

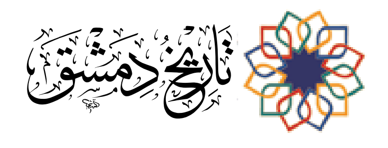
7 – The Boundary Between the Aramaean kingdom of Damascus and kingdom of Israel, Andre Lemair. In: Aramaean Borders, Founding Editor M.H.E Weippert. BRILL, Leiden – Boston.

8 - **Babylonian and Assyrian Historical text: A.L. Oppenheim. In:** Ancient near Eastern Text. James Pritchard. Relating to the Old Testament, Princeton, New Jersey. 1969.

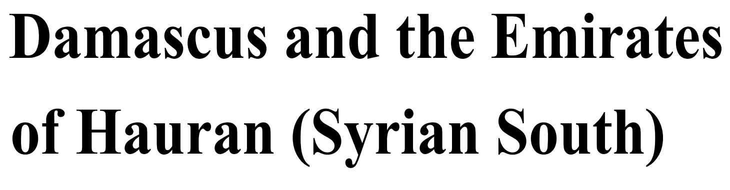
9 - **Le Eetats Arameens de Syrie Depuis Leur Fondation Jusqu A Leur Transformation en Provinces Assyriennes:** Helen Sader. Beirut 1987.

10 - **History: Helen Sader. In:** Thhe Aramaeans in Ancient Syria. Editor by Herbert Niehr. Brill. Leiden. Boston. 2014.



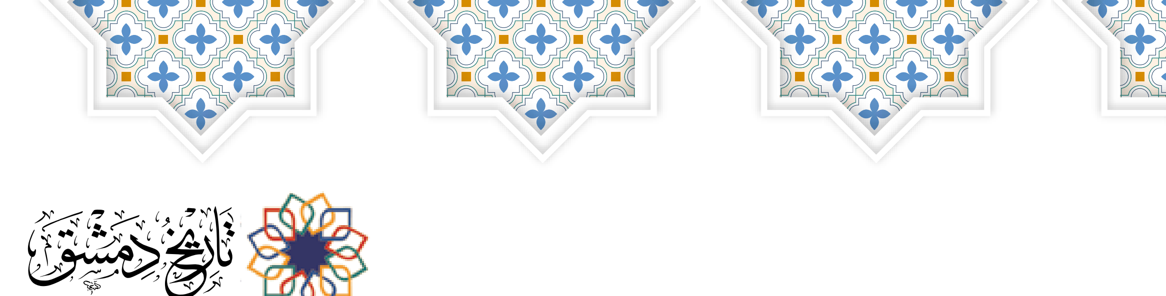


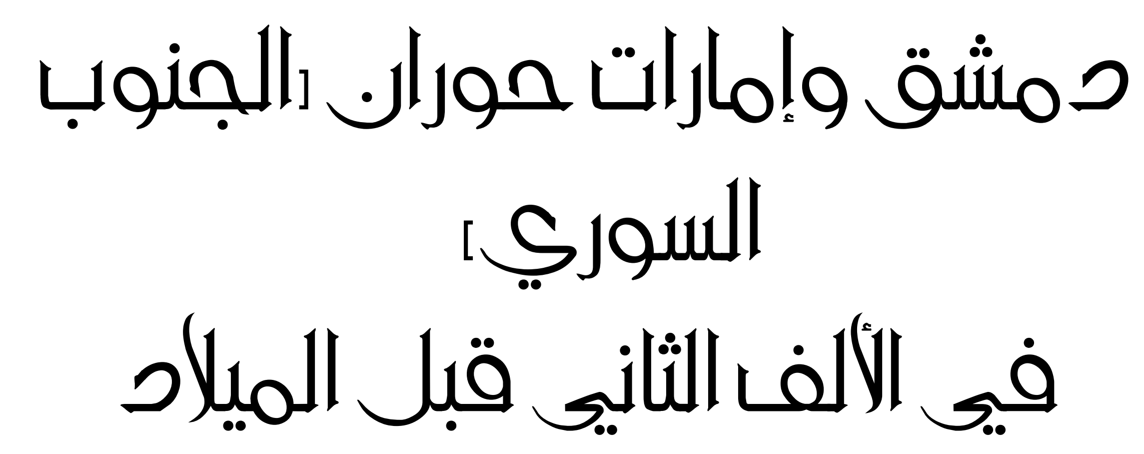


Damascus and the Emirates of Hauran (Syrian South)

in the 2nd Millennium BC

Dr. Abdallah Al-Suliman

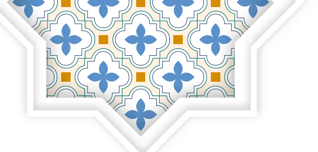
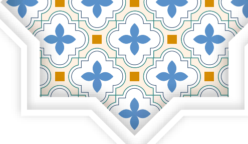
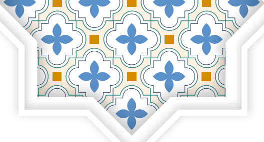
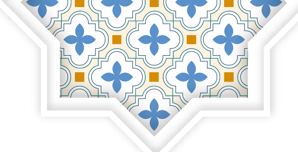


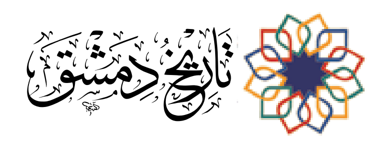


دمشق وإمارات حوران (الجنوب السوري) في الألف الثاني قبل الميلاد

د. عبد الله السليمان[1]

[1] مدرّس التاريخ القديم في جامعة دمشق.





ملخص البحث

يتناول هذا البحث تاريخ جنوب سورية (دمشق وإمارات حوران) في الألف الثاني قبل الميلاد، في حقبة تُعَدُّ الأهَمَّ في تاريخ المنطقة، وهي مدة تراخت فيها سيطرة الإمبراطورية الفرعونية على سورية، فحصل صراع سياسيٌ حادٌ بين إمارات حوران الثائرة في وجه الفرعون المصري من جهة، ودمشق التي بقيت مخلصة وفية للسيادة المصرية، وتُعَدُّ رسائل العمارنة المسمارية التي عُثر عيها في (آخت آتن)، عاصمة أخناتون الإمبراطورية؛ المصدر الأهم لهذه الحقبة من تاريخ جنوبي سورية في ظلّ غياب التنقيبات الأثرية في المنطقة.

Research Summary

This research addresses the history of Southern Syria (Damascus and the Emirate of Hauran) in the 2nd millennium BC. It is a period when the Pharaonic Empire›s control over Syria loosened, which resulted in a severe political conflict between the Hauran Emirate rebelling against the Egyptian Pharaoh on one hand, and Damascus, which remained loyal to the Egyptian reign, on the other. The Amarna cuneiform letters that were discovered in Akhetaten, the imperial capital of Akhenaten›s empire, are considered the most important discovery of this period of the history of Southern Syria.

مقدمة:

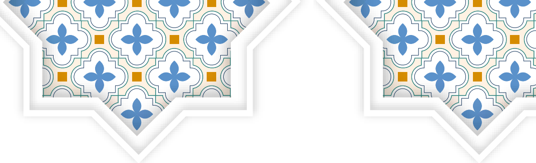
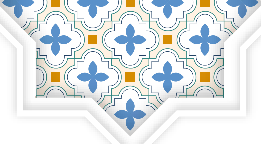
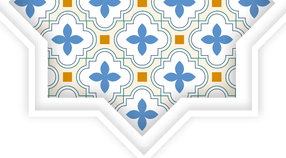
لقد أثبتَت المُسوحات الأثرية أن منطقتي دمشق وحوران[٢] كانتا من المناطق المزدهرة حضاريّاً، منذ عصور ما قبل التاريخ حتى يومنا الحاضر، ومع ذلك لم تحظَ أيٌ من المنطقتين بقدر كاف من الدراسات والمسح الأثري (باستثناء مدينة بصرى)، وذلك لأن معظم البعثات الأثرية الأجنبية والوَطنية سحرها الكنز المسماري، الذي كان من السهل العثور عليه في تلال الجزيرة السورية المنتشرة على ضفتي نهر الفرات، هذا ناهيك عن صعوبة التنقيب في مدينة دمشق بحكم أنها مأهولة بالسكان.

لكن ما بعث فينا الأمل؛ في التعرُّف على تاريخ دمشق القديم، أن تلال الغوطة تحوي كنوزاً أثرية واعدة، كان أولها اكتشاف أوَّل نصٍّ مسماري منها؛ وقد تم ذلك الاكتشاف الأثري العظيم على يد الأستاذ أحمد فرزات الطرقجي، في تَل سكا جنوب دمشق.

وعلى أي حال، فإننا نسعى في هذا البحث لدراسة تاريخ جنوبي سورية (دمشق وإمارات حوران) في الألف الثاني قبل الميلاد، والتعرف على علاقات دمشق السياسية مع إمارات حوران، وعلاقات جنوب سورية ككل مع الإمبراطورية الفرعونية في مصر، لا سيما أن الولاء لمصر، خلال هذه المرحلة، كان هو الذي حدَّد مَسارَ تلك العلاقات التي ربطت دمشق الموالية للفرعون المصري مع إمارات حوران المتمردة عليه والثائرة في وجهه، وسنُنهي البحث بعهد رمسيس الثالث، الذي انتهت في عهده السيطرة الفرعونية على جنوبي بلاد الشام.

أما الإطار المكاني للبحث فيشمل دمشق وغوطتها وسهل حوران والأجزاء الشمالية من فلسطين

(2) يُلفظ الاسم بفتح الحاء وتسكين الواو، انظر **معجم البلدان** لياقوت الحموي، ص392.


والأردن، هذه المنطقة التي كانت تعرف تاريخيّاً باسم بلاد أبوم Apu (um) وUPI.

وأخيراً يعتمد البحث على نصوص تلّ العمارنة كمصدر أساسيّ؛ وما يهمنا منها هو النصوص التي أرسلتها إمارات حوران الثائرة في وجه أمير دمشق الموالي للفرعون المصري. فإنها تُقدِّم لنا صورة عن العلاقات السياسية، في ذلك الزمن، وفكرةً عن أدب التخاطب بين الملوك وتابعيهم.

وتجدر الإشارة إلى أن المعلومات، عن تلك المرحلة التاريخية، تبقى شحيحة، بانتظار ما يُمكن أن تكتشفه البعثات الأثرية، في تلال الغوطتين وحوران، الممتدة من الصنمين شمالاً حتى أربد وجرش جنوباً.

أولاً ـ تاريخ منطقة دمشق القديم ومحيطها:

سُكنت حوران والغوطة الدمشقية منذ عصور ما قبل التاريخ؛ ويشهد على ذلك المخلَّفات التي اكتشفها العلم الحديث، حيث بيَّنت التنقيباتُ الأثرية ظهور بقايا حنطة برية (Emmer) في موقع تل أسود Tell Aswad في غوطة دمشق، في السويات المؤرخة بـ (٩٨٠٠) سنة قبل الميلاد، بوساطة الكربون المشع، كما قدم موقع عراق الدب Iraq ed-Dubb في سهل حوران (شمال غرب الأردن حاليّاً) بقايا حنطة برية (Emmer) أيضاً وحنطة einkorn؛ في السويات الأثرية المؤرخة بـ ١٠ آلاف سنة، بوساطة الكربون المشعّ.

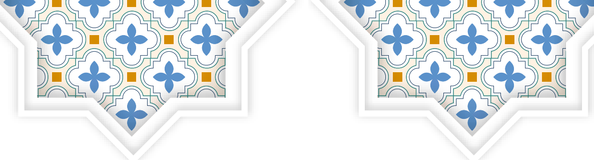
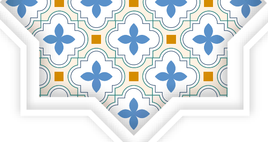
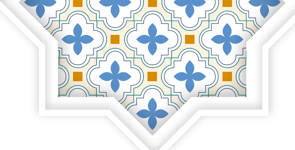
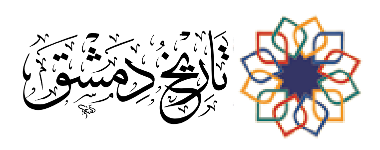
إن اكتشاف الحنطة في جنوب سورية يُعَدُ مُؤشِّراً مُهمّاً على استيطانها حضاريّاً، في وقت لم يتأخَّر كثيراً عن استيطان ضفتي نهر الفرات، حيث وُجِد في موَقع تل المريبط Tell Mureybit على الفرات الأوسط نوعَين من الحنطة المحلية البرية، تم تأرَيخها بـ(١٠٢٠٠) سنة، بوساطة الكربون المشع، كما عُثِر على بقايا الحبوب في مواقع أخرى في المشرق العربي القديم، مثل موقع أريحا Ari-ha (Jericho) فيَ وادي الأردن بفلسطين[٣]. وهكذا يظهر لنا أن جنوب سورية يعادل شمالها من حيث الأهمية الحضارية، حيث توفَّت فيها مقوِّمات الاستقرار، فاستوطنها الإنسان، وأنشأ القرى الزراعية، واستقرَّ فيها.

في الواقع لم تُقدِّم النصوص المسمارية، في الألف الثالث قبل الميلاد، أيَّ إشارة لمدينة دمشق، إلا أن بعض الأسبار والحفائر الأثرية في محيط دمشق وغوطتها دلَّت على وجود فخار وبنية حضارية تعود للألف الثالث قبل الميلاد، وربَّما أقدم من ذلك أيضاً، أما حفائر تل سكا في جنوب شرق دمشق، والتي استمرت حوالي خمسة عشر سنة، إلى أن توقَّفَت في سنة ٢٠١١م، فقد قدَّمت معلومات مهّمه عن تاريخ منطقة دمشق في النصف الأول من الألف الثاني ق.م، حيث ثبت بفضل هذا الموقع أن منطقة دمشق وجنوبي سورية لم تكن على هامش الأحداث السياسية التي كانت تُديرها الممالك السورية -الأمورية الكبرى في ذلك الوقت، وميزت هذا الموقع أنه قدم أول نص مسماري، بعدما كانت جميع الوثائق والنصوص المسمارية التي تتحدَّث عن جنوبي سورية وثائق خارجية.

إن موقع تلّ سكا وطبقاته الحضارية يُؤرَّخ بذات الفترة التي ازدهرت فيها مملكة ماري (تل الحريري)، قرب البوكمال في محافظة دير الزور السورية، أي خلال العصر البرونزي القديم، وإن الرسوم الجدارية التي اكتُشفت في هذا التلّ متقاربة مع نظيرتها في ماري، كما أن هندسة القصر المعمارية وفخّارياته

---

[3] New evidence of Lateglacial cereal cultivation at Abu Hureyra on the Euphrates; Hillman, G., & Robert Hedges, & Andrew Moore, & Susan Colledge, & Paul Pettitt, p.384

متشابهة مع نظيراتها في ماري أيضاً. وهذا يدلُ على وجود مدينة أمورية/عمورية دمشقية معاصرة لكبرى المدن الأمورية-السورية القديمة، كماري وحلب وقطنة وحاصور.

إن وثائق ماري التي تَذكر لنا أسماء مدن أو قرى حول دمشق في وقت مبكر، وقبل ظهور دمشق بالذات، تدلُ على أن محيط دمشق، بما فيه بحيرة مصبّ بردى، قد عُمرت وسُكنت قبل المركز أي دمشق المعاصرة، وإن أهم هذه المناطق التي تذكرها لنا نصوص ماري هي مراكز عمرانية مأهولة مثل عدرا Adaru ورخيصوم Rahisum (منطقة استراد حمص دمشق) ويرخو Yarhu /أريحا) التي تعني القمر بالأكادية).

وفي الواقع لم يكن أرشيف ماري وحدَه مَن تحدَّث عن المنطقة المحيطة بدمشق؛ بل نجد في الوثائق الآشورية ذكراً لمحيط دمشق، كما في رسالة لأحد القادة الآشوريين، جاء فيها: «إلى مولاي، يقول شمشي دخوم: كما ذكرت سابقاً لمولاي، فقد عسكرنا في منطقة أبوم، قبالة مدينة رخيصوم مع أربعة آلاف رجل، وكان معهم حلفاؤهم من مدينة مينيتايوم Minitaym وهدفنا هو حصار مدينة عدرا Adaru في بلاد رخيصوم المتحالفة مع أشخي أدو ملك قطنة، وقد تجمَّعت قواتُ جميع المدن، وقواتُنا أمام المدينة تهيّأت للهجوم، ثم أغرنا باتجاههم، وعندما رآنا العدو غادر المدينة المحاصرة، وقمت بالمناورة مع قوات أبوم؛ الذين انضمُّوا إلينا ودخلوا إلى قراهم، وعندما لمحنا العدو ونحن نناور انضوى على نفسه وسار باتجاه عدرا.. ولاحقتهم قواتُ مولانا، وكانت بين ظهرانيهم، ولم تسل دماء كثيرة بيننا، إلا أن ضابطاً توفّي وهو على رأس قواته، فلْيَعلَمْ مولاي كلَّ هذا».

وهكذا نلاحظ أن الرسالة السابقة تذكر مدينة عدرا أول مرة، منذ أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وهي واقعة على بعد ثلاثين كيلو متر شمال شرق دمشق على طريق تدمر، وما تزال تحمل الاسم ذاته حتى اليوم[٤].

تقع رخيصوم على طريق حمص دمشق، ومن الواضح أن الآشوريين قد عبروا من تدمر ونازالا (القريتين) إلى دمشق مباشرة، وبذلك فإن طريق دمشق الفرات معروف منذ ذلك الوقت المُبكِّر. ويمكن الإفادة من النص السابق أن غوطة دمشق كانت مأهولة، وملأى بالقرى والمدن المزدهرة، وأن دمشق المركز لم تكن موجودة في ذلك الزمن، بسبب مستنقعات بردى التي كانت تمتد حتى عدرا، كما هو وارد في الرسالة السابقة[٥].

ثانياً _ أسماء مناطق جنوب سورية ودلالاتها اللفظية:

في مقابل عظمة عواصم الشمال الأمورية ازدهرت مدينة دمشق في الجنوب، في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، التي تعرّفنا على اسمها في النصوص المصرية الهيروغليفية، ويُشير الأستاذ السوري الدكتور محمود عبد الحميد أحمد إلى أن دمشق ذُكرَت أوَّل مرة في التاريخ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، في قائمة المدن التي غزاها تحتمس الثالثَ سنة (١٤٦٨ ق.م)، ودوَّن اسمها على جدران معبد

(4) فيصل عبد الله، اكتشاف أول نص مسماري في دمشق، مراجعة تاريخية، مجلة جامعة دمشق، المجلد 37، العدد الثالث والرابع، دمشق 2011م، ص454.

(5) فيصل عبد الله، اكتشاف أول نص مسماري في دمشق، م.س، ص454.



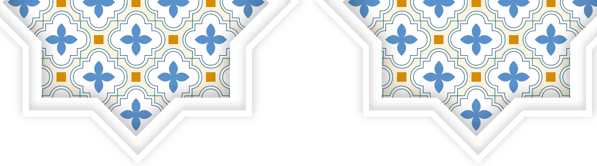
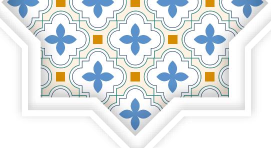
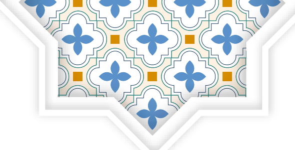
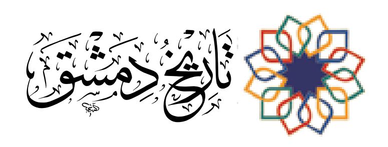


خارطة حوران

الكرنك في الأقصر بمصر.

كما بيَّن أن أصل تسمية دمشق هيروغليفي؛ مؤلف من ثلاثة مقاطع واضحة، الأول (دمي DIMI) الذي يعني مدينة، والثاني (شا Š) ويعني مرج أو روضة، والثالث (كا أو كي KI) وهي لاحقة، كما في اللغة الأكادية، تُشير إلى أن الاسم لمكان أو لمدينة، استُعيض عنها بحرف القاف، وعند تركيب هذه المقاطع الثلاثة يتبيَّن لنا أن اسم دمشق يعني الواحةَ الخضراء، ولا شك أن هذه التسمية كانت تستحقها دمشق؛ إذ حوَّل نهر بردى غوطتها إلى جنة غناء[٦].

[6] **اسم دمشق في التاريخ:** محمود عبد الحميد أحمد، ص39.

أما الآشوريون فقد سمَّوا دمشق، في القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، باسم (مات إمريشو Mat-Imerišu) و(شا إمريشو Ša- Imerišu) بمعنى «بلاد الحمير»[٧]، ويُشير الدكتور فيصلَ عبد الله إلى أن هذه التسمية لَم يُقصد منها الإساءة إلى أهل مدينة دمشق، بل كانت الغاية منها الإشارة إلى ازدهار مدينة دمشق التجاري في ذلك العصر، حيث كان الحمار وسيلة النقل التجارية الأهم، مقابل ارتفاع سعر الخيول والجمال، ولما كانت دمشق محطّة مهمة على طرق القوافل التجارية كان من الطبيعي أن تزداد أعداد الحمير فيها[٨].

وليس بعيداً عن دمشق في جهة الجنوب؛ تُعرِّفُنا نصوصُ تلّ العمارنة (عاصمة أخناتون القديمة) على عدة إمارات سورية في سهل حوران الفسيح، منها يانوعام (تل شهاب) بمعنى بلاد النعيم، ومدينة عشتار (تل عشترة) نسبة إلى الربة السورية عشتار، التي كانت النجمة شعاراً لها، وسرعان ما تسرَّب اسمُها إلى اللغات الأوروبية الحديثة؛ ومنه لفظ ستار Star بمعنى نجمة، على حين يعني اسم بصرى (بُصرانا) الموقع الحصين، والطيبة (طوب) الأرض الخصبة الطيبة.

أما عن تسمية حوران Hauran[٩] وتعني لغةً الأرض المستوية، فقد ورد اسم حوران في الكتاب المقدس نحو ستين مرة بلفظ باشان Bashan، وفي الألف الثاني قبل الميلاد كان يطلق اسم بلا أبوم / أُبي على حوران التاريخية (جنوب سورية وشرق الأردن) مضافاً لها منطقة دمشق والغوطة وسهل البقاع[١٠]، وجاء في معجم الحضارات السامية أن حوران هي المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن بين جبلي جلعاد (مرتفعات الأردن) وحرمون، وتشمل اللجاة والسهل والجولان، وهي منطقة بركانية خصبة التربة وفيرة المياه قاعدتها أذرعي/ درعا[١١]. وقد أطلق عليها الأشوريون اسم (حورانو)[١٢]، وذلك في القرن التاسع قبل الميلاد في أعمال الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥١-٨٢٣ ق.م)، حيث ورد ذكر حوران في سياق حديث شلمنصر الثالث عن حربه مع حزائيل ملك آرام دمشق قائلاً عنه: «لقد ضيَّقتُ عليه، وقطعت أشجاره، وذهبت إلى حوران وقوَّضت مدناً لا عدد لها، وأحرقتها، وأعملت فيها السيف والنار، وأخذت غنائم عديدة»(١٣).

وقد عُثر في موقع أرسلان طاش/ خداتو القديمة على قطعة عاج من سرير فاخر، ذُكر فيها اسمُ حورانَ، وكُتب عليها: السرير الذي قدمه عما لسيدنا حزائيل بسنة أخذ حوران. كما اكتُشفت في معبد هيرا بجزيرة ساموس في بلاد اليونان قطعة برونزية مزخرفة من لجام حصان كُتب عليها بالآرامية، ورد فيها ذكر حوران، وترجمتها: هذا ما قدَّمه هدر لسيدنا حزائيل من وادي (بقعة) باشان Bashan. وفي ذات الموقع اكتُشفت حلية خيل برونزية فيها ذات الكتابة[١٤].

---

(7) Bulletin of the American Schools of Oriental Research 205; Cross, F. M, p.36.

(8) **دمشق في التاريخ من -3333 333 ق.م:** فيصل عبد الله، ص52، 53

(9) يمكن أن يكون اسم حوران على وزن الألفاظ الحميرية السبئية: كنجران، وهمذان، وغمدان، وكهلان، وحولان؛ انظر: سورية الجنوبية «حوران»: منير الذيب، ص22.

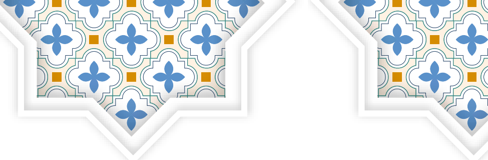
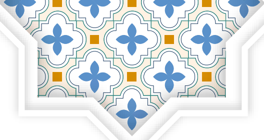
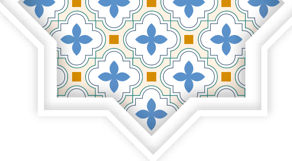
(10) انظر: وصف بلاد أُبوم/ أبي في كتاب: مراسلات العمارنة الدولية: فاروق إسماعيل، ص244. وانظر كذلك كتاب: تاريخ الوطن العربي القديم: جباغ قابلو وعماد سمير، ص260.

(11) **معجم الحضارات السامية:** هنري عبودي، ص312.

(12) **معجم الحضارات السامية**، ص37.

(13) **Assyrian Rulers of the early first millennium –B.C, II (858-745 b. c)**; Grayson, A.K., –, , p.48

(14) **دمشق عاصمة آرامية كنعانية:** علي أبو عساف، ص7.



أول نص مسماري عثر عليه في دمشق (تل سكا) سنة ٢٠٠٨م بيد الأستاذ أحمد الطرقجي، وقد قام كل من الدكتور جان ماري ديوران والدكتور فيصل عبد الله بقراءة محتوى النص

ثالثاً _ علاقات دمشق وحوران مع المصريِّين قبل عصر العمارنة:

في مطلع الألف الثاني كان جنوب سورية نقطة انطلاق مهمة للهكسوس(١٥) باتجاه مصر، يشهد على ذلك فخّارهم الذي خلَّفوه في تل شهاب والأشعري ودرعا وغيرها، والفخار العائد للهكسوس يمكن تمييزه من خلال وخزات صغيرة ومتعدّدة فيه(١٦).

وفي القرن الثامن عشر قبل الميلاد ورد ذكر بلدات حوران في نصب معبد سقارة (١٧)، حيث رُتِّبَت أسماؤها وفق تسلسل جغرافي، فأسماء المدن المأخوذة من E٢٥ حتى E٣٤ هي أسماء مدن وبلدات حوران الممتدة من بيخيلي / طبقة فحل (جنوب غرب إربد) حتى أقصى شمال حوران.

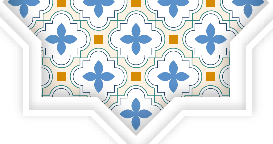
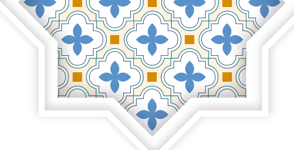
وبعد طرد الهكسوس من مصر على يدي أحمس الأول (١٥٥٠-١٥٧٥ ق.م) بدأ التوسُّع المصري في جنوبي سورية، وكان الهدف منه هو الحفاظ على حدود مصر آمنة، فتوغَّل الفرعون المصري أحمس الأول في جنوبي فلسطين في السنوات السبعة الأولى من حكمه، كما تابع توغُّلَه في شمالي فلسطين في السنوات الأخيرة من حكمه(١٨). وتوغَّل في حوران ومنطقة دمشق حتى وصل إلى سفوح جبل لبنان؛

(15) الهكسوس: كلمة مشتقة من اصطلاح حقا- خاسة أي رئيس البلد الأجنبي. والهكسوس قبائل أمورية كانت تُقيم في بلاد الشام في الألف الثاني ق.م، هاجرت إلى مصر نتيجة الهجرة الهندو- أوربية (الحورية الميتانية) إلى سورية. استطاعت القبائل الأمورية أن تحكم مصر منذ عام 1730ق.م. للاستزادة عن الهكسوس تاريخهم وأصولهم وطردهم من مصر، انظر: دراسات في تاريخ مصر الفرعونية: محمود عبد الحميد أحمد، ص123.

(16) لقد كان التسرب من الشرق القديم باتجاه مصر دائماً ومستمرّاً، حيث لا يوجد أي فاصل طبيعي، ولم تأخذ الهجرة طابع الغزو إلا في هجرة الهكسوس.

(17) **سورية الجنوبية «حوران»**، ص19.

(18) **THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY**- Vol II- Part 1- History of the Middle east and the Aegean region c. 18001380- B.C. p.526


بدليل أن نقش محجر معصرة (جنوب القاهرة الحالية) يتحدث عن الحجارة التي سُحبَت بوساطة الثيران التي غنمها الفرعون من الفنخو (الفينيقيين)، ويُشاهَد في النقش صورة لستة ثَيران تسحب الحجارة يسوقها رجلان ملتحيان بلحية قصيرة؛ يُعتقَد أنهما من الأسرى السوريين الذين وقعوا في قبضة هذا الفرعون[١٩].

وهكذا استطاع أحمس الأول أن يَحمي حدود مصر، فلم يجرؤ أحد من السوريين عليها طوال عهده وعهد خليفته أمنحوتب الأول (١٥٥٠– ١٥٢٨ق.م) الذي ركَّز اهتمامَه على شؤون مصر الداخلية[٢٠]، وكان بعكس خليفته تحتمس الأول (١٥٢٨– ١٥١٠ ق.م)، الذي حارب في جنوب مصر وشمالها، وخاض عدة حروب في سورية، حتى وصل إلى نهاريا Naharia على الفرات، وقبل أن يغادر تلك المنطقة نقش نصباً تذكاريّاً تخليداً لانتصاره على الدولة الميتانية.

وقد بقيت الجبهة السورية هادئة طوال عهد تحتمس الثاني (١٥١٠– ١٤٩٠ ق.م)، ووريثته الملكة حتشبسوت (١٤٩٠– ١٤٦٨ق.م)، التي كان لها سياسة مختلفة عن الملوك الذين سبقوها، حيث فضَّلت إقامة العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الدول المحيطة بمصر[٢١].

لم يَطُلْ عهد السلام المصري في الشرق العربي القديم، فقد اعتلى الملك بارتارنا Parrattarna عرشَ الدولة الميتانية حوالي سنة ١٧٤٠ ق.م، وكان لديه تطلُّعات توسُّعية كبيرة في المنطقة، وبالفعل سرعان ما سيطر على شمالي سورية (حلب والألاخ)، ولم تتوقَّف أطماعُه في جنوبيِّها، فراح يُحرِّض إمارات حوران وفلسطين للتمرُّد على السيادة المصرية، مستغلاً النتائج الكارثية لسياسة مصر الخارجية في عهد حتشبسوت، المتمثلة في إهمال المناطق التي كانت تُسيطر عليها مصر في سورية، وأدى ذلك إلى ضعف سيادة الإمبراطورية المصرية في سورية، طبعاً تسبَّب هذا الأمر في ردة فعل واسعه في أوساط الكهنة المصريين الذين توقَّفت مواردهم نتيجة توقُّف حروب الجيش المصري، وفي أوساط ضباط الجيش الذين شعروا بالإهانة نتيجة خسارة الشمال السوري، وتمرُّد أمراء حوران وفلسطين على السيادة المصرية، ورفضهم تقديمَ الجزية المترتّبة عليهم، وهذا ما دفعهم لتنحية الملكة حتشبسوت، وتتويج تحتمس الثالث (١٤٣٦-١٤٦٨ ق.م) على عرش مصر، باحتفال ديني مهيب.

ولمّا تسنَّم تحتموس الثالث العرشَ تحالفت الإمارات الفلسطينية – السورية (ومن ضمنها إمارات حوران) بقيادة دروشا Drosha أمير قادش/ تل النبي مند (قرب القصير- غرب حمص)، للوقوف في وجه أطماع الفرعون الجديد في بلادهم، وتكتَّل المتحالفون في مجدو[٢٢]/ تل المتسلم (شمالي

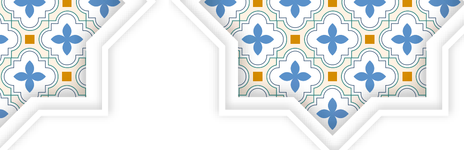
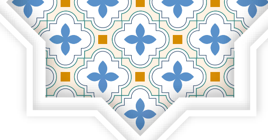
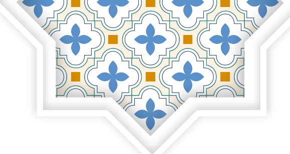
---

(19) **سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ:** محمود عبد الحميد أحمد، العلاقات بين مصر وسورية منذ أقدم العصور إلى نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، ج1، ص56.

(20) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، 136.

(21) حول أوفى المعلومات عن حروب تحتمس الأول وعهد تحتمس الثاني والملكة حتشبسوت، **انظر دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص136.

(22) مجدو وتعني لغة الحصن، وهي مدينة كنعانية تقع على بعد حوالي 27 كلم جنوب شرق حيفا، وتأتي أهميتها من موقعها على تقاطع أهم الطرق العسكرية والتجارية التي تربط مصر مع سورية وبلاد الرافدين. وقد جرت فيها تنقيبات أثرية مبكرة منذ سنة 1903م على يد الباحث الألماني شوماخر، وتبين فيما بعدُ أن الاستيطان البشري بدأ فيها منذ الألف الرابع قبل الميلاد، كما كشفت التنقيبات الأثرية الحديثة أن مجدو كانت مدينة كبيرة ومحصنة بأسوار ولها بوابة ضخمة في الألف الثاني قبل الميلاد، انظر: **Back to Megiddo; Finkelein, I., & Ussishkin, D, in (B.A.R) Vol: 20, p.31**.



ثاني نص مسماري عثر عليه في دمشق (تل سكا) سنة ٢٠١٠م بيد الأستاذ أحمد الطرقجي، وقد قام كل من الدكتور جان ماري ديوران والدكتور فيصل عبد الله بقراءة محتوى النص

فلسطين). ويتحدث نقش لوحة نبتة الذي عُثر عليه في النوبة (في جبل بركل)، ويرجع تاريخه إلى زمن هذا الفرعون، أن ٣٣٠ أميراً من جنوبي سورية كانوا في هذا التحالف، الذي لقي كلَّ الدعم والتشجيع من الميتانيين[٢٣].

لم يكن تحتمس الثالث ليقبل بالواقع المخزي للسيادة المصرية على جنوبي سورية، مدفوعاً بتشجيع الكهنة وحماس ضباط الجيش، فتحرك الجيش المصري في اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع (١٩ نيسان ١٤٦٨ ق.م) قاصداً مجدو؛ المدينة التي تحصَّن فيها الأمراء السوريون المتمرّدون. ومن الواضح من خلال سَير العمليات أن بعض الإمارات السورية بقيت على ولائها لمصر، وخاصة في جنوبي فلسطين، حيث استطاع تحوتموس الثالث أن يجتاز المسافة الفاصلة بين حصن ثارو (تل أبو صفية حاليّاً شرق مدينة القنطرة) على الحدود المصرية، وبلدة يوحم yhm[٢٤] في فلسطين، دون أن يلقى مقاومة تُذكر.

وقد وصل الجيش المصري أولاً إلى غزة بعد مسير عشرة أيام، ولم يَقض فيها أكثر من ليلة واحدة، ثم تابع المسير إلى بلدة يوحم التي وصلها ربما في اليوم العاشر من أيارٍ، وفيها سمح لجنوده بأخذ قسط من الراحة بعد رحلة الزحف الطويلة، والجيش فيه أعداد كبيرة من المشاة، وفي أثناء قسط الراحة الذي أخذه الجنود بعث الفرعون المصري عيونَه والاستطلاع ليتبيَّن أمرَ العدو، وبعد أن توفَّرت له المعلومات الكافية عقد مجلسه الحربي في بلدة يوحم، من أجل اختيار أفضل الطرق إلى مجدو.

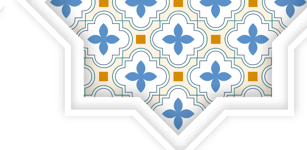
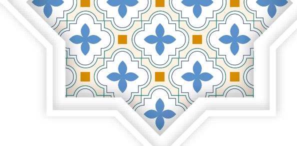
كان أمام تحتمس ثلاثة طرق، أيسرها طريق عارونا، وهو الطريق الذي يخترق جبال الكرمل وصولاً إلى مدينة مجدو مركز الثوار، ومع أنه كان ضيِّقاً في بطن واد، إلا أنه الأقصر، ولم يتوقع السوريون بأن الجيش سيسلك هذا الطريق، بل توقَّعوا أن يسلك طريقَ تاعناخ لذلك ركَّزوا قواتهم عليه. وعند مخرج الوادي وقف الفرعون المصري منتظراً تقدُّم باقي قواته، ومع تقدُّم كامل القوات المصرية خيَّم الليل، وخلال سبع ساعات من مطلع شمس اليوم التالي وصل الجيش المصري إلى مدينة مجدو.

وعلى ضفة وادي قنا نُصبت الخيمة الملكية، وأصدر تحتمس أمرَه الحربي التالي: «جهّزوا

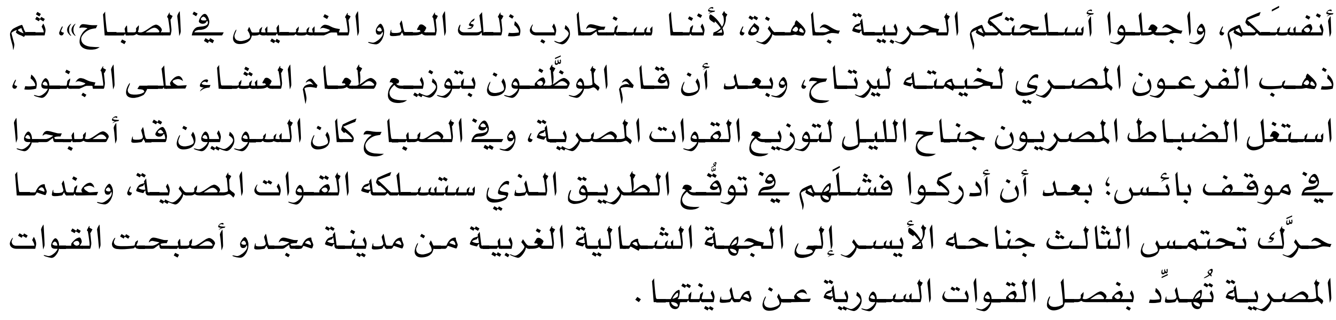
---

(23) **سورية القديمة، التاريخ العام:** عبد الله الحلو، الكتاب الأول، ص587.

(24) حسب نيلسون من المحتمل أنها مدينة يما yemma الحالية التي تقع في الجانب الجنوبي من سلسلة جبال الكرمل، وتبعد حوالي 130كلم شمال مدينة غزة، انظر: **سلسلة العلاقات السورية المصرية**، ص71.





أنفسَكم، واجعلوا أسلحتكم الحربية جاهزة، لأننا سنحارب ذلك العدو الخسيس في الصباح»، ثم ذهب الفرعون المصري لخيمته ليرتاح، وبعد أن قام الموظَّفون بتوزيع طعام العشاء على الجنود، استغل الضباط المصريون جناح الليل لتوزيع القوات المصرية، وفي الصباح كان السوريون قد أصبحوا في موقف بائس؛ بعد أن أدركوا فشلَهم في توقُّع الطريق الذي ستسلكه القوات المصرية، وعندما حرَّك تحتمس الثالث جناحه الأيسر إلى الجهة الشمالية الغربية من مدينة مجدو أصبحت القوات المصرية تُهدِّد بفصل القوات السورية عن مدينتها.

ولم يكن أمام الفرعون المصري متَّسعٌ من الوقت، فبادر بالانقضاض على مدينة مجدو، التي أغلقت أبوابها، «والآن فإن السكان قد أغلقوا المدينة، ولكنَّهم أدلَوا بالجلابيب إلى أسفل ليرفعوهُم إلى أعلى، ومن ثَمَّ إلى داخل المدينة»، ويكون بذلك قد وقع معسكر السوريين كاملاً بأيدي الجنود المصريين، الذين انهمكوا في نهب محتوياته، ونسوا الفرصة الذهبية في متابعة الخصم وفتح المدينة، ولم ينفع في هذا المقام توبيخ الملك لأنه جاء متأخّراً. أما الأسلاب والأسرى في ساحة المعركة فقد جاء وصفُها في حوليات الكرنك كما يلي: «وقد قبضَ على خيولهم وعرباتهم المصنوعة من الذهب والفضة التي كانت غنيمةً سهلة، أما عساكرهم فقد رقدوا ممدَّدين على ظهورهم كأنهم سمك في حبل الشبكة، في حين تابع جيش جلالته المنتصر الاستيلاء على ممتلكاتهم، والآن فقد استولى على خيمة ذلك العدو الخسيس التي كانت مشغولة بالفضة».

ضرب المصريون حصارَهم الخانق على المدينة، وكان سقوطها أمراً مهمّاً للفرعون المصري، الذي قال مخاطباً جنودَه: «لقد استوليتُ على ما فيه الكفاية يا جيشي المظفَّر، كلُّ الأقطار الأجنبية وُضعت داخل هذه المدينة بفضل الإله رع في هذا اليوم، كما أن كلَّ أمراء الأقطار الشمالية قد حُصروا بداخلها، إن الاستيلاء على مجدو يعادل الاستيلاء على ألف مدينة».

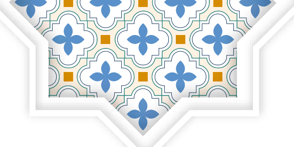
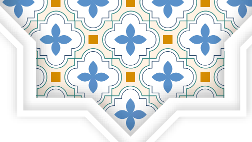
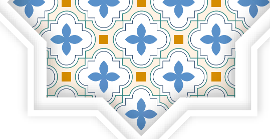
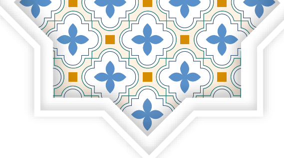
في الواقع لم يكن الفرعون المصري يُبالغ بأن الاستيلاء على مجدو يعني الاستيلاء على كامل مدن وبلدات جنوبي سورية، لأن أمراءها كانوا قد تحصَّنوا بها. فما كان من الجنود المصريين إلا أن قاموا بأخذ قياسات المدينة، وأحاطوها بخندق ثم بسور خشبي صُنع من أشجار المنطقة، وقد صدرت الأوامر للحراس المصريِّين باليقظة والحذر، وألا يَسمحوا بأن يخرج أحد من المدينة، وبعد حصار دام سبعة أشهر خرج الأهالي متضرِّعين إلى جلالة الفرعون قائلين: «امنَحْنا نفسَك يا سيدنا، إن أقطار رتنو لن تُعيد التمرُّد ثانية».

ثم أرسلوا أطفالهم وأطفال الأمراء الذين كانوا معهم حاملين جزية وفيرة من الذهب والفضة، وكل خيولهم التي كانت معهم، وكذلك مركباتهم التي كانت مرصعة بالذهب والفضة، إضافة إلى تلك التي كانت مدهونة. وقد حمل الأطفال أسلحة الحلفاء المختلفة من دروع وسهام وأقواس، على حين كان المحاصَرون يقفون على أسوار المدينة يكيلون المديح لجلالة الفرعون طالبين أن يمنح لهم الحياة.

وهكذا لم يُكتب لهذا التحالف النجاحُ، فقد سقطت مجدو بعد حصار دام سبعة أشهر، وهُزم الحلفاء، حيث يرد ذكر ١١٩ إمارة من جنوب سورية وقع حكامها بالأسر[٢٥] (ما يقارب النصف).

---

(25) سلسلة العلاقات السورية المصرية، ص153. وانظر: سورية القديمة، التاريخ العام، ص587-588.



تل سكا تصوير الأستاذ أحمد طرقجي

وعاد أمراؤها إلى بلداتهم على ظهور الحمير بعد أن عفا عنهم الفرعون الذي أخذ خيولهم، «عادوا على ظهر حمار، لأنني كنتُ قد أخذتُ خيولَهم»، وقد قُدِّر لزعيم هذا التحالف (أمير قادش) أن ينجو من الأسر، إلا أن أسرته وأولاده وقعوا في الأسر وقد اصطحبهم الفرعون معه إلى مصر.

وأخيراً هناك سجلات مفصَّلة في نقوش معبد الكرنك في الأقصر عن الدمار الذي لحق ببلدات ومدن فلسطين وسورية، بما فيها إمارات حوران، التي سقطت بيد تحتموس الثالث[٢٦]، وفي الواقع فإن ذكر أسماء بلدات ومدن حوران لا يعني أن هذه المدن والبلدات قد خضعت للسيادة المصرية، لكنه يُشير بوضوح إلى موطن العنصر الفاعل في المعارضة السورية[٢٧]، لذلك لم يكن تحتموس الثالث مطمئنّاً لنصره في مجدو، فأكمل مسيره باتجاه حوران وأخذ ينوأما Yenoam (Ynwc mw) / تل شهاب[٢٨]، وبلدتين أخريين هما جرناكوا Herenkeru (Hwrnk rw) تل الجابية، ونوجس Nuges (Nywges) نوى[٢٩].

---

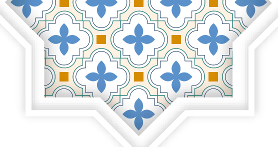
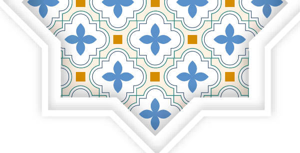
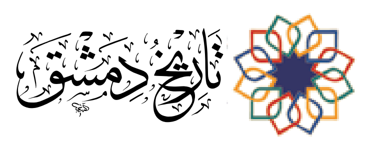
[26] **THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY**- Vol II- Part 1- History of the Middle east and the Aegean region c. 18001380- B.C. p527

[27] **تاريخ سورية السياسي 3000-300 ق.م:** هورست كلينغل، ص107.

[28] حول مطابقة اسم **ينوأما** / يانوعام مع بلدة تل شهاب الواقعة شمال غرب مدينة درعا، استناداً إلى نصوص تل العمارنة، راجع **مراسلات العمارنة الدولية**، ص482.

[29] Ancient records of Egypt; Breasted, J. H., Vol II, p.557

والأستاذ بريستد لا يحدد بدقة موقع جرناكوا ونوجس، ربما أن إمارة نوجس: هي مدينة نوى جرناكوا: تل الجابية، وهو أحد التلال الأثرية بجانب بلدة نوى، وهذا منطقي بحكم أن هذه الإمارات ذكرت في سياق واحد.

وبذلك يكون تحتموس الثالث ضرب معارضيه في عقر دارهم، وقد أوقف تحتموس هذه البلدات الثلاث على معبد أمون[٣٠]. وبعد أن قام ببناء حصن فيها سماهُ (منخبر رع حابس المتوحشين). أما غنائم هذه البلدات الثلاث فقد كانت وفيرة: أولاً ٣٨ من طبقة المارينو المحاربة، و١٠٣ أشخاص تائبين خرجوا عن أمير ينوأما، وطاسات من الحجر الثمين والذهب، وأوانٍ مختلفة، وجرة واسعة بنموذج من الصناعة السورية، وطاسات أواني شرب مختلفة، وصوان، وغلايات واسعة، وسبعة عشر سكيناً من الذهب، وأسطوانات فضية، وثلاثة عكازات برؤوس بشرية، وستُ محفات من العاج والأبنوس، ونوع آخر من الخشب مشغول بالذهب، وستُ طاولات من العاج، وسرير واحد مشغول بالذهب وبكل أنواع الحجر الثمين، وتمثال من العاج المشغول بالذهب، ورأسه من اللازورد، وأوانٍ برونزية، وكمية كبيرة من القماش[٣١].

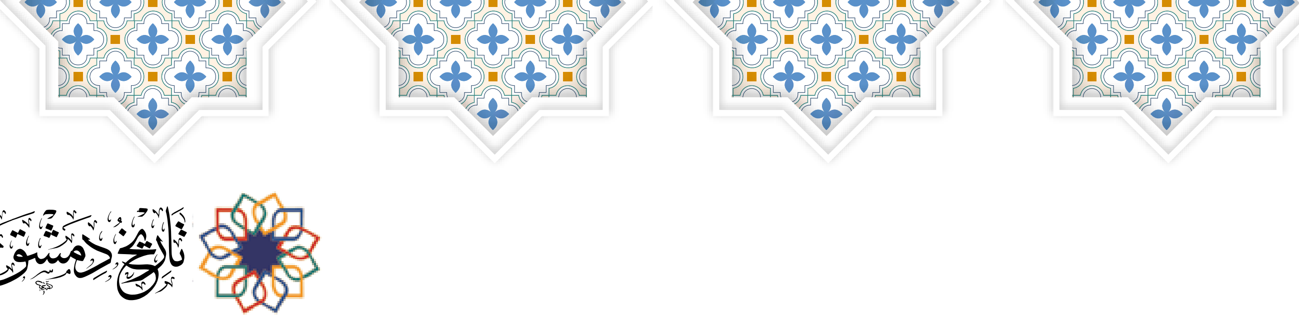
وقد غادر تحتموس الثالث هذه البلدات بعد أن قام بتعيين أمراء جدد في جنوبي سورية، كانوا من الموالين له بعد أن قبلوا الخضوع له، وتعهَّدوا بدفع الجزية بانتظام في مواعيدها. كما اصطحب معه ٨٤ طفلاً إلى مصر؛ من أبناء الأمراء السوريين الذين تمرَّدوا على سيادته[٣٢]، ليتدرَّبوا على الإدارة، وعلى حب الفرعون المصري في قصره في طيبة، ويكونوا ضماناً على إخلاص آبائهم، ولينشؤوا نشأة مصرية في الذوق والتعليم والمأكل والملبس، وفي كل أنماط الحياة، وكان يُسمح لكلِّ واحد منهم بالعودة ليكون حاكماً على بلده عند موت حاكمها الأصلي. ولم يُكمل الفرعون المصري طريقَه باتجاه الشمال، فإن هجوماً مصريّاً على قادش عاصمة التحالف السوري أمرٌ بعيد الاحتمال، ولا يدعمه أي دليل مكتوب[٣٣].

ولا بدَّ من الإشارة إلى أن تحتموس الثالث قاد بعد معركة مجدو ١٦ حملة عسكرية على سورية، كانت الحملة الثانية في سنة ١٤٦٦ ق.م، كان الهدف منها تفقُّدَ الأحوال وجمع الجزية من جنوبي سورية (أمراء حوران وفلسطين)، والقيام باستعراض عسكري، وقبول خضوع القبائل والأسر السورية الحاكمة والهدايا التي تُقدَّم في مثل هذه المناسبات. وتجدر الإشارة إلى كميات الذهب والفضة واللازورد والخيول والماشية والخشب، والعبيد من كلا الجنسين والعربات المشغولة بالذهب والفضة، التي قدمها أمراء جنوبي سورية، كجزية للفرعون المصري خلال هذه الحملة.

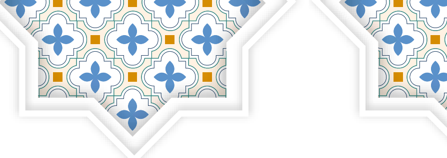
وكانت الحملة الثالثة عشرة التي حدثت في السنة الثامنة والثلاثين من حكمه، موجَّهه ضد جنوبي سورية، حيث تسلم الفرعون الجزية من حوران، وتحديداً من بلدة نوجس/ نوى[٣٤].

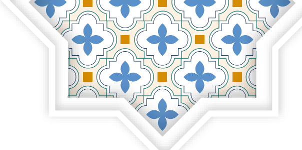
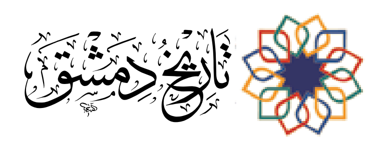
---

(30) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص155.
وبالإنكليزية انظر: The Annals in Karnak; Wilson. J., p.237
(31) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص 155.
(32) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص155.
(33) **تاريخ سورية السياسي 3000-300 ق.م**، ص107.
(34) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص 168.



نماذج من فخار حوران – هكسوس



رابعاً _ دمشق وحوران خلال عصر العمارنة(٣٥):

خضعت حوران للسيادة المصرية منذ حملة تحتموس الثالث على فلسطين وسورية، وسقوط أهم مدنها ينوأما/ تل شهاب بيده. وقد أولى المصريون حوران أهمية خاصة من أجل محصول القمح والزيت (٣٦)، الذي استغلَّه المصريون مثلما استغلوا ثمار الفاكهة في الغوطة وباقي منتجات سورية الزراعية(٣٧).

ولما كان المصريون قد قسَّموا بلاد الشام إلى ثلاث مناطق إدارية: شمالية وعاصمتها صُمر/ تل الكزل، وجنوبية عاصمتها خزة/ غزة، وشرقية تدعى أبوم / أبي(٣٨) عاصمتها كاميدي/ كامد اللوز(٣٩) في البقاع، كانت إمارات حوران ودمشق تتبع للرقيب المصري المقيم في كاميدي، الذي كانت وظيفته تُعرف باسم رابو rabû. إلا أن إمارات حوران عموماً كانت كبيرة ومحصنة، وتحكم نفسَها بنفسها، كما هو الحال مع إمارة بصرانا/ بصرى(٤٠)، وقرنيم/ الشيخ سعد(٤١)، وعشتار/ تل عشترة(٤٢)، وينوأما/ تل شهاب(٤٣)، وشرونا Sharon/ عين عفا (قرب دير العدس)، وموشيخونا/ الشيخ مسكين، وزيري باشان/ تل حمد (قرب الشيخ مسكين)، وطوبو/ الطيبة، وأدري/ درعا، ونصيبا / نصيب، وخَلُنو Khalunnu / تل الجامد (على وادي العلان)، وقانو/ قنوات، وتل بيروت، وتل بويضان (شمال

(35) اصطلح المؤرخون على تسمية هذا العصر بعصر العمارنة، وهو يشمل حكم أمنحوتب الثالث وعهد ولده وخليفته أخناتون. حيث تغطي وثائق أرشيف العمارنة فترة ثلاثين سنة أو أقل. والعمارنة اسم قبيلة مصرية توطَّنت على التل الذي صار يُعرف بتل العمارنة، ويقع على بعد نحو 300 كم جنوبي القاهرة، على الضفة الشرقية لنهر النيل، ويحوي آثار «أخت آتن» عاصمة أخناتون. انظر: **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**: عبد الله السليمان، ص234.

(36) قدمت التنقيبات الأثرية في سنة 2006 في تل دبة الدليل الأحدث عن العلاقة التجارية بين إمارات حوران ومصر، فقد تم الكشف عن أختام التجار المصريين جنباً إلى جنب مع أباريق الزيت الكنعانية الشهيرة بحجمها الصغير وشكلها الكروي وعنقها الطويل وفوهتها الضيقة، التي رُصِّعت بحبيبات حجرية ذات ألوان بيضاء أو حمراء زاهية، انتظمت في خطوط مستقيمة ومتعرجة. انظر: **دمشق عاصمة آرامية كنعانية**، ص74.

(37) كانت قاعدة الاقتصاد السوري تقوم على الزراعة بسبب خصوبة الأرض وملاءمة المناخ. وقد ذُكرت الحنطة والشعير كمحصول رئيسي في سورية، كما ذكر السمسم والخن والخشخاش والكتان كذلك. وذُكرت الجلبانة كعلف للخيول وكانت تشتهر بها الألاخ. وأشتهر عنب أوغاريت. واكتسبت البيرة السورية سمعة جيدة في مصر. وصدَّرت سورية زيت الزيتون المعدّ للأكل، وصدَّرت أنواعاً عديدة مخصصة للدهن. ويتكرر ذكر الخراف في مملكة الآلاخ وكركميش على الفرات، وكانت الخراف تُسمَّن بالذرة. ولمعلومات مفصلة انظر:

THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY- Vol II- Part 1- History of the Middle east and the Aegean region c. 1800-1380 B.C., p.509

(38) **تاريخ الوطن العربي القديم**، ص260. وانظر **سورية القديمة، التاريخ العام**، ص602.

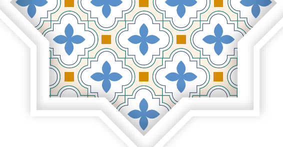
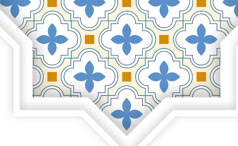
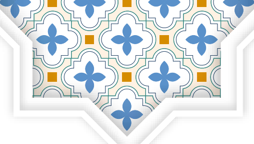
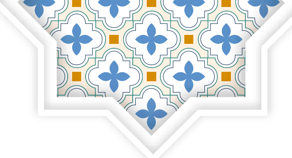
(39) يقع تل كامد اللوز في الجزء الجنوبي الشرقي من سهل البقاع، وهو موقع استراتيجي تمرُّ منه القوافل التجارية، وفي فترة العمارنة أصبحت المدينة مقرّاً للموظف المصري، وقد أظهرت التنقيبات الأثرية إبريقاً فخارياً نُقش عليه اسم رابو rabû إشارة إلى الموظف المصري. انظر: **آثار بلاد الشام القديمة**: علا التونسي وآخرون، ص197.

(40) يرد ذكر إمارة بصرانا/ بصرى Bosruna مع أسماء المدن والإمارات التي دونها الفرعون المصري أمنحوتب الثالث على القواعد الحجرية للتماثيل التي أقامها في معبده الجنائزي في طيبة الغربية، انظر: **دمشق في المصادر الآشورية**: عيد مرعي، ص62.

(41) قرنيم/ الشيخ سعد: تبعد عن مدينة نوى حوالي 7 كم. اكتشف بها أسدان بازلتيان كبيران، وكمية كبيرة من الذهب، والحلي، والفخار في عام 1921م. وقد كان الأسدان منتصبان على مدخل المدينة الجنوبي، دليلاً على عظمة المدينة. والمكتشفات موجودة في متحف دمشق الوطني. انظر: **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**، ص235.

(42) عشتار/ تل عشترة: تبعد عن مدينة نوى حوالي 5 كم. ولا بد من الإشارة إلى أن بعض الدراسات تذكر المدينة باسم (عشتروت)، وهذا خطأ مردُّه إلى استخدام المصطلحات التوراتية في التاريخ، والأصح أن اسم المدينة هو عشتار، الذي يتطابق مع اسم الربة السورية المشهورة عشتار، التي كانت النجمة شعاراً لها، وقد انتقل اسمها إلى اللغات الأوروبية الحديثة بلفظ ستار بمعنى النجمة، وقد عُبدت هذه الربة في حوران، وكانت حُوران مقرّاً لعبادتها، وما زالت نقوش النجوم ورسوماتها تملأ آثار حوران، التي لم تُدرس حتى اللحظة. انظر: **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**، ص235.

(43) ينوأما/ يانوعام/ تل شهاب: كانت مركز الثقل في حوران، في عصر العمارنة، بفضل موقعها المتميز وغناها، وشخصية حاكمها بريدشوا الذي قاد المعارضة في حوران، ضد الفرعون المصري. تم الكشف بها عن فؤوس برونزية، عُثر على مثيل لها في مملكة إبلا وفي مدينة بصرى وفي المتونة.


اللجـاة)، وتـل دبـة (جنـوب قريـة بريكـة)، وتـل الديلـي، ونوجـس/ نـوى، وكـوم الـوادي (قـرب نـوى)، وبيخيلـي/ طبقـة فحـل (جنـوب غـرب أربـد)، ويتكـرَّر ذكـر أسـماء إمـارات حـوران في كتابـات المسؤول المصـري المقيـم في كاميـدي، الـذي أُوكلـت لـه مهمـة حـلِّ الخلافـات الداخليـة في المنطقـة[٤٤].

ومـع تراخـي السـيادة المصريـة بـدأت الخلافـات بـين الإمـارات السـورية الجنوبيـة، علـى أسـس الـولاء أو المعارضـة للمصريـين، وحدثـت مواجهـات بـين بيرياـوزا حاكـم دمشـق[٤٥] وايتكمـا ملـك كنـزا/ قـادش، فوقـف ارتمانيـا حاكـم زيـري باشـان/ تـل حمـد إلى جانـب دمشـق والسـيادة المصريـة[٤٦] كمـا ادَّعـى، حيـث كتـب ارتمانيـا الرسـالة رقـم ٢٠١ إلى فرعـون مصـر، وجـاء فيهـا: خادمـك لقـد جثـوت لـدى قدمـي الملـك سـيدي سـبع مـرات ثـم سـبع مـرات. هـا قـد كتبـت إلي لاسـتقبال القـوات المحاربـة فمـن أكـون أنـا؟ كيـف لا أذهـب. هـا ذا أنـا، مـع قواتـي وعرباتـي متجـه لاسـتقبال القـوات المحاربـة، إلى حيثمـا قـال الملـك سـيدي.

كمـا أن حاكـم قانـو/ قنـوات أرسـل الرسـالة رقـم ٢٠٤ لفرعـون مصـر[٤٧]، يتحـدث فيهـا عـن ذات الفكـرة، وممـا جـاء في رسـالته: لقـد جثـوت لـدى قدمـي الملـك سـيدي سـبع مـرات ثـم سـبع مـرات أنـت كتبـت إلي لاسـتقبال القـوات المحاربـة فهـا أنـا ذا أنـا، مـع قواتـي وعرباتـي [متجـه] لاسـتقبال القـوات المحاربـة التابعـة للملـك، سـيدي إلى حيثمـا تسـير.

وكتـب حاكـم إمـارة طوبـو/ الطيبـة[٤٨] الرسـالة رقـم ٢٠٥ يعلـن فيهـا اسـتعداده لاسـتقبال القـوات المصريـة[٤٩]، وجـاء في الرسـالة: أنـت كتبـت إلي لاسـتقبال القـوات المحاربـة فهـا أنـا ذا أنـا، مـع قواتـي وعرباتـي [متجـه] لاسـتقبال القـوات المحاربـة التابعـة للملـك، سـيدي إلى حيثمـا تسـير.

وكتـب حاكـم إمـارة نصيبـا / نصيـب الرسـالة رقـم ٢٠٦، جـاء بهـا [٥٠] مـا جـاء برسـالة طوبـو/ الطيبـة. كمـا حافـظَ أماواشـي [٥١] وهـو أحـد أمـراء حـوران علـى ولائـه لفرعـون مصـر، كمـا هـو وارد

---

(44) اقترح البعض أن تكون روبورت الوارد ذكرها في الرسالة رقم 289 **تل بيروت**، الذي يقع في أرض دير البخت. لكن الدكتور فاروق إسماعيل يقترح أن روبورت ربما تكون تل السعدية غرب بيت لحم. واقترح البعض أن يكون **تل بويضان**، الذي يقع على أطراف اللجاة الشمالية، أحد مدن الألف الثاني ق.م باسم: أوبيل. وتل دبة باسم: دوبي، الذي يقع جنوب قرية بريكة. **وتل الديلي** باسم: فدانا. واقترح البعض أن يكون **كوم الوادي** الذي يقع بالقرب من مدينة نوى أحد مدن الألف الثاني قبل الميلاد. إن مطابقة التلال مع أسماء المدن الواردة في نصوص العمارنة كان من عمل نيلسن غوليك Nelson Glueck وهو عمل صعب بسبب عدم قيام تنقيبات كاملة في هذه التلال، انظر:

THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY; History of the Middle east and the Aegean region c. 13801000- B.C. 2008- Vol II - part2 - p107.

(45) أفضل الدراسات المقدمة عن تاريخ دمشق في الفترة التي نحن بصدد التحدث عنها، باللغة الإنكليزية هي:

Ancient Damascus Eisenbrauns; Wayne T. Pitard - 1987

وبالعربية: أحمد طرقجي، دمشق وغوطتها في الألف الثاني قبل الميلاد، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق.

(46) **تاريخ آثار وتراث حوران: بركات توفيق الراضي**، ص179.

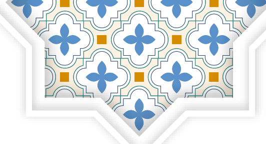
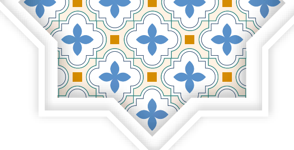
(47) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص486 + ص489.

(48) طوبو/ الطيبة: إحدى بلدات حوران تبعد عن مدينة درعا حوالي 13كم، تقع بين مدينة درعا ومدينة بصرى، على وادي الزيدي الرافد الأساسي لليرموك. عُثر بها على جرار معدة لحفظ العطور تعود لفترة الألف الثاني ق.م. كما كانت مقراً لإمارة آرامية في الألف الأول ق.م وشاركت في حروبها المتعددة. وعثرت بها بعثات التنقيب الفرنسية (ماري كلير كوفان) عام 1962 على آثار نطوفية. انظر: **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**، ص236.

(49) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص490.

(50) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص491.

(51) أماواشي: ربما أن هذا الأمير قد حكم تل الحارة أو الأشعري. لا نستطيع الجزم دون تنقيبات أثرية. كما أن الدكتور فاروق إسماعيل يشير أن معنى الاسم غامض.


في الرسالة رقم ٢٠٢ وموقع مدينته غير معلوم [٥٢]، لكن الكلمات المستخدمة في رسالته هي ذاتها الكلمات المستخدمة في رسائل حكام الطيبة ونصيب وقنوات، ربما أن علاقات ما كانت تربطه مع أمير زيري باشان، وأمير الطيبة، وأمير نصيب، وأمير قنوات، لذلك استخدموا جميعُهم ذات الصياغة، وتكلّموا عن ذات الفكرة، وهي استقبال القوات المصرية.

لابد من التعليق على الرسائل التي تحمل الأرقام ٢٠١ و٢٠٢ و٢٠٤ و٢٠٥ و٢٠٦، بأنها جميعها مرسلة من إمارات حوران إلى أخناتون، وتحمل ذات الصيغة، وتتحدث عن ذات الفكرة. أولاً: ليس بوسعنا أن نُعلّق على المرسل والمرسَل إليه. ثانياً: لا بد من الإشارة إلى لغة الرسائل، التي تتحدث عن استقبال القوات المصريةَ، في وقت لم يكن أخناتون يُفكّرُ بإرسال أي قوات إلى جنوب سورية، وهو في خضمّ إصلاحه الديني، ونزاعه الحاد مع كهنة آمون. ولو كانت هذه الإمارات صادقة في كلامها لتحالفت مع حاكم دمشق، الذي ظلَّ مُصراً على ولائه للفرعون المصري.

وجميعُهم طلبوا العون من الفرعون، في وقت كانت كلُّ الدلائل تُشير إلى أن فكرة إرسال جيش مصري إلى جنوبي سورية مستحيلة، ولو كان موقفهم صحيحاً لحاربهم أمراء حوران الذين رفعوا السلاح في وجه حاكم دمشق علناً، فإمارة طوبو / الطيبة لا تبعد أكثر من ٢٧ كم عن إمارة بصرانا Busruna / بصرى، كذلك الحال مع إمارة نصيب التي لا تبعد هي الأخرى عن إمارة بصرانا أكثر من ٣٠ كم، ولا يوجد أي حاجز يفصلها عنها، ورغم كل ذلك لم نسمع عن اقتتال داخلي بين إمارات حوران. وبذلك يُمكننا أن نُدرج ما كتبه أمراء الطيبة، ونصيب، وقنوات، وأمير زيري باشان، وأماواشي، في دائرة الرياء السياسي، وحفظ خطِّ الرجعة، ولعل الكذب في عصر العمارنة كان سمة العصر، فمن يقرأ رسالة لبآيو[٥٣] رقم ٢٥٤ وحدها يُدرك حجم الكذب في ذلك العصر[٥٤].

لعل الرسالة [٥٥] رقم ٢٤١ التي أرسلها روصمانيا حاكم شرونا Sharon / عين عفا تندرج في السياق ذاته، ولكن بفكرة خطيرة فقد كتب: «لقد قتل شخص آخر خلال خدمتي مع أني خادم وفيٌّ للملك سيدي». ربما أن هذا الشخص هو المندوب المصري. وإذا صحَّ هذا التخمين فليس هو المندوب المصري الأول الذي يُقتل، وإنما الثاني. وقتل عُمال الملوك يَعني الخروجَ عليهم، وإلا لما كان بحاجة ليقول إني خادمك الوفيّ.

أما أخطر شيء واجهته مصر فكان منع إرسال الحبوب إليها، والمعلوم أن حوران كانت مستودع حبوب روما، وربما أنها كانت كذلك أيام أخناتون، فهناك رسالة تحمل الرقم ٢٢٤ مرسلة [٥٦] من (شم أدا) حاكم مدينة شمخونا/ تل السمن، يعتذر فيها عن عدم إرسال الحبوب إلى مصر ويقول:

(52) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص487.

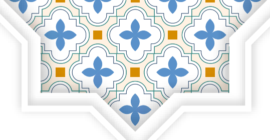
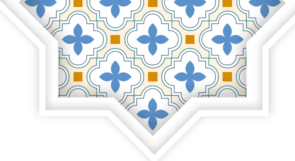
(53) لبآيا / لبآيو حاكم شكم، تقدر فترة وجود لابآيا بحوالي 1385 ق.م السنة الثانية والثلاثين من حكم الفرعون أمنحوتب الثالث. وبعد وفاته خلفه ابنه الذي كان مثله تماماً، انظر:

THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY- History of the Middle east and the Aegean region c. 1380-1000 B.C., 2008- Vol II - part2, p.100.

(54) يقول لو كتب الملك لي بشأن تسليم زوجتي فكيف لي أن أمتنع عن تسليمها؟! كيف لي أن أمتنع لو كتب الملك بشأني أنا (قائلًا): أغرز خنجراً برونزياً في قلبك، ومُت (نعم) كيف لا أنفذ طلبات الملك. راجع مراسلات العمارنة الدولية، ص543.

(55) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص527.

(56) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص509.



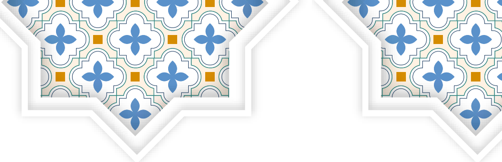
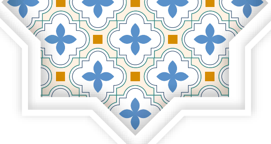
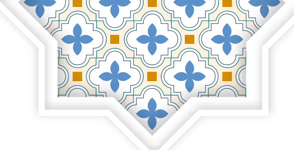
«فيما يتعلّق برسالة الملك، سيدي، عن الحبوب... (أقول) قد تلفت. ليت الملك سيدي يسأل مندوبه عما إذا كان أجدادنا منذ زمن كوسونا جدنا، ينقلون (الحبوب) دائماً».

يعتقد الدكتور فاروق إسماعيل أن شمخونا تقع في شمال شرق فلسطين، في سهل الجليل، تل شرمون أو خربة سمونيه، بينما هناك رأي آخر هو أن هذا الموقع هو تل السمن/ قرب نوى، لسبب رئيسي هو أن حوران مصدر الحبوب[٥٧]، وليس الجليل الذي يشتهر بمزروعات أخرى، كأنواع من الخضروات، وبعض الأشجار المثمرة، كما أن الاسمين متطابقان لحد ما، ما بين تل السمن وشمخونا، (على اعتبار أن قلب السين إلى شين أمر جائز في لهجات الشّرق القديم). والأهم أن الفترة التي نتحدث عنها، وهي (فترة أخناتون)، كانت فيها فلسطين بحاجة للحبوب بسبب الحروب والفوضى، فحاكم مجدو يشتكي من (لبآيا) حاكم مدينة شكم Shechem/ قرب نابلس، الذي أخذ في جنوبي سورية دور عبد عشيرتا وابنه عزيرو في شمالها[٥٨]، ففي الرسالة ٢٤٤ يقول: «ليت الملك سيدي يعلم أن لبآيا أثار حرباً عليّ منذ عودة القوات المحاربة (إلى مصر). (لذلك) لا نستطيع القيام

---

(57) حتى مدة قريبة في الأعوام التي سبقت النكبة 1948 كان قمح حوران يُشحن من محطات القطارات باتجاه ميناء حيفا، وما هو معروف عن قمح حوران بأنه أفضل أنواع القمح العالمية؛ لذلك يصلح أن يكون غذاء ملكيّاً لفرعون مصر، كما سيُصبح الغذاء المقدس الذي تناول منه السيد المسيح. انظر: **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**، ص238.

(58) **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**، ص238.


بالجز(و) الحصاد، ولا نستطيع مغادرة بوابات المدينة بسبب لبآيا، لأنه علم أن القوات المحاربة لم تأت إلينا. وها قد صمَّم على احتلال مدينة مجدو، فلْيُخلِّص الملكُ مدينته كيلا يحتلها لبآي[٥٩]!». فبالتالي لو كانت شمخونا في فلسطين لاعتذرت للسبب نفسه[٦٠].

تتحدَّث إحدى الرسائل [٦١] ورقمها ٢٦٤ عن أمير اسمه أياب[٦٢]، وكان حاكم عشتار/ تل عشترة بالقرب من نوى، يَظهر أياب في رسالة وهو يشتكي لأخناتون على ملك حاصور Hasor/ تل قداح[٦٣]، الذي أخذ ثلاث مدنٍ تتبع له، وطلب من الفرعون أن يهتمَّ بالأمر.

واللّبس في الأمر أن تصرفاتٍ أياب العدوانية تجاه حلفاء مصر جعلته يتوارى عن الأنظار، وأن مهنته كانت مهاجمة الموالين للفرعون. وقد اتَّهمَ المندوبُ المصريُ ملكَ بيخيلي/بيلا/ طبقة فحل، الذي يُدعى (موت بخلُم)، اتَّهمهُ بأنهُ يُخفي أياب لديه، فكتب له موت بخلُم[٦٤] الرسالة رقم ٢٥٦ ليؤكد فيها عدم صحة الاتّهام، ومما جاء فيها: « كيف يُقال أمامك أن موت بلخم هرب، وهو يُخبِّئ أياب؟ كيف يهرب حاكم مدينة بيخيلي من أمام مندوب الملك سيده؟ (أقسم) بحياة الملك سيدي إن كان أياب موجوداً في مدينة بيخيلي، اسأل بن إليما حقّاً اسأل تادوا حقّاً اسأل يشويا حقاً إن لم أسرع – بعد أن قام بسرقة من شلم مردوك– لنجدة مدينة عشتار بعد أن أصبحت كل مدن جاري/ شمال الجولان[٦٥] معادياً لها».

إنَّ لغة شترنا حاكم موشيخونا / الشيخ مسكين كانت الأكثر صدقاً فيما يتعلَّق بالولاء، وإصرارُه على طلب العون ومقابلة الفرعون يؤكدان ذلك، فقد كتب له الرسالة التي تحمل الرقم ١٨٢ يستنجد به [٦٦] ويقول له: «لقد جثوت على غبار قدمي الملك، سيدي، إلهي، شمسي سبعاً فسبعاً، ليت الملك سيدي يهتم ببلدانه، وليت الملك سيدي يرسل قوات حماية كي نحتل مدن الملك. وطبعاً الملك المصري غارق بإصلاحه الديني ولم يُعرِّ شترنا أذناً صاغية. مما اضطرَّ شترنا أن يُرسل ولدَه إلى مصر لشرح الموقف، وطلب المساعداتَ العسكرية، وطلب المقابلة كي يُفنِّد الأكاذيب التي افتُري بها عليه أمام البلاط المصري، حيث جاء في الرسالة التي تحمل الرقم ١٨٠ وهي في واقع الأمر تكملة لنص الرسالة رقم١٨٣يقول شترنا[٦٧]: ها قد أرسلت ابني إلى الملك سيدي، إلهي، شمسي، ليرسل

(59) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص530.

(60) **العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد**، ص238.

(61) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص555.

(62) **أياب:** يجعل بعضهم من أياب النبي أيوب نفسه، ويستدلون بتطابق الاسمين، ومن خلال ينبوع الماء العذب الذي ما زال أهل حوران يستخدمونه حتى اليوم بهدف الاستشفاء. انظر: العلاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، ص239.

(63) حاصور Hasor/ تل قداح، من مدن الألف الثاني، تقع في سهل الحولة، على بعد 8كلم جنوب بحيرة الحولة، ورد أول ذكر لها في القرن الثامن عشر قبل الميلاد في محفوظات ماري الملكية ،كأهم مملكة في جنوبي بلاد الشام، كما أنها كانت محطة لتجار ماري الذين حملوا لها القصدير. وقد تم نشر 5 وثائق من سجل ماري ورد بها ذكر مدينة حاصور، ذكر فيها المختص في تاريخ الآشوريات الأستاذ مالامات أن هناك رسالة من زمري ليم ملك ماري إلى ياريم ليم ملك يمحاض تظهر أن حاصور كانت تُصدِّر إلى ماري الذهب والفضة والحجارة الكريمة كمواد خام أو كأدوات مشغولة. ويشير علماء الآثار إلى أن مدينة حاصور قد تعرضت للحريق والدمار في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأن هذا الدمار سبَّبَ فجوة سكنية؛ حيث هُجرت المدينة لحوالي قرن كامل. انظر:

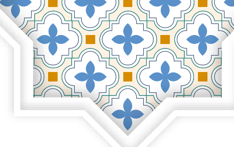
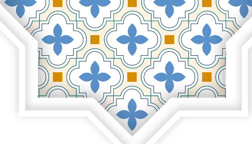
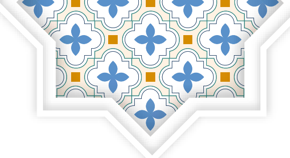
- **Silver, Gold, and Precious stone from Hazor in new Mari document, in (B.A) 46,**; Malamat, A., 1983, p.169

(64) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص545.

(65) الجولان بالفتح ثم السكون، وهي من أعمال حوران، انظر: **معجم البلدان**، ج3، ص296.

(66) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص462.

(67) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص463.

عربات مع ابني فتحمي مدن الملك سيدي، إلهي، شمسي، أرسل عربات أيها الملك سيدي، إلهي، شمسي، فتأخذني إلى الملك سيدي، إلهي، شمسي، فأدخل إلى حضرة الملك سيدي، إلهي، شمسي، وسأتحدَّث عما فُعل بالبلدان، انظر أنا الخادم الوفي للملك سيدي، إلهي، شمسي، لا بدَّ وأنه افتري عليَّ أمام الملك سيدي، إلهي، شمسي، فأرسل عربات تأخذني إلى الملك سيدي، إلهي، شمسي.

طبعاً لا نعلم ما الذي حدث مع ابن شترنا، لكن ما هو واضح من سير الأحداث أن الفتى لم يلقَ إلا الإهمال. واستمرَّ شترنا في إرسال الرسائل. ومع أن الرسالة رقم ١٨٤ لم يبقَ منها إلا اسم شترنا واسم مدينته موشيخونا/ الشيخ مسكين[٦٨]. إلا أننا نعتقد أنها كانت في سياق الاستجداء ذاته. طبعاً كان هذا الصراع يجري مع صمت كامل من قبل الرقيب المصري الذي لم يُحرِّك ساكناً.

وفي النتيجة تجمَّع حكام إمارات حوران[٦٩]، المعارضين للنفوذ المصري[٧٠]، تحت قيادة بريدشوا حاكم إمارة ينوأما / تل شهاب، الذي نسق جهوده مع حاكم إمارة بصرنا / بصرى، وإمارة خَلُنو Khalunnu / تل الجامد[٧١]، وحاكم أدري/ درعا[٧٢]، ضد بيرباوزا[٧٣] حاكم دمشق. فاشتكت دمشق من إمارات حوران لسيدها الفرعون المصري، ففي الرسالة رقم ١٩٧[٧٤] يقول بيرباوزا: خادمك في مدينة [أدري سلم] عرباته وأحصنته للهابيرو/ الخابيرو[٧٥]، ولم يسلمها للملك سيدي. من أنا؟ غايتي الوحيدة هي أن أكون خادماً. كل شيء لدي يعود للملك، لقد رأى بريدشوا هذا حدث، حرض مدينة ينوأما/ تل شهاب للتمرد علي، وسد البوابة خلفي، وأخذ العربات من مدينة عشتار وأعطاها للهابيرو، ولم يُعطها للملك سيدي، وعندما رأى ملك مدينة بصرنا، وملك مدينة خلني [ذلك]، شنوا حرباً عليَّ بالمشاركة مع بريدشوا ضدّي، وهما يقولان باستمرار له «تعالوا نقتل بيرباوزا ولا ندعه يغادر إلى .... وأنا خلصت نفسي من بين يديهم وأقاوم....... في مدينة دمشق........ كيف

---

(68) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص464.

(69) يقدر عدد السكان في التجمعات الكبيرة والمحصنة، في جنوبي بلاد الشام، في الألف الثاني قبل الميلاد، كما هو حال إمارة بصرانا/ بصرى، بما يقارب 20 ألف نسمة. انظر:

THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, History of the Middle east and the Aegean region c. 13801000- B.C., 2008, Vol II, part2, p.108.

(70) ما يميز رسائل العمارنة هو التذلل المفرط للفرعون المصري الذي يكاد أن يأخذ نصف الرسالة تقريباً، رغم كل ذلك كان أمراء حوران ارستقراطيين فخورين بأسلافهم ويتسمَّون باسم «ملك»، وهذا التعبير استخدمه حاكم دمشق بيرزوا Piryawaza في سياق حديثه عن حاكم بصرونا Busruna وحاكم خَلُنو Khalunnu وإذا كان حاكم حاصور Hazor قد نسي أن يُسمِّي نفسه ملكاً، فإن حاكم صور أبي ملكي يقول ذلك صراحةً عنه (أمراء صيدا وملوك حاصور) انظر:

THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY, History of the Middle east and the Aegean region c. 13801000- B.C., 2008, Vol II, part2, p.104.

(71) حول مطابقة خلنو/ خلنّي مع تل الجامد، غربي نوى، على وادي العلان الذي يرفد نهر اليرموك من الشمال، راجع **موقف دمشق من النزاع الحثي - المصري (القرن الرابع عشر ق.م)**، راجع فاروق إسماعيل، ص84. وانظر: **اسم دمشق في التاريخ**، محمود عبد الحميد أحمد، ص36.

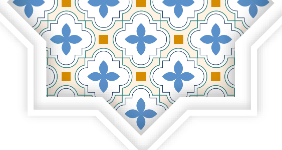
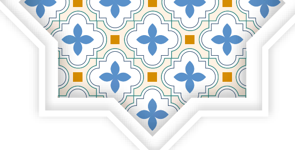
(72) أدري: يشير الدكتور فاروق إسماعيل: أن هذه المدينة هي إحدى إمارات جاري/ الجولان التي دخلت في نزاع مع عشتار/ تل عشترة، وبيخيلي/ طبقة فحل، كما هو مبين في الرسالة رقم 256. لكن الأسلوب الذي عُرضت به الرسالة رقم 197 يدفعني للاعتقاد أن أدري هي درعا ذاتها، فالرسالة 197 تتحدث عن إمارات حوران التي تحالفت فيما بينها، واتفقت على التحالف مع الهابيرو ضد حاكم دمشق، وقد تكون أدري الوارد ذكرها في الرسالة 256 هي غير أدري الوارد ذكرها في الرسالة 197، فالنص مهشَّم عند اسمها.

(73) كان بيرباوزا معاصرا لأولاد لبأيا، وللفرعون أخناتون، وبورنابورياش الثاني ملك بابل؛ انظر:

THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY History of the Middle east and the Aegean region c. 13801000- B.C 2008- vol II - part2- p101.

(74) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص481.

(75) حول شخصية الهابيرو / الخابيرو، انظر: **خبرو-خابيرو، مشكلة حقيقية أم مفتعلة**، فيصل عبد الله، ص155.

يمكن أن أخدم [الملك سيدي] بنفسي؟ أنهم يقولون باستمرار نحن خدم الحثيين، وأنا أقول باستمرار أنا خادم ملك بلاد مصر.

ويبدو أن جميع إمارات حوران تمرَّدت على السيادة المصرية، والتحقت بركب حكام ينوأما وبصرنا وخلني. وهذا ينعكس في الرسالة التي تحمل الرقم ١٩٦ حيث [٧٦] يقول بيرباوزا: آمل ألا يُهمَل هذا الفعل الذي ارتكبه بردشوا، لقد حرض بلاد الملك سيدي ومدنه.

في الواقع أن دمشق قد وقعت بين فكي الكماشة، فإمارات حوران الثائرة في الجنوب، وقادش وحلفاؤها في الشمال، وإمارة روخيزي/ في منطقة الهرمل في لبنان في الغرب. وقد بادر كلٌّ من بريدشوا زعيم تجمع إمارات حوران وأرزوايا حاكم روخيزي بالهجوم على دمشق، وهذا ما تذكره الرسالة رقم ١٩٧ حيث يقول بيرباوزا: ها هو أرزوايا يدمر مع بريدشوا بلاد أب، فليراقب الملك بلاده، كيلا يحتلَّها الأعداء.

كما أن بريدشوا لم يُوقف حملاته على دمشق، مقرِّ مؤيدي النفوذ المصري، وهذا ما تذكره الرسالة رقم ٥٦[٧٧]. ورغم صعوبة المَوقف يُكرِّر بيرباوزا للفرعون المصري عزمه على القتال، والشيء الوحيد الذي يمنعه عن ذلك هو عدم وصول العربات المصرية، كما هو مبين في الرسالة رقم ١٩٥ [٧٨]. وهكذا كلما ازداد ملوك مصر ضعفاً ازداد أمراء بلاد الشام قوة [٧٩].

خامساً ـ دمشق وحوران في مرحلة ما بعد عصر العمارنة حتى زوال السيطرة المصرية:

تغيَّرت أحوال مصر بعد فترة العمارنة، فقد سعت مصر لترتيب البيت الداخلي بعد حكم أخناتون، أكثر من اهتمامها بأمر إمبراطوريتها الضائعة في سورية، ولم يخرج عن هذا المبدأ الفرعون رمسيس الأول مُؤسِّس الأسرة التاسعة عشرة، والذي لم يتجاوز حكمه سنة وأربعة أشهر.

خلفه على عرش مصر ولده الفرعون ستي الأول، الذي سعى منذ اليوم الأول لتسلُّمه عرشَ مصر، لإعادة الإمبراطورية المصرية في بلاد الشام، ولتحقيق هذا الهدف قام بجملة من الإصلاحات العسكرية، كان أولها إصلاح الطريق الحربي العظيم، والذي يبدأ من حصن ثل/ القنطرة الحالية وينتهي برفح، فقام بحفر الآبار وتشييد الحصون والقلاع. كما أنه قسم الجيش إلى ثلاث فرق عسكرية تحمل أسماء الآلهة المصرية العظيمة (جيش أمون – جيش رع – جيش سونخ).

وعندما شنَّ ستي الأول حملته العسكرية استطاع السيطرة على فلسطين وحوران[٨٠]. وقد عثر الباحثون على لوحة في معبد مدينة بيت سان/ بيسان الحالية[٨١]، نَقش عليها ستي الأول (١٣٠٧-

(76) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص480.

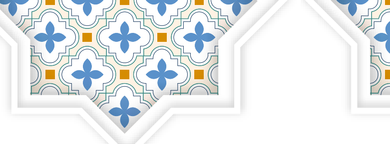
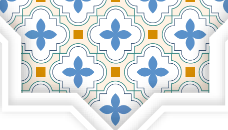
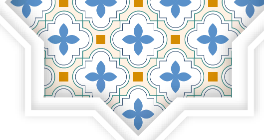
(77) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص251.

(78) **مراسلات العمارنة الدولية**، ص479.

(79) **سورية القديمة، التاريخ العام**، ص603.

(80) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص207-208.

(81) عثر على بيسان القديمة في تل الحصن قرب مدينة بيسان الحالية، وبيسان مدينة كنعانية تقع إلى الجنوب من بحيرة طبرية، وتبعد عنها حوالي 25كلم، وإلى الغرب من نهر الأردن حوالي 7كلم، لم تنقطع فيها الحياة منذ الألف الخامس قبل الميلاد. وازدادت أهميتها السياسية والإدارية في عصر البرونز الأخير (من القرن 14 حتى القرن 12 قبل الميلاد)، وكانت بيسان قد تعرضت للغزو المصري في عهد تحتمس الثالث سنة 1479 ق.م. وأصبحت مقرّاً للمندوب المصري الذي أشرف على إدارة المدن المحيطة بها، وقد أظهرت التنقيبات الأثرية آثار هذا البناء؛ وللحصول على


١٢٩١ ق.م) أخبارَ هذه الحملة، وقد جاء فيها ما يلي: السنة الأولى، الشهر الثاني من فصل الصيف، اليوم الثاني، من هذا اليوم نُمي إلى علم جلالته أن العدو الخسيس، الذي كان في مدينة حماة، قد ضمَّ إليه الكثيرين واستولى على بيت شان، ثم اتصل بسكان بحل/ طبقة فحل، ولم يسمح لأمير رحوب أن يخرج، وعندئذ أرسل جلالتُه الجيش الأول لأمون، قوي الأقواس إلى مدينة حماة، والجيش الأول لرع العظيم الشجاع إلى مدينة بيت شان، والجيش الأول لسونخ المنتصر في الأقواس إلى ينوأما/ تل شهاب، ثم كانت فترة يوم، ولم يلبثوا أن سقطوا تحت سلطان جلالته ملك مصر العليا والسفلى (من ماع رع، بن رع، تتيمرنبتاح، ليعطي الحياة)[٨٢].

ومن خلال هذا النص نستنتج أن مدينة حماة كانت المسيطر الفعلي على شمالي سورية، في حين كانت بيسان المسيطر الحقيقي على فلسطين، على حين سيطرت ينوأما/ تل شهاب على وسط سورية. حيث إن الجيوش الثلاثة استهدفت مراكز الثقل الأساسية. وليؤكد الفرعون ستي الأول استيلاءه على حوران أقام نصباً له في عاصمتها ينوأما / تل شهاب، كما نقش ستي الأول على جدران معبد الكرنك مآثره، كما أن قوائمه الطبوغرافية تذكر أسماء جغرافية لمدن وبلدات في فلسطين وحوران[٨٣]. ولابد من العودة للنقش الذي عُثر عليه في بيسان، الذي يشير إلى أن بحل/ طبقة فحل، (المدخل الجنوبي لحوران) كانت تتمتَّع بمركز مُؤثِّر، بدليل أن الجيش المصري بعد أن هاجم بيسان اتَّصل بمدينة بحل.

تسلَّم رمسيسُ الثاني عرشَ مصر سنة ١٢٩٠ ق.م، بعد والده ستي الأول، وكان يطمح لإعادة بناء الإمبراطورية المصرية في بلاد الشام، وكانت تتوق نفسه لنجاح أعظم من النجاح الذي حقَّقه والده ستي الأول، ومن أجل هذا قاد رمسيس الثاني جيشه باتجاه سورية في سنة حكمه الرابعة، ووصل حتى مصب نهر الكلب شرق بيروت، وأمر بوضع لوحة تذكارية في هذا الموقع لتخليد انتصاره.

وفي السنة الخامسة من حكم هذا الفرعون قاد حملة تُعَدُّ من أشهر الحملات العسكرية في تاريخ مصر، وكانت قادش / تل النبي مند، قرب مدينة حمص، قبلةَ هذه الحملة[٨٤]، واستطاع رمسيس أن يجتاح جنوب بلاد الشام بما فيها حوران، فقد مرَّ في بلداتها، ويشهد على ذلك النقوش التذكارية التي تركها على المسلة التي أقامها في مدينة قرنيم/ الشيخ سعد[٨٥]، والمسلة التي تم إعادة اكتشافها في عام ٢٠٠٧م، يبلغ ارتفاعها الكامل ٣١٠سم، ومتوسط عرضها حوالي ١٢٥سم، وسماكتها ٦٢سم تقريباً، وهي مؤلفة من قطعتين:

القطعة الأولى: بطول ١٣٠سم، ومتوسط عرضها ١١٤ سم، وسماكتها ٥٠سم. عليها بعض النقوش والكتابات الهيروغليفية، ولكنها غير واضحة للعيان كثيراً، مؤلفة من صورة للفرعون رمسيس الثاني على حسب ما أكَّده العالم الألماني أدلوف أيرمان A. Erman، الذي اطَّلع على رسم المسلة في كتاب «عبر الأردن» Across the Jordan للرحالة الألماني شوماخر، السطح المنقوش غير مستوٍ، إذ تطغى

أوفى المعلومات الأثرية عنه انظر: **آثار بلاد الشام القديمة**، ص 195.

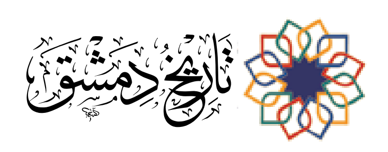
(82) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص207-208.

(83) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص207-208.

(84) **دراسات في تاريخ مصر الفرعونية**، ص207-208.

(85) انظر المسلة في ملحق الصور.





عليه بعض الحفر الطبيعية والمسامات الصخرية، التي تزيد في تشويه رسوم المسلة ونقوشها، التي نُفذت بطريقة غير متقنة، وهذا ربما يعود لسبب أن مادة البازلت، كصخر طبيعي قاس، لم يَعتَد المصريون الكتابةَ عليه، لعدم توفُّره طبيعيّاً في بلادهم، كصخور الجير والصخور الرمليّة أو الكلسَية، التي كانت المادة الرئيسية للمسلات وللعديد من الأعمال الفنية المصرية.

إن جميع أسطح هذه القطعة بقيت بشكلها الطبيعي، فهي غير مستوية وغير مشغولة، باستثناء القسم العلوي، الذي نراه بشكل مُنحنٍ أو مدبَّب، أما القاعدة فقد شُغلت بطريقة غير منتظمة، وبشكل يتماشى مع بداية الجزء العلويّ من القطعة الثانية، التي تكاد تتطابق معها، وهذا التطابق يُوحي بأنها كانت قديماً قطعة واحدة.

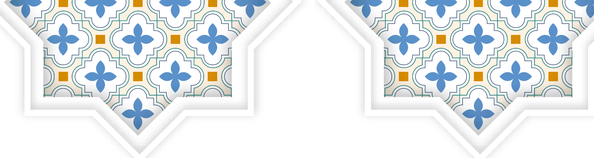
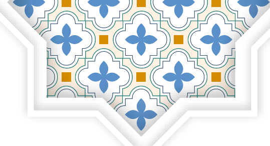
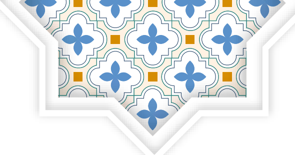
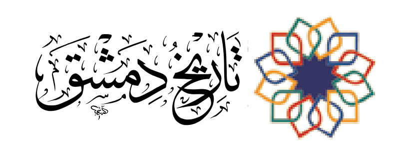
إلى يمين المسّلة يظهر رأس رمسيس الثاني، وعلى رأسه التاج، وينظر إلى الأمام، وإلى اليسار صورة جانبية لشخص مجهول الهوية، وهناك رأيان فيه: الأول: ربما يكون حاكم المدينة، وبمستوى أدنى من الفرعون، وينظر إليه، ويده اليمنى تمتد إليه، وكأنه يطلب العون منه، وربما تدل على الترحاب، وهذا يجعلنا نعتقد أن مدينة قرنيم/ الشيخ سعد، لم تقاوم الجيش المصري، وأن أميرها قدَّم ولاء الطاعة للفرعون، فأبقاه على حكم المدينة، ووضع صورته إلى جانبه، كنوع من تثبيت ملكه وتبعيته له. والرأي الثاني: أن الصورة الجانبية لآلهة مصرية تُقدِّم مفاتيح المدينة وتُبارك النصر للفرعون. وبين الصورتين تظهر الكتابة الهيروغليفية، على ثلاثة حقول طولانية، ربما تكون نصّاً لمعاهدة أو تخليداً لهذا الانتصار.

أما القطعة الثانية: فإنها بطول ١٨٠ سم، ومتوسط عرضها ١٢٥ سم، وسماكة ٦٢ سم، وهي مؤلفة من صخرة واحدة لكنها وُجدت مكسورة في زاويتها اليُمنى الأمامية، نتيجة لبناء خزان للماء من البيتون في فترة الثمانينيات من القرن الماضي. نشاهد على الواجهتين الأمامية والخلفية العديد من الأخاديد الممتدة من الأعلى إلى الأسفل تتخلَّلها الحفر المتنوعة، أما الجانبان (السماكة) فنراهما مصقولان وقد نُفِّذا بعناية وبشكل لافت، أما في الأسفل فنشاهد كورنيش بعرض ١٢سم، وعليه تزيينات طولانية غير واضحة، أما القاعدة التي تستند إلى الأرض فهي أيضاً مصقولة ومشغولة بعناية [٨٦].

وقد عُثر على مسلة أخرى في بلدة الكسوة ٢٥ كلم جنوب دمشق، وهي من الحجر البازلتي، أبعادها ٩٠×٧٠×٣٠سم، عليها كتابات مصرية هيروغليفية، مؤلفة من ستة أسطر أفقية، وبعض التصاوير للفرعون رمسيس الثاني، وعدد من الآلهة المصرية، وهي تُسلِّم الفرعونَ السلطة من السكان المحليين بإشراف الآلهة، وقد قام الأستاذ السوري محمود عبد الحميد أحمد بقراءة هذه المسلة المحفوظة اليوم في المتحف الوطني بدمشق[٨٧].

(86) نقلًا عن التقرير الأولي المقدم للمديرية العامة للآثار والمتاحف وهو غير منشور، وبآخره صور – إعداد أ. باسل الجهماني العامل في مديرية آثار درعا.

(87) **العلاقات السورية المصرية خلال عصر البرونز الحديث، اكتشاف أثري جديد جنوب دمشق**، أحمد طرقجي، ص239.

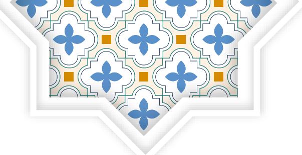
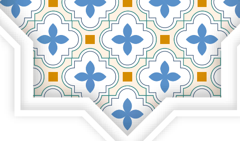
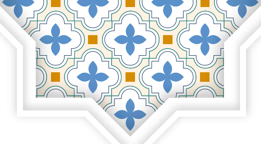
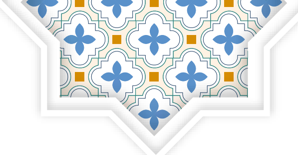





الخاتمة

لم تكن بلاد الشام على مرّ العصور إلا بلاداً يتنافس عليها الطامعون، واللافت للانتباه أن فراعنة مصر كان بوسعهم أن يستعمروا إفريقيا، إلا أنهم أصرُّوا على فرض سيطرتهم على بلاد الشام، وهذا يفسره الدكتور محمود عبد الحميد أحمد بمقولته الشهيرة: «أمن سورية هو عمق أمن مصر». ونستنتج أن ثمّةَ ترابطاً بين بلدان الشرق القديم بمختلف النواحي السياسية والحضارية والاجتماعية والاقتصادية.

ونخلص إلى أن الجزء الجنوبي من بلاد الشام لا يقل أهمية عن شمالها. ونخلص أيضاً إلى أن كل الأقاليم السورية كانت تُشارك في رسم الموقف السياسي في النصف الثاني قبل الميلاد، وأن كل الأقاليم السورية ثارت وأعلنت الحرب على السيادة الفرعونية باستثناء دمشق التي بقيت مخلصة وفية لسيدها فرعون مصر، وأن إمارات حوران كانت ذات تأثير سياسي كبير، أولاً بحكم موقعها الجغرافي في قلب بلاد الشام، ثانياً بفضل اتحادها فيما بينها، وتنسيق جهودها مع الإمارات الأخرى على امتداد رقعة الوطن.

ونخلص أخيراً إلى أننا بحاجة ماسة لتنقيبات أثرية شاملة لكل التلال المنتشرة في جنوبي سورية، فنتائجها ستُلقي الضوء بشكل أفضل على تاريخ المنطقة والشرق القديم بصورة عامة، وستُقدِّم أجوبةً عن أسئلة ما تزال بلا جواب. وتبقى الحقيقة هدفنا أجمعين. والله من وراء القصد.

مصادر البحث ومراجعه

ـ دمشق وغوطتها في الألف الثاني قبل الميلاد، أحمد طرقجي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق.

ـ العلاقات السورية المصرية خلال عصر البرونز الحديث، اكتشاف أثري جديد جنوب دمشق، أحمد طرقجي، المؤتمر الخامس عشر للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي، دمشق، ٢٠٠٠م.

ـ التقرير الأولي المقدم للمديرية العامة للآثار والمتاحف وهو غير منشور وبآخره صور، باسل الجهماني، مديرية آثار درعا.

ـ تاريخ آثار وتراث حوران، بركات توفيق الراضي، دمشق ٢٠٠٢م

ـ تاريخ الوطن العربي القديم، جباغ قابلو وعماد سمير، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠٠٧م.

ـ سورية القديمة، التاريخ العام، عبد الله الحلو، الكتاب الأول، دمشق ٢٠٠٤م.

ـ علاقات السياسية في ضوء أدب رسائل العمارنة خلال النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، عبد الله السليمان، ال مجلة التراث العربي، العدد المزدوج ١٣٤-١٣٥، دمشق ٢٠١٤م.

ـ آثار بلاد الشام القديمة، علا التونسي، وآخرون، منشورات جامعة دمشق، دمشق ٢٠١٤م

ـ دمشق عاصمة آرامية كنعانية، علي أبو عساف، التراث العربي، العدد ١١٣، دمشق

ـ دمشق في المصادر الآشورية، عيد مرعي، الندوة الدولية، دمشق في التاريخ، ج١، دمشق ٢٠٠٦م

ـ مراسلات العمارنة الدولية، فاروق إسماعيل، دمشق ٢٠١٠م.

ـ موقف دمشق من النزاع الحثي – المصري (القرن الرابع عشر ق.م)، فاروق إسماعيل، الندوة الدولية، دمشق في التاريخ، ج١، دمشق ٢٠٠٦م

ـ خبرو–خابيرو، مشكلة حقيقية أم مفتعلة، فيصل عبد الله، مجلة دراسات تاريخية عدد ٣١،٣٢، دمشق ١٩٨٩م.

ـ اكتشاف أول نص مسماري في دمشق، مراجعة تاريخية، فيصل عبد الله، مجلة جامعة دمشق، المجلد ٣٧، العدد الثالث والرابع، دمشق ٢٠١١م

ـ دراسات في تاريخ مصر الفرعونية، محمود عبد الحميد أحمد، منشورات جامعة دمشق، دمشق ١٩٩٦م.

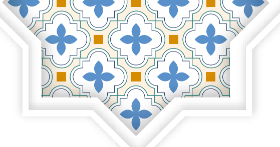
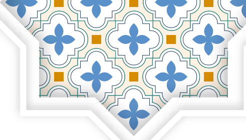
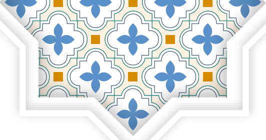
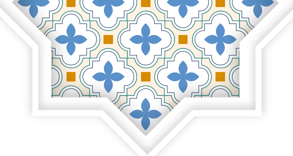
ـ اسم دمشق في التاريخ، محمود عبد الحميد أحمد، الندوة الدولية، دمشق في التاريخ، ج١، دمشق ٢٠٠٦م.

ـ سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ، محمود عبد الحميد أحمد، العلاقات بين مصر وسورية منذ أقدم العصور إلى نهاية عصر الأسرة الثامنة عشرة، مطبعة ابن حيان، دمشق، ١٩٨٥م.

ـ سورية الجنوبية «حوران»، منير الذيب، ط١، دمشق، ٢٠٠٤م.

ـ معجم الحضارات السامية، هنري عبودي، ط٢، بيروت، ١٩٩١م

ـ تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠-٣٠٠ق.م، هورست كلينغل، ترجمة سيف الدين دياب، دار المتنبي، دمشق ١٩٩٨م.

ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، اختار النصوص وقدم لها عبد الإله النبهان، منشورات وزارة الثقافة، السفر الثالث، القسم الأول، دمشق ١٩٨٣م.

(22) – Ancient records of Egypt – Breasted, J. H., Vol II

(23) Assyrian Rulers of the early first millennium – B.C,II (858745- b. c) Grayson, A. K., –Toronto,1996.

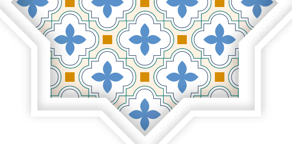
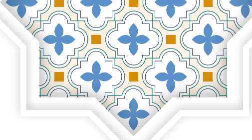
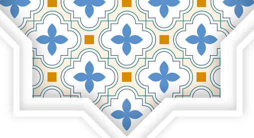
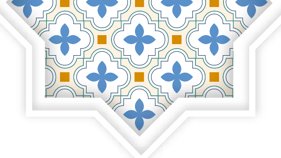
(24) - Back to Megiddo, in (B.A.R); Finkelein, I., & Ussishkin, D., Vol: 20, 1994.

(25) - Silver, Gold, and Precious stone from Hazor in new Mari document, in (B.A) 46; Malamat, A., 1983, p.169

(26) THE CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY- Vol II- Part 1- History of the Middle east and the Aegean region c. 18001380- B.C., and Part2- History of the Middle east and the Aegean region c. 13801000- B.C. 2008.

(27) - Ancient Damascus Eisenbrauns; Wayne, T. Pitard 1987.

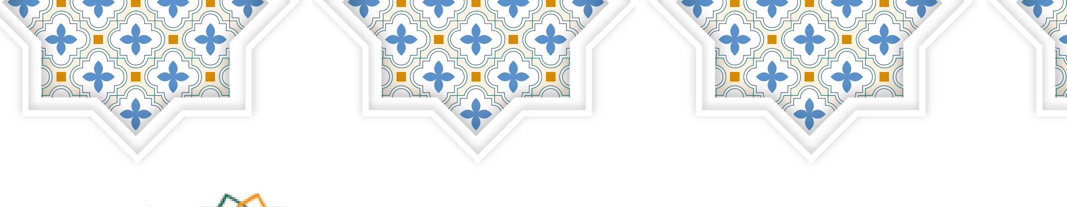
(28) The Annals in Karnak; Wilson, J.



The geographical environment of Damascus

Prof. Dr. Adel Abdulsalam (Lash)

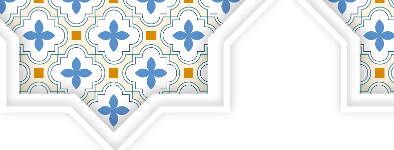
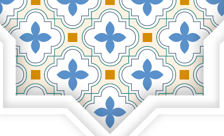
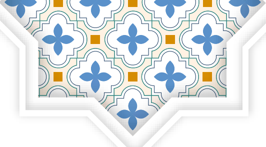
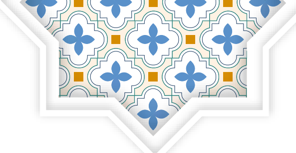
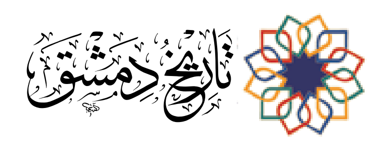




الوسط الجغرافي لمدينة دمشق

أ.د. عادل عبد السلام[1]

(1) أستاذ سابق في جامعتي دمشق وتشرين، وجامعات عربية ويابانية وألمانية.

ملخص البحث

يتحدَّث هذا البحث عن الوسط الجغرافي لمدينة دمشق: الموقع والحدود والمساحة، والعناصر والخصائص الطبيعية لحوض دمشق، من ناحية الطبوغرافية، ونشأة الحوض، والتطوُّر الجيومورفولوجي، والتربة والمناخ والمياه، وكيف كانت مجالاً لأضخم تجمُّع سكاني، وتحدَّث البحث عن مناطق هذا الحوض، والنشاطات الاقتصادية فيه؛ في الزراعة والصناعة والتجارة.

Research Summary

This paper deals with the geographical environment of the city of Damascus; its location, borders, and the natural elements and characteristics of the Damascus Basin in terms of topography, origin, geomorphological development, soil, climate and water. This also discusses the areas of this basin, and the economic activities performed within it(agriculture, industry and trade). .

_ تمهيد:

إذا كانت مصرُ هبةُ نهر النيل فدمشق هبة نهر بردى ورافده الفيجة، إذ يكشف موقع دمشق وحوضُها الجغرافي بالنسبة للنطاقات المناخية، وتوزُّع التضاريس المحيطة بها، أنها كانت وما زالت تقع تحت رحمة الظروف شبه الصحراوية، ومتوسطات أمطار سنوية مُتدنِّية لأقل من ٢٥٠ ملم، وهو الحد الحرج لممارسة أي شكل من أشكال الزراعة البعلية. فإذا أخذنا الأوضاع التضريسية ووسطها الجغرافي الطبيعي بعين الاعتبار أدركنا أن مدينة دمشق دون نهر بردى ونبع الفيجة وبعض العيون الصغيرة هي واحة قارّية لا تَصلح للعيش فيها.

أولاً - الموقع والحدود والمساحة:

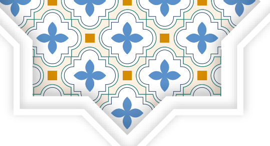
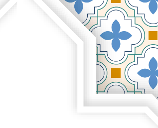
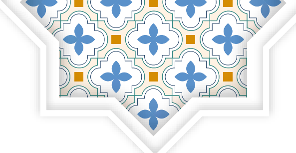
تقع مدينة دمشق عند تقاطع خط الطول (٣٣ درجة و٣٣ دقيقة) شرق غرينتش، مع خط العرض (٣٦ درجة و١٨ دقيقة) شمال خط الاستواء، أي في النطاق الجغرافي المناخي فوق المداري، وفي إقليم (الجنوب الغربي) السوري، الذي تحدُّه فلسطين من الغرب، والمملكة الأردنية من الجنوب، وإقليم (البادية أو الصحراء السورية) من الشرق[٢]، وإقليم (الجبال العالية) السورية من الشمال. ويُعَدُّ هذا الإقليم وحدةً جغرافية تضمُّ وحدات جغرافية إقليمية أصغر هي: ١- منطقة حوض دمشق، ٢- منطقة جبل العرب، ٣- منطقة حوران، ٤- منطقة الجولان[٣].

والغالب على هذا الإقليم هو الأراضي البركانية باستثناء منطقة دمشق، التي تتألف أرضها من توضُّعات رسوبية تُشكِّل بسيطاً سهليّاً مُحاطاً بالأراضي البركانية، وبالجبال من جانبه الشمالي والشمالي الغربي. أمّا جيولوجيّاً، فيقع الإقليم على الحافة الشرقية للصدع السوري- الإفريقي (الريفت Rift)[٤] وتفرُّعاته.

(2) تنحو المصادر الأجنبية لاعتبار البادية السورية في الجمهورية العربية السورية أرضاً صحراوية، وامتداداً لـ (الصحراء السورية) في سورية الطبيعية. لكن الواقع أن ما يُعتبر صحراءً لايشمل سوى مساحة صغيرة من جنوب شرقي الجمهورية، أي منطقة البو كمال، وماعداها فهي شبه صحراء، تُعرف بالبادية السورية.

(3) **جغرافية سورية الإقليمية:** عادل عبد السلام، ص13-14.

(4) **الريفت Rift تعني بالإنكليزية الصدع أو الشق**، أصبح مصطلحاً يطلق على الصدع السوري- الإفريقي الممتد مسافة 6000 كم من سهل العمق


ثانياً _ أرض دمشق ملتقى عناصر طبيعية – بشرية:

لا يُمكن الحكم على مدينة دمشق وأهميتها، دون معرفة أساسيات الجغرافية الطبيعية غير المقيَّدة بالحدود السياسية، كالتضاريس والجيولوجية والبناء والمناخ والمياه، وغيرها من عوامل فاعلة في استقرار الإنسان وتجمُّعاته السكانية. ففي حوض دمشق الذي ينطبق على وحدة (منطقة دمشق) الإقليمية، تتلاقى منظومات جيولوجية – بنائية، وتضاريسية، ومناخية– مائية وبيئية تكشف دور هذا الوسط، وتحوُّلَه من بيئة شبه صحراوية قارية قاحلة، إلى ملتقًى استقبل مجموعات بشرية استوطنته منذ آلاف السنين.

فبالنسبة لتضاريس الحوض وجيولوجيته وتربته فإنه جزء من سورية الطبيعية، يقع على الهامش الغربي للقارة الآسيوية، حيث تتلاقى وحدات جيولوجية– بنائية هي (نهوض الرطبة، ووهدة جبل العرب، ونهوض الأردن)، وحزمة الصدوع التدمرية. فهو في موقع بنائي (تكتوني) جامع لعدد من الظواهر المهمة في تاريخ الكرة الأرضية. كذلك يقع الحوض وسط تلاقي كتل ووحدات مناخية – بيئية بين مراكز العمل الجوي المختلفة. وهذا التلاقي شكل تفاعلات متشابكة وأرضية متينة لظهور دمشق منذ آلاف السنين وإلى يومنا هذا.

ثالثاً _ الخصائص الطبيعية لحوض دمشق:

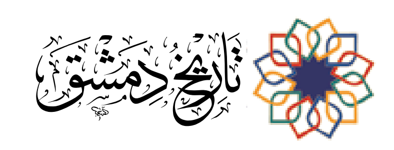
١- طبوغرافية الحوض:

تحتل منطقة حوض دمشق الجزء الشمالي من إقليم الجنوب الغربي، بمساحة قدرها ٣٦٠٠ كم٢، ولها شكل قريب الشبه بالمثلث. حدها من الشمال الغربي هو نهاية السلاسل التدمرية، وسفوح السلسلة القلمونية ومرتفعات قطنا، وجبل الشيخ، التي تفصلها عن إقليمي الجبال العالية، والوسط السوري. وفي الشرق تسير الحدود متفقة مع حافات لحف[٥] صبة الصَّفا الاندفاعية ـ البركانية وأرض ديرة التلول وإقليم البادية (الصحراء السورية). أمّا في الجنوب فتتعرَّج الحدود مسايرة أطراف الصبات الاندفاعية الفاصلة بين منطقة حوض دمشق ومنطقتي حوران وجبل العرب. وهو أكبر الأحواض الجبلية الهامشية وأهمها في سورية، ويقع عند أقدام جبال عنتر وقاسيون وجبل أبو العتا ومطلع السلاسل التدمرية عند الضمير، التي تُشرف عليه من الشمال والغرب. ويرتفع سطحه عن سطح البحر (٦٥٠ م) وسطيّاً، ليرتفع في الغرب إلى (٧٠٠– ٧٢٥ م)، وينخفض في الشرق إلى متوسط (٦٠٠ م). وفي أخفض نقاطه إلى (٥٩٨ م) في جورة النفل في منخفض الهيجانة. حيث تشغل أرض العتيبة – الهيجانة أخفض أجزاء الحوض. وهما عبارة عن مستنقعَين جفَّ أحدهما وهو الهيجانة منذ خمسينيات القرن الماضي[٦].

في شمالي سورية إلى حوض الزامبيزي في شرقي إفريقية.

(5) **اللحف جمع لحاف،** اسم يطلقه بدو المناطق البركانية في سورية على حافات الأغشية البازلتية التي تأخذ نهاياتها المتصلّبة شكل حافاتٍ اللّحاف.

(6) **كانت الهيجانة بحيرة تنتهي إليها مياه نهر الأعوج.** وكانت فيضاناته تغمر مساحات واسعة من أراضي مجراه الأدنى، فما كان من مالكها الإقطاعي إلا أن حول مياه النهر إلى بقعة بير القصب الأخفض بقناة حُفرت سنة 1940، فهذا الإجراء حَمى الحقول من الفيضان، ووفَّر أرضاً لزراعة القطن في أرض البحيرة المجففة.

ويغلب على طبوغرافية سطح الحوض الانبساط الشديد، ما عدا هوامشه الشمالية والغربية التي تلامس أقدام السفوح الجبلية، حيث تنحدر الأرض بتموُّجات واضحة.. من كافة أطرافه باتجاه أخفض أجزائه في منخفض العتيبة- الهيجانة. ومع هذا فإن أعداداً من التلال المنخفضة المبعثرة في أرجائه الشرقية خاصة، تبرز في حوض دمشق، وترتفع فوق سطحه نحو ٥ ـ١٢م؛ بل وأكثر. مثل تل فرزات (الصالحية)، وتل الغريفة، وتل أسود، وتل الخزامي، وتل السكا، وتل حوش الريحان... وتلال أخرى أقل أهمية. وجميعها تلال اصطناعية أثرية تاريخية تمَّت في بعضها أعمال تنقيب. كذلك تنهد في الهوامش الجنوبية والشرقية من الحوض تلال ذات أصول طبيعية مثل تل الهيجانة، وتل السلطان بيازيد، وغيرهما من تلال اندفاعية الأصل. كما تنتشر تلال ورواب حول منخفض الهيجانة، وهي من أصل رسوبي بحيري، أبرزتها عملياتُ الحتِّ والتعرية الريحيّة علىٍ شكل تلال ونواشز وخرائب، تُعرف بالقارات والياردانغات[٧].

ومع ذلك فإن الصفة الأساسية الغالبة على طبوغرافية الحوض هي أنه منبسط (سهلي)[٨] مغلق، تحيط به جبال ومرتفعات ترقى إلى ١٠٠٠ـ ١٥٠٠ م فوق سطح البحر من جهة الشمال الغربي، وإلى أقل من ذلك في الشرق والجنوب. ويعد أهم وحدة جغرافية إقليمية في سورية، وفي منطقة شرقي البحر المتوسط. وتكمن أهميته في موقعه الجغرافي بين عالَمَين مختلفين اختلافاً جغرافيّاً بيئيّاً طبيعياً من جهة، وجغرافيّاً بشريّاً ـ سكانيّاً واقتصاديّاً من جهة ثانية، هما عالم الجبال المحيطة بالمنطقة، وعالم الحوض نفسه والبوادي الممتدّة شرقَه وجنوبه.

٢- حوض دمشق ونشأته:

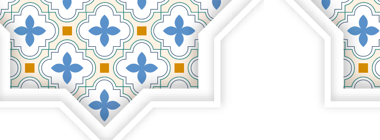
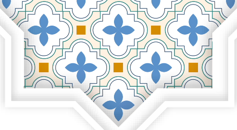
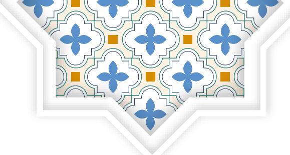
حوض دمشق واحد من التضاريس السورية الموروثة عن تضاريس أواخر الحقب الثالث والرابع الجيولوجيَّين، ومشاركة الحركات البنائية في شرقي الانهدام السوري- الإفريقي، التي رسمت معالم الطيّات الجبلية للسلاسل التدمرية، وسلاسل القلمون وأحواضه البينية والهامشية، فتكوَّن بينها حوض دمشق الواقع على خاصرة نهايات سلسلة القلمون الثالثة. فالأصل الجيولوجي في حوض دمشق هو أنه مقعر بنائي (تكتوني)، تشكَّل في منطقة تتعامد فيها وحدات بنائية لمجموعتين بنائيتين هما: مجموعة السلاسل الجبلية الالتوائية ـ المتصدعة من (النموذج السوري- الجرماني) المتمثلة بجبال لبنان الشرقية والقلمون، ومجموعة ثانية هي بُنًى وصدوع وَهدة جبل العرب ونهوض الأردن. وعند منطقة تماس هذه الوحدات وخطوط الصدوع تشكَّل منخفض حوضي بنائي مُقعَّر، أسهمت الحركات البنائية الالتوائية والصدعية في تكوينه[٩].

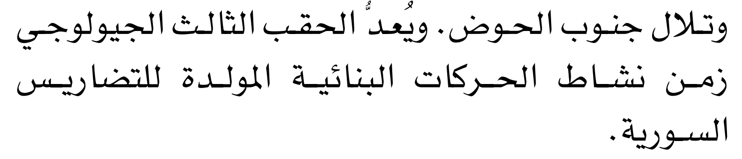
وتتألف أرضية هذا المنخفض الحوضي من طبقات رسوبية من الصخور الكلسية الكريتاسية والإيوسينية- النيوجينية، غشَّتها صبّاتٌ اندفاعية من الصخور البازلتية الميوسينية والأحدث منها، التي انساحت نهاياتها إلى هوامش الحوض، وبقيت كتلتُها الرئيسة بارزة لتُؤلِّف مرتفعات

(7) الياردانغ تسمية تركستانية لتلال تتشكل بالحت الريحي في صخور طرية بحيرية الأصل. كما هو الحال في ترسبات بحيرة الهيجانة.

(8) السهل في الجغرافيا هو كل أرض منبسطة تقع دون 300م فوق سطح البحر، وماعدا ذلك فهو سهل مرتفع في حوض جبلي أو خارجه.

(9).Geologie von Syeien und dem Libanon;Wolfart, R.



وتلال جنوب الحوض. ويُعدُ الحقب الثالث الجيولوجي زمن نشاط الحركات البنائية المولدة للتضاريس السورية.

ارتسمت في دور الباليوجين (الثالث القديم) منه، الخطوط الأساسية للوحدات التضريسية السورية الكبرى، وتجدَّد نشاطها في دور النيوجين وزمن البليوسين (نهاية الحقب الثالث) منه، ومطلع زمن البلايستوسن (الرابع القديم) وعصوره الجليدية، الذي تشكلت فيه الأحواض الداخلية والبينية، ومنها حوض دمشق. أعقب ذلك نشاط بركاني رباعي أدَّى إلى تشكُّل أغشية اندفاعية أحدث في الشرق وفي الجنوب.


إقليم الجنوب الغربي لدمشق ومناطقه

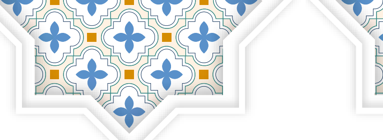
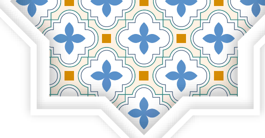
وفي هذه المرحلة وعلى امتداد الحقب الرابع الجيولوجي، تشكَّلت في الحوض بحيرة مياه عذبة، اتَّسعت إلى أن ملأت الحوض مكونة بحيرة دمشق القديمة، التي أصبحت مستوى أساس مياه الأنهار والسيول، التي نشط ترسيب حمولتها من اللحقيات والمجروفات في قاع البحيرة، بحيث وصلت ثخانة الرسوبيات البحيرية في أعمق أجزاء الحوض، بين جسرين ومرج السلطان، لنحو ٤٠٠ م من المارن، والكلس البحيري، والطف الكلسي، والكونغلوميرات، وأقل من ذلك على الأطراف. لتصبح هذه اللحقيات والتوضعات النقضية أكثر امتداداً مع اتساع مساحة ما تكشَّف من أرض البحيرة القديمة نتيجة تراجع مياه البحيرة عنها في الرباعي الأعلى، وما أعقبه من مناخ قلَّ فيه ما يرد البحيرة من مياه، إلى جانب تزايد التبخُّر منها. وترافق ذلك مع انتشار مخاريط الانصباب والأنقاض على جوانب البحيرة عند مخارج الأنهار والأودية من الجبال؛ أكبرها مخروط بردى والأعوج، والضمير ومنين وغيرهما.

وهكذا صار حوض دمشق مؤلَّفاً من كُورتَين متمايزتَين جيولوجيّاً استراتيغرافيّاً، وتربيّاً؛ هما كورة الأراضي الرسوبية البحيرية في وسط حوض دمشق وشرقيه (المرج)، وكورة الأراضي الرسوبية اللحقية ـ النقضية في الغرب والهوامش الشمالية والغربية (الغوطة)[١٠].

٣ـ التطور الجيومورفولوجي- المناخي للحوض:

ترتبط التطورات الجيومورفولوجية – المناخية لحوض دمشق بالعصور الجليدية للحقب الرابع الجيولوجي بدَورَيه: البلايستوسين (القديم) والهولوسين (الحديث المعاصر)، ارتباطاً كبيراً. ففي دَور البلايستوسين سادت في أوروبا وخارجها العصور الجليدية الأربعة المعروفة: وهي الغونز (أقدمها)،

[10] **the Geological map of Syria (1: 50.OOO);** Ponikarov, V. P. And others.

والمندل، والرسّ، و(الفُورم أحدثها)، إضافة إلى العصور البينية الدافئة في هذا الدور، التي تُقابلها في العَروض الجغرافية الدنيا عصور مَطّيرة وعصور بَينيّة، كما هو حال سورية ، وبحيرة دمشق ذات التطور المتفق مع هذا التعاقب الزمني[١١].

ولقد أظهرت الدراسات الجيومورفولوجية، ونتائج البحوث القائمة على تحليل غبار الطلع، وقياسات الفحم ١٤، والتسلسل الطبقي لتوضُعات الحوض، وغيرها من طرائق تحديد الأعمار، ودراسات الأوضاع البيئية، أن بحيرة قديمة واسعة الانتشار ترجع إلى عصر (الرّس Riss) كانت تملأ حوض دمشق حتى ارتفاع ٧٠٠-٧٥٠م فوق مستوى سطح البحر (الحالي)، تشكَّلَت حولها مخاريط انصباب مهمة، أبرزها مخروط انصباب بردى. إضافة إلى مخاريط صغيرة على هوامش الجبال والمرتفعات المُطلّة على البحيرة مباشرة.

فلمعرفة الطبيعة السهلية المنبسطة والضعيفة التموُّج لحوض دمشق وتربته لابد من الرجوع إلى ماضيه الجيولوجي والمناخي- المائي في أواخر الحقب الرابع الجيولوجي أي قبل ٢,٥ مليون سنة ففي:

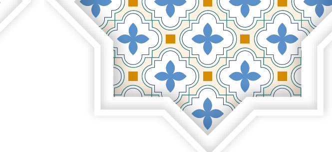
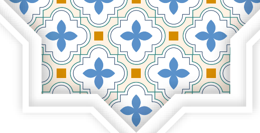
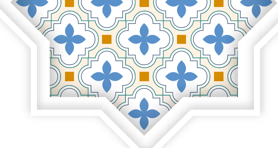
أ-عصر (الرّس Riss) الذي بدأ قبل ٤٨٠,٠٠٠ سنة، وأواسط الحقب الرابع المقابلة للعصر الحجري القديمَ الأدنى، امتلأ الحوض بمياه بحيرة كبيرة غمرت أغلب أجزاء الحوض. ففي هذه الفترة من عمر الأرض تميَّز شرق البحر المتوسط بمناخ رطب غزير الأمطار مع درجات حرارة منخفضة حتى معتدلة بل ودافئة أحياناً. أعقبتها ظروف مال فيها المناخ نحو الجفاف وارتفاع درجات الحرارة وزيادة التبخُّر مع تراجع صبيب الأنهار والسيول، فأدَّى ذلك إلى تقلُّص حجم البحيرة وانكماشها وتراجع ضفافها باتجاه وسط وشرقي حوض دمشق، وتحوُّل أرضها إلى الكثير من البحيرات الصغيرة والجزر الواطئة المنتشرة في قاعها[١٢].

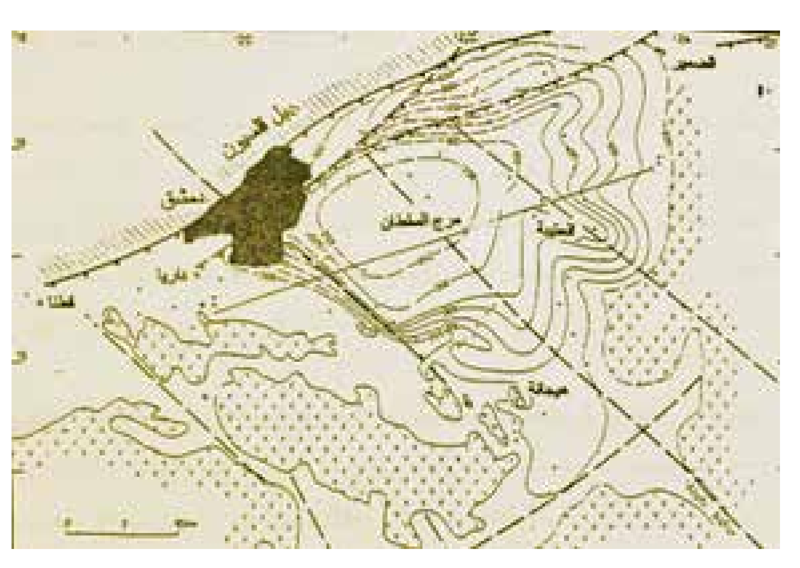
ب- أما في عصر (الفورم Würm) الذي بدأ قبل ٢٠,٠٠٠-٢٢,٠٠٠ سنة فلقد عاد المناخ ليصبح بارداً ورطباً ومطيراً، ولكن بدرجات أقل مما كان عليه الحال في عصر الرّس، كما تخلَّلته فترات ارتفعت فيها الحرارة، فتشكَّلت في الحوض بحيرة أصغر احتلَّت الجزء الشرَقي المنخفض، تتماشى شواطئُها مع حدود كورة المرج شرق الغوطة. بعدها ومنذ نحو ١٠,٠٠٠ سنة وحتى اليوم (أثناء الدور المعروَف بـ: الهولوسين) مال المناخ إلى الجفاف، وتخلَّلته فترات مناخية أرطب وأقل حرارة وأكثر أمطاراً نسبيّاً خاصة بين ٣٠٠٠-٨٠٠٠ سنة مضت، استمرت إلى اليوم. فكانت المحصلة زوال بحيرة دمشق وتحوُّل بقاياها اليوم إلى مجرد مستنقع ضحل مساحته ٥ -٦ كم مربع ندعوه ببحيرة العتيبة[١٣].

[11] حد الثلج الدائم في الرباعي البلايستوسين (الفورم) وارتفاعه في الجبال السورية (لبنان الشرقية وجبل الشيخ) متباين حسب تقديرات (لوي) وحسب نتائج قياسات باقي الباحثين ميدانيّاً:- كايزر 2100- 2250 م - عبد السلام 2350 م- ميسرلي 2700 م - لوي 2300 م- 2600 م - بوتزر2800 م. فإذا أخذنا بأرقام كايزر ورأيه، وجدنا أن قسماً كبيراً من قمم الجبال العالية في جبال لبنان الشرقية، كان فوق حد الثلج الدائم القديم، وكان معرَّضاً لتشكُّل الجليديات. أما إذا أخذنا برقم بوتزر، فمعنى ذلك أن قمة جبل الشيخ الواقعة فوق الـ (2800 م)، أي ارتفاع (14 م) فقط كان داخلاً في نطاق الثلج الدائم القديم. وفي كلا الرأيَين بعضُ التطرُّف والمبالغة حسب اعتقادنا، لأن المظاهر التضريسية الموروثة عن أشكال سابقة في أعالى جبل الشيخ، الظاهرة على شكل حلبات صغيرة من النوع الملعقي، تقع مخارجها على ارتفاع يحوم حول (2400- 2450 م).

[12]The Near East during the Last Glasiation; Butzer,K.W.. p. 367-369.

[13] **Reinhard WOLFART HYDROGEOLOGY OF THE DAMASCUS BASIN** (SOUTHWEST-SYRIA) Bundesanstalt für Bodenforschung, Hannover ABSTRACT The description of the geology and hydrogeology of the Da-



خريطة تبين الوحدات البنائية (التكتونية) في الجنوب السوري وإقليم الجنوب الغربي منه.

ولم يتغيَّر الوضع في الهولوسين الأوسط الذي ساد قبل ٣٠٠٠-٨٠٠٠ سنة مضت كثيراً، علماً أن فترة جفاف ملموسة سادت المنطقة بين عامي ٦٠٠٠-٦٣٠٠ ق.م. ونتيجة لذلك انكشف أرض البحيرة عن سطح منبسط متموِّج تعلوه ربوات قليلة الارتفاع، منها موقع مدينة دمشق الأول الذي قام على ربوة (تل السماكة) بين حي مئذنة الشحم وحي الخراب على الجانب الأيمن (الجنوبي) من نهر بردى (٥ – ٦ أمتار فوق المستوى العام لأرض دمشق)، كما استفاد الإعمار القديم لحوض دمشق من العديد من الروابي التي أصبحت تلالاً صنعية.

٤ -تربة حوض دمشق:

يتألف الغطاء الترب لحوض دمشق من زمرتين أساسيتين من الترب وهما :

– زمرة الترب الغدقة والمستنقعية في كورة المرج في النصف الشرقي من الحوض.

– زمرة الترب اللحقية الغالبة على كورة الغوطة في النصف الغربي من الحوض وهوامشه الشمالية والغربية، وعلى امتداد وادي نهري بردى والأعوج.

ويتَّفق هذا التقسيم الحادُّ بين الزمرتين مع ما ذكرنا في فقرة التطور المناخي– الجيومورفولوجي، نتيجة آلية الترسُّبات البحيرية في نطاق مياه البحيرة من جهة، والترسبات النهرية– السَّيليّة على سطح الترسبات البحيرية التي تراجع عنها ماء البحيرة، وانكشفت لتستقبل حمولات الأنهار والسيول المنقولة من المرتفعات والهضبات المحيطة بالبحيرة/ الحوض من جهة أخرى[١٤].

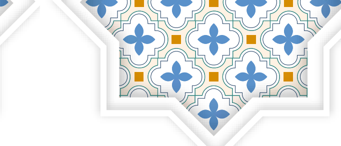
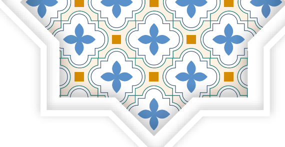
وأبرز أصناف الزمرة الأولى هي التربة الفاتحة، والغدقة المائلة للسواد، ثم التربة البنية الغدقة، حول منخفض البحيرة السابقة للعتيبة، وأرضها ذات التربة المستنقعية، وهي تربة ذات ملوحة واضحة تتناقص باتجاه الهوامش الخارجية للمنخفض، لا سيما باتجاه الغرب في منطقة المرج، حتى حدود امتدادها التي تنطبق على حدود شواطئ بحيرة البلايستوسين الأعلى وذروة الفورم (خط مرج السلطان).

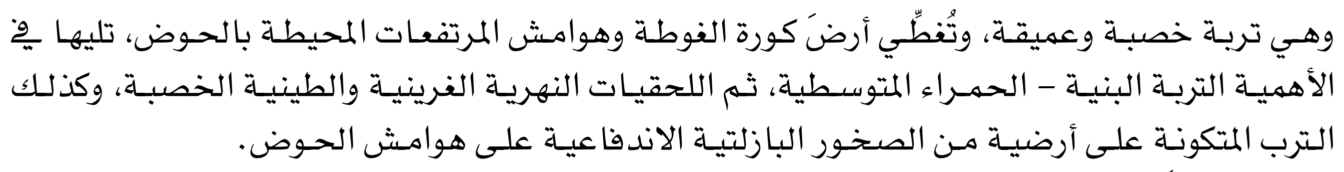
أمّا أصناف الزمرة الثانية فمُتعدِّدة، وأكثرها انتشاراً هي التربة البنية اللحقية للبحر المتوسط.

---

mascus Basin is based on research carried out in Syria in 1961/62.

(14) **The Soil Map of Syria; ACSAD. Scale 1:** 1 000 000. Damascus 1985.



وهي تربة خصبة وعميقة، وتُغطِّي أرضَ كورة الغوطة وهوامش المرتفعات المحيطة بالحوض، تليها في الأهمية التربة البنية – الحمراء المتوسطية، ثم اللحقيات النهرية الغرينية والطينية الخصبة، وكذلك الترب المتكونة على أرضية من الصخور البازلتية الاندفاعية على هوامش الحوض.

وعموماً فإن ترب الزمرة الأولى ذات الأصل الرسوبي البحيري مغطاة بطبقة رقيقة من الغضار، والترسُّبات المستنقعية، وهي قليلة الخصوبة، وتُناسب نموَّ الأعشاب الطبيعية والزراعة الحقلية، عُرفت منطقة انتشارها بـ(المرج)، في حين تتألف ترب الغرب والهوامش من أصناف ذات أصول لحقية، وبنية عميقة، تصلح للزراعات الكثيفة والأشجار المثمرة وغيرها، فكانت أساساً للـ(الغوطة التي تعني: البستان).

فالتفريق بين كورتي المرج والغوطة في حوض دمشق ذو جذور طبيعية تربية ورسوبية (ستراتيغرافية جيومورفولوجية واضحة. (ومع اتساع مساحة ما يتكشَّف من أرض البحيرة القديمة نتيجة تراجع مياه البحيرة عنها في الرباعي الأعلى وما بعده، كانت التوضُعات اللَّحقية تتقدَّم باتجاه الشواطئ المتراجعة للبحيرة حيث تنتشر مخاريط الانصباب والأنقاض عند مخارج الأنهار والأودية من الجبال، كما تقدَّم ذكرها، أكبرها مخروط بردى والأعوج والضمير ومنين[١٥].

٥-مناخ الحوض:

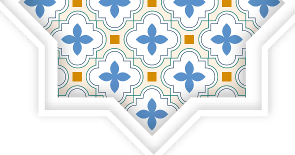
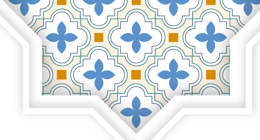
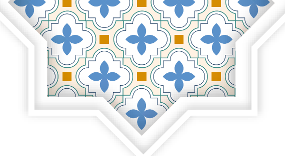
سورية الطبيعية هي ملتقى كتل هوائية عديدة، قادمة من مصادر مختلفة، ذات خصائص متمايزة، ممثلة بمركز الضغوط العالية السيبيرية، ومركز الضغوط الجوية المنخفضة الهندية-الموسمية، ثم مركز الضغوط الجوية المنخفضة الآيسلندية، وأخيراً مركز الضغط الجوي الآصوري المرتفع. وبأخذ حركات الهواء والرياح بتفاوت الضغوط وبقوة الانحراف بحسب قوة (كوريوليس) ومحاور التضاريس بالحسبان يصبح التأكيد على الهوية القارية – شبه القارية لسورية ودمشق بدهيّاً، إذ ينتمي مناخ الحوض إلى (المناخ المتوسطي لشرق حوض البحر المتوسط)[١٦]، وهو نموذج متوسطي شبه جاف، تُعيق تضاريسه المحيطة بحوض دمشق وصول المؤثرات البحرية إليه، مقابل جهات الشرق والجنوب الشرقي من الحوض المفتوحة أمام وصول الرياح والمؤثرات القارية للبَرِّ السوري والصحارى العربية وراءه. لذا أصبح الحوض»حجيرة مناخية حوضية» في نموذج المناخ المتوسطي شبه الجاف[١٧].

وهو مناخ أقرب إلى أشباه الصحاري، تصل فيه درجات الحرارة السنوية المتوسطة في دمشق وجديدة الخاص إلى ١٧ و ١٧،٢درجة مئوية. ومتوسط شهر كانون الثاني بين ٦،٦

(15) Niederschlagsvariabilitaet und Unbau-Unsicherheit in Syrien; Zimpel, H.G. s.89-114..

(16) **World Bank Climate Change Data Portal**, accessed on April 21, 2010.

(17) **نظراً للأهمية البالغة للمسألة المائية في حوض دمشق، ومستقبل المدينة القائم على الثروة الزرقاء**، قامت حول مصادر المياه وكمياتها ونوعيتها، وتلبيتها حاجات السكان، وتطور حصة الفرد من المياه، وتزايد أعدادهم المطرد، دراسات وبحوث كثيرة بعد استقلال سورية وإنشاء مؤسسات ووزارات تُعنى بهذه القضايا. وحظي حوض دمشق ونهرا بردى والأعوج بنصيب الأسد من تلك الدراسات، وبصورة خاصة على يد رائد الدراسات المائية الدكتور محمد شفيق الصفدي، ومن جاء بعده من خبراء سوريين وألمان وغيرهم، ممن أغنوا البحوث وقدموا الحلول الممكنة لمجابهة مشكلتي العجز المائي، بجرّ الماء من أحواض مائية أخرى، وأخطار تلوث المياه.



خريطة جيولوجية لحوض دمشق تظهر فيها تقاطع خطوط الصدوع، ومستويات الرسوبيات في بحيرة دمشق الرباعية. والأراضي البركانية المحيطة بها (ولفرات ١٩٦٧)

و٧،٢ درجة، ومتوسط شهر آب بين ٢٦،٣ و ٢٧،٢درجة في كل من المحطتين.

أمّا معدلات درجات الحرارة العظمى فتراوح بين ٣٤- ٣٦ درجة، ومعدلات الحرارة الدنيا بين ٦ و٨ درجات مئوية. كما تؤكد مقادير التبخُّر السنوي بين ١٧٥٠- ٢٢٢٠ ملم، ومتوسطات كميات الأمطار السنوية البالغة ٢١٢ ملم في دمشق، و١٣٥ ملم في جديدة الخاص، على الطبيعة شبه الجافة لمناخ حوض دمشق.

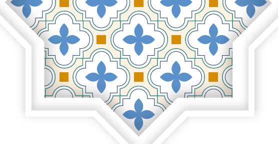
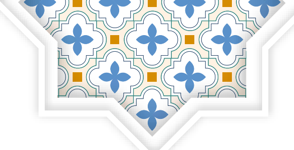
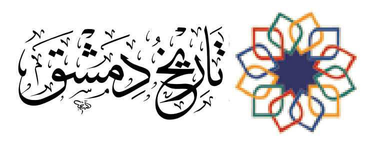
وتهبُّ على الحوض رياح تغلب عليها المحصلة الغربية والجنوبية الغربية، التي يزداد نشاطها وتكرارها في فصل الشتاء الماطر، كما تصله رياح جافة شرقية وجنوبية حارّة في الصيف والخريف، تُثير الغبار وتجعل الطقس سديمياً خماسينيّاً لعدة أيام في الحوض كله، لا سيما في أنحائه الشرقية. وبالاتجاه شرقي الحوض تزداد الأوضاع القارية وضوحاً وشدة، كما تتزايد الفروق الحرارية ومقادير التبخر، مع تناقص الأمطار السنوية من ٢٠٠ ملم إلى ٧٥ ملم في الاتجاه نفسه. وعلى أساس هذه المعطيات النَّوئية والمناخية تدخل منطقة حوض دمشق في نطاق البيئة المناخية (الجافة العُلويّة في الغرب والجافة الدنيا في الشرق، بحسب تصنيف إمبرجيه للبيئات المناخية في النطاق الجاف شبه المداري). كذلك تؤكد مقادير التبخُّر السنوي بين ١٧٥٠- ٢٢٢٠ ملم، ومتوسطات كميات الأمطار السنوية البالغة ٢١٢ ملم في دمشق، و١٣٥ ملم في جديدة الخاص، تؤكد على الصفة شبه الجافة لمناخ حوض دمشق.

٦- مياه الحوض:

كانت استفادة الإنسان من الثروة الزرقاء في البداية محصورة بمياه الأنهار والينابيع، إلى أن امتلك المعرفة والتقنية الكافية للوصول إلى المياه الجوفية عن طريق حفر الآبار والفجّارات (القنوات الرومانية)، وجرها بالقنوات الحديثة والأنابيب فيما بعد. وإضافة إلى مياه الصرف الصحي المعالجة في محطة عدرا[١٨].

ويعتمد مصدر أغلب مياه الحوض العذبة ونهريه بردى والأعوج وما زال، خارجيّاً، على كمية مياه الهطل التي يستقبلها الحوض المائي للنهرين بنحو ١٣٠٠ مليون م٣ سنوياً، تستأثر منطقة حوض دمشق منها بنحو ٥٨،٥٪، أي ما يعادل ٥٧٥ مليون م٣ من المياه السطحية، وقرابة ١٦٥ مليون م٣ من المياه الجوفية، وعليه يُقدَّر مجموع الثروة المائية العذبة المتاحة في منطقة حوض دمشق الجغرافي بنحو ٧٤٠ مليون م٣ سنويّاً.

(18) **المياه الجوفية في سورية:** شفيق الصفدي، المهندس العربي، العدد 5- 1962، دمشق.

ينبع نهر بردى من خارج الحوض، من أصل جبل الشير منصور في حوض الزبداني، ويشقُ طريقه عبر جبال إقليم الجبال العالية. ليدخل حوض دمشق بُعَيد خانق الربوة. وتُقدَّر غزارته عند مخرجه من الجبال بنحو ١٤ م٣/ ثا، قد ترتفع في بعض الفيضانات الشتوية إلى متوسط يصل إلى نحو٧٩ م٣/ ثا، وإلى قرابة ١٠٠ م٣/ ثا أحياناً. لكنها قد تنخفض في مواسم الشح إلى ٤ ـ ٤,٥ م٣/ ثا. ويقدر وسطي التصريف السنوي له بنحو ٤٠٠ مليون م٣.(٤٧٥ مليون م٣، بإضافة مياه السيول)[١٩].

ويبلغ طوله بين منبعه ومنتهاه في مستنقع العتيبة ٧١كم. ومعدل إنحداره ٠,٠٠٢٦ . ويتفرع بردى قبل دخوله الحوض إلى ستّ قنوات مشتقة منه. منها قناتان يساريتان هما قناة تورا، وقناة يزيد. وبقية القنوات يَمينية وهي قنوات: المزاوي، والديراني، والقنوات، وبانياس. لتعود مياهه وتشكل في أراضي الغوطة، شَبكة قنوات ثانية تتألف من قنوات: العقرباني، والداعياني، فالمليحي، ثم الزبديني. تليه شبكة قنوات ثالثة تتألف من قنوات: البالاوي، والزابوني، والجسريني، والملك، وبيت نايم، والشيداني، نتيجة استعادة نهر بردى قسطاً من حيويته؛ بما يتزود به من مياه كثير من العيون الصغيرة المتفجرة في قاع النهر وجوانبه في منطقة زور بردى، وما يستعيده من المياه عن طًريق ارتشاح المياه من قنوات الشبكتين السابقتين.

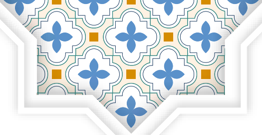
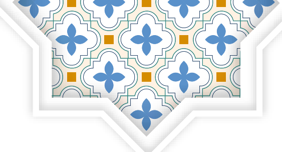
ومع تجددُ حيوية النهر من مياه عيون الألايا بداية منطقة المرج (القلايا)، تتشكَّل شبكة قنوات رابعة هي: قنوات الحرستاني (نسبة إلى حرستا القنطرة)، والبليلاني، وحوش المتبن، ثم ثلاث قنوات يسارية هي قنوات: حوش الصالحية، وقناق البحيراني، والنشابية. حتى ينتهي به المطاف في منخفض العتيبة. وهكذا كان ابن الحوض يعتمد في عيشه وبقائه على تعامله المتوازن مع هذه الثروة الحيوية آلاف السنين، حتى العقد السادس من القرن الماضي، حين بدأت نوعية المياه في الحوض بالتدهور، نتيجة تلوث مياه العديد من القنوات. والسبب الأول والأخير لكل هذا: هو التضخم السكاني الذي تعيشه مدينة دمشق منذ ستينيات القرن العشرين، وانتقلت عدواه إلى معظم التجمعات السكانية القريبة والبعيدة عن المدينة.

أمّا النهر الثاني في المنطقة فهو نهر الأعوج، الذي تقع منابعه في جبل الشيخ في إقليم الجبال العالية أيضاً. ويتألف من التقاء ما يتبقى من مياه نهر بحيران ـ السيبراني، ونهر الجناني. ويروي القسم الجنوبي من منطقة حوض دمشق. وتُقدَّر غزارته المتوسطة في حوض دمشق بنحو ٢,٥ م٣/ ثا، ترتفع في موسم الفيضان إلى معدل ١٥م٣/ ثا، وتتدنى إلى متوسط ٠,٧ م٣/ ثا في موسم الشح، ويُقدَّر معدل التصريف السنوي للأعوج بنحو ١٠٠ مليون م٣. وتُشتَقُ منه مجموعة من القنوات أبرزها قناة (ديراني الأعوج) المتجهة شمالاً لري أراضي وكروم عنب مدينة داريا . كانت مياه نهر الأعوج قبل نصف قرن من الزمن تنتهي في منخفض الهيجانة قبل تحويلها عنه. أما اليوم فلم تعد مياهه تتجاوز قرية نجها بل وقرى قبلها في فصل الجفاف، جراء استنزافها في أعالي النهر.

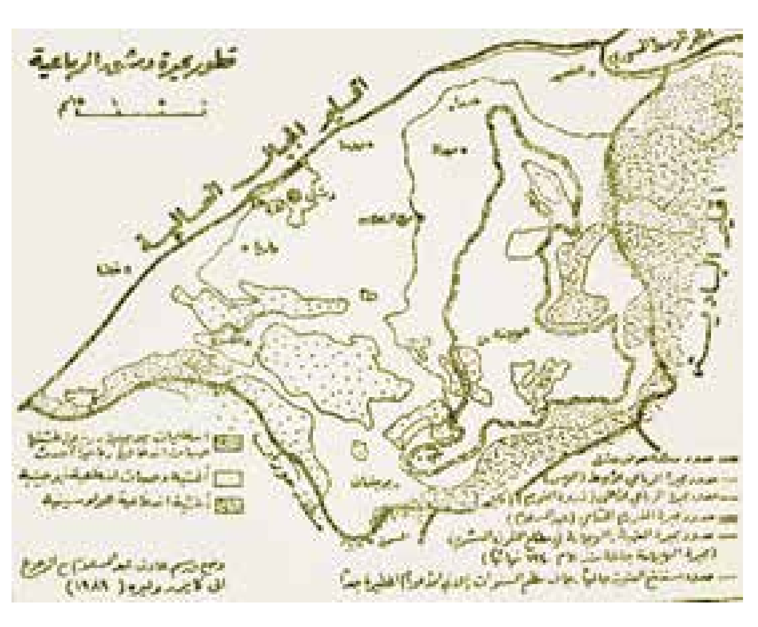
كذلك يمتلك حوض دمشق ثروة مائية جوفية[٢٠]، أصبحت اليوم مصدراً مهمّاً في مجال الري والشرب والاستعمالات الأخرى، بعد عجز المياه السطحية عن تلبية حاجات السكان المتزايدة

[19] **e probleme de l'eau au Liban et en Syrie;** Mazloum, M. : L. P. 33- 70.

[20] Groundwater in Syria; BURDON, D.J., MAZLOUM, S. and SAFADI, p. 377-388, 2 figs.

من المياه. وتُقدَّر هذه الثروة بنحو ٢٢,٥٪ من مجموع مياه الحوض العذبة، ينبجس قسم منها من أرض المنطقة على شكل ينابيع هي (القلايا، وأوتايا، والطبيبية...)، والينابيع المحلية الأخرى في المنطقة مثل عيون الحاروش قرب قرية دير العصافير، التي تُشكِّل نهر الحاروش (أو الشويحة).



تطور بحيرة دمشق الرباعية

وتكثر هذه الينابيع في الشريط الفاصل بين الرسوبيات البحيرية لكورة المرج، والتوضُّعات اللحقية لكورة الغوطة. لكن غزارة مياه معظمها قد تراجعت أو جفَّت جراء استنزاف المياه الجوفية بشكل كبير. ويُقدَّر وارد المياه الجوفية السنوي في الحوض بنحو (١٣ مليون م٣). وتتجه حركتها إلى منخفض العتيبة والهيجانة. كما تزداد درجة ملوحتها مع حركة المياه نحو الشرق، حيث تصل أعلى درجاتها حول العتيبة (٢- ٢٠ غ / ل) وحول الهيجانة وشمال غربيها (٢٣ غ / ل). والمياه الجوفية في الحوض موزعة في جيوب بشكل غير مُنظَّم وبأعماق غير واحدة في حويضاته المائية الفرعية. ومع ذلك ما زالت مياه حوض دمشق صالحة للري وللشرب والاستعمالات المنزلية على العموم بدرجات متفاوتة[٢١].

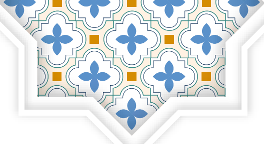
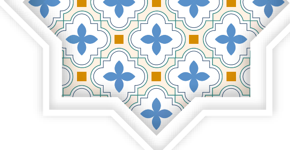
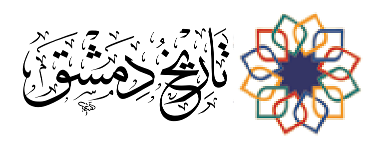
أما المصدر الرئيسي لمياه حوض بردى والأعوج المائي فهو الهطل السنوي المقدر بمتوسط قدره ٢٦٥٩ مليون م٣/ سنة، يبقى منها بعد التبخر وتوابعه نحو ٨٥٠ مليون م٣ سنوياً. أما المياه الراشحة فلا تُعَدُّ فاقداً، لأنها تشكل مورداً مائيّاً ضمنيّاً مهمّاً في تغطية احتياجات الري في الغوطة والمرج. ولقد تم تقدير كميات المياه المكن استثمارها في جميع أجزاء حوض دمشق بما يعادل ٥٥٠- ٥٩٥ مليون م٣/ سنة. من المياه المتجددة[٢٢].

وفي الحوض كميات من المياه غير المتجددة، تُشكِّل ما يُعرف بـ: (الاحتياطي الطبيعي). وتُقدَّر كميتها بنحو ١٤٢٦ مليون م٣. يُستحسن عدم المساس بها، إلا في حالات الأزمات الخانقة. كذلك يمتلك حوض دمشق مورداً مائيّاً غير تقليدي، يرجع استثماره إلى أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، هو مياه الصرف الصحي المعالج. ويقدر حجمها لعام ١٩٩٠ بنحو ٢٥٧ مليون م٣، ولعام ٢٠٠٠ بأكثر من ٤٣٥

---

(21) **Developing Water Supply System for Damascus City**; JICA (1996), Phase I, Ministry of Environ ment documents.

(22) **World Bank (WB), United Nation Environmental Program (UNEP)**, and Ministry of Environment (1997): PEAP for Barada Basin, Ministry of Environment documents, Damascus

مليون م³[٢٣]، ويقدر لها أن ترتفع إلى نحو ٦٥٩ مليون م³ عام ٢٠١٠ (بحسب تقديرات مديرية الحوض). ومع كل هذا وذاك فإن مياه حوض دمشق تعاني من الضغوط الهائلة عليها، لتأمين احتياجات السكان الذين تتزايد أعدادهم سنويّاً، وبوتيرة تعجز معها كميات المياة المتاحة عن تلبية احتياجاتهم. ولا سيما في السنوات العجاف والجافة، التي تقل فيها الأمطار[٢٤].

وتتغذى طوابق المياه الجوفية في حوض دمشق من مصدرين هما المياه الجوفية الواردة إلى الحوض من الكتل الجبلية الغربية، وبقية المرتفعات المحيطة بالمنطقة، وتتميَّز بنوعيتها الجيدة لمرورها عبر مصفاة الصخور المنفذة واللَّحقيات الرباعية. والمصدر الثاني هو الأمطار الهاطلة على أرض الحوض سنويّاً وهي قليلة الأهمية قياساً إلى المصدر الأول، الذي يُزوِّد خزانات المياه الجوفية بأكبر كمية من المياه العذبة. ولقد ظلت المياه الجوفية وحواملها سليمة، وطبيعية متوازنة حتى أواخر خمسينيات القرن الماضي، حين بدأ الحوض يشهد غزواً كاسحاً وانتشاراً واسعاً وسريعاً لعشرات آلاف الآبار المزودة بالمضخات المائية. فأدى ذلك إلى انخفاض مستويات المياه الجوفية في الحوامل من ٠ ـ ٣ ـ ٤ م سابقاً، إلى عشرات الأمتار، بل وأكثر حاليّاً[٢٥].

عين الفيجة:

نبع الفيجة هو المصدر الرئيسيُّ لمياه الشرب العالية الجودة والنقاء (قساوته ١٦ درجة فرنسية) لمدينة دمشق. يصل إنتاجه السنوي إلى نحو ٢٠٠ مليون متر مكعب، مع تفاوت غزارته بين الربيع والخريف، إذ قد تصل غزارته لأكثر من ٢٠م³/ثا، لكنها قد تتدنى لأقل من ٢م³/ثا في سنيّ الشح.. فمتوسط غزارته ١٢م³/ثا، فيما غزارة نبع بردى هي ٦, ٥م³/ثا. وهذا يدلُّ على دوره في حقلي الريّ والشرب، خاصة بعد جرِّ مياهه إلى المدينة سنة ١٩٠٦، ووصوله إلى ضواحيها. وتصل حاجة سكان مدينة دمشق اليوم إلى ما يزيد على ٧م³/ثا وسطيّاً، لكنه ومع ازياد الطلب على ماء الفيجة زُوِّدت المدينةُ بمجموعة من الآبار في المدينة وضواحيها لنضخ أكثر من ١٠٠ ألف م٣ يوميّاً، لتغطية العجز في شهور الشحّ[٢٦].

[23] **Environmental and Energy Management Research Unit (EEMRU),** School of Chemical Engineering at the National Technical University of Athens (NTUA), INECO (Institutional and Economic Instrumens) Toolbox: Water quality degradation in the Barada River Basin, Syria, accessed on April 4, 2010.

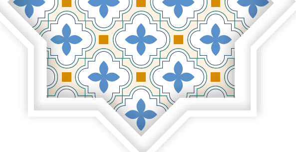
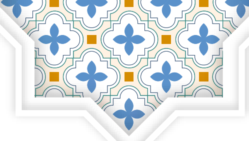
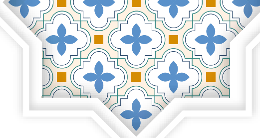
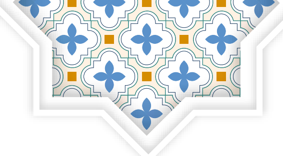
Middle East Economic Digest: Italy takes Damascus wastewater contract, January 24, 1992.

[24] **Studies on the drinking water supply of the new Damascus airport near Ghozlaniye;** WOLFART, R. P. 1-25, 4 maps, 1 table. Damascus 1961.

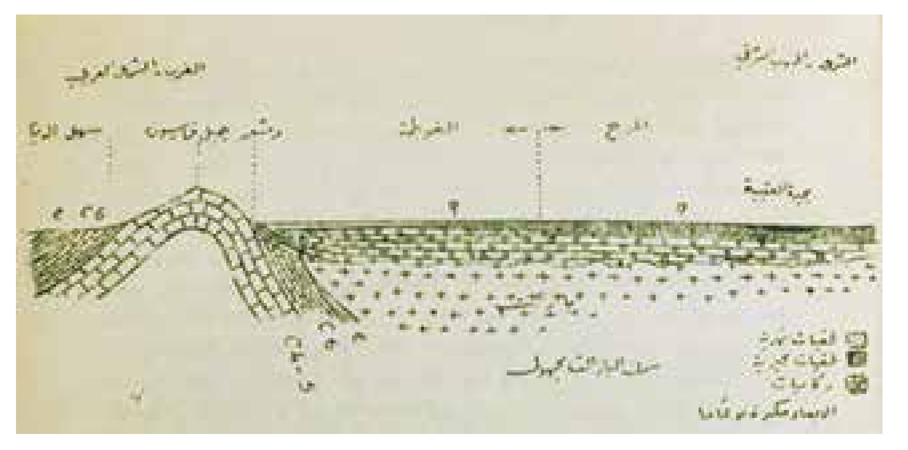
[25] **The Household Water Crisis in Syria's Greater Damascus Region;** Elie Elhadj. SOAS Water Research Group, Occasional Paper 47

Water Resource Management in the oasis of Damascus; Masanori Naito, Man›s Role in Changing Phases of Desertification, in: Wolfgang Meckelein/Horst Mensching [Eds.]:Resource Management in Drylands, 1985.

[26] قام (ماسانوري نايتو) من جامعة طوكيو بتحضير أطروحة نيله درجة الدكتوراة عن (حوض دمشق) 1981-1983 بإشراف أ.د. عادل عبد السلام. طوال وجوده في سورية.







مقطع جيولوجي لحوض دمشق (عبد السلام ١٩٥٥)

رابعاً _ أضخم تجمع سكاني سوري:

١-إعمار قديم ومتصل:

يُعدُّ حوض دمشق مهدَ الكثير من مواقع إنسان العصور القديمة، وخاصة مواطن إنسان العصور الحجرية على هوامشه المرتفعة المطلة على شواطئ بحيرة دمشق الرباعية. وقد اتَّصف إعمار الحوض باستيطانه على مراحل، ارتبطت بتراجع شواطئ البحيرة وانكماشها. ففي مستوطنة تل أسود شرق قرية جديدة الخاص تم تحديد عمر الاستيطان بنحو٧٩٠٠ – ٧٦٠٠ قبل الميلاد، أما موقع الغريفة غرب العتيبة وبحيرتها السابقة فيعود إلى ٦٩٠٠ – ٦٠٠٠ قبل الميلاد، وتل الخزامي في موقع مطار دمشق الدولي إلى نحو ٤٥٠٠ –٤٠٠٠ قبل الميلاد. ويُعدُّ تلُّ الرماد الواقع على وادي شركس، غرب مدينة قطنا، مستوطنة زراعية قامت على الهامش البعيد للشاطئ الغربي لبحيرة دمشق بين ٦٣٠٠ ـ٦٠٠٠ قبل الميلاد. كذلك قام تجمع سكاني في تل فرزات قرب قرية حوش الصالحية، تم تقدير عمره بين الألف الثاني قبل الميلاد، والعهد الروماني المتأخِّر، وتل السكا[٢٧].

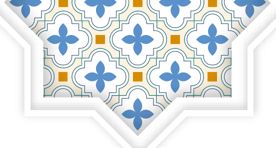
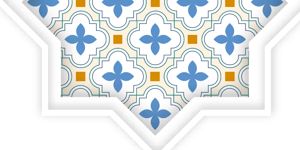
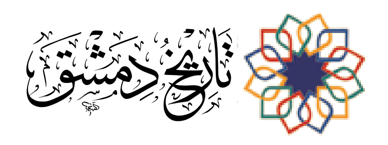
ولقد استمرَّ إعمار الحوض تدريجيّاً، فقامت النواة الأولى لمدينة دمشق (كقرية) على الضفة اليمنى (الجنوبية) لنهر بردى. وذُكرت لأول مرة في التاريخ في قائمة المدن التي احتلَّها الفراعنة في القرن الخامس عشر ق. م.، وظهرت كعاصمة للآراميين في القرن الحادي عشر ق. م. بعدها اتسع عمران الحوض وازدادت أعداد التجمُّعات السكانية فيه، إبان الحكم اليوناني والروماني والبيزنطي.

وفي العهد الأموي توسَّع الاستيطان على امتداد قناة يزيد، آخر قناة ري اشتُقَّت من بردى. كما نشأت قرى جديدة في الغوطة، وبشكل خاص في كوره المرج.

وتشهد الآثار الباقية من العصور الرومانية والبيزنطية وما بعدها على توسع إعمار الحوض، على الرغم من تعرُّض المنطقة للغزو والتخريب في فترات تغيُّر الحكام والعهود والصراع للسيطرة على دمشق، لا سيما في زمن غزو تيمورلنك لدمشق وتخريب القرى والمزارع عام ١٤٠٠م.

Durchführung einer Klimaimpaktstudie am Beispiel des Figeh-Projektes (Implementation of a Climate Impact Study: The Example of the Figeh Project); Kunstmann, Harald. Presentation at KfW Development Bank, 15 February 2012. Karlsruhe Institute of Technology (KIT).

[27] **رسالة (من ملك دمشق إلى أخي «زمري ليم» حاكم «مملكة ماري»**، علمت أن مدينتك قد تعرضت للهجوم، أرسل لي آخر أخبارك). النص المسماري المكتشف في»تل سكا» ، الذي استمرت عمليات التنقيب في الموقع «أحمد فرزت طرقجي» 20 عاماً،منذ العام 1989، ويعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد.وهو الأول من نوعه في منطقة حوض دمشق الذي تم فيه اكتشاف قصر في السوية الرابعة يعود إلى فترة البرونز المتوسط أي قرابة 1800ق.م، وهذه الفترة شهدت بروز عدد من الممالك الأمورية القوية والمهمة في سورية ومنها «بابل، ماري، قطنا، ايبلا".

لكن الإعمار عاد فازدهر بعد ذلك. إذ يذكر الظاهري في كتابه (زبدة كشف الممالك) (١٤٨٦)، «أن في الغوطة وحدها ثلاثمئة قرية ونيِّفاً في عهد دولة السلاطين (المماليك) الشراكسة. أصابها الخراب زمن العثمانيين».

لكن ابن طولون[٢٨] يذكر في مؤلفه (ضرب الحوطة على جميع الغوطة) في العهد العثماني، أن عدد قرى الغوطة والمرج كان قريباً من سبعين قرية. ليتحدث كرد علي في كتابه (غوطة دمشق) عام ١٩٤٩. عن وجود ١٦٨ قرية ومزرعة داثرة في الغوطة وحدها. ويُقدَّر عددُها في الحوض كلِّه اليوم بـ ٣٦٦ مدينة وقرية ومزرعة منها نحو ١٢٠ مزرعة مهجورة.

وفي دراسة (ع. عبد السلام. ١٩٩٠)[٢٩] للتعرُّف على مراحل إعمار الحوض بدلالة التسميات الجغرافية[٣٠] للقرى وتوزُّعها الجغرافي، أظهرت الخريطة فيها ازدحام التسميات الآرامية- السريانية في غوطة دمشق وهوامشها الشمالية والجنوبية الغربية، وندرتها، بل وشبه انعدامها من كورة المرج. نذكر منها: دوما، وحرستا، وعربين (عربيل)، وجوبر، والقابون، وجرمانا، وسقيا، وزملكا، وجسِّرين، وزبدين، وببيلا، ويلدا، وصحنايا، ودمشق نفسها وغيرها.

أمّا في المرج فلقد غابت التسميات الأرامية- السريانية كليّاً لتَحلَّ محلها التسميات العربية الأحدث للقرى مثل: المنيحة (المليحة)، والمحمدية، ونولة، والدلبة، والغسولة، ومرج السلطان، والبلالية، ودير سلمان، والغريفة، والعبادة، والعتيبة، والبحارية، والجربا، والهيجانة، والنشابية وغيرها.

وعلى الرغم من وجود بعض القرى الموسومة بأسماء عربية حديثة في بحر التسميات الآرامية في الغوطة، ووجود بعض القرى تحمل أسماء آرامية في خضم التسميات العربية في المرج، فإن توزيع التسميات يكشف انطباقاً شبه تامٍ لخط الحدّ الفاصل بين مجموعتي التسميات، على الحد الفاصل بين كورتي الغوطة والمرج. ويُبيِّن حقيقةَ ارتباط الإعمار القديم لكورة الغوطة بالعهد الكنعاني - الآرامي. وارتباط الإعمار الأحدث بالعهود العربية المتأخِّرة وتركُّزه في كورة المرج.

ويُلاحَظ في هذا السياق أن تسميات قرى ومزارع كورة المرج تعكس ثلاثة أجيال من التجمُّعات الريفية، أقدمها تلك الحاملة لأسماء عربية من العهد الغساني والأموي وما بعده، تليها التجمُّعات الحاملة لتسميات مسبوقة بكلمة (حوش)، التي تدل على مُنشأة إقطاعية تعود للعهد العثماني والفرنسي. ومثلها تلك التي تَسبق أسماءَها كلمةُ (مزرعة). وهي تجمُّعات أحدث انتشرت في المرج الشمالي خاصة قبل نحو ٦.٥ عقود مضت.

٢-تركيب السكان وتطورهم الديموغرافي:

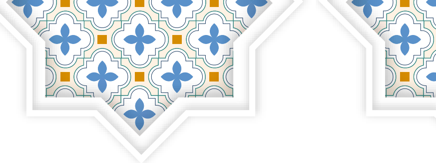
كان سكان الحوض الأوائل يتألفون من مجموعات سبقت الآراميين والسريان، ومن العرب القدماء الذين جعلوا من دمشق عاصمة لهم. رفدتهم فيما بعد موجات قبلية متعددة جاءت من شبه الجزيرة العربية، آخرها موجة الغساسنة التي سبقت الموجة العربية الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

---

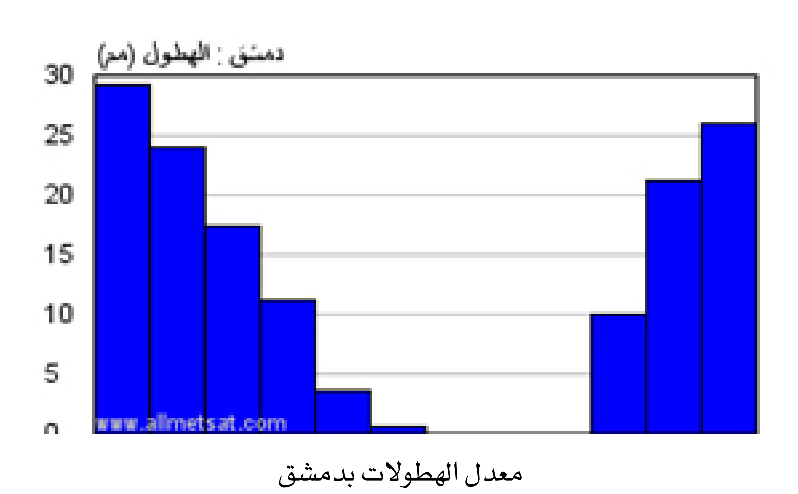
[28] **ضرب الحوطة على جميع الغوطة:** محمد بن طولون الدمشقي، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 1946.

[29] **جغرافية سورية الإقليمية:** عادل عبدالسلام، 1990 /2003. ص305.

[30] **Ueber die topographischen Namen arabischen Ursprungs in Spanien und Portugal;** Lautensach, H. ,3.4.S.219-243..

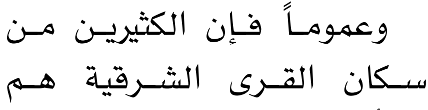






معدل الهطولات بدمشق

وكانت موارد الحوض الطبيعية وغناه بالمياه دافعاً لسكان الأنحاء القريبة والبعيدة، للتدفُّق على الحوض واستيطانه على مر العصور. وهو الدافع نفسه، الذي يجذب إليه المهاجرين الريفيين بأعداد كبيرة في الوقت الحاضر.



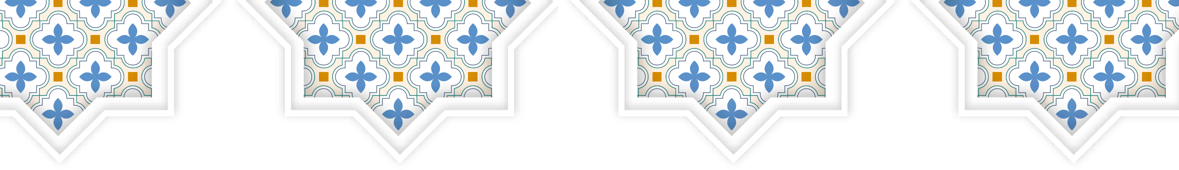
وعموماً فإن الكثيرين من سكان القرى الشرقية هم ريفيُّون من أصول بدوية، ينتمون إلى قبائل عربية قديمة وحديثة، ما زال بعضُها يتجوَّل في الأنحاء الشرقية والجنوبية الشرقية من الحوض على شكل أنصاف بدو، أخذوا بأطراف الاستقرار وبدايات التحضر. وبعضهم استقر فعلاً في مساكن ثابتة كما في بلدة حران العواميد وغيرها. إضافة إلى هجرة أفواج من سكان القرى والمناطق المجاورة من إقليم الجبال العالية، لا سيما من القلمون، إلى دمشق والمدن الأخرى في الحوض.

ولقد استمرَّ تدفُّق أبناء الهجرات الحديثة من جميع الأقاليم السورية إلى المنطقة، ونشطت وكبرت أحجامها منذ استقلال سورية وحتى الوقت الحاضر، وشملت كلاً من المدن والريف. ولم تقتصر الهجرة والاستيطان على الوافدين إليه من منابت عربية سورية وغيرها، بل استقبل الحوض هجرات من أقوام غريبة جاءت من بلدان بعيدة منذ القدم، مثل الأتراك والأكراد والشركس والأرمن والألبان (الأرناؤوط) والبوشناق والكريتيين وغيرهم ممن أقام في دمشق في الدرجة الأولى أو في بعض قرى الحوض. وقد اندمج أغلب هؤلاء في المجتمع العربي.

ومن الهجرات المتأخرة إلى الحوض هجرة الجزائريين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٧، ثم تدفُّق قرابة ١٥٠،٠٠٠ لاجئ فلسطيني على الحوض عام ١٩٤٨. ثم قرابة ١٠٠،٠٠٠ نازح جولاني استقرُّوا في المدينة وفي مخيمات عديدة فيه. وعموماً كان الحوض والمدينة محطَّ استيطان فئات بشرية مختلفة من بلاد الشام وبقية البلدان العربية والأجنبية. وما زال بغية كثيرين من سكان الريف السوري بصورة خاصة.

أما عن حجم السكان فقد كان من أكثر مناطق العالم سكاناً في العهد الأموي، يسكن معظمهم في دمشق. وقد مرَّ تاريخ المنطقة منذئذ بفترات ازدهار وانحطاط، بحسب العهود والقوى الحاكمة في بلاد الشام. وعلى الرغم من الروايات والأخبار المتواترة في كتب التراث عن سكان دمشق وحوضها، فإننا نفتقر إلى الأرقام الموثوقة لأعدادهم. وجُلُّ ما هو متوفِّر ويُركَن إليه إلى حدٍّ ما هو بعض المعطيات التقديرية للسكان من العهد العثماني، وتخمينات مَن زار المنطقة من الرحالة الأوروبيين، التي كانت تهتمُّ بسكان المدينة بالدرجة الأولى. ومع ذلك يمكن تقدير عدد سكان الحوض نسبة إلى عدد سكان مدينة دمشق، التي قُدر عددهم عام ١٥٤٨ بنحو٣٤٠٠٠ نسمة (ن. غويونج ١٩٧٨)[٣١].

(31) الوثائق العثمانية المتصلة بسورية ودمشق ٣٧ -ص٣٨ سنة ١٢٥٥هـ: نجاة غويونج - - مؤتمر بلاد الشام الثاني- دمشق- 1978.





أما عدد سكان الحوض حسب معطيات التعداد السكاني لسورية عام ١٩٤٧ فيقدر بنحو ٤٣٧,٠٠٠- نسمة، منهم أكثر من ٣١٧,٠٠٠ نسمة في مدينة دمشق. ثم ارتفع عددهم سنة ١٩٦٠ لأكثر من ٧٠٠,٠٠٠ نسمة، منهم ٥٣٠,٠٠٠ نسمة تقريباً في مدينة دمشق. وبلغ في تعداد عام ١٩٨١ نحو ١,٦٨٢,٥٠٠ نسمة، منهم أكثر من١,١٠٠,٠٠٠ نسمة في مدينة دمشق، والباقي يقطن في نحو ٢٤٦ تجمّعًا سكانيّاً.

وقدَّر المكتب المركزي للإحصاء عدد سكان منطقة حوض دمشق لعام ٢٠٠٣ بنحو ٣,٢٦٠,٠٠٠. نسمة، منهم في المدينة قرابة ١,٦٢٠,٠٠٠ نسمة، أي ما يعادل نصف السكان (٤٩,٧٪). وعلى الرغم من ذلك فإننا نرى أن الرقم الفعلي أعلى من ذلك بكثير، ولا نظن أنه أقل من (أربعة ملايين نسمة ؟؟). ومع ذلك فإن أرقام السكان وما يتبعها في دراستنا هي أرقام المكتب المركزي للإحصاء، نعتمدها انسجاماً مع اعتماد هذه الأرقام من قبل المؤسسات الرسمية والخاصة، ولعدم توفُّر سواها.

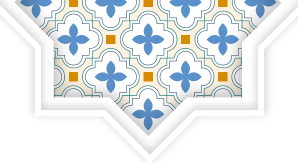
وفي جميع الأحوال تبقى الكثافة السكانية في الحوض مرتفعة وتصل إلى (٩٠٥) أشخاص في الكيلومتر المربع الواحد، و(١١١١نسمة/كم٢) بحسب تقديراتنا. أما في دمشق فإن عدد السكان في أيام العمل الأسبوعي يرتفع كثيراً في النهار، بما يَفِدُ إليها من موظفين وعمال ومتسوقين وأصحاب مصالح مختلفة، وغيرهم ممن يعيش في المدن والقُرى القريبة من دمشق. فترتفع الكثافات العددية في الأحياء التجارية إلى أكثر من ١٠ر٠٠٠ نسمة /كم٢، تنخفض في الليل إلى بعض حراس الأسواق والمحلات التجارية فقط. وتشير التوقعات إلى أن عدد سكان مدينة دمشق وحدها سيصبح بحلول عام ٢٠٢٥ أكثر من ٥,٦ ملايين نسمة، وأما ريفها فسيَبلغ عدد سكانه ٤,٦ ملايين نسمة. أي أن سكان الحوض سيتجاوز ١٠ ملايين، أو ما يعادل ٤٠ ٪ من سكان سورية، الأمر الذي سيُسبِّب أزمات ومشكلات لا حصر لها.

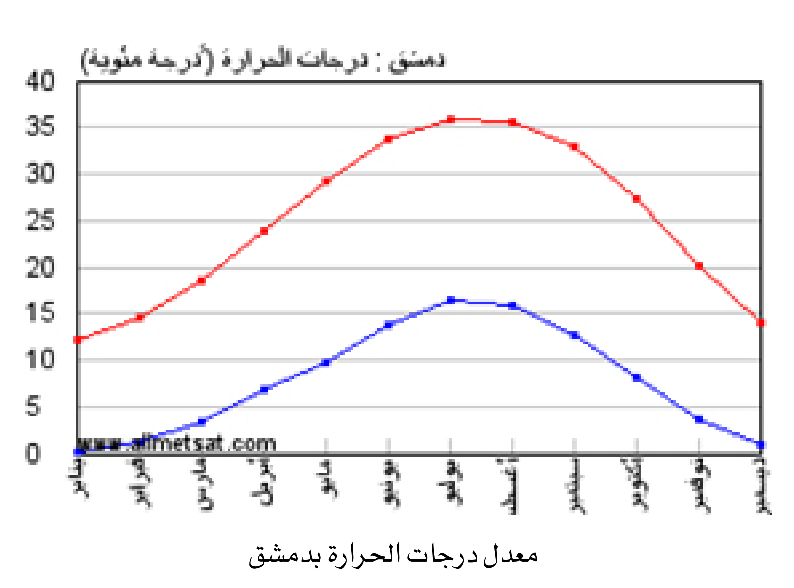
وبناءً على ما تقدَّم فإن هذه المعطيات الديموغرافية تعكس سوء توزُّع السكان في سورية، وازدحامهم غير الطبيعي في بقعة محدودة المساحة مثل حوض دمشق، الذي يشغل أقل من ٢٪ من مساحة البلاد. ولا يُمكن تفسير هذا الازدحام والزيادة السكانية في الحوض بالنمو الطبيعي للسكان المحليين (التُّنّاء) وحده، بل به وبالهجرة التي لا تنقطع إليه، من كل من ريف سورية وبلداته المختلفة ومن الخارج.

خامساً _ دمشق، العاصمة الواحة:

مدينة دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية، ولها في التاريخ أكثر من عشرة أسماء، منها جلّق وجيرون وذات العماد والفيحاء وغيرها. وفي تسميتها بدمشق آراء وتخريجات يهمُّنا منها أنها تَسمية آرامية الأصل. لكن أكثر أسمائها تداولاً من قبل أبناء العربية هو (الشام)، وكانت تُعرف في العهد العثماني بـ(شام شريف) من إضافة (مُقدّس) للاسم.

ودمشق عبارة عن تجمع سكاني حضري كبير، ينمو باتجاه تحوُّله إلى مدينة عملاقة، تقع على ارتفاع متوسط قدره ٦٩٠-٧٠٠ م فوق سطح البحر، عند أقدام وخاصرة جبل قاسيون الذي يُطلُّ عليها من ارتفاع قدره ١١٥٠ م، وجبل المزة - عنتر، الواقعَين على الحافة الغربية لمنطقة حوض دمشق، حيث قامت على شريط التقاء الجبال بفيافي البادية السورية.



معدل درجات الحرارة بدمشق

وهـي مدينـة قديمـة ذات تاريـخ غـني وحافل بالأحداث، إذ تعود نشـأتها المبكرة إلى الألـف الثالـث قبـل الميـلاد، في مـكان ظهـرت فيـه بدايـات التجمـع السـكاني الأول، الـذي نمـا وتطـور إلى النـواة الأولى لدمشق، بحدود القـرن الثامـن عشـر قبل الميـلاد على ربوة (تل السـماكة) بين مئذنة الشـحم وحي الخـراب، تقـع على الجانب الأيمـن (الجنوبي) مـن نهـر بـردى، وترتفـع ٥-٦ م فوق المستوى العام للمنطقـة. ومـن ثم أصبحـت النـواة مدينـة ـ عاصمـة لـدول وممالـك مختلفـة حكمـت هـذا الجـزء مـن العـالم في شـتى العهـود،

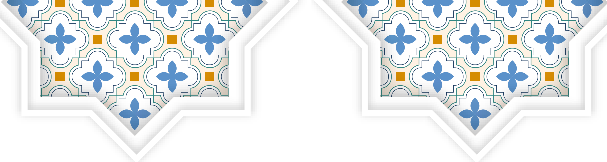
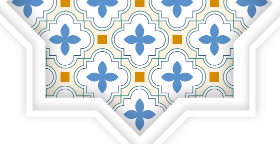
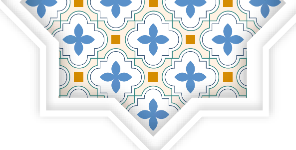
ولذلـك تُعَدُ دمشـق أقدم مدينـة ـ عاصمـة، اسـتمرَّ إعمارهـا بـدون انقطـاع، منـذ ورد ذكرهـا في الوثائق المصريـة العائـدة للقـرن الخامـس عشـر ق. م. وكانـت حاضـرة أهـم الممالـك الآراميـة في القرنـين العاشـر والتاسـع ق. م. لكـن أهميـة آرام دمشـق تراجعـت إلى عاصمـة دويلـة صغيـرة، إثـر غزوهـا مـن قبـل الآشـوريين عـام ٧٣٢ق. م، والكلدانيـين علـم ٦٠٤ ق. م. وبعـد ذلـك خضعـت للحكـم الفارسـي عـام ٥٣٠ ق. م. مـع بقـاء ملـوك آرام دمشـق حكامـاً فيهـا حتـى داهمهـا الاحتـلال اليونانـي عـام ٣٣٣ ق. م.

ولما كان الاسـتعمار اليونانـي اسـتيطاني الطابـع، أنشـأ اليونانيـون أحيـاء لهـم في مسـتعمرة أُقيمـت شـرق المدينـة الآراميـة القديمـة. وكان شـكل مخطَّـط المسـتعمرة اليونانيـة وشـوارعها منظَّمـاً علـى النمـط الهندسـي اليونانـي ـ الهلينـي، وهـو الشـطرنجي الطـراز. ومـع تراجـع الـدور اليونانـي ـ الهلينـي بعـد مـوت الإسـكندر، وانقسـام إمبراطوريتـه، دخلـت دمشـق في حـوزة الدولـة السـلوقية، إلى أن احتلَّهـا الأنبـاط عـام ٨٥ ق. م. لكـن ذلـك لم يـدم طويـلاً، إذ غـزا الرومـانُ سـورية، واحتلـوا دمشـق عـام ٦٤ ق. م[٣٢].

وقـد جعـل الرومـان دمشـق قاعـدة عسـكرية، أحاطوهـا بسـور أقـوى مـن السـور الآرامـي، طولـه ١٥٠٠م وعرضـه ٧٥٠م، فيـه تسـعة أبـواب. ولم يبـق اليـوم مـن السـور سـوى الجـزء الشـرقي والجنوبـي، ومـن الأبـواب الرومانيـة سـوى بـاب شـرقي. أمـا بقيـة الأبـواب فقـد أُعيـد بناؤهـا وتجديدهـا في عهـود لاحقـة. كمـا اشـتق الرومـان مـن بـردى قناتـي بانيـاس وتـورا. إضافـة إلى أبنيـة ومعالـم عمـرانيـة عسـكرية ودينيـة اندثـر معظمهـا. وقـد أسـهمت دمشـق في بنـاء الحضـارة الرومانيـة وسياسـة رومـا. وظلـت دمشـق منـذ أواخـر القـرن الرابـع الميـلادي وإبـان الصـراع البيزنطـي ـ الفارسـي حاضـرة سـورية، مـع بـروز الغساسـنة حكامـاً للجنـوب السـوري وحـوض دمشـق تحـت الحمايـة البيزنطيـة، إلى أن فتـح العـرب المسـلمون دمشـق عـام ٦٣٥ م.

---

(32) **Esquise d‘ une histoire de la ville de Damas. Rev. Des Etudes Islam;** Sauvaget, J. 8. p. 421-480.

وفي العهد الأموي (٦٦١-٧٥٠ م) أصبحت دمشق عاصمة أكبر دولة مترامية الأطراف، وأهم مركز إشعاع حضاري وسياسي في العالم. ورافق ذلك توسُّع عمراني تجاوز أسوار المدينة القديمة، وتشييد منشآت عمرانية واقتصادية ودينية يأتي بناء الجامع الأموي الكبير في مقدمتها.

لكن المدينة وعمرانها تعرضا لتدمير وتراجع في بداية العهد العباسي (٧٥٠ م). وفقدت دمشق مكانتها كعاصمة للعالم الإسلامي، بانتقال مركز الخلافة إلى مدينة بغداد. ثم تعاقب عليها بعد ذلك عشرات الحكام والدول، تعرضت في أثنائها للهدم والتخريب وتدني أعداد السكان والانحطاط حيناً، وللبناء والازدهار وازدياد أعداد السكان حيناً آخر. وتذكر المصادر التراثية أن عدد سكان دمشق في العهد الفاطمي (٩٧٣ - ١٠٧٥ م) لم يتجاوز ٥٠٠٠ نسمة عام ١٠٧٥، مع الأخذ في الحسبان تعرُّض المدينة لزلزال عام ٩٩١ الذي دمر ألف بيت فيها، ثم زلزال عام ١٠٢٩م، الذي قضى على نصف المدينة وسكانها.

وقد عادت دمشق فازدهرت وازداد عدد سكانها في العهد السلجوقي، وامتد تأثيرها إلى الفرات شرقاً، وطبرية جنوباً وحمص شمالاً. وقام الأمير أتسز السلجوقي بإعادة بناء قلعة دمشق على أنقاض البناء القديم الذي يرجعه الاختصاصيون إلى العهد الروماني، وأُعيد ترميم قسم كبير من القلعة حديثاً.

ثم مرت في بداية عهد الأيوبيين عام ١١٥٤بفترة من الفوضى والاضطراب، تلتها مرحلة ازدهار حين أصبحت عاصمة للدولة الأيوبية، فتوسع عمرانها خارج السور باتجاه جبل قاسيون. لكن الغزو المغولي داهم دمشق للمرة الأولى عام ١٢٦٠، وللمرة الثانية عام ١٤٠٠م حين دمرها تيمورلنك وخلَّفَها خاوية على عروشها. علماً أنها كانت قطعت شوطاً كبيراً في النمو والتقدُّم بين الغزوين، في عهد دولتي السلاطين الأتراك والشراكسة، الذين أعادوا بناءها وإعمارها بأبرز المعالم العمرانية الباقية إلى اليوم.

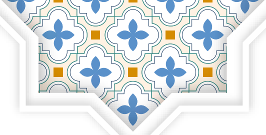
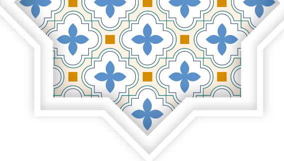
وفي عام ١٥١٦ سقطت سورية ودمشق بيد العثمانيين الذين توسَّع العمران في عهدهم خارج السور. وتراجع دورها إلى مدينة تابعة لإسطنبول عاصمتهم. أعقبهم الاستعمار الفرنسي من عام ١٩٢٠ إلى استقلال سورية وخروج آخر جندي فرنسي منها عام ١٩٤٦. ومنذ ذلك التاريخ ودمشق عاصمة لسورية المستقلة[٣٣].

لم يبق عمران دمشق ومخططها على حال واحدة عبر هذا التاريخ الطويل، الذي فرضت فيه كلُّ سلطة حاكمة ما يناسبها من جوانب عمرانية ومخططات متعاقبة، حتى وصل عمران المدينة إلى ما هو عليه اليوم. آخرها المخطط التنظيمي للمهندس الفرنسي دي جوفنيل، وتبعه مخطط ميشيل إيكوشار[٣٤]، الذي تمت المصادقة عليه سنة ١٩٦٨. ثم المخطط السوري لعام ٢٠٠١ ورديفه لعام ٢٠١٥. وبغض النظر عن هدف إيكوشار، الهادف إلى تخريب موروث عمران المدينة، فإن المخططات

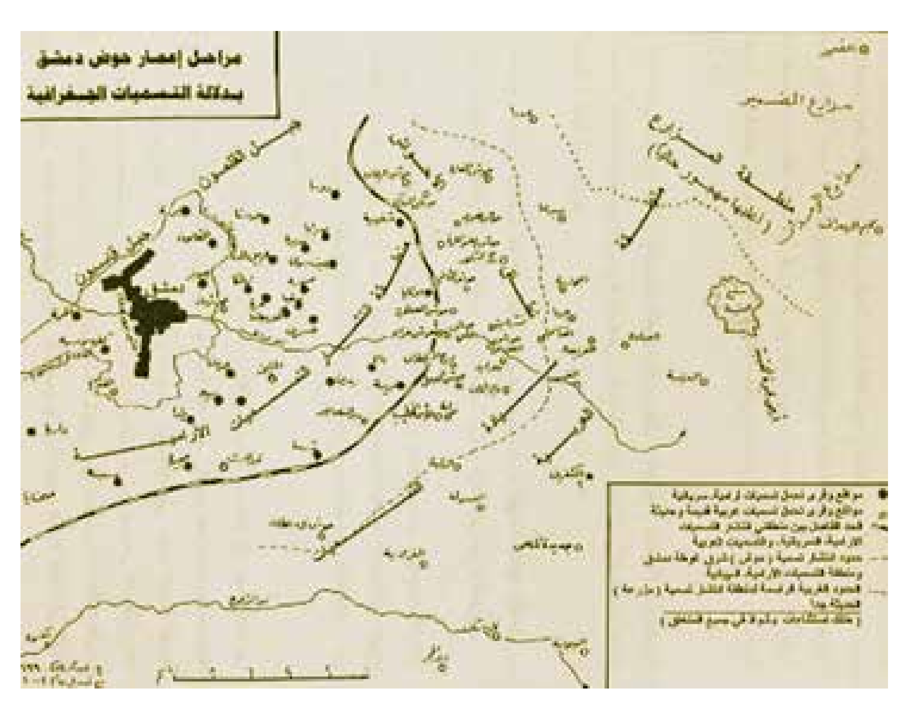
---

(33) **Damaskus-Aleppo- Beirut. Ein geographische Vergleich dreier nahoestliche Staedte im Spiegel ihrer sozial und wirtschaftliche tonangebenden Schichten;** Wirth, E. Erde 96 (1966), S.96-,137-202.

(34) ميشيل إيكوشار 1905-1985: مهندس معماري عمل بتخطيط المدن، دُعي لتنظم مخطط مدينة دمشق في المرحلة بين عامي 1963-1968. نقل عنه قوله لمهندسة فرنسية انتقدت مخططه: لا تدافعي عن دمشق، هذه مدينة قذرة! وأنه يقتلع الأحياء العربية «لأجل النظافة والجمال"!. ناديا خوست، 2006.


المذكورة راعت التوسع الأساسي لدمشق على محور شمالي غربي (الصالحية)، ومحور درب الحج القديم (الميدان). وكان عدم المساس بالمدينة القديمة داخل السور من أولوياتها، لا سيما وأنها صُنِّفت من قبل اليونسكو واحدة من مواقع التراث العالمي عام ١٩٧٩، إضافة إلى حساب احتياجات دمشق المستقبلية استناداً إلى عدد السكان وكثافتهم، وتوقّع وصول عدد سكان العاصمة إلى حوالي ٥ -٧ ملايين نسمة في العام ٢٠٢٠. على مساحة ٤٨٠٠ هكتار للسكن، كان أهم مقومات المخططات التنظيمية.



مراحل إعمار حوض دمشق

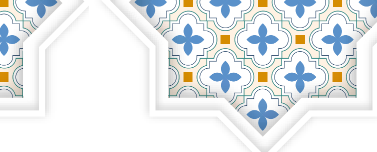
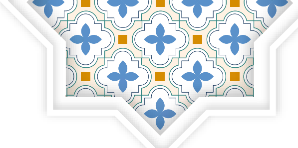
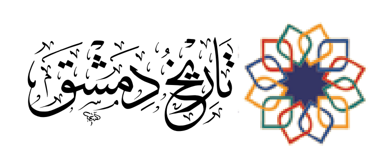
تتألف دمشق اليوم من أربعة أقسام تتابعت نشأتها زمنيّاً هي: (النواة)، ثم (المدينة الوسيطة)، فـ(المدينة الحديثة)، و(أحياء البؤس والمخالفات).

فالنواة هي القلب، وهي المدينة القديمة المحددة بالسور، مع بعض الأحياء القديمة التي نشأت خارجه، وقامت على أرباضها، وتشكل قطب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والنشاط التجاري لبلاد الشام... وتنشط في قطاعين وظيفيين، هما القطاع الشمالي الغربي، ويضم أغلب المباني والأوابد الأثرية التاريخية، وله وظيفة تجارية، وإلى درجة ما وظيفة صناعية خفيفة وتقليدية، ووظيفة سكنية محدودة. ثم بقية أنحاء النواة وتغلب عليها الوظيفة السكنية، مع وجود بعض أشكال النشاط التجاري والصناعي.

ولقد تأثر مخطط النواة الأصلي كثيراً بأحداث القرون الوسطى، وانقطاع حبل الأمن، فظهرت فيها شبكة من الحارات والأزقة المتعرجة والضيقة، التي ينتهي بعضُها بحارة مسدودة.

ومن أهم أحياء ضواحي دمشق القديمة حي العقيبة، والشاغور، وقصر الحجاج. ثم أحياء السويقة وسوق صاروجا والصالحية التي نشأت في العصر (المملوكي). والذي يعود إلى ذلك العصر معظم ما تحويه المدينة القديمة وضواحيها من المعالم التاريخية والنسيج العمراني والمعماري الموجود اليوم.

والغالب على مادة البناء في الدور السكنية الطين والخشب، وهي مؤلفة من طبقة أو طبقتين، حسب مخطط البيت الدمشقي المعروف، مع تباين في الوضع بحسب الحالة المادية لصاحب البيت. وقد صدر عام ١٩٨٨ قرار يقضي بإحداث لجنة حماية دمشق داخل السور، باعتبارها ثروة قومية

وإنسانية حضارية.

أما المدينة الوسيطة، وتُعرف في بعض المراجع بالمدينة العثمانية لارتباطها بالعهد العثماني، فقد نشأت نتيجة توسُّع الأحياء السابقة خارج السور، واتصالها بالضواحي في الشمال الغربي والغرب في حي القنوات، وفي الجنوب الغربي بحي السويقة الذي اتصل بأحياء الميدان، التي قامت على جانبي درب الحج باتجاه الجنوب. كذلك توسعت منطقة الصالحية فالتحمت مع أحياء سفوح جبل قاسيون (ركن الدين، والشركسية، والمهاجرين).

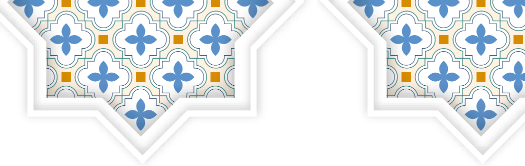
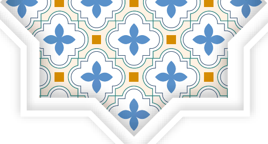
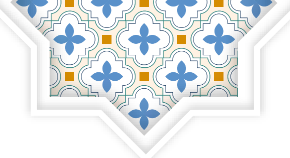
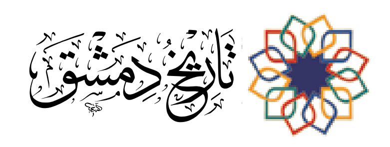
وهكذا نمت مدينة دمشق على امتداد محورين أساسيين ؛ الأول شمالي ـ جنوبي، والثاني شمالي شرقي ـ جنوبي غربي حتى نهاية الحكم العثماني في سورية. وتتصف أحياء المدينة الوسيطة وشوارعها بكونها أكثر انتظاماً واتساعاً واستقامة، ومساكنها مبنية في كثير من أجزائها بالحجر، لا سيما في الأحياء الجديدة، مع غلبة واضحة للمساكن الطينية ـ الخشبية، ذات الفسحة الداخلية من نموذج البيت الدمشقي التقليدي.

أمّا القسم الحديث من مدينة دمشق فقد بدأت معالمه بالظهور منذ مطلع عشرينات القرن الماضي، بتوسُّع الأحياء السابقة باتجاه المساحات الخلاء بين الأذرع العمرانية الخارجة من جسم المدينة. فنشأت أحياء رابطة في الجسر الأبيض وعرنوس والشهداء، كما زحفت الأحياء الشرقية باتجاه مز القصب، والقصاع، وغيرها من أحياء ومحاور، قامت على أساس مخططات تنظيمية وضعت عام ١٩٢٩، اتصفت بشوارع وجادات عريضة ومستقيمة قامت على جوانبها منازل مبنية بالحجارة، وبعضها بالطين والخشب والحجر، مع تزايد استخدام الإسمنت المسلح والإسمنت في البناء منذ أواخر الحرب العالمية الثانية، بالتزامن مع ظهور الأحياء العصرية في منطقة أبو رمانة، والمزرعة، وشمال شارع بغداد في خمسينيات وستينيات القرن الماضي.

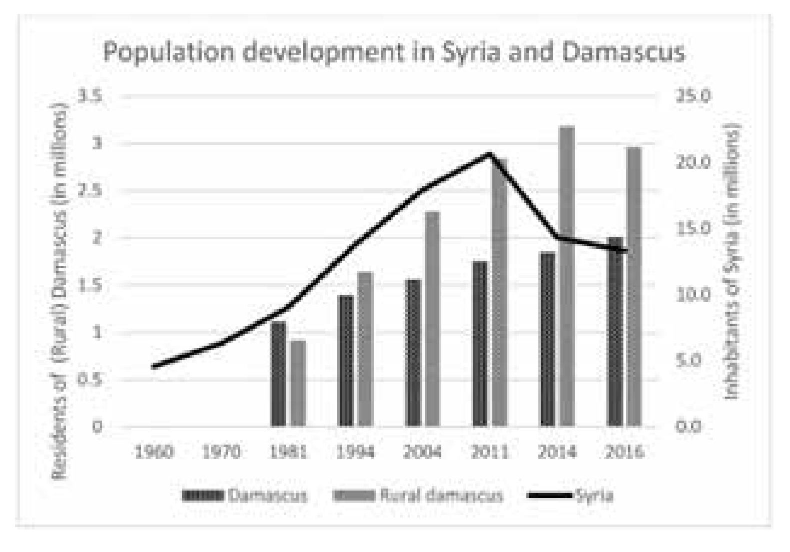
كما بدأ العمران الأحدث يزحف باتجاه المالكي والعدوي وأحياء أخرى جديدة قامت مكان بساتين وحدائق سابقة، كما ابتلعت أراضي قرى قريبة من المدينة هي القابون، وبرزة، وجوبر، وكفر سوسة، والقدم، والمزة وغيرها. ولقد اعتمد بنيان هذه الأحياء وامتداداتها على الهندسة المعمارية الحديثة، والمخططات التنظيمية العصرية. كما أصبحت مادتا الإسمنت والحديد أساس كل المساكن والمنشآت والعمارات والأبنية المختلفة، التي يغلب عليها تعدد طبقاتها، التي تجاوزت الطبقات العشر، والعشرين طبقة في العمارات البرجية.

وقد تجاوزت مساحة عمران دمشق الحديثة كل التوقُّعات السابقة، فبعد ما كانت ٦٧٢ هكتاراً عام ١٩٣٥، أصبحت ٤٨٠٠ هكتار، تشغلها المساكن المنتشرة على أرض دمشق المحافظة. كما ارتفع عدد أحيائها الداخلة في إطار المخطط التنظيمي إلى ٦٢ حيّاً حتى عام ٢٠١٠. والأرقام مرشحة للزيادة في المستقبل، مع التزايد السكاني والعمراني المستمر لدمشق.

أمّا القسم الرابع المؤلف من أحياء البؤس والمخالفات، فيحتل ١٢٫٤٪ منها مساحة الغوطة، وهو عبارة عن تكدس لمساكن بائسة مبنية من اللبن الإسمنتي (بلوك)، مسقوفة بألواح التوتياء أو الصفيح في البداية، تصبح من الإسمنت المسلح مع تحسن الأوضاع المادية لأصحابها. أغلبها مؤلف

من غرفة واحدة ومن طبقة واحدة إلا ما ندر. وهي مساكن عديمة التنظيم والتخطيط، بُنيت على عجل لتفادي هدمها قُبيل اكتمالها من قبل السلطات المختصة لمخالفتها. وتفتقر إلى شتى أشكال الخدمات الأساسية، وحاراتها ترابية ضيقة موحلة في الشتاء. وسكان هذه الأحياء هم من الفقراء الوافدين إلى دمشق من جميع أنحاء أرياف سورية، إضافة إلى النازحين واللاجئين والأغراب، يعيشون في أوضاع اجتماعية واقتصادية وصحية ونفسية سيئة في أحياء: الطبالة والدويلعة والكباس والدخانية والزفتية وجبل المزة (٨٦) وعش الورور.



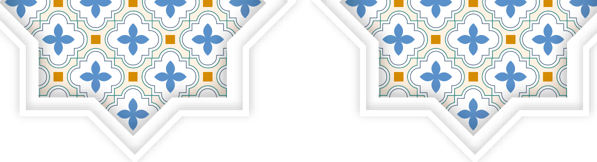
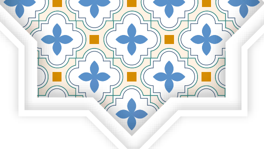
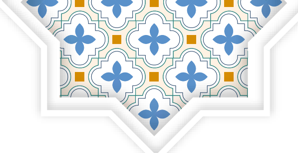
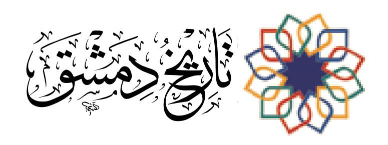
شكل يبين تطور أعداد السكان في سورية ودمشق بين ١٩٦٠ و٢٠١٦ (من النت). لاحظ تدهور عدد سكان سورية بعد ٢٠١١ وارتفاع هجرة الريفيين إلى دمشق

فدمشق مدينة كبيرة تتشابك فيها شتى أنواع الوظائف والأعمال والقطاعات الحيوية في عاصمة دولة ذات إرث حضاري وإنساني وتاريخ طويل وعريق. فهي مدينة واحة نهرية انتقالية بين البوادي العربية، وعالم الجبال والبحر المتوسط. وهي عقدة مواصلات مهمة في الاتجاهين، تتشعب منها وتلتقي فيها طرق التجارة والمواصلات التي تربطها بالعالم، لا سيما بلاد الشام وما وراءها في آسيا. لذا كانت وظيفتها التجارية من أهم قطاعات الاقتصاد لأعداد كبيرة من السكان التُنّاء (الأصليين)، بل ومن الوافدين.

وقد تطورت هذه الوظيفة التجارية ونمت باتجاه تأقُلم التاجر الدمشقي مع التطورات الحديثة في أساليب العمل التجاري المعاصر ومع وسائل النقل. ومن مظاهر الأهمية الكبرى لهذا القطاع الاقتصادي في دمشق غناها بالأسواق المسقوفة والمتشابكة في أحياء المدينة القديمة والوسيطة المختصة بسلع معينة. خاصة حول الجامع الأموي وغربه، وفي محور سوق الطويل (مدحت باشا)، وسوق الحميدية الذي أعيد ترميمه وتجميله عام ٢٠٠٢. ثم في محور منطقة السنجقدار وغيرها خارج السور.

كذلك ظهرت أسواق محلية في الأحياء الجديدة في القصاع، وباب توما، والتجارة، والخطيب، والمزرعة، والجسر، وابن النفيس، وشارع الثورة، والحمراء، والمزة وغيرها من المناطق. إضافة إلى أسواق شبه شعبية ثابتة أو غير ثابتة قامت في الأحياء الهامشية من المدينة وعلى جوانب الطرق المحورية في أحياء المخالفات أو قربها.

ولا تقل الوظيفة الصناعية في دمشق أهمية عن الوظيفة التجارية. فهي موطن الكثير من الصناعات التقليدية والحرفية العريقة المشهورة منذ القدم. وهي اليوم القطب الصناعي الأول في

سورية بما تحويه من آلاف المشاغل والحيازات الصناعية التي تزيد على قرابة ١٥,٠٠٠ حيازة خاصة، وعشرات المعامل والمصانع الكبيرة والشركات والمؤسسات الصناعية الحديثة التابعة للقطاعين العام والمشترك، المنتشرة حول المدينة على امتداد المحاور: الشرقية، والشمالية الشرقية، والجنوبية.... ومابينها. وأهمها معامل الصناعات الغذائية والنسيجية، والهندسية، والكيميائية وغيرها.

كذلك اشتهرت دمشق في التاريخ على أنها واحدة من أهم المراكز الثقافية في العالم الإسلامي. ظهر فيها الكثير من أعلام وشخصيات علمية. وهي اليوم أكبر المراكز العلمية والثقافية الحديثة أيضاً. إذ تحوي أكبر جامعات سورية، وعشرات المعاهد ومراكز البحوث والمراكز الثقافية والمكتبات والمدارس بمراحلها المختلفة، والمسارح والأندية والمتاحف، ودور الطباعة والنشر، وغيرها من مؤسسات ثقافية وعلمية وإعلامية وفكرية، تجعل من دمشق أهم منبع روحي وفكري في سورية وبلاد الشام.

ومما يزيد في أهميتها دورُها الإداري والسياسي والقومي والفكري كعاصمة لسورية، وغناها بالأوابد والمعالم التاريخية، وآثار الحضارات المتراكمة فيها على مر عشرات القرون، وكلُّ ذلك أكسبها وظيفة سياحية متنامية يوماً بعد يوم، حيث تَشدُّ إليها أفواجاً متزايدة من السياح من جميع أنحاء العالم.

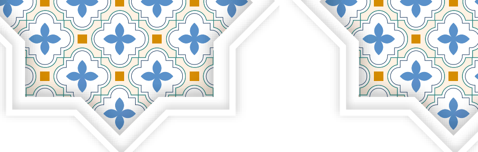
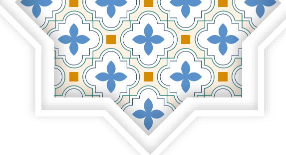
كل ما تقدم وغيره من وظائف ونشاطات، وعوامل ازدهار منحت دمشق شخصيتها المميزة، جلب لها الخير والنمو والثراء. لكنها وفي الوقت نفسه بدأت مع الزمن تدفع ضريبة النمو والتطور، باستفحال أخطار تلوث الهواء والمياه والتربة فيها. إضافة إلى تفاقم أزمات المياه والسكن والتموين والمرور والمواصلات، وازدياد مستوى التلوث بالضجيج ازدياداً أخذ ينعكس على السكان وسلوكهم سلباً. أمّا مياه الشرب في دمشق فقد كانت تعتمد ينبوع الفيجة كما تقدم، لكن تزايد أعداد السكان المتصاعد فيها دعا إلى دعمها بمياه آبار تزيد على ١٠٢ بئر حُفرت فيها وحولها.

ومع ذلك تبقى الشام (دمشق) قبلة أبناء بلاد الشام، ومقصد أبناء العالَمين العربي والإسلامي، لما تتمتَّع به من شخصية وسمعة طيبة، إضافة إلى قدسيتها الدينية عند المسلمين فهي (شام شريف مقدس).

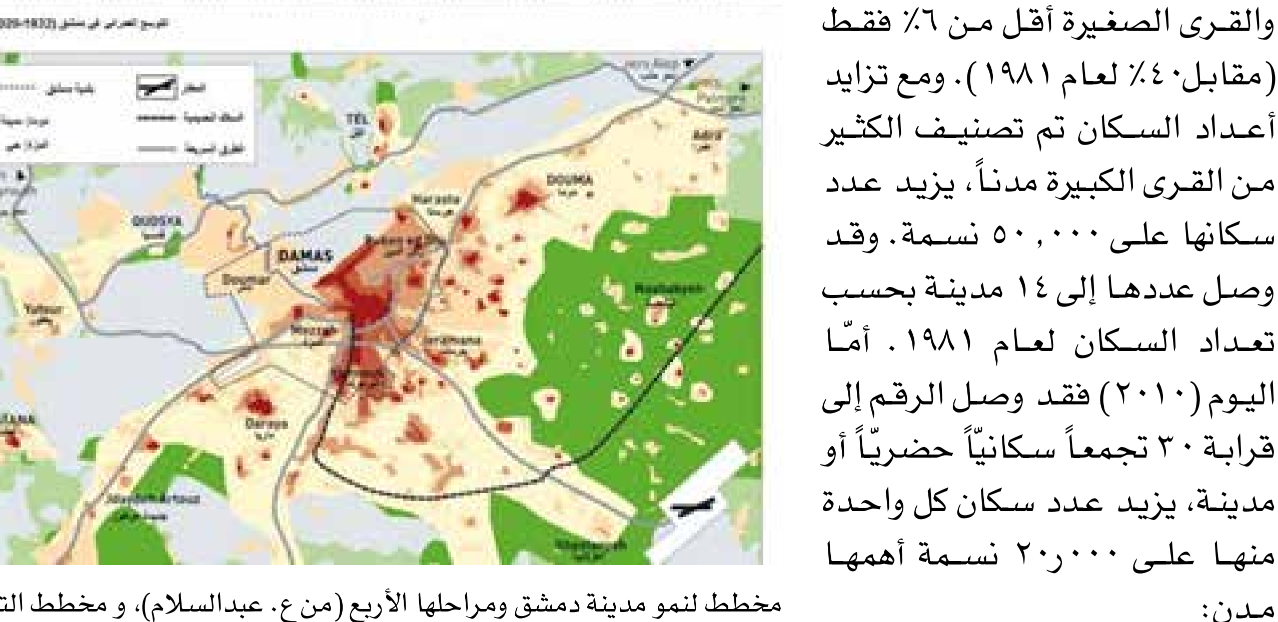
سادساً _ مدن وقرى حوض دمشق:

وصل عدد القرى في منطقة حوض دمشق، مع بداية القرن الحادي والعشرين، إلى ٨٨ قرية دون المزارع، التي ضمت التعدادات السكانية أعداد سكانها إلى القرى التابعة لها. وتُبيِّن تقديرات عام ٢٠٠٣ أن عدد القرى التي يقل سكانها عن ٥٠٠ نسمة متدنٍ جداً، لايزيد على٥ قرى. وعدد التي يراوح عدد سكانها بين ٥٠٠-١٠٠٠ نسمة هو نحو ١١ قرية، والتي يراوح عدد سكانها بين ١٠٠٠-٢٠٠٠نسمة هو نحو ١٨ قرية. أما القرى الكبيرة التي تراوح عدد سكانها بين ٢٠٠٠ - ٥٠٠٠ نسمة فيصل عددها إلى نحو ٢٤ قرية، والتي يراوح عدد سكانها بين ٥٠٠٠-١٠,٠٠٠ نسمة فهو بحدود ٢٠ قرية كبيرة وبلدة، والتي يراوح عدد سكانها بين ١٠,٠٠٠-١٥ر٠٠٠ نسمة فلا يزيد على تسع بلدات وقصبات (إذا أخذنا بمبدأ الـ ٢٠,٠٠٠ نسمة أساساً للمدينة).

وهذا يعني أن القرى الكبيرة تشكل أكثر من ٦٠٪ (مقابل ٢٢٪ لعام ١٩٨١) من مجموع قرى الحوض.


والقرى الصغيرة أقل من ٦٪ فقط (مقابل٤٠٪ لعام ١٩٨١). ومع تزايد أعداد السكان تم تصنيف الكثير من القرى الكبيرة مدناً، يزيد عدد سكانها على ٥٠,٠٠٠ نسمة. وقد وصل عددها إلى ١٤ مدينة بحسب تعداد السكان لعام ١٩٨١. أمّا اليوم (٢٠١٠) فقد وصل الرقم إلى قرابة ٣٠ تجمعاً سكانيّاً حضريّاً أو مدينة، يزيد عدد سكان كل واحدة منها على ٢٠٫٠٠٠ نسمة أهمها مدن:



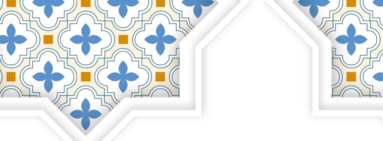
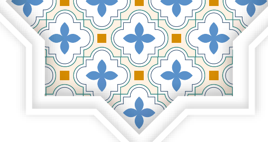
مخطط لنمو مدينة دمشق ومراحلها الأربع (من ع. عبدالسلام)، و مخطط التوسع العمراني (من https://www.aljumhuriya. net)١٩٣٧

دوما، السيدة زينب، جرمانا، داريا، الحجر الأسود، حرستا البصل، سبينة، عربين، المعضمية، ببيلا، الكسوة، زملكا، الضمير، عين ترما، سقبا، يلدا، عدرا، أشرفية صحنايا... مما يرفع نسبة حضريي الحوض مع دمشق إلى ٥٧,٢٪، ونسبة الريفيين إلى ٤٢٫٨٪. ولما كان عدد كبير من سكان هذه المدن يعمل في الزراعة والمهن المرتبطة بها، تصبح نسبة الريفيين أعلى من نسبة الحضريين. وبالفعل فإن نسبة عالية من سكان المدن ما زالت تعمل في القطاع الاقتصادي الأول، وفي الزراعة بصورة خاصة، لدرجة يصحُ معها تسمية أغلب هذه المدن بـ(المدن الزراعية).

كذلك تحولت مجموعة من القرى السابقة إلى مدن، ليس نتيجة ازدياد عدد سكانها فحسب، بل بسبب استقرار وافدين ومهاجرين يعيشون في أحياء بؤس فقيرة قامت حولها، من دون انتقال إلى حالة تحضُر فعلي. أو أنها تحولت إلى تجمعات سكن لعاملين في دمشق أو غيرها. وهناك عدد من المدن والقرى لم يكن لها وجود قبل خمسة عقود، كانت بساتين وحقول زراعية خصبة أقام فيها الوافدون مساكنهم مثل مخيم جرمانا والحجر الأسود.

وقد زحف العمران على امتداد المحاور الشمالية الشرقية والشرقية والجنوبية الغربية مبتلعاً المساحات الخضراء حول دمشق، وعلى امتداد مختلف المحاور في التجمعات السكانية الأخرى. مع الإشارة إلى وجود عدد يزيد على الـ ١٠٠ تجمع من المهجورات الخالية من السكان في أنحاء الحوض، لا سيما الشرقية والشمالية الشرقية منه. وقد تسببت ألسنة الزحف العمراني الخارجة من قرى الغوطة والمرج وتجمعاتها السكانية نفسها في القضاء على المساحات الخضراء للغوطة بل والمرج. وقد اخترق العمران في كثير من الأماكن الطوق الأخضر، فالتحم عمران التجمعات السكانية الغوطية بعمران أحياء مدينة دمشق الهامشية، وهذا أجبر المخططين على إلحاقها بها، وعدِّها حيّاً من أحيائها.

تتألف مخططات مدن الحوض، خارج مدينة دمشق، من كتلة قديمة من المساكن والمؤسسات

الريفية التي كانت تشكل القرية الأصلية، وتعد بقاياها الحالية نواة التجمع. يحيط بها، أو يلتحم بها ما يمكن تسميته بالمدينة الجديدة (زمنياً)، ثم أحياء البؤس والمخالفات الأكثر جدّة.

وتتصف النواة القديمة، وبالتحديد ما نجا من التجديد، من النماذج التقليدية للمسكن في حوض دمشق، المبني أصلاً من المواد الأولية المتوفرة محليّاً من التراب والخشب. والمعروف بالمسكن الطيني ـ الخشبي ذي السقف المستوي المائل قليلاً. وهو مؤلف من طبقة واحدة عادة، لكن المساكن المبنية من طبقتين ليست نادرة أيضاً. وهي ذات فسحة داخلية أو أمامية، ويمكن تصنيفها في زمرة البيت العربي ـ الريفي الآخذ بالاندثار. ومساكن النواة مكتظة وحاراتها وطرقاتها متعرّجة وضيقة عادة، تحوي سوقاً قديمة أو أكثر.

أما القسم الجديد ـ الحديث فيُحيط بالنواة أو ينبثق منها، وطرقاته وشوارعه مستقيمة وواسعة، تقوم على جوانبها المساكن والمحلات التجارية والمخازن والحوانيت في أسواق تجارية حديثة. ومساكنه مبنية بالإسمنت والحديد، وبالحجر أيضاً، وتتألف في معظمها من عدة طبقات. أما مساكن أحياء البؤس فشبيهة بمثيلاتها حول المدن.

دوما:[٣٥] ثانية مدن منطقة حوض دمشق سكاناً وحجماً وأهمية بعد مدينة دمشق، التي تدور في فلكها. تقع في أرض منبسطة في الغوطة الشرقية؛ إلى الشمال الشرقي من دمشق مسافة ١٥ كم، بعيدة عن أقدام جبال القلمون. وهي مدينة قديمة تعود إلى العهد الآرامي. كما أن حقوقها المائية في قناة تورا آرامية العمر، وانتشار قنوات الري بالمياه الجوفية المعروفة بالقنوات الرومانية (الفجارات) وغيرها من معالم قديمة تؤكد قدم إعمار موقع دوما واستمراره.

ما زالت دوما، على الرغم من تصنيفها في قائمة المدن السورية، تعتمد اعتماداً كبيراً على القطاع الزراعي والفعالية الزراعية للسكان الأصليين، يليه اهتمام نسبة مهمة من السكان بالتجارة المرتكزة على التعامل بالمنتجات الزراعية ـ الحيوانية، والسلع الاستهلاكية المصنعة وشبه المصنعة. أما القطاع الصناعي في دوما فمتواضع. وقد أصبح الكثيرون من الدومانيين بل ومن أبناء وبنات المدن والقرى الأخرى، من ذوي الدخل المزدوج في اليوم، بعملهم في الوظائف والمعامل والخدمات وغيرها قبل الظهر، وفي الزراعة بعد الظهر وأيام العطل.

سابعاً ـ النشاط الاقتصادي في حوض دمشق والمدينة:

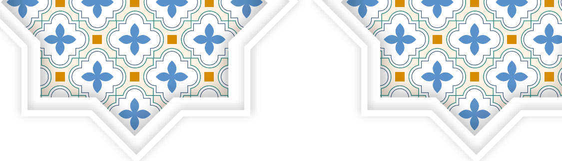
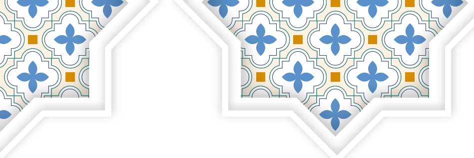
حوض دمشق قطب اقتصادي مهمٌ جدّاً في سورية، اكتسب أهميته من دور الإنسان في الاستفادة البارعة من الموارد الطبيعية المحدودة، التي تقدم ذكرها أعلاه. ولما كان الحوض يفتقر إلى الثروات الباطنية والطبيعية الأخرى، استأثرت الزراعة، ومنذ قيام التجمعات السكانية الثابتة، بالمركز الأول في قائمة النشاطات الاقتصادية في الحوض. نمت بعدها التجارة، وتطورت الصناعة بدرجات متفاوتة[٣٦].

١ـ النشاط الزراعي:

أصل الزراعة في حوض دمشق هو الزراعة المروية، لأن متوسطات أمطاره السنوية تراوح بين

(35) **الندوة العلمية لمدينة دوما**، دوما، 1987.

(36) **غوطة دمشق**: صفوح خير.

٢١٢ و١٥٠ ملم، فلا تسمح بممارسة أي شكل من أشكال الزراعة البعلية، التي قد تمارس بشكل محدود، في بعض سنوات الخير. وتعد التربة ومياه الري من أبرز مقومات الزراعة التي أتقن الإنسان استغلالهما بدقة وعناية كبيرة في الحوض، وأخضعها لأنظمة مدهشة من شبكات الري وتقيسم الأراضي، منذ عرف إنسان الحوض الزراعة، وحتى القرن الحادي العشرين.

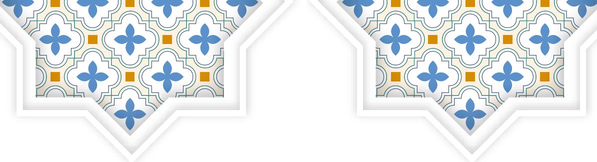
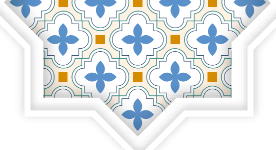
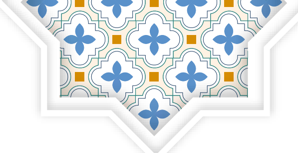
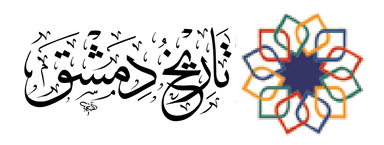


توسع مدينة دمشق حتى آخر القرن العشرين

وما زالت الزراعة تقوم في المنطقة على مياه الأنهار والينابيع، كما كانت في السابق، لكن التطورات الحديثة، والاتجاه نحو زيادة الإنتاج، أدى إلى عجز المياه السطحية، مع تدهور نوعيتها وتلوثها نسبياً، عن تلبية الطلب المتزايد عليها. فلجأ المزارعون إلى رفع المياه الجوفية بالمضخات التي تجاوز عددها في الحوض ٦٠,٠٠٠ بئر. مضخة لعام ٢٠١٠، بعدما كان العدد بحدود ١٧,٠٠٠ بئر. مضخة عام ١٩٨٩. وترتفع كثافة الآبار في كورة المرج، وتتراجع تدريجيّاً باتجاه الغرب، حيث ما زال الري التقليديُّ القائم على مبدأ العدانات، وأُسس العرف في توزيع حصص المياه معمولاً به، إلى جانب الري بمياه الآبار.

إن النتيجة الطبيعية لهذه التطورات وما يشوبها من تجاوزات واستنزاف جائر للمياه الجوفية، لا سيما في أنحاء الحوض الشرقية والشمالية الشرقية والهوامش، هو تناقص كمياتها وتدني نوعيتها وارتفاع ملوحتها، إضافة إلى انخفاض مستوى المياه الجوفية انخفاضاً خطيراً، وصل إلى أعماق تراوح بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠ م، في مناطق كانت تظهر فيها المياه الجوفية على السطح في الشتاء ولا يزيد عمقها على بضعة أمتار في الصيف. أما المياه غير التقليدية المنتجة من محطة معالجة مياه الصرف الصحي في عدرا، فلا تُغطّي إلا نسبة ضئيلة من الطلب على مياه الري. إذ تبلغ طاقتها المتوسطة نحو ٩٧٠,٠٠٠ م٣ يوميّاً. وهي مصممة لري مساحة ١٨,٠٠٠ هكتار.

ومن الأمور التي أثرت في التنمية الزراعية انتشار الملكية الزراعية الخاصة الصغيرة، بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعي عام ١٩٥٨. أمّا أساليب الاستثمار فأعمُّها هو الاستثمار المباشر للأرض من قبل صاحبها وأسرته، كما في بساتين الغوطة وغوطات الأشجار المثمرة، وأقلُّها هو الاستثمار غير المباشر خاصة في كورة المرج. ولقد انتشر استعمال الأدوات والآلات الحديثة والأسمدة والمبيدات الحشرية في الحوض، لكن الأدوات القديمة ما زالت قيد الاستعمال.

وعموماً تحولت أنماط الزراعة، في أغلب أنحاء الحوض، من نموذج زراعة الاكتفاء الذاتي، إلى نموذج الزراعة التجارية ـ النقدية، الذي كان محصوراً بالغوطة سابقاً. كذلك أخذ التفكير المادي والربح يسيطران على عقلية المزارعين، فتوجَّه الكثير منهم إلى العمل الإضافي في بأجر أو مرتب شهري في دمشق والمعامل وغيرها، والعمل في الزراعة بعد الظهر. وقد انعكس هذا النمط من كسب الرزق على العلاقات الاجتماعية والأسرية التقليدية، وزاد في تفكُّكها[٣٧].

تُنتج منطقة حوض دمشق أصنافاً كثيرة من المحاصيل الزراعية، التي تؤلف قائمة طويلة من المحاصيل الحقلية والخضر والثمار والفاكهة والمحاصيل الصناعية والرعوية والعلفية وغيرها. منها الحبوب وفي مقدمتها القمح، الذي كان المحصول الرئيسي لتأمين المادة الغذائية اليومية الأولى للسكان. لكن زراعته تقلَّصت نتيجة مزاحمة المحاصيل النقدية كالخضر وغيرها له، وتأمين حاجة المنطقة منه من خارجها. ومن المحاصيل الحقلية الأخرى الشعير الرعوي والمحاصيل العلفية مثل الفصة والذرة والبيقية والبرسيم. ويرجع الاهتمام بها إلى انتشار تربية الأبقار الحلوبة الشامية والأجنبية من جهة. وللمنطقة شهرة متراجعة بإنتاج القنب في الغوطة والقطن في المرج.

وتبقى الخضر والثمار المحاصيل الرئيسة التي تشكل عماد نشاط الفلاح الغوطي بل والمرجي أيضاً، كما تُؤمِّن له دخلاً نقديّاً جيّداً. وهي التي تزود سكان دمشق وبقية السكان بالمواد الغذائية الضرورية. وللمنطقة وبخاصة غوطتها شهرة واسعة بثمارها وخضرها وأنواعها، وفي مقدمتها المشمش والعنب والجوز، ومن الخضر البازلاء، والفول الأخضر، والفاصولياء، إذ تحتل المنطقة المرتبة الأولى في سورية في إنتاجها. كما تشتهر منطقة الكسوة والأعوج بالعديد من المحاصيل يأتي الثوم في طليعتها.

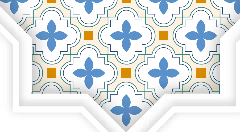
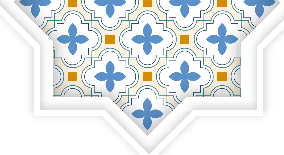
وهكذا تجاوزت زراعة الخضر إطار البقاع المروية بمياه الأنهار والقنوات المتفرعة عنها، أو بمياه الينابيع والفجارات، تجاوزتها إلى الأراضي ذات المياه الجوفية المرفوعة بالمضخات. ومع ذلك تبقى الغوطة بستان حوض دمشق، والمرج والهوامش حقولَ الزراعة الواسعة فيه.

قال ابن إياس في عجائب الأمصار ١٥٣٣م عن الغوطة (إنها بساتين كلها). لكن هذا البستان الكبير مهدَّد اليوم بالزحف العمراني المتحرك من مدينة دمشق، ومن مراكز المدن الأخرى والبلدان والقرى المنتشرة في الغوطة، باتجاه البساتين والحقول وبوتيرة وسرعة عاليتين. كما أنه مهدَّد بالتلوث الذي وصل حدّاً خطيراً دفع بمعظم المزارعين إلى نبذ ري خضرهم وثمارهم بمياه القنوات الملوثة الخارجة من دمشق وشبكة الري المتفرعة عنها، واللجوء إلى المياه الجوفية ورفعها بالمضخات. وحتى هذه لا تخلو من بعض التلوث الآخذ بالازدياد، نتيجة تسرُّب المياه الملوثة إلى الخزانات المائية الجوفية.

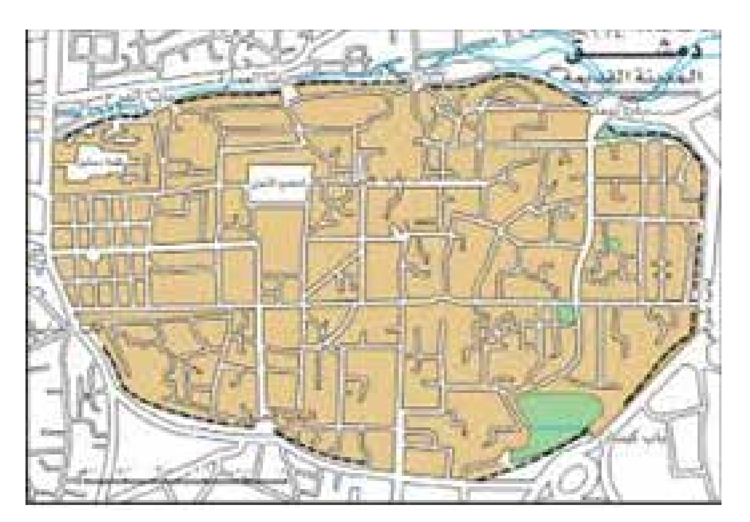
هذا ومن جهة أخرى فإن خطر تملُّح المياه الجوفية، وبالتالي تربة الأراضي الزراعية، يُهدِّد الأجزاء الهامشية وخاصة في المرج الشرقي بالتصحر. وهذا يعني أن الغوطة مهددة بالزوال لتراجع حدودها من جميع الأطراف، وذلك على الرغم ممّا ذكرناه من أن حدودها مع المرج تحركت شرقاً وجنوباً شرقيّاً دليل اتساعها. فإن لم تُتَّخذ الإجراءات الكفيلة بإيقاف بلاء التلوث، ولوثة قطع الأشجار، وغرس أعمدة الإسمنت المسلح مكانها، ووضع حد لاستنزاف المياه وغير ذلك من إجَراءات

---

(37) **جغرافية سورية الإقليمية:** عادل عبد السلام، اللاذقية، ص326-329.

ضرورية، فإن دمشق ستنقلب مدينة ضخمة جداً (عملاقة) في بقعة صحراوية تعتمد في بقائها واستمرارها على استيراد كل ما تحتاج إليه من أقاليم سورية الأخرى.



نواة دمشق القديمة داخل السور مع الأبواب (النت)

٢_ تربية الحيوانات:

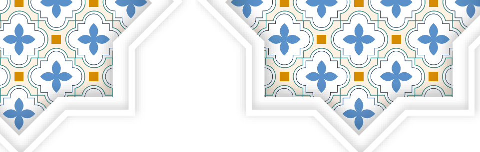
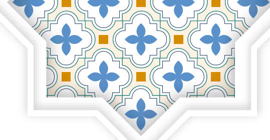
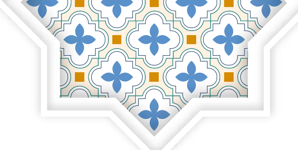
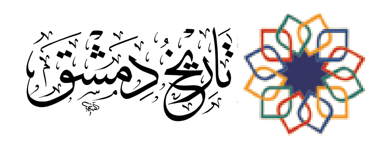
تمرُّ تربية الحيوانات في المنطقة، ومنذ عدة عقود من الزمن أو أزيد، بعمليتي تحول من تربية الحيوانات الصغيرة (الغنم والماعز) خاصة في كورة المرج ومراعيها، إلى الاهتمام بالأبقار الحلوبة. إذ يزيد متوسط عدد الأبقار فيها على ١٤٥,٠٠٠ رأس، منها نحو ٦٤,٠٠٠ بقرة أجنبية (هولندية أو دنمركية)، وقرابة ٨٠,٠٠٠ بقرة بلدية وشامية، تُربَّى في المزارع المنتجة للمحاصيل الرعوية، في حظائر نظامية في معظم الحالات.

أما الأغنام وكذلك الماعز فلا زالت قطعانهما تُربَّى في المنطقة، ويَعمل في تربيتها سكان المنطقة الهامشية والبدو شبه المستقرين، وبأعداد قليلة في القرى. أما الخيول والبغال وحيوانات العمل والركوب فقد تراجعت أعدادها؛ لانتشار وسائط النقل الآلية والجرارات وغيرها. وبالمقابل انتشرت تربية الدواجن بالأساليب الحديثة انتشاراً واسعاً في المنطقة، وأصبحت المداجن الحديثة تُنتج نحو ستة ملايين طائر. كما أخذ الاهتمام بتربية النحل بالتزايد، فأصبح عدد خلاياه أكثر من ١٨,٠٠٠ خلية، وتنتج المنطقة قرابة ٥٠ طن من الأسماك التي تُربَّى في مزارع نهر الأعوج في مسامك عين الطيبية.

٣_ الصناعة في حوض دمشق:

يحتل حوض دمشق وقلبه مدينة دمشق، مهد السيف الدمشقي، هي وحلب المقام الأول، في مجال القطاع الصناعي في سورية. ودمشق هي القطب الصناعي الأول والعريق والقديم في بلاد الشام. وتستأثر مدينة دمشق وضواحيها بأكبر عدد من المعامل، والمصانع، والشركات الكبرى، والحيازات والمشاغل (الورشات) الصناعية الحديثة، إضافة إلى تركز معظم الصناعات الحرفية واليدوية التقليدية فيها. في حين تنتشر خارج المدينة الصناعات الغذائية كعصر الزيتون وصنع رقائق عصير المشمش (قمر الدين) وتجفيف الثمار وصنع الألبان، وكذلك صناعة الحبال وخيوط القنب وغيرها.

وقد أُقيمَت في مدن المنطقة وبلدانه وقراه الكبيرة منشآتٌ صناعية صغيرة تُقدِّم خدماتها على شكل ورشات نجارة وحدادة وتصليح آليات ووسائط نقل ومخابز وصنع مواد بنائية (بلوك وبلاط ورخام ....) وموبيليا وجليد وعلف حيواني وغيرها من صناعات صغيرة. كما تكثر المعامل الصغيرة الحديثة والمتنوعة في منطقة القابون.

أما الصناعات الآلية الكبيرة الحديثة ذات الإنتاج الكبير فتتركز حول مدينة دمشق، وعلى امتداد محاور القابون، والشمال الشرقي، وطريق الغوطة الشرقية، والمحور الجنوبي على طريق درعا، وتضمُّ مجموعات شركات الصناعات النسيجية والغذائية والهندسية والكيميائية.

وفي الحوض أكثر من ٩٠٠٠ منشأة صناعية صغيرة حتى متوسطة تابعة للقطاع الخاص، أكثر من ٩٥٪ منها موجود ضمن حدود مدينة دمشق، وتُنتج شتى أنواع السلع والمنتجات الاستهلاكية للسوق المحلية الكبيرة في مدينة دمشق والحوض، وللتصدير إلى بقية أقاليم سورية وإلى الخارج أيضاً. ويعمل في هذه المنشآت عدد من العمال يراوح بين ٥ — ٢٥ أو أكثر. وتشمل جميع أنواع الصناعات الاستهلاكية تقريباً.

أما معامل القطاع العام فيعمل فيها عدد من العمال يُقدَّر بعشرات الآلاف، يعملون في معامل أكثر من ٤٠ شركة ومؤسسة صناعية غذائية، تضمُّ معامل البسكويت والشوكولاته والمنتجات الغذائية والزيوت والصابون والكونسروة والصناعات الزراعية والألبان ومنتجاتها والكونسروة والكازوز والمياه الغازية وبردى لصناعة البيرة وأغذية الأطفال، ثم الصناعات النسيجية وتضمُّ معامل الشركة العربية المتحدة والمغازل والمناسج والصناعات الحديثة ودمشق للأقمشة الحريرية والشرق للألبسة الداخلية والصناعية لخيوط النايلون والجوارب والعامة للسجاد. ثم معامل الصناعات الهندسية الكيميائية كمعامل عدرا لصناعة الإسمنت ومواد البناء وعدرا الثانية والعربية للدباغة والعربية لصناعة الصابون والمنظفات والدهانات والصناعات الكيميائية والأهلية للمنتجات المطاطية وغيرها من معامل ومصانع[٣٨].

ولقد تركزت غالبية هذه المعامل على المحاور المذكورة، وكانت السبب في ارتفاع أعداد المهاجرين من الريف إلى التجمعات القريبة منها (سبينة والطبالة ودويلعة وجرمانا مثلاً)، وما رافق ذلك من توسُّع مساحات أحياء البؤس. كذلك فإن دور هذه الصناعات في تخريب البيئة وتلويثها، بما تقذفه من مخلَّفات ملوثة غير معالجة في مجاري مياه الأنهار والقنوات، كبير ويحتاج إلى دراسة ومعالجة سريعتين.

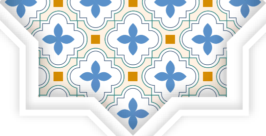
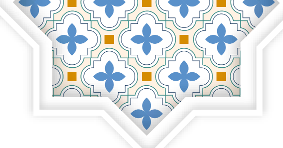
٤_ التجارة في حوض دمشق:

تجارة الحوض نشطة نشاطاً كبيراً. على الصعيد الداخلي. وتعد المنطقة أكبر مستهلك للسلع والمنتجات الغذائية والصناعية المنتجة محلياً والمستوردة. وتنشط حركة انتقال المنتجات الغذائية يوميّاً بين مدينة دمشق وظهيرها في الحوض والأقاليم المجاورة. كما تقوم الأسواق الكثيرة في دمشق وفي المدن الأخرى والقرى بدور هام لدرجة جعل من التجارة مصدر رزق لنسبة كبيرة من السكان.

وقد ساعد انتشار طرق المواصلات في الحوض انتشاراً واسعاً على ازدهار حركة التجارة. بحيث لا توجد قرية إلا وتصلها طريق مُعبَّدة مفروشة بالإسفلت إلا ما ندر. وترسم شبكة الطرق مخطَّطاً شعاعيّاً، مركزه مدينة دمشق، وينتشر على شكل نصف دائرة بحيث تخرج الطرق من دمشق نحو الشمال الشرقي ونحو الجنوب الغربي وما بين الاتجاهين على امتداد الغوطة وهوامشها. وعلى شتى المحاور التي ترتبط بطريق سريعة مزدوجة تُسهِّل مرور وسائط النقل العابرة إلى دول الجوار.

وفي الحوض خطوط للسكة الحديدية قديمة تربط محطة الحجاز والقدم بالأردن، والزبداني

[38] **جغرافية سورية الإقليمية:** عادل عبد السلام، اللاذقية، ص330-331.


فلبنان. وهي سكة ضيّقة تدعمها شبكة سكك حديدية حديثة من النموذج العريض. ربطت الحوض بخط دمشق – حمص مع حلب والفرات والجزيرة منذ تشرين الأول عام ١٩٨٣. وهناك وصلة قصيرة في الحوض تربط دمشق بمدينة قطنا في إقليم الجبال العالية.


مجتزأ من خريطة عثمانية لعام ١٨٩٠ للغوطة ودمشق (من النت)

ويتوسط الحوض مطار دمشق الدولي قرب قرية جديدة الخاص في المرج، وهو الميناء الجوي الأول في سورية، وصلة الوصل بينها وبين العالم، تحطُ فيه طائرات عدد كبير من شركات الطيران العربية والأجنبية، إلى جانب شركة الخطوط الجوية السورية. وفي المطار قسم خاص بالرحلات والطيران الداخلي بين الحوض ومطارات المدن السورية الأخرى. وقد ازدادت أهمية مطار دمشق منذ عام ١٩٧٥، وعدم استقرار الأوضاع الأمنية في لبنان ومطاره الدولي في خلده جنوب بيروت. وفي المنطقة مطار صغير آخر في المزة كان مطار دمشق المدني قبل إنشاء المطار الجديد في المرج[٣٩].

أما عن خدمات المنطقة فإنها على الرغم من انتشارها الواسع، وتغطيتها الحوض في مجال التعليم والتربية، وتوفير المياه النقية للشرب والكهرباء (منذ جرها إلى دمشق سنة ١٩٠٧)، ثم لجميع القرى تقريباً اليوم، وتأمين الخدمات الصحية، وربط التجمعات السكانية بطرق مواصلات جيدة، فإنها أي الخدمات، تُصاب باختناقات وتتعرَّض لأزمات فعلية نتيجة اختلال معادلة عدد السكان المستفيدين من الخدمات، وعجز هذه الخدمات عن تلبية الحاجات المتزايدة لهم. ومع ذلك، فإن الحوض وقراه هما من أكثر أنحاء سورية تطوُراً ونمواً في شتى مجالات الاقتصاد والخدمات.

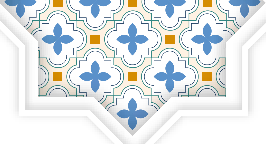
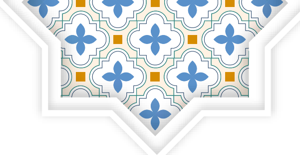
_ الخاتمة:

وأخيراً وليس آخراً فقد عانت دمشق وحوضها خلال تاريخها الطويل من أحداث وكوارث طبيعة (زلازل)[٤٠]، وبشرية (حروب وغزوات) مدمرة، عصفت بكيانها ووجودها أكثر من مرة ... آخرها الحرب التي اجتاحت المنطقة منذ سنة ٢٠١١ وما زالت آثارها بادية للعيان، تنتظر إعادة إعمار ما خلفته من دمار، جرياً على عادتها في استعادة الحياة إثر كل نكبة.

مصادر البحث ومراجعه

(39) **جغرافية سورية الإقليمية:** عادل عبد السلام، اللاذقية، ص332-333.

(40) **جغرافية سورية:** عادل عبد السلام. الجزء الأول، دمشق، ص81.



- أشكال تضاريس (جيومورفولوجية) سورية: ك. م ميرزاييف، ترجمة: عادل عبد السلام، دمشق، ١٩٧٠.

- أطلس الرياح في الجمهورية العربية السورية: وزارة الدفاع، (المديرية العامة للأرصاد الجوية)، رئاسة مجلس الوزراء (مكتب الطاقات المتجددة)، الشركة العامة السورية لأعمال الكهرباء والاتصالات، دمشق، ١٩٩٨.

- أكساد (المركزالعربي لدراسات المناطق الجافة والأراضي القاحلة).

- الأطلس المناخي لسورية: وزارة الدفاع (المديرية العامة للأرصاد الجوية - مديرية المناخ)، دمشق ١٩٧٧.

- الأقاليم الجغرافية السورية: عادل عبد السلام، دمشق، ١٩٩٠، اللاذقية، ٢٠٠٣.

- تاريخ دمشق: ابن عساكر، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٦.

- تاريخ سورية المعاصر: كمال ديب، دار النهار، بيروت، ط١، ٢٠١٩.

- تلوث المياه الجوفية في سهل دمشق، دراسة حالة حول حقول آبار مياه الشرب في مدينة دمشق: عمار العمارين، دراسات العلوم الأساسية، المجلد ٢٨، دمشق، ٢٠٠١.

- الثروة المائية الجوفية في سورية: شفيق الصفدي، رسالة العلوم، العدد ٤، دمشق، ١٩٥٧.

- جغرافية سورية: عادل عبد السلام، الجزء الأول في الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية، دمشق، ١٩٧٣.

- جمعية أصدقاء دمشق: الخصائص الطبيعية لواحة دمشق، تأليف مجموعة من الباحثين والمختصين، دمشق، ٢٠٠٨.

- خطط الشام: محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ٢٠٠١.

- دمشق الشام: مجموعة من المؤلفين، دار الكرنك، دمشق، ط١، ١٩٩٩.

- دمشق في عصر المماليك: نقولا زيادة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦.

- سورية في العصور الكلاسيكية: موريس سارتر، ترجمة: محمد الدنيا، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٨.

- سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني: قسطنطين بازيلي، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩.

- شفيق الصفدي: المياه الأرضية في الجمهورية العربية السورية، مصادر المياه الأرضية في البلاد العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، سلسلة الدراسات العلمية الموسعة، رقم ٢- ١٩٧٣.

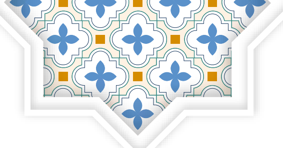
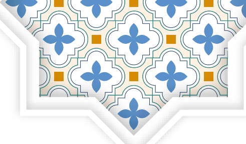
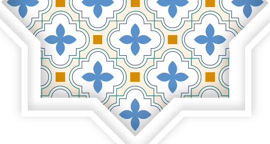
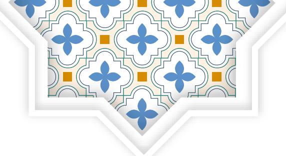
- غوطة دمشق محمد كرد علي، دمشق، ٢٠١٩.

- المديرية العامة للأرصاد الجوية: دمشق.

- المرج في حوضة دمشق وقرية مرج السلطان الشركسية: عادل عبد السلام، دمشق، ١٩٥٤/١٩٥٥.

- المكتب المركزي للإحصاء: دمشق، المجموعة الإحصائية من ٢٠٠٣ -٢٠٢٠.

- الندوة العلمية حول تلوث بردى وغوطة دمشق: نقابة المهندسين، فرع محافظة دمشق، دمشق ١٩٨٦.

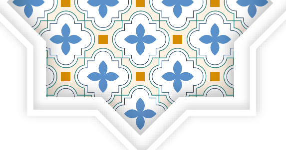
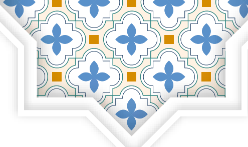
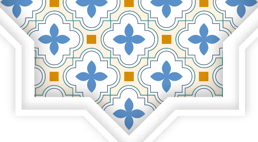
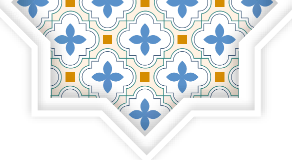
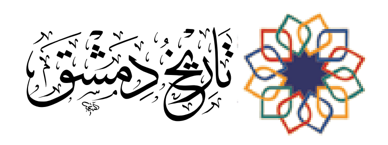







- واقع إدارة الموارد المائية في سوريا والتنبؤات المستقبلية حتى عام ٢٠٢٥: جورج صومي، ملكي وداود معن دانيال، دمشق، سلسلة أوراق سورية، دمشق، هيئة تخطيط الدولة وUNDP العدد، ١٢، ٢٠٠٧.

ـ المصادر والمراجع الأجنبية:

- Damaskus; Dettman, K. Erlangen 1969.
- Das Problem der eiszeitlichen Vergletscherung am Libanon und Hermon; Meserli, B, Zeit. F. Geomorph. N.F. 10, Berlin 1966.
- Die Quartärbildungen in Damaskus-Becken und seinen Rahmenbereichen; Kaiser, K., Zeit. F. Geomorphologie, N.F. Band 17. Heft 3. Berlin 1973.
- Morphologische Studien in der Syrischen Wüste und dem Antilibanon; Abdulsalam, A. , Berlin 1966.
- Niederschlagsvariabilitaet und Anbau - Unsicherheit in Syrien; Zimpel, H.G, Mitt.der Geogr. Gesll in München. Band 54, 1969.
- Observations on the Quaternary of Syria; Liere, W. J. van, Genl. Dir. of Antiqu. And Museums in S. A. R. Damascus 1961.
- Patterns of environmental changes in the Near East during Late Pleistocene and Early Holocene Times; Butzer, K. W., In (Problems in prehistory: North Africa and the Levant). Dallas 197
- Syrien und Libanon; Wolfart, R., Beiträge zur regionalen Geologie der Erde. Berlin 1967
- Tectonic and Geologic Evolution of Syria; Brew G. & others, Middle East Petroleum Geosciences 6, no. 4 Bahrain 2001.




Writings of the history of Damascus

through the ages

Prof. Ammar Muhammad AL-Nahar

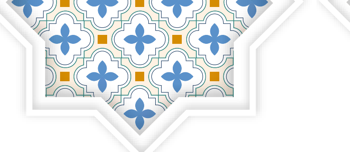
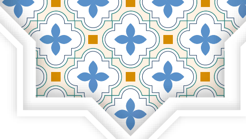
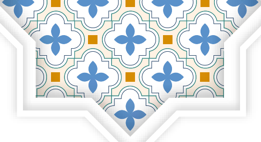
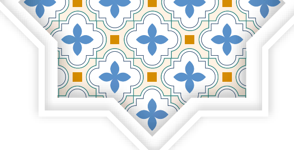
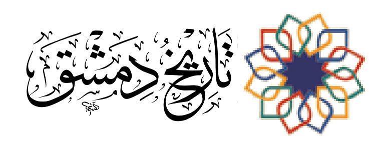




مؤلفات تاريخ مدينة دمشق عبر العصور

أ.د عمَّار محمَّد النَّهار[1]

(1) أستاذ التاريخ والحضارة العربية الإسلامية في جامعة دمشق وجامعتي بلاد الشام واليرموك.

ملخَّص البحث

يتحدَّث هذا البحث عن مدرسة التَّاريخ الشَّاميَّة، وعن المؤرِّخين الذين كتبوا في تاريخ دمشق، منذ القرن الثَّالث الهجري = التَّاسع الميلادي، حتى القرن الرَّابع عشر الهجري = العشرين الميلادي، وذلك بالاستقصاء والتَّحليل، ووصف عدد من هذه المؤلَّفات وبيان قيمتها التَّاريخيَّة، والحديث عن مؤلِّفيها .

Research Summary

This paper discussed the Levantine School of History, and the scholars of Damascus between the 9th-14th Centuries. It surveys, analyzes and describes part of their works, along with their value, while introducing their authors.

تمهيد :

دمشق هي أعرق مدن العالم، ومهد الحضارات، وهي عاصمة الكثير من الدُّول والإمبراطوريات، واتَّصف تاريخها بأنَّه زاخرٌ بالأحداث ومتجدِّدٌ، فهي مدينة المجد الَّتي كانت مركز الدنيا، وكان يُشدُّ إليها الرحال لكثرة مدارسها وأهل العلم فيها .

وهي المدينة الَّتي تستحق الوفاء من كلِّ من وُلد أو عاش فيها، ولعلَّ المؤرِّخ البدري (ت ٨٩٤هـ = ١٤٨٨م) قد تكلَّم بلسان حالي وخفايا مشاعري حين قال: «دمشق مسقط راسي، ومجمع أهلي وناسي، وملعب خلاَّني، ونزهة إخواني».

ولمَّا قال: [من الكامل]

بَلدٌ صَحِبتُ به الشَّبيبةَ والصِّبا ... ولَبِستُ ثوبَ العزِّ وهو جَديدُ
فإذا تمَثَّلَ في الضَّمير رأيتُهُ ... وعليهِ أغصانُ الشَّبابِ تَميدُ(٢)

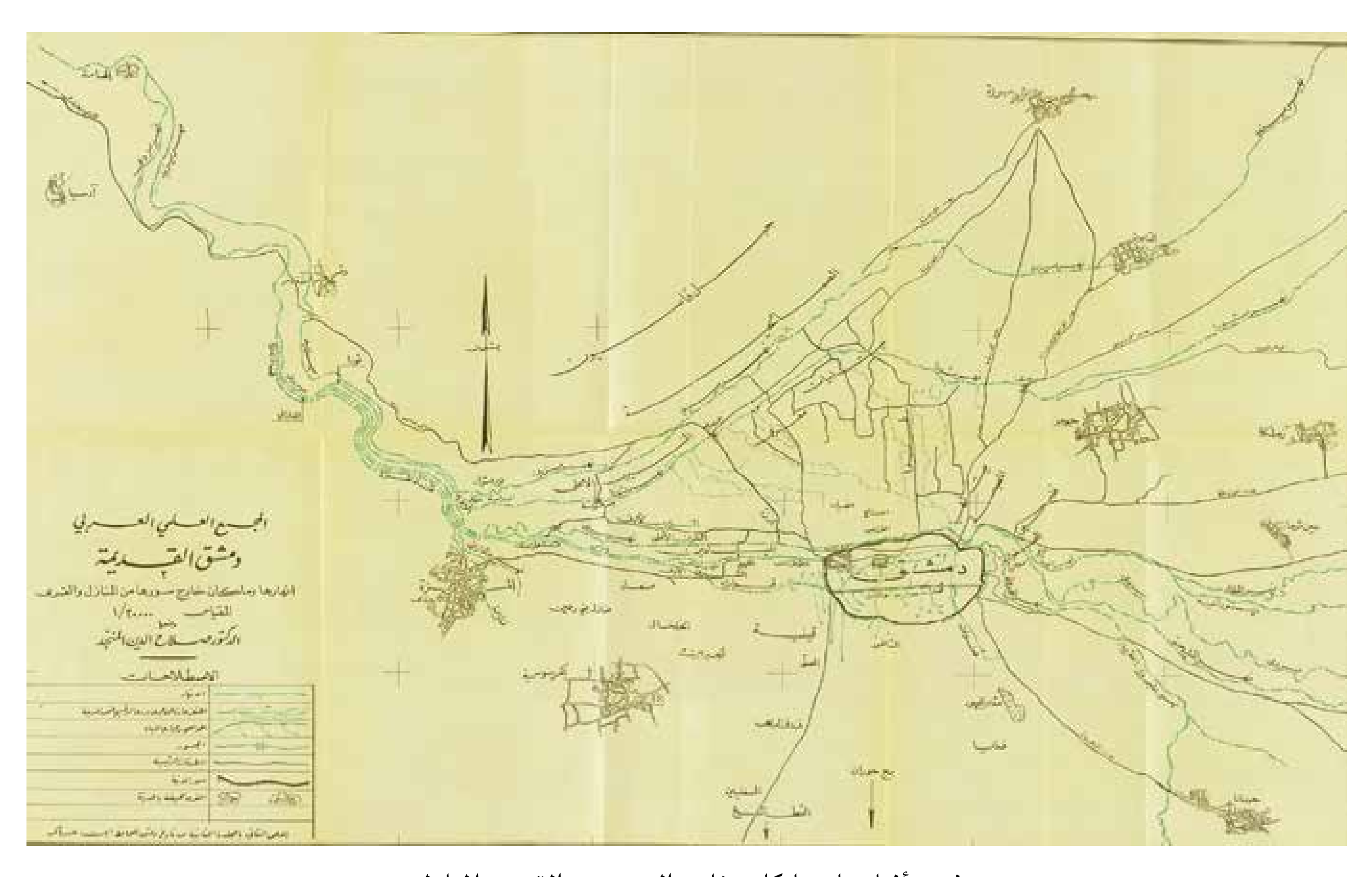
وما يزال تاريخ دمشق مجالاً خصباً للدِّراسات والأبحاَث، وما هو متوَفِّر منها لا يقارن بأهمِّيَّة تاريخ هذه المدينة ولا يوازيه، فهو تاريخ يحتاج إلى أن نبحر في وثائقه ومخطوطاته، لنتعرَّف على تفاصيل هذه المدينة وتاريخها وخططها وعلمائها وآثارها .

فلم تنل مدرسة التَّأريخ الشَّاميَّة الأولى أيَّ عناية من الدَّارسين، ولم يُبْرِز أحدٌ دورَها في نشأة علم التَّاريخ في الإسلام، وهي المدرسة التي سجَّلت السَّبق في ثلاث قضايا أساسيَّة:

فهي المدرسة التي كانت أوسعَ المدارس نظرةً إلى التَّاريخ وقيمته، إذ توجَّه اهتمامُها إلى الحدث التَّاريخي العام (الفتوح والمغازي وأحداث الجاهليَّة)، ولم تتوقَّف عند بعض المواضيع الخاصّة (كالمغازي النَّبويَّة فقط أو الأيَّام أو الأنساب).

وهي المدرسة التي سجَّلت أوَّل تدوين تاريخيٍّ معروف في الإسلام، وكان ذلك في دمشق وبأمر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان، حين استقدم عبيد بن شريَّة الجرهميَّ إليه وسأله عن أخبار الأمم، وأمر الكَتَبة أن يُدوِّنوا أقوالَه وأن تُنسب إليه، فكان من ذلك ــ على الأرجح ــ كتاب (الأمثال)

(2) **نزهة الأنام في محاسن الشَّام:** أبو التُّقى البدري الدِّمشقي، مخطوط، [3و].



دمشق وأنهارها وما كان خارج السور من القرى والمنازل

وكتاب (الملوك وأخبار الماضين).

وهي المدرسة التي أخذ علم التَّاريخ اسمَه منها، وذلك على يد أحد رجالها وهو عوانة بن الحكم (ت ١٤٧هـ = ٧٦٤م)، فهو صاحب أوَّل كتاب تاريخي نعرفه يحمل هذا الاسم، كتاب (التَّاريخ).

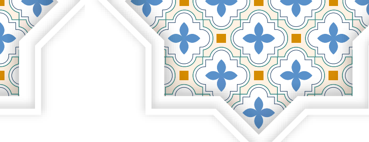
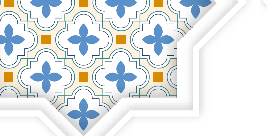
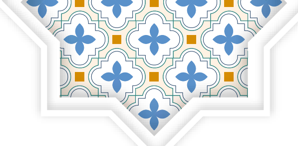
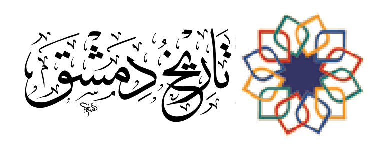
وبكلِّ الأحوال فإنَّنا نستطيع ـ من النّاحية الكميّة ـ أن نعدَّ من مُؤرِّخي بلاد الشَّام العاملين على هذا العلم نحوَ مئتي اسم، لهم ما يزيد على ٣٥٠ أثراً، ضاع ثلاثة أرباعها على الأقلِّ.

وتوصَّل المؤرِّخ شاكر مصطفى في إحصائيّة تقريبيّة إلى أنَّ نصف المؤرِّخين في بلاد الشَّام كانوا من المحدِّثين والفقهاء، ونحو الأربعين كانوا من الموظَّفين (الكُتّاب والقضاة خاصَّة)، ونحوَ العشرين من الملوك والوزراء والأمراء والأشراف والمؤرِّخين، ونحو الثّلاثين من أصحاب الأعمال الحرَّة.

وقد اتَّجهت مشاريع التَّاريخ الشَّامي إلى التَّضخُّم في أواخر القرن الرَّابع وبدايات القرن الخامس الهجريَّين = العاشر والحادي عشر الميلاديِّين في ميدانين: تواريخ المدن، والتَّواريخ العامّة. ولعلَّ السَّبب في ذلك يعود إلى التَّطوُّرات السِّياسيّة والعسكريّة، وظهور الخطر الفرنجي الصَّليبي، وظهور العصر الزِّنكي[٣] – الأيُوبي[٤]، ثم صارت سمعة نور الدِّين محمود بن زنكي[٥] وصلاح الدِّين الأيُوبي[٦] تجذب العلماء من كلِّ مكان.

---

(3) (521-631هـ = 1127-1233م).
(4) (567-655هـ = 1171-1257م).
(5) (541 – 569هـ / 1146 – 1174م).
(6) (567 – 589هـ = 1171 – 1192م).

وتفرَّدت المدرسة الشَّاميَّة عن غيرها بكثرة كتب (الفضائل)، إذ نستطيع أن نعدَّ قرابة عشرين مؤلَّفاً في باب فضائل المدن، معظمها عن دمشق ثم القدس.

وكان من سوء حظِّ مدرسة الشَّام أنَّ معظم إنتاجها التَّاريخي في القرون الممتدَّة ما بين الثَّالث والسَّادس الهجريِّين = التَّاسع والثَّاني عشر الميلاديَّين قد اندثر، بينما كان من حسن حظِّها بالمقابل أنَّ معظم إنتاج مؤرِّخيها الكبار قد بقي.

وهكذا فإنَّنا نفتقد مثلاً كافَّة المصادر التي اعتمد عليها ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ = ١١٦٠م) وابن عساكر (ت ٥٧١هـ = ١١٧٥م) في بناء كتابيهما[7].

وقد تنوَّع التَّأليف عن دمشق، تاريخيّاً وعمرانيّاً وآثاريّاً وطبوغرافيّاً، وضمن فضائل المدن، وضمن التَّراجم والتَّاريخ العام، وضمن غير ذلك من الفنون التَّاريخيَّة، كما سيظهر في هذا البحث.

ولا بدَّ أن أُشير في نهاية هذا التَّمهيد أنَّ هذا البحث لا يتخصَّص بالمؤرِّخين الدِّمشقيِّين، بل بمن أرَّخ لدمشق، وهذا ما سأحاول أن أُسلِّط الضَّوء عليه بالاستقصاء والتَّحليل.

كما أنَّه لن يتناولَ البحثُ مَن أرَّخ لدمشق في الخمسين عاماً الماضية، لأنَّ ذلك يحتاج إلى بحث آخر مستقل، يَفيهم حقَّهم، وهم من العمالقة، أمثال: صلاح الدِّين المنجِّد، ومحمَّد أحمد دهمان، وأكرم العلبي، وقتيبة الشِّهابي، وعبد القادر الرِّيحاوي، وخالد معاذ، وغيرهم، إضافةً إلى عدد من المستشرقين.

أوَّلاً _ التَّأريخ لدمشق في القرنين الهجريَّين الثَّالث والرَّابع = التَّاسع والعاشر الميلاديَّين:

يرى صلاح الدِّين المنجِّد أنَّ أوَّل مُؤرِّخ لدمشق هو عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النَّصري، وهو المشهور بأبي زرعة الدمشقي، الملقَّب بشيخ الشباب (ت ٢٨١هـ = ٨٩٤م)، وقد سكن دمشق، وكانت داره عند باب الجابية، وعُرِف بمحدِّث الشَّام، وكتابه (تاريخ أبي زرعة الدمشقي)، وهو رواية عن أبي الميمون بن راشد، وقال: «هو أقدم ما نعرفه من تواريخ الدِّمشقيِّين».

ويظهر أنَّ المنجِّد لم يشهد تحقيق هذا الكتاب، إذ حقَّقه شكر الله نعمة الله القوجاني بكليَّة الآداب في جامعة بغداد، ونشره مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق[8]. ويقع الكتاب ضمن نطاق مؤلَّفات التَّراجم، وما يرتبط بها من فروع الفكر الاجتماعي والثَّقافة.

ويرى شاكر مصطفى أنَّ هذا الكتاب هو حصيلة الإنتاج التَّاريخي لأبي زرعة، وفيه كتاب السِّيرة والخلفاء الرَّاشدين، وقضاة دمشق وفلسطين ومرو، وفيه من الطَّبقات مَن توفِّي في الشَّام من الصَّحابة والتَّابعين والعلماء[9].

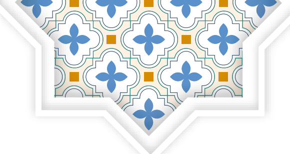
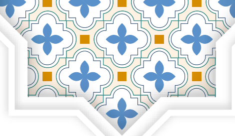
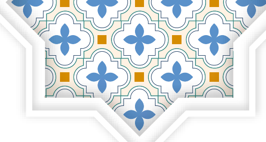
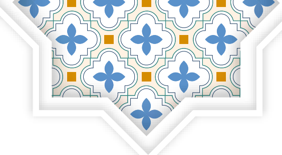
في حين يرى عبد الرَّزَّاق معاذ أنَّ أوَّل من تطرَّق مباشرة للكتابة في تاريخ دمشق العمراني هو القاضي أبو بكر أحمد بن المعلَّى الأسدي الدِّمشقي (ت ٢٨٦هـ = ٨٩٩م)، إذ ألَّف: (جزءاً في خبر

---

(7) **انظر مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، مؤتمر ابن عساكر، ص335 - 343.

(8) انظر **تاريخ أبي زرعة الدمشقي:** عبد الرحمن بن عمرو المشهور بأبي زرعة الدمشقي. وانظر **المؤرِّخون الدِّمشقيُّون وآثارهم المخطوطة:** المنجِّد، ص65، 66، وسرد المنجِّد مفرداته وظهر منها مفردتين تتعلَّقان بدمشق، واحدة عن قضاتها والأخرى عن الوقائع فيها في عهدي الخليفتين الصِّدِّيق وعمر رضي الله عنهما.

(9) **انظر مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص346.

المسجد الجامع وبنائه)، وللأسف فُقد هذا المؤلَّف، ووصلنا منه بعضُ ما نقله عنه ابن عساكر في تاريخه، والذي لم ينقله مباشرة من كتاب ابن المعلَّى، ولكن وصله عن طريق الرُّواة، وكذلك ابن جبير في رحلته[١٠].

ويكشف ذلك أنَّ ابن المعلَّى كان أوَّل من وضع الخطوط الأولى في تاريخ دمشق الطُّبوغرافي، وكان أوَّل من ذكر اتفاق المسلمين والمسيحيِّين على قسمة الجامع الأموي بينهما بعد الفتح، ويظهر أنَّه كان القاضيَ بدمشق، لأنَّه اعتمد في ذلك على ما في السِّجلاَّت الرَّسميّة بين يديه[١١].

وظهر بعد ابن المعلَّى مؤرِّخ آخر في النِّصف الأوَّل من القرن الرَّابع الهجري = العاشر الميلادي، هو أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن حميد المعروف بابن أبي العجائز، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أنَّه صنَّف كتاباً ذكره المؤرِّخون باسم (تاريخ دمشق)، وعلى هذا فهو أوَّل تاريخ يؤلَّف لهذه المدينة، وقد فُقد هذا الكتاب، ولم يبقَ منه إلا الروايات التي نقلها ابن عساكر عن طريق كتاب أبي الحسين الرَّازي (القادم ذكره)، ولاسيَّما عن الدُّور في دمشق، وكذلك نقل منه ياقوت في (معجم البلدان)[١٢]، عند ذكر قرى الغوطة خاصَّة، فلا يكاد يذكر قرية من قرى الغوطة إلَّا ويُردفها بنقل من تاريخ ابن أبي العجائز.

ويشير ابن عساكر إلى كتابه باسم (ذكر بني أميَّة مَن نزل منهم بدمشق ومَن نزل منهم بغوطتها)، وهذا على ما يبدو الاسم الأصلي للكتاب، والواضح أنَّ ابن أبي العجائز اهتمَّ في هذا الكتاب بذكر بني أميَّة، ومَن نزل منهم بدمشق ومَن نزل في غوطتها، فالنُّصوص تتعلَّق بهم وبمنازلهم، وتسمح بإعطاء فكرة واضحة عن التَّوزُّع والتَّوطُّن القبلي في دمشق حتى ما بعد العصر الأموي[١٣].

وممَّن كتب عن تاريخ دمشق العمراني محمَّد بن عبد الله بن جعفر، أبو الحسين الرَّازي (ت ٣٤٧هـ = ٩٥٨م)، أصله من الرَّي، ثم استوطن دمشق وتوفِّي فيها، وكان من كبار المحدِّثين، وكان معاصراً لابن أبي العجائز وسمع منه.

وللأسف فإنَّ جميع مؤلَّفاته مفقودة اليوم، ولكن ابن عساكر وياقوتاً نقلا عنه، وهو يعدُّ من أهمِّ مصادر ابن عساكر، وخاصَّة بالنِّسبة للمزارات وجبل دمشق، كما نقل عنه ابن عساكر ما سمعه من ابن أبي العجائز بالنِّسبة لدُور دمشق[١٤].

ومن مؤرِّخي دمشق في القرن الرَّابع الهجري = العاشر الميلادي: عبد الجبَّار بن عبد الله الخولاني القاضي (ت ٣٦٥هـ = ٩٧٥م)، وقد كتب (تاريخ داريًّا)[١٥]. وهو أحد مشايخ الرّازي، وكتب

---

(10) **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص197، وانظر **مقدِّمة صلاح الدِّين** المنجِّد للقسم الأوَّل من المجلَّدة الثانيَّة (قسم خطط دمشق) من **تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر، ص6 - 7. **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر (قسم خطط دمشق)، ص5 - 48. تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر، ج5، ص476. رحلة ابن جبير: ابن جبير، ص262 - 263، 275. 299– 286 .pp , **Dimashk, Encyclopédie de l'Islam; Nikita Elisséeff**

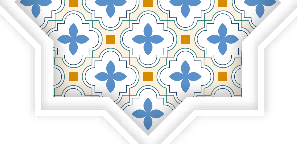
(11) **انظر مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص384.

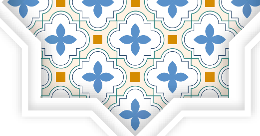
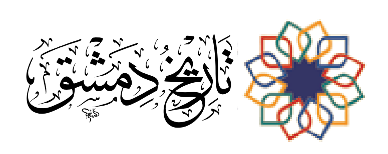
(12) انظر **معجم البلدان** وأماكن نقله من ابن أبي العجائز، ج1، ص520. ج2، ص96، 433، 496، 529، 543. ج3، ص220، 229، 321، 436. ج4، ص75، 417. ج5، ص241، 441.

(13) **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص198. **مدرسة الشَّام التاريخيَّة من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص386، 387. **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ج50، ص316، 456. ج59، ص278. ج72، ص23. ج74، ص145.

(14) **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص197. **فضائل الشَّام ودمشق:** علي بن محمد الرَّبَعي. **مدرسة الشَّام التاريخيَّة:** شاكر مصطفى، ص346، 347. **Description de Damas;** Nikita Elisséeff, p. XL. انظر **تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر ومعجم البلدان في عشرات المواضع التي نقلوا فيها عن أبي الحسين الرَّازي.

(15) نشره مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق سنة 1950م. وذكر ابن عساكر هذا الكتاب في مواضع عدة، ج1، ص254. ج9، ص65. وذكره في **معجم البلدان**، ج2، ص432.



في كتابه عمَّن نـزل في داريًّا من أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، والتَّابعين وتابعي التَّابعين، وأهل العلم على طبقاتهم وأزمانهم[١٦].

ولا شكَّ أنَّ حركة التَّدوين التَّاريخي في الشَّام وصلت إلى الذُّروة على يد ابن عساكر حين كتب تاريخ دمشق، مهتمّاً بطبقات المحدِّثين والعلماء، ومُولياً قليل الاهتمام لمن سواهم، وخاصَّة رجال السُّلطة.

وإنَّ هذه الثغرة بالنِّسبة لدمشق قد جرى تداركها من قبل ثلاثة أجيال من المؤرِّخين: اثنين من العراق هما ثابت وهلال، وثالثهما - وهو المهمُّ - من دمشق الشَّام وهو ابن القلانسي، فأوَّل هؤلاء المؤرِّخين هو ثابت بن سنان (ت ٣٦٥هـ = ٩٧٥م)، الذي كان واحداً من أفراد آل الصَّابئ، الأسرة التي اشتهرت بالطِّبِّ، وكان كمعظم بقيّة آله متميِّزاً إلى جانب كونه طبيباً باهتمامه بالتَّاريخ وتدوينه، وقد كتب عدداً من التَّواريخ أشهرها واحد ذيَّل به - مع شيء من التَّداخل - على تاريخ الطَّبري، وله أيضا كتاب (مفرد في أخبار الشَّام ومصر) في مجلَّد واحد.

وبعد وفاة ثابت جاء هلال بن المحسن بن إبراهيم الصَّابئ، وهو قريبه، وقد ولي ديوان الإنشاء في بغداد، وعاش مدَّة تاريخيَّة مهمَّة جداًّ، عاصر أحداثها وعرف أخبارها عن كثب وبشكل وثائقي، فقام بتدوينها في عدد من الكتب مفردةً، مثل كتابه في تاريخ الوزراء، أو جاءت كذيل لكتب ثابت بن سنان، الذي أنهى كتابه بحوادث سنة ٣٦٥هـ = ٩٧٥م، وأنَّ هلال بن المحسن ابتدأ كتابه الذي ذيَّل به على تاريخ ثابت بحوادث سنة ٣٦٠هـ = ٩٧٠م، وأنهاه بأخبار سنة ٤٤٧هـ = ١٠٨٤م[١٧].

وسنذكر ابن القلانسي في ترتيبه الزمني هنا.

ثانياً _ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري الخامس = الحادي عشر الميلادي:

نبَّه عبد الرَّزَّاق معاذ إلى ثلاثة مؤرِّخين نقل ابن عساكر من مؤلَّفاتهم شيئاً يتعلَّق بآثار دمشق في القسم الذي خصَّصه للخطط، ولم يذكر أسماء مؤلَّفاتهم، والظَّاهر أنَّها تتعلَّق بتاريخ دمشق العمراني، ولا نملك عن هؤلاَء سوى إشارات عابرة لدى ابن عساكر، وهم:

أبو محمَّد عبد المنعم بن علي المعروف بابن النَّحوي، ولا يُعرف عن الرَّجل سوى أنَّه كان أستاذاً للكتَّاني الدِّمشقي، الذي سمع منه بدمشق سنة ٤١٥هـ = ١٠٢٤م، وقد نقل ابن عساكر عنه خبراً قرأه بخطِّه يتعلَّق بأحد المساجد المقصودة بالزِّيارة بدمشق.

وأبو الحسن علي بن محمَّد بن إبراهيم الحنَّائي الدِّمشقي (ت ٤٢٨هـ = ١٠٣٦م)، وقد قرأ ابن عساكر بخطِّه ونقل عنه ابن عساكر خبراً قرأه بخطِّه يتعلَّق بطبوغرافيّة دمشق أو بعض مساجدها، يتعلَّق بمسجد أبي صالح الذي يقع شرقيَّها.

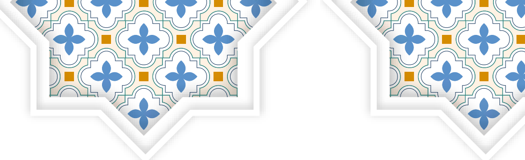
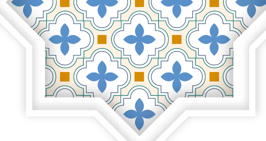
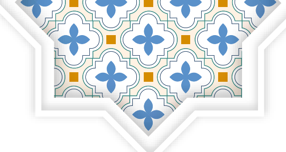
وإبراهيم بن محمَّد الحنَّائي، وهو أخو المؤلِّف السَّابق، ولا تذكر المصادر شيئاً عنه على ما نعلم، وقد نقل عنه ابن عساكر خبراً قرأه بخطِّه يتعلَّق بأحد معالم دمشق، وهو محلَّة جيرون وعن إنشاء الفوَّارة فيها[١٨].

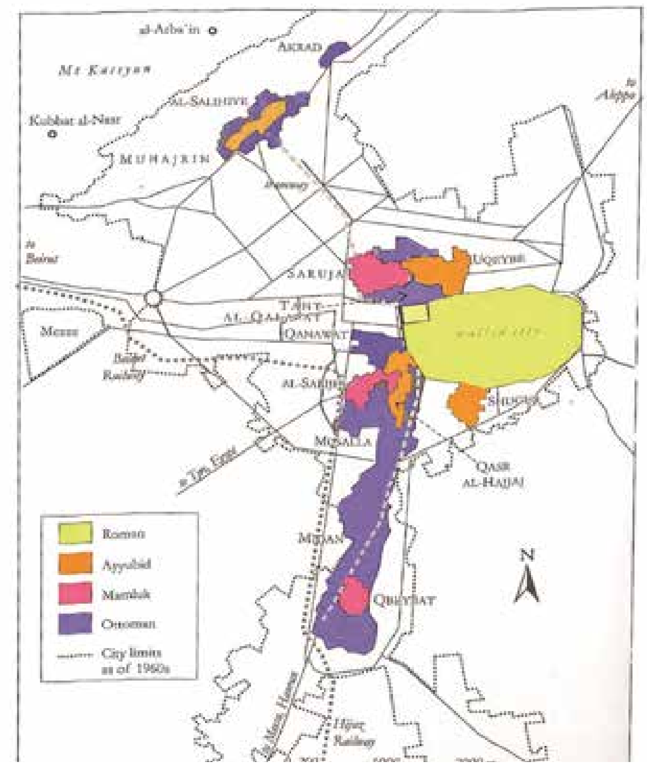
---

(16) انظر **مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص388.

(17) **تاريخ دمشق:** حمزة بن أسد، ابن القلانسي، التَّقديم، ص9 - 17.

(18) انظر **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر (قسم خطط دمشق)، ص113 - 132، **مدرسة الشَّام التاريخيَّة:** شاكر مصطفى، ص392، **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص198. ونقل ابن عساكر عنهما في عشرات المواضع من تاريخه.

تطور دمشق عبر العصور الرومانية والأيوبية والمملوكية والعثمانية

ومن مؤرِّخي دمشق في هذا القرن، وخاصّة في فضائلها، علي بن محمَّد بن صالح بن شجاع الرَّبَعي (ت ٤٤٤هـ = ١٠٥٢م)، وكتابه (فضائل الشَّام ودمشق)، وتحدَّث فيه عن دمشق ومسجدها وربوتها وجبلها وغوطتها، ومَن دُفن فيها، وعن ملاحمها[١٩]. واختصره الشَّيخ برهان الدِّين إبراهيم بن عبد الرَّحمن الفزاري (ت ٧٢٩هـ = ١٣٢٨م)، وسمَّاه (الإعلام بفضائل الشَّام)[٢٠].

وذكر المنجِّد من مؤرِّخي دمشق: المسلم بن هبة اللّه بن مختار، أبو الفتح الكاتب (ت ٤٦٠هـ = ١٠٦٧م)، ألَّف رسالة (في تفضيل دمشق على غيرها من البلاد، وذكر فيها بعضَ خواصِّها وبعضَ ما قالت الشُّعراء في وصفها)[٢١].

وممَّن اعتنى بتاريخ دمشق العمراني عبد العزيز بن أحمد الكتّاني الصُّوفي (ت ٤٦٦هـ = ١٠٧٣م)، ذكر ابن عساكر عنه أنَّه كان: «شيخ هبة اللّه الأكفاني الذي طاف به وأراه آثار دمشق ومنها قبور الصَّحابة»[٢٢].

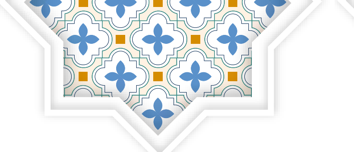
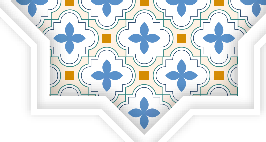
ومنهم غيث بن علي، أبو الفرج الأرمنازي (ت ٥٠٩هـ = ١١١٥م)، ألَّف كتاباً بعنوان (تاريخ دمشق)[٢٣]، وقد أشار إليه ياقوت الحموي في معجمه بقوله: وذكر غيث بن علي الأرمنازي في كتاب دمشق، على ما حدَّثني به الصّاحب جمال الدين الأكرم أبو الحسن علي بن يوسف الشَّيباني أدام اللّه أيامه: أنَّ الوليد أمر أن يُستقصى في حفر أساس حيطان الجامع ...[٢٤].

وهبة اللّه بن أحمد الأكفاني (ت ٥٢٤هـ = ١١٣٠م)، تلميذ الكتَّاني، وأحد شيوخ ابن عساكر الذي استفاد من رواياته في أغلبيّة فصول القسم الذي خصَّصه لخطط دمشق، وكان للأكفاني دفاتر يُسجِّل فيها ويروي عن آثار دمشق[٢٥].

ويعدُّ الأكفاني ضمن سلسلة المحدِّثين المؤرِّخين الدمشقيِّين الذين عُنوا عناية كبيرة بدمشق عمراناً ورجالاً، وله تتمَّة تاريخ داريًّا للخولاني[٢٦].

---

(19) **فضائل الشَّام ودمشق:** الرَّبَعي.
(20) **كشف الظُّنون:** مصطفى حاجي خليفة، ج1، ص81، ج2، ص1275.
(21) **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ج58، ص80. **المؤرِّخون الدِّمشقيُّون وآثارهم المخطوطة:** المنجد، ص76.
(22) **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر (قسم خطط دمشق)، ص196.
(23) **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ج1، ص10، 285، ج43، ص68، 69. **المؤرِّخون الدِّمشقيُّون وآثارهم المخطوطة:** المنجد، ص78.
(24) **معجم البلدان:** ياقوت الحموي، ج2، ص466.
(25) **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص198. وانظر مقدمة المنجِّد لقسم خطط دمشق من تاريخ ابن عساكر، ص9. وانظر **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ج73، ص359.
(26) انظر **مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص351، 352.


ثالثاً ـ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري السَّادس = الثاني عشر الميلادي:

أبرز من عاش في هذا القرن وأبرز من ألَّف فيه عن دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدِّمشقي، الشَّهير بابن عساكر، (وُلد سنة ٤٩٩هـ = ١١٠٥م في مدينة دمشق، وتوفِّي سنة ٥٧١هـ = ١١٧٥م)، مؤرِّخ الشَّام، وحافظ العصر، وإمام أهل الحديث في زمانه، وصاحب أشهر كتاب عن دمشق، في ثمانين مجلَّدة، لم يسبقه إليه أحد، ولم تَحظَ بمثله مدينة أخرى على وجه الأرض، وقد سمَّاه: (تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها، وتسمية من حلَّها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها).

ألَّفه على مراحل، ثم وكل أمر تبييضه إلى ابنه القاسم الذي بيَّضه بخطِّه.

وقد خصَّص القسم الأوَّل من المجلَّدة الثَّانية للحديث عن عمران دمشق وطوبوغرافيَّتها، وهذا دعا محقِّق الكتاب (صلاح الدِّين المنجد) لأن يطلق على القسم اسم (خطط دمشق)، وهو يعدُّ أقدم مصدر وصلنا عن تاريخ دمشق العمراني.

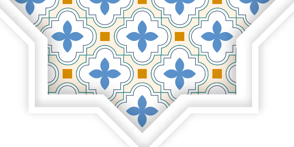
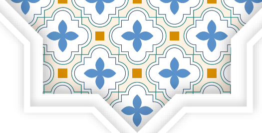
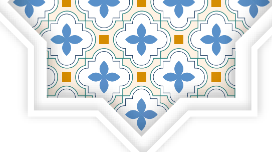
وقد جاء هذا القسم على أبواب تناولت: الجامع الأموي، المساجد، مواضع الزِّيارات، الكنائس، الدُّور، الأنهار، الحمّامات، ما ورد في مدح دمشق، الأبواب، المقابر.

كما أنَّه ذكر عرضاً، أثناء تحديده لبعض هذه الأماكن، بأسماء لمنشآت تُقدِّم معلومات مهمّة عن الحياة العمرانيَّة والدِّينيَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة بدمشق في القرن السَّادس الهجري = الثَّاني عشر الميلادي، كالمدارس والرُّبُط والخوانق والسُّور والخندق والجسور والحارات والمحالِّ والدُّروب والأزقَّة والرَّحبات والمربعات والبيمارستانات والأسواق والسُّويقات والسَّقائف والمسابك والمعاصر والمسالخ والطَّواحين، والفنادق والقياسر والدَّباغات والورَّاقات والقرى والمنازل والبساتين والأنادر والمروج والميادين.

وقد جمع ابن عساكر مواد هذا القسم عن طريقين: الأوَّل من طريق المؤرِّخين الذين سبقوه والذين لم تصلنا كتاباتهم، والثَّاني ما قام بإحصائه وتسجيله بنفسه وهو المساجد والحمَّامات والقني، فقَسم المدينة إلى قسمين: شمالي وجنوبي، نسبة للشّارع المستقيم (سوق مدحت باشا حالياً)، وبدأ من باب الجابية في الغرب لإحصاء ما يوجد من مساجد وقني وحمَّامات في القسم الجنوبي، ومن الباب الشَّرقي بالنِّسبة للقسم الشَّمالي، وأحصى ٢٤٢ مسجداً، و١٢٩ قناة، و٤٠ حماماً، وهذا غير المنشآت التي أحصاها خارج السُّور، وبلغت ١٧٨ مسجداً و١٩ قناة، و١٧ حماماً.

فتميَّز عمل ابن عساكر بأنَّه أوَّل من وضع ثبتاً أو عَمل جرداً للمساجد والحمَّامات والقني بدمشق، وبفضل الأسماء المذكورة في غالب الأحيان لمؤسِّسي الأبنية التي ذكرها نستطيع أن نُحدِّد تواريخَها، وأن نضع فهرساً زمنيّاً لها متتبِّعين التَّاريخ العمراني لدمشق لغايّة عهد ابن عساكر، وكانت طريقة ابن عساكر في تحديد مواقع هذه الأبنية تتمثَّل في نسبها إلى الحارات والدُّروب والبيوت المشهورة.

وقد تمكَّن الباحث الفرنسي نيكيتا إليسيف ـ Nikita Elisseeff بواسطة هذه التَّحديدات والإشارات من وضع خريطة لدمشق في القرن السَّادس الهجري = الثَّاني عشر الميلادي، مُسقِطاً

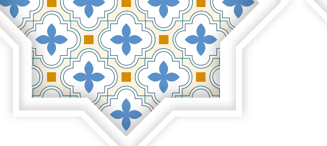
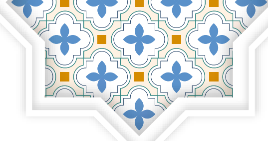
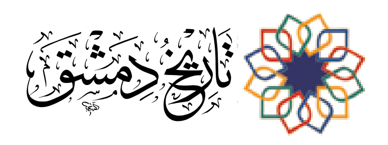
مخطوط الجزء الأول من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر

عليها الأماكن التي ذكرها ابن عساكر، وذلك بالاستناد إلى الأبنية والأطلال الباقية إن وجدت، وبالاستعانة بالأوابد المجاورة بالنِّسبة لتلك التي لم يبق لها أثر، وبالإفادة من المصادر التاريخيَّة التي تناولت وحدَّدت الأوابد بدمشق بعد ابن عساكر، والجمع بين النُّصوص والشَّواهد الأثريَّة في بعض الأحيان لتحديد موقع الأبنية.

وكان لابن عساكر مؤلَّفات أخرى، منها: (إتحاف الزَّائر) و(تاريخ المزَّة)، و(جزء كفرسوسة)، و(أحاديث جماعة من كفرسوسيّة)، و(فضل الرَّبوة)، و(حديث جماعة من أهل حرستا)، و(حديث أهل كفر بطنا).

وكان الملك العادل محمود بن زنكي نور الدِّين قد بنى له دار الحديث النُّوريَّة، فدرَّس بها إلى حين وفاته، غير ملتفت إلى غيرها، ولا متطلِّع إلى زخرف الدُّنيا، ولا ناظر إلى محاسن دمشق ونُزهها[٢٧].

(27) **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر (شيري)، ج1، ص11 - 27. **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر:** ابن منظور، ص9 - 10. **خطط دمشق:** أكرم العلبي، ص12. **تاريخ مدينة دمشق** لابن عساكر (تهذيب بدران)، ج1، ص9. **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص199، 200. **دمشق أيام ابن عساكر:** خالد معاذ، كتاب مؤتمر ابن عساكر، ص143 - 149.

ونعود لابن القلانسي الذي ظهر في هذا القرن، فهو حمزة بن أسد بن علي بن محمَّد، أبو يعلى التَّميمي، المعروف بابن القلانسي العميد (ت ٥٥٥ هـ = ١١٦٠م)، تولَّى رئاسة ديوان دمشق مرَّتين، وقد صنَّف تاريخاً للحوادث بعد سنة ٤٤٠هـ = ١٠٤٨م إلى حين وفاته.

بدأ كتابَه بحوادث سنة ٤٤٨هـ = ١٠٥٦م، وصرَّح بأنَّه صنع مُذيَّلاً، وفي العادة قد يُبنى المُذيَّل على ذيل، والذَّيل يأتي بمثابة ملحق بكتاب أساسي[٢٨].

ومن أهمِّ مصادره في هذا الكتاب التَّعليقات التاريخيَّة المكتوبة لبعض المؤلِّفين المجهولين، ومحفوظات الدِّيوان بدمشق، وقد استخرج منها العديد من الوثائق ونقلها في كتابه.

وعلى الرَّغم من أنَّ الكتاب يحمل عنوان تاريخ دمشق، إلّا أنَّه لا يقتصر على أمورها إلَّا في قسمه الأوَّل السَّابق لسنة ٤٤٨ هـ = ١٠٥٦م أمّا بعد ذلك فهو تاريخ للعالم الإسلامي كلِّه منظوراً إليه من دمشق[٢٩].

ونعود الآن إلى ما سلف ذكره عن ثابت بن سنان وهلال بن المحسن، فثابت كتب كتاباً بالتَّاريخ أوقفه على مصر والشَّام، ووقف به مع أحداث سنة ٣٦٥هـ = ٩٧٥م، وهي سنة وفاته، وجاء من بعده هلال بن المحسن فكتب ذيلاً على تاريخ ثابت تداخلت بعض سِنيِّه، حيث بدأه بحوادث سنة ٣٦٠هـ = ٩٧٠م، ووقف به على نهاية سنة ٤٤٧هـ = ١٠٥٥م.

والبحث التَّاريخي هو الذي قاد إلى الافتراض بأنَّ ابن القلانسي بنى مُذيَّله على كتابَي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن، أو على واحد منهما[٣٠].

وممَّن كتب في فضائل الشَّام في هذا القرن عبد الكريم بن محمَّد بن منصور التَّميمي السَّمعاني المروزي (ت ٥٦٢هـ = ١١٦٦م)، في كتابه (فضائل الشَّام)، وتحدَّث فيه عن دمشق وغوطتها وفضائلهما، وعن الجامع الأموي[٣١].

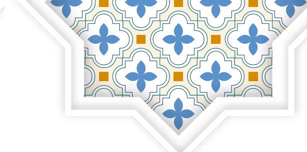
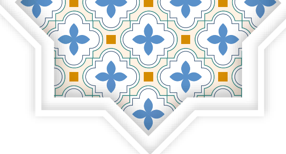
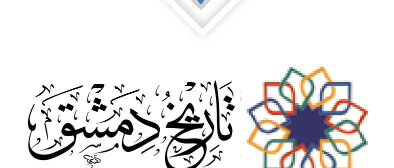
وذكر ابن عساكر أنَّ له: (فرط الغرام إلى ساكني الشَّام)، فقال: «وآخر ما ورد عليَّ من أخباره كتاب كتبه بخطِّه وأرسل به إليَّ سمّاه كتاب (فرط الغرام إلى ساكني الشَّام) في ثمانية أجزاء، كتبه سنة ستين وخمسمئة»[٣٢].

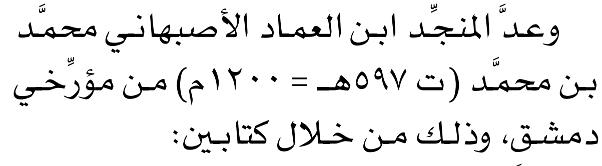
ومنها ما كتبه محمَّد بن محرز بن محمَّد الوهراني المغربي، الذي جذبته دمشق في أيّام نور الدِّين، فزارها واتَّصل به، ثم استوطن دمشق، وتوفِّي فيها سنة ٥٧٥هـ = ١١٧٩م في داريّا.

وقد كتب رقعة عن مساجد دمشق وضِياعها، وذلك ضمن كتابه (جليس كلِّ ظريف)، يطلب فيها إصلاح هذه المساجد[٣٣].

وكتب أبو الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧هـ = ١٠٠م) في فضائل دمشق كتابه: (مثير الغرام لساكني الشَّام)[٣٤].

(28) **تاريخ دمشق:** ابن القلانسي، ص9 - 17.
(29) انظر **مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص353، 354.
(30) **تاريخ دمشق:** ابن القلانسي، ص9 - 17. وانظر **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ج15، ص191، 192.
(31) **فضائل الشَّام:** عبد الكريم السَّمعاني. وانظر **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ج36، ص447 - 449.
(32) **تاريخ مدينة دمشق:** ابن عساكر، ح36، ص448. وانظر **هديَّة العارفين:** إسماعيل بن محمد البابانی البغدادي، ج1، ص609.
(33) **الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق**، نشرها صلاح الدِّين المنجِّد.
(34) **كشف الظُّنون:** حاجي خليفة، ج2، ص1590.

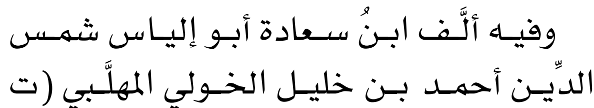


وعدَّ المنجِّد ابن العماد الأصبهاني محمَّد بن محمَّد (ت ٥٩٧هـ = ١٢٠٠م) من مؤرِّخي دمشق، وذلك من خلال كتابين:

الأوَّل (خريدة القصر وجريدة العصر)، الذي تكلَّم في القسم الثَّاني منه على الشَّام[٣٥] مؤرِّخاً للحياة الأدبيَّة فيها في القرن السّادس الهجري = الثَّاني عشر الميلادي.

والثَّاني (البرق الشَّامي)[٣٦]، الذي ذكر فيه الفتوحات الشَّاميَّة وأحداث الشَّام في عهد صلاح الدِّين الأيُّوبي، وأخباره مع كلٍّ من نور الدِّين محمود بن زنكي وصلاح الدِّين الأيُّوبي[٣٧].

مخطوط الجزء الأول من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر



رابعاً _ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري السَّابع = الثَّالث عشر الميلادي:

وفيه ألَّف ابنُ سعادة أبو إلياس شمس الدِّين أحمد بن خليل الخولي المهلَّبي (ت ٦٣٧هـ = ١٢٣٩م) كتاب (الرَّوض البسّام في مَن ولي قضاء الشَّام)، ورأى شاكر مصطفى أنَّه أوَّل كتاب في قضاة الشَّام[٣٨].

وألَّف ابنُ حمُّويه تاج الدِّين أبو محمَّد عبد اللّه بن عمر بن علي بن محمَّد بن الجوزي (ت ٦٤٢هـ = ١٢٤٤م) كتاب (عطف الذَّيل في التَّاريخ)، وتوقَّع شاكر مصطفى أنَّه ذيل تاريخ دمشق لابن عساكر[٣٩].

وألَّف ضياء الدِّين محمَّد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرَّحمن السَّعدى المقدسي ثم الدِّمشقي الحنبلي (ت ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م) كتاب (فضائل الشَّام)، في ثلاثة مجلَّدات[٤٠].

وخطَّ سلطان العلماء العزُّ بن عبد السَّلام (ت ٦٦٠هـ = ١٦١م)، كتابه (ترغيب أهل الإسلام في سُكنى الشَّام)، تحدَّث فيه عن أحاديث فضل الشَّام، وخصَّ دمشق في ذلك، وهو كتاب في فضائل

(35) **خريدة القصر وجريدة العصر:** ابن العماد الأصبهاني، الجزء الأوَّل عن شعراء الشَّام.

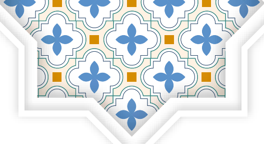
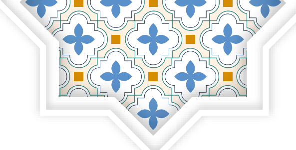
(36) **البرق الشامي:** عماد الدين الكاتب الأصبهاني.

(37) **المؤرِّخون الدِّمشقيُّون وآثارهم المخطوطة: المنجد**، ص85 - 87. وانظر **مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص363.

(38) انظر **مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص412.

(39) انظر **مدرسة الشَّام التَّاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده:** شاكر مصطفى، ص412، 413.

(40) **هديَّة العارفين:** البابانى البغدادي، ج2، ص123.


البلدان، تناول فيه ما ورد في تفضيل الشَّام على غيرها، وبيان أهمِّيَّتها وأهميّة السُّكنى فيها والتَّرغيب في ذلك، والتَّرغيب بالدِّفاع عنها[41].

وأسهم أبو شامة عبد الرَّحمن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥هـ = ١٢٦٧م)، بالتَّأريخ لدمشق بكتابه (مختصر تاريخ دمشق)، وذكر ابن كثير (ت ٧٧٤هـ = ١٣٧٢م) أنَّه في مجلَّدات كثيرة[42].

وكذلك فعل نصر اللّه بن عبد المنعم التَّنوخي المعروف بابن شقير الدِّمشقي (ت ٦٧٣هـ = ١٢٧٥م)، حين ألَّف (إيقاظ الوَسنان في تفضيل دمشق على سائر البلدان)، وذكر حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ = ١٦٦٥م) أنَّه كتاب كبير في ثلاثة مجلَّدات[43].

ونصل إلى أهمِّ مَن كتب عن دمشق، وهو عزُّ الدِّين أبو عبد اللّه محمَّد بن علي بن إبراهيم بن شدَّاد الأنصاري الحلبي (ت ٦٨٤هـ = ١٢٨٥م).

دخل ابن شدَّاد دمشقَ في سنة (٦٣١هـ = ١٢٣٤م)، وهو في الثَّامنة عشرة من عمره، وتوالت رحلاته إليها عدّة مرّات، ويُقال بأنَّ هدفه من هذه التَّردُّدات كان البحث عن العمل والموقع الإداري الذي يتَّفق مع مؤهِّلاته.

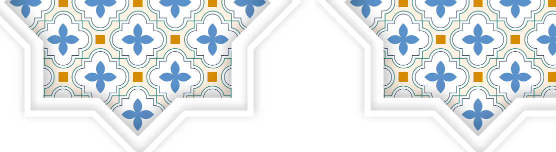
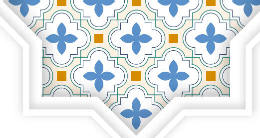
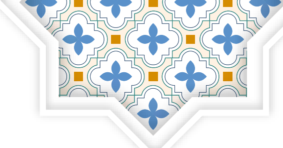
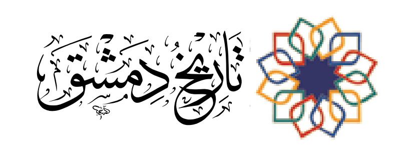
عاش في دمشق أكثر من عشر سنين، وذلك في أيَّام السُّلطان الملك النّاصر صلاح الدِّين يوسف بن الملك العزيز محمَّد صاحب دمشق وحلب، وعمل بالمجال الإداري، قال: «وكنتُ قد دخلتُ دمشق سنة إحدى وثلاثين، ثم تردَّدتُ إليها مراراً عديدة، ثم قطنتُ بها الأيامَ النّاصريّة مدّة عشر سنين»[44].

وقد أحبَّ ابنُ شدَّاد دمشق حبّاً جمّاً وسكنت جوارحه إليها، فامتدحها وأفاض في ذكرها حتَّى قال: «فإنَّها أحسنُ بلاد الشَّام مكاناً، وأعدلُها هواءً، وأطيبُها نشراً، وأكثرها مياهاً، وأغزرها فواكهَ»[45]، ثم أكمل في ذكر الغوطة وقراها وبساتينها، فقال إنَّ فيها خمسة آلاف بستان وخمسمئة كرم.

ألَّف كتاباً عن طوبوغرافيَّة بلاد الشَّام جاء في ثلاثة أجزاء، جعل الأوَّل عن مسقط رأسه حلب، والثَّاني لدمشق والأردن وفلسطين، والثَّالث للجزيرة الشَّاميَّة، وسمَّاه (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشَّام والجزيرة)، وفي القسم الخاص بدمشق نقل فيه حرفيّاً في أغلب الأحيان، دون ذكر الإسناد، كلَّ ما ذكره ابن عساكر عن المساجد والكنائس والمزارات وفضائل دمشق، وما ورد في مدحها وذكر أبوابها وأسوارها ومقابرها، وزاد عليها أبواباً لم يتطرَّق إليها الأوَّل، مثل القلعة والخوانق والرُّبط، وخصَّص فصلاً كبيراً للمدارس، وبذلك يكون ابن شدَّاد قد رسم صورة لدمشق في العصر الأيُّوبي وبداية عصر المماليك، أتمَّ بها الصُّورة التي تركها ابن عساكر، حيث ازداد فيها عدد المساجد داخل السُّور وخارجه من ٤٢٠ مسجداً أيّام ابن عساكر إلى ٦٦٠ أيَّام ابن شدَّاد، وبلغ عدد المدارس ٩٣، وكان عددها ١٢ أيَّام ابن عساكر.

وكانت كتابة ابن شدَّاد تُشبه إلى حدٍّ بعيد كتابة الصّاحب ابن العديم، والقاضي ابن شدَّاد،

(41) **ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشَّام:** العز بن عبد السلام، مخطوط رقم 315887، وانظر الكتاب بتحقيق ياسر الحسيني.
(42) **البداية والنهاية:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ج13، ص250.
(43) **كشف الظُّنون:** حاجي خليفة، ج1، ص215. **معجم المؤلِّفين:** عمر كحالة، ج13، ص97.
(44) **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشَّام والجزيرة:** ابن شداد، محمد بن علي، ج2، قسم1، ص188.
(45) **الأعلاق الخطيرة:** ابن شداد، ج2، قسم1، ص14.

صاحب السِّيرة الصَّلاحيّة، والحافظ ابن عساكر، لا تكاد تختلف عنهم إلَّا كما تختلف النُفوس والأخيلة والعبقريَّات، ولعلَّ إعجابه بهؤلاء دفعه إلى تقليدهم في التَّصنيف، فألَّف فيما ألَّفوا به، ونقل عنهم خير ما في كتبهم، وسار سيرتهم في حياته وثقافته.

ونبَّه المستشرق الرُوسي إغناطيوس كراتشكوفسكي kpaykobcknn nrhatnn (ت ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م) على مادَّة هذا الكتاب، فقال: «ويجب ألَّا تصرفنا هذه التَّسمية عن مادَّة الكتاب، فهو لا يقتصر على تاريخ أمراء هاتين المنطقتين، بل إنَّ هذا الكتاب يمثِّل دراسة مستقلَّة ذات طابع نصف تاريخي ونصف جغرافي للمقاطعات والمدن المختلفة، وهذا الأمر يُقرِّب الكتاب أحياناً من نمط الخطط المقريزيَّة»[٤٦].

ولابن شدَّاد (الدُرَّة الخطيرة في أسماء الشَّام والجزيرة)[٤٧].

ومن هذه المؤلَّفات (فاكهة المَجالس وفكاهة المُجالس)، وهو انتقاء من تاريخ دمشق[٤٨].


بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي
الحمد لله اللطيف بخلقه والشكر لله الكريم برزقه والمدح لله على احكامه في قسمة المال على خلقه وصلى الله
على سيدنا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين ورضي الله تعالى عن الصحابة والتابعين وتابعيهم باحسان

الورقة الأولى من الجزء الأول من كتاب: الدارس في تاريخ المدارس

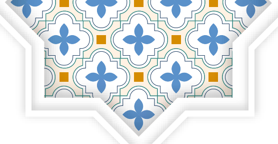
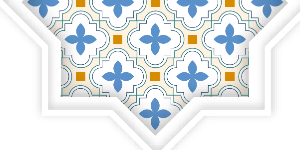
وخُتم هذا القرن بعالم اللُغة ابن منظور محمَّد بن مكرم (ت ٧١١هـ = ١٣١١م)، صاحب (مختصر تاريخ دمشق)، اختصره من كتاب تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، فحذف أسانيد الرِّوايات والأخبار المكرَّرة، وانتقى أوثقها وأتمَّها، مع محافظته على روح الكتاب الأصلي[٤٩].

[46] **تاريخ الأدب الجغرافي العربي:** إغناطيوس كراتشكوفسكي، ص401. وانظر عن ابن شدَّاد وكتابه مقدِّمة المحقِّق في كتابه الأعلاق الخطيرة، ج1، قسم1، ص26، 27. **تاريخ ابن الفرات:** ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم، مج8، ص34. **الوافي بالوفيات:** الصفدي، خليل بن أيبك، ج14، ص189، 190. **أعلام النُبلاء بتاريخ حلب الشَّهباء:** محمد راغب الطباخ الحلبي، ج4، ص483. **الأعلام:** خير الدين الزركلي، ج3، ص158.

[47] **كشف الظُنون:** حاجي خليفة، ج1، ص739.

[48] **المؤرِّخون الدِّمشقيُّون وآثارهم المخطوطة:** المنجد، ص95.

[49] **مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر:** ابن منظور.

خامساً _ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري الثَّامن = الرابع عشر الميلادي:

وفيه ظهرت أهمُ مؤلَّفات دمشق المتمثِّلة بكُتُب الحسن بن أحمد بن زُفر الإربلي الدِّمشقي الشّافعي المتطبِّب (ت ٧٢٦هـ = ١٣٢٦م)، الذي تغرَّب ودخل بلاد العجم واشتغل بالطِّبِّ واستوطن دمشق، وأقام بها صوفيّاً بدويرة حمد[٥٠] إلى أن مات، وكان عالماً في النَّحو والأدب والتَّاريخ.

ألَّف: جزءاً في محاسن دمشق، يشتمل على عدد مدارسها ورُبطها ودور الحديث النَّبوي بها، وعدد الجوامع ودور القرآن، وعدد حمّاماتها، وأحصى فيه ٩١ مدرسة، و٢٢ داراً للحديث، وداريـن للقرآن، و٤٥ رباطاً وخانقاهاً، و١٦ جامعاً، ولم يُحص المساجد، و١٣٧ حماماً.

وهذا الجزء أو الرِّسالة نشره وحقّقه الشَّيخ محمَّد أحمد دهمان[٥١].

وكتاب الإربلي هذا عن تاريخ دمشق هو رسالة من ثلاث رسائل دخلت في حوزة دار الكتب الظَّاهريَّة، وعدد أوراق هذه الرَّسائل مئة وستُّون ورقة، وهذا المجموع خلا من تاريخ يدلُّ على زمن كتابته.

الرِّسالة الأولى تبتدئ من الورقة الأولى وتنتهي في الورقة (٧١)، مؤلِّف هذه الرِّسالة هو تقي الدِّين أبو بكر بن أحمد بن محمَّد بن عبد الوهاب الأسدي الشَّهبي الدِّمشقي، (ت ٨٥١هـ = ١٤٤٧م).

وتبتدئ الرِّسالة الثَّانيَّة من الورقة (٧٣) وتنتهي في نصف الوجه الأول من الورقة (١٤٥)، ويفصل بينها وبين الرِّسالة الأولى ورقة بيضاء، وقد جاء في أوَّل صفحة منها: «كتاب فيه جزء من فضائل الشَّام ودمشق، ذكر ما فيها من الإمارات والبقاع الشَّريفة، تأليف أبي الحسن علي بن محمَّد بن شجاع الرَّبَعي المالكي، رواية ...».

وما يهمُّنا هو الرِّسالة الثَّالثة: وتبتدئ من نصف الوجه الأول من الورقة (١٤٥) وتنتهي في آخر الوجه الأول من الورقة (١٦٠)، وقد جاء في أوَّل ورقة منها: «جزء يشتمل من محاسن دمشق على عدد مدارسها ورُبطها ودور الحديث النَّبوي بها وعدد جوامعها ودُور القرآن وعدد حمّاماتها، جمعه لنفسه الحسن بن أحمد بن زفر الإربلي الشّافعي المتطبِّب عفا اللّه عنه».

وهذه الرِّسالة هي خير ما في هذا المجموع فقد تضمَّنت تصنيفاً جميلاً لمدارس دمشق، توزَّع على ستّة فصول:

الفصل الأول: في عدد مدارس دمشق، وحصرها المؤلِّف في إحدى وتسعين مدرسة، ثم قسَّمها إلى مدارس الشّافعيّة، ومدارس الحنفيّة، ومدارس الحنابلة، ومدارس المالكيّة، ومدارس الطِّب.

الفصل الثَّاني: في دُور الحديث النَّبوي.

الفصل الثَّالث: في دُور القرآن.

الفصل الرَّابع: في عدد الخوانق، وضمَّنه بحثاً عن الرُّبط.

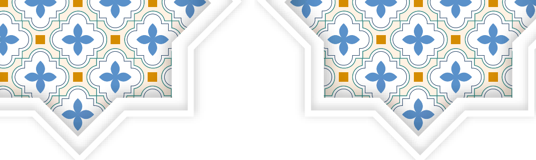
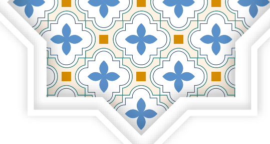
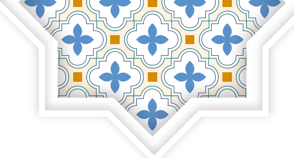
الفصل الخامس: في عدد جوامع دمشق وحواضرها وما اتَّصل بحواضرها.

الفصل السّادس: في عدد حمّامات دمشق ما هو من داخلها وفي حواضرها ومتَّصل بحواضرها.

---

[50] أو الخانقاه الدُّويريَّة (400 هـ = 1009م) بدرب السِّلسلة بباب البريد، وتعدُّ أوَّل مكان للتَّعليم (مدرسة) في دمشق. انظر **الدَّارس في تاريخ المدارس:** عبد القادر النعيمي، (النَّهار)، ص157.

[51] **مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها:** الإربلي، الحسن بن أحمد بن زفر، وأعاد نشره في كتاب (في رحاب دمشق)، ص63.

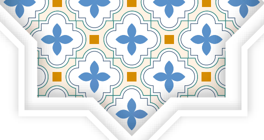
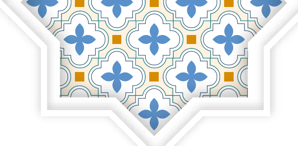

الورقة الأولى من الجزء الثاني من كتاب: الدارس في تاريخ المدارس

وكل هذه التَّصنيفات مقسَّمة إلى قسمين: ما هو داخل سور دمشق وما هو خارج عنها.

ورسالتنا هذه التي صنَّفها الإربلي هي حلقة وسطى بين ما كتبه ابن شدَّاد وما كتبه النُّعيمي (ت ٩٢٧هـ = ١٥٢٩م)، فهي ترشدنا إلى أنَّ فكرة التَّأليف في مدارس دمشق كانت موطَّدة الأركان قبل النُّعيمي صاحب تنبيه الطالب، وقبل أحمد بن حجِّي صاحب كتاب (الدّارس من أخبار المدارس)، كما أنَّها تُرشدنا إلى أنَّ هذه المصانع لم تكن مهملة الشَّأن، بل كانت مسجَّلة في سجلاَّت رسميَّة، كما نقل الإربلي في الصَّفحة (١٥) من كتابه (إحصاء الخوانق والرُّبط)، من جريدة الشَّيخ عبد الله غلام شيخ الشُّيوخ صدر الدِّين بن حموية.

ويزيد في قيمة هذه الرِّسالة الاعتبارات التي اعتبرها المؤلِّف، فالنُّعيمي والعلموي يعدّان المدرسة العمريَّة مثلاً في مدارس الفقه الحنبلي، ولكنَّ الإربلي يعدُّها مثلهما في الصَّفحة (١١) من كتابه ويعدُّها أيضاً دار قرآن في الصَّفحة (١٥) من كتابه، ويؤيِّد ما ذهب إليه الإربلي شهادة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م)، فهو يقول في رحلته عن الصَّالحيَّة: «وفيها مسجد جامع ومارستان، وبها مدرسة تُعرف بمدرسة أبي عمر، موقوفة على من أراد أن يتعلَّم القرآن الكريم من الشُّيوخ والكهول، وتجري لهم ولمن يُعلِّمهم كفايتُهم من الأكل والملابس»[٥٢].

[52] رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ج1، ص326، 327.



وقد يُكرِّر الإربلي ذكر المدرسة مرَّتين، كالعزيَّة البرَّانيَّة، ذكرها مرَّة مع المدارس الحنفيَّة ومرَّة ثانية في دور الحديث، وهو في ذلك يُرشد إلى أنَّ هذه المدرسة كان لها فرعان فرع للفقه الحنفي وفرع للحديث.

وقد يُسمِّي المدرسة باسم يختلف عن تسمية النُّعيمي؛ كالمدرسة الكرديَّة في الصَّفحة (١٢) من كتابه، التي سمَّاها النُّعيمي المُجاهديَّة نسبة إلى مُجاهد الدِّين بزان بن ماسين الكردي.

كما أنَّه يُثبت مدارس لم يمرَّ علينا اسمُها كمدرسة ابن سناء الدَّولة في الصَّفحة (١٢) من كتابه، إلى غير ذلك من الفوائد الدَّقيقة التي تحويها هذه الرِّسالة.

ولعلَّ أحداً لم ينقل عن هذه الرِّسالة إلا ابن عبد الهادي في كتابه (عدَّة الملمَّات في تعداد الحمَّامات)، فقد نقل عنها ولقَّب مؤلِّفها بأبي علي الإربلي[٥٣].

ومن مؤرِّخي دمشق في هذا القرن البرزالي القاسم بن محمَّد (ت ٧٣٩هـ = ١٣٣٩م)، صاحب كتاب (ذيل تاريخ دمشق)[٥٤].

ومنهم الحافظ شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجماعيلي الحنبلي (ت ٧٤٤هـ = ١٣٤٣م)، كتب عن فضائل دمشق في كتابه (فضائل الشَّام)[٥٥].

ولـ (مؤرِّخ الإسلام) ـ كما لقَّبه العلماء ـ الذَّهبي محمَّد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ = ١٣٤٧م) كتاب (مختصر تاريخ دمشق)، ذكر ابنُ العماد في شذرات الذهب أنَّه في عشر مجلَّدات[٥٦].

ولشيخ الأدب والتَّرسل الصَّفدي خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م) كتاب (تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنُّوَّاب)[٥٧].

ولمؤرِّخ القدس الشَّيخ شهاب الدِّين، أبي محمود أحمد بن محمَّد المقدسي الشافعي (ت ٧٦٥هـ = ١٣٦٣م) كتاب (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشَّام)، وقد جعله على قسمين: الأوَّل في فضائل الشَّام، وبيان حدوده، والثَّاني: في فضائل المسجد الأقصى[٥٨].

ولشيخ الأدب ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى بن أبي بكر محمَّد بن عبد الواحد شهاب الدِّين التِّلمساني (ت ٧٧٦هـ = ١٣٧٤م) كتاب: (زهر الكمام وسجع الحمام)، ذكر فيه محاسن جامع دمشق[٥٩].

وكتب العلاَّمة الكبير زين الدِّين أبو الفرج عبد الرَّحمن بن الشَّيخ الإمام العلاَّمة أبي العباس أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ = ١٣٩٢م) كتاب (فضائل الشَّام)، قسَّمه إلى عشرة أبواب، تحدَّث فيها عمّا ورد في الأمر بسُكنى الشَّام، وفي استقرار العلم والإيمان فيها، وحفظها من الفتن،

[53] انظر عن الإربلي وكتابه مقدِّمة محقِّق كتابه: **مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها. والدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة:** ابن حجر، أحمد بن علي، ج2، ص92. **والمنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي:** يوسف بن تغري بردي، ج5، ص65. **ومعجم المؤرِّخين الدِّمشقيِّين:** المنجد، ص229.

[54] **معجم شيوخ الذهبي:** الذهبي محمد بن أحمد، ص435 - 436، **شذرات الذَّهب:** عبد الحي بن أحمد، ابن العماد الحنبلي، ج8، ص218.

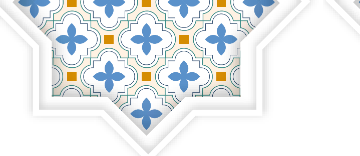
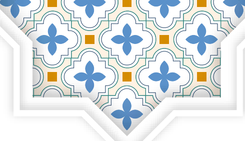
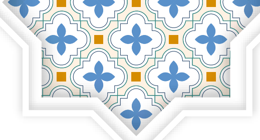
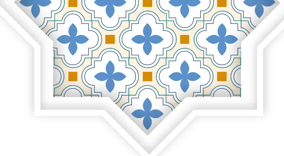
[55] طُبع في مجلَّة مجمع اللُّغة الأردني، العدد 49، السنة 19، 1995م, وفي دار الصَّحابة للتُّراث، في مصر، وفي ضمن مجموع رسائل في فضل الشَّام، في دار الكتب العلميَّة.

[56] شذرات الذَّهب: ابن العماد، ج8، ص264.

[57] **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب:** خليل بن أيبك الصفدي.

[58] **كشف الظُّنون:** حاجي خليفة، ج2، ص1589.

[59] **كشف الظُّنون:** حاجي خليفة، ج2، ص961. **هديَّة العارفين:** الباباني البغدادي، ج1، ص113.


واستقرار خيار أهل الأرض في آخر الزمان فيها، وأنَّ الخير فيها أكثر منه في سائر بلاد المسلمين، وفيما ورد فيَ أنَّ الطَّائفة المنصورة بالشَّام، وأنَّ الأبدال بالشَّام، وما ورد في بركتها، وفي حفظ الله الشَّام بالملائكة الكرام، وفيما ورد في بقاء الشَّام بعد خراب غيرها من الأمصار، وفيما ورد في فضل دمشق بخصوصه[٦٠].

ومن مؤرِّخي دمشق أحمد بن حجِّي بن موسى الحسباني الدِّمشقي (ت ٨١٦هـ= ١٤١٣م)، له كتاب (الدّارس من أخبار المدارس)، وهو مفقود[٦١].

سادساً _ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري التَّاسع = الخامس عشر الميلادي:

وأبرز من كتب عن دمشق في هذا القرن العالم الكبير ابن قاضي شهبة أحمد بن محمَّد (ت ٨٥١هـ = ١٤٤٧م)، وكتابه (تاريخ دمشق ومن بناها من المتقدِّمين)[٦٢]، وذكر السَّخاوي له أيضاً: (المنتقى من تاريخ ابن عساكر)[٦٣].

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ محمَّد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق، شمس الدِّين السُّيوطي ثم القاهري الشّافعي المنهاجي (ت ٨٨٠هـ = ١٤٧٥م) وكتابه (فضائل الشَّام)[٦٤].

ولشمس الدِّين السُّيوطي أيضاً كتاب (إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى)، تكلَّم في الفصل الأخير منه على فضائل بلاد الشَّام، وختمه بذكر مواضع مخصوصة فيها[٦٥].

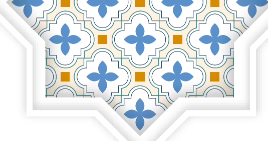
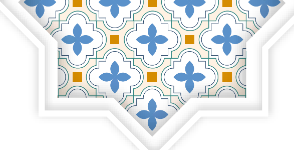
وألَّف أبو بكر بن عبد الله أبو التُّقى البدري الدِّمشقي (ت ٨٩٤هـ = ١٤٨٨م) كتابه (نزهة الأنام في محاسن الشَّام)، وتكمن قيمة هذا الكتاب في أنَّه يمثِّل عدّة فنون مزجها البدريُّ بعضها مع بعض ليخرج بهذه الدُّرّة المضيئة عن مدينة دمشق، فهو كتاب تاريخي وجغرافي وعمراني وإداري وطبِّي، وهو كتاب تخصَّص بالتُّراث النَّباتي والزِّراعي، وهو من كتب فضائل دمشق القيِّمة، فهو بذلك الأقدم في موضوعه وتعدُّد تفصيلاته.

وهو أيضاً كتاب أدبي، إذ أكثر البدريُّ من إيراد الشِّعر فيه عن دمشق وقراها، ولعشرات الشُّعراء، وتفرَّد برواية أشعار لم أقف عليها في مصدر آخر، وقدَّم فيه شعره الرّائق اللَّطيف[٦٦].

وألَّف الإمام السَّخاوي (ت ٩٠٢هـ = ١٤٩٦م) كتابه (المفاخرة بين دمشق والقاهرة)، المذكور في (حرز الأماني)[٦٧].

ونصل إلى مَن عُدَّ من أهمِّ مَن ألَّف عن دمشق، وهو: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، جمال الدِّين الشَّهير بابن المبرِّد الصّالحي الدِّمشقي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ= ١٥٠٣م)، فله مؤلَّفات كثيرة في علوم متعدِّدة، تصل إلى أربعمئة مصنَّف، أبرز موضوعاتها الحديث الشَّريف والتَّاريخ، وفي التَّاريخ ترك مؤلَّفات مهمّة جداً عن تاريخ دمشق العمراني، منها:

(60) **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي:** زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي.
(61) **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص201. معجم المؤرِّخين الدِّمشقيين: المنجد، ص229.
(62) **تاريخ دمشق ومن بناها من المتقدمين:** ابن قاضي شهبة، مخطوطة.
(63) **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع:** شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ج1، ص21 - 24.
(64) **فضائل الشَّام:** محمد بن أحمد، شمس الدين السيوطي المنهاجي، ضمن مجموع رسائل في فضل الشَّام.
(65) **إتحاف الأخِصّا بفضائل المسجد الأقصى:** شمس الدين محمد بن أحمد بن علي المنهاجي الأسيوطي.
(66) انظر نزهة الأنام في محاسن الشَّام بدراستي وتحقيقي، وهو قيد الطِّباعة في دار ابن كثير.
(67) **كشف الظّنون:** حاجي خليفة، ج2، ص1758. **هديَّة العارفين:** الباباني البغدادي، ج2، ص221.

ـ كتابه (تاريخ الصَّالحيَّة)، الذي يعدُّ أوَّل كتاب يُؤلَّف عن هذه المدينة التي تأسَّست عام (٥٥٥هـ = ١١٦٠م)، وأصبحت فيما بعد مدينة حقيقيّة، وقد وصلنا من هذا الكتاب ملخَّصه الذي وضعه ابن كنَّان (ت ١١٥٣هـ = ١٧٤٠م)، وسمّاه (المروج السُّندسيَّة الفيحيّة في تلخيص تاريخ الصَّالحيَّة)(٦٨)، تضمَّن المواضيع العمرانيَّة والطوبوغرافيَّة الآتية: أصل الصَّالحيَّة ـ ما كان قبل وضعها من الآثار ـ وسبب تسميتها ـ قاسيون وفضله وما فيه من الآثار القديمة ولم سُمِّي بهذا الاسم ـ في نهر يزيد ـ حمَّاماتها ـ أسواقها وخاناتها ومجازرها ـ محلاَّتها وما فيها من الجواسق والقصور ـ مدارسها وخوانقها وزواياها وزياراتها ـ جوامعها ومساجدها ومآذنها ـ حدودها ـ مغائر الجبل ـ الجامع المظفَّري ـ الجامع السُّليماني ـ المدرسة العمريّة ـ بساتين الصّالحيّة.



صفحة الغلاف – نسخة المؤلِّف – نسخة عاطف أفندي – إستانبول، من مخطوط: نزهة الأنام في محاسن الشَّام لأبي التُّقى البدري الدِّمشقي

وتضمَّن كتاب (تاريخ الصَّالحيَّة) أوصافاً معماريَّة مهمَّة لمبان في الصَّالحيَّة، نقل بعضها ابن طولون تلميذُه في كتابه (القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصَّالحيَّة).

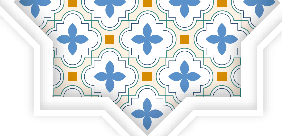
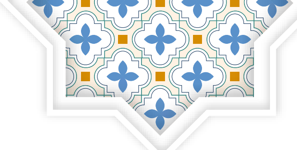
ـ وكتابه (ثمار المقاصد في ذكر المساجد): نقل فيه كلَّ ما ذكره ابن عساكر وابن شدَّاد من مساجد، وأضاف عليه كلَّ ما تجدَّد من المساجد في عهده، وأضاف ملاحظاته أحياناً على ما كتبه سابقاه(٦٩).

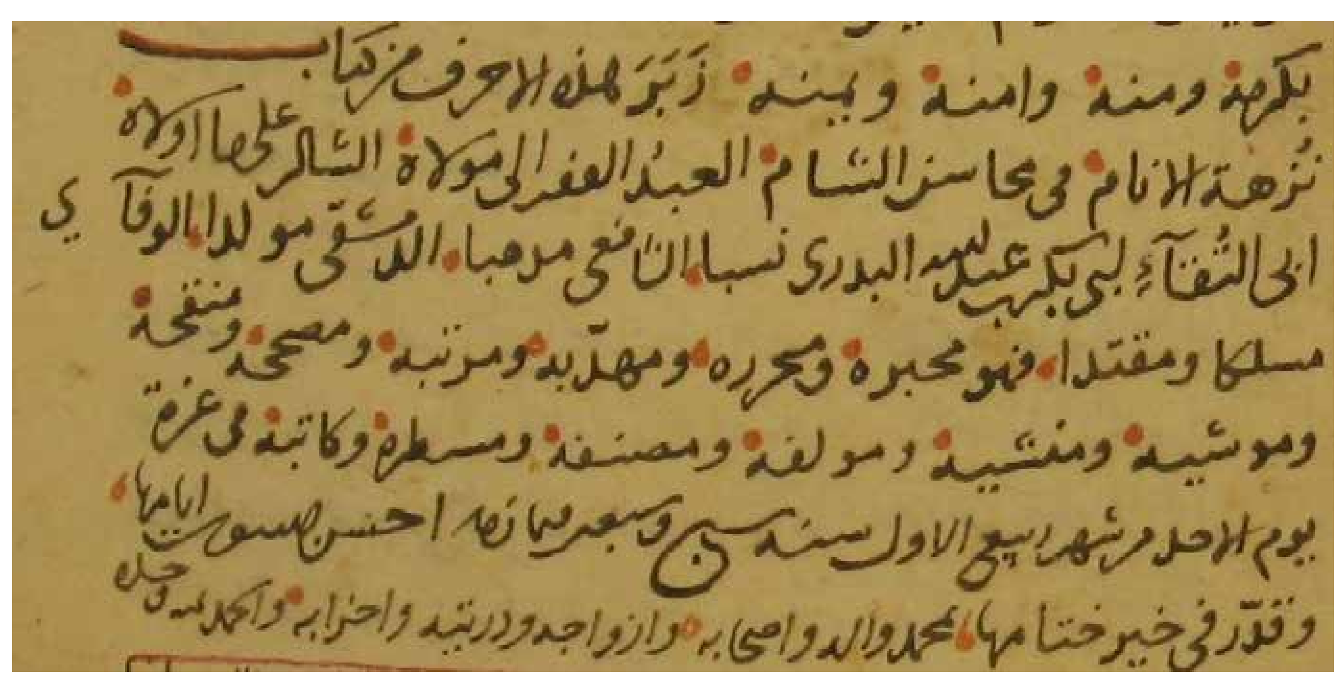
ـ وكتابه (الإعانات على معرفة الخانات): أحصى فيه خانات دمشق في عصره(٧٠).

(68) **المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية:** محمد بن عيسى بن كنَّان الصالحي.

(69) **ثمار المقاصد في ذكر المساجد:** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجماعيلي الحنبلي، وأضاف إليه أسعد طلس ذيلًا عن المساجد في زمنه مع وصف معماري مختصر، وألحق بالكتاب خريطة لمساجد دمشق.

(70) **الإعانات على معرفة الخانات:** يوسف بن حسن بن عبد الهادي، الجزء الثَّالث ص49 - 53.



صفحة الغلاف – نسخة المؤلِّف – نسخة عاطف أفندي – إستانبول، من مخطوط: نزهة الأنام في محاسن الشَّام لأبي التُّقى البدري الدِّمشقي

خطُّ البدريِّ كما أورده الزركلي في الأعلام، ج٢، ص٦٦، من خلال مخطوط: (تحفه الخلِّ الودود في معرفه الضوابط الحدود) لمحمد قدسي زاده

ـ كتاب (نزهة الرِّفاق في شرح حال الأسواق): أحصى فيه أسواق دمشق[٧١].

ـ كتاب (عدَّة الملمَّات في تعداد الحمَّامات)[٧٢].

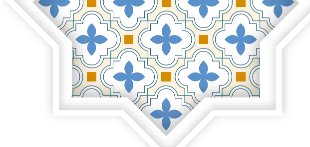
ـ كتاب (غدق الأفكار في ذكر الأنهار)[٧٣].

وأبي الإمام السُّيوطي (ت ٩١١هـ = ١٥٠٥م) إلَّا أن يكون له مشاركة في التَّأليف عن دمشق،

(71) **نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق:** غدق الأفكار في ذكر الأنهار: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، الجزء الثَّالث ص120 - 130.

(72) **عدة الملمات في تعداد الحمامات:** يوسف بن حسن بن عبد الهادي، وقد نشره المنجد أيضاً في كتابه **(خطط دمشق)**، عام 1949.

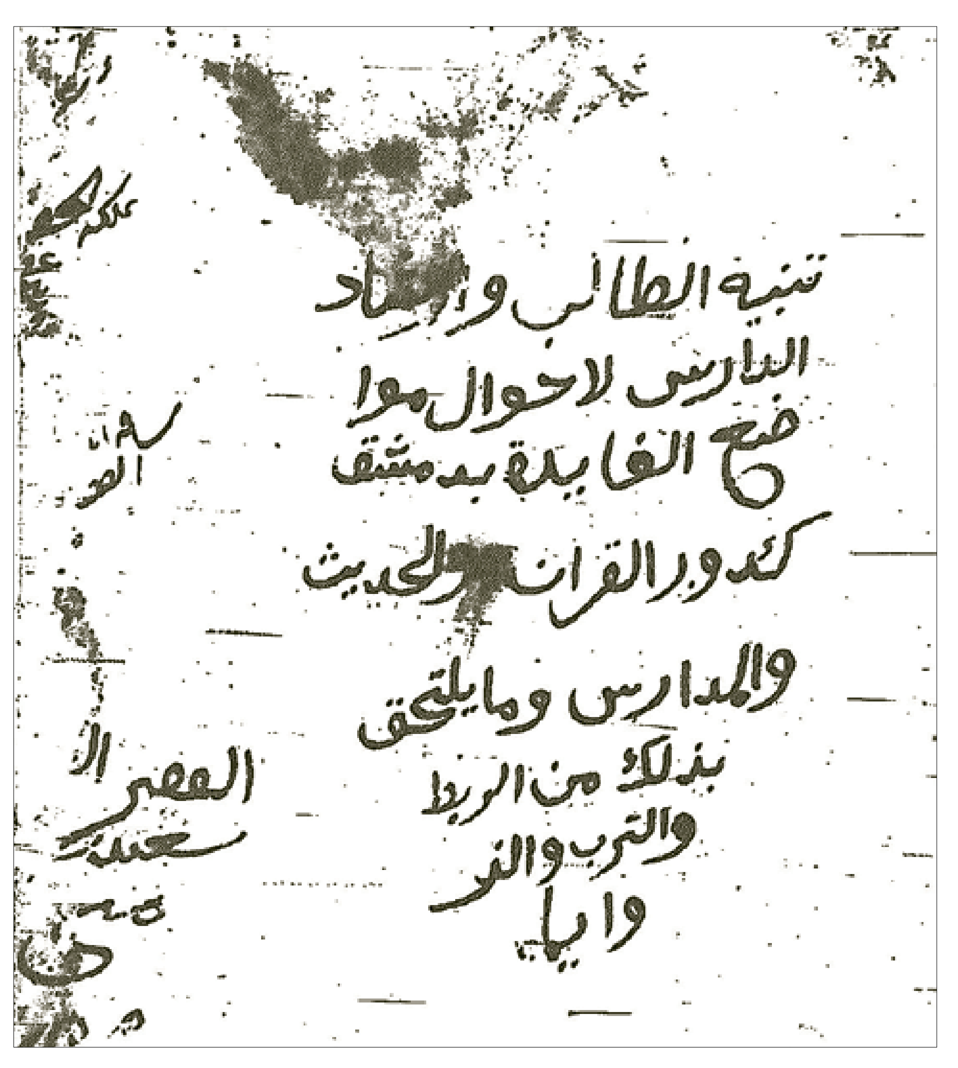
(73) **غدق الأفكار في ذكر الأنهار:** يوسف بن حسن بن عبد الهادي، ص196 - 206. وانظر عن ابن عبد الهادي وكتبه كتابه: **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، ص10 - 50. وكتابه: **الضوابط الكلِّيَّة والقواعد الفقهيَّة**، ص11 - 20. **القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصَّالحيَّة:** محمد بن علي بن طولون الصَّالح، ج1، ص15 - 16.



فخطَّ كتابه (تحفة المذاكر في المنتقى من تاريخ ابن عساكر)[74].

سابعاً ـ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري العاشر = السَّادس عشر الميلادي:

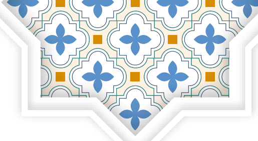
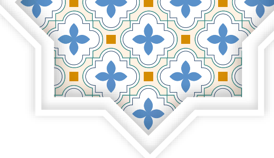
في هذا القرن ألَّف المؤرِّخ الدِّمشقي المرموق محيي الدِّين أبو المفاخر عبد القادر النُّعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧هـ = ١٤٢٠م) كتابَه القيِّم (الدارس في تاريخ المدارس)، تحدث فيه عن مساجد دمشق ومدارسها عبر العصور وحتَّى عصره، ويكاد يكون الكتابَ الوحيدَ الذي تفرَّد بذلك وبهذا التَّخصُّص، وظهر من خلاله أنَّ أوَّل مكان منفصل عن المسجد كانت تُلقى فيه الدُّروس، ويُخصَّص له المدرِّسون والأوقاف هو «خانقاه دويرة حمد» التي تأسَّست في حدود سنة (٤٠٠هـ = ١٠٠٩م)، أمَّا المدرسة الثانية فهي «دار القرآن الرشائية» التي تأسَّست في أوائل القرن الخامس الهجري تقريباً = الحادي عشر الميلادي، والمدرسة الثالثة هي «المدرسة الصَّادرية» التي تعدُّ أوَّل مدرسة فقهيّة حنفيّة في دمشق، ولكن ليس أقدم مدرسة فيها، لأنها بُنيت سنة (٤٩١هـ = ١٠٩٧م).


تنبيه الطالب وإرشاد
الدارس لاحوال موا
ضع الفايدة بدمشق
كدور القران والحديث
والمدارس ومايلحق
بذلك من الربط
والترب والز
وايا

غلاف كتاب: تنبيه الطالب (الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي

ونظرة في كتاب النُّعيمي هذا تُبيِّن أنَّ دمشق قد تفرَّدت في ذلك الزَّمن بعدد المدارس الذي زاد على مئة وخمسين مدرسة، وفاق بذلك مدارس بغداد والقاهرة وبيت المقدس وجميع مدن العالم الإسلامي، وتفرَّدت دمشق بمجد آخر من بين بغداد والقاهرة وبيت المقدس، إذ كانت أسبق هذه المدن الثَّلاث إلى تأسيس مدارس خاصّة بالعلوم، أي الأمكنة التي تُتَّخذ لتلقِّي علم واحد على أيدي شيوخ موقوفين عليه، متميِّزة بذلك عن حلقات المساجد.

[74] **حسن المحاضرة**: السيوطي، ج1، ص294.

دمشق (وتبدو قبة المدرسة لظاهرية) في صورة فوتوغرافية لبونفيس سنة ١٢٨٥ هـ = ١٨٦٨م

وقد تبيَّن لي أن الكتاب في الأصل للنُّعيمي، وإنَّما قام أحدٌ ما بتحريره، وبعد دراسات ومقارنات وترجمات، توصَّلتُ إلى أنَّ محرِّر الكتاب هو يحيى بن عبد القادر النُّعيمي وولده أحمد[٧٥].

وظهر في هذا القرن المؤرِّخ العملاق محمَّد بن علي بن أحمد، شمس الدِّين بن طولون الصّالحي الدِّمشقي (ت ٩٥٣هـ = ١٥٤٦م)، دُفن في الصّالحيّة، وهو واحد من كبار مؤرِّخي دمشق، ولعلَّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّه ذروة من الذُّرا التي بلغها التَّاريخ الإسلامي. ترك مؤلَّفات كثيرة بلغت ٧٤٦ كتاباً ورسالة تناولت مواضيع متنوِّعة، وتتطرَّق لأبواب فيها كثير من الطَّرافة والتَّجديد.

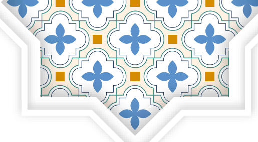
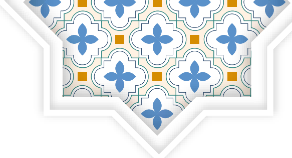
وُلد بصالحيَّة دمشق سنة (٨٨٠هـ = ١٤٧٥م)، وتعلَّم وأخذ وتفقَّه على العلماء، ودرَّس في عدَّة مدارس، وكانت أوقاته معمورة بالتَّدريس والإفادة والتَّأليف، فعلَّق ستِّين جزءاً سمّاها بالتَّعليقات، وله كتب كثيرة[٧٦].

وله فيما يخصُّ موضوعنا:

ـ (القلائد الجوهريَّة في تاريخ الصَّالحيَّة): أراد أن يُعرِّفنا فيه بتاريخ الصَّالحيَّة، ومَن مرَّ بها من أشخاص، وما ألمَّ بها من أحداث، من خلال عرضه لأماكنها وأوابدها، وضمن إطارها الحقيقي.

[75] انظر تفاصيل ذلك في كتاب **الدَّارس في تاريخ المدارس:** عبد القادر النُّعيمي، (النَّهار)، قسم الدِّراسة، ص5 - 32.

[76] انظر عنه الفلك المشحون في أحوال محمَّد بن طولون. **الكواكب السَّائرة بأعيان المئة العاشرة:** نجم الدين محمد بن محمد الغزي، ج2، ص52 - 54. **معجم المؤرِّخين الدِّمشقيين:** المنجد، ص290. **الأعلام:** الزِّركلي، ج6، ص291.



صورة نادرة لدمشق والأموي عام ١٢٨٧ هـ = ١٨٧٠م أي قبل حريق ١٣١١ هـ = ١٨٩٣م، من تصوير الفرنسي بونفيس

تناول فيه صالحيَّة دمشق، أصلها - سبب تسميتها - قاسيون وفضله - جوامع الصَّالحيَّة - دُور القرآن - دُور الحديث - المدارس - الخوانق - الزَّوايا - التُّرب - البيمارستانات - المساجد - الرِّباطات - المآذن والقباب - الأنهار والآبار - الحماميم - المسالخ - محاسن الصّالحيّة - ما قيل في مدحها - المزارات والتُّرب العامّة - وغير ذلك.

أما مَنهجه في هذا الكتاب فكان يقوم على ذكر البناء وموقعه مع ترجمة لبانيه ومَن درَّس به إذا كان مدرسة، ثم يصفه في أغلب الأحيان.

ويدلُّ هذا الكتاب بمضامينه، وبما فيه من الأوصاف المعماريّة الدَّقيقة لأبنية الصَّالحيَّة، على مدى التَّقدُّم الذي بلغه التَّاريخ العمراني لدمشق بشكل خاصٍّ، والتَّاريخ الإسلامي بشكل عام بمواضيعه وطرائقه[٧٧].

_ كتاب (بهجة الأنام في فضائل الشَّام)[٧٨].

_ مختصر كتاب (الدّارس) للنُّعيمي.

_ له رسائل عن عمران دمشق وطوبوغرافيَّتها، وهي: (الشَّمعة المضيَّة في أخبار القلعة الدِّمشقيَّة)[٧٩]، و(المعزَّة فيما قيل في المزَّة)[٨٠]، و(ضرب الحوطة على جميع الغوطة)[٨١]، و(قرَّة العيون في أخبار

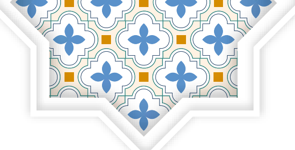
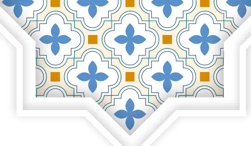
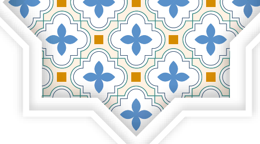
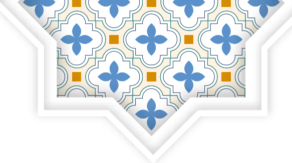
(77) حقَّق هذا الكتاب ونشره الشَّيخ محمَّد أحمد دهمان، وصدر القسم الأول منه عام 1949 مع خريطة، من مطبوعات مكتب الدِّراسات الإسلاميَّة بدمشق، والقسم الثاني عام 1956. ثم أعاد مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق نشره بقسميه مع خريطة عام 1980.

(78) **هديَّة العارفين:** حاجي خليفة، ج2، ص240.

(79) **رسالة المعزَّة فيما قيل في المزَّة:** ابن طولون الصالحي.

(80) **رسالة الشمعة المضيَّة في أخبار القلعة الدمشقية:** ابن طولون الصالحي.

(81) نشرها حبيب الزَّيَّات في الخزانة الشَّرقيَّة، ج1، ثم أعاد نشرها أسعد طلس في مجلَّة المجمع العلمي بدمشق مجلَّد 21، ص149، ص236. ومخطوط هذا الكتاب مأخوذ عن النُّسخة الفوتوغرافيَّة المحفوظة بمكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق ورقمها (2)، وهي منقولة عن مكتبة جامعة ليدن Bibliotheque de runiversite de Leyde. II p. 10 n814.



المالكي (النيربين) مطلع القرن الماضي، وتظهر بساتين المزة

باب جيرون)[٨٢].

ـ وله نصٌ عن حارات دمشق من كتابه (ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر)[٨٣]، ونصٌ عن وصف الرَّبوة ومتنزَّهات دمشق في كتابه (ذخائر القصر)[٨٤].

ـ ولابن طولون (جزء في دُور الحديث بدمشق)، وهو في حكم المفقود[٨٥].

وفي هذا القرن ظهر المؤرِّخ الكبير عبد الباسط بن موسى العلموي الدِّمشقي (ت ٩٨١هـ = ١٥٧٣م)، وهو الذي اختصر كتاب (تنبيه الطالب)، وزاد فيه وأورد ملاحظاته وتعليقاته عليه، وجعل له ذيلاً ذكر فيه ما استُحدث من المساجد بدمشق بعد النُّعيمي.

ثم عقَّب على هذا الكتاب مؤرِّخان آخران، هما أكمل بن مفلح (ت ١٠١١هـ = ١٦٠٢م)، ومحمود بن محمَّد العدوي (ت ١٠٣٢هـ = ١٦٢٢م)[٨٦].

ومنهم ابن أمير شاه عبد الغنى بن أمير شاه بن محمود البولوي الرُّومي الحنفي (ت ٩٩٥هـ = ١٥٨٦م)، مؤلِّف كتاب (فضائل الشَّام)[٨٧].

ومنهم أيضاً شمس الدِّين، أبو العباس أحمد بن محمَّد البصراوي، المعروف بابن الإمام (ت

(82) **رسالة قرَّة العيون في أخبار باب جيرون:** ابن طولون الصالحي.

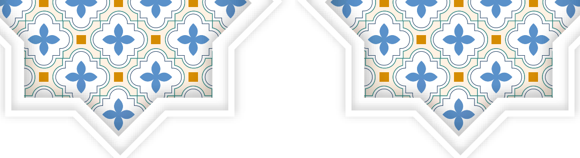
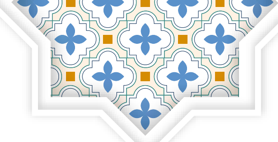
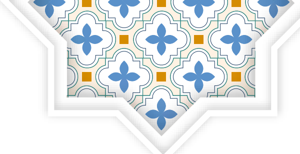
(83) **ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر:** ابن طولون الصالحي، مخطوط، ثم نشره محبُّ الدِّين الخطيب في مجلَّة الرَّابطة الأدبيَّة بدمشق، ج1، ثم أعاد نشره حبيب الزَّيَّات في الخزانة الشَّرقيَّة، الجزء الثَّاني، ص21.

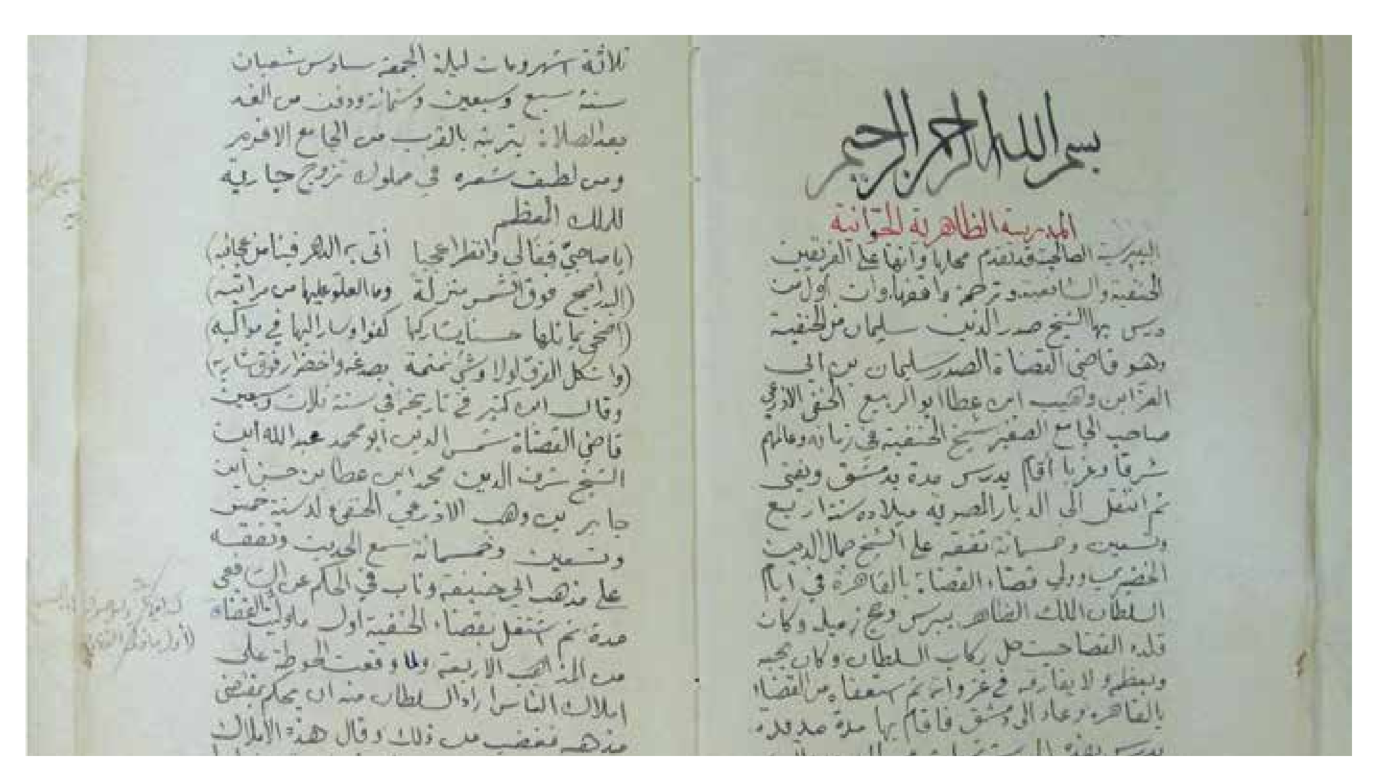
(84) نشره أحمد تيمور باشا في مجلَّة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلَّد 2، عام 1922.

(85) انظر عمَّا سبق أيضاً **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص203، 204.

(86) نشر هذا الكتاب صلاح الدِّين المنجِّد عام 1947م مع خريطة، ضمن مطبوعات مديريَّة الآثار العامَّة بدمشق، دون أن تُستكمل طباعة فهارسه. انظر **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص204.

(87) **هديَّة العارفين:** حاجي خليفة، ج1، ص590.



بسم الله الرحمن الرحيم
المدرسة الظاهرية الجوانية
البيبرسية الصالحية [illegible] وأنها على الفريقين
الحنفية والشافعية وترجمة واقفها [illegible] أول من
درس بها الشيخ صدر الدين سليمان من الحنفية
وهو قاضي القضاة الصدر سليمان بن أبي
العز ابن وهيب ابن عطا أبو الربيع الحنفي الأذرعي
صاحب الجامع الصغير شيخ الحنفية في زمانه وعالمهم
شرقا وغربا أقام يدرس مدة بدمشق ويفتي
ثم انتقل إلى الديار المصرية ميلاده سنة أربع
وتسعين وخمسمائة تفقه على الشيخ جمال الدين
الحصيري وولي قضاء القضاة بالقاهرة في أيام
السلطان الملك الظاهر بيبرس وحج زميله وكان
قاضي القضاة [illegible] ركاب السلطان وكان يحبه
ويعظمه لا يفارقه في غزواته ثم استعفى من القضاء
بالقاهرة وعاد إلى دمشق فأقام بها مدة [illegible]

ثلاثة أشهر ومات ليلة الجمعة سادس شعبان
سنة سبع وسبعين وستمائة ودفن من الغد
بعد الصلاة بتربته بالقرب من الجامع الأفرم
ومن لطيف شعره في مملوك تزوج جارية
للملك المعظم
(يا صاحبي قفا لي وانظرا عجبا ... أتى به الدهر فينا من عجائبه)
(البدر أصبح فوق الشمس منزلة ... وما العلو عليها من مراتبه)
(أضحى يماثلها حسنا وشاركها ... كفوا وسار إليها في مواكبه)
(وأشكل الفرق لولا وشي نمنمة ... بصدغه واخضرار فوق شاربه)
وقال ابن كثير في تاريخه في سنة ثلاث وسبعين
قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله ابن
الشيخ شرف الدين محمد ابن عطا بن حسن ابن
جابر بن وهب الأذرعي الحنفي ولد سنة خمس
وتسعين وخمسمائة سمع الحديث وتفقه
على مذهب أبي حنيفة وناب في الحكم عن [illegible]
مدة ثم استقل بقضاء الحنفية أول ما ولي القضاء
من المذاهب الأربعة [illegible] وقعت الحوطة على
أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم [illegible]
مذهبه فتغضب من ذلك وقال هذه الأملاك

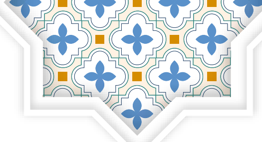
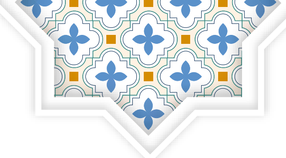
تفاصيل المدرسة الظاهرية في كتاب: الدارس في تاريخ المدارس

١٠١٥هـ = ١٦٠٦م)، الذي ألَّف كتاب (تحفة الأنام في فضائل الشَّام)[٨٨].

ثامناً _ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري الثَّاني عشر = الثَّامن عشر الميلادي:

أهم مؤرِّخ عاش في هذا القرن هو محمَّد بن عيسى بن كنَّان الصَّالحي (ت ١١٥٣هـ = ١٧٤٠م)، وهو صاحب كتاب (المروج السُّندسيَّة الفيحيَّة في تلخيص تاريخ الصَّالحيَّة)، لخَّص فيه كتاب (تاريخ الصَّالحيَّة) لابن عبد الهادي الذي فُقد ولم يصلنا، وكان ابن كنَّان قد عثر في زمنه على نسخة مخرومة منه، وهنا يقول دهمان في مقدِّمة هذا الكتاب: «فكان يُلخِّص حسب الإمكان، وهذا أدَّى إلى نقص بعض الأبواب وظهور عبارات غامضة وغير مفهومة لم يستطع ابن كنّان قراءتها»، وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ أهميَّة هذا الكتاب كبيرة، فابن كنَّان نقل لنا ملخَّصاً عن كتاب ابن عبد الهادي المهم والمفقود (تاريخ الصَّالحيَّة)، الذي أفاد منه تلميذُه ابن طولون كثيراً في تأليف كتابه (القلائد الجوهريّة في تاريخ الصَّالحيَّة)، ونشره الشَّيخ محمَّد أحمد دهمان عن نسخة لم يجد غيرها، قال عنها: «إنها مخرومة وناقصة عدّة فصول»، وكتاب ابن كنَّان هذا فيه بعضُ من تلك الفصول النَّاقصة من القلائد، والكتابان يتكاملان لإعطاء صورة كاملة أو شبه كاملة عن الصَّالحيَّة، ويكتسب الكتاب أهميَّة أخرى لكون ابن كنَّان قد أضاف إلى هذا الكتاب ملاحظاته مبيِّناً أحوال الأبنية والمواضع التي ذكرها ابن عبد الهادي في وقته[٨٩].

[88] **تحفة الأنام في فضائل الشَّام:** أحمد بن محمَّد البصراوي، مخطوط. وانظر **كشف الظُّنون**، ج1، ص363.
[89] وهذا الكتاب نشره الشَّيخ محمَّد أحمد دهمان عام 1947 مع خريطة للصَّالحيَّة، ضمن مطبوعات مديريَّة الآثار القديمة. ولابن كنَّان أيضاً كتاب عن تاريخ معاهد العلم بدمشق، مخطوط في برلين. وله أيضاً كتاب (المواكب الإسلاميَّة في الممالك والمحاسن الشَّاميَّة)، الذي يتضمَّن فصلاً مطوَّلاً لذكر محاسن دمشق الدِّينيَّة والعمرانيَّة والطبيعيَّة، نيل على تحقيقه درجة ماجستير من قسم التَّاريخ بكليَّة الآداب ـ جامعة دمشق. انظر مؤرِّخو العمران والأوابد، ص204، 205.



صورة نادرة للجامع الأموي من الخارج قبل حريق ١٣١١ هـ = ١٨٩٣م

ومن مؤرِّخي دمشق في هذا القرن عبد الله بن عمر بن محمَّد الطَّرابلسي ثم الدِّمشقي الحنفي المعروف بالأفيوني (ت ١١٥٤هـ = ١٧٤١م)، صاحب كتاب (الزَّهر البسّام في فضائل الشَّام)(٩٠).

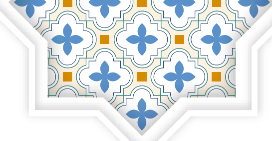
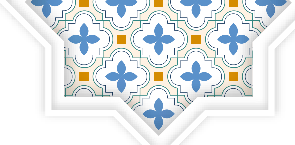
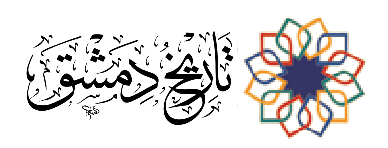
ومنهم أحمد بن علي بن عمر بن صالح المنيني الدِّمشقي الحنفي (ت ١١٧٢هـ = ١٧٥٨م) ومؤلِّف كتاب (الإعلام بفضائل الشَّام وما ورد فيها عن خاتم الرُّسل الكرام)، وتحدَّث فيه عن المناسبة بتسمية الشَّام وتخصيصها من بين سائر الأمصار، وما ورد فيها من الأخبار عن الصَّحابة والتّابعين والأخيار، وجامعها وفضائله، ومَن دُفن فيها(٩١).

تاسعاً _ التَّأريخ لدمشق في القرن الهجري الرَّابع عشر = العشرين الميلادي:

عاش في هذا القرن المؤرِّخ المرموق الدَّقيق عبد القادر بن أحمد بن بدران الدُّوماني الدِّمشقي الحنبلي (ت ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م)، الذي فكَّر بكتابة تاريخ دمشق، فكتب كتاب (منادمة الأطلال ومسامرة الخيال)، فرأى أن يجعل السِّفر الأوَّل من أسفاره الثَّلاثة لذكر المعاهد والآثار، ولم يُتَح له على ما يبدو إنجاز غير هذا السِّفر، وقسَّمه إلى أبواب: أوَّلها لمدارس القرآن الكريم، وثانيها لمدارس الحديث، وثالثها للمدارس التي أُسِّست للعلوم الفقهيّة والأدبيّة، ورابعها لمدارس الطِّبِّ والحكمة، وخامسها لزوايا العبادة وخوانق الصُّوفيَّة، وسادسها للآثار التي ظهرت في عصره، وسابعها للمساجد، وختم الكتاب ببيان ما كان في دمشق من المتنزَّهات الشَّهيرة، ويعدُّ هذا الكتاب من أفضل

(90) **هديَّة العارفين:** حاجي خليفة، ج1، ص481.

(91) مخطوط باريس، رقم 6168. **إيضاح المكنون في الذَّيل على كشف الظُّنون:** إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، ج3، ص103. **هديَّة العارفين:** حاجي خليفة، ج1، ص175.

الكتب التي أُلِّفت عن معاهد دمشق[٩٢].

ولابن بدران أيضاً كتاب آخر هو (منتخب النَّفائس في تهذيب الدّارس)، هذَّب فيه كتاب الدَّارس للنُّعيمي، وهو مخطوط لم يُنشر بعد.

وشارك ابنُ بدران في وضع وثيقة رسميَّة في عدد مدارس دمشق وأحوالها سنة (١٣٢٨هـ = ١٩١٠م)[٩٣].

عاشراً - نماذج من تأريخ المستشرقين عن دمشق:

لا بدَّ أن نردف هذا البحث بجهود بعض المستشرقين كي تكتمل الصُّورة، إذ قام عدد من المستشرقين بدراسات مهمَّة وقيِّمة عن دمشق وعمرانها، ومنهم:

المستشرق النَّمساوي ألفريد فون كريمر Alfred von Kremer (ت ١٣٠٦هـ = ١٨٨٩م)، زار دمشق بين (١٢٦٦ ـ ١٢٦٨هـ = ١٨٤٩ ـ ١٨٥١م)، وألَّف كتابَه (طوبوغرافيَّة دمشق)، تناول في الجزء الأوَّل منه وصف دمشق ومناخها وموقعها وأنهارها ونظام توزيع المياه فيها، وأقسام المدينة، وأبراجها، وسورها، ومبانيها الخاصَّة وبيوتها، وطابعها ومميِّزاتها، وفنَّ العمارة العربيّة فيها، ووصف جامع بني أميّة. وفي الجزء الثّاني وصف أسواقها وأحياءها ومدارسها وأرباضها والأماكن الواقعة داخل المدينة وخارجها.

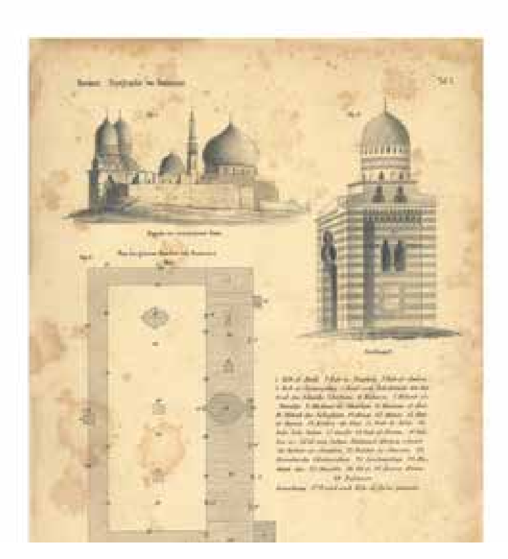

TOPOGRAPHIE VON DAMASCUS.

IM AUFTRAGE DER

KAISERLICHEN AKADEMIE DER WISSENSCHAFTEN

A. v. KREMER.

WIEN.



غلاف كتاب (طوبوغرافيَّة دمشق)، للمستشرق النَّمساوي ألفريد فون كريمر الذي زار دمشق بين (١٢٦٦ – ١٢٦٨هـ = ١٨٤٩ – ١٨٥١م).

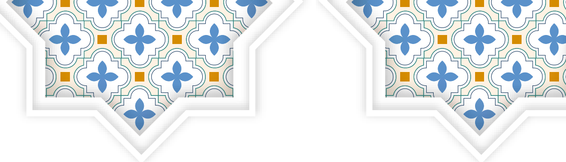
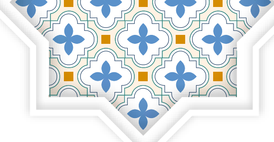
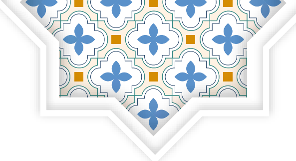
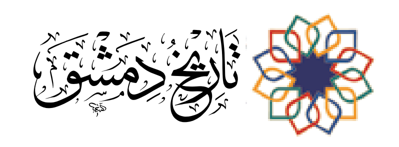
وقد اهتمَّ كريمر بالنُّقوش الكتابيَّة التي رآها في الأبنية، ونقل بعضها، ووضع في كتابه هذا مخطَّطين بسيطين لدمشق حدَّد عليهما ٥٧ آبدة[٩٤].

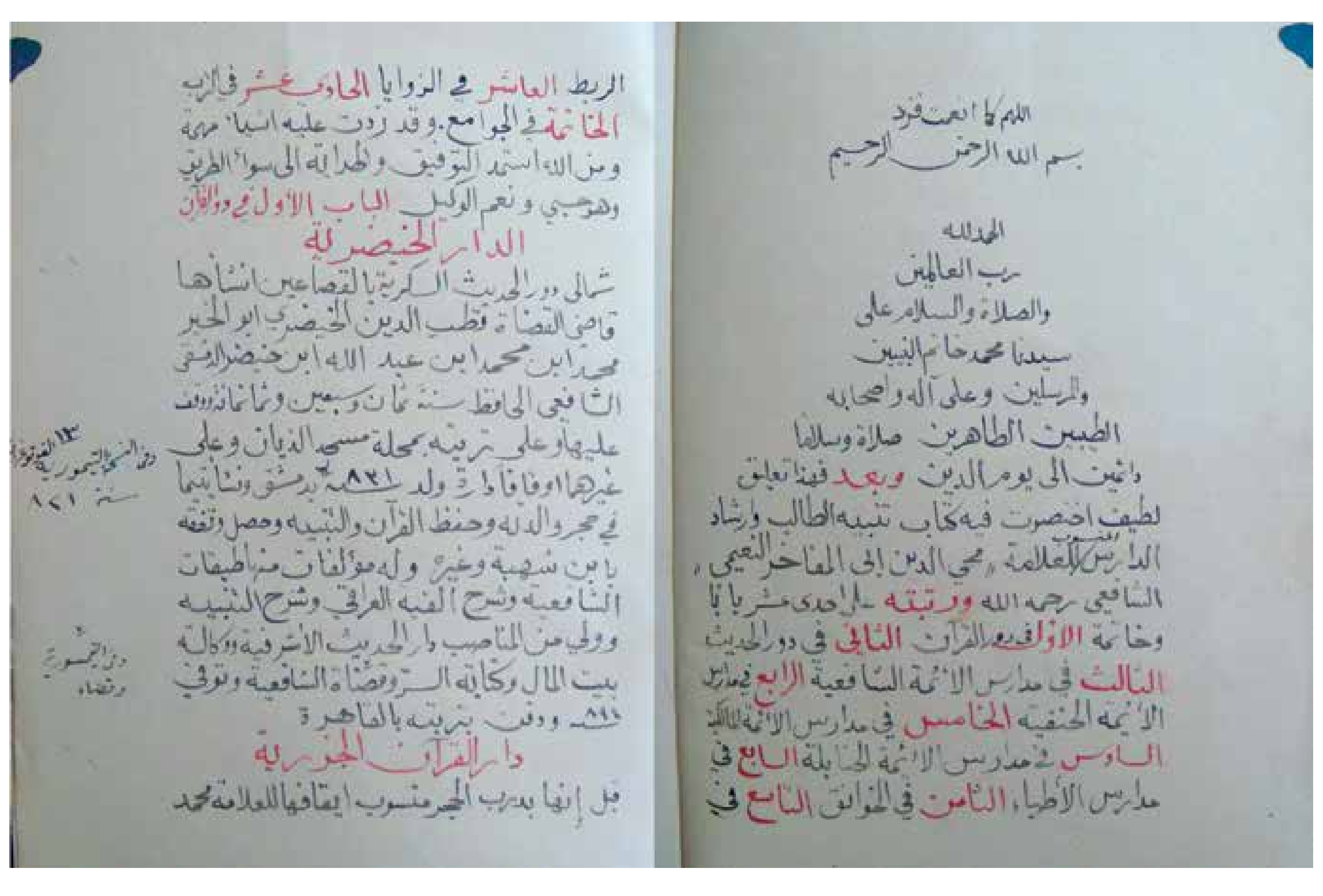
---

(92) **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال:** عبد القادر بن أحمد، ابن بدران الدُّوماني الدِّمشقي.

(93) **وثيقة رسمية في عدد مدارس دمشق وحالها:** عبد القادر بن أحمد، ابن بدران الدوماني الدمشقي الحنبلي، مجلَّة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلَّد 48، 1973، ص309 - 322. وانظر عن ابن بدران وكتبه كتابه (منادمة الأطلال ومسامرة الخيال)، ص3، ومقدِّمة النَّاشر، ص (و)، وانظر **ثمار المقاصد في ذكر المساجد:** شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجماعيلي الحنبلي، ص54. **مؤرِّخو العمران والأوابد:** معاذ، ص207.

(94) نُشر هذا الكتاب في جزأين في فيينا، الأول عام 1854، والثاني عام 1855 .Topographie von Damaskus, 2 tomes



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله
رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد خاتم النبيين
والمرسلين وعلى آله وأصحابه
الطيبين الطاهرين صلاة وسلاما
دائمين الى يوم الدين وبعد فهذا تعليق
لطيف اختصرت فيه كتاب تنبيه الطالب وإرشاد
الدارس للعلامة محي الدين أبي المفاخر النعيمي
الشافعي رحمه الله ورتبته على إحدى عشر بابا
وخاتمة الأول في دور القرآن الثاني في دور الحديث
الثالث في مدارس الأئمة الشافعية الرابع في مدارس
الأئمة الحنفية الخامس في مدارس الأئمة المالكية
السادس في مدارس الأئمة الحنابلة السابع في
مدارس الأطباء الثامن في الخوانق التاسع في

الربط العاشر في الزوايا الحادي عشر في الترب
الخاتمة في الجوامع. وقد زدت عليه أشياء مهمة
ومن الله أستمد التوفيق والهداية الى سواء الطريق
وهو حسبي ونعم الوكيل الباب الأول في دور القرآن
الدار الخيضرية
شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين أنشأها
قاضي القضاة قطب الدين الخيضري أبو الخير
محمد ابن محمد ابن عبد الله ابن خيضر الدمشقي
الحافظ سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ووقف
عليها وعلى تربته بمحلة مسجد الذبان وعلى
غيرها أوقافا دارة ولد ٨٢١ بدمشق ونشأ يتيما
في حجر والده وحفظ القرآن والتنبيه وحصل وتفقه
بابن شهبة وغيره وله مؤلفات منها طبقات
الشافعية وشرح ألفية العراقي وشرح التنبيه
وولي من المناصب دار الحديث الأشرفية ووكالة
بيت المال وكتابة السر وقضاة الشافعية وتوفي
٨٩٤ ودفن بتربته بالقاهرة
دار القرآن الجزرية
قيل إنها بدرب الحجر منسوب إنشاؤها للعلامة محمد

مختصر كتاب: الدارس في تاريخ المدارس للعلموي

ومن هؤلاء المستشرقين: هنري سوفير Henri Sauaire (ت ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م)، قنصل فرنسا الذي أمضى عشرين عاماً في المشرق (١٢٧٤ - ١٢٩٣هـ = ١٨٥٧ - ١٨٧٦م)، ومن أهمّ ما أنجز من الأعمال ترجمته الفرنسيَّة لكتاب (مختصر تنبيه الطّالب) المشهور باسم (مختصر الدّارس) للعلموي، وأضاف إليه ملاحظات وزيادات غنيَّة، وأحياناً نصوصاً لنقوش كتابيَّة، وظهر هذا العمل تباعاً في مقالات في المجلَّة الآسيويَّة التي تصدر في باريس، وذلك بين عامي ١٣١٢ - ١٣١٤هـ = ١٨٩٤ - ١٨٩٦ تحت عنوان (وصف دمشق)[٩٥].

ومنهم عالم الآثار السُّويسري ماكس فان برشم - Max van Berchem (ت ١٣٤٠هـ = ١٩٢١م)، الذي كان له فضل كبير في دراسة النُّقوش الكتابيَّة في مدن إسلاميّة كثيرة، منها دمشق، وترك برشم أعمالاً متعدِّدة، وأرشيفاً ضخماً، وكتب عدة أبحاث تتعلَّق بدمشق، منها:

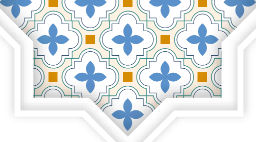
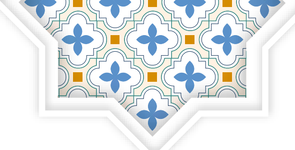
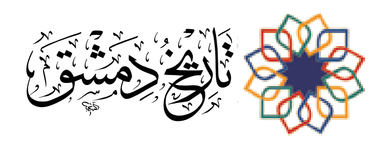
بحثه (ملاحظات أثريّة حول الجامع الأموي)، كتَبَه عام (١٣١٢هـ = ١٨٩٤م)، أي بعد حريق الجامع عام (١٣١١هـ = ١٨٩٣)، وقبل إعادة بنائه[٩٦].

انظر **مؤرِّخو العمران والأوابد**: معاذ، ص205.

(95) **In Description de Damas**.

انظر **مؤرِّخو العمران والأوابد**: معاذ، ص205، 206.

(96) نُشر هذا البحث مع ست صور للجامع قبل الحريق وبعده في مجلَّة الدِّراسات الشرقيَّة (B.E.O) عام 1937 - 1938.
Notes archéologiques sur la mosquée des Omayyades, tomes. VII- VIII. P. 39.
Publique et universitaire de Genéve.

ومنها بحثه (الكتابات الأتابكيَّة بدمشق)[٩٧].

ومنها بحثه: (نقوش كتابيَّة عربيَّة في سورية)، تناول فيه بالدِّراسة كتابات من دمشق ذات أهميّة كبيرة، بالإضافة إلى كتابات من مدن سوريَّة أخرى[٩٨].

ومن هؤلاء المستشرقين ولتسنغر وواتسنغر، ففي عام (١٩١٦ ـ ١٩١٧) قامت البعثة الألمانيَّة التُّركيَّة برئاسة تيودور فيغند بإجراء مسح للأبنيَّة الأثريَّة بدمشق، ونشرَ نتائج هذه الأعمال كارل ولتسنغر ـ Carl Wultzinger (ت ١٣٦٨هـ = ١٩٤٨) في كتاب عنوانه (دمشق)، جاء في جزأين، الأوَّل عن المدينة القديمة قبل الإسلام، والثَّاني عن دمشق المدينة الإسلاميَّة، ونُشر في برلين ولايبزيغ عام ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م. وهذا الكتاب فيه مسح شامل للأبنية الأثريَّة في دمشق، ويعدُ أحد المصادر الأساسيَّة لدراسة الآثار وتاريخ العمارة والطوبوغرافية التاريخيَّة بدمشق، وفيه صور ومخطَّطات ومساقط ورسوم وأشكال للأبنية.

والخريطة التي فيه لدمشق تعدُ من أهم الخرائط الأثريَّة التي وُضعت لهذه المدينة[٩٩].

ومن هؤلاء المستشرقين عالم الآثار والمعمار الألماني أرنست هرتسفلد Ernst Emil Herzfeld (ت ١٣٦٨هـ = ١٩٤٨م)، الذي زار دمشقَ بين عامي (١٣٢٦ ـ ١٣٤٩هـ = ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠) عدَّةَ زيارات، أجرى خلالها دراسات عن العمارة الإسلاميَّة فيها، ولاسيَّما تلك التي تعود لعصر الحروب الفرنجيَّة الصَّليبيَّة، ونُشرت دراساته هذه في مجلّة الفنِّ الإسلامي، التي يُصدرها معهد الفنون الجميلة في جامعة ميتشغان بالولايات المتحدة الأمريكيّة، (واسمها حالياً مجلّة الفنِّ الشَّرقي)، وذلك في أربعة أعداد من هذه المجلّة تحت عنوان: (دمشق: دراسات في العمارة)[١٠٠].

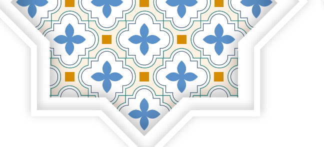
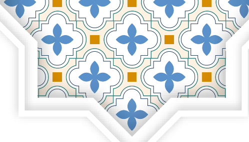
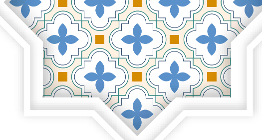
وهناك عدد كبير من المستشرقين، من غير المذكورين، ألَّفوا كتباً وبحوثاً في تاريخ دمشق وجغرافيتها وآثارها، لا تسمح طبيعة البحث باستقصاء جهودهم وعرضها.

(97) نشر في باريس عام 1909:
Epigraphie des atabeks de Damas.

(98) نُشر في القاهرة عام 1897:
Inscriptions arabes de Syrie, Extrait de l'Institut Egyptien .
انظر **مؤرِّخو العمران والأوابد**: معاذ، ص206.

(99) تُرجم الجزء الثَّاني إلى العربيَّة من هذا الكتاب، والمسمَّى (دمشق المدينة الإسلاميَّة)، على يد قاسم طوير، وعلَّق عليه عبد القادر الرِّيحاوي، وصدر عام 1984 تحت عنوان **(الآثار الإسلاميَّة في مدينة دمشق).**
Damaskus; K.Wulzinger und C.Watzinger.
انظر **مؤرِّخو العمران والأوابد**: معاذ، ص206، 207.

(100) في العدد 9، عام 1942، ص1 - 53، والعدد 10 عام 1943، ص13 - 70، والعددان 11 - 12 عام 1946، ص1 - 71، والعددان 13 - 14، عام 1948، ص118 - 138. انظر **مؤرِّخو العمران والأوابد**: معاذ، ص207، 208.


ـ الخاتمة:

إن تراثنا الماضي ولو مضى عليه الزَّمان، فإننا نستطيع أن نستنهضه، ونستفيد منه، ونقتدي به، فالله عز وجل يقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾[١٠١]، ففي تراثنا (الضّائع أو المُضيَّع) كنوز إن كانت تُحصى فإنَّها لا تُحصر.

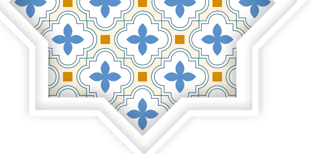
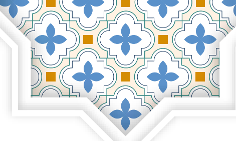
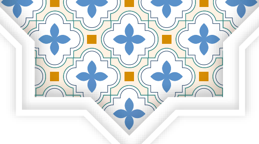
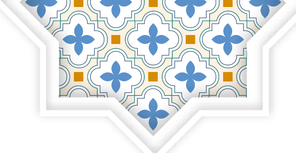
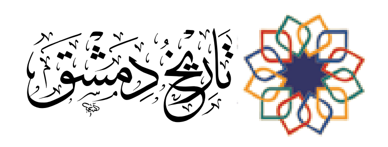
وإن تاريخ دمشق ينادي أهله ليَهُزُّوا إليهم بجذوع نوادره، ويبحثوا عنه في أوعية التُّراث ومناجمه؛ في الفهارس والوثائق والمخطوطات والأبحاث وفرائد المؤلَّفات.

ويبرز هنا قول المؤرِّخ الشَّيخ محمد أحمد دهمان عام ١٩٤٧م: «درهم عمل خير من قنطار كلام»[١٠٢]، وهو قول يدعونا إلى نبذ الأقوال وبدء الأفعال والتَّشمير عن السَّواعد، في سبيل دراسات حقيقيّة توثيقيّة عن دمشق.

فهذه المدينة ظاهرة نادرة في التَّاريخ، وليس لأيِّ مدينة في العالم أن تشابهها أو تنافسها في صفاتها الفريدة، فنحن أولى أن نتغنَّى بها ـ بالتَّأريخ لها ـ من أولئك الغربيِّين الكُثر الذين انبهروا بكلِّ جوانبها، وأختم بقول واحد منهم فقط، وهو الشّاعر الفرنسي الشَّهير ألفونس لاماراتين ـ Alphonse de Lamartine (ت ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م) الذي زار دمشق ووصف رحلته إليها، وممَّا قاله: «بلغتُ دمشق فإذا بي أرى منظراً مدهشاً لا حدود له، مدينة محاطة بحصونها الرُّخاميَّة ما بين أخضر وأسود، وعلى جانبيها أبراج مربَّعة لا يُحصى عددها، وقد اعتلى مفرقَها تاجٌ من شرفات قصورها، وغابة مختلفة الأشكال من مآذنها، وهي مخطَّطة بخطوط برّاقة من سبعة أنهارها، وشبكة ألماسيّة من جداول مياهها، منبسطة أمامي على مدِّ البصر، في سهل فسيح البساتين ورياحين الزَّهر، وقد بسطت ذراعيها العظيمتين من ههُنا وههُنا، ولاقتها الغوطة من كلِّ جانب على مسافة عشرة فراسخ، وهكذا تجلَّت أمامي صحراء من الجنائن والقصور، وجداول المياه بحيث تتلاشى أشعة النَّظر من جنبات هذا المنظر، فلا تقع على ما هو أجمل منه»[١٠٣].

---

(101) **سورة الروم**، الآية: 19.
(102) انظر **المروج السُّندسيَّة الفيحيَّة في تلخيص تاريخ الصَّالحيَّة**: محمد بن كنَّان، ص(أ).
(103) انظر **دمشق**: جمعيَّة أصدقاء دمشق، كتاب 2006م، ص55.

مصادر البحث ومراجعه

ـ المخطوطات:

ـ الإعلام بفضائل الشَّام وما ورد فيها عن خاتم الرُسل الكرام: أحمد بن علي بن عمر بن صالح المنيني الدِّمشقي الحنفي (ت ١١٧٢هـ)، مخطوط باريس، رقم ٦١٦٨.

ـ تاريخ دمشق ومن بناها من المتقدمين: ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ)، مخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، رقم ٦٦٩٢.

ـ تحفة الأنام في فضائل الشَّام: شمس الدِّين، أبو العباس أحمد بن محمَّد البصراوي، المعروف بابن الإمام (ت ١٠١٥هـ)، مخطوط نور عثماني، استنبول، رقم (٣٤٤٨).

ـ ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشَّام: العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، مخطوط رقم ٣١٥٨٨٧ موقع مخطوطات الأزهر.

ـ ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر: ابن طولون الصالحي، مخطوط، نسخة مكتبة قوطا بألمانيا، رقم ١٧٧٩.

ـ ضرب الحوطة على جميع الغوطة: محمد بن علي بن محمد بن طولون الصالحي (ت ٩٥٣هـ):

ـ مخطوط نشره حبيب الزيات، بيروت، الخزانة الشرقية، ١٩٣٧م، ثم أعاد نشره أسعد طلس، دمشق، مجلة المجمع العلمي، عام ١٩٤٦.

ـ مخطوط مأخوذ عن النسخة الفوتوغرافية المحفوظة بمكتبة المجمع العلمي العربي بدمشق ورقمها (٢)، وهي منقولة عن مكتبة جامعة ليدن:

Bibliotheque de runiversite de Leyde. M S. arabe; 1862 Catal. Cadicum]
.[arabicorum II p. 10 n814

ـ نزهة الأنام في محاسن الشَّام: أبو بكر بن عبد الله بن محمد، أبو التُّقى، تقي الدِّين البدري الدِّمشقي القاهري الشّافعي (ت ٨٩٤هـ)، مخطوط مصطفى عاطف أفندي، إستنبول، رقم (١٩٤٠).

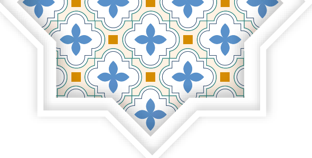
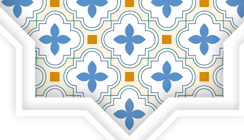
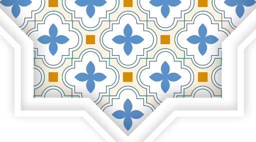
ـ المصادر:

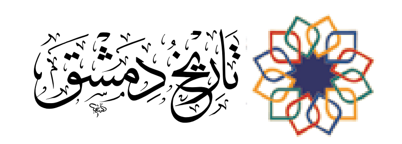
ـ إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى: شمس الدين محمد بن أحمد بن علي المنهاجي الأسيوطي (ت ٨٨٠هـ)، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٢ ـ ١٩٨٤م.

ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي (ت ١٩٥١م)، محمد راغب، صححه وعلق عليه: محمد كمال، حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٨٩م.

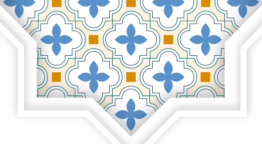
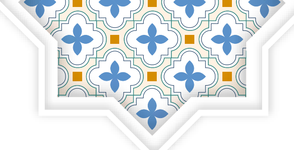
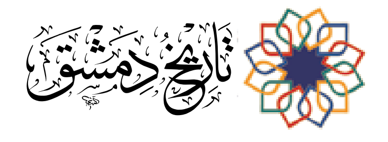
ـ الإعانات على معرفة الخانات: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، ابن المبرد الصالحي الدمشقي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ)، نشره حبيب الزيات، بيروت، مجلة الخزانة الشرقية، ١٩٤٦.

ـ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد، محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ)، تحقيق: سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، ١٩٥٦م.

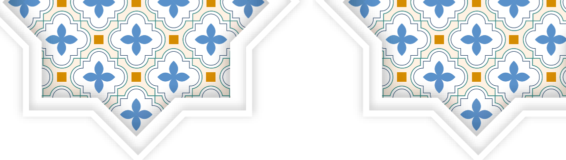
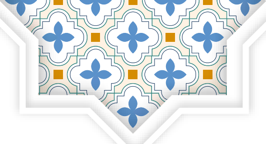
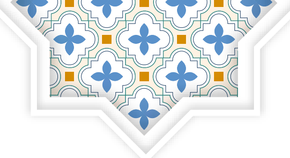
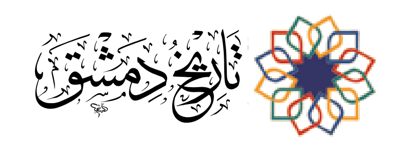




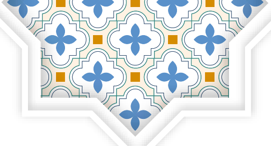
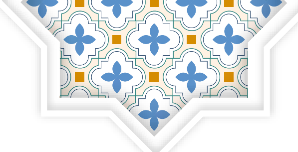
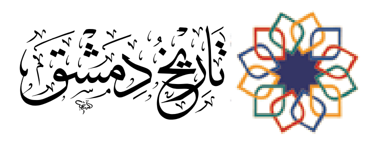
ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت ١٣٩٩هـ)، عني بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين بالتقايا رئيس أمور الدين، والمعلم رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
ـ البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
ـ البرق الشامي: عماد الدين الكاتب الأصبهاني، محمد بن محمد صفي الدين بن نفيس الدين (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: فالح حسين، مؤسسة عبد الحميد شومان، عمّان، الأردن، ط١، ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٥.
ـ تاريخ ابن الفرات: ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت، الجامعة الأميركية، ١٩٣٩م.
ـ تاريخ أبي زرعة الدمشقي: عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري المشهور بأبي زرعة الدمشقي الملقب بشيخ الشباب (ت ٢٨١هـ)، رواية: أبي الميمون بن راشد، دراسة وتحقيق: شكر الله نعمة الله القوجاني (أصل الكتاب رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ بغداد)، مجمع اللغة العربية ـ دمشق.
ـ تاريخ داريّا: مجمع اللُغة العربيّة، تحقيق: سعيد الأفغاني، دمشق، ١٩٥٠م.
ـ تاريخ دمشق: حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي (ت ٥٥٥هـ)، تحقيق: سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٣م.
ـ تاريخ مدينة دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م. + تحقيق: علي شيري، دار الفكر، دمشق١٩٩٥م + تهذيب وترتيب عبد القادر بدران.
ـ تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب: خليل بن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي، زهير حميدان صمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٢م.
ـ ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشَّام: العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)، تحقيق: ياسر الحسيني، بيروت، دار الكتب العلمية.
ـ ثمار المقاصد في ذكر المساجد: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجماعيلي الحنبلي (ت ٧٤٤هـ)، نشره أسعد طلس، دمشق، منشورات المعهد الفرنسي، ١٩٤٣.
ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر، ط١، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.
ـ خريدة القصر وجريدة العصر: محمَّد بن محمَّد، ابن العماد الأصبهاني، الجزء الأوَّل عن شعراء

الشَّام، المجمع العلمي بدمشق، ١٩٥٥م.
ـ الدارس في تاريخ المدارس: عبد القادر النعيمي (ت ٩٢٧هـ)، إعداد وتقديم: عمار محمد النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٤م.
ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: ابن حجر، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، حيدر أباد، ط٢، ١٩٥٤م.
ـ ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر: ابن طولون الصالحي، نشره: محب الدين الخطيب، دمشق، مجلة الرابطة الأدبية، ١٩٢١، ثم أعاد نشره حبيب الزيات في الخزانة الشرقية + نشره أحمد تيمور باشا في مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلَّد ٢، عام ١٩٢٢.
ـ رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار): محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.
ـ رحلة ابن جبير: ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (ت ٦١٤هـ)، بريل، ليدن، ١٩٠٩.
ـ رسالة الشمعة المضيّة في أخبار القلعة الدمشقية: محمد بن علي بن طولون الصّالحي (ت ٩٥٣هـ)، نشرها حسام القدسي، دمشق، ١٣٤٨.
ـ رسالة المعزّة فيما قيل في المزّة: ابن طولون الصالحي، نشرها حسام القدسي، دمشق، ١٣٤٨.
ـ رسالة قرّة العيون في أخبار باب جيرون: ابن طولون الصالحي، نشرها صلاح الدين المنجد، دمشق، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٩٦٤.
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت ١٠٨٩هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
ـ الضوابط الكلية والقواعد الفقهية: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، ابن المبرد الصالحي الدمشقي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ)، تحقيق: جاسم بن سليمان الفهيد الدوسري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.
ـ عدة الملمات في تعداد الحمامات: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، ابن المبرِّد الصّالحي الدِّمشقي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ)، نشره صلاح الدين المنجد في مجلة المشرق، ١٩٤٨.
ـ غدق الأفكار في ذكر الأنهار: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، ابن المبرِّد الصّالحي الدِّمشقي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ)، نشره صلاح الخيمي، دمشق، مجلة الدراسات الشرقية (B.E.O) للمعهد الفرنسي بدمشق، العدد ٣٤، عام ١٩٨٢.
ـ فضائل الشام ودمشق: علي بن محمد بن صالح بن شجاع الربعي، أبو الحسن، ويعرف بابن أبي الهول (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ط١،

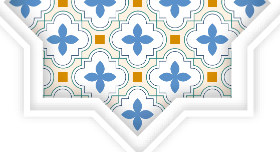
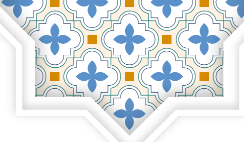
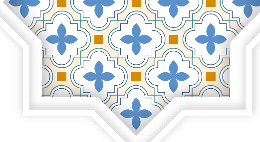
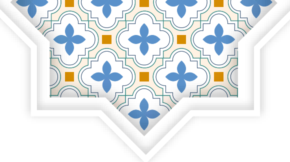
١٩٥٠م.
ـ فضائل الشّام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجماعيلي الحنبلي (ت ٧٤٤هـ)، تحقيق: مجدي فتحي السيد، طنطا، مصر، دار الصحابة للتراث، ١٤٠٨هـ، وطُبع في ضمن مجموع رسائل في فضل الشّام، تحقيق: أبو عادل عادل بن سعد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.
ـ فضائل الشام: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (ت ٥٦٢هـ)، تحقيق: عمرو علي عمر، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
ـ فضائل الشّام: محمَّد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الجماعيلي الحنبلي، طُبع في مجلّة مجمع اللُّغة الأردني، العدد ٤٩، السنة ١٩، ١٩٩٥م، وفي دار الصَّحابة للتُّراث، في مصر، وفي ضمن مجموع رسائل في فضل الشّام، في دار الكتب العلميّة.
ـ فضائل الشّام: محمد بن أحمد بن علي بن عبد الخالق، شمس الدين السيوطي المنهاجي (ت ٨٨٠هـ)، ضمن مجموع رسائل في فضل الشّام، تحقيق: أبي عادل بن سعد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ.
ـ الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون: محمد بن علي بن طولون الصّالحي (ت ٩٥٣هـ)، دمشق، مكتبة القدسي وبدير، ١٣٤٨هـ.
ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية: محمد بن علي بن طولون الصّالحي (ت ٩٥٣هـ)، محمد، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٨٠م.
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.
ـ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: نجم الدين محمد بن محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ)، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م + تحقيق: جبرائيل جبور، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٩م.
ـ مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الدمشقي الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)، تحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ج١، ٢، ط٢، ٢٠٠٣م، ج٣، ط١، ٢٠٠٣م، ج٤، ط١، ٢٠٠٤م.
ـ مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع الحافظ، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤م.
ـ مختصر تنبيه الطالب: العلموي عبد الباسط، تحقيق: صلاح المنجد، دمشق، ١٩٤٧م.
ـ مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحماماتها: الإربلي، الحسن بن أحمد بن زفر (ت ٦٦٣هـ)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٧، وأعاد نشره في كتاب (في رحاب دمشق)، دار الفكر، عام ١٩٨٢.

ـ المروج السندسية الفيحية في تلخيص تاريخ الصالحية: محمد بن عيسى بن كنّان الصالحي (ت ١١٥٣هـ)، نشره محمد أحمد دهمان، دمشق، مطبعة التَّرقي، ١٩٤٧ .
ـ معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
ـ معجم شيوخ الذهبي: الذهبي محمد بن أحمد، تح: روحية السيوفي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م.
ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: عبد القادر بن أحمد، ابن بدران الدُّوماني الدِّمشقي الحنبلي (ت ١٣٤٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
ـ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، تحقيق: محمد أمين وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ .
ـ نزهة الأنام في محاسن الشَّام: أبو بكر بن عبد الله أبو التُّقى البدري الدِّمشقي، بدراستي وتحقيقي، وهو قيد الطِّباعة في دار ابن كثير.
ـ نزهة الرفاق في شرح حال الأسواق: غدق الأفكار في ذكر الأنهار: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، ابن المبرِّد الصّالحي الدِّمشقي الحنبلي (ت ٩٠٩هـ)، نشره حبيب الزيات، بيروت، مجلة الخزانة الشرقية، ١٩٤٦ .
ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي (ت ١٣٩٩هـ)، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول ١٩٥١، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان.
ـ الوافي بالوفيات: الصفدي، خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ)، اعتناء: س. ديرنغ، دار فرانشستايز بفيسبادن، ط٢، ١٩٧٤م.
ـ وثيقة رسمية في عدد مدارس دمشق وحالها: عبد القادر بن أحمد، ابن بدران الدوماني الدمشقي الحنبلي (ت ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، نشرها صلاح الدين المنجد، دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، ١٩٧٣ .
ـ الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق: محمَّد بن محرز بن محمَّد الوهراني (ت ٥٧٥هـ)، تحقيق: صلاح الدِّين المنجد، دمشق، المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٦٥م.

ـ المراجع العربية:

ـ الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢ م.
ـ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، مقدمة صلاح الدين المنجد للقسم الأول من المجلدة الثانية (قسم خطط دمشق)، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٤ .
ـ دمشق: جمعيّة أصدقاء دمشق، كتاب ٢٠٠٦م، دمشق، دار الشرق، ط١، ٢٠٠٦م.

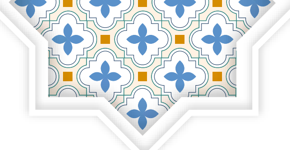
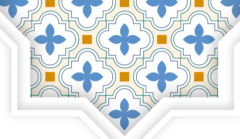
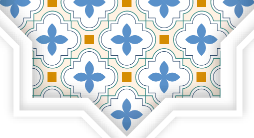
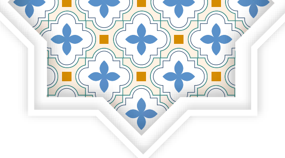





ـ خطط دمشق: أكرم حسن العلبي، دمشق، دار الطباع، ١٩٨٩م.
ـ دمشق أيام ابن عساكر: خالد معاذ، مؤتمر ابن عساكر، دمشق، وزارة التعليم العالي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ١٩٧٩ .
ـ مؤرخو العمران والأوابد بدمشق حتى نهاية العهد العثماني: عبد الرزاق معاذ، مجلة التراث العربي، دمشق، اتحاد الكُتّاب العرب، العدد ٢٠، ١٤٠٥هـ.
ـ المؤرِّخون الدِّمشقيُّون وآثارهم المخطوطة: صلاح الدِّين المنجِّد.
ـ مدرسة الشَّام التاريخية من قبل ابن عساكر ومن بعده: شاكر مصطفى، مؤتمر ابن عساكر.
ـ معجم المؤلفين: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (ت ١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.

ـ المراجع الأجنبية:

ـ دمشق: كارل ولتسنغر، وكارل واتسنغر، تُرجم الجزء الثّاني إلى العربيّة من هذا الكتاب، والمسمَّى (دمشق المدينة الإسلاميّة)، على يد قاسم طوير، وعلّق عليه عبد القادر الرِّيحاوي، وصدر عام ١٩٨٤ تحت عنوان (الآثار الإسلاميّة في مدينة دمشق).
ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي: إغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٧م.

- Damaskus; K.Wulzinger und C.Watzinger ،(I: die antike stadt ،II: die islamische stadt) ،Brlin - Lepzig1954 ،(II: Mit 62 ،Tafeln und 57 Abbilaingen im text).
- Description de Damas d'Ibn Asker; Nikita Elisséeff ،Institut Francais de Damas1959 ،.
- Dimashk ،Encyclopédie de l'Islam; Nikita Elisséeff ،(EI2) ،tome ،II.
- Epigraphie des atabeks de Damas. Paris 1909.
- In Description de Damas ; H.Sauvaire، le Journal Asiatique.
- Inscriptions arabes de Syrie ،Extrait de l'Institut Egyptien ،le Caire. 1897.
- Notes archéologiques sur la mosquée des Omayyades ،Bulletin d'Etudes Orientales ،(I.F.D.) années 1937 –1938. tomes. VII- VIII.
- Publique et universitaire de Genéve: publiée avec les soins de la fondation Max van Berchem1975 ،.
- Topographie von Damaskus; Kremer A. von، Akademie der Wissenschaften ،Wien 1854 2 ،1855 - tomes.

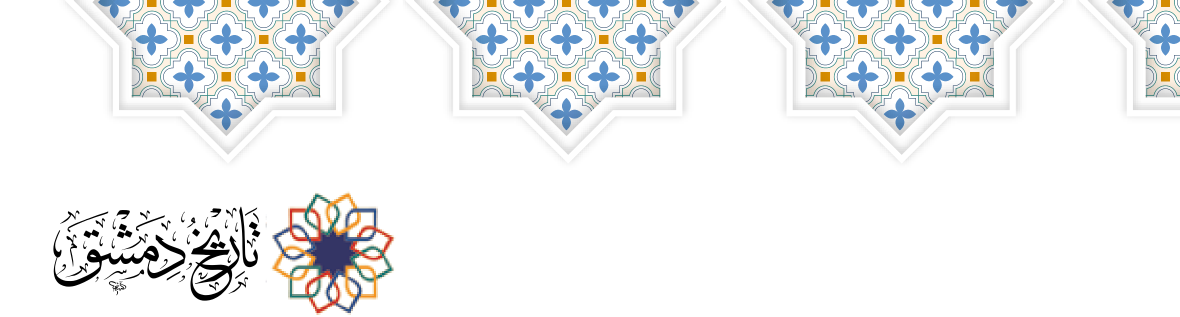




From Damascus Al-Sham to Cordoba Al-Andalus

Abdul Rahman Al-Dakhil and the genius of civilization

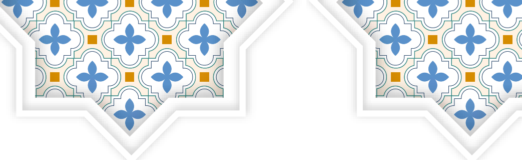
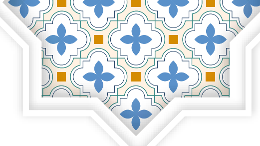
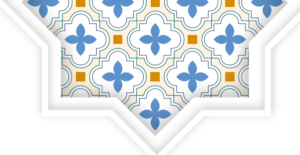
Prof. Dr. Mohamed Radwan Al-Daya



من دمشق الشام إلى قرطبة الأندلس عبد الرحمن الداخل وعبقرية الحضارة

أ.د محمد رضوان الداية[1]

(1) أستاذ الأندلسيات في جامعة دمشق سابقاً، نائب رئيس جامعة بلاد الشام.

ملخّص البحث[٢]

كان الأثر الشامي في شبه جزيرة إيبرية قديماً في التاريخ، واستمدّ حيوية جديدة مع الفتح الإسلامي أيام الوليد بن عبد الملك، واستطرقت أسباب الحياة بين الشام والأندلس في مجالات الحياة المختلفة.

وأُتيح للأندلس أن تكون مجالاً لعودة دولة بني أميّة التي زالت من دمشق والمشرق، وانبعاثها من جديد مع عبد الرّحمن الدّاخل ابتداءً من ١٣٨هـ - ٧٥٥م.

جاء عبد الرحمن مُزَوَّداً بما عرفه عن خبرة وملاحظة وممارسة عن أسباب الحياة في وجوهها المختلفة، وأسّس دولة أموية على أرض أندلسيّة. ونقل من دمشق والشّام كل ما يمكن نَقْلُه: أساليب الحكم وفنون الإدارة، ومفردات بناء الدّولة سياسيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً. لقد انتقلت دمشق والشّام بكل ما يمكن نقله واقتباسه إلى الأندلس. وكان هذا التوجّه الشامي، وذلك المزج الإبداعي الحضاري بين ما في الشام وما هو في الأندلس موصلاً إلى تلك الحضارة العربيّة الإسلامية (الأموية) الناهضة في قلب أوروبة...

وما تزال آثار تلك الحضارة الأندلسية المؤسسة على الإبداعات الدمشقية الشامية وتواريخ العلوم والفنون والعمارة وسائر معطيات الحضارة باقيةً خالدة.

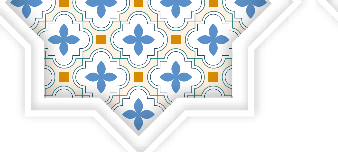
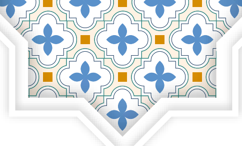
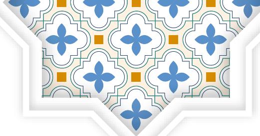
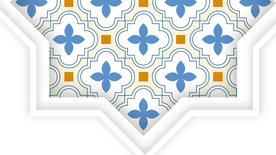
Research Summary

Syrian influence in the Iberian Peninsula is as old as the Phoenician conquest of its southern part in the 10th century. It gained new vitality during the reign of the Umayyad Caliph Al-Walid, and then under Abdul Rahman al-Dakhil, founder of the Arab dynasty that ruled the greater part of Iberia for nearly three centuries. Al-Dakhil founded the Umayyad Dynasty in Spain after the defeat of the Umayyads in Damascus. He brought along with him from Damascus the Umayyad form of government, adopting it to its new environment, creating Arab-Islamic Umayyad civilization at the heart of Europe, which can still be seen across monuments, palaces, and history books of Muslim Spain.

_ تصدير:

في فقرة من فقرات كتابها النّفيس كتبت الدكتورة ماريّا روز ميتُوكال: «كان عبد الرحمن [الداخل] شأنه شأن المَنفيِّين والمهاجرين من كل جيل [قوم]، ومن كل ثقافة متلهِّفاً على كل ما يمكنُ أن يُذكِّره بوطنه: ثماره المُفضَّلة، أو صور من شبابه. كان هذا الرجل المتشوِّق إلى أذواق وطنه وصُوَره وأصواته، الذي لن يَراه ثانيةً، خليفةً في الواقع، وكانت له الموارد والإمكانات الضرورية لجلب نباتات من الطرف الآخر من إفريقية الشمالية، وتشييد بنايات تُعيدُ إليه ذكرى سورية [بلاد الشام]: لم يكن الحاكمَ القويَّ فحسب؛ كان أيضاً الأبَ المؤسِّسَ لأمويِّي الأندلس، وإن كانت ذكرياته وجهوده من أجل تسلية

(2) ترجمه الأستاذ في جامعة دمشق الدكتور عبد النبي اصطيف مشكوراً.



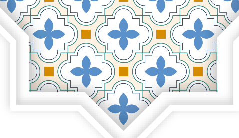
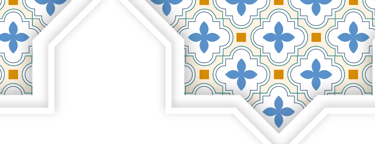
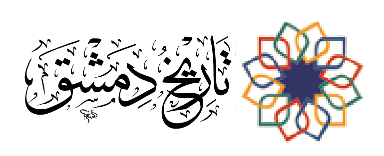
قصر الحمراء – غرناطة

اشتياقه وحنينه إلى بلاده أثقلَ في تبعاتها على وطنه المحبوب من حنين أي مَنفيٍّ [مُهَجّر] آخر. ولقد شيَّدَ هذه الإمبراطوريةَ الجديدةَ من هذه الأحجار المُزَنْجَرة [المشدود بعضُها إلى بعض] بالتّقاليد والشرعيّة»[٣].

كانت الأندلس حاضرة في فكر أحمد شوقي، وفي وجدانه، ولكنّها برزت واكتملت حلقاتُها حين اختار الأندلس مكاناً يُقيم فيه أيّامَ نفاه الإنكليزُ عن مصر، وكانت ذكريات الأندلس بما فيها ومَن فيها حافزاً من حوافز أناشيدهِ الأندلسية من الشعر والموشحات، وكانت زيارته دمشق سنة ١٩٢٥، بدعوة من مجمع اللغة العربية، فرصةً ليربط بين الشام والأندلس بإتقانٍ ودقّة وحماسة، وعن رؤية تاريخية، ويحفظُ النّاسُ من شعره قصيدته[٤]:

[3] **الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التّسامح، ماريّا روز ميتُوكال، ترجمة عبد المجيد جحفة ومصطفى جباري**، ص50. وعنوان الكتاب الأصلي: Ormamment of the world: توشيح العالم. والمؤلفة أمريكية من أصل كوبي، أستاذة للإسبانية والبُرتغالية، دارسة للتاريخ الثقافي والأدبي في الأندلس.

[4] **ديوان شوقي**، ج1، ص160. وجلِّق: هي دمشق.

قُمْ ناجِ جِلِّقَ وانشُدْ رَسمَ مَن بانُوا	مَشَت على الرَّسمِ أحداثٌ وأزمانُ

وقال في هذه القصيدة؛ مشيراً إلى أمويّي الشام والأندلس معاً[٥]:

بالأمسِ قُمتُ على «الزّهراء» أندُبُهم	واليومَ دَمعي على الفَيحاءِ هَتّانُ
في الأرضِ منهُم سَماواتٌ وألويةٌ	ونَيِّراتٌ وأنواءٌ وعُقبانُ
مَعادنُ العزِّ قد مالَ الرّغامُ بهم	لو هانَ في تُربِه الإبريزُ ما هانُوا
لولا دمشقُ لما كانت طُلَيطلةٌ	ولا زَهَت ببَني العَبّاسِ بَغدانُ

وقد ذكر (طليطلة) نيابةً عن مدن الأندلس وقُراها وسائر ما كان فيها: فالأندلس بنتُ الشام، ومؤسِّسُو حضارتها هم بنو أميّة: الذين نهضوا بالشرق والغرب أيام دولتهم، والذين تابعوا مسيرتَهم الحضارية في الأندلس، وكان صاحب رايتهم الباني الأول لحضارتهم: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، الذي عُرف بعبد الرحمن الدَّاخل.

أولاً_ دمشق وقرطبة وعبد الرحمن:

كانت دمشق – وما تزال – مؤهّلة لتكون مدينة عظيمة مُؤثِّرة في محيطها الجغرافي، وفي امتدادها التاريخي. فهي مدينة قديمة عريقة، توالت عليها الأزمان، وتوارثت أرضَها الأجيالُ، وظهرت إبداعات أهلها في كلّ المجالات... وشَهدت الحفريات الأثرية، والمدونات التاريخية بعظمة هذه المدينة وتفوّق أهلها في الجوانب الحياتيّة المَختلفة تفوّقاً نتجت عنه حضارات متوالية تُسلِّم الواحدة الأخرى. وهلم جرّاً.

ودمشق – منذ فجر التاريخ – مدينة عربيّة شاركت أخواتها العربيّات في بلاد الشام، ومن ثم في الأقاليم الأخرى، هذا الألقَ (الدمشقي) الذي كان المفتاح السرّي للتقدم الحضاري المتواصل.

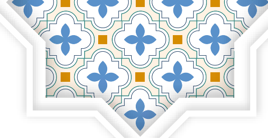
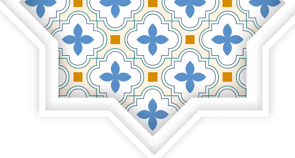
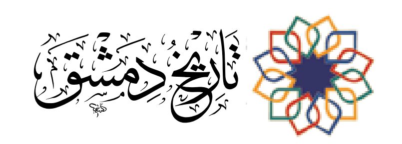
وإذا تركنا التاريخ القديم، وصفحاتُه مسطورةٌ على كل حال، وابتدأنا من العصر الإسلامي، وجدنا لدمشق هوية جديدة: نعم هي هوية مُؤسَّسة على تراث عريق لا يندثر، ولكنّ الحال العربية الإسلامية لدمشق كانت انطلاقة حضارية جديدة في مجالات الحياة المختلفة.

ومنذ أن صارت دمشق عاصمة الدولة الأموية بعد العصر النبوي وعصر الراشدين صارت هي مركز الدولة الجديدة (أو الإمبراطورية كما يحلو لبعض المؤرخين أن يطلقوا عليها)، ومثلما التفتت الدولة الجديدة إلى الشرق تحمل الفكر والعلم والثقافة والموروثَ الحضاريَّ التفتت أيضاً إلى الغرب، وضمَّت تحت لوائها أرضاً واسعة هي شبه جزيرة إيبريا. وسرعان ما صارت الأندلس (الاسم الجديد لتلك المنطقة) جزءاً من الدولة الأموية (أو الدولة العربية الإسلامية).

مرّ نحو أربعين عاماً على الأندلس كانت فيها ولاية تابعة لوالي إفريقية يُعيِّن هو أو الخليفة من دمشق واليَها. وانتقل من أهل دمشق والشام أعداد استقرّت في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس... ونقلوا معهم كلَّ شيء مشرقيٍّ في تلك المدّة: في الإدارة والحكم وتثبيت اللغة...

---

(5) **الزهراء:** الضاحية التي أنشأها عبد الرّحمن الناصر قريباً من قرطبة. **والفيحاء:** من أسماء (أو ألقاب) دمشق. **والعقبان:** جمع عُقاب، طير من الجوارح. **والرّغام:** التراب. **والإبريز:** الذهب الخالص.

وكان للأندلس نصيب في أن يفد إليها رجل شابٌ خرج من المشرق طريدَ سيوف العباسيّين المسوّدة ناجياً من مجزرة ذلك العصر: دخل أولاً مدينة ما تزال تحمل اسمها العربي القديم: (المُنَكَّب)، ثم التفَّتْ حوله العصبيّةُ العربية الأموية. وصار هو حاكم الأندلس. واستمرّت دولتُه إلى مشارفِ القرن الخامس.

هذا الرجل الفذّ العبقري: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك:

١- أعاد دولة بني أمية المشرقية شابّة قويّة في أقصى المغرب.
٢- وأدار الأمور فيها على ما أثَّلَه أجدادُه في دمشق.
٣- وصنع بجهوده، وبمن استعان بهم، حضارةً أمويّةً أندلسيّةً، ارتكزت على إرث المشرق الأموي، ولكنّها استفادت من المحيط الجديد لتكون نموذجاً فريداً في الحضارة.
٤- وحين يقول المستشرقون إن عبد الرحمن انتقل إلى الأندلس بتقاليد سورية فالمراد هذه الشامية الأموية التي يُمكن وصفُها بالعبقرية الحضارية.

وهذا البحث يصل بين دمشق وقرطبة، مع عبد الرحمن الداخل، أحد الرجال العظام الذين صنعوا التاريخ العربي، ويُقدِّم للقارئ تلك الأخبار والأحوال والمُنجزات والإبداعات... في إطار رؤية تاريخية تدعو إلى الفخر.

...إنها (أمجاد) عربيّة، ذَكَرتْها فتاةٌ غَرناطيَّةٌ جميلةٌ، واعتَزّت بها، وهي تُحاوِرُ نزار قباني، وهما يجولان في قصر الحمراء: هو زائر وهي دليلة إسَبانيَّة[6]:

قالت: هنا الحمراءُ زَهوُ جُدُودِنا ... فاقرأْ على جُدرانِها أمجادي!

«أمجادُها»؟! ومَسَحتُ جُرحاً نازِفاً ... ومَسَحتُ جُرحاً ثانياً بفُؤادي

يا ليتَ (وارثتي الجميلةَ) أدركَت ... أنَّ الذينَ عَنَتهُمُ أجدادي!

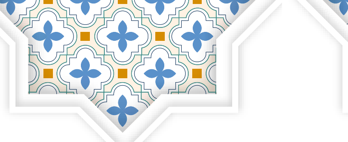
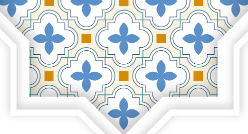
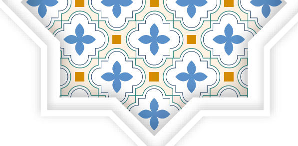
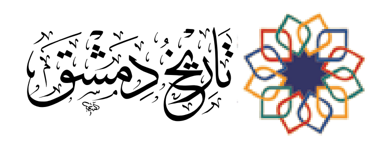
عانَقتُ فيها عندما وَدَّعتُها ... رجلاً يُسمّى طارق بنَ زيادِ!

ثانياً_ عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك؛ من أطراف الفرات إلى ضفاف الوادي الكبير:

حين يقرأ الدارسُ حياة عبد الرحمن الداخل، ويصل إلى رحلته بين أطراف الشام ومرابع الأندلس، يَخطر في باله الصعوبات التي ستُواجهُه، ويُقدِّر تلك المصاعب، ويَظنُّ أن نَجاتَه وحدَها في هذه الرحلة القسريّة كافية للإقرار بأنه شابٌ يَجمع في صدره: الصّبر والأناة والحنكة، وحكمة التجربة، ورؤية المستقبل.

ووصول عبد الرحمن إلى الأندلس، ودخوله قرطبة، وسكناه فيها مع أهل الشام الذين سبقوه في مراحل سابقة، كان يكفي للشهادة له بالنجاة من جهة، والذكاء من جهة ثانية.

(6) الأعمال الشعرية الكاملة لنزار قباني، ج1، ص568.

لكن رحلة عبد الرّحمن لم تكن في ظلّ ما ذكرناه آنفاً فحسب، لأنه فكّر منذ رؤيته أوّل قطرات دماء تسيل من أفراد أسرته الأموية في أن يكون هو الذي يُعيد مجد الأمويين المروانيين، وأن يُحقّق نبوءة عمٍّ أبيه: مَسْلَمة بن عبد الملك.

وكان عبد الرحمن كما تُخبرنا تفصيلات حياته التي وصلت إلينا: على قدر عالٍ جدّاً من الوعي بقضية الأمّة، وبأحوال الأمويِّين وأنصارهم، وعلى معرفة بأسرار نهضة دولتهم الّتي كانت دمشق مركزها الأوّل، وكانت سائر مدن الشام، ومدن الدولة كلها رديفاً ومكمّلاً.

ولهذا، ولما يَتبَعّه من عناصر هذا الحدث العظيم، أنشأ عبد الرحمن في الأندلس دولة جديدة مؤسَّسة على دولة قديمة. ودولتهم في المشرق ماتت قبل أوان موتها، وانقطع حبل الرجاء منها، وهي في حال حسنة لا يُخْشى عَليها من حركة عارضة، أو ظرف طارئ.

كان ضَياع الدّولة الأموية في المشرق مفاجأةً تاريخيّة كمَنَ بها أبو مسلم الخُراساني، واقتنص الفُرصة، وغيّر وجه التّاريخ في المشرق.

وكان أبو جعفر المنصور الذي تولّى الدولة العباسية سنة ١٣٦هـ - ٧٥٣م يُدرك تماماً أنه لا مقام له في الشام، وأن دمشق لن تَقبله فيها، ولو كان يحمل لقب الخليفة. ومن هنا أبعَدَ شرقاً، وبنى مدينة بغداد، فحقَّق لنفسه البُعد عن دمشق، وحاول أن تكون عاصمته مُنافِسةً لأم المُدن الشرقية أيام بني أُميّة: دمشق.

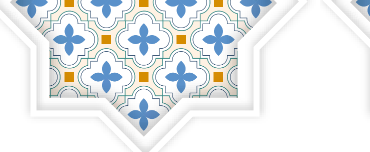
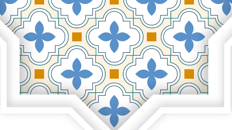
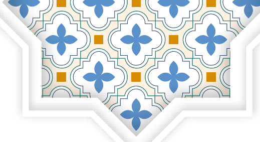
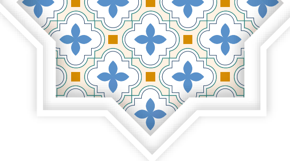
هذا الفَتى الشاب الذي حقَّق لنفسه ولقومه ولأمّته هذا الإنجاز العظيم: إنشاء دولة جديدة، لم يَخطر في بال أحد من أنصار الأمويّة أو خصومها أن تَقوم، كان شابّاً طامحاً، ولعله فكّر في أن يقوم بمهمّة أعظم ممّا أنجزه، كما ورد في بعض أخباره.

وُلد عبد الرّحمن بن معاوية بن هشام في سنة (١١٣هـ - ٧٣٢م)، وكان أبوه معاوية من القادة العسكريّين المظفَّرين، غزا عشر غزوات في الثغور، مدافعاً عن حدود الدَّولة، محاطاً بعناية والده هشام ومحبّته. ولكنه توفّي وشيكاً ولم يبلغ الثلاثين من عُمره. وآلت كفالة عبد الرحمن وإخوته إلى جدّه هشام الذي استقدَمَ أسرةَ معاوية إلى حاضرته الجديدة «الرُّصافة»، وتولّى رعايتَها، وتعويض حنوّ الأب الفارس.

وفي أخبار عبد الرحمن خبرٌ لافتٌ، ذاع في كتب التاريخ وكتب التَّراجم، ورد في سياق الكلام على تفاصيل ترجمته، ونترك الكلام لقلم المؤرخ الذي طُبعَ كتابه بعنوان: «أخبار مجموعة»[٧]، وهو في الحقيقة تاريخ مهمٌ جدّاً في سرد أخبارٍ ذات أهمية عن الدوَلة الأمويّة عامة، وأخبار عبد الرحمن خاصّة، قال الخبر، مرويّاً على لسان عبد الرحمن: إنه حين مات والده أبو المغيرة معاوية بن هشام، جيء به وبإخوته إلى مستقرّ جدّه هشام في الرّصافة، ووافق (صادف) وصولُ عبد الرحمن ومَن معه وصولَ عمٍّ أبيه مَسْلَمة بن عبد الملك، وكان من نبلاء العرب وأذكيائهم ومن مشاهير بني أميّة، قال عبد الرحمن:

« ... فأُقبلَ بي وبإخوتي إلى الرُّصافة إلى جَدّي، ومسلمةُ بن عبد الملك، رحمه الله، لم يَمُتْ بعد، فنحنُ وقوفٌ بَبابه على دوابّنا إذْ سأل مسلمة عنّا، فقيل: أيتامُ معاوية، فاغرورقت عيناه بالدّمع، ثم

(٧) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، لمؤلف مجهول، ص: 51-52.




إشبيلية

دعانا الاثنين الاثنين[8]، فأقبَل يَدعُو بنا حتَّى قُدِّمتُ إليه، فأخذَني وقبَّلَني، ثم قال للقَيِّم[9]: هاته، فأنزلَني عَن دابَّتي، وجعلني من أمامه، وجعل يُقبِّلُني، وبكى بكاءً شَديداً فلَم يَدَعْ بَعدي مَن كان أصغَرَ من إخوتي، وشُغِلَ بي فلم يُفارقْني وأنا أمامَه علىَ سَرجه، حَتى خرجَ جَدّي، فلما رآه قال: ما هذا يا أبا سعيد؟ قال: بُنَيٌّ لأبي المُغيَرة، رحمه الله، ثم دَنا من جَدّي فقال له: تَدانَى الأمرُ! قال: أهُوَ؟ قال: إي والله؛ قد عرفتُ العلامات والأمارات بوجهه وعُنقه.

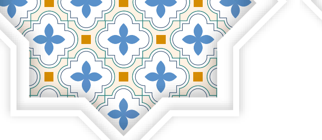
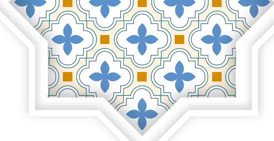
قال: ثم دَعا القَيِّمَ، ودُفعتُ إليه. وَأنا ابنُ عشر سنين يومئذ، أو نحوها. فكان جَدّي، رحمه الله، يُؤثرني، ويتعاهَدُني بالصِّلة، والبعثة التي في كل شهر[10]. وكُنّا بكُورة قنِّسرين، بيننا وبينه مسيرةُ يوم؛ حتى مات، ومات مَسلَمةُ أبَو سعيد قبله لسنتين. فكانت تلك في نفسيَ مَع أشياء كانت تُذكر...».

وسردَ عبد الرحمن بعدها ما جرى بعد نَقض العَبّاسيين الأمانَ الذي كانوا أعلنوه لبني أميّة ومن كان يَلوذ بهم. وكان أماناً مُزَيَّفاً.

وتعدَّدت عبارات المؤرخين في وصف ما جرى على يد المسوّدة العباسيّة، ومما قاله أ. عنان[11] في هذا السّياق: كان سقوط الدولة الأموية بالمشرق مأساة من أروع مآسي التاريخ الإسلامي...».

وهذا المقطع من سيرة حياة عبد الرحمن الداخل كما نُقلت على لسانه، يفتح باب الكلام على: رؤيا مَسلمة في عبد الرحمن، أو حَدْسه العالي الفائق، وعلى بدايات تحرّك أنصار الدّعوة إلى نقل

(8) ظاهر أن الصغار ركبوا دوابّهم اثنين اثنين.
(9) القائم على رعاية الأولاد، المعتني بهم.
(10) كان هشام يتعاهد عبد الرّحمن كإخوته بالبعثة (بالرّاتب المخصص كل شهر) ويصلُه أيضاً.
(11) **دولة الإسلام في الأندلس**، محمد عبد الله عنان، 1/1: 193.

الدَّولـة مـن بنـي أميّـة إلى الرِّضـى مـن أهـل البيـت، وقـد ظفـر بهـا الفـرع العَبّاسـي لا الفـرع الطالـبي.

عـاش عبـد الرحمـن إذن في رعايـة جَـدّه، وكان مقرَّبـاً منـه، ويحضـر مجالسـه، منـذ تلـك المرحلـة المبكّرة، وصـولاً إلى وفـاة جدّه سـنة ١٢٥هـ - ٧٤٢م. وقضـى السـنوات الواصلـة إلى سـنة ١٣٢هـ - ٧٤٩م في مناشـطه الخاصّـة في ظـل الخلفـاء الذيـن جـاؤوا بعـد هشـام، وكان قـد تـزوّج، وكان بكـره هـو سـليمان الـذي لحـق بـه بعـد مـدّة مـن وصولـه إلى حكـم الأندلـس.

ولـو ثبـت المُسَـوّدة العباسـيون علـى وعدهـم لبنـي أميـة (الباقـين منهـم)، ولم ينقضـوا عهدهـم لـكان لعبـد الرحمـن شـأن آخـر في بـلاد الشَّـام. ولكـنّ مطـاردة فلـول الأمويـة، وإعمـال القتـل والسَّـلب ونبـش القبـور ومصـادرة الأمـوال والدّيـار، اضطـر عبـد الرحمـن إلى الخـروج مـن مـكان إقامتـه سـنة (١٣٢هـ - ٧٥٠م) في قرية مـن قـرى الجزيـرة، مصمّمـاً مـن ذلـك الوقـت المبكـر علـى قصـد غـرب الدّولـة. وأعانـه علـى تبنّـي هـذه الفكـرة أنّ أمـه (راح) وهـي أم ولـد مـن بربـر المغـرب. فلعلّ في هـذا مفتاحـاً مـن مفاتيـح الفَـرَج.

وبـين سـنتي (١٣٢ و١٣٨هـ - ٧٥٠ و٧٥٦م) سـتُ سـنوات قضاهـا عبـد الرحمـن في بـلاد المغـرب، يراقـب الأحـوال، ويـدرس الأوضـاع المختلفـة في أقطـار المغـرب، وفي الأندلـس الـتي حكمهـا أهلهـا في هـذه السـنوات السـتّ حكمـاً ذاتيّـاً لم يخضـع للعباسـية، ولم يلتفـت العباسـيون أصـلاً إلى هـذه النواحـي إلا في وقـت متأخـر، وقـد صـار عبـد الرحمـن هـو صاحـب الدَّولـة الجديـدة الفتيّـة[١٢].

وحـين أجـاز عبـد الرحمـن مـن المغـرب إلى الأندلـس أول مـرّة كان ينتظـره مناصـروه الذيـن بعثـوا لـه مـع أمـين سـرّه (بـدر) بموافقتهـم علـى دخولـه الأندلـس، وترحيبهـم بـه مُجـدِّداً للدولـة الأمويّـة.

اجتمعـت المعلومـات عـن خطـة عبـد الرحمـن لنقـل الـتراث الدمشـقي الشـامي إلى الأندلـس مـن عناصـر متعـدّدة؛ يلتقـي فيهـا مـا هـو شـخصيّ ذوقـيٌّ، ومـا هـو موضوعـيّ حضـاريّ، ويلتقـي هـذان الجانبـان أحيانـاً في صعيـد واحـد.

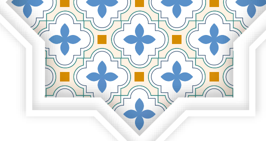
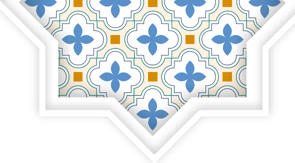
وتَذكُـر أخبَـارُ عبـد الرحمـن المفرّقـة في كتـب الأدب والتاريـخ والتراجـم شـغفَه بالنَّخيـل، ونـوع مـن الرّمـان، والاصطفـاء مـن الخيـل، وإتقـان العُمـران، وعنايتـه بالمسـاحة الخضـراء في داخـل الـدُّور، وفي الحدائـق والجنـان داخـل المـدن (كقرطبـة) وخارجهـا. وظـل المنـزل الدمشـقيُّ (التّراثـي) ماثـلاً في خاطـره حتـى نقلـه إلى ديـاره الجديـدة.

لقـد كانـت دمشـق في تلـك المُـدّة عاصمـة «العـالم القديـم»: في عمرانهـا ومبانيهـا وحدائقهـا، وتوزيـع الميـاه فيهـا، وفي مظاهـر الحضـارة الفائقـة: حتـى صـارت مثـالاً يُحتـذى، ونموذجـاً يُقـاس عليـه. وكانـت الدولـة الأمويّـة قـد أرسـت في دمشـق معـالم دولـة عصريّـة مسـتقلّة واضحـة.

ومـن هنـا لم يبـدأ عبـد الرحمـن في الأندلـس مـن «نقطـةً الصفـر» كمـا يُقـال، ولكنّـه أسَّـس دولـة، وشـاد عمرانـاً، ونظّـم إدارةً، وفتـح المجـال للصّنـاعات وأنـواع الزِّراعـة، واسترسـلت الحركـة العلميّـة (بفروعهـا المختلفـة) علـى مثـل مـا كان في دمشـق والشـام، ثـم «تطعّـم» هـذا كلـه بالظـلال الأندلسـيّة في عهـد عبـد الرّحمـن، وجـرى المروانيـون بعـده علـى نَهّجـه، مـع التّجديـد الـذي يقتضيـه نمـوّ ذلـك كلّـه، وعلـوّه في مـدارج الحضـارة.

---

(12) انظر تفاصيل ما سبق في: **تاريخ افتتاح الأندلس**، ابن القوطية، أبو بكر محمد القرطبي. **تاريخ الأندلس**، ابن الكردبوس. **دولة الإسلام في الأندلس**، محمد عبد الله عنان. **التاريخ العباسي والأندلسي** السياسي والحضاري، عمار النهار، فوزي مصطفى. في **التاريخ العباسي والأندلسي**، أحمد مختار العبادي. **التاريخ الأندلسي**، عبد الرحمن علي الحجي.



أقواس شجر النخيل في مسجد قرطبة الكبير

ثالثاً _ ممهّدات شامية قديمة، وأُخرى قريبة:

كان للكنعانيين والفينيقيين[١٣] علاقات مختلفة في جزر البحر المتوسط، وسواحل عدد من البلدان، وكانت هناك علاقات أكيدة بين بلاد الشام وقبرص منذ الألف السابع قبل الميلاد، وتمّت مبادلات بين بلاد الشام وكريت منذ الألف الثالث قبل الميلاد، على الأقلّ، وكانت للكنعانيين والفينيقيين علاقات مع مصر، وبحر إيجَة، والشطر الشرقي من البحر المتوسط[١٤].

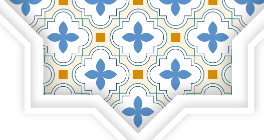
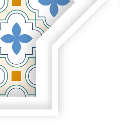
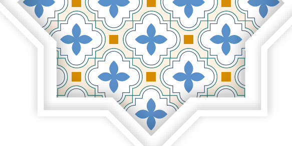
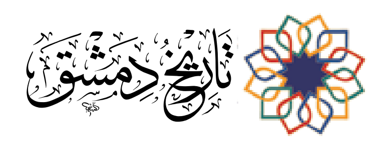
والعلاقات بين بلاد الشام وبين الشطر الغربي من البحر المتوسّط ترقى إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقامت لهم علاقات مع شبه جزيرة إيبرية قبل إنشاء قرطاج في إفريقية، فقد كانوا يبحثون عن الموادّ الخامّ وخاصة القصدير.

وقد قطن الكنعانيون مدينة ترشيش، في منطقة غنية بالقصدير وأسهموا في ازدهارها.

وكان الكنعانيون يحملون إلى تلك الأرجاء التُّحف، والأنسجة المصبوغة، بالأرجوان، والخزف،

(13) «الفينيقيون»: تسمية أطلقها اليونانيون على كنعانيّي الساحل السوري وتابعهم على ذلك الغربيون... وكانت هذه التسمية تعني بصورة أخصّ كنعانيّي الألف الأول قبل الميلاد من أهل أرواد وصيدا وصور. وهناك كنعانيون قُدامى من الألف الثاني قبل الميلاد مثل أهل أوغاريت وصور وجبيل. أمّا كنعانيو قرطاج الحديثون الذين انتشروا في أرجاء البحر المتوسط الغربي فيُطلِق عليهم الباحثون التّونسيون اسم: اليونيقيّين. (حاشية على البحث المذكور: 47).

(14) **العلاقات بين الكنعانيين والفينيقيّين والإسبان، عدنان البُنيّ**، ص47-50.

والعاج، والخزّ، والزيت وغير ذلك... وكانوا في المقابل يأخذون المعادن المتوافرة، وعلى رأسها القصدير والفضّة، وبسبب هذه التجارات، نشأت مُعَمّرة (قادش) على الشّاطئ الأطلسي. وقد وَلّد الاحتكاك بين الكنعانيّين والإيبريّين حضارة مستشرقة يظهر فيها الأثر الكنعاني في ميدان التحصين، والبناء والدفن والكتابة والصياغة، والفنون الصغرى كالعاجيات وصناعة الدّمى والفخار...

وقد عالج د. شاكر مُصطفى وغيره من الباحثين هذا الموضوع، وقدم فيه ملاحظات مع آراء مفيدة، وقال: إن الصلة بين دمشق والشام من جهة، وقرطبة والأندلس من جهة ثانية صلةٌ عريقة موصولة قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، بل نقول: إن الصلة الشامية «الأندلسيّة» قديمة من أيّام نهضة الفينيقيين الذين أثبتوا لأنفسهم وجوداً بشريّاً وحضاريّاً لم تُمحَ آثارُه، «وإذا تجاوزنا العصور الأنتروبولوجيّة القديمة وعُهود السَّلف وجدنا أنّ علاقات إسبانية الجنوبيَّة خاصة مع بلاد شرقي المتوسّط تعود إلى العهود الفينيقية، فهذا الشعب الشاميّ (العربيّ) الذي كان جانباً من الكنعانيين سكان الشام الأقدمين انساحَ على شواطئ البحر الأبيض المتوسّط الجنوبيّة حتى تونس، حيث أقام مدينة قرطاجة، واتّخذها نقطة انطلاق بعد مدينة صُور على جميع تلك الشّواطئ. وحين انتهى [وصلَ] إلى شواطئ المغرب انتقل منها بسهولة إلى البرّ الإسباني المُقابل، وأقام الصّلة بين العُدْوَتين [الشاطئين المتقابلين] منذ الألف الثاني قبل الميلاد»[١٥].

وقد اكتشف الفينيقيون المنطقة، ومارسوا التجارة فيها، وبنوا المستوطنات الفينيقية التي تحوّل بعضها إلى مُدن ما تزالُ قائمةً إلى اليوم، ومنها في المغرب: العرائش الحالية، وطنجة، ومَليلة، وأقاموا في البرّ الإسباني مالقة الحالية، وكان اسمُها: مالحة (وكانت لتمليح الأسماك وحفظها) وقادس الحالية، ومدينة المُنكّب الحالية، وما يزال اسمُها يُذكر بالصيغة العربية: Almuňacer، وهذه المدينة كانت منزل عبد الرحمن أوّل دخوله الأندلس. وقد أقام أهلها في العصر الحديث تمثالاً لعبد الرحمن بالحجم الطبيعي ممتطياً حصانه، ملتفتاً إلى مدينة قرطبة.

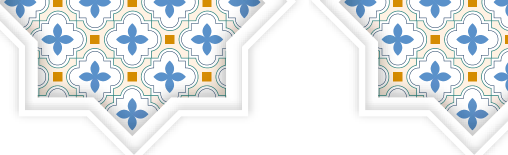
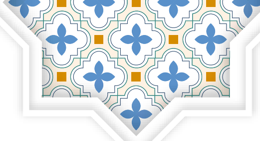
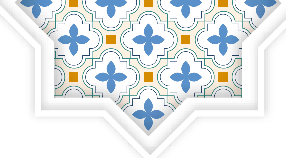
وكان دخول العرب إلى الأندلس انطلاقاً من دمشق متابعةً لحركة الفتوح العربية الإسلامية، على وَفْق منهج الأُمويّين في الجغرافية شرقاً وغرباً، وبعد أن صار البحر المتوسط بين يدي الفاتحين صار شرق المتوسط وجنوبه عربيّاً، وكان دخولهم إلى الأندلس متابعةً لذلك المنهج. وقد بيّن هذا الملمح د. مصطفى وهو يقارن بين سياسة الأمويين وسياسة العبّاسيّين، فقد كان الأمويون يَعدّون أيَّ فتحٍ قاموا به لأية جبهة بدءاً لفتح آخر، ومنطلقاً لنصر جديد، في حين تلاهم العباسيّون فاعتبروا الحدود التي ورثوها عن الأمويّين نهايات الدولة، ومراكز امتناع ودفاع[١٦].

ويُلاحظ قارئ تاريخ الدولة الأموية المروانية انتقال تقاليد الحكم والإدارة والدبلوماسيّة، والعناية بالعُمران والإنشاءات، إلى الأندلس، حتى وصلت إلى بناء مدن جديدة، والاهتمام باللغة العربية وما يتعلق بها، ونشر التسامح في المجتمع بعناصره المختلفة من عرقية ودينيّة وبيئيّة، واستقبال الوافدين من المشرق والمغرب بالترحيب وحُسن القَبُول، والمحافظة على الوقوف بالخصومة عند حدّ لا تتجاوزه.

---

(15) **الأندلس في التاريخ**، د. شاكر مصطفى، ص: 18.

(16) **الأندلس في التاريخ**، ص19.

وقد خَطَب عبد الرحمن الداخل لأبي جعفر المنصور[١٧] في الأندلس على المنابر نحو سنة، وقيل أكثر من ذلك. ولمّا خالفه أهل الأندلس على ذلك ترك الخطبة للعباسيين، ولم يتلقّب بالخلافة واكتفى بلقب الأمير.

وكان معاوية من قبل قد اكتفى بلقب الأمير، عند خلافه مع علي رضي الله عنه، ولم يتسمّ بالخلافة إلا سنة ٤٠هـ في كلام طويل[١٨].



الحائط الشرقي لمسجد قرطبة

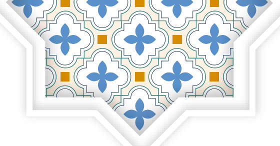
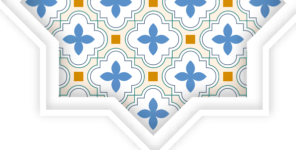
رابعاً ـ دولة عبد الرّحمن:

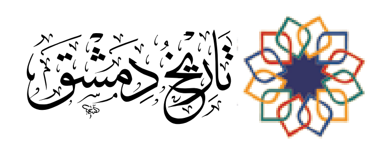
دامت دولة عبد الرحمن خمساً وثلاثين سنة، كانت حافلةً بالأحداث، والمُؤامرات، والتفات العدوّ الخارجي من الشمال إلى الأندلس للاقتطاع منها. وقد تصدّى عبد الرحمن لهذا كلّه حالاً بعد حال حتّى صفا له أمر الدَّولة، واجتمعت له الأندلس، والتفت الناس مع عبد الرحمن إلى تمكين أجهزة الدَّولة من الاستفادة من هذه الأحوال، وعطاء الطبيعة. وأسّس عبد الرحمن دولته على أمرين:

- ما عرفه في الشام من أُسس الحضارة في جوانبها المختلفة. وكانت أسساً ناجحة، جعلت الدولة الأمويّة الدولة الأولى في العالم القديم.
- وما استحدثه عبد الرّحمن من إبداعاته، وحسن نظره في أُمور الدَّولة، وكان عبد الرحمن إدارياً بارعاً، وناظراً مدققاً في أساليب التقدّم الحضاري في وجوهها المختلفة. ولكنّ المنهج الشامي بقي ماثلاً في مخيّلته، دائم الحضور.

إذن: كان لعبد الرحمن الداخل أثرٌ مُهمٌ فعّال أساسيّ في الوصل المتين بين الشام والأندلس، «لقد

(17) يتردّد الخبر في تراجم عبد الرحمن وسَرْد أخباره، انظر مثلًا: **الأندلس في التاريخ**، ص44-45.
(18) **تاريخ الأدب العربي**، **عمر فروخ**، ص405.



كان في قمة السلطة، وصاحب الكلمة الأولى، لقد كانت شخصيتُه شخصيّة حاكم ذكيٍّ، بالغ الذكاء، عاطفي، ناشب العروق في حقيقة الأمة، وفي حضارة الشام، وفي مناقب أسرته الأموية المروانيّة[١٩]، المتشرّب من الألق الذي كانت عليه «الإمبراطورية» العربية الإسلامية في عزّها قبل الانهيار المفاجئ سنة (١٣٢هـ - ٧٥٠م). لقد كانت دمشق الشام، ومَن فيها، وما فيها رهن فكره وصُحبة خياله[٢٠].

ويَجدُ قارئ تاريخ الأندلس أيام عبد الرحمن تردداً لهذه الفكرة، يجيء على أساليب مختلفة ومقصد واحد. ونجد في دراسة الدكتور السيّد عبد العزيز سالم: «... وهكذا طعَّمَ عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع الشامي؛ وإليه يرجعُ الفضل في غَرْس بذور نهضة علميّة زاهرة بقرطبة، وستنمو هذه النهضة على مَرّ الأيام حتى تصبح قرطبة في عهد أحد أحفاده عاصمةَ الدنيا، ومركز العلم والحضارة. وهو - لذلك - يُعَدّ أعظم أمراء بني أمية في الأندلس، ولولا أنّ الخليفة عبد الرحمن الناصر سيقوم بدور مُشابه لدوره لقلنا إنه أعظم مَن تولّى الأندلس من بني أميّة»[٢١].

وقال الدكتور سالم في مجال آخر من كتابه: «إنّ عصر بني أمية في الأندلس يُعَدّ امتداداً لعصرهم في المشرق»[٢٢].

وفصّل الدكتور حسن أحمد محمود الكلام المُجمل الذي يرد عن الصلة بين الشام والأندلس (ودمشق وقرطبة) عند القدماء والمُحدثين، فقد: «أنشأ عبد الرحمن [الداخل] حكومةً على النّسق الأموي، وكان اتجاهه هذا طبيعيّاً، فقد استقى من تقاليد عرفها الأمويون، وطبّقوها، وحقّقت لهم السؤدد نحواً من تسعين سنة، هذه التقاليد الأموية يُطلق عليها: التقاليد الشامية».

وكانت هذه التقاليد تعتمد على أُسس واضحة: على تكوين جماعة من الرجال المخلصين للدولة: ينهضون بعبئها في العاصمة والأقاليم، منهم رجال من العرب، أو من موالي البيت الأموي: يُحقّقون أهداف البيت الأموي. وقد شهد العصر الأموي في الشرق جيلاً كاملاً من الإداريّين الأكفياء، والقوّاد المَهرة الذين نهضوا بالعبء كلّه من أمثال: زياد والحجاج ومسلمة بن مَخْلد، وقرّة بن شريك، وموسى بن نصير. وكان ميل الإداريّين الذين أوجدهم تنظيم عبد الرحمن لا يقلّون كفايةً أو إخلاصاً عن ذلك الجيل القديم.

على كل حال نهض عبد الرحمن بأعباء دولته بنفسه، واعتماداً على أهل بيته الذين استدعاهم، وعَهدَ إليهم بمهامّ الأمور، وكوّن طوائف (جماعات) من المُوالين المُخلصين، وأكسبهم طابعاً عربيّاً. قرشَيّاً أمويّاً، وهذا ما يُعرف في المصطلح بـ: «التقليد الشامي في الأندلَس»[٢٣].

وتابع د. حسن أحمد محمود عَرضَه لأعمال عبد الرحمن الداخليّة والخارجيّة، وصوّر عملَه السّياسي والإداري، وراجع ذلك العمل على ضوء تحليله وانطباعه الشخصي من خلال رؤيته التاريخية والحضاريّة.

---

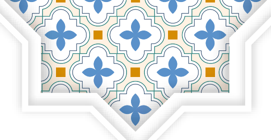
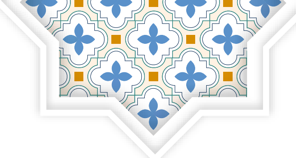
(19) الأموية نسبة إلى أمية الجدّ الأعلى، والمروانية نسبة إلى مروان بن الحكم فقد انتقل الحكم بعد اعتزال معاوية الثاني من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.

(20) **التقاليد الشامية** في الديار الأندلسيّة، محمد رضوان الداية، ص22.

(21) **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة في قرطبة**، السيد عبد العزيز سالم، ص209.

(22) **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، ص49.

(23) **تاريخ المغرب والأندلس**، ص91.

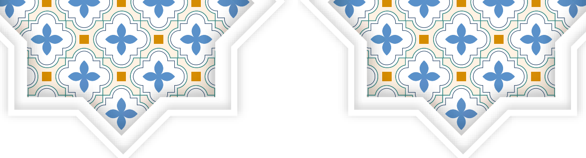
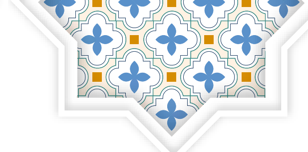
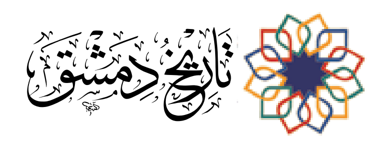
قبة مسجد قرطبة

وقارن د. حسن أحمد محمود بين ما صنعه عبد الرحمن وبين ما اعتمده العباسيون في المشرق، فقد سلك عبد الرحمن بنظام الوزارة مسلكاً جديداً، وإن كان يتفق مع النظام الذي ألفَهُ المشرق في بعض الاتجاهات: كان العباسيون يختارون رجلاً واحداً يُفوّضون إليه أمور الإدارة كلّها إَحياءً للتقاليد الفارسية القديمة[٢٤]، وكان عبد الرَّحمن يختار طائفةً من الوزراء يختصّ كل واحد منهم بأمر من أمور الدَّولة، وكان رئيس هؤلاء جميعاً يُسَمّى (الحاجب)، وأصبح نظام الحِجابة هذا تقليداً جرى عليه الأمويون بعَد عبد الرحمن.

لقد كان إنشاء دولة بني مروان الجديدة في الأندلس إذن إحياءً ونقلاً من الشام في المشرق إلى الأندلس في المغرب، وقد نقل عبد الرحمن شكل الحكم وأُسلوبه، وتبع ما كان عليه قومُه في الشام في إدارة الحكم، وفي ضبط الأمور، وفي الاستعانة بالوزراء والأعوان. وفي الاختلاط بالناس، وتحسُّس قضاياهم. ولكن عبد الرحمن اكتفى بلقب الأمير ولم يتلقّب بالخلافة، غير أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠هـ = ٩١٢ – ٩٦١م) تلقَّب بالخلافة بعد إعلان الدولة الفاطميّة الخلافة، مع وجود الخلافة العبّاسيّة.

وذكر ابن حزم دولة عبد الرحمن الداخل في سياق كلامٍ له بالغ الأهمية عن دولة بني أمية في المشرق وانتقالها إلى الأندلس: « ... ولم يملك أحد منَ ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض إلى أن تغلَّب

(24) تاريخ المغرب والأندلس، ص92.

عليهم بنو العبّاس بالمشرق، وانقطع بها ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمئة سنة، فلم يكن في دول الإسلام أنبَلُ منها، ولا أكثر نصراً على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير... بهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاءُ الدولة بذهابها»[٢٥].

وسار عبد الرحمن في التعامل مع مَن حوله، ومع سائر الناس بسيرة أهله في الشَّام، من البساطة والتواضع، فإنهم لم يطلبوا من الناس مخاطبتهم بالتّمويل[٢٦] والعبودية والمُلك، ولا تقبيل أرض ولا يد ولا رجل!.

وكان عبد الرحمن يتمتّع بمواهب إدارية باهرة... على أنه ذلّل الصعب، ومهّد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة التي غَدتْ على يده أُعجوبة العُصور الوسطى[٢٧].

وقد نوّه مؤرخ الأندلس ابن حَيّان[٢٨] بمقدرة الداخل، وكفاياته الإدارية، ورفع الأواوين، وفَرض الأُعطية، وعَقَد الألوية، وجَنّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد. فأقام للمُلك[٢٩] آلته وأخذ للسلطان عُدّته.

وحافظ عبد الرحمن الداخل، في مدّة حكمه الأندلس، على بساطة الحكم، والتَّبَسُّط إلى الناس، وعدم إقامة الحجاب أمام الزائرين والمراجعين، وفَتَح الباب لأصحاب الظُّلامات، تماماً كالذي كان يفعله خلفاء بني أمية في دمشق. وقد نبه على هذه العادات والصفات الأموية ابن حزم، وقال المعاصرون كلاماً يعزّز ما ذكره ابن حزم في آثاره التاريخية.

وحافظ عبد الرحمن هو وأولاده وأحفاده على فصل السُلطات، ورعَوا - عن عقيدة ورأي - أحكامَ القضاء وأنفذوها، وحَمَوا حُرّية الفكر، ونصروا صاحب الرأي من غلواء المغالين[٣٠].

وكان نقش خاتم عبد الرحمن[٣١]: «عبد الرحمن بقضاء الله راض» و: «بالله يثقُ عبد الرحمن وبه يعتصم»، ووجد فيه أحد المؤرخين دلالة من الأمير على التواضع الجَمّ، وقال: إنه لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور أو غيرها.

خامساً _ التسامح تقاليد أموية شرقية وأندلسيّة:

نقل الأستاذ محمد عبد الله عنان في تاريخه الأندلسي[٣٢] عن عدد من المستشرقين الباحثين في الأندلسيات إشارتَهم باعتدال السياسة الإسلامية، وآثار مسلكها المستنير، وفيهم سيمُونيت، على رغم تحامله على العرب، وألْتاميرا، وكاردينِاس، ومما قاله: إن الفضل يرجع إلى تسامح الولاة والأمراء الأوائل. في أنه خلال العصور الأولى من الحكم الإسلامي: كان الشعبان: المُسلمون، والمستعربون

(25) يُنظر: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ابن عذاري، 2: 39-40.

(26) التمويل أن يقال لأحدهم: يا مولاي! والعبودية أن يقال للحاكم ومَن في موقعه: يا سيّدي، أو أنا عبدك في طاعتك! والمُلك: أن ينادى الأمير أو الخليفة بلقب الملك.

(27) **دولة الإسلام في الأندلس**، 1: 199.

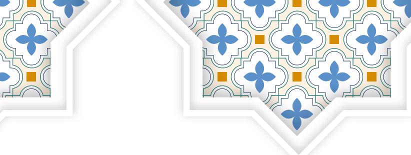
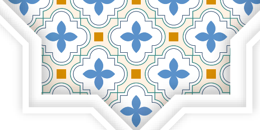
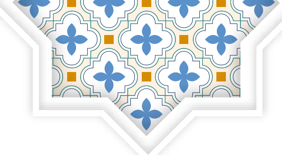
(28) نقله المقري في **نفح الطيب**، 1: 182.

(29) المقصود بالملك: الدّولة، فإن الأمويين لم يتلقبوا بالمُلك.

(30) **البيان المغرب**، 2: 66، **وقرطبة في العصر الإسلامي**، أحمد فكري، ص36-37.

(31) **نفح الطيب**، 3: 37.

(32) **دولة الإسلام في الأندلس**، 1: 270.



قرطبة

(النّصارى) يعيشان جنباً إلى جنب عيشةً حُرّة».

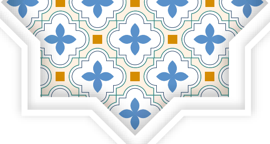
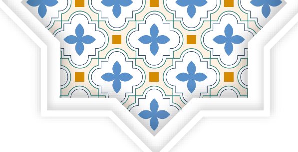
وعَدّ الأستاذ عنان شهادة هؤلاء وأمثالهم دليلاً على كذب ادّعاءات المُتعصّبين على العرب وأسلوب حكمهم في الأندلس.

ويقال إن عبد الرحمن لمّا توطّد ملكُه، وكَثُرت قواته وعُدّتُه فكّر في استرداد ملك بني أمية بالشام، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس، وأيّده في ذلك خاصة أُسرته ومواليه، وكان ذلك في سنة ١٦٣هـ - ٨٧٩م، ولكن اضطرام الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم، وتوفي قبل أن تسنح الفُرصةُ لتنفيذه.

سادساً _ في الصَّنايع والزّراعة والتجارة:

كان عهد عبد الرحمن الدّاخل عهدَ نهضة وازدهار في جوانب الحياة المختلفة، فإنه أرسى دعائم الدَّولة على ما عرفه في الشام معرفة واعية دقيقة، وعلى ما استعان به من أهل الخبرة في الصناعة والزراعة والتجارة. وكانت الأندلس، منذ أول الفتح، (وازداد الأمرُ وضوحاً ونشاطاً مع عبد الرحمن) مقصداً لأهل الخبرة وأهل العلم. وفتح الأمويون منذ عهد الداخل الأبواب لهذه الخبرات (الشامية أوّلاً)، وبنوا دولة عصرية، تجمع بين ما في المشرق الأموي، وما في الغرب على يد الدّاخل.

وظلت الأندلس لأهل الشّام خاصة، ولسائر مواطني الدولة المترامية الأطراف. وسرعان ما



صارت الأندلس حاضرةً عالمية، وصارت الدولة الأولى في أوربة، ومنافسةً لبغداد وارثة الحكم في المشرق.

وقد كانت العناية بالصناعات متواصلةً، وعلى رأسها صناعة الأسلحة والسُّفن، وما يتعلّق بذلك. وكانت الأندلس دائماً في حاجة إلى هذا الاستعداد، لإحاطتها بالأعداء من جهات متعدّدة.

وكانت دمشق أشهر المدن في صناعة السيوف (وبعدها: بُصرى ودياف جنوبي البتراء). وجادت صناعة السيوف الدمشقية في الأندلس، وانتقلت «السيوف الدمشقية، وطريقة صناعتها إلى الأندلس، وقد عُني عبد الرحمن الأوسط بتشجيع صناعة السُّيوف في (طليطلة) وفي (المريّة) التي قطنها الدمشقيون»[٣٣].

وتبع ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضّة وتزويقها بالصّور، على شكل «الزّهر»، وهو فن جيء به من دمشق، وجاد في الأندلس، وانتقل إلى أوربة. وفي كلمة للأستاذ عنان عند حديثه عن (طليطلة): إنها «حافظت على شهرتها القديمة في صنع الأسلحة والأدوات القاطعة...»[٣٤].

ومن هذه الصناعات المتقنة صناعة الحُليّ من المعادن الثمينة، ومن غيرها. ومنها الحليّ الشعبيّة التي اكتسبت اسم الدمشقي (أو: الدامسكينو).

في فقرة عن صناعة الأقمشة والديباج والمنسوجات قال الباحث الإسباني (تُورينو)[٣٥]: «لقد أثّرت في هذا الفن الصناعات المشرقية بابتداعاتها الرائعة تأثيراً كبيراً جعلت من إسبانية لسانها الناطق باسمها في أوربة باشتقاق الفنّ المشرقي أوّلاً ثم تتبعه الابتداعات الأصيلة... ولعلّ النشاط الخاصّ بهذه الصناعة بلغ أوْجَهُ الفَنّي على عهد الخلافة القرطبية...». وكان لطليطلة مكانة كبيرة في صناعة النَّسيج[٣٦].

ـ الوشي الشامي:

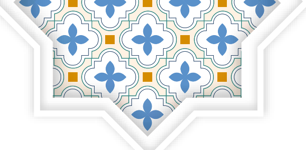
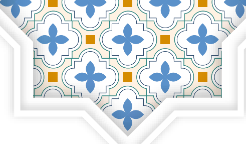
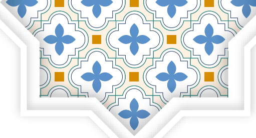
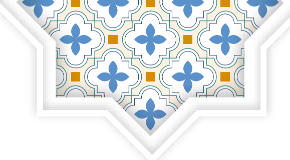
وهو نوع من الثياب المحسّنة الموشاة، وفي خبر ابن حيان أنه لبسه أحد أفراد بني أميّة، فهو لباس للرّجال، ولا يمنع أن يكون منه نوع آخر للنساء.

وقد ورد باسم الوشي الشّامي في نفح الطيب[٣٧]، وباسم الوشي الهشامي في المقتبس[٣٨]، فقد كان هشام بن عبد الملك، جدّ عبد الرحمن الدّاخل، يُعنى بالملابس، قال صاحب مروج الذهب إنه: «استجادَ الكُسى والفرش»، وقال متابعاً: «وفي أيامه عُملَ الخَزّ، وقُطُفُ الخزّ...».

وكانت الثياب البيض شائعة في الأندلس، منقولةَ من قديم عن الشام، التي اتخذت البياض شعاراً، وخالفها العباسية بلبس السواد.

وذكر لسان الدين بن الخطيب خبراً وقع في القرن الثامن الهجري – الرابع عشر الميلادي، حين استقبل أهل مدينة وادي آش موكب السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر، قال: «فرأينا تزاحُم

(33) **الشام: لمحات آثارية وفنّية**، عفيف بهنسي، ص211.
(34) **الآثار العربية الباقية في إسبانيا والبرتغال**، محمد عبد الله عنان، ص92.
(35) **الفن الإسلامي في إسبانية**، مانويل جومث مورينو، ص411.
(36) **الآثار الباقية**: 92.
(37) **نفح الطيب** 2: 503.
(38) **المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حَيّان القرطبي**، ص226.

مسجد قرطبة الكبير من الأعلى

الكواكب بالمناكب، وتدافع البُدور بالصدور: بيضاً كأسراب الحمائم، متلفّعات بروضهنّ تلفُّع الأزهار بالكمائم...»[٣٩].

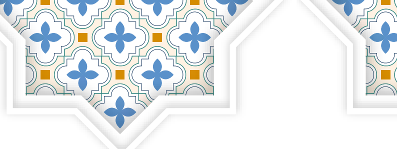
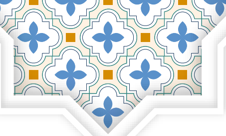
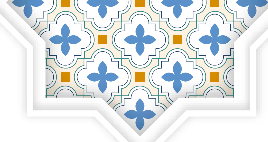
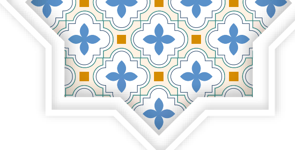
ـ الزراعة والبستنة:

أُعين عبد الرحمن الدّاخل في نقله الأشجار والأزهار والنباتات، من الشام وإفريقية، بأن الأندلس قريبة الَحال من الناحية الجغرافية، والجغرافية الفلكية، ومن حيث خصائص البلاد من البلاد الشامية، وقد ذكر القدماء هذا بمناسبات مختلفة. ومن ذلك ما قاله أبو عامر السالمي: «الأندلس من الإقليم الشامي، وهو خير الأقاليم، وأعدلها هواءً وتراباً، وأعذبها ماءً، وأطيبها هواءً وحيواناً ونباتاً، وهو أوسط الأقاليم...»[٤٠].

ولأبي عبيد البكري، الأديب المؤرخ الجغرافي: «الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها...»[٤١].

ومن حبّ الأندلسيين للأشجار، ونشرهم الخُضرة في كل مكان، قلّدوا غيرَ مذهب الإمام الذي لا يُجيز زرع الشجر في المساجد[٤٢]، وزرعوا في مواضع مختلفة منها الأشجار المثمرة وأشجار الزّينة

(39) **مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس**، أحمد العبادي، ص8.
(40) **نفح الطيب**، 1: 154.
(41) **نفح الطيب**، 1: 154.
(42) وأخذوا بقول الأوزاعي الذي كان سائداً قبل غلبة مذهب مالك.



وغيرها . وقد شاهدتُ أشجار البرتقال والليمون والكبّاد في المسجد الجامع الأموي بقرطبة، حين زرتها سنة (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

والدار الأندلسية كالدار الدمشقية، وما تزال الدور في قرطبة وإشبيلية وغيرها، المبنية على الطراز العربي، تتزيَّن بالأشجار والأزهار؛ وكأنك في دار دمشقية تراثية...

وفي كتاب الباحث الإسباني: خوان ڤيرنيت المترجم بعنوان (فضل الأندلس على ثقافة الغَرْب)[٤٣] كلام على ما نُقل من الشّام إلى الأندلس من أشجار الفواكه والخضراوات، ومن غيرها من أقطار البلاد العربية والإسلامية، ومن المنقول من الشام:

القُطن، وأصله من الهند، وأدخل العَربُ زراعته إلى الأندلس، وهو بالإسبانية Algodon.

والسّبانخ (الإسفاناخ)، والباذنجان، والحَرْشَف أو الخُرشوف[٤٤]، والبطّيخ الأحمر، والمشمش، والليمون، والرزّ، والتين البرّي، والزعفران ، والهليون، ويقال فيه: الإسبرج، والإسفراج، قال الدكتور حسين مؤنس: «إن ضيعة: أرانخويت القريبة من مدريد والفراولة أو الفريز، توت الأرض، والإسفراج، والعرب هم الذين أدخلوه إسبانية»[٤٥].

وعدّدَت الباحثة أ. سلمى الحفّار الكزبري أشياء ممّا نُقلَ من الشرق العربي (الشام خاصة)، وبدأت بقضايا الفكر والثقافة والعلم واللغة والأدب، والعمرانَ، والصنائع، والطبّ، والصيدلة، وغير ذلك إلى أن قالت، وقد سمّت هذا كله: عبقرية الفكر العربي في الأندلس: إن هذه العبقرية «تخطَّت هذه الميادين جميعاً، فاشتملت على أحدث وسائل الزراعة والري، وأنجحها، فاخضرّت في الأندلس السهول والقفار، وأزهرت فيها البساتين والهضاب إذْ نقَل أسلافنا إليها أشجاراً من الشرق العربي كالزيتون والليمون والنارنج، ونباتات كالزعفران، وأزهاراً كالياسمين والرّيحان والخُزامى، ولم تزل أسماؤها جميعاً عربيّةً في لغة الإسبان حتّى يومنا هذا...»[٤٦].

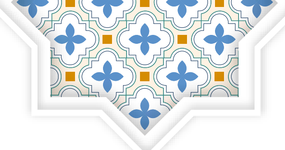
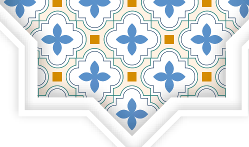
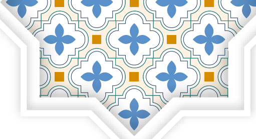
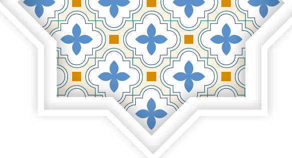
وهناك أشجارٌ وأزهارٌ ونباتات لفتت أنظار الأدباء والشعراء، وكان لها خلفيّات مختلفة العناصر. مثل: النّخل، وقد أكّد المستشرق الإسباني (بالنثيا)[٤٧] أن أول نخلة زُرعت في الأندلس، ثم انتقلت زراعتها إلى أوربة، كانت نخلةً (أو نخلاً) ممّا جلبه عبد الرحمن الداخل من الشام، ونَقَلَ قطعة عبد الرحمن الشهيرة[٤٨]:

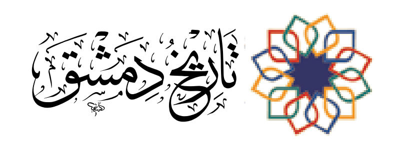
يا نَخلُ أنت غَريبةٌ مِثلي ... في الغَربِ نائيةٌ عن الأهلِ

وقال د. سالم: إن عبد الرحمن الدّاخل اهتم بزراعة النخيل في مُنية الرّصافة: «لتُذكّره برصافة جَدّه بالشام...»[٤٩].

ومن الأشجار التي انتقلت إلى الأندلس: نوع من الرمان كان عبد الرحمن الداخل يُفضّله. وكانت

(43) **فضل الأندلس على ثقافة الغرب**، خوان فيرنيت، ص44.
(44) هذا هو اسمه العربي، واشتهر خطأً باسم: أرضي شوكي، وهو تحريف أجنبي للحرشوف. وأشاعه على خطئه المترجمون الأوائل (انظر كتابي: **الجديد**) مادّة الحرشوف.
(45) **رحلة الأندلس**، حسين مؤنس، ص36-37.
(46) **في ظلال الأندلس**، 63-64.
(47) **تاريخ الفكر الأندلسي**، آنْخِل بالنثيا، ص51.
(48) القطعة في **الحلة السِّيراء**، 1: 37.
(49) قرطبة حاضرة **الخلافة في الأندلس**، السيد عبد العزيز سالم، 1: 50-51.



مسجد قرطبة من الداخل

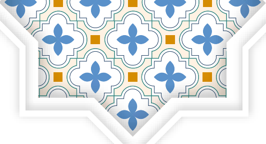
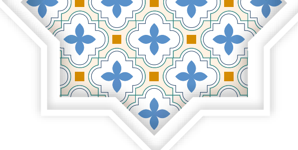
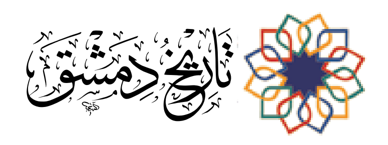
أخته (أمّ الأصبغ) قد بعثت إليه بكميّة منه، وزّعها على حاضري مجلسه حين وصلت، وكان فيهم سفر بن عبيد الكلابي من جند الأردن بالأندلس. أخذ سفر رمانة وعالج بذورها في قرية من قرى (ريّه) فنبتت، وتكاثرت أشجارها، وما لبثت أنْ أثمرت، فحمل منه إلى عبد الرّحمن. وشاع هذا النوع في الأندلس، وانتقل إلى بلاد المغرب. وما يزال إلى اليوم معروفاً باسمه الأندلسي: (الرّمان السّفري)! وقد ذكر شعراء الأندلس هذا الرّمان، وأطالوا في وصفه[50]، ومنهم ابن فرج، قال في أول قصيدة له :

ولابسةٍ صدفاً أحمَرا أتتكَ وقد مُلِئَت جَوهَرا!

وذكر محمد كرد علي البُرتقال واللّيمون، وموطنهما شرقي آسية لكنْ يعود الفضل إلى العرب في نقل هاتين الشجرتين إلى سواحل بحر الروم (الأبيض المتوسط)[51]... إلخ.

- وفَضّل أهل الأندلس - متابعة لأهل الشام - الورد على النّرجس، وردّ شعراؤهم على ابن الرومي حين فضل النّرجس، وأزرى بالورد[52].
- وكان للرّيحان، وما يزال، شأن خاص في الأندلس (منطقة أندلوثيّا خصوصاً) فهم

(50) يُنظر **نفح الطيب**، 1: 468، والشعر لأحمد بن فرج الجيّاني.
(51) **خطط الشام**، محمد كردعلي، 4: 181.
(52) **الحدائق والجنان من أشعار أهل الأندلس، وديوان بني فَرج شعراء جَيّان**، محمد رضوان الداية، ص59-64.

يعتنون به ويزرعونه في الدُور، وهو إضافة إلى كونه من النباتات العطرية (الطبية) يدخل في التقاليد الشعبيّة الأندلسيّة، وفي الأمثال الأندلسية: أشهر من الريحان في دار العروس[٥٣].

واسم الزعفران في الإسبانية (Azafran) نقلاً عن العربيّة، فإن العرب هم الذين أدخلوا زراعته إلى الأندلس، كما سبقت الإشارة إليه.

ويرتبط بالزراعة نظام الريّ، فإنه توجد في (بلنسية) إلى الآن محكمة خاصّة للمياه، تعالج قسمة المياه، وتُعقد كل يوم خميس، كما كانت أيام الحكم العربي[٥٤]. وقد عاصرتُ مثل ذلك في في دوما من غوطة دمشق، فقد كان هناك مكتب خاص يعالج قسمة مياه فروع بردى في بساتين الغوطة، ومجاري أنهارها. وكان مراقب قسمة المياه في الغوطة يُدعى (الشاوي).

ـ الزّراعة بين المشرق والأندلس:

إنَّ عبارة (الإصلاح الزراعي) تتردّد في مواضع كثيرة من التاريخ الأموي في دمشق وسائر بلاد الشام، فقد أحدث يزيد نهراً إضافيّاً على فروع بردى عُرِف - إلى اليوم - بنهر يزيد[٥٥]، ومجراه أعلى من مجرى نهر (تورا).

وفي تاريخ هشام بن عبد الملك أنه «انكبّ على إصلاح الزراعة في العراق»[٥٦].

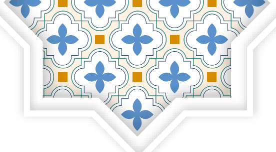
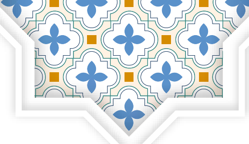
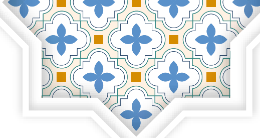
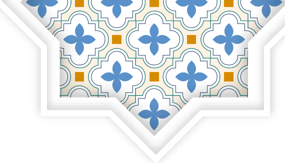
وحين استقرّ عبد الرحمن في قرطبة، وصَفا له الحُكم التفت إلى ما يُؤسّس الدولة من جوانبها المختلفة، ومنها: الزراعة والبستنة، وإنشاء الحدائق في المدن، وفي أرباضها[٥٧].

سابعاً_ التنظيمات العسكرية بعد قيام الدولة الأُمويّة في الأندلس:

في بحث عن: تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي[٥٨] عقد الدكتور عبد الواحد طه دنّون فصلاً عن التنظيمات العسكرية، والعناصر المُستحدثة بعد قيام الدولة الأموية، وعرض فيه لأثر البلديّين والشاميّين، الذين استقروا في قرطبة وغيرها، قبل مجيء عبد الرحمن ومكانتهم في جيش الدّولة بعد قيام الإمارة. وكان للشاميّين مزيّة على غيرهم فقد كانوا يشكلون طليعة الجيش، ثم تأتي العناصر الأُخرى بعدهم. وكان لواء جند (إلبيرة)، أو جند دمشق الأندلس على الميمنة، ويتبعهم جُند حمص أهل كورة إشبيلية، ومعهم الجند النازلون في (لبلة) ومعهم جُند قنّسرين، وهم أهل كورة جَيّان، وبعدهم جند فلسطين وأهل كورتي شذونة والجزيرة الخضراء، فكانواً في الميسرة، ومعهم لواء جندي الأردن ومصر، وهم أهل كورة باجة.

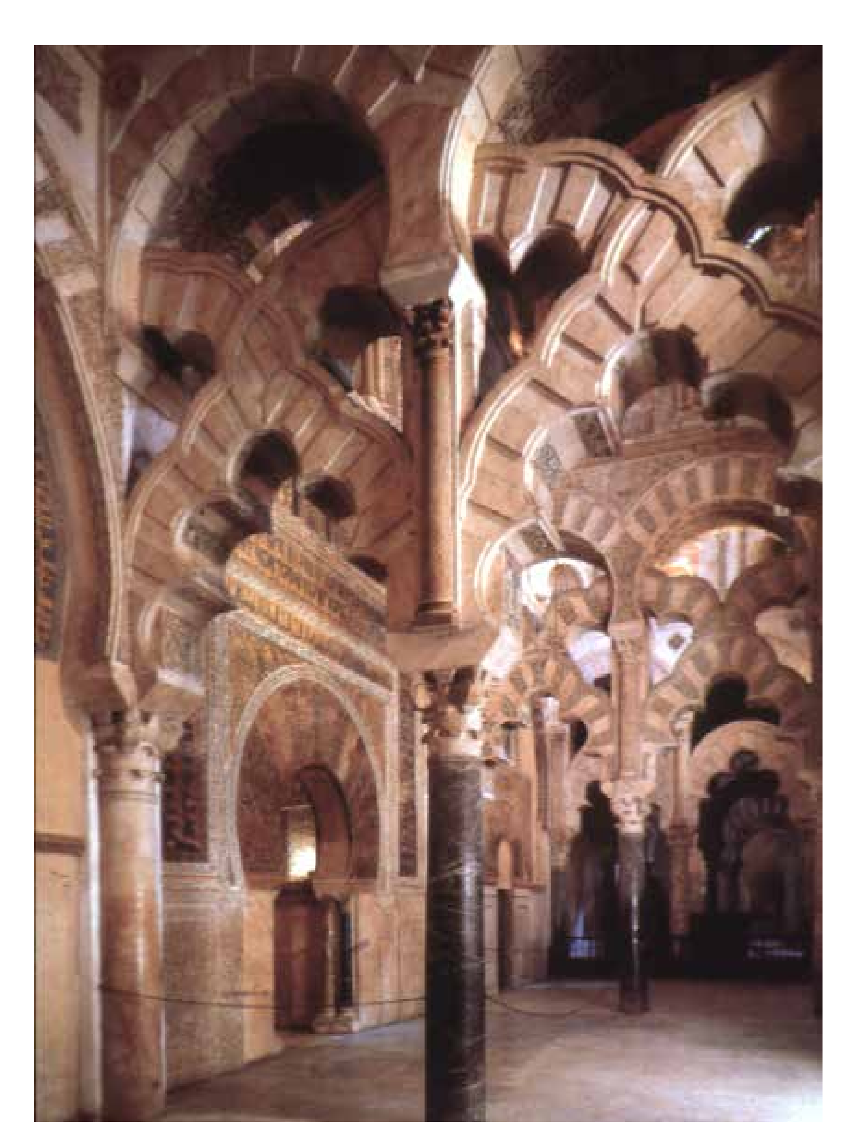
وقد استفاد الأمير عبد الرحمن بن معاوية، المعروف بالداخل، من هذه الكُوَر المجنّدة، ولا سيّما

(53) **الزجل في الأندلس**، عبد العزيز الأهواني، ص24.
(54) محكمة المياه في بلنسية Tribunal de las Aguas كتب عنها عنان بحثاً في **مجلة العربي** (أشير إليه في **التقاليد الشامية**: 120، وذكرته الأستاذة سلمى الحفار (**في ظلال الأندلس**، ص95).
(55) **جغرافية نهر يزيد**، صفوح خير، من كتاب: **دمشق الشام عاصمة الثقافة العربية**، ص57-61.
(56) **الدولة الأموية**، يوسف العش، ص283-284.
(57) الأرباض جمع الرّبض: الضاحية.
(58) تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي من كتاب: **دراسات في التاريخ الأندلسي**، عبد الواحد ذنّون طه، ص42.

اليمانيّين منهم، فشكّل فور وصوله إلى برّ الأندلس قوّةً تنامت بسرعة حتى وصلت إلى نحو ثلاثة آلاف فارس في إشبيلية، ومن هذه المدينة كَتّب الأمير عبد الرحمن الكتائب وهَيّأ الأجناد، لقتال آخرِ ولاة الأندلس، قبل مجيء عبد الرحمَن، يوسف الفهري.

وفي التّنظيمات والمناصب العسكرية يبرز (القادة) قبل غيرهم؛ فهو أعلى تلك المناصب، وكان الأمراء - في كثير من الأحيان - يتولّون القيادة بأنفسهم، «وقد أسهَم معظم الأمراء والخلفاء في الأندلس بقيادة الحملات العسكرية، وإذا تعذّر خروج الأمير بنفسه أرسل أحد أبنائه لينوب عنه في ذلك، ولكنْ يعيّن معه قائداً مجرَّباً يكون هو المسؤول عن الحملة...».



محراب المستنصر في مسجد قرطبة

وكان عبد الرحمن الداخل يخرج بنفسه إلى الغزوات والمعارك، وفي خبر عنه أنه كان خارجاً إلى الثغر في بعض غزواته[٥٩] فوقعت غرانيقُ[٦٠] في جانب من عسكره، وأتاه مَن يعرفُ كَلَفَهُ بالصيد، يُعْلِمُه بوقوعها ويُشهّيه بها، ويَحضُّه على اصطيادها، فأطرق عنه، ثم جاوبه[٦١]:

دَعْني وصَيدَ وُقَّعِ الغَرانقِ

فإن همّي في اصطيادِ المارقِ

في نَفقٍ إن كان أو في حالقِ

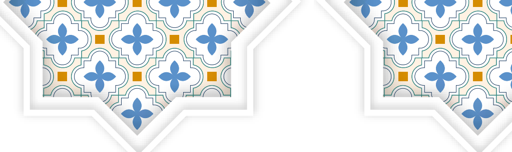
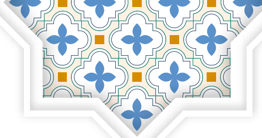
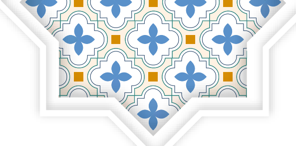
إذا التَظَتْ هَواجِرُ الطرائقِ

كان لفاعي ظِلَّ بَنْدٍ خافقِ

(59) **أخبار مجموعة**، ص117-118.

(60) الغرانيق جمع الغرنوق: من طيور الماء.

(61) المارق: الخارج على السلطة. والحالق: المكان المرتفع. والهواجر: جمع الهاجرة: شدّة الحرّ في منتصف النّهار. والبَنْد: العَلَم والراية.

ووصل هذا الملمح إلى أولاد عبد الرحمن الداخل وأحفاده، ونقرأ لعبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن الداخل من قصيدة أنشدها وهو في الثغور في الغزو، بعث بها إلى زوجته طروب، أوّلها[٦٢]:

فَقَدتُ الهوى مُذ فَقَدتُ الحَبيبا … فما أقطَعُ اللَّيلَ إلّا نَحيبا

يقول فيها بعد أبياتِ شوقٍ وغزل:

عَدانيَ عنك مَزارُ العدا … وقَودي إليهم لُهاماً مَهيبا
كأيّن تَخطّيتُ من سَبسَبٍ … وجاوزتُ بعد دروبٍ دُروبا
أُلاقي بوجهيَ حَرَّ الهجيرِ … إذا كاد منه الحَصى أنْ يَذوبا
أنا ابنُ الهشامَين من غالبٍ … أشُبُّ حروباً وأُطفي حروبا!

وقاد عبد الرحمن (الناصر) الجيوشَ بنفسه، ووحّد الأندلس التي تداعت أركانها في ذلك الوقت.

وهذا التقليد قديم في بني أمية، فقد قاد معاوية، رضي الله عنه، الجيوش بنفسه، وبعث ابنه (يزيد) إلى المعارك، وقد انتصر الأسطول الأموي في معركة ذات الصواري، وخرجت غزوة بحرية إلى القسطنطينية، بقيادة يزيد بن معاوية، وكان فيها عدد من أجلاء الصَّحابة.

ونهض عبد الملك بن مروان بنفسه، وخرج بجيشه إلى العراق ليقضي على حركة مصعب بن الزبير والي أخيه عبد الله بن الزبير... والكلام في هذا الباب يطول[٦٣].

ـ خُطّة الخيل:

كانت خطة الخيل[٦٤] من المناصب المهمة في الجيش الأندلسي، والخيل في الجيوش القديمة أساس وعنصر رئيسي. ولكننا نشير إلى عناية (الداخل) بالخيل لأمور تتعلق بالجيش أوّلاً، ولهواية شخصية كان قد اكتسبها من الشام. فقد كان جدّه هشام معنيّاً بالخيل عنايةً كبيرة، وكان عنده منها أعداد كبيرة جدّاً.

ـ اللواء:

اهتم الأمويون في الأندلس بلواء الجيش. وكان عَلَمُهُم في الشّام أبيض اللون، وهو كراية العُقاب راية رسول الله صلى الله عليه وسلَّم. وصار من عادة الأمويين في الأندلس الاحتفاء بعقد راية الجيش (لحملات الصوائف)، وذلك في أيام الجُمَع في مسجد قرطبة.

وكان الأمويون في الأندلس يحتفظون بالراية التي رفعها عبد الرحمن الداخل لجيشه الذي اجتمع له من أنصار الأموية، حين نهض لمحاربة يوسف الفهري. وقد انتصر عليه، وثبتَ له حكم الأندلس بعدها[٦٥].

العُرَفاء:

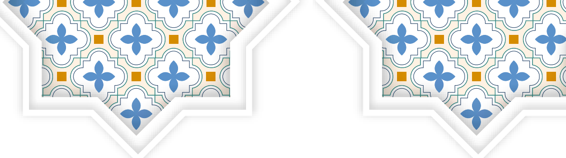
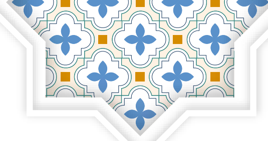
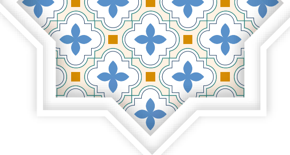
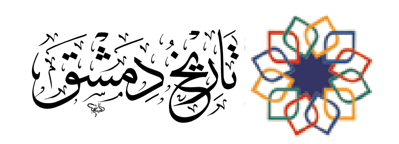
---

(62) القصيدة في: **الحلة السيراء**، لابن الأبار، ص114-115. واللهام: الجيش العظيم. والذي في الحلة: «لهاماً لهيبا» وقرأت النص كما ترى. والسّبسب: المفازة والأرض المستوية البعيدة. والهشامان: هشام بن عبد الرحمن الداخل، ثاني أمرائهم في الأندلس، وهشام بن عبد الملك بن مروان.

(63) انظر مثلًا: **الدولة الأموية**، الدكتور يوسف العش، ص154-156.

(64) الخطة: نظام، أو تنظيم.

(65) انظر: **تنظيمات الجيش**، ص61.

كان العرفاء معروفين في الجيش في المشرق، وقد نظم أعمالهم هناك زياد بن أبي سفيان، وكانوا مسؤولين عن الأمن والنظام، ومثيري الفتن بين قبائلهم، وكانوا مسؤولين عن جَمْع الجند عند النَّفير، فهم يشكلّون حلقة الاتصال بين القبائل والسلطة الإدارية للدولة الأمويّة. وكانت للعرفاء مهامّ مستجدة في الأندلس، بحسب اختلاف الظروف[٦٦].

ـ التعبئة وأساليب القتال:

كان نظام التّعبئة في الأندلس مشابهاً للترتيب السائد في الجيوش الإسلامية من حيث تقسيم الجيش إلى قلب ومقدّمة، وساقة ومَيمَنة، ومَيْسرة.... وقد اتُّبِعَ هذا النظام منذ عهد عبد الرحمن الأول إلى آخر عصر الدولة الأموية[٦٧].

على أن الأندلسيين استحدثوا أموراً جديدةً في أساليب الحرب وأدواتها منذ عصر عبد الرحمن الداخل[٦٨].

ـ الصّوائف والشواتي:

اعتمدت الدولة الأموية في المشرق على نظام الصّوائف والشواتي في حملاتها على البيزنطيين، وفي أماكن أُخرى، وكان «أسلوب الصوائف من أفضل الأساليب التعبويّة الهجوميّة التي استخدمها الأمويون في الأندلس، وهو أسلوب معروف مارسته الدولة العربية الإسلامية ضد البيزنطيين، وفي الأندلس استُخدم أسلوب الصوائف والشواتي للقضاء على المُتَنَزينَ والتمرّدات الداخلية...»[٦٩].

وعُني عبد الرحمن بالقوات البحرية مثل عنايته بالقوّات البَرّية، فأنشأ عدّة قواعد لبناء السفن في بعض الثغور البحريّة والنهرية: مثل: طَرّكونة، وطُرطوشة، وقرطاجَنّة، وإشبيلية، وغيرها.

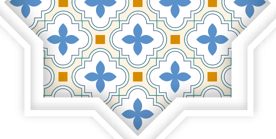
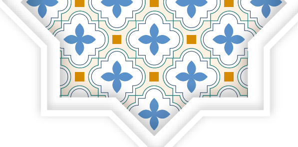
تاسعاً ـ المشاريع العُمرانيّة:

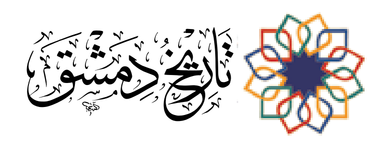
عُرف عن بني أميّة في المشرق عنايتهم بالعُمران: فقد عمروا المساجد، وكان لؤلؤة مساجدهم: الجامع الأموي الكبير في دمشق، وبنوا الجسور والقناطر، وشيّدوا القُصور لمناسبات معيّنة، ومنها تحلية البادية بهذه العمائر الغريبة، التي جعلوها ومرافقها المختلفة، وخصوصاً مصانع المياه، مثابةً لمرتادي البادية ولسكانها أيضاً. وكان للوليد بن عبد الملك اليد الطولى في حركة البناء والعُمران.

وكان لجدّ عبد الرحمن: هشام بن عبد الملك مشاركة في هذه الحركة الحضاريّة العُمرانية، وأنشأ «الرُصافة» القريبة من «الرّقّة» في الجزيرة الشامية لتكون رديفاً لدمشق، ومركزاً ثانياً لدار الخلافة الأمويّة.

وكانت هذه المباني تؤدّي مهامّ مختلفة، يحتاج إليها الناس من توفير العدد الكافي من دور العبادة، ومن تسهيل السفر الطويل على مجتازي البادية الشاميّة، وتسهيل التزوّد بالماء والغذاء، ومن الاستئناس بهذه الصُرح في رحلات الاستكشاف من جهة والاستمتاع بأجواء البادية - التي كانوا يعشقونها - من جهةٍ ثانية.

(66) تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي، من كتاب: **تاريخ العرب وحضارتهم**، (مرجع سابق). ص67-68.
(67) **تاريخ العرب وحضارتهم**، ص70.
(68) **تاريخ العرب وحضارتهم**، 75.
(69) **تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس**، ص78-80.





وإضافةً إلى ضرورات حركة الحياة الجديدة لعبد الرحمن في قرطبة خاصّة، وفي الأندلس عامّة، استفاد من تراث قومه الأمويّين في البناء والعُمران ووَصْل الحضارة بالبداوة، ونقل مشاهد الشام وذكرياتها، ودمشق ومعالمها، وأشهرها المسجد الجامع، إلى الموطن الجديد، في أرض السحر والشعر: قرطبة... والأندلس.

وأثَرُ عبد الرحمن في نقل التقاليد الشامية إلى الأندلس بالمعنى الواسع لكلمة (التقاليد) موصول بشخصيّته التي تأصّلت في الشام بين دمشق وسائر بُلدان الشّام التي جال فيها، أو استقرّ، أو زارَها.

وكانت بلاد الشّام قد استَوت خَصائصُها الحضارية منذ أيّام معاوية رضي الله عنه، وتفنّن الخلفاء من بعده في الإضافات والزِّيادات، وصار لدمشق تلك المَزايا التي استمرّت في بلاد الشام، وأثّرت في أقطار «الإمبراطورية» الإسلامية، كما يُطلق عليها بعض المؤرّخين، وكان أثرها في قرطبة والأندلس أكثر وضوحاً، وأوفَر خصائصَ، وأمثَلَ تقليداً.

ومن الطريف اللافت - حقّاً - استمرار دمشق على مكانتها الحَضارية والإبداعية، رغم تدمير المسوّدة العباسية للمدينة ومحاولة محو عطائها وإبداعها. ونقرأ في ديون البحتري كلاماً على دمشق، وهو يُشجِّع المتوكل العبّاسي على نقل العاصمة من بغداد، أو سُرّ مَنْ رأى، إلى دمشق، فقال من قصيدة عاطفيّة[70]:

أمّا دمَشقُ فقد أبدَتْ مَحاسنَها وقد وَفَى لَكَ مُطريها بما وَعَدا

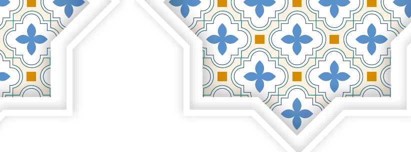
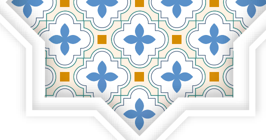
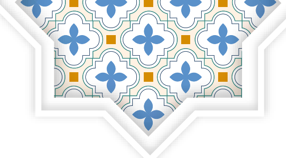
وكان وراء جَهود عبد الرحمن لنقلَ معالم الحضارة الشامية الدمشقية إلى الأندلس أُمور:

- فقد كان مملوء النّفس والخاطر من تلك التقاليد التي وسمت دياره القديمة بتلك السّمات المتميّزة التي صارت عالمية (على مستوى العالم آنذاك).
- وكان شاهداً واعياً على أيّام جدّه هشام الذي تابع ما عمله آباؤه وأجدادُهُ في البنيان والعمران، والاهتمام بمعالم الحضارة النظرية والتطبيقيّة من رعاية العُلوم والفنون، ووجوه الإبداع.
- وكان - حينَ ملَك أمور الأندلس - في حاجة إلى تأصيل أحوال الدّولة السّياسية والإداريّة، ووجد ذلك في تراث الدولة الأموية في المشرق، واعياً له، عارفاً بتفصيلاته...
- وأفاده تقارب القطرين الأندلسيّ والشامي من جهة الطبيعة وعناصرها في نقل التّراث الزّراعي، إلى الأندلس. وشُغف مؤرّخو عصر عبد الرحمن الداخل بشعره الذي ذكر فيه المشرق، وخصوصاً قطعَة ذكر فيها نخيل رصافة قرطبة الذي تداعت معه نخلات عاش في ظلالها في الرصافة الشامية، وغيرها.

قال[71]:

تبدَّت لنا وَسْطَ الرُصافة نَخلةٌ تَناءَت بأرض الغَرب عَن بَلَد النَّخْل
فقلْتُ شَبيهي في التَّغرُّبِ والنَّوى وطُولِ التّنائي عَنَ بَنيَّ وعَن أهلِي

(70) ديوان البحتري، ج2، ص710.
(71) الشعر في الحلة السيراء لابن الأبار، 1: 31.



واجتمع عنده في قرطبة نفر من الذين هجروا الشام قاصدين إلى الأندلس، من أهل الخبرة في الصنائع والزّراعة والعُمران، أو من الذين شجعهم عبد الرحمن على المجيء إليه. وكانت سمعة الأندلس في المشرق أنّها ديار تضمن لقاصدها وساكنها حياة كريمةٍ متميّزة.

- وتلاقى هذا الذي ذكرناه مع ما كانت الأندلس قد تزوّدت به من الملامح الشامية مع القادمين في «طوالع» متتالية، منذ أيام فتح الأندلس الأُولى في عصر الولاة.
- وأقول: إن الوعي الحَضاريّ الذي تمتّع به عبد الرحمن الداخل كان عاملاً مُؤثّراً في سرعة ظهور ملامح الدولة الأموية الجديدة في تلك البلاد البعيدة. لقد نقل عبد الرحمن معالم الحضارة بذكاء وخبرة ثم أضاف ما يناسب الديار الجديدة، حتى صار ما صنعه أُمثولة حضارية ذكرها المؤرّخون القُدامى والمعاصرون بإعجاب شديد. ومن هنا نفهم تلقيب المنصور العبّاسي عبد الرحمن بـ(صقر قريش) وهو خصمه اللدود. وتلقيب عبد الرحمن من قبل المؤرّخين بلقب العبقريّة. ونقرأ للدكتور شاكر مصطفى: «وتظهر عبقرية عبد الرحمن في اهتمامه بمختلف نواحي الحياة في الأندلس، وحين توفّي سنة (١٧٢هـ - ٧٨٨م) بعد ٣٥ سنة من الحكم عن ٦١ سنة كانت كل أسس الإمارة بما في ذلك حياتُها الفنية والفكرية والعمرانية والاقتصادية قد وُضعَت...».

وفي مطالعةَ عاطفيّة شاميّة ممزوجة بالإرث الحضاري لعبد الرحمن والأمويين في الأندلس نقرأ للدكتورة نجاح العِطار في مقدمة وضعتها للدراسات التي أُلقيت في ندوة: الثقافة العربية - الإسبانية عبر التاريخ قالت[٧٢]: «... أنا لم أكن في القمر لكنّني قرأتُه، ولم أعش في الأندلس لكنّني قرأتُها: عبد الرحمن الداخل، صقر قريش، كان قمراً، والوجود العربي في الأندلس كان قمراً: تكامل فتناقص فأفَل، ومن جديد يَبْزغ الآن في أصوله التي تعود إليها فكراً وعمراناً وثقافة وحضارةً وتاريخاً...».

ثم قالت: «... إن وثبة عبد الرحمن الداخل على الحكم في الأندلس هي وثبة في المكان والزمان، ذات بُعد وسَعة، وبمثلها، وعلى أساسها تُشادُ دولةٌ ما، وتمتلك القوّة والثقافة إذْ تمتلك العمران الذي به وحدهٍ ينهضُ الحكم، وتالياً المجتمع نهوضاً جَبّاراً مبنيّاً على أسس راسخة، في مضاء السيف والكلمة معاً، وفي عناقهما الدّائمُ...».

واسترسلت الدكتورة العطار، في أثناء حديثها الحضاري الأندلسي إلى جوانب من حياة عبد الرحمن ومآثره الحضارية، ونقله معالم التراث الشامي إلى الأندلس في متابعة علمية دقيقة.

ـ المباني والمشاهد والأوابد:

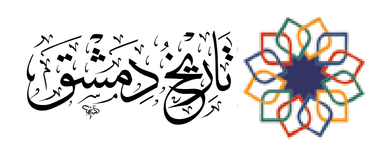
اجتمع لعبد الرحمن في قرطبة، وسائر بلاد الأندلس: التّقليد العريق الذي نقله - طوال حياته - من المشرق، والتجديد الذي احتاج إليه، وتألق على يديه.

و«استطاع عبد الرحمن أن يُعنى بالحاضرة الأموية الجديدة، أعني قُرطبة؛ فحصنَّها، وزيَّنها بالمنشآت الفخمة والرياض اليانعة. وكان أول ما أنشأ بها في عهده مُنْيَة الرُصافة، وقصرها المنيف.

---

(72) (ص:13).





وكان قصر الإمارة ضاحية ملوكيّةً جديدة، تليقُ بحاضرة ملكه، وتعيد ذكرى بني أمية بالمشرق؛ فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصراً فخماً تُحيط به حدائق زاهرة، وجلَب إليها الغُروس، والبذور، والنوى من الشام وإفريقية، وسمّى تلك الضاحية الجديدة بـ«الرُّصافة» تخليداً لذكرى الرّصافة التي أنشأها جَدّه هشام بالشام، واتخذها مقاماً ومُتَنَزّهاً ومركزاً للإمارة.

وكانت حدائق الرُّصافة أُمّاً لحدائق الأندلس. ومنها انتشرت في الأندلس غروس الشام وإفريقية.

وفي سنة (١٥٠هـ - ٧٦٧م) باشر عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه مدى أعوام.

وقد مرّ الأدباء المعاصرون الذين عُنُوا بالأندلس والمؤرّخون على جانب اللغة والأدب (شعره ونثره) في تراث عبد الرَّحمن، وأقف عند واحد منهم اكتفاءً بما قال، ونيابة عن كثيرين.

قال أ. محمد عبد الله عنان: «وكان عبد الرحمن شاعراً جيّد النظم، ناثراً فصيح البيان، قويّ الترسُّل، عالماً بالشريعة، وكان يُعتَبَرُ من أعظم بني مروان مكانةً في الأدب والبلاغة، وقد انتهت إليه بعض رسائله، وفيها: تبدو قوة بيانه، وفيض بلاغته، ومن ذلك رسالة موجزة وَجَّهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه: «أما بعد فدَعْني من معارض المعاذير، والتعسّف عن جادّة الطريق، لَتَمُدّنَّ يداً إلى الطّاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لأُلقِيَنَّ بنانَها على رَضف المَعصية[٧٣]، نكالاً بما قدّمَت يداك، وما الله بظلاّم للعبيد»[٧٤].

وهذا الأسلوب من البلاغة والإيجاز والإيعاد يُذَكِّر برسالة بعث بها يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وقد صارت الخلافة إليه، فلما بايع الناس وجاءَه عن مروان بن محمد (وكان والياً) بعضُ التلكّؤ في المبايعة كتب إليه: «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد، أمّا بعد، فإني أراك تُقدِّم رِجلاً وتُؤخِّرُ أُخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّتهما شئت، والسلام»[٧٥].

وكان ولاة الأندلس في مرحلة عصر الولاة بالأندلس قد نقلوا شيئاً من النُظم الأموية في الإدارة إلى الأندلس، ولكن «بنسبة محدودة» مثل تقسيم البلاد إلى كُوَر يتولّى كلاً منها عامل يُقيم في قاعدتها (مركزها الرئيسي) ومثل النظام الحربي للدولة.

ولمّا استقرت الدولة في الأندلس لعبد الرحمن «عمل على توثيق النظم الإدارية المعروفة في المشرق الإسلامي في عهد بني أُميّة، وتطبيقها تطبيقاً عمليّاً، وقد تمّ ذلك على نحو يُثير الإعجاب، وسرعان ما ارتقت الأندلس من مجرّد ولاية تابعة للخلافة إلى مصافّ الدول الكبرى المستقلّة.

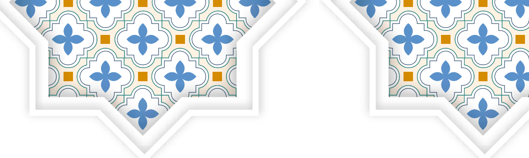
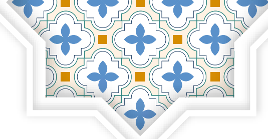
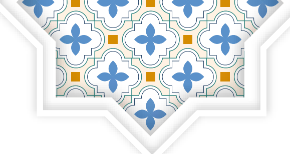
ونجح الأمير (عبد الرحمن) في إنقاذ الأندلس من الحرب الأهلية، ومن المؤامرات والثورات، حتى إنه أرغم عدوّه اللدود أبا جعفر المنصور على أن يعترف له بأمجاده وبطولاته، ويسمّيه: «صقر قريش» من دون غيره من رجالات العرب.

---

(73) بنانها: أي أصابع يد المُخاطَب. والرَّضف: جمع الرَّضَفَة: الحَجر المُحَمّى بالنّار. يهدده بالعقوبة، وذكر منها تقفيع أصابع يده (على سبيل التهديد بالعقوبة عامّة).

(74) **دولة الإسلام في الأندلس**، 1: 200-202.

(75) حكم يزيد بن الوليد مدة من سنة (126هـ - 744م) فقد مرض، وعاجلته الوفاة، وكان فصيحاً من خطباء بني أمية. وقد نقل د. فرّوخ من خطبه وترسّله (**تاريخ الأدب العربي**، 1: 692-695).


ولخّص الدكتور السيد عبد العزيز سالم حركة العمران أيام عبد الرحمن الداخل، وربط ذلك برغبته في تعظيم قرطبة، وإعطائها أبّهة الحكم، وقال: إنه زيّن عاصمته قرطبة بروائع المنشآت والمباني، و«قامت في البلاد في عهده حركة معمارية وعمرانية، لم يَسبق لها مثيل منذ وطئت أقدام المسلمين أرض الأندلس:

- فأقام مُنْيَةَ الرُّصافة.
- وقصر الدِّمَشق.
- وجامع قرطبة: الذي أعاد عبد الرحمن بناءه سنة ١٦٩هـ بعد أن ضمَّ إليه كنيسة بنجنت (بالشّراء) متّبعاً في ذلك ما فعله الوليد بن عبد الملك عند بنائه جامع دمشق.
- وقصر الحير[٧٦].

ـ المسجد الأمويّ:

وقد توقَّف المؤرخون والجغرافيون عند قرطبة عامة، وانتقلوا إلى مسجدها الجامع في أوصاف دقيقة، ومرويّات مدونة عن بنائه وتحسينه، وقياسه على المسجد الجامع الأموي بدمشق، والاستمرار في الزيادة فيه وتنميقه حتى استوى على أكمل صُورة.

ومما أورد الحميري في «الروض المعطار» نقولٌ عن الشريف الإدريسي في كتابه الشهير، ونقولٌ أخرى عن غيره، تُعطي القارئ فكرة واضحة عن المسجد وتُصَوِّره بالكلمات الدالّة المُوحية. قال، في مجرى كلامه على قرطبة: «وبها الجامع المشهور الشائع ذكرُه: «منْ أجَلّ مصانع[٧٧] الدُّنيا: كبَرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمالَ هيئة، وإتقان بُنيَة، تَمّم به الخَلفاء المَروانيّون، فزادوا فيه زيادةً بَعد زيادة، وتتميماً إثرَ تتميم حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحارُ فيه الطَّرفُ، ويعجز عن حسنه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنسيقاً، وطُولاً وعَرْضاً»[٧٨].

وقد وصفه أ. محمد عبد الله عنان، وذكر أحواله موجزة، وممّا قاله فيه: «كان عبد الرحمن الأموي جواداً، جمَّ البساطة والتواضع، يُؤثر لبس البياض ويعتمُّ به[٧٩]، ويصلّي بالناس أيام الجمع والأعياد، ويحضر الجنائز ويُصلّي عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويخاطبهم؛ ولم ينحرف عن هذه الديموقراطية إلّا في أواخر عهده، حينما نصحه بعض خاصّته بالترفّع استبقاءً لهيبة المُلك، والحَذر من بوادر العامة وشرّ المتآمرين»[٨٠].

أجمع المؤرخون والآثاريّون على أثر المسجد الجامع الأموي بدمشق في المسجد الجامع الأموي في قرطبة. وقد اعتمدوا على الدراسات الهندسيّة الحاضرة، وعلى أخبار مسجد قرطبة منذ إنشائه الأول على أيام عبد الرحمن الدّاخل، كما وردت في كتب المؤرّخين والآثاريين، والشعراء والأدباء الذين سجلوا ووصفوا.

---

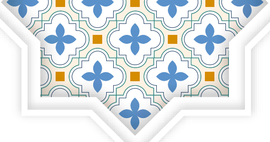
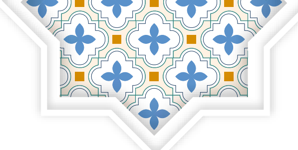
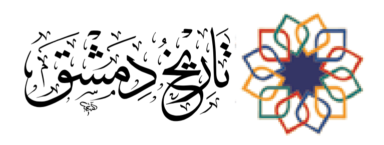
(76) **تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، ص206-207.

(77) المصانع جمع مَصْنَع وهي: المباني من القصور والحصون والقرى والآثار وغيرها.

(78) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص456-458.

(79) سار في التبييض على سنة قومه الأمويين في الأندلس فقد أشاعوا البَياض، وكانت رايتهم بيضاء. وخالف بذلك العباسيون الذين حملوا الناس على التسويد، ولبس العمائم السود والطيالس السود.

(80) **دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر**، 1: 201.

كان المسجد الجامع الأموي في دمشق النموذج الذي احتذته مساجد الأمصار الأُولى، ويرى كثير من الدارسين أن جامع دمشق يشارك المسجد النبوي في المدينة المنوّرة هذه المزيّة، وقد انتشرت معالم جامع دمشق الأموي في مدن مختلفة من بلاد الشام مثل جامع حلب الأموي.

وتأثرت مساجد مصر، وشمال إفريقية، وأهمها جامع القيروان، بجامع دمشق: في التخطيط العام، وفي المآذن، وصحن المسجد المحاط بالأروقة[81]. وأبرز المساجد (في دمشق) الجامع الأموي الكبير، الذي أنشأه الخليفة الوليد بن عبد الملك، وأُنجز في عام (٩٧هـ - ٧١٥م) في مكان معبد جوبيتير الرّوماني، وكان أنقاضاً إلا من هيلكه الذي استُعملَ لكنيسة القديس يُوحَنّا [النبي يحيى].

واستعمل المعماريون الأنقاض لبناء حرم المسجد بعرض ١٣٦م وعُمق ٣٧م. وفيه أربعة محاريب، وضريح.

وقد زُيّنت جدران جناحه الأوسط بالفسيفساء، وغُطّي الحرم بجَملونات مُسَنَّمة[82]، تعلوها في الوسط قُبّة النسر ويتألف من ثلاثة أجنحة، وجناح معترض.

وينفتح الحَرمُ على صحن واسع مساحته (١٢٢٥ ٤٨م) محاط بأروقة محمولة على أعمدة، ومغطّاة جدرانها وسقوفها بالفسيفساء في الأعلى، وبالرخام في الأسفل.

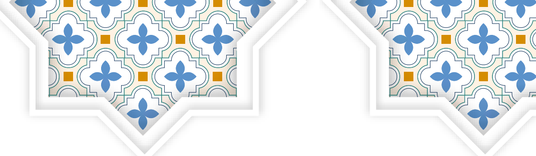
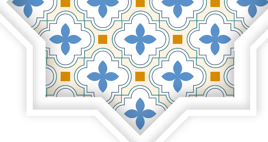
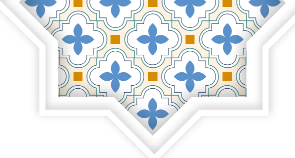
- وغُطّيت واجهة الجناح المعترض بالفسيفساء أيضاً.
- وللمسجد ثلاثة أبواب في الصحن، وباب واحد في الحَرم.
- وتعلو المسجد من أطرافه ثلاث مآذن أقدمها مئذنة العروس في شمالي الصحن، وأجملها مئذنة (قايتباي) المملوكيّة في الجهة الغربية، وتتفتّح في أطراف المسجد الأربعة مشاهد هي قاعات ضخمة، أشهرها المشهد الغربي الشمالي، والمخَصَّص للاستقبالات الرسميّة.... ومازال هذا المسجد محافظاً على ملامحه الأموية الأُولى، ويُعدُّ أكمل آبدة إسلامية، وكان مقرّاً للحُكم إذ استُعملت الأروقة المحيطة به لدواوين الخلافة.

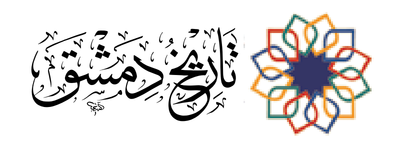
وللدكتورة ماريا روز امينوكال كلام في المقارنة بين مسجد قرطبة الأموي والمسجد الجامع الأموي بدمشق، خلصت فيه إلى أُمور تشغل قطاعاً واسعاً من كتابها، أوّلها: رصد حال التّسامح العظيمة لدى الأمويين في دمشق، وفي قرطبة.

قالت: «من الأمور الأثيرة عند مؤرّخي الأندلس حكاية يتداولها بشكل لافت من يعرفون تاريخ بناء مسجد الأمويّين الأكبر بدمشق في سنة ٦٤٠م عندما طالب مسلمو المدينة بفَضاء للصلاة، ثمّ شراء نصف كاتدرائية دمشق، وبذلك أصبحوا يشتركون فيها مع المسيحيّين، وصار المسلمون الذين قَدمُوا حديثاً يُصلّون في نصف الفضاء، والجماعة المسيحية الموجودة هناك من قبل تُصلّي في النصف الآخر. بعد سنوات عندما قرّر الخليفة بناء مسجد يليق بعائلته، وبإرثه اشترى النصف الآخر، وهدم

(81) **«أثر الجامع الأموي بدمشق على عمارة المسجد الجامع بقرطبة»، خليل إبراهيم المعيقل**، بحث في مجلّد: السجل العلمي لندوة الأندلس: قرون من التقلّبات والعطاءات، القسم الثالث والعمارة والفنون: 182.

(82) **العمارة في دمشق**، عفيف بهنسي (ص223-259) من كتاب: **دمشق الشام عاصمة الثقافة العربية**، 1429هـ2008-م، تأليف مجموعة من الباحثين، هيئة الموسوعة العربيّة.



هيكل الكنيسة القديمة، وشرع في أشغال بناء مسجد عاصمة ملكه المزدهرة في نفس الموقع.

تبيّن هذه الحكاية كيف انطلق الأمويّون الذين نزلوا بسورية المُهَلّنة المسيحية في بناء مسجدهم القديم الأول، وكيف استطاع الأمير المنفيّ [تعني عبد الرحمن الداخل] بناء أوّل مسجد كاتدرائية في الأندلس، كما تكشف أنّ مشروع قرطبة والأندلس كان يتمثَّل في السّعي إلى إعادة إنتاج ما دُمِّرَ في سورية. وهذا يفيدنا كثيراً في فهم انشغال الأمويّين بالحفاظ على هذه الدولة، وتعدّدها الاثني، والديني.

منذ البداية كان هذا المكان الذي خَصَّهُ المُسلمون من كل مكان وزمان بالعديد من القصائد مرسوماً بشكل قوي بالجمالية الأندلسية[٨٣]. هذه الجمالية المستوحاة من الأشكال المحلية كانت أيضاً ثناءً مُوَجَّهاً إلى سوريا الأمويّين التي ستظلّ دائماً مصدر الشرعية الأصلية. حتّى الخصوصيات الأكثر إلغازاً من هذا البناء الكبير يُمكن تفسيرها بالتعطّش إلى إعادة ما افتُقدَ في البلاد القديمة، على هذه الأرض الجديدة؛ إذْ كانت القبلة التي تُشير في كل المساجد إلى مكّة، تَستدير هنا نحو الجنوب، وكأن المسجد يُوجَدُ في دمشق»[٨٤].

ـ الرُصافة:

ذكر ياقوت الحموي في معجمه[٨٥] أكثر من موضع في المشرق يُدعى باسم الرُصافة، منها رُصافة الحجاز، ورصافة هشام، ورصافة بغداد، ورصافة الكوفة، ورصافة نيسابور، ورصافة واسط. وذكر رصافة قُرطبة[١].

وأشهر رصافات المشرق تلك التي في الجزيرة الشامية قريباً من الرقّة ومن ضفاف الفرات. قال ياقوت: «رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية، بناها هشام لمّا وقع الطاعون بالشّام، وكان يسكنها في الصّيف...»[٨٦]، وذكر ياقوت الرصافة تحت عنوان «الزوراء»: رصافة هشام بالشّام.

وقد ذكر الحميَريّ في «الروض المعطار» إضافة إلى رُصافة قرطبة واحدة أخرى بالأندلس هي رُصافة بَلَنسيَة (بيَن هَذه المدينة وبين البحر)؛ قال: وأظن منها الرُصافي الشاعر مادح عبد المؤمن بن عليّ. وظَنُّ ياقوت صحيح، وقد جمع د. إحسان عباس شعره وطبعه أول مرة سنة ١٩٦٣م، وقاله في حاشية الروض[٨٧].

ويبدو من الأخبار أن هذه المنطقة كانت مرتاداً ومتنزّهاً قبل الإسلام، وقبل بناء هشام لهذه المدينة.

وكان خروج هشام بن عبد الملك إلى منطقة الرصافة لسببين رئيسيين: أحدهما البعد – ولو

---

(83) نذكر بيتين لابن عطية المحاربي الأندلسي في وصف قرطبة:

بأربعٍ فاقت الأمصارَ قرطبةٌ ... منهنّ قنطرة الوادي وجامعُهَا

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيءٍ وهو رابعُها!

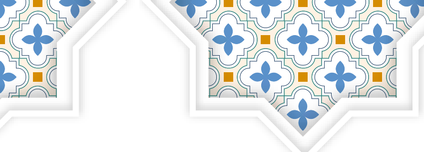
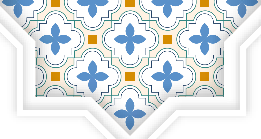
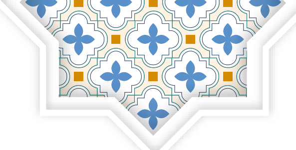
(**نفح الطيب**، 1: 153).

(84) **الأندلس العربية: إسلام الحضارة وثقافة التسامح**، ص53.

(85) **معجم البلدان، ياقوت الحموي**، 3: 269.

(86) **معجم البلدان.**

(87) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، الحميري، 269.

مؤقتاً - عن دمشق التي هاجمها الطاعون، أو ظهرت بوادرُه. والثاني: إضافة الرصافة إلى دمشق لتكون عاصمة ثانية تساعده في إدارة البلاد ومعالجة مشكلات كانت تأتي أحياناً من شرق الدَّولة.

وأورد ياقوت في «دير الرُّصافة» خبر دخول المتوكل العباسي المدينة وجَولانه في قصور هشام ومنازل أولاده «فجعل يدور في قصوره وفي قصور ولده».

إذن اكتسبت رصافة هشام صفة العاصمة الثانية للدَّولة الأموية، ونالت من هشام العناية التامة بالمباني والمرافق العامة للدولة وبسط البساتين والحدائق قريباً منها، وكان في جملة ما اعتنى به اقتناء الخيول، فكان عنده منها الأعداد الغفيرة.

في هذه البيئة:

- لقي عبد الرحمن حفيدُ هشام العناية التامة من جدّه.
- وتمرّس بأحوال الدولة، على صغره، فقد كان هشام يقربه من مجلسه، ويترك له حرية الحركة، وكان عبد الرحمن طُلَعةً، فاستفاد ممّا يصلح للإدارة والإمارة كثيراً، مع تلك السنّ المبكرة.
- واستظل بظلال النخيل، حتى إنه لإلفه النخل، صار عنده رمزاً للوطن، ومَثاراً للحنين إلى الأهل والديار.
- وعرف تلك المناطق على اتّساعها، وخصوصاً في كورة قِنّسْرين التي كانت الرّصافة منها، أو حاضرة بارزةً فيها.
- هذه الخلفيّة من معرفة الدنيا، والعيش في ظلال حركة الحياة اليومية مع الناس ذوي الأهمية، والناس العاديين الذين يُحرّكون جوانب المجتمع الاقتصادية والاجتماعية، كانت رصيداً له حين أدار حكم الأندلس.

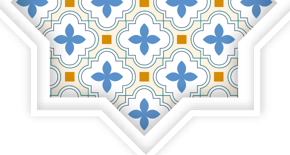
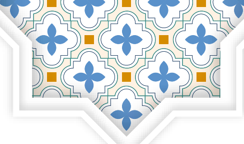
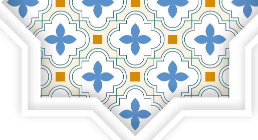
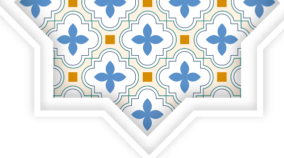
ولم يكن تشييد رصافة قرطبة لغرض النزهة فحسب، أو لغرض المشابهة والمحاكاة لرصافة هشام، ولكن عبد الرحمن اتخذها مكاناً يدير منه أُمور الإمارة، وجعلها حافزاً لمن يرغب في الالتحاق بها من أبناء الدَّولة.

وأسهم بناء الرُّصافة وعمارتها في تلبية حاجة نفسية عند عبد الرحمن الذي قسم قلبه نصفين: واحد بالشام - على علاّت الشام آنذاك - والآخر في الموطن الجديد: الأندلس، وقرطبة التي مَثّلت له (دمشق) ورصافته التي وصلته برصافة جدّه وأيّامها الخالية.

في الأندلس رُصافتان، واحدة إلى جانب قرطبة، والثانية إلى جانب بلنسية. أما رصافة قرطبة فقد أنشأها عبد الرحمن الدّاخل متابعةً لذكريات مواطنه القديمة في الشام. والرُّصافة الأم هي بلدة إلى جانب الرقة في الجزيرة الشامية مَصَّرها هشام بن عبد الملك، واتخذها مقراً ثانياً - وأساسيّاً - للخلاقة الأموية.

ثامناً _ في الفكر والثقافة والفنّ: مذهب الأوزاعي من الشام إلى الأندلس:

في كتب التراث رسالة (كتيب صغير لطيف الحجم) عنوانه «مَحاسِن المساعي في مناقب الإمام



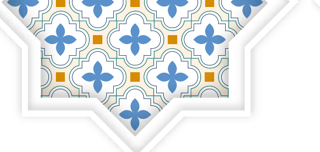
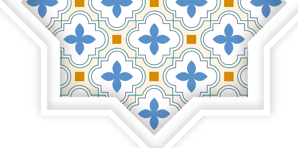
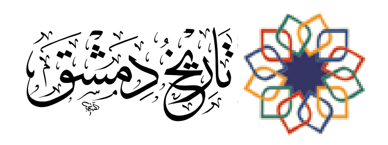
مأذنة مسجد قرطبة

أبي عمرو الأوزاعي»[٨٨]، وفي مقدمة محقق الكتاب الأمير شكيب أرسلان[٨٩]: «كان الإمام الأوزاعي من الطبقة الأُولى من مجتهدي الإسلام، لا يتأخر مكانه عن مكان الأئمة الأربعة أبي حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم جميعاً... وكان الأوزاعي إمام أهل الشام بإجماع المؤرّخين، وتبعاً لانتشار مذهبه في الشام انتشر في الأندلس، ويُقال إن أهل الشام لبثوا يعملون بمذهب الأوزاعي في الفقه نحواً من مئتين وعشرين سنة إلى أن غلب عليهم مذهب الشافعي، وأن أهل الأندلس لبثوا يعملون به إلى زمن الأمير هشام بن عبد الرحمن الدّاخل حين غلب مذهب الإمام مالك على تلك الدّيار، وذلك في أوائل المئتين للهجرة»[٩٠].

وقدّم الدكتور عبد الواحد دَنُّون طه تعليلاً لانتشار مذهب الإمام الأوزاعي في الأندلس فقال تحت عنوان: «محاولة الحفاظ على وحدة الأمّة الروحية»:

«كانت الحياة الدينية في الأندلس في الفترة الأُولى متأثرة ببلاد الشام، فقد اعتنق أهل الأندلس مذهب الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشام المُتَوفّى سنة ١٥٧هـ - ٧٧٣م وكان هذا الإمام من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضدّ العدو البيزنطي. ومن هنا كان مذهبه يركّز على التشريعات الحربيّة، وأحكام الحرب والجهاد، وكانت هذه الأمور تناسب وضع أهل الأندلس في الفترة

(88) **مَحاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي**، تحقيق شكيب أرسلان، ص4، وللزركلي تحقيق في اسم المؤلف: **الأعلام**.
(89) شكيب بن حَمّود أرسلان 1286-1366هـ 1869-1946م عالم بالأدب مؤرخ من أكابر الكتاب (**الأعلام**، 3: 173).
(90) **حضارة العرب في الأندلس، خليل إبراهيم السامرّائي**، من كتاب: **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ص316.

الأولى، حيث كان وضعهم في هذه البلاد قائماً على الحرب والجهاد، ولهذا اعتنقوا مذهب الأوزاعي. ومن العلماء الذين ساروا في الأندلس على مذهب الأوزاعي: صعصعة بن سلام الشّامي المتوفى ٢٠٢هـ – ٨١٦م وكان تلميذاً للأوزاعي، وعليه كانت تدور الفُتيا بالأندلس أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وصدراً من أيام هشام بن عبد الرحمن، وولي الصّلاة بقُرطبة، وفي أيّامه غُرِست الشجر في مسجد قرطبة الجامع، وهذا على مذهب الأوزاعي»[٩١].

قلت: لكن تمكُّن مذهب الإمام مالك في الأندلس كان أيام الأمير الثالث الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل[٩٢].

وكان عدد من رجال الأندلس تتلمذوا على الإمام مالك، وفيهم شبطون (زياد بن عبد الرحمن اللخمي) المتوفى نحو سنة ٢٠٤هـ – ٨١٩م، وهو أول من أدخل (الموطّأ) كتاب الإمام مالك إلى الأندلس، ومن كبار تلاميذه يحيى بن يحيى الليثي المتوفى سنة ٢٤٣هـ – ٨٥٧م، ونال لقب (عاقل الأندلس) من الإمام مالك نفسه[٩٣].

وقدم د. دنّون تعليلاً آخر لانتشار مذهب الإمام مالك في الأندلس بعد مذهب الإمام الأوزاعي، وقال: «إن عقلية أهل الأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، ولهذا اعتمدوا أولاً على مذهب الأوزاعي، وهو من أنصار مدرسة الحديث، ثم اعتمدوا بعد ذلك على مذهب مالك الذي يسير في هذا الاتجاه، ويُعرف أصحابه بأهل الحديث»[٩٤].

وقال ابن حزم: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عن السلطان (الأمير الأموي: الحكم بن هشام) مقبول القول عند القضاة، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يُشير إلا بأصحابه، ومَن كان على مذهبه...»[٩٥].

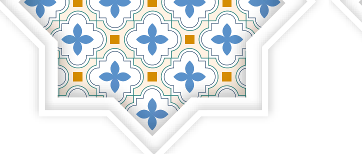
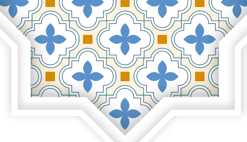
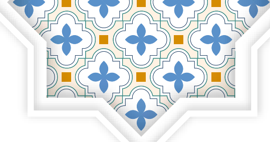
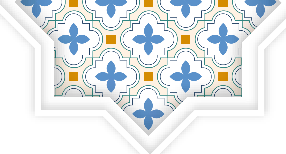
تاسعاً _ اللّغة والأدب (شعره ونثره):

انتشرت اللغة العربيّة في أنحاء الدنيا (العالم القديم) بعاملين أساسيين: القرآن الكريم من جهة والفتوحات العربية الإسلامية من جهة أخرى.

وسريعاً ما صارت دمشق مركزاً من مراكز نشر العربيّة وتعليمها، وتمكينها في الناس (مُسلمين وغير مسلمين)؛ ونجحت دولة بني أمية في المشرق في تعريب الدّواوين، وتعريب الطّراز، وإصدار النقد، وصارت أيضاً مركزاً من مراكز حركة العناية باللّغة، وجمع الأخبار، ورواية الأشعار.

وكان المسجد الجامع الأُموي من فترة مبكّرة من القرن الهجريّ الأول مقرّاً لأول معهد علمي تعليمي أسَّسه الصحابي الجليل أبو الدرداء، رضي الله عنه[٩٦]. وأسهمت هذه الحركة التعليمية

(91) **عهد الإمارة في الأندلس**، عبد الواحد دنّون طه (ضمن كتاب: **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ص110-111).
(92) **نفح الطيب**، 3: 230.
(93) **جذوة المقتبس**، الحميدي، ص382-383.
(94) **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ص112.
(95) **نقله المقري في نفح الطيب**، 2: 10.
(96) **أبو الدرداء، أول معهد للتربية والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية**، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 88، الجزء الثاني، لسنة 2015م (ص: 441 وما بعدها).





الثقافيّة في سرعة نشر العربيّة في بيئة بلاد الشّام. وظهرت طبقة من الإداريين وكتّاب الدّواوين مزوّدين بالموروث الإداري المحلّي المُعَرَّب، وبالقدرة اللغوية والأدبية. وكان في هؤلاء سالم مولى هشام، وعبد الحميد الكاتب الذي بلغ بفنّ الكتابة الديوانيّة والأدبية مبلغاً عالياً، وما يزال قَدْرٌ من رسائله باقياً دالاًّ على ذلك(٩٧).

وكانت صنعة الإمام الأوزاعي الكتابة: وبقيت من رسائله وفرائد كلامه بقية دالّة. وكانت نسخة من رسائله بين يدي أبي جعفر المنصور يُطالع فيها ويعجبُ من بلاغتها(٩٨).

وقد انتقلت هذه التقاليد من التعريب، وتمكين العربيّة ونشرها، ونموّ فن الكتابة إلى الأندلس مع الفاتحين الأوائل، واستطاعت همّة الأمويين في الأندلس منذ عبد الرحمن الداخل في جعل اللغة العربية لغة المجتمع الأندلسي، على اختلاف ثقافاته القديمة، ولغاته المحلّية. وعزّز هشام بن عبد الرحمن هذه المكانة بإصدار «مرسوم» يجعل العربية لغة الدولة الرسميّة، ولغة الحياة(٩٩).

وقد عرض المستشرق الإسباني (بالنثيا) لهذا الموضوع في كتابه المترجم وقال إن المُستعربين: «كانوا يؤثرون استعمالَ لغة العرب، وأسماءَهم، وأزياءَهم، ويجتهدون في أن يأخذوا الطابع الإسلامي في كل مناحي الحياة، ولا يجهل أحد حسرات ألبرو القرطبي، وهو يتحدّث بجلاء عن ولع نصارى الإسبان بالأدب العربي..»(١٠٠).

وكان عبد الرحمن حلقة من حلقات شُعراء بني أميّة: بدأت في الشام، وانتقلت معه إلى الأندلس. وكان خُلفاء بني أميّة ينظمون الشعر، وكان كثير منهم يُكثرون من النّظم، وتابعهم مروانيّو الأندلس فنظم أكثر أمرائهم وخلفائهم الشعر، وخلّف بعضهم من الشعر ما يمكن أن يُطبع في ديوان مستقل(١٠١).

وفي خبر عن الحكم المستنصر (٣٥٠هـ - ٣٦٠هـ = ٩٦١ – ٩٧٠م) أنه كلّف أحد علماء الأندلس بجمع أشعار بني أمية سنة ٣٦٢هـ - ٩٧٢م، كما جمع الصولي في المشرق أشعار خلفاء بني العباس، فصنعه الأندلسي وقدّمه إلى الحكم(١٠٢).

وقد عني عدد من المعاصرين بجمع أشعار بني أمية في الأندلس - وفيهم شعر عبد الرحمن الداخل - وصدر أكثر من كتاب في هذا المقصد(١٠٣).

وممن توفّي بالأندلس من أمراء بني أمية الشعراء من الداخلين إلى الأندلس بعد عبد الرحمن: حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك، وكانت وفاته سنة ١٧٢هـ - ٧٨٨م(١٠٤).

ـ شعر عبد الرحمن:

بقي من شعر عبد الرحمن الداخل سبع قطع في أربعين بيتاً، ويتنازع عبد الرّحمن قطعتين مع عبد الملك بن بشر، وعبد الملك بن عمر، وهي أشعار تدور حول الفخر بهمّته الحبرية والإدارية

(97) انظر مثلًا: **تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ**، ج1، ص723.

(98) ينظر ترجمته في **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، 7: 103. **الأعلام** للزركلي 3: 320.

(99) **قرطبة في التاريخ الإسلامي**، ص: 89-90. عنان، 1: 229.

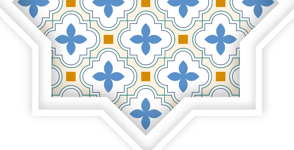
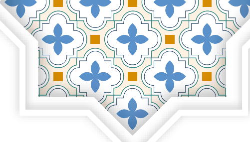
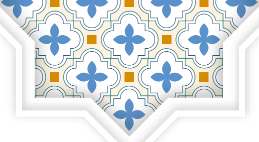
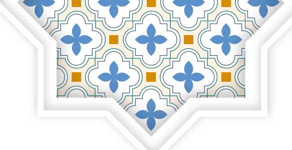
(100) **تاريخ الفكر الأندلسي**، آنخل بالنثيا، ص485-486.

(101) انظر مقدمة **ديوان بني مروان في الأندلس**، ص37 وما بعدها.

(102) **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي**، 1: 393.

(103) **ديوان بني مروان في الأندلس، فقرة: شعر بني أمية في الأندلس**، ص37.

(104) **الحلة السيراء**، ابن الأبار، 1: 59 (وفي **ديوان بني مروان**، ص279).

وإقامته الدولة المروانية في الأندلس، والوصف، والحنين إلى دياره العتيقة في الشام. وهي تدل على تمكّن من اللغة، وإتقان صنعة الشعر، والبراعة في حُسن الصياغة ودقة الصناعة.

وكَثُر ذكر النَّخيل، والدّيار الشاميّة، والذكريات القديمة في هذه القطع، ولم يَنْسَ عبد الرحمن أن يُذكِّر بسوء ما صنعه المسوّدة العباسيون بقومه، وبالبلاد عُموماً.

وممّا شاع من شعره، وتناقلته الرُّواة قوله في الحنين إلى أرض الشام[105]:

أيُّها الرّاكبُ المُيَمِّمُ أرضي ... أقْرِ من بَعضي السَّلامَ لبَعضي

إنَّ جِسمَي، كما عَلِمتَ، بأرضٍ ... وفُؤادي ومالكيه بأرضِ

قُدِّرَ البَينُ بَينَنا فافتَرَقنا ... وطَوَى البَينُ عَن جُفوني غَمضي

قد قَضَى اللّه بالفراقِ عَلَينا ... فعَسى باجتماعِنا سَوفَ يَقضي

وقوله[106]:

تبدَّت لنا وَسطَ الرُّصافة نَخلة ... تَناءَت بأرض الغَرب عَن بَلَد النَّخْلِ

فقُلتُ شَبيهي في التَّغرُّبِ والنَّوى ... وطُول التّنائي عَنْ بَنيَّ وعَنَ أهلي

نَشأت بأرض أنت فيها غَريبةٌ ... فمثلُك في الإقصاء والمُنتأى مثلي

سَقَتك غَوادي المُزن مَن صَوبِها الذي ... يَسُحُّ ويَستَمري السّماكَينَ بالوَبْلِ

وردَّد عبد الرحمن فكرة الاغتراب في أكثر من موضع من هذا الباقي من شعره، وكان عزيزاً على عبد الرحمن تَرْكُ دمشق والرّصافة وقنّسرين وسائر البلدان والمواضع التي شهد طفولته وفتُوّته، وشبابَه الأول، والتي تحتضنُ البقيّة الباقية مَن أهله الذين نَجَوا من سيوف المُسوِّدة ووسائل القتل الشّنيعة، الذين لم يُصدّقوا وعودَ العباسيين الكاذبة. قال[107]:

يا نخلُ أنت غريبةٌ مثلي ... في الغرب نائيةٌ عن الأهل

فابكي وهل تَبكي مُكَمَّمةٌ ... عَجْماءُ لم تُجبَلْ على جَبْلي

لو أنَّها تَبكي إذنْ لبَكَت ... ماءَ الفُرات ومَنبتَ النَّخْلِ

لكنَّها ذَهلَت وأذهَلَني ... بُغضي بَني العَبّاسِ عَن أهلي

وهذه القطع (وسائر شعره الباقي) ترقى إلى درجة الشعرِ العالي الطبقة، وهو شعر يكتنفه الحنين إلى الأرض والأهل، والتشوّق إلى معاهد الصبا ومدارج الشّباب.

ولكنّ عبد الرحمن، وجيله من الشّاميّين الوافدين ائتلفوا مع الديار الجديدة التي تُشبه الديار القديمة. وما نَقَصَ من وجوه الشبه استدركه عبد الرَّحمن، واستجلبه من الشّام: مادّياً كان، أو معنوياً.

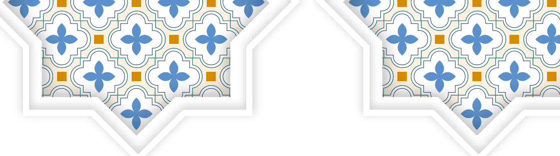
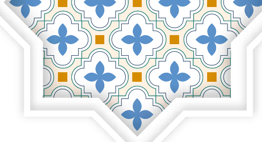
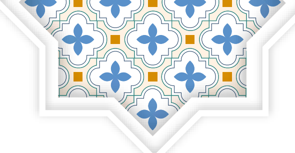
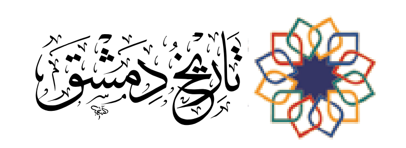
ـ من تَقاليدُ الشِّعر الأمويّ:

حَفظَت كُتبُ التّواريخ والتّراجم، وكتب الأدب وغيرها تراثاً شعريّاً مما أنشده خلفاء بني أميّة، ونَفرٌ آخَرونَ من هذه الأسرة. ولا شكّ في أن هذا الذي وصل إلينا ليس نتاجهم كلّه: بسبب عوامل

(105) النصّ في **الحلة السيراء**، 1: 36 ودَوَّنَها في: **ديوان بني مروان في الأندلس**، ص279.

(106) **الحلة السّيراء**، 1: 37. (**وديوان بني مروان**، ص281).

(107) **الحلّة السيراء**، 1: 37 (**وديوان بني مروان**، ص282).

الضّياع المُختلفة.

وفي المطبوع من دواوين خُلفاء بني أُمية في المشرق: ديوان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[108]، ويزيد بن معاوية[109]، والوليد بن يزيد[110]، وكان نفر كثير من بني أمية ينظمون الشعر، ويُجوِّدون فيه؛ ولو جُمعت أشعارهم المتفرقة لجاءت في كتاب حافل.

وفي مطالعة لجامع شعر معاوية وشارحه قال إنه: «ينتمي إلى أسرة تقدّر الشعر، وتُنشده (تنظمه)»[111] و... إلى الأشعار المروية عن جدّ معاوية: حرب وعن والديه أبي سفيان وهند. قال: «وأقبل معاوية على الشعر، وهو يرى فيه مصدراً للتعليم والتأديب، ومورداً للفصاحة والبيان، ومنهلاً للمروءة والشجاعة... ورأى في الشعر ما يتمّم الشخصية العربية الإسلامية القيادية...»[112]، وذكر موقف معاوية في معركة صفين حين اشتدّ القتال ليلةَ الهرير، وما ثبّته إلا ما تذكَّره من شعر عمرو بن الإطنابة:

أبَتْ لي همّتي وأبى بَلائي ... وأخذي الحَمْدَ بالثَّمَن الرَّبيح
وإقحامي عَلى المَكروه نَفسي ... وضَربي هامةَ البَطَل المشيَح
وقَولي كلّما جَشأت وجَاشَت ... مَكانَك تُحمَدي أو تَستَريحي!..

وكان معاوية يستشهَد بالشعر المناسب في رسائله التي يبعث بها، وفي الأغراضَ المَختلفة كلّما آنس من إيراد الشعر إيضاحاً لموقف أو تعزيزاً لرأي.

عاشراً_ في الموسيقا والغناء:

لقد دخلت الموسيقا العربية مع الوافدين من المشرق، ونخصّ منهم وافدي الحجاز. وأسهم (زرياب) في إحداث موسيقى عربيّة، سرعان ما اتّسمت بسمات أندلسيّة: وقد تأثرت شبه جزيرة إيبيريا بالموسيقى والغناء العربي، ثم الأندلسي، وانتقلت تقاليدهُ إلى أوربّة.

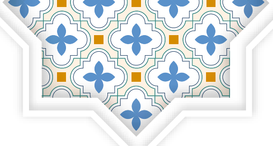
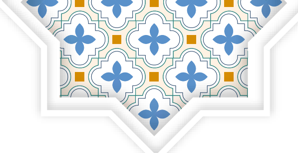
ومن الآثار الموسيقية الغنائية الباقية ممّا ورد على الأندلس من المشرق منذ سنوات الفتح الأُولى: (الحُداَء) وهو يقوم على إنشاء فردي من دون مشاركة أية آلة موسيقية. وتشتهر به اليوم لشبونة، وغيرها في (البُرتغال).

- وقد سَمعتُ هذا الحُداَء بالبرتغالية، وكان الحادي يردّد صوته بلغته، ولكنْ بنغم عربيّ مُدَهش.
- وذكر مثل ذلك د. حسين مؤنس في كتابه: رحلة الأندلس[113]، وهو يصف مشاهداته في لشبونة (واسم هذه المدينة عند العرب أُشبونة أو الأشبونة).

وسيكون للموسيقى والغناء شأن آخر بعد نزول (زرياب) ديار الأندلس، وإحداثه نهضة فنية ما تزال آثارُها ماثلةً إلى اليوم.

---

(108) **ديوان معاوية بن أبي سفيان**، جَمعه وحققه وشرحه فاروق السليم بن أحمد.
(109) **ديوان يزيد بن معاوية** جمعه وحققه وشرحه الدكتور واضح الصّمد.
(110) **ديوان الوليد بن يزيد**، جمع وترتيب ف غابرييلي وخليل مردم.
(111) **ديوان معاوية**، 23.
(112) **ديوان معاوية**، 24-25.
(113) **رحلة الأندلس** (عند استعراض زيارته لمدينة لشبونة).

ـ خُلاَصة وخاتمة:

كانت ظاهرة نقل التّراث الشامي الأموي، وسائرَ ما يتعلّق بالتقاليد والعادات والمعطيات الحضاريّة إلى الأندلس ظاهرة بارزةً لافتة؛ ذلك بأنها:

- نقلت ذلك كلّه من بلاد بعيدة (في المشرق) إلى بلاد نائية في المغرب (الأندلس).
- وكان نقلاً قاصداً، أرادَ منه ناقلوه - وخصوصاً أول حاكم أموي للأندلس - أن يكون متابعة للشام، واستفادةً من الرقي الحضاري، واستعانة على بناء دولة عصريّة تجمع بين ما في المشرق وما سَوف يستحدثونه في الغرب.
- وكانت مُمتَدَّة لعقود طويلة، بدأت قبل عبد الرحمن، واستمرت بعده، ولكنه كان واسطة العقد في ذلك كله، حتى بلغت الأندلس الأموية أوجها مع عبد الرحمن الثالث، الملَقب بالناصر، الذي حكم بين (٣٠٠ - ٣٥٠هـ = ٩١٢-٩٦١م).

ويَدخُل في هذه الظّاهرة تَقوِيةً وتَثبيتاً واستمراراً كونُ أهل الشام في الأندلس عصَبَ الحياة السّياسية... وكانت قرطبة تَتَرَسَّمُ خطا دمشق: تأخذ عنها، وتزيدُ على المنهج، فيها.

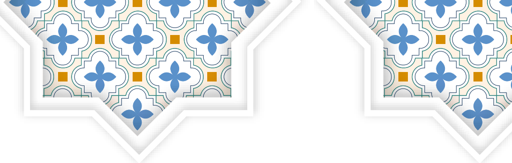
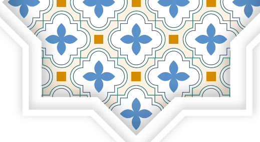
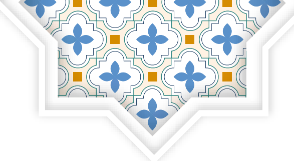
نعم! بلغت الشام في العصر الأموي (الذي انتهى سياسيّاً سنة (١٣٢هـ -٧٤٩م) مبلغاً عظيماً في مجال الحضارة العالميّة والإنسانية. ويُدهَش المؤرّخ المتابع لهذه السرعة الفائقة التي وصلت فيها الدولة العربية الإسلامية إلى هذه الذروة في مجالات العلوم والفنون والآداب، وفي العمران والبنيان، وفي انطباع الحضارة الوليدة الجديدة بالطابع العربيّ الإسلاميّ الموصول بالغاية الواضحة: حضارة تُفيد الناس، وترفع من شأن الحياة، وتجدّد في الأساليب الموصلة إلى الغاية: وهي غاية متجدّدة.

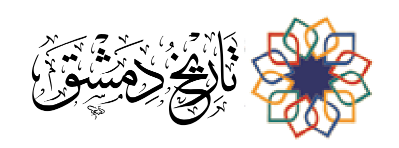
وأشاد المُؤرّخون القدامى والمعاصرون (من العرب ومن المستشرقين) بعقيدة الحكم الأموية القائمة على احترام الإنسان، وعلى التّسامح الذي انسَاح من المشرق إلى الأندلس. وهو تسامح إيجابي: يُبعد كل الأنشطة عن الشطط، ويقع في نفوس الآخرين موقعاً حسناً....

وقد صَدَّرتُ البحثَ بكلمة الدكتورة (مينوكال) التي جعلت من هذا التّسامح الأموي الأندلسي مفتاحاً لنجاح عبد الرحمن، والأمويين، وأُمثولةً قلّ نظيرها في التاريخ.

لقد صَنَع العرب في الأندلس حضارة عظيمة، بقي منها - رغم عوادي الزَّمن - من العلوم والفنون والآداب والمُنجزات، والأوابد ما يَشهَدُ لهذه الأمّة في ذلك القطر بالتفوّق، وبالسّخاء في تقديم منجزات الحضارة للأوربيّين، وفي إثبات التقدّم العلمي والفني والثقافي عامة لأهل الأندلس...

وهي سمات حضارية تألَّفت من تراث دمشق والشام، ومن إبداعات قرطبة والأندلس، فكانت مزيجاً لم يعرف التاريخ له مثيلاً، وتراثاً حيّاً لا يموت!



ـ مصادر البحث ومراجعه:

ـ الكتب المطبوعة:

ـ الآثار العربية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، ١٣٨١هـ-١٩٦١م.

ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية.

ـ الأعمال الشعرية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٨١م.

ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، لمؤلف مجهول، طبع في مجريط بمطبعة ربْدَنَيّر ١٨٦٧م.

ـ الأندلس العربية، إسلام الحَضارة وثقافة التّسامح، ماريا روزا مينوكال، ترجمة: عبد المجيد جحفة ومُصطفى جَبّاري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٦م.

ـ الأندلس في التاريخ، شاكر مصطفى، كتاب الجيب، رقم ١٤٧، اتحاد الكتاب العرب، دمشق (د.ت).

ـ الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامّة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

ـ أيام الثقافة العربية في دمشق، ترجمة رفعة عطفة، وزارة الثقافة بدمشق، ١٩٩٢م.

ـ البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر: ج.س-كولان وليفي بروفنسان، ليدن ١٩٤٨م (تصوير دار الثقافة بيروت).

ـ تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى.

ـ تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية، أبو بكر محمد القرطبي، تحقيق عبد الله الطباع؛ مؤسسة المعارف، بيروت. ط ١، ١٩٩٤.

ـ تاريخ الأندلس، ابن الكردبوس، تحقيق العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٧١.

ـ التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن علي الحجي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٩٩٧م

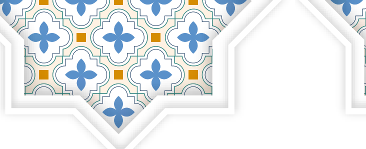
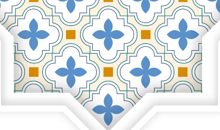
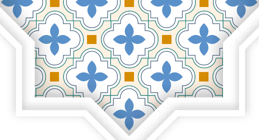
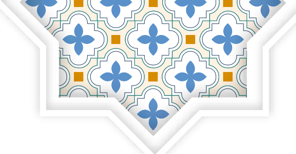
ـ التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمن الحجي، دار القلم، دمشق وبيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

ـ التاريخ العباسي والأندلسي السياسي والحضاري، عمار النهار، فوزي مصطفى، جامعة دمشق، ٢٠١١م.

ـ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السّامرائي، عبد الواحد دنّون طه، ناطق صالح مطلوب، دار المدار الإسلامي ٢٠٠٤م.

ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

ـ تاريخ المغرب والأندلس، حسن أحمد محمود، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.



ـ تاريخ مسلمي إسبانيا، الجزء الأول، ردوزي، ترجمة حسن حبشي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، طبعة دار المعارف بالقاهرة، (د.ت).

ـ الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ: دراسات وأبحاث، الدراسات التي أُلقيت في ندوة الثقافة العربية الإسبانية عبر التاريخ، دمشق ١٠-١٣ كانون الأول، ديسمبر ١٩٩٠.

ـ حضارة العرب في الأندلس، خير الله طلفاح، الجزء السادس، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

ـ الحلّة السِّيراء، ابن الأبّار، حققه وعلّق حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

ـ خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

ـ دراسات في التاريخ الإسلامي، د. عبد الواحد دَنّون طه، دار المدار الإسلامي، طرابلس، ليبيا، ط١.

ـ ديوان امرئ القيس بشرح الأعلم الشَّنْتمري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة.

ـ دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر، محمد عبد الله عنان، العصر الأول، القسم الأول، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

ـ الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهّدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ٢٠١٨م.

ـ ديوان أحمد شوقي، تحقيق أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة (د.ت).

ـ ديوان بني مروان في الأندلس، جمعه وحققه غالب عبد العزيز الزامل، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

ـ ديوان معاوية بن أبي سفيان، جمعه وحققه وشرحه فاروق اسليم بن أحمد، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

ـ ديوان يزيد بن معاوية، جمعه وحققه وشرحه واضح الصمد، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

ـ رحلة الأندلس، الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة ١٩٦٣م.

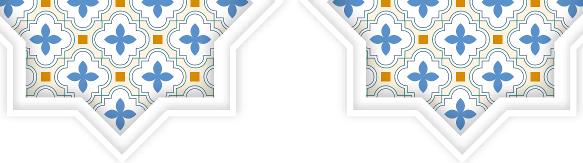
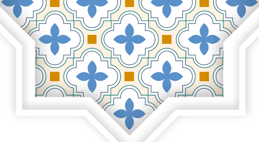
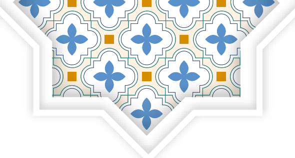
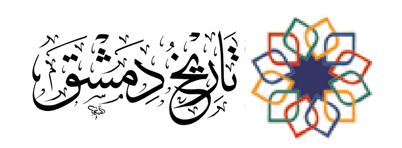
ـ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، حققه د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠م.

ـ زرياب، محمود الحفني، سلسلة أعلام العرب، القاهرة.

ـ السجل العلمي لندوة الأندلس، قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث: العمارة والفنون، الرياض.

ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، الجزء السابع، تحقيق علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، دمشق.

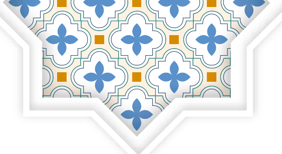
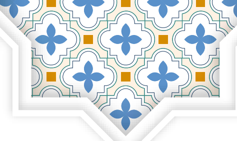
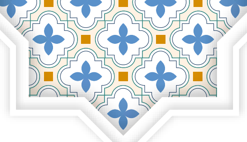
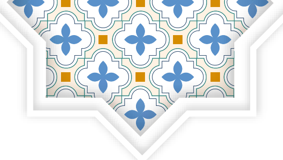
ـ الشام، عاصمة الثقافة العربية، مجموعة من الباحثين، هيئة الموسوعة العربية، دمشق

١٣٢٨هـ-٢٠٠٨م.
ـ فضل الأندلس على ثقافة الغرب، خوان ڤيرنيت، ترجمة نهاد رضا، دار إشبيلية، دمشق ١٩٩٧م.
ـ الفن الإسلامي في إسبانية، مانويل جومث مورنيو، ترجمة د. لطفي عبد البديع: د. السيد محمود عبد العزيز سالم، الدار المصرية، القاهرة (د.ت).
ـ في التاريخ العباسي والأندلسي، الدكتور أحمد مختار العبادي أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعتي الإسكندرية وبيروت العربية، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م.
ـ في ظلال الأندلس، سلمى الحفار الكزبري، وزارة الثقافة، دمشق.
ـ قرطبة في العصر الإسلامي (تاريخ وحضارة)، د. أحمد فكري، مؤسسة الجامعة الإسكندرية (ط١).
ـ مأساة سقوط دمشق ونهاية الأمويين، الدكتور صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، الطبعة الأولى.
ـ محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، تحقيق شكيب أرسلان، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٢هـ.
ـ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، مطبعة جامع الإسكندرية ١٩٥٨م.
ـ مع شعراء الأندلس والمتنبي، تعريب الدكتور الطاهر أحمد مكّي، دار المعارف بالقاهرة.
ـ معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلّد الثالث، دار صادر، بيروت (د.ت).
ـ ندوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، الحميدي، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٣م.
ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرَّطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.

ـ الدوريات:
ـ أبو الدرداء، أول معهد للتربية والتعليم في الحضارة العربية الإسلامية، محمد رضوان الداية، مجلة مجمع اللغة العربية دمشق، المجلد ٨٨ لسنة ٢٠١٥ الجزء الثاني.
ـ شواهد الشواهد، محمد رضوان الداية، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد ٩١ الجزء الثالث لسنة ٢٠١٨م.

دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان. في التاريخ العباسي والأندلسي: أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٢م.



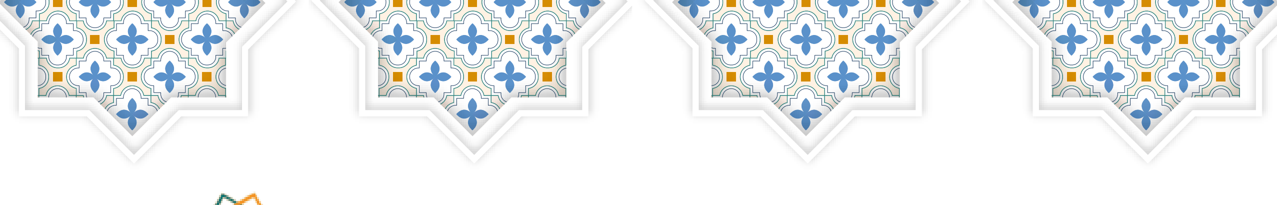




The image of Damascus in the literature of Moroccan travelers,

Nafhat Al-Tayyib for the Al-Maqari Al-Tlemceni (d. 1041 AH = 1631 CE) as a model

Dr. Mahmoud Al-Hassan



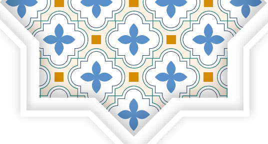
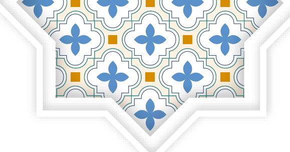


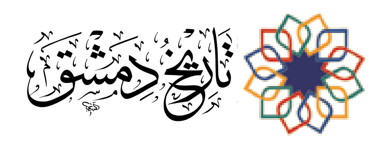
صورة دمشق في أدب الرَّحالة المغاربة

نفح الطيب للمَقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ = ١٦٣١م) أنموذجا

الدكتور محمود الحسن[١]

[1] عضو الهيئة الفنية في مجمع اللغة العربية بدمشق.



ملخص البحث

مما لا شكَّ فيه أن الإنسان ميّال بطبعه إلى وطنه، الذي احتضَن ولادتَه وطفولتَه، وامتزجَت ذكرياتُه بمَعالمه وطبيعته، فهو دائماً يستحضَر كلَّ ما فيه من تفاصيل، ويُضفي عليها من وجدانه مسحةً من الحبّ والقُدسيّة والتعظيم.

ولهذا فإن الحُكم بجمال الأوطان وما تتفرَّد به من مزاياها لا يُعوَّل فيه على شهادة أبنائها، وإنَّما على شهادة زُوّارها من ذوي الإنصاف والرجاحة في العقل والخُلق.

وهذا البحث يَستقي مادّته من شهادة أحد علماء المغرب وأعيانها وأدبائها، وهو المَقَّري التِّلمساني (ت ١٠٤١هـ = ١٦٣١م)، عن دمشق وجمال طبيعتها وكرم أهلها ومحبّتهم للعلم وتقديرهم للعلماء، مع ما يتضمَّنه حديثُه عن دمشق من مشاعر الحب والحنين والإعجاب، وما يحتويه من لطائف الآداب ومحاسن الأشعار.

Research Summary

This paper deals with the description of Damascus by Al-Maqari al-Tlemceniwho documented the city's natural beauty, the generosity of its people, their love of science and appreciation of scholars.

- المقدِّمة:

تتمتَّع دمشقُ بمكانة عظيمة عند العرب والمسلمين على امتداد العالَم، وعلى تَتابُع العصور، فهي عاصمة الخلافة في العهد الأموي، وأهم الولايات في العصر العباسي، وتوءَم القاهرة في العهد المملوكي، ومركز العلم والتجارة خلال الحكم العثماني.

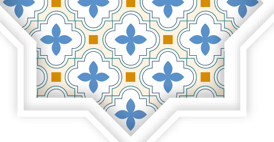
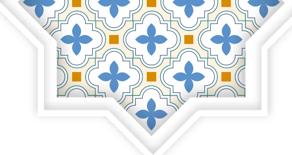
وتَحظى دمشق وبلاد الشام عامةً بمكانة مرموقة في قلوب أهل الأندلس، وذلك لأن معظم جند المسلمين الذين فتحوها، في العصر الأموي، كانوا من جند الشام، حيث استقرُّوا فيها بعد الفتح وعمروها، كما استمرَّ الحكم الأموي فيها عدّة قرون، بعد زواله في المشرق.

فالأندلسيون والمغاربة تربطهم بدمشق وبالشام روابطُ النَّسب والانتماء، فكانوا حريصين على زيارة دمشق ومدن الشام في مواسم الحجّ خاصةً، حين عودتهم من الحجاز، كما كان علماؤهم يقصدونها، ليأخذوا العلم عن مشايخها[٢].

وكان الرّحّالة الأندلسيون والمغاربة يُؤلِّفون المُصنَّفات في وصف ما شاهدوه في الديار الشاميّة، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي التي يزورونها، بقصد الاكتشاف وأخذ العلم والتعرُّف على العلماء وعادات الشعوب، ومن هؤلاء الرّحّالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ)، وابن سعيد المغربي (ت ٦٨٦هـ = ١٢٨٧م)، والمقَّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ = ١٦٣١م) صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرَّطيب».

وكتاب «نفح الطيب» ألَّفه المقَّري التلمساني، بعد زيارته لدمشق سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)، بطلب من الأديب الدمشقي أحمد بن شاهين (ت ١٠٥٣هـ = ١٦٤٣م)، وهو يتضمَّن تاريخ الأندلس ومحاسنها،

---
(2) يُنظر: **عصر الدول والإمارات (الأندلس):** شوقي ضيف، ص526.

وتراجم أشهر علمائها وأدبائها، وخاصة عالم الأندلس وأديبها الكبير لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ = ١٢٧٧م).

ومع أن الكتاب لا يرتبط موضوعه بدمشق، إلا أن حبَّ المَقَّري لها، وحنينَه إليها، وتشوُّقه إلى أهلها، كلُّ ذلك جعله يتحيَّن الفُرَص، عند ذكر دمشق، للاستطراد في وصف محاسنها، وجمال طبيعتها، وكرم أهلها، ومحبَّتهم للعلم، وحَفاوتهم بالعَلماء.

وقد وجدتُ في حديث المقّري عن دمشق في نفح الطيب مادة علمية وأدبية شيّقة، ومختارات شعريّة بديعة، مع سلاسة الأسلوب، وعذوبة الذوق، والغنى بالصُّوَر الفنيّة والمشاعر، فاتَّجهتُ إلى دراستها وعرضها في هذا البحث، تحت عنوان: صورة دمَشق في أدب الرّحّالة المغاربة – نفح الطيب للمقري التلمساني أنموذجاً.

وتوزَّع البحث على مقدِّمة وأربعة مباحث وخاتمة، تحدَّثتُ في المبحث الأول عن المقّري التِّلمساني وصلته بدمشق، وفي المبحث الثاني عن وصف المَقَّري لمعالم دمشق وعمرانها، وفي المبحث الثالث عن طبيعَة دمشق ومتنزَّهاتها في نفح الطيب، وخصَّصت المبحث الرابع للحديث عن علاقة المقّري بأعيان دمشق وأهلها، وانتهى البحث بخاتمة دوَّنتُ فيها أهم النتائج التي توصلّتُ إليها.

- المَقَّريُّ التِّلمسانيُّ وصلته بدمشق:

هو الشيخ أحمد بن محمَد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد، أبو العباس المَقَّريُّ التِّلمسانيُّ المولد، المالكيُّ المذهب، نزيل فاس ثم القاهرة، رحل إلى مكة والمدينة المنورة، وجاور فيهما، ووصل إلى بيت المقدس ودمشق، ونزل فيهما.

وُلد أبو العباس المَقَّري في تلمسان سنة (٩٨٦هـ = ١٥٧٨م)، وأسرته تنحدر في الأصل من قرية مَقَّرة القريبة من تلمسان، التي كانت من أحاسن بلاد المغرب، وهي الحدّ بين سلطان العثمانيين وسلطان المغرب[٣]. ونشأ في تلمسان، وحَفظ القرآن، وقرأ على عَمِّه الشيخ أبي عثمان سعيد بن أحمد، مُفتي تلمسان (ت ١٠١١هـ = ١٦٠٢م)[٤]، صحيحَ البخاري، وروى عنه الكُتب السّتة بأسانيد متَّصلة إلى القاضي عياض.

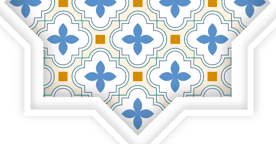
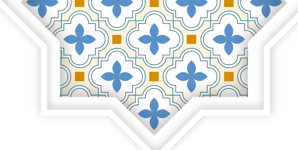
وفي سنة (١٠٠٩هـ = ١٦٠٠م) رحل إلى فاس، وأمضى فيها سنة يطلب العلم على شيوخها وشيوخ مراكش، والتقى بالفقيه إبراهيم بن محمد الآيسيّ، الذي اصطحبه معه إلى مراكش، وقدَّمه للسلطان أحمد المنصور (حكم بين سنتي ٩٨٦ - ١٠١٢هـ = ١٥٧٨م – ١٦٠٣م)[٥]، فأكرمه وأحسن إليه، ثم عاد إلى فاس ومنها إلى تلمسان، وبدأ بتأليف كتابه «روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر مَن لقيتُه من علماء مراكش وفاس»، وكان ينوي إهداءَه إلى السلطان أحمد المنصور، لكن السلطان تُوفِّي سنة

---

[3] تُنظر «مَقَّرة» في: **معجم البلدان:** ياقوت الحموي (ت 626هـ)، 5: 175. وجاء ضبطها فيه «مَقْرَة»، والمُثبت هو الصحيح الذي يتناسب مع أوزان الأشعار الواردة في نفح الطيب. وقد ذهب الأستاذ محمد سالم هاشم محقق روضة الآس العاطرة الأنفاس إلى أنهما لغتان صحيحتان فيها. يُنظر: **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر مَن لقيتُه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس:** المقري التلمساني، ص5.

[4] تُنظر ترجمة عمّ المَقَّري أبي عثمان سعيد بن أحمد في: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية:** ابن سالم، 1: 427.

[5] تُنظر ترجمة السلطان أحمد المنصور وأخباره في: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى:** شهاب الدين السلاوي، 5: 89.


(١٠١٢هـ = ١٦٠٣م)، والمقّري ما يزال في تلمسان.

وفي سنة (١٠١٣هـ) عاد إلى فاس، وتسلَّم الفتوى والإمامة والخطابة، واستقلَّ بذلك بعد وفاة شَيخه محمد الهواري سنة (١٠٢٢هـ = ١٦١٣م)، وأصبح من علمائها المرموقين، واستمرَّ مقيماً فيها إلى سنة (١٠٢٧هـ = ١٦١٧م)، وكانت الظروف فيها قد تغيَّرت في هذه المدة، بعد وفاة السلطان أحمد المنصور، والصراع بين أبنائه على الحكم، إضافة إلى تعرُّض بلاد المغرب للغزو الإسباني والبرتغالي، وكان في هذه المدة يشهد نزوحَ المسلمين من الأندلس في سنة (١٠١٦هـ = ١٦٠٧م) بسبب الاضطهاد ومحاكم التفتيش[٦].

وفي سنة (١٠٢٧هـ = ١٦١٧م) أراد المقَّري التوجُّه إلى الحجّ، فاستأذنَ صاحب مراكش متمثِّلاً بقول علي بن عبد العزيز الحضرمي[٧]:

محبَّتي تقتضي مُقامي وحالتي تَقتضي الرَّحيلا
هذان خَصمان لَستُ أقضي بينهما خوفَ أن أميلا
فلا يَزالان في خصامٍ حتى أرى رأيَكَ الجَميلا

فلم يأذن له صاحب مراكش، وأجابه بقوله:

لا أوحَشَ اللّهُ منكَ قَوماً تَعَوَّدُوا صُنعَكَ الجَميلا

والمهم أنه غادر فاس، وقصد الحجاز للحجّ، ولم يعد بعدها إلى المغرب أبداً، ووصل إلى الحجاز بحراً، مروراً بتونس والإسكندرية فالقاهرة، ومنها إلى مكة المكرمة، واستغرقت هذه الرحلة سنة وبضعة أشهر، فوصل مكة ومنها إلى المدينة، ثم عاد إلى مصر سنة (١٠٢٩هـ = ١٦١٩م)، ومنها زار بيت المقدس، وعاد إلى مصر واستقرَّ فيها وتزوّج من أهلها، وجعل يتردَّد، في مدة إقامته بمصر، إلى مكّة والمدينة وبيت المقدس.

وفي سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م) زار مكة خمس مرات، والمدينة سبع مرّات، وجاور فيهما وأملى الدروس بقصد التبرُّك، وقرأ على الناس صحيح البخاري في المدينة، في الحضرة النبوية، ثم عاد إلى مصر، وتابع التدريس في الأزهر الشريف، كما كان.

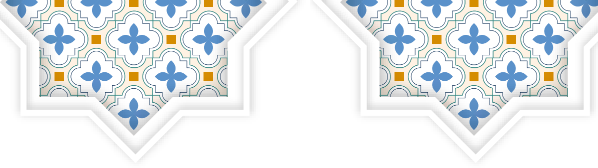
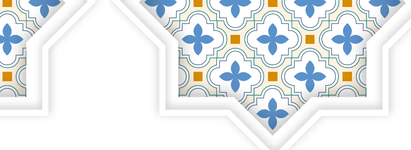
وبعد عوده إلى مصر، في السنة ذاتها، سافر إلى بيت المقدس في أوائل رجب، فأقام فيه نحو خمسة وعشرين يَوماً، وألقى دروساً في الأقصى وقبة الصخرة، ثم توجَّه إلى دمشق فدخلها في شعبان من سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م).

[6] يُنظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 6: 11. وتجدر الإشارة إلى أن الحكم العربي للأندلس انتهى في سنة (897هـ - 1492م) بتسليم مفاتيح غرناطة للإسبان، على أن يحتفظ المسلمون بحقوقهم في إقامة شعائرهم الدينية، ولكن الإسبان تجاهلوا معاهدة التسليم، واضطهدوا المسلمين، وأقاموا محاكم التفتيش، فبدأ المسلمون يهربون إلى المغرب والجزائر وتونس ومصر وغيرها من البلدان الإسلامية، إلى أن أصدر الملك فيليب الرابع سنة (1117هـ- 1609م) أمراً بإخراجهم نهائيّاً من إسبانيا. يُنظر: عصر الدول والإمارات (الأندلس) ص 45.

[7] هو علي بن عبد الغني الفهري، المُقرئ الشاعر، ابن خالة صاحب كتاب «زهر الآداب»، له أخبار مع المعتمد بن عباد وغيره من أمراء الطوائف، توفي سنة (448هـ)، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها:

يا لَيلُ الصَّبُّ متى غَدُهُ أقِيامُ الساعةِ مَوعِدُهُ

تُنظر ترجمته في: **معجم الأدباء:** ياقوت الحموي، 4: 1808، **والوافي بالوفيات:** صلاح الدين الصفدي، 21: 163.

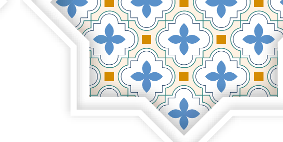
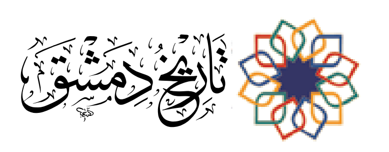
وفي زيارته هذه لدمشق أنزله أولاً قومٌ من المغاربة في مكان لم يُعجبه، فأرسل إليه الأديب أحمد بن شاهين (ت ١٠٥٣هـ = ١٦٤٣م)[٨] مفتاحَ المدرسة الجقمقية، مع أَبيات شعرية في الترحيب به، فأعجبته المدرسة، فنقل أسبابَه إليها، واستوطنها مدّة إقامته، التي امتدت نحو أربعين يوماً، حتى شوال، حيث أملى في مدة إقامته صحيح البخاري في الجامع الأموي، والتقى بأكابر علمائها ومشاهير أعيانها، ثم عاد إلى مصر، وبقيت في ذهنه صورة دمشق، وفي قلبه حبُّها وحبُّ أهلها.

وما زال يتشوَّق إلى دمشق حتى قَرَّر في سنة (١٠٤٠هـ = ١٦٣٠م) أن يتحول من مصر إليها، ليستقرَّ بها بقيّةَ حياته، فقرَّر في السنة نفسها زيارةَ دمشق بقصد الإقامة، فوصلها في السادس عشر من رمضان، ودرَّس صحيحَ البخاري في الجامع الأموي، وختمه في التاسع والعشرين من رمضان، وبقي في دمشق حتى المحرم من سنة (١٠٤١هـ = ١٦٣١م)، ثم سافر إلى مصر على أن يعود إلى دمشق، فتوفِّي في مصر في جمادى الآخرة من السنة ذاتها[٩].

---

(8) تُنظر ترجمة أديب الشام أحمد بن شاهين في: **خلاصة الأثر**: المحبّي، 1: 210.

(9) تُنظر ترجمة المقَّري التِّلمساني في: خلاصة الأثر 1: 302، ومقدمة تحقيق كتاب **نفح الطِّيب**: المقري التلمساني، 1: 1، ومقدمة تحقيق كتاب **رحلة المقّري إلى المشرق والمغرب**، ص12.

والمقرّي التلمساني ترك أثراً عظيماً في كل البلدان التي أقام فيها، كتلمسان وفاس ومراكش ومصر، أو تلك التي زارها كمكّة والمدينة المنورة والقدس وغزة ودمشق، فكان ينثر علمه وأدبه حيث حلَّ، ويَلقى من الناس القبولَ والإعجاب، وقد وصفه المحبّي في خلاصة الأثر، فقال: «حافظُ المَغرب، جاحظُ البَيان، ومَن لم يُرَ نَظيرُه في جَودة القَريحة، وصفاء الذِّهن، وقُوّة البَديهة، وكانَ آيةً باهرةً في علَم الكلامَ والتفسير والحديث، ومُعجِزاً باهراً في الأدب والمحاضَرات»[١٠].

وقد خلَّف المقَّري عدداً من المؤلفات، أشهرها: «روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس»، و«أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض»، وأهمها على الإطلاق كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب»، إضافة إلى مؤلَّفات أخرى[١١].

وكتاب نفح الطيب هو موضوع البحث، وفيه تظهر بوضوح صورةُ دمشق عند المقرّي التلمساني، وحبُّه لها ولأهلها، وأخباره فيها.

وصلته بدمشق قديمة بلا شكّ، كصلة عامة أهل المغرب والأندلس بها، إذ يرون أن تاريخهم هو امتداد لتاريخ دمشق، وأن حضارتهم هي جزء من حضارة الشام، وذلك لأن الذين فتحوا المغرب والأندلس كانوا في الغالب من جند الشام، وكانوا مُنضَوين تحت راية الخلفاء الأمويين، حيث كانت دمشق حاضرة الخلافة في ذلك العهد.

وقد ذكر المؤرِّخون أن الشاميِّين الذين قدموا الأندلس مع موسى بن نصير استوطنوا مُدنَها، ولا سيّما قرطبة، وأصبحوا يُعرَفون بالبلديِّين، أما الذين دخلوا الأندلس مع بَلج بن بشر سنة (١٢٣هـ = ٧٤٠م)، وكانوا كثيرين، فعُرفوا بالشّاميِّين، وقد ضاقت عليهم قرطبة، وشكا منهم البلديُّون، وثارت عدة فتن في الأندلس، إلى أن قدمَ أبو الخطّار والياً على الأندلس سنة (١٢٥هـ = ٧٤٢م)، وكان شجاعاً ذا رأيٍ وكرم، فجمع أهل الأندلس على الطاعة، وفرّق الشّاميِّين من أصحاب بلج بن بشر (ت ١٢٣هـ = ٧٤٠م) على مدنها.

فأنزلَ جند دمشقَ في إلبيرة لشبهها بها وسمّاها دمشقَ، وأنزل جند حمص في إشبيلية لشبهها بها أيضاً وسمّاها حمص، وأنزل أهلَ قنَّسرين بجيّان وسمّاها قنَّسرين، وأنزلَ أهل الأردن بريّة وسَمّاها الأردن، وأنزل أهل فلسطين بشَذونة وسمّاها فلسطين، وأنزل أهل مصر بكورة باجَة، وبعضَهم بتُدميرَ لشبهها بها وسَمّاها مصر. فلما رأوا هذه البلاد تُشبه بلدانهم في الشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا.

وأصبحت منذ ذلك الوقت إلبيرة وإشبيلية ورية وشذونة، وما تضمُّ هذه الكُوَرُ[١٢] من مدن وقرى كثيرة، تُعرف بمنازل العرب الشّاميِّين، وهي من أهم كُوَر الأندلس، وأجملها من حيث المُناخ، وأغناها بالمياه والثمار والثروات الأخرى[١٣].

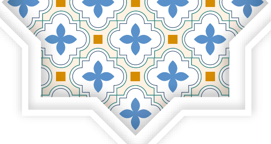
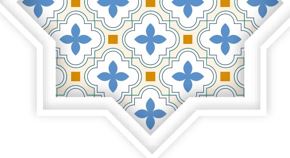
---

(10) خلاصة الأثر 1: 302.

(11) يُنظر أسماء باقي مؤلَّفاته في: **خلاصة الأثر**، 1: 302، ومقدمة المحقق لكتاب **نفح الطيب**، ص9.

(12) الكُوَر: جمع كورة، وهي إقليم واسع يضم عدداً من القرى والمدن. يُنظر: **تاج العروس:** المُرتَضى الزَّبيدي، مادة (كور).

(13) يُنظر في ذلك: **الكامل في التاريخ:** ابن الأثير (ت 630هـ)، 5: 75، **والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:** ابن عذارى، 2: 244، **والإحاطة في**


وفضلاً عن الصِّلة العامة، التي تربط أهل المغرب والأندلس بالشام، فقد تعمَّقت صلة المقّري التلمساني بالشام وبدمشق خاصة في زيارته لها سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)، وهذه الزيارة مع قصرها، إذ لم تتجاوز أربعين يوماً، إلا أنها أتاحت له التعرُّف بطبيعتها وحضارتها وأهلها عن قرب، والحفاوة التي لقيها من أهلها ربَّما عوَّضته عن الحياة القاسية التي كان يعيشها في مصر، وما كان يُعانيه هناك من الحسد والمكائد.

وقد تقدَّم ذكرُ شيء من الحفاوة والتكريم والكرم التي تلقَّى بها أهلُ دمشق وأعيانُها المَقَّريَّ التلمساني، وقالَ المحبي: «وأملى صحيحَ البخاري بالجامع، تحت قبّة النَّسر، بعد صلاة الصُبح، ولما كثُر الناسُ بعد أيّام خرج إلى صحن الجامع، تُجاه القُبّة المعروفة بالباعونية، وحضره غالبُ أعيان دمشقَ، وأمّا الطَّلبةُ فلم يتخلَّفْ منهم أحدٌ، وكانَ يومُ خَتمه حافلاً جداً، اجتمع فيه الألوفُ من النّاس، وعَلَت الأصواتُ بالبُكاء، فنُقلَت حلقةُ الدَّرس إلى البَاب الذي يُوضَع فيه العَلَمُ النَّبويُّ في الجُمُعَات، من رَجب وشعبان ورمضَان، وأُتي له بكرسيّ الوَعظ، فصعد عليه، وتكلَّم بكلامٍ في العَقائد والحَديث لم يُسمَع نظيرُه أبداً ... ونزَلَ عن الكرسيّ، فازدحم الناس على تقبيل يده ... ولم يتَّفق لغيره من العلماء الواردين إلى دمشقَ ما اتَّفق له، من الحظوة وإقبال الناس، وكان بعدما رأى مَنَ أهلها ما رأى كثيرَ الاهتمام بمدحها، وقد عقد في كتابه نفح الطيب فصلاً يتعلَّق بها وبأهلها»(١٤).

وفي مقدمة كتابه نفح الطيب تحدَّث عن أسباب حبِّه لدمشق وتعلُّقه بها، فقال: «وله بالشّام تَعلُّقٌ من وُجوه عَديدة، هادية مُتأمِّلَها إلى الطُرق السَّديدة، أولها: أن الداعي لتأليفه [أي كتاب النفح] أهلُ الشّام، أبقَى اللّهُ مآثرَهُم، وجعلَها على مرِّ الزّمان مديدة، ثانيها: أن الفاتحين للأندلس هم أهل الشام ذَوُو الشَّوكة الحديدة، ثالثها: أن غالب أهل الأندلس من عرب الشام الذين اتَّخذوا بالأندلس وطناً مُستأنَفاً وحضرةً جديدة، ورابعها: أن غرناطة نزل بها أهل دمشق، وسَمَّوها باسمها، لشَبَهها بها في القصر والنهر، والدَّوح والزهر، والغوطة الفيحاء، وهذه مناسبة قوية العرى شديدة»(١٥).

فأعيان دمشق وأدباؤها حين كان يتذاكرون معه أخبار الأندلس، وبلاغة وزيرها لسان الدين بن الخطيب، أشاروا عليه أن يُصنِّف في أخبار الأندلس وسيرة هذا الوزير، وكان ممَّن حثَّه على ذلك صديقه الأديب أحمد بن شاهين، فاستجاب لطلبهم، وشرع في تأليف نفح الطيب عند عودته إلى مصر، وقد ضمَّنه الكثير من أخبار دمشق وأهلها، وحنينه إليها، إلى درجة أنه يَعُدُّ الأيامَ التي قضاها في دمشق من أجمل أيام العمر، كما سيأتي، وأفرد لدمشق كتاباً سمّاه «عَرفُ النَّشق في أخبار دمشق»، لكنّه مفقود(١٦).

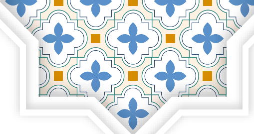
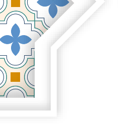
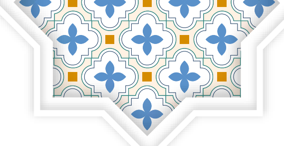
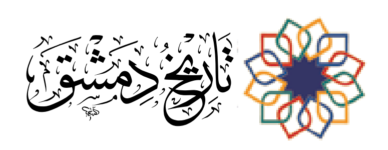
وظلَّ المقّري في المدة التي عاشها في مصر، بعد زيارته الأولى لدمشق، يُكثر من الحنين والشوق إليها، ويُراسِل أهلها، ويُمَنِّي نفسه بالعودة إليها، والاستقرار فيها، وكأنه واحدٌ من أبنائها.

أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب، 1: 20، **ونفح الطيب**، 1: 237.

(14) **خلاصة الأثر**، 1: 305.

(15) **نفح الطيب**، 1: 117.

(16) ذكره المحبي في **خلاصة الأثر**، 1: 302.

- وصف المَقَّري لمعالم دمشق وعمرانها:

تميَّز نفح الطيب بمقدمته الطويلة التي بلغت نحو (١٢٠) صفحة، تحدَّث فيها عن رحلاته، وحنينه إلى وطنه، والبلاد التي زارها، وذكر فيها محاسنَ بلاد المغرب والأندلس، مستشهداً بأشعار كثيرة تتناسب مع الموضوعات التي يعرضها، كما ضمَّن مقدّمته غيرَ قليل من أشعاره التي قالها في مناسبات عديدة.

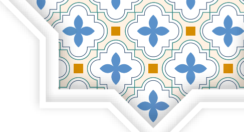
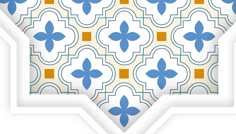
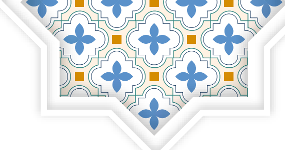
فمقدمة النفح قطعة أدبية تمتزج فيها الحقائق بالمشاعر، والصور المحسوسة بأحاسيس النفس، والأماكن المذكورة بحرارة العاطفة والوجدان، وكل ذلك بقلم عالم مُتقن، وأديب مبدع، خاض لجج التجارب، واطَّلع على عجائب البلدان، وحصَّل في رحلته العلمية رحَيق الأفكار، وروائع الأشعار، ومتون العلوم، ورياض الآداب.

وليس بعيداً عن موضوع المقدمة أن يتحدَّث عن جمال الأندلس والمغرب، والحنين إلى تلمسان وفاس ومراكش، وذلك لأن مضمون الكتاب مرتبط بالحديث عن محاسن الأندلس والمغرب، وبلاغة ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب، ولكن الجديد في هذه المقدمة أن يُخصِّص المؤلِّف نحوَ (٥٠) صفحة للحديث عن دمشق ومحاسنها وشوقه إليها، وهذا بلا شكّ يدلُّ على حبٍّ منقطع النظير لهذه المدينة، التي لم تتجاوز مدة إقامته فيها أربعين يوماً، كما تقدَّم، حين ألَّف كتابه ووضع مقدمته، فكل ما في المقدِّمة هو من وحي الزيارة الأولى في سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)، أما الزيارة الثانية التي كانت قُبيل وفاته، فلم يظهر أثرها في الكتاب، لأن الكتاب كان قد اكتمل قبل شروعه فيها.

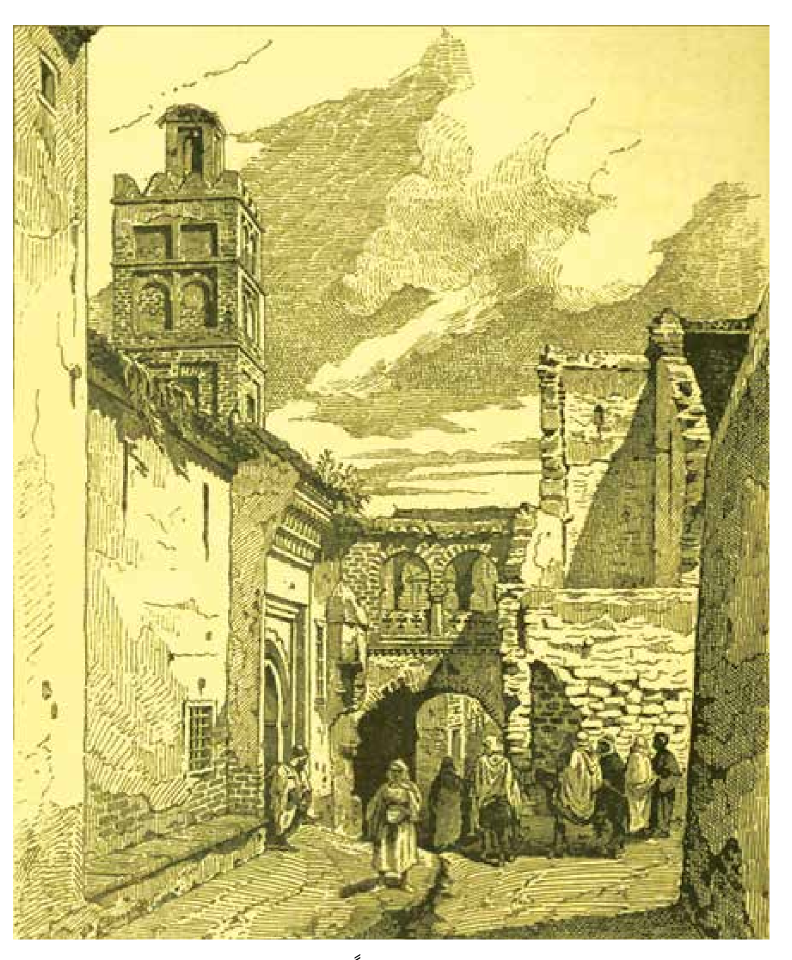
فحال المَقَّري في هذه المقدمة مع دمشق كحال العاشق المحبِّ الذي لا يكاد يجد مناسبة للحديث عن محبوبه إلا اغتنمها واستطرد، وأباح لوجدانه أن يسرح ويجول حول حمى المحبوب، يلهج بذكره وذكرياته، ويطوف في عالمه، وقد توشَّح بوشاح العشق وألقى على الحمى قطعاً من فؤاده، لعلَّ المحبوب يأوي إليه، فيأوي معه الزهر والشجر والينبوع، والبيوت والتراب والأزقة، فلا يبقى شيء من ذلك العالم الحبيب خارج نطاق القلب.

والمقَّري في حديثه عن دمشق لم يَفصل بين المعالم والمشاعر، وبين الزهور والشعور، وبين النسائم العليلة وخلجات الوجدان، وبين ماء بردى وأمواج العاطفة، فكل ما حوته دمشق حبيب، وكل حبيب جميل، وكل جميل يأسر، وكلُّ آسر آمر، وفي كل ذلك لا يملك القلب إلا أن يجيب، يقول المقري في فضائل دمشق: «ولله در القائل، في وصَف تلك الفضائل:

إن تَكُنْ جَنّةُ الخُلُود بأرضٍ	فدمَشقٌ، ولا يكونُ سواها
أو تَكُنْ في السَّماءِ فهي علَيها	قد أمَدَّت هَواءَها وهَواها
بَلَدٌ طَيِّبٌ ورَبٌّ غَفُورٌ	فاغتَنِمْها عَشيّةً أو ضُحاها»[١]

هذه حال أديبنا مع دمشق، التي ألبست فؤادَه قميص الحبّ، فصوَّرها في قلبه تمثالاً من زمرّد، وألبسها تاج الإعجاب والانبهار والعشق، فكيف إذا كانت دمشق قد شابهت المحبوب الأول تلمسان؟



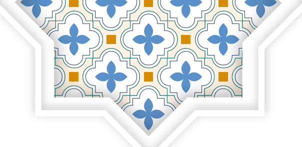
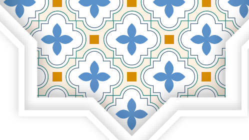
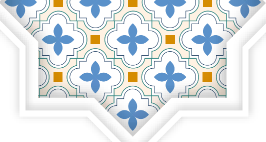
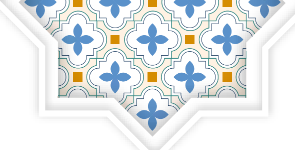
تلمسان قديماً

مما لا شكَّ فيه أن الحبَّ في هذه الحال يغدو مضاعفاً، والحنين إليها لا يُدافَع، والحياة والموت في بقاعها لا تُدانيهما أمنيةٌ، ولا يفوقهما حلمٌ من أحلام النفس التي تسعى إلى السعادة وبلوغ الكمال، يقول المقَّري في ذلك: «وعند رُؤيتي لتلك الأقطار، الجليلة الأوصاف، العظيمة الأخطار، تَفاءَلتُ بالعَود إلى أوطانٍ لي بها أوطارٌ، إذ التَّشابُهُ بَينَهُما قَريبٌ في الأنهار والأزهار، ذات العَرف المعطار، وزادَت هذه [أي دمشق] بالتَّقديس الَذي هَمَعَت عَلَيها منهُ الأمطارُ، وتَمثَّلتُ بقَول الأصفَهاني، وَإن غيَّرتُ يَسيراً منه، لَمَّا أسفَرَت وُجوهُ التَّهاني[١٧]:

لَمّا وَرَدتُ الصّالحيـ ... يّةَ حيثُ مُجتَمَعُ الرِّفاقِ
وشَمَمتُ من أرض الشآ ... مِ نَسيمَ أنفاسِ العراقِ
أيقَنتُ لي ولمَن أُحبـ ... ـبُ بجَمعِ شَملٍ واتِّفاقِ
وضَحكتُ من فَرَحِ اللّقا ... ءِ كما بَكَيتُ منَ الفراقِ
لَم يبقَ لي إلا تَجَشْـ ... ـشُمُ أزمُنِ السَّفَرِ البَواقي
حتّى يَطُولَ حَديثُنا ... بِصِفاتِ ما كُنّا نُلاقي

وكنتُ قبل حلولي بالبقاع الشامية مولعاً بالوطن لا سواء، فصار القلب بعد ذلك مقسماً بهواه:

[17] الأصفهاني صاحب الأبيات هو: موسى بن عبد الملك بن هشام، كان من أعيان الكُتّاب والشعراء، ولي ديوان الخراج، وتوفي سنة (246هـ)، تُنظر ترجمته مع الأبيات في: **وفيات الأعيان**: ابن خَلِّكان، 5: 337. والأبيات أوردها صاحب **نفح الطيب** بتصرُّف.

ولي بالحمَى أهلٌ وبالشِّعب جيرةٌ وفي حاجرٍ خلٌّ وفي المُنحَنَى صَحبُ
تَقَسَّمَ ذا القلبُ المُتيَّمُ بَينَهُم سألتُكُم باللّهِ هل يُقسَمُ القَلبُ»[٢]

وفيما يخصُّ معالم دمشق وعمرانها فقد وقف عليها المقرِّي، وأبدع في وصفها، ولكن لم تكن منفصلة عن طبيعة دمشق وخضرتها، ولا عن كرم أهلها ونبلهم، فصورة دمشق كانت حاضرة في روحه ووجدانه كاملة بما فيها من عمران وسُكان ووجنان، ولذلك قلَّما يستقلُّ مَعلَمٌ من معالمها بوصف دون أن تتداعى إليه المعالم الأخرى، متزيِّنةً بوشَاح الجمال، متوَّجةً بلآلئ الكمال.

ومن بليغ وصفه لدمشق قوله: «ثم حدث لي منتصف شعبان، عزمٌ على الرحلة إلى المدينة التي ظهر فَضلُها وبان، دمشق الشام، ذات الحسن والبهاء والحياء والاحتشام، والأدواح المتنوعة، والأرواح المتضوِّعة، حيث المشاهد المُكرَّمة، والمَعاهد المُحترَمة، والغُوطةُ الغَنّاء والحَديقة، والمكارمُ التي يُباري فيها المَرءُ شانئَهُ وصَديقَه، والأظلالُ الوَريفةُ والأفنانُ الوَريقة، والزَّهرُ الذي تَخالُهُ مَبسَماً والنَّدَى رِيقَه، والقُضبانُ المُلدُ، التي تَشوقُ رائيَها لِجَنّةِ الخُلدِ[١٨]:

بِحَيثُ الرَّوضُ وَضّاحُ الثَّنايا أنيقُ الحُسنِ مَصقُولُ الأديم

وهي المدينة المستولية على الطباع، المعمورة البقاع، بالفضل والرباع[١٩]:

تَزيدُ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ طَلاوةً دمَشقُ التي راقَت بِحلُو المَشارِبِ
لها في أقاليمِ البِلادِ مَشارِقٌ مُنَزَّهةٌ أقمارُها عَن مَغارِبِ

ودخلتُها أواخر شعبان المذكور، وحمدت الرحلة إليها وجعلها اللّه من السعي المشكور[٢٠]:

وَجدتُ بها ما يَملأُ العَينَ قُرّةً ويُسلِي عَنِ الأوطانِ كُلَّ غَرِيبِ

وشاهدت بعض مغانيها الحسنة، ومبانيها المستحسنة[٢١]:

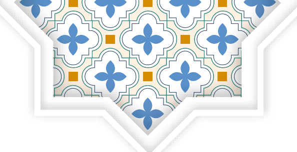
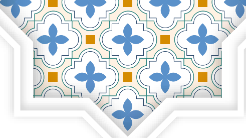
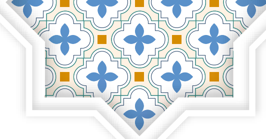
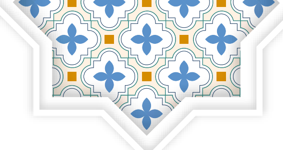
نَزَلنا بِها نَنوي المُقامَ ثَلاثةً فطابَت لَنا حتّى أقَمنا بها شَهرا

ورأينا من محاسنها ما لا يستوفيه من تأنق في الخطاب، وأطال في الوصف وأطاب، وإن ملأ من البلاغة الوطاب، كما قلتُ:

مَحاسنُ الشّام أجلَى من أن تُسامَ بِحَدِّ
لَولا حِمَى الشَّرعِ قُلنا ولَم نَقِفْ عندَ حَدٍّ:
كأنَّها مُعجِزاتٌ مَقرُونةٌ بالتَّحَدِّي»[٣]

فالشام في نظره صورة متكاملة، يلفُّها الحسنُ والاحتِشام، وتَعلوها ألوان الوَداعة والكبرياء،

(18) البيت لم أعثر عليه في غير **نفح الطيب**.
(19) البيتان لم أعثر عليهما في غير **نفح الطيب**.
(20) **البيت للحريري (ت 516هـ) وهو في مقاماته ص524.**
(21) **البيت لأبي نواس (ت 198هـ) وهو في ديوانه، ص94. وقد أورده المقري بتصرف يسير.**

وتُزيِّنها عقود الزَّهر والندى، وترفُ في أرضها نسائم الحبّ والعظمة، فتستولي على قلب ناظرها، وتأسر لُبَّه، وتتركه مولَعاً في حبِّها، هائماً في غرامها، يلهجُ لسانه بذكرها، ويخفق فؤادُه لمرآها، كما قال أحد الأدباء من أبنائها[٢٢]:

إنَّ أرضَ الشّام فينا	فَضلُها أضحى مُبينا
كلُّ مَن يَرحَلُ عنها	ناقصٌ عَقلاً ودينا

ويقول المقري في وصف الجامع الأموي الكبير، وبيوت دمشق وغوطتها: «فالجامعُ الجامعُ للبَدائع يَبهَرُ الفكرَ، والغُوطةُ المَنوطةُ بالحُسن تَسحَرُ الألبابَ، لا سيَّما إذا حَيّاها النَّسيمُ وابتَكَرَ ... فلله مرآها الجَميل الجليل، وبيوتُها التي لمَ تَخرج عن عَروض الخليل، ومَخبَرُها الذي هو على فَضلها وفَضلِ أهلها أدَلُّ دَليل، ومَنظَرُها الذي يَنقَلبُ البَصَرُ عن بَهجته وهو كَليل:

والرَّوضُ قد راقَ العُيُونَ بحُلَّةٍ	قد حَاكَها بسَحابه آذارُ
وعَلَى غُصُونِ الدَّوحِ خُضرُ غَلائِلٍ	والزَّهرُ في أكمامه أزرارُ»[٤]

وكان المقَّري يستشهد بأقوال الرَّحالة المغاربة والأندلسيين، ووصفهم للأماكن التي زاروها في الشام، ويُركِّز على ما تركته دمشق في نفوسهم من تأثير، وما بينها وبين الأندلس من تشابه، ومن ذلك ما أورده من حديث ابن سعيد المغربي (ت ٦٨٦هـ = ١٢٨٧م) عن دمشق وحلب وحماه حين زارها:

«ثمّ دَخَلتُ الشّامَ، فرأيتُ دمشقَ وحلبَ وما بينهما، ولم أرَ ما يُشبهُ رَونَقَ الأندلس في مياهها وأشجارها إلا مدينةَ فاس بالمغرب الأقصى، ومدينة دمشق بالشام، وفي حماة مسحة أندلسيَة، ولم أرَ ما يُشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع، إلا ما شُيِّد بمراكش في دولة بني عبد المؤمن، وبعض أماكن في تونس، وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية، ولكن الإسكندرية أفسح شوارعَ وأبسط وأبدع، ومباني حلب داخلة فيما يُستحسَن، لأنها من حجارة صلبة، وفي وضعها وترتيبها إتقان»[٢٣].

ولعلَّ أكثر الرَّحالة الأندلسيِّين افتتاناً بدمشق وجامعها الكبير الرحالة المشهور ابن جبير (ت ٦١٤هـ = ١٢١٧م)، الذي وصف الجامع الأمويَّ أبدع وصف، كما وصف طبيعة دمشق وجمالها بأجمل التعابير، ومما أورده المقّري لابن جبير قوله في وصف دمشق[٢٤]:

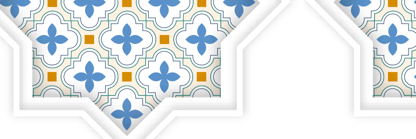
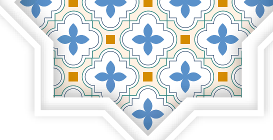
«جَنّةُ المَشرق، ومَطلَعُ حُسنه المُونق المُشرق، هي خاتمةُ بلاد الإسلام التي استَقرَيناها، وعَرُوسُ المُدن التي اجتَلَيناها، قد تَحلَّت بأزاهيرَ الرَّياحين، وتَجلَّت في حُلَلٍ سُندُسيّة منَ البَساتين، وحلَّت من مَوضَع الحُسن بمَكانٍ مَكين، وتَزَيَّنَت في مَنصّتها أجملَ تَزيين، وتَشرَّفَت بأن آوى اللّهُ تَعالى المَسيحَ وأمَّهُ مِنها إلى رَبوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعين.

---

[22] البيتان لأديب دمشق وعالمها يحيى بن أبي الصفا (ت 1053هـ)، وكان ممّن تَلمَذَ للمَقّري التلمساني، ولازمه في مدّة إقامته بدمشق في الرحلتين الأولى والثانية، ودوَّن عنه الأمالي، وقد أوردهما في وصفه لرحلته من الشام إلى طرابلس. يُنظر في البيتين: **المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية**، ص90.

[23] **نفح الطيب**، 1: 209.

[24] هو محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي الأندلسي، العالم الأديب الرّحالة المشهور، زار المغرب ومصر والحجاز والعراق والشام عدّة مرّات، وألَّف في ذلك رحلته المشهورة برحلة ابن جبير، توفي في الإسكندرية سنة (614هـ). تُنظر ترجمته في: الإحاطة في أخبار غرناطة، 2: 146.

ظلٌّ ظَليل، وماءٌ سَلسبيل، تَنسابُ مَذانبُه انسيابَ الأراقم بكلِّ سَبيل، ورياضٌ يُحيي النُفوسَ نَسيمُها العَليل، تَتبرَّجُ لناظريها بمُجتَلَّى صَقيل، وَتُناديهم هَلُمّوا إلى مُعَرَّس للحُسن ومَقيل، قد سَئِمَت أرضُها كَثرةَ الما، حتى اشتاقت إلى الظَّما، فتكادُ تُناديكَ بها الصُمُّ الصِّلّاب، (ارْكُضْ بِرِجلِكَ هذَا مُغتَسَلٌ باردٌ وشَراب).

قد أحدقَت بها البَساتينُ إحداقَ الهالة بالقَمَر، واكتَنَفَتها اكتنافَ الكمامة للزَّهَر، وامتدَّت بشَرقيِّها غُوطتُها الخَضراءُ امتدادَ البَصَر، فكُلُّ مَوضعٍ لَحَظتُه بجهاتها الأربع نُضرتُه اليانعةُ قَيدُ النَّظَر، ولله صدقُ القائلينَ فيها: إن كانَت الجَنّةُ في الأرضِ فدمَشقُ لا شَكَّ فيها، وإن كانَت في السَّماء فهي بحَيثُ تُسامتُها وتُحاذيها»[٢٥].

ومن الملاحظ أن ابن جبير قد رسم لدمشق لوحةً فنيّةً رائعة، تقوم على أُسس ثلاثة، أولها جمال اللفظ وبلاغة التعبير، وثانيها الجمال المحسوس بالبصر، وثالثها شعور الحب والإعجاب الذي يتدفَّق بين السطور، فتكتسب منه الكلمات روحاً ونبضاً وحياة، لتبدوَ كأنَّها مخلوقات لطيفة، ترفرف في سماء دمشق بأجنحة نورانية نسجها الشوق والحبُّ والإعجاب، وفي نهاية هذه اللوحة الساحرة يُطالعنا المَقَّري مُعلِّقاً عليها فيقول:

«قلتُ: كُلُّ ما ذكرَ رحمه الله تعالى في وَصف دمشقَ الشّام وأهلها فهو في نَفس الأمر يَسير، ومَن ذا يَرومُ عَدَّ مَحاسنها التي إذا رَجَعَ البَصَرُ فيها انقلَبَ وهو حَسير، وقد أطنَبَ النّاسُ فيها، وما بَقيَ أكثرُ ممّا ذَكَروهُ، وقد دَخلتُها أواخرَ شَعبان من سنة سبع وثلاثين وألف للهجرة، وأقمتُ بها إلى أوائل شَوّال من السَّنة، وارتحلتُ عنها إلى مصرَ، وقد تركتُ القلبَ فيها رَهناً، ومَلَكَ هَواها منّي فكراً وذهناً، فكأنَّها بَلَدي التي بها رَبيتُ، وقَراري الذي لي به أهلٌ وبيت، لأن أهلها عاملوني بما ليسَ لي بشُكره يَدان، وها أنا إلى هذا التاريخ لا أرتاحُ لغيرها مِنَ البُلدانَ، ولا يَشوقُني ذكرُ أرض بابل ولا بَغدانَ، فالله سُبحانه وتعالى يُعطِّرُ منها بالعافيةِ الأردانَ»[٢٦].

❖❖❖❖❖

مما تقدَّم يتَّضح مدى إعجاب المقَّري التلمساني بدمشق، وحبِّه لها، وشوقه وحنينه إلى أرضها، حتى كأنها بلده الذي نشأ فيه، وأودعه ذكريات الطفولة والصِّبا، مع أن إقامته فيها لم تتجاوز أربعين يوماً، وهذا التعلُّق بدمشق لا يُمكن تفسيره إلا بأنها قد استولَت على فكره وقلبه، وفعلت فيهما ما يفعله السحر، ولا عجب في ذلك لأن الحبُّ عند ذوي النفوس الشفافة، والقلوب الصافية، والمشاعر الجياشة، أقوى تأثيراً من السِّحر.

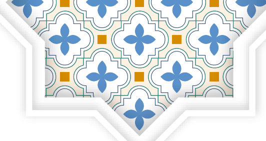
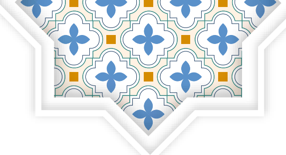
- طبيعة دمشق ومتنزهاتها في نفح الطيب:

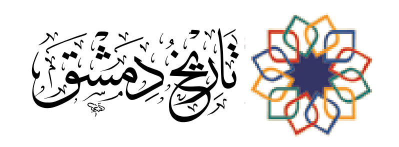
تقدَّم فيما مضى أن المَقَّري حين يصف دمشق فإنه لا يَفصل بين عمرانها وطبيعتها وأهلها، بل يَصفُها على أنها لوحة متكاملة من الحسن، لا يفترق الجمال فيها، ولا ينزوي في أجزاء، وأن صبغة الحَبِّ والإعجاب تلفُّ هذا الجمال الفاتن الأخّاذ، ليبدو حيّاً نابضاً بالحياة.

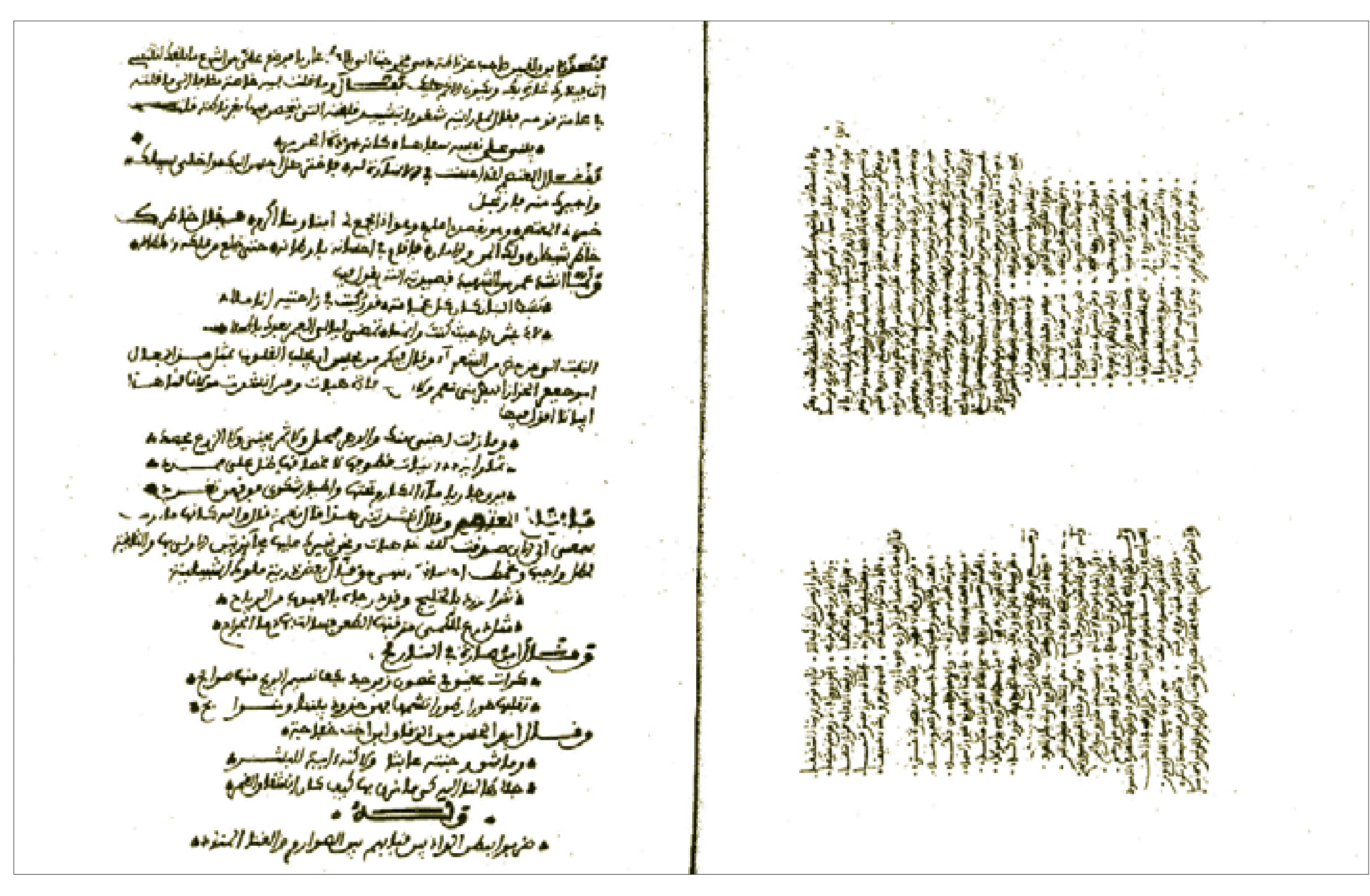
---

[25] **نفح الطيب**، 2: 386- 387. ويُنظر وصف ابن جبير هذا في: **رحلة ابن جبير**، ص210- 211.

[26] **نفح الطيب**، 2: 388- 389.





مخطوط نفح الطيب

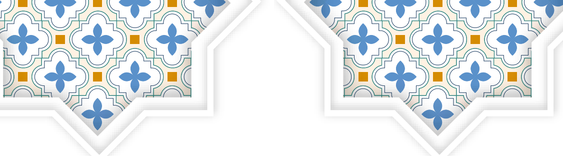
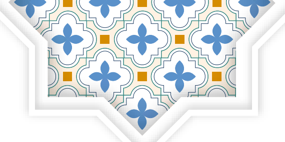
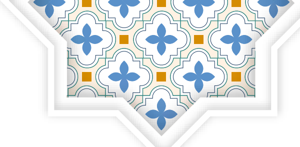
وقد تقدَّم أيضاً أنه يحنُّ إليها حنينه إلى مرابع صباه في تلمسان، وحبُّه لدمشق وحنينه إليها دفعاه إلى ترصُّد المناسبات في كتابه نفح الطيب، ليستطرد في وصف دمشق وتصوير شوقه إليها، كما في المقدمة التي خصَّص فيها خمسين صفحةً لدمشق، وكما في الباب الخامس الذي أورد فيه كثيراً من أخبارها ومحاسنها، على سبيل الاستطراد، ضمن تراجم من نزلوها من أعيان الأندلس وعلمائها، كالشيخ محيي الدين بن العربي (ت ٦٣٨هـ = ١٢٤٠م)[٢٧]، وابن مالك (ت ٦٧٢هـ = ١٢٧٣م) إمام النحو وصاحب الألفية المشهورة[٢٨]، وغيرهما، حيث كان حبُّه لدمشق يدفعه إلى الاستطراد، فيذكر ما قيل في فضائلها ومحاسنها من أشعار، ويروي في ذلك الحكايات والأخبار.

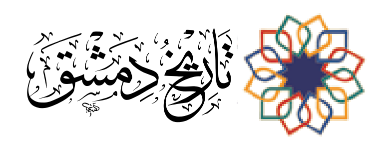
ومع أن المقّري كان مُتبحِّراً في العلم، إلا أنه أديب بارع وشاعر مبدع، لا يتجافَى عن طبعه الشاعريّ، ولا يتنكَّر لذوقه الأدبي، ولا يتجاهل نداء الوجدان، ولا يتباعد عن نبضات القلب. فالحقائق عنده مكسوة برداء الحب والعاطفة، مسطورة بالتعبير البليغ، منقولة في لوحات من الإبداع والتصوير، منظومة كعقود الجواهر، ناعمة ناصعة كوشي الحرير.

وممّا لا شكَّ فيه أن الطبيعة، بما فيها من خضرة وماء وجبال وسهول، هي دُنيا الشعراء، ومهوى أفئدة الأدباء، يتَّخذونها ميداناً للتأمُّل، ومسرحاً للنظر، ومُجتلًى للجمال الفطري المتدفِّق،

(27) تُنظر ترجمة الشيخ محيي الدين بن العربي في: **الوافي بالوفيات**، 4: 124، **ونفح الطيب**، 2: 161.

(28) تُنظر ترجمة **جمال الدين بن مالك** في: **الوافي بالوفيات**، 3: 285، **ونفح الطيب**، 2: 222.



وملاذاً للروح المتعبة من هموم الحياة، ومجالاً لسكب المشاعر مع نغمات النسيم، وتغريد الأطيار، وتفتُّح الأزهار، وابتسام الروض.

والمقّري في نفح الطيب حين آواه الحب والحنين إلى الاستطراد جعل يتغنَّى بدمشق وغوطتها وسحر طبيعتها، ويُورد في ذلك محاسنَ الأشعار، ويَنظم من إبداعه ما يُعبِّر به عن حبِّه لطبيعة دمشق التي سحرت فكرَه وقلبَه، يقول في ذلك[٢٩]:

أمّا دمَشقُ فجَنّةٌ	لَعبَت بألباب الخَلائقْ
هي بَهجةُ الدُّنيا التي	منها بَديعُ الحُسن فائقْ
للّه منها الصّالحيـ	ـيّةُ فاخَرَت بذَوي الحَقائقْ
والغُوطةُ الغَنّاءُ حَيـ	ـيّت بالوُرود وبالشَّقائقْ
والنَّهرُ صاف والنَّسيـ	ـمُ اللَّدنُ للأشواق سائقْ
والطَيرُ بالعيدان أبـ	ـدَت في الغنا أحلى الطَّرائقْ
ولآلئُ الأغصان حلـ	ـلَّت جيدَ غُصن فهو رائقْ
ومَراودُ الأمطار قد	كُحلَت بها حَدَقُ الحَدائقْ
لا زالَ مَغناها مَصو	نا آمناً كلَّ البَوائقْ

ففي هذه الأبيات يضعنا الأديب المقّري أمام لوحة فنيّة رائعة لطبيعة دمشق وخضرتها، تنبضُ بالحُسن والحياة، تبدو فيها الغوطة كالجارية التي تُحيِّي عاشقيها بالورد، ويبدو النسيم كحادي الإبل، يسوق الأشواق إلى منتهى الأمل والنعيم، والطيور تُغني أعذب الأناشيد، والغصون كأنها أعناق الغواني تتزيَّن بعقود الزَّهر، والحدائق لها أعين جميلة كَحلَتها حبّاتُ المطر، فيا لها من لوحة عامرة بالحياة والجمال، تستحقُ أن يختمها بالدعاء لدمشق بأن تبقى مصونةً من كلِّ النوازل والمصائب.

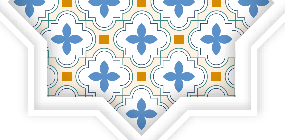
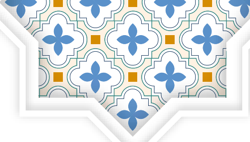
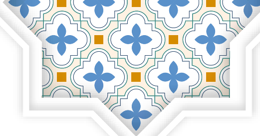
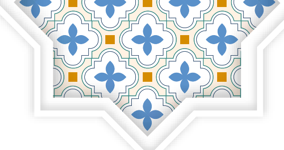
وقد أكثرَ المقّريُ من الاستشهاد بالأشعار التي تُصوِّر جمال دمشق وغوطتها الغَنّاء، ومما أورده في ذلك قول شمس الدين الأسدي الطيبي[٣٠]:

إذا ذُكرَت بقاعُ الأرض يَوماً	فقُلْ سَقياً لجِلِّقَ ثم رَعيا
وقُلْ في وَصفِها لا في سِواها:	بها ما شِئتَ من دينٍ ودُنيا

ويزداد مرأى دمشق وغوطتها جمالاً وتأثيراً في وجدان المقَّري حين يُذَكِّره ببلاده وذكرياته فيها، فإذا بالأشجان تتلاعب بقلب الأديب المفارق، وإذا بالأشواق تموج في صدره، وتستولي على كيانه، يقول في ذلك: «وقد تَذكَّرتُ بلادي النائية، بذلكَ المَرأى الشّاميِّ الذي يُبهرُ رائيَه، فما شئتَ من أنهارٍ ذات انسجام، أُترعَ فيها مَن جَريالِ الأُنسِ جام، وأزهارٍ مُتوِّجةٍ للأدواحِ، مُرَوِّحةٍ للنُفوسَ بعاطرِ

(29) **نفح الطيب**، 1: 59-60.

(30) **نفح الطيب**، 1: 62. وشمس الدين الأسدي هو: أحمد بن يوسف بن يعقوب، الأديب الشاعر، وقاضي طرابلس، توفي سنة (717هـ). تُنظر ترجمته في: **أعيان العصر وأعوان النصر**: الصفدي 1: 437.

مخطوط نفح الطيب

الأرواح، وحَدائقَ تُغشي أنوارُها الأحداقَ، وعِيانُها للخَبَرِ عَنها مصداقٌ، وأيُّ مصداقٍ:

فهي التي ضَحكَ البَهارُ صَباحَها	وبَكَت عَشيّتَها عُيونُ النَّرجِس
واخضَرَّ جانبُ نَهرِها فكأنَّهُ	سَيفٌ يُسَلُّ وغمدُه من سُندُسِ»[٥]

ومن النواحي التي نزلها المَقّري في آخر أيام رحلته داريّا، ذات البساتين والظلال، والنسيم البارد العليل، فألفاها كما يقول[٣١]:

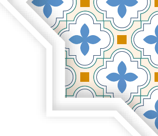
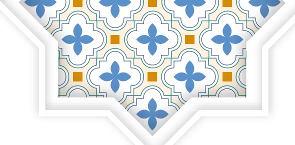
رَيّا مِنَ الأنداءِ طَيـ	ـيِّبَةٌ لها القَدرُ الجَليلْ
تُهدي لَنا أرجاؤُها	أرَجاً مِنَ الزَّهرِ البَليلْ
وبِها الغُصُونُ تمايَلَت	مَيلَ الخَليلِ على الخَليلْ

وبعد أن سرَّح مع أصحابه العيونَ في محاسنها نزلوا بجانب منها، فقال في ذلك[٣٢]:

وبِتنا والسُّرورُ لَنا نَديمٌ	ومـاءُ عُيُونِه الصّافي مُدامُ
يُسايِرُهُ النَّسيمُ إذا تَغَنَّت	حَمائِمُهُ ويَسقيهِ الغَمامُ

(31) **نفح الطيب**، 1: 81.

(32) **نفح الطيب**، 1: 81.

وفي الباب الخامس من نفح الطيب، الذي ترجم فيه لأعيان الأندلس وعلمائها الذين نزلوها وأقاموا فيها، لا يكاد المقّري يجدُ مناسبة للاستطراد إلا واستطرد في وصف محاسن دمشق، وجمال طبيعتها، ففي ترجمته لابن جبير صاحب الرحلة المشهورة أورد الكثير من الأشعار التي قِيلت في التَّغنّي بدمشق وغوطتها، ومن ذلك قول البحتري[٣٣]:

أمّا دمشقُ فقد أبدَت مَحاسنَها ... وقد وَفَى لَكَ مُطريها بما وَعَدا

إذا أردتَ مَلأتَ العَينَ من بَلَدٍ ... مُستَحسَنٍ وزَمانٍ يُشبِهُ البَلَدا

تَمشي السَّحابُ على أجبالها فِرَقاً ... ويُصبحُ النَّورُ في صَحرائها بِدَدا

فلَستَ تُبصرُ إلاّ واكفاً خَضِلاً ... أو يانعاً خَضِراً أو طائراً غَرِدا

كأنّما القَيظُ وَلَّى بَعدَ جيئَتِه ... أو الرَّبيعُ دَنا من بَعدِما بَعُدا

فالبحتري في هذه الأبيات التي أوردها المَقّري يصف جبال دمشق، وقد خيَّمَت عليها الغيوم، وجادت بالمطر، الذي يُقبِّل ثغور الأزهار، ويخترق صمت هذه اللوحة الرائعة تغريد الأطيار، فلا حَرَّ ولا برد، بل الربيع هو المقيم.

ولا يقف بالمقّري حبُّه لدمشق عند إيراد أخبارها ومحاسنها، بل جعلَه يتناول ما قيل في ذمِّها ويُفنِّدُه، أو يلتمس له توجيهاً يتناسب مع حال القائل، أو يردُّه لعلّة نفسية أو أدبية أو إنسانية، ومثل هذا الموقف قد لا نجده لدى أبناء دمشق أنفسهم، وهو يدلُّ على المروءة والوفاء في شخصية المقّري.

ومن أمثلة دفاعه عن دمشق قوله: «وأمّا قول بعضهم:

تَجَنَّبْ دمَشقَ ولا تأتِها ... وإن راقَكَ الجامعُ الجامعُ

فسُوقُ الفُسوقِ بِها قائمٌ ... وفَجرُ الفُجُورِ بها طالِعُ

فلا يُلتَفَت إليه، ولا يُعوَّل عليه، إذ هو مجرَّد دَعوى خالية عن الدليل، وهي من نَزَعات بعضِ الهَجّائين، الذينَ يَعمِدون إلى تقبيح الحَسَن الجميل الجليل.

وأخفّ من هذا قول بعض الأندلسيين، وهو الكاتب أبو بكر محمد بن قاسم[٣٤]:

دمشقُ جنّة الدّنيا حقيقاً ... ولكن ليس تصلح للغريب

بها قومٌ لهم عددٌ ومجدٌ ... وصحبتهم تؤول إلى الحروب

ترى أنهارهم ذات ابتسام ... وأوجههم تولّع بالقطوب

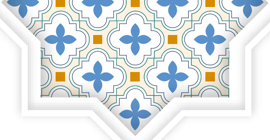
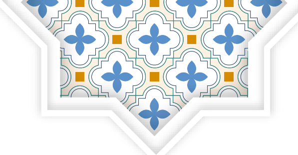
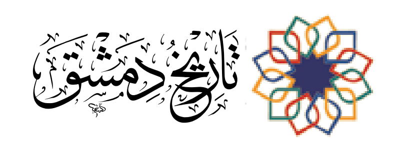
أقمت بدارهم ستّين يوماً ... فلم أظفر بها بفتىً أديب

والجواب واحد، ولا يضرُّ الحقَّ الثابت إنكارُ الجاحد»[٣٥].

ومن القصائد البديعة التي قيلت في مديح الشام وخضرتها وأنهارها، وأوردها صاحب نفح الطيب مستدلاً بها على جمال دمشق وعذوبة الحياة فيها، قصيدة للملك الناصر داوود بن الملك

---

(33) **نفح الطيب**، 2: 395- 396. والأبيات في **ديوان البحتري** (ت 284هـ)، 1: 404- 405.
(34) تُنظر ترجمته في: **المُغرب في حلى المَغرب**: ابن سعيد المغربي (ت 685هـ)، 2: 31، **ونفح الطيب**، 2: 95.
(35) **نفح الطيب**، 2: 406.

المعظم عيسى (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م)[٣٦]، الذي أُوتِي مع الشجاعة وحُسن التدبير حَظّاً من الأدب، وفيها يقول:

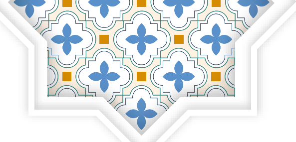
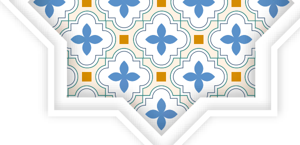
يا راكباً من أعالي الشّام يَجذبُه ... إلى العراقَين إدلاجٌ وإسحارُ
حَدَّثْني عَن رُبوعٍ طالما قُضيَت ... للنَّفس فيها لُباناتٌ وأوطارُ
لَدَى رياضٍ سَقاها المُزنُ ديمتَه ... وزانَها زَهَرٌ غَضٌ ونُوّارُ
شَحَّ النَّدى أن يُسَقِّيها مُجاجتَه ... فجادَها مُفعَمُ الشُّؤبوبِ مدرارُ
بَكَت عَلَيها الغَوادي وهي ضاحكةٌ ... وراحَت الرِّيحُ فيها وهي معطارُ
يا حُسنَها حينَ زانَتها جَواسِقُها ... وأينَعَت في أعالي الدَّوحِ أثمارُ
فهي السَّماءُ اخضراراً، في جَوانبِها ... كَواكبٌ زُهَرٌ تَبدو وأقمارُ
حَدَّثْنَي وأنا الظّامي إلى نَبَأ ... لا فُضَّ فُوكَ فمنّي الرِّيَّ تَمتارُ
فهو الزُّلالُ الذي طابَت مَشارِبُهُ ... وفارَقَتهُ غُثاءاتٌ وأكدارُ
كَرِّرْ عَلَى نازِحٍ شَطَّ المَزارُ بِهِ ... حَديثَكَ العَذبَ لا شَطَّت بِكَ الدّارُ
وعَلِّلِ النَّفسَ عَنهُم بالحَديثِ بِهِم ... إنّ الحَديثَ عَنِ الأحبابِ أسمارُ[٦]

ففي هذه الأبيات يمتزج وصف الرياض الدمشقية بمشاعر الحب والحنين، فيطلب الملك الناصر ممّن يُحدِّثُه عن دمشق ورياضها وأهلها أن يزيده، وأن يُكرِّر حديثه، لأن النفس لا تملُّ من حديث الوطن، وأخبار الأحباب، بل إن مثل هذا الحديث فيه شفاء للنَّفس التي اكتوت بنار الاغتراب، واحترقت بجمر الحنين والشوق.

ومن روائع الأشعار، التي أوردها المقّري في نفح الطيب مستشهداً بها على محاسن دمشق وجمال أرضها، قصيدة لسيف الدين المشدّ (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٨م) يمتزج فيها جمال الطبيعة بالحنين والغزل، وفيها يقول:

بُشرَى لأهلِ الهَوَى عاشُوا بِه سُعَدا ... وإن يَمُوتُوا فهُم مِن جُملَةِ الشُّهَدا
شِعارُهُم رِقّةُ الشَّكوَى ومَذهَبُهُم ... أنَّ الضَّلالَةَ فيهِم في الغَرامِ هُدَى
عُيُونُهُم في ظَلامِ اللَّيلِ ساهِرَةٌ ... عَبرَى وأنفاسُهُم تَحتَ الدُّجَى صُعُدا
تَجَرَّعُوا كأسَ خَمرِ الحُبِّ مُترَعَةً ... ظَلُّوا سُكارَى وظَنُّوا غَيَّهُم رَشَدا
وعاسِلِ القَدِّ مَعسُولٍ مُقَبَّلُه ... كالغُصنِ لَمّا انثَنَى والبَدرِ حِينَ بَدا
رَقيمُ عارِضِه كَهفُ لعاشِقِه ... يأوي إليه فكَم في حُبِّه شُهَدا
نادَمتُه وثُغُورُ البَرقِ باسِمَةٌ ... والغَيثُ يَنزِلُ مُنحَلاً ومُنعَقِدا

[36] الملك الناصر هو: داوود بن عيسى بن محمد بن أيوب، صاحب الكرك، كان من أعيان العلماء والأدباء، وتوفي سنة (656هـ). تُنظر ترجمته وأخباره: **الوافي بالوفيات**، 13: 301.

كأنَّ جِلِّقَ، حَيّا اللّهُ ساكنَها، أهدَت إلى الغَورِ مِن أزهارِها مَدَدا
فاسترسَلَ الجُودُ مُنهَلاً «يَزيدُ» على ثُورا، ويَعقدُ مَحلُولَ النَّدَى بَرَدَى[٧]

❖❖❖❖❖

يتَّضح مما تقدَّم أن طبيعة دمشق وأنهارها وبساتينها كانت حاضرة في قلب المقّري، يَحوطُها بالحبِّ، ويُمطرها بالحنين، كما يُمطر الغيث ثغور الأزهار، وغصون الأشجار، وأخلاط الرَّياحين. ومع أن إقامته في دمشق لم تتجاوز أربعين يوماً، إلا أنها كانت كافية لتزرع في فؤاده الشوق والحنين بقية حياته، ولعلَّ حاله مع دمشق يمكن التعبير عنها بقول «ابن المعتز[٣٧]:

وما أدرى، إذا ما جَنَّ لَيلٌ، أشَوقاً في فُؤادي أم حَريقا؟
ألا يا مُقلتَيَّ، دَهَيتُماني بِلَحظكُما فذُوقا، ثُمَّ ذُوقا!

وقول أبي عبد اللّه بن الحجاج (ت ٣٩١هـ = ١٠٠٠م)[٣٨]:

يا مَن رأى سُقمي يَزيـ ـدُ، وعِلَّتي تُعيي طَبيبي
لا تَعجَبَنَّ فهكذا تَجني العُيونُ على القُلُوب»[٨]

- علاقة المقّري بأعيان دمشق وأهلها:

ظهر سابقاً من كلام المقّري أن أهل الأندلس والمغرب عامة تربطهم بأهل الشام رابطة النَّسب، وهم يعتزون بانتمائهم إلى الشاميِّين، وأكثر أهل الأندلس يعود نسبهم إلى الشام، وقد ظهر أن أهمَّ كُوَر الأندلس، وهي إلبيرة وإشبيلية ورية وشذونة، تُعرف بمنازل العرب الشّاميِّين، الذين دخلوا الأندلس مع بَلج بن بشر، هذا فضلاً عن قرطبة وغيرها التي نزلها الشاميُّون البلديُّون، الذين قدموا مع موسى بن نصير وطارق بن زياد.

ورابطة النسب التي تربط أهل الأندلس بالشام هي ذاتها تربط الكثير من المغاربة، إذ إن جند الشام استوطنوا المغرب كما استوطنوا الأندلس، كما أن كثيراً من الأندلسيِّين رحلوا إلى المغرب وأقاموا فيه، وأن غير قليل من المغاربة أيضاً سكنوا الأندلس، والمقَّري شأنه شأن الأندلسيِّين والمغاربة يحمل في قلبه حبّاً جمّاً للشام وأهلها، وكان كما يقول متشوِّقاً لرؤية الشام ولقاء أهلها، قبل رحلته إليها[٣٩]. ثم تحقَّقت أمنيتُه حين التقى سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)، وهو في الحجّ، بالشيخ عبد الرحمن العمادي مفتي الشام (ت ١٠٥١هـ = ١٦٤١)[٤٠]، فأُعجب به وأفاض في مدحه والثناء عليه.

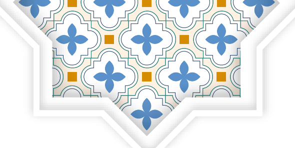
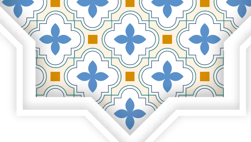
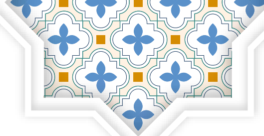
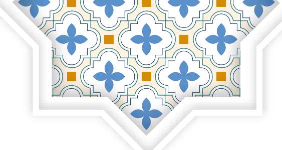
---

(37) هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، كان أديباً بليغاً، وشاعراً مطبوعاً، مقتدراً على الشعر، قريب المأخذ، سهل اللفظ، جيد القريحة، حسن الإبداع للمعاني، مخالطاً للعلماء والأدباء، ومعدوداً من جملتهم، وَلِيَ الخلافة يوماً وليلةً، ثم قُتِل سنة (296هـ). تُنظر ترجمته في: **وفيات الأعيان**، 3: 76.

(38) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد، المعروف بابن الحجاج، شاعر مشهور بالمُجون والخلاعة، مع عذوبة الألفاظ وسلاسة التعبير، توفي سنة (391هـ) ودُفن ببغداد. تُنظر ترجمته في: معجم الأدباء 3: 1040.

(39) يُنظر: **نفح الطيب**، 1: 62.

(40) تُنظر ترجمة العمادي في: **ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا**، ص221، وخلاصة الأثر، 2: 380. ومن عجيب التوافقات أنه عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد، يتكرر اسم محمد خمس مرات في نسبه.


ثم توجَّه إلى دمشق، فتلقاه أهلها بالترحيب والتقدير والاحترام، وفي هذا المقام يُطنب المقّري في الثناء على أديب الشام أحمد بن شاهين، الذي أرسل إليه مفتاح المدرسة الجقمقية، فسكنها مدّة إقامته بالشام، وقد أذهله ما لقي في دمشق من طيب أهلها وكرمهم واحتفائهم به، وفي ذلك يقول: «قابلوني أسماهُمُ اللّهُ بالاحتفال والاحتفاء، وعرَّفَني بَديعُ برِّهم فَنَّ الاكتفاء[٤١]:

غَمَرَتني المَكارِمُ الغُرُّ منهُم ... وتَوالَتْ عَلَيَّ منهَا فُنُونُ

شَرطُ إحسانِهم تَحقَّقَ عِندي ... لَيتَ شِعري الجَزاءُ كيفَ يَكونُ

وقابلوني بالقَبُول مُغضينَ عَن جَهلي[٤٢]:

وما زالَ بي إحسانُهُم وجَميلُهُم ... وبِرُّهُمُ حتّى حَسِبتُهُمُ أهلي

بل الأولى أن أتمثَّل فيهم بما هو أبلغُ من هذا المَقول في آل المهلب، وهو قولُ بعضِ مَن نزلَ بقومٍ، بَرقُهُم غيرُ خُلَّب، في زَمَنٍ به تَقلّب[٤٣]:

ولَمَّا نَزَلنا في ظِلالِ بُيُوتِهم ... أمِنّا، ونلنا الخِصبَ في زَمنٍ مَحلِ

ولو لَم يَزِدْ إحسانُهُم وجَميلُهُم ... على البِرِّ من أهلي حَسِبتُهُمُ أهلي»[٩]

فالمقَّري لقي في دمشق من الحفاوة والإكرام ما أذهل لُبَّه، فامتلأ قلبُه بحبِّ الشام وأهلها، الذين أصعدوه منابر العلم، يُلقي الدروس والأمالي عليهم، وهم يتسابقون على تقبيل يديه، والتبرُّك به، يقول مُصوِّراً حبَّه لأهل دمشق: «فهُمُ الذين نَوَّهُوا بِقَدري الخامِل، وظَنُّوا مع نَقصي أنَّ بَحرَ مَعرفتي وافرٌ كامِلٌ، حَسبَما اقتَضاهُ طَبعُهُمُ العالي[٤٤]:

فلَو شَرَيتُ بِعُمري ساعةً ذَهَبَت ... عَن عِيشتي مَعَهُم ما كانَ بالغالي

فمُتَعيِّنٌ حَقِّهم لا يُترك، وحبُّهم لا يُخالَط بغَيره ولا يُشرَك، وإن أطلتُ الوصفَ فالغايةُ في ذلك لا تُدرَك[٤٥]:

يَزدادُ في مَسمَعي تَردادُ ذكرهِمُ ... طيباً ويَحسُنُ في عَيني مُكَرَّرُهُ»[١٠]

لقد أقام المقَّري في دمشق أربعين يوماً، كانت كافيةً لتجعل حبَّها يستحكم في قلبه، ويتحكَّم في وجدانه، وها هو في لحظة الوداع يستحضر أرقَّ الشِّعر وأعذبَه، وكأنه يرحل عنها، وقلبه لا يُطاوعُه، وصبرُه لا يُساعده، فكيف حالُ مَن اختار الفراق، وقلبُه وصبرُه قد جنحا إلى العصيان، وتحالفا على الخذلان؟

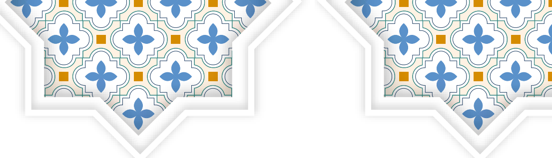
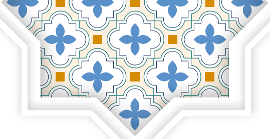
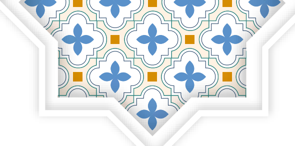
(41) البيتان لعلاء الدين علي بن إسماعيل بن يوسف القونوي، الفقيه المُدرّس الأديب الشاعر القاضي، وُلد بقونية، وتفقَّه في دمشق، وتولَّى فيها القضاء، كما تولَّى مشيخة الشيوخ بالقاهرة، وله مؤلفات وشعر حسن، توفي سنة (729هـ). تُنظر ترجمته في: **الكتيبة الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)، 4: 29.

(42) البيت لبكير بن الأخنس، قاله في مديح آل المهلب بن أبي صفرة. يُنظر: **البيان والتبيين**: الجاحظ، 3: 158.

(43) البيتان لأحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني الأسواني المصري القاضي الرشيد (ت 562هـ). يُنظر: **الوافي بالوفيات**، 7: 144.

(44) البيت لموفق الدين أحمد بن هبة الله، المعروف بابن أبي الحديد، كان شاعراً أديباً فقيهاً مُشاركاً في أكثر العلوم، له مؤلفات كثيرة، وهو أخو عز الدين بن هبة الله شارح نهج البلاغة، وكلاهما تُوفِّي ببغداد في سنة (656هـ). يُنظر في ترجمته: **ذيل مرآة الزمان**: اليونيني، 1: 104.

(45) البيت لابن المعلم محمد بن علي بن فارس الواسطي، انتهت إليه رئاسة الشعر في زمانه، وتوفي سنة (592هـ). تُنظر ترجمته في **الوافي بالوفيات**، 4: 119.



ومما قاله المقَّري في تصوير لحظة الوداع: «ثم حضر بعد تلك الليلة موقف الوداع، والكلُّ ما بين واجمٍ وباكٍ وداعٍ، فتَمثَّلتُ بقول من قلبُه لفراق الأحباب في انصداع[٤٦]:

وَدَّعتُهُم ودُموعي على الخُدُودِ غِزارُ
فاستَكثَرُوا دَمعَ عَيني لَمّا استَقَلُّوا وسارُوا

وحُقَّ لي أن أتمثَّل في ذلك بقول العزيزي[٤٧]:

لا تَسَلني عمّا جَناهُ الفِراقُ حَمَّلَتني يَداهُ ما لا يُطاقُ
أينَ صَبري أم كيفَ أملِكُ دَمعي والمَطايا بالظّاعِنينَ تُساقُ
قِفْ مَعي نَندُبُ الطُّلُولَ فهذي سُنّةٌ قَبلُ سَنَّها العُشّاقُ
وأعِدْ لي ذِكرَ الغُوَيرِ فكَم ما لَ بِعِطفي نَسيمُهُ الخَفّاقُ
في سَبيلِ الغَرامِ ما فَعَلَت بالـ ـعاشقينَ القُدُودُ والأحداقُ
يَومَ وَلَّت طَلائِعُ الصَّبرِ مِنّا ثُمَّ شَنَّت غاراتِها الأشواقُ

وقول ابن نباتة السعدي[٤٨]:

ولَمّا وَقَفنا لِلوَداعِ عَشيّةً ولَم يَبقَ إلا شامتٌ وغَيُورُ
وَقَفنا فمِن باكٍ يُكفكِفُ دَمعَهُ ومُلتَزِمٍ قَلباً يَكادُ يَطيرُ»[١١]

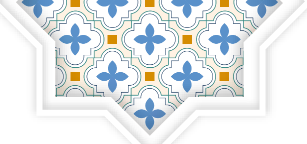
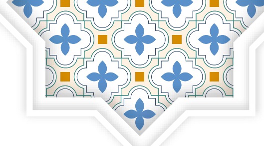
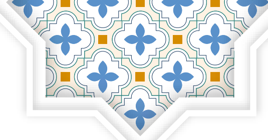
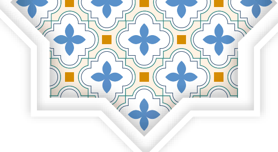
وهكذا رحل المقَّري عن دمشق، وقصد مصر التي كانت مستقرَّه ومسكنَه، وانكبَّ على تأليف نفح الطيب، الذي كان بإشارة أديب الشام أحمد بن شاهين، وبإصراره وبتشجيعه، حيث استمرَّ في مراسلته، كما كان يُراسله أيضاً كثير من أعيان دمشق وعلمائها، فبقيت أواصر الصحبة والمحبّة متَّصلة، وبقي هو يتشوَّق إلى دمشق، وفي ذلك يقول[٤٩]:

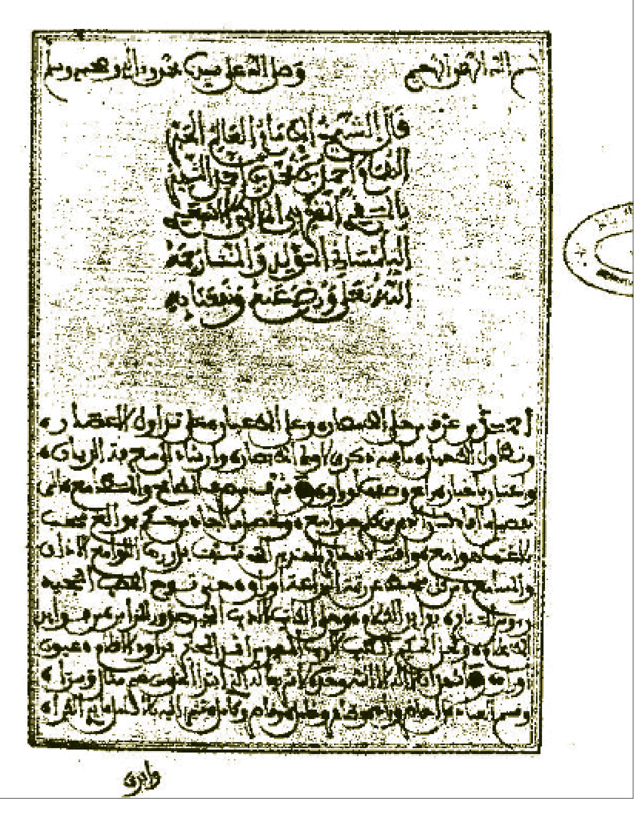
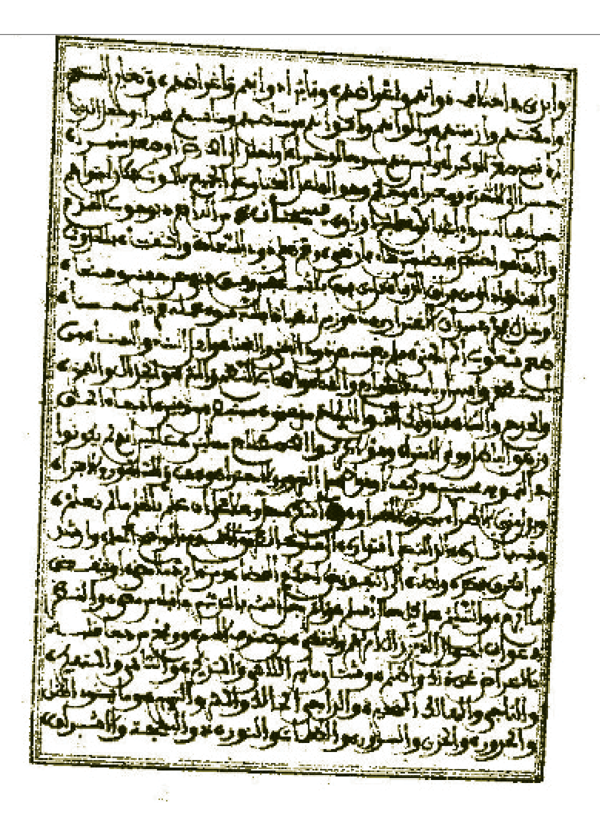
قلتُ لَمّا أتَت مِنَ الشّامِ كُتْبٌ مِن أجِلّاءَ نُورُهُم يَتأَلَّقْ
مَرحَباً مَرحَباً وأهلاً وسَهلاً بِعُيونٍ رأت مَحاسِنَ جِلَّقْ

وهذه الكتب التي تصله من دمشق، بين حين وآخر، كانت تُهَيِّجُ شوقَه إلى العودة إليها، ولقاء أهلها الذين أحبَّهم وامتزج بهم، وكانت الذكريات الجميلة والأيام التي قضاها في دمشق تُشعل جذوة الشوق في قلبه، وتزيد من لهيبه، وفي ذلك يقول[٥٠]:

---

[46] البيتان لشهاب الدين الحاجبي المصري (ت 749هـ). يُنظر: **أعيان العصر وأعوان النصر**: صلاح الدين الصفدي، 1: 366.
[47] العزيزي المذكور لم أعثر له على ترجمة، والأبيات أيضاً لم أعثر عليها في غير **نفح الطيب**.
[48] ابن نباتة السعدي هو: أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة التميمي السعدي البغدادي، أحد كبار الشعراء في العصر العباسي، مدح الملوك والوزراء، وله مدائح في سيف الدولة الحمداني، توفي سنة (405هـ). تُنظر ترجمته في: **الوافي بالوفيات**، 18: 326.
[49] **نفح الطيب**، 1: 102.
[50] **نفح الطيب**، 1: 106.

مخطوط نفح الطيب

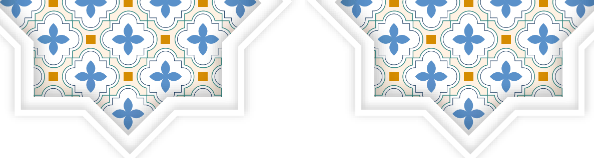
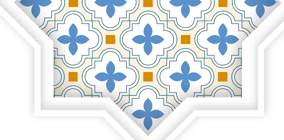
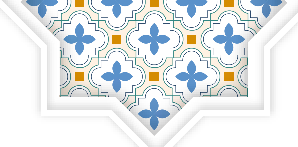
وإنَّ اصطبـاري عَـن مَعاهـد جِلَّـق غَريـبٌ فمـا أجفَـى الفـراقَ وأجفانـي

سَقَى اللّهُ أرضاً لَـو ظَفِـرتُ بِتُربِها كَحَلـتُ بِهـا مِـن شِـدّة الشَّـوق أجفانـي

وقد ذكـر المقّـري في نفـح الطيـب عدداً مـن أعيـان دمشـق، الذيـن كانـوا يُراسـلونه، في أثنـاء إقامتـه بمصـر، وأورد بعـضَ رسـائلهم إليـه، ومنهـم: الأديـب محمـد بـن سـعد الكلشـني (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)[٥١]، والشـيخ أبـو بكـر العمـري (ت ١٠٤٨هـ = ١٦٣٨م)[٥٢]، والشـيخ عبـد الرحمـن العمـادي (ت ١٠٥١هـ = ١٦٤١م)، ويحيـى بـن أبـي الصفـا المحاسـني (ت ١٠٥٣هـ = ١٦٤٣م)[٥٣]، وتـاج الديـن بـن أحمـد المحاسـني (ت ١٠٦٠هـ)، ومصطفـى بـن أحمـد بـن منصـور بـن إبراهيـم بـن محـب الديـن الدمشـقي (ت ١٠٦١هـ = ١٦٥٠م)[٥٤]، وغيرهـم[٥٥].

ومـن الأعيـان الذيـن كانـوا يتواصلـون معـه ويُراسـلونه، في أثنـاء إقامتـه بمصـر، أحمـد بـن شـاهين كمـا تقـدَّم، وقـد أورد المقـري بعـض رسـائله وجواباتهـا في النفـح، وفيهـا مـا يـدلُّ علـى عمـق الصحبـة والتقديـر والحـبّ، وابـن شـاهين شـاعر مطبـوع، أرسـل إليـه كثيراً مـن القصائـد المطوَّلـة التي عبَّـر فيهـا

(51) تُنظر ترجمة محمد الكلشني في: **خلاصة الأثر**، 3: 468.
(52) تُنظر ترجمة أبي بكر العمري في: **خلاصة الأثر**، 1: 99.
(53) تُنظر ترجمة يحيى بن أبي الصفا المحاسني في: **خلاصة الأثر**، 4: 463.
(54) تُنظر ترجمة مصطفى بن أحمد بن منصور في: **خلاصة الأثر**، 4: 365.
(55) يُنظر في مكاتبات المقّري مع أعيان دمشق: **نفح الطيب**، 2: 441- 470.

عن حُبِّه وشوقه إليه، وأثنى فيها على علمه، ومن إحدى مطوّلاته اخترتُ هذه الأبيات[٥٦]:

أبداً إليكَ تَشَوُّقي وحَنيني	وإلى جَنابِكَ، ما عَلمتَ، سُكوني
قَلبي كقَلبِكَ في المَحبّةِ والهَوى	إذ كانَ في الأشواقِ دينُكَ ديني
ما أنتَ إلا البَدرُ لاحَ بأُفقنا	شَهراً وكانَ ضياؤُهُ يَهديني
فاسلَمْ فَدَيتُكَ زائراً ومُشَرِّفاً	أفدي مَواطئَ نَعلِه بجَبيني
وكذاكَ عُمري في هَواكَ مُقسَّمٌ	بَينَ الدُعاءِ الجِدِّ والتّأمينِ

والثناء والمديح والشوق في رسائل الإخوة والأصحاب تكون صادرة عادة عن شعور صادق، لأن أصحابها لا يبتغون من ورائها كسباً ولا عطيّة، بل أداء حقوق الصحبة والأخوّة الصادقة، ولذلك يُمكن أن تُتَّخذ شاهداً عدلاً على ما تتضمّنه من أوصاف الممدوح وما يستحقُّه من الحفاوة والاحترام، وفيما أوردته ما يشهد بالعلاقة الحميمية المنقطعة النظير بين المقَّري وأعيان دمشق وعامة أهلها. وقد شغلت هذه المكاتبات بين المقري وأعيان دمشق نحو مئة صفحة من نفح الطيب، ومعظمها كان شعراً أو نثراً فنيّاً.

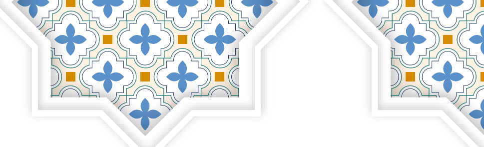
وتجدر الإشارة إلى أن المقَّري رحمه الله ترك في زيارته القصيرة لدمشق أثراً كبيراً في نفوس أبنائها وعقولهم، فقد لزمَه طلبة العلم مدّة إقامته، ودوَّنوا عنه ما كان يُمليه عليهم من صحيح البخاري وشرحه، ومن روائع الأدب التي اختارتها ذائقة أديب مبدع، عالمٍ بمواضع الحُسن والجمال، وذي اطِّلاع واسع وتمييز دقيق بين الأساليب.

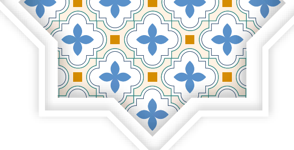
يُضاف إلى ذلك أنه مَنح إجازات لكثير من علماء دمشق في رواية العلم والأدب والبلاغة عنه، ومن أولئك الذين حصلوا على إجازات منه: إبراهيم بن محمد الدمشقي الصالحي خادم باب الشيخ ابن العربي (ت ١٠٤٧هـ = ١٦٣٧م)[٥٧]، وأبو بكر العمري (ت ١٠٤٨هـ = ١٦٣٨م)، والأديب أحمد بن شاهين (ت ١٠٥٣هـ = ١٦٤٣م)، ويحيى بن أبي الصفا المحاسني (١٠٥٣هـ = ١٦٤٣م)، ومصطفى بن محب الدين (ت ١٠٦١هـ = ١٦٥٠م)، ويوسف بن كريم الدين الدمشقي (ت ١٠٦٨هـ = ١٦٥٧م)[٥٨]، ومحمد بن تاج الدين المحاسني (ت١٠٧٢هـ = ١٦٦١م)[٥٩]، ومحمد بن علي بن عمر القاري[٦٠]، وثلاثة من أبناء مفتي الشام الشيخ عبد الرحمن العمادي، وغيرهم[٦١]، وهؤلاء كانوا من أفاضل العلماء في القرن الحادي عشر الهجري، وعلى أيديهم تخرَّج الكثير من الطلبة في مجالات العلم والأدب.

والجدير بالذكر أيضاً أن الإجازات التي منحها المقّري في دمشق كانت تُصاغ شعراً، حيث يتقدَّم طالب الإجازة بأبيات شعرية، ويُجيزه المقَّري أيضاً شعراً، وفي هذا نوع من التفنُّن الأدبي والأسلوبي.

ولمزيد من الإيضاح أعرضُ نصَّ الإجازة التي حصل عليها الشيخ محمد بن تاج الدين المحاسني،

(56) **نفح الطيب**، 2: 420.
(57) تُنظر ترجمة إبراهم بن محمد الأكرمي في: **خلاصة الأثر**، 1: 39.
(58) تُنظر ترجمة يوسف بن كريم الدين في: **خلاصة الأثر**، 4: 509.
(59) تُنظر ترجمة محمد المحاسني في: **خلاصة الأثر**، 3: 408.
(60) تُنظر ترجمة محمد بن علي القاري في: **خلاصة الأثر**، 4: 54.
(61) تُنظر هذه الإجازات في: **نفح الطيب**، 2: 424- 446.






باعتبارها تُمثِّل نموذجاً لهذه الطريقة الفنيّة في الإجازات. قال المقري: «وكتب إليَّ الفاضل الخطيب، الفهامة الأديب، وارث الفضل عن الأعلام ذوي اللّسن، سيدي الشمس محمد المحاسني، سبط شيخ الإسلام مولانا البوريني حسن[٦٢]، حفظه اللّه تعالى، بقوله:

يا سَيِّدي ومَلاذي وعَالِمَ الثَّقَلَين

ومَن غَدا بِمَكانٍ عـلا على النَّيِّرَين

أجَزتَ بِالدَّرسِ قَوماً فاقُوا بِهِ الفَرقَدَين

فزَيِّنِ العَبدَ أيضاً مِن مثلِ ذاكَ بزَين

إن لَم يَكُنْ في ختامٍ فذاكَ قُرّةُ عَيني

فأجزته بما نصّه:

أحمَدُ مَن أطلَعَ مِن مَحاسِنِ دِمشقَ ما أربَى على المَحاسِنِ

وزانَها بالجلّةِ الأعيانِ الرّافلينَ في حلَى التِّبيانِ

الرّاغبينَ في الحَديثِ النَّبَوي السّالكينَ في الهُدَى النَّهجَ السَّوي

وبَعدُ فالعلمُ أجَلُّ زينَهْ وسُبُلُهُ في الرُشدِ مُستَبينَهْ

وإنَّ علمَ السُنّةِ الشَّريفَهْ ظلالُهُ ضافيةٌ وَريفَهْ

لِذاكَ كانَ باعتناءٍ أجدَرا مِن كُلِّ ما يُمليهِ مَن تَصَدَّرا

وإنَّ ذا الفَضلِ الأديبَ البارِعَ سابِقَ مَيدانِ الذّكا المُسارِعَ

الماجِدَ المُسَدَّدَ السّامي الحَسَبْ مُحَمَّدٌ مَن للمَحاسِنِ انتَسَبْ

ابنُ الشَّهيرِ الصَّدرِ تاجِ الدِّينِ لا زالَ في عِزٍّ وفي تَمكينِ

وجَدُّهُ لأُمِّهِ الشَّيخُ الحَسَنْ وذاكَ بُورينيُّهُم مُعطَى اللَّسَنْ

يَسألُني إجازَةً بِكُلِّ ما أرويهِ عُنواناً بِحالي مُعلِما

وها أنا أجَبتُهُ غَيرَ بَطِلْ مُستَغفِراً مِن خَطَأٍ ومِن خَطَلْ

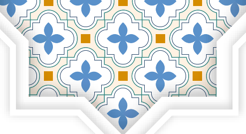
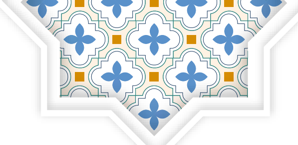
فلْيَروِ عَنّي كُلَّ ما يَصِحُّ عَلَى شُروطٍ غَيثُها يَسُحُّ

وهيَ عَنِ الشُروطِ لَن تَريما ولَيسَ يُخفي عِلمَهُ الكَريما

وكلَّ ما ألَّفتُ أو جَمَعتُ نَظماً ونَثراً مِثلَ ما أسمَعتُ

---

[62] هو الشيخ حسن بن محمد البوريني الصفوري الأصل الدمشقي الشافعي، عالم عصره، وإمام وقته، وصاحب التصانيف الكثيرة، توفي سنة (ت 1024هـ). تُنظر ترجمته في: **خلاصة الأثر**، 2: 51.

وخَـطَّ هـذا المَقّـريُّ عَـن عَجَـلْ مُؤمِّـلاً مِـن رَبِّـه عَـزَّ وجَـلّ
غُفـرانَ مـا جَنَـى مِـنَ الذُنُـوب والصَّفـحَ عَـن مَعَـرَّة العُيُـوب
بِجـاهِ خَـيرِ العالَمِـينَ أحمَـدا صَلَّـى عَلَيـه اللّهُ دأبـاً سَـرمَدا
وآلـهِ وصَحبِـهِ الأخيـارِ ومَـن تَـلا لآخـرِ الأعصـارِ»[١٢]

❖❖❖❖❖

مما سبق يتَّضح أن أهل دمشق فتحوا للمقَّري قلوبَهم وأحبُّوه وقابلوه بالحفاوة والتقدير، في مدة إقامته بدمشق سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م)، واستمرُّوا في مراسلته بعد رحيله إلى مصر، وفي المقابل تعلَّقَ قلبُه بدمشق وطبيعتها وأهلها، ونشر علمَه على منابرها، وأهدى رحيق فكره وتجاربه للطلبة فيها، ومن شدّة حبِّه لدمشق ظلَّ يتشوَّق إليها، ويسترسل في مديحها، كأنها وطنه الذي وُلد ونشأ فيه.

- الخاتمة:

تحدَّثتُ في البحث عن صورة دمشق عند المقّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ = ١٦٣١م) في كتابه «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، وقد ظهر أن الأديب أبا العباس المقري كان تلمسانيّ الأصل، وأقام في فاس ثم في مصر، وحجَّ وجاور في مكة والمدينة، وزار بيت المقدس، وكان من أشهر العلماء والأدباء في عصره.

وقد زار دمشق سنة (١٠٣٧هـ = ١٦٢٧م) في شعبان، وأقام فيها نحو أربعين يوماً، حتى شوال من السنة ذاتها، فلَقي في دمشق من الحفاوة والتكريم ما لم يحظَ به أيٌ من الوافدين عليها، وكان لتلك الحفاوة والتكريم أثر في نفسه ووجدانه وفكره، حيث ألَّف «نفح الطيب» بطلب من الأديب الشاهيني الدمشقي (ت ١٠٥٣هـ = ١٦٤٣م)، كما ظلَّ يتشوَّق إلى دمشق طوال حياته، وتُحدِّثُه نفسه بالانتقال إليها.

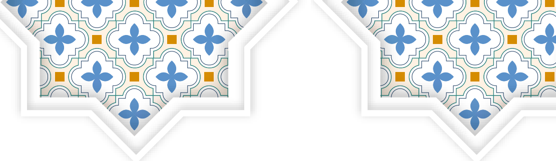
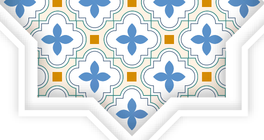
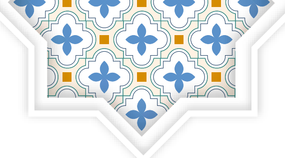
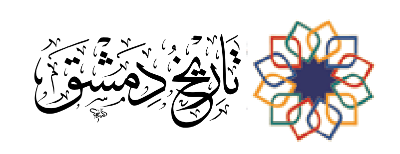
ويُمكن تلخيص نتائج البحث في:

١- العلم والأدب والفكر ليس لها وطن جغرافي، فهي كالمطر الذي يسوقه السحاب، وحيثما نزل عمَّ الخير واستبشر الناس، والمقّري ابن تلمسان، ولكن علمه انتشر في المغرب ومصر والحجاز وبيت المقدس وغزة ودمشق، وما يزال ينتفع به كلُّ طلبة العلم حتى يومنا الحاضر.

٢- تكريم العلماء وتقديرهم يتركُ أثراً حسناً في قلوبهم، فتتضاعَف همَّتُهم وإنجازاتُهم، ويُقابِلون الحفاوةَ بالعطاء والوفاء لأهل البلد عامة.

٣- كل فرد هو سفير عن أهل بلده، فعليه أن يكون على درجة عالية من حُسن الخُلق وطيب المعاملة مع الناس، وهكذا كان الأديب الشاهيني رحمه اللّه مع المقرّي التلمساني، منذ التقاه بدمشق حتى آخر حياته.

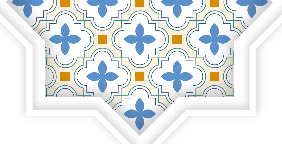
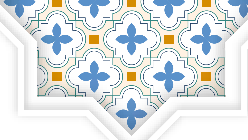
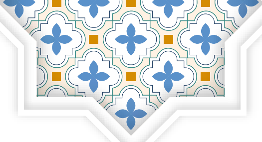
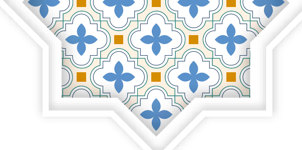
٤- اجتمع لدمشق ما لم يجتمع لغيرها من المدن والبلدان، من معالم حضارية، وطبيعة ساحرة،

وأصالـة تاريخيـة، ورمزيـة قياديّـة، إضافـة إلى كثـرة العلمـاء مـن أهلهـا ومـن الوافديـن عليهـا والمقيمـين فيهـا، مـع كثـرة المدارس ودور العلـم، ولهـذا فـلا عجـب أن يتعلَّق بهـا قلـب الأديـب التلمسـاني، إلى درجة أن مجـرَّد ذِكـر اسمهـا في نفـح الطيـب يجعلـه يسـتطرد في مديحهـا واسـتقصاء محاسـنها ووصـف جمالها.

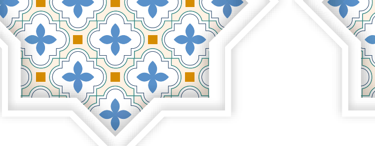
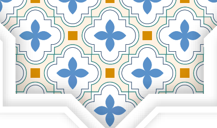
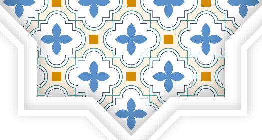
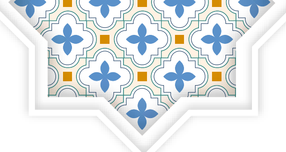
٥- حديـث المقّـري عـن دمشـق ليـس حديثـاً تاريخيّـاً بالمعنـى الدقيـق، وإنمـا هـو حديـث أديـب مُحـبٍّ، تغلـب عليـه الصبغـة الوجدانيـة، ويتَّسـم بسـلاسـة الأسـلوب، وجمـال التعابير، وابتـداع الصـور البلاغَيـة، مـع ذوق راقٍ في المختـارات الشـعرية والنثريـة، فهـو أقـرب إلى دنيـا الأدب منـه إلى التاريـخ.

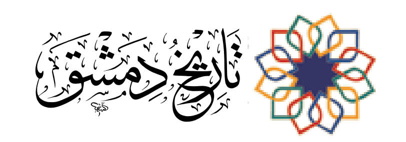
٦- يُمثِّـل كتـاب «نفـح الطيـب» موسـوعة أدبيـة بمـا احتـواه مـن النثـر الفنـي والأشـعار البديعـة، كمـا يُمثِّـل في بعـض أقسـامه تأريخـاً لأهـم الحـوادث الـتي عاينهـا المؤلـف، أو سـبقت عصـرَه علـى امتـداد أحـد عشـر قرنـاً، مـع غنـاه بتراجـم العلمـاء وأخبارهـم. فهـو مرجـع لا يسـتغني عنـه الباحثـون في مجـالات الأدب والتاريـخ والتراجـم.

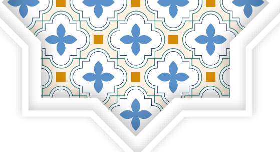
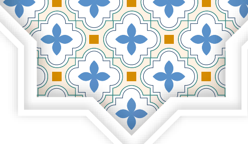
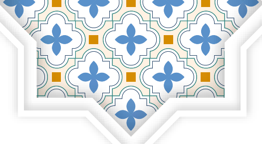
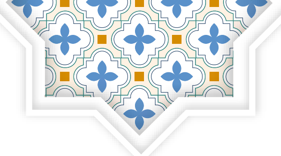
مصادر البحث ومراجعه

- الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ.
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لشهاب الدين السلاوي (ت ١٣١٥هـ)، دار الكتاب، الدار البيضاء.
- أعيان العصر وأعوان النصر، لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: الدكتور علي أبو زيد ورفاقه، ط١، دار الفكر، دمشق وبيروت ١٩٩٨.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى (ت ٦٩٥هـ)، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣.
- البيان والتبيين، للجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، دار الهلال، بيروت.
- تاج العروس، للمُرتَضى الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، دار الهداية.
- خلاصة الأثر، للمحبّي (ت ١١١١هـ)، دار صادر، بيروت.
- ديوان أبي نواس، طبع دار صادر، بيروت، ص٩٤.
- ديوان البحتري (ت ٢٨٤هـ)، تحقيق: الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت.
- ذيل مرآة الزمان، لليونيني (ت ٧٢٦ هـ)، ط٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ١٩٩٢.
- رحلة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧هـ.
- رحلة ابن جبير (ت٦١٤هـ)، دار الهلال، بيروت.
- رحلة المقّري إلى المشرق والمغرب، تحقيق: الدكتور محمد بن معمّر، مكتبة الرشاد، الجزائر ٢٠٠٤.
- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر مَن لقيتُه من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، للمقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لابن سالم (ت ١٣٦٠هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت





.٢٠٠٣
- عصر الدول والإمارات (الأندلس)، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٩ .
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧ .
- الكتيبة الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، ط٢، حيدر آباد، الهند ١٩٧٢ .
- معجم الأدباء، لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣ .
- معجم البلدان، لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ط٢، دار صادر، بيروت ١٩٩٥ .
- المُغرب في حلى المَغرب، لابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ)، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٥ .
- مقامات الحريري (ت ٥١٦هـ)، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٧٣ .
- المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، ليحيى بن أبي الصفا الدمشقي (ت ١٠٥٣هـ)، تحقيق: الدكتور محمد عدنان البخيت، ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨١ .
- نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (ت ٧٣٣هـ)، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ١٤٢٣هـ.
- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، دار إحياء التراث، بيروت ٢٠٠٠ .
- وفيات الأعيان، لابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت.




Un voyage à Damas

Au XVIIe siècle après JC = 11 AH

Textes du voyageur français “Jean de Thévenot”

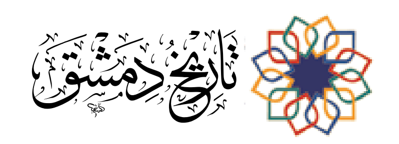
1665 après JC = 1076 AH

Jean de Thévenot

16331667- après JC = 10431078- AH

Dr Ahmed Ibesch







رحلة إلى دمشق

في القرن ١٧ م = ١١ هـ

نصوص للرَّحالة الفرنسي «جان دي تيڤنو»

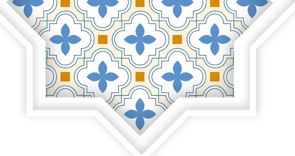
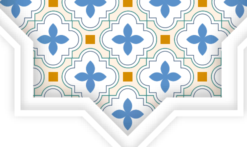
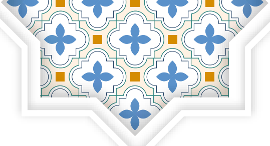
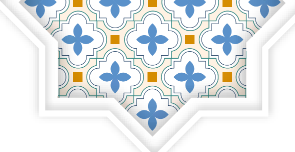
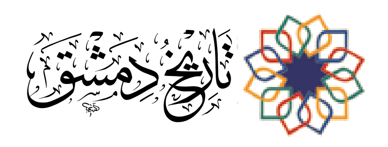
١٦٦٥ م = ١٠٧٦هـ

Jean de Thévenot

١٦٣٣ـ١٦٦٧ م = ١٠٤٣ ـ ١٠٧٨ هـ

الدكتور أحمد إيبش[١]

[1] الباحث المتخصص في دراسات تاريخ دمشق، وصاحب عشرات المؤلّفات والتَّرجمات عنها.

ملخص البحث

يروي تيفنو وقائع رحلته إلى دمشق قادماً من صيدا، فأمضى فيها ٢٤ يوماً (٢٨ مارس – ٢١ أبريل ١٦٦٤) ثمّ توجه منها إلى حمص عبر القَلَمون، ثمّ حماة وحلب. ويتميّز وصفه بالاستفاضة والدقة والتوسّع، وكان وصفه لدمشق هو الأفضل في القرن السّابع عشر من بين جميع الرَّحَّالة التي زاروها، وذلك لأسباب عديدة أبرزها تمكُن تيڤنو من اللغتين العربيّة والتركيّة ودقة ملاحظته. ويمتاز وصف تيڤنو لدمشق بالدقّة والتحرّي والأصالة، وذكره لمشاهدات تفصيليّة شائقة لم يوردها غيره على الإطلاق.

Résumé de l'article

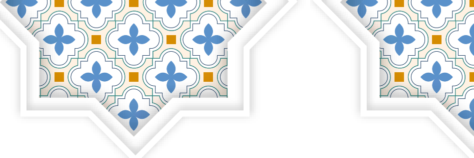
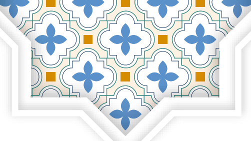
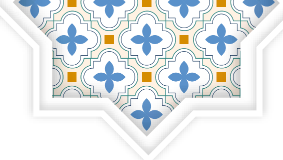
Jean de Thévenot nous raconte les faits de son voyage à Damas en provenance de Sidon, où il passa 24 jours (28 mars-21 avril 1664), puis de là à Homs via Qalamoun, puis Hama et Alep. Sa description se distingue par son étendue, sa précision et son expansion. Ainsi pour de nombreuses raisons, notamment sa maîtrise des langues arabe et turque et l'exactitude de son observation, sa description de Damas était la meilleure au XVIIe siècle parmi tous les voyageurs qui ont visité la ville. Cette belle image de Damas par M. Thévenot est en outre marquée par l'authenticité, l'investigation et l'originalité, il mentionne des observations intéressantes et détaillées que personne d'autre n'a faites auparavant.

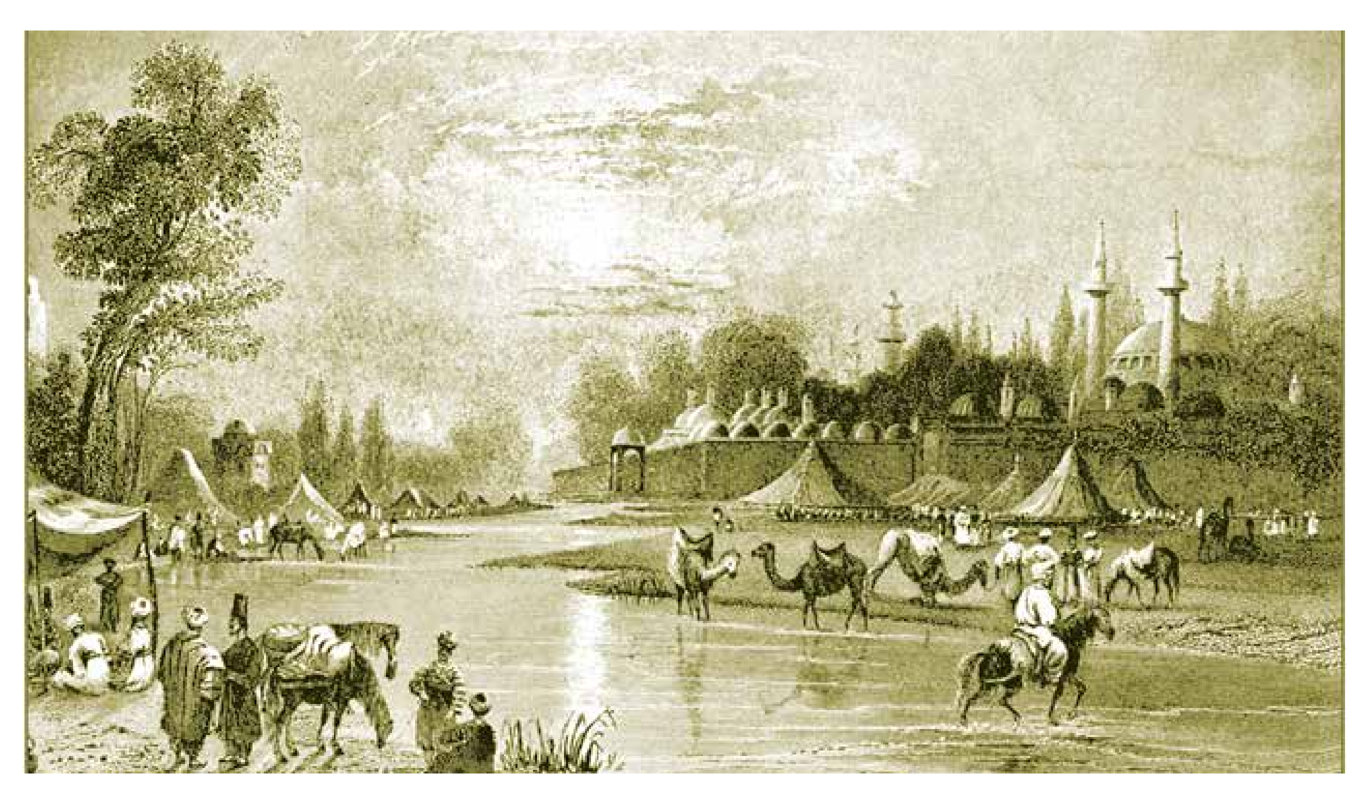
_ تمهيد:

للرَّحلات أهميّةٌ كبيرة في حياة المجتمعات، وهي منذ القديم ذات دوافع كثيرة، دينية أو علمية أو تجارية، ورحل آخرون كرسل متنقّلين بين الملوك والأمراء، إضافة إلى رحلة السَّاعين للرزق أو المغامرين. وتمثّلت الفائدة من هذه الرحلات في قيام الكثير من أصحابها بتدوين أخبار أسفارهم وتنقّلاتهم، فذكروا المدن التي نزلوا فيها، والمسافات التي قطعوها، ووصفوا البلاد وزروعها، وأتوا على وصف حياة السكان فيها مدحاً أو ذمّاً[٢].

ولأهمية الرحلات البالغة؛ كان لي منذ القديم اهتمام كبير بها، فقمت خلال (٢٥) عاماً بتجميع (٣٩) نصّاً نادراً لرحَّالين وفدوا إلى دمشق في عصر المماليك من عدد من الدول الأوروبيَّة، منها: فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وسويسرا وبولونيا وروسيا واليونان، واطَّلعت على أقوالهم، ونقلت شهاداتهم في ذلك، ومن هؤلاء الرَّحالة الفلورنسي جورجو كوتشي Giorgio Gucci، الَّذي كتب عام ٧٨٧هـ = ١٣٨٥م: «إنَّ دمشق، أو الجزء المُحاط بالأسوار منها، تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة فلورنسا. ويدور بها سوران: أي أنَّ هناك أوّلاً سوراً متيناً يبلغ ارتفاعه نحو ٣٠ ذراعاً وهو خارج الخندق، وثمَّة سور آخر يبعد عن الأول بين ١٥ و ١٦ ذراعاً ... والمدينة حصينة جدّاً بأسوارها وخنادقها، ويوجد في داخلها قلعة لها أسوار وخنادق، ويبلغ محيطها نحو الميل ... ومنازلها متَّسعة، بحيث يمكن أن يأوي إليها نحو عشرين ألفاً من رجال الحرب مع خيولهم».

(2) انظر جغرافية العالم الإسلامي: دلال جوهر، مطبعة الصباح، دمشق، 1992م، ص14- 15.



نقيشة معدنية غربية لدمشق

وكتب البولوني لودفيكو دي فارتيما LODOVICO DE VARTHEMA (ت ٩٢٣هـ = ١٥١٧م) عام ٩٠٨هـ = ١٥٠٢م: «يتحتَّم عليك أن تعرف أنَّ في مدينة دمشق قلعة حصينة جميلة ... يضاف إلى ذلك أنَّه في كلِّ زاوية من القلعة المذكورة يوجد رنك فلورنسي محفور بالرُّخام. وهي مُحاطة بخنادق، ولها أربعة أبراج متينة التَّحصين وجسور متحرِّكة. وتعلو هذه الأبراج دوماً مدافع قويَّة ممتازة. وثمَّة خمسون مملوكاً من خدم السُّلطان الكبير يُقيمون مع نائب القلعة على الدَّوام»[٣].

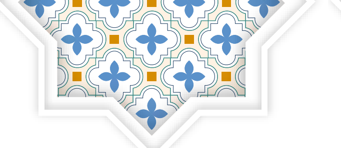
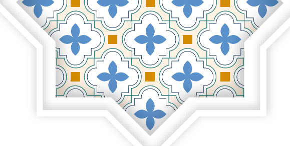
ومتابعة لأعمالي السابقة المتعلقة بالرَّحلات، أُقدِّم في هذا البحث رحلة لم تُنشر من قبل، وتعدُّ أهم رحلة من بين رحلات الغربيين من غير مبالغة، وفي الأسطر القادمة سيتبيَّن ذلك.

أولاً ـ جان دى تيڤنو، وماهية رحلته[٤]:

جان دى تيڤنو (١٦٣٣-١٦٦٧م = ١٠٤٣ - ١٠٧٨هـ) رحّالة فرنسي شهير جاب بلدان الشّرق، كما كان لغويّاً وعالماً بالطبيعيّات والنّبات. وُلد في باريس وتلقّى تعليمه في كليّة ناڤار في بلدة إيڤرو Collège de Navarre، ومنذ أن قرأ نصوص رحّالي عصره إلى المشرق استعرت لديه رغبةٌ جامحة للتّرحال في بلدان الشرق، ومكّنه غنى عائلته من القيام بذلك، فغادر فرنسا في عام ١٦٥٢م = ١٠٦٣هـ وزار إنكلترا وهولندا وألمانيا وإيطاليا. وفي روما التقى بالعلاّمة الموسوعي بارتيلُمي ديَربُلو d'Herbelot الذي دعاه لأن يكون معاونه في رحلة علميّة إلى الشّرق، غير أنّ مشاغل ديربُلو حالت

(3) **دمشق في عصر سلاطين المماليك:** أحمد إيبش، دمشق، دار الشرق، 2005م، ص31 - 35.

(4) **الطبعة الإنكليزية لرحلات تيڤنو، صدرت بلندن 1687.** تتمة رحلة تيڤنو، طبعة باريس 1674، الجزء الثاني. الطبعة القديمة لرحلة تيڤنو الأولى، طبعة باريس 1665.


دون سفره.

انطلق تيڤنو من روما في مايو (١٦٥٥م = ١٠٦٦هـ) متوجّهاً إلى جزيرة مالطا، ومنها تابع الإبحار إلى القسطنطينيّة، وظلّ فيها حتى شهر أغسطس، ثم توجّه إلى إزمير وجزر اليونان، وأخيراً إلى مصر حيث حطّ في الإسكندريّة يوم رأس سنة (١٦٥٧م = ١٠٦٨هـ)، ومكث في مصر سنة كاملة، ثمّ زار سيناء.

وفي طريق عودته إلى القاهرة، انضمّ إلى قافلة حجّاج متوجّهة إلى القُدس، فزار أهمّ الأماكن المقصودة بالزّيارة في أرض فلسطين. ثمّ بعد أن وقع مرتين في أسر القراصنة بلغ دمياط بحراً، ودخل القاهرة مجدّداً ليحضر احتفال فتح القناة عند وفاء النّيل (١٤ أغسطس ١٦٥٨م = ١٠٦٩هـ).

وفي عام (١٦٥٩م = ١٠٧٠هـ) أبحر في سفينة إنكليزيّة، وزار في طريقه تونس، وبعد وقعة حامية مع قراصنة إسبان، بلغ ميناء ليڤورنو الإيطالي في ١٢ أبريل، ثمّ أمضى في موطنه ٤ أعوام يدرس ما يُفيده من علوم من أجل التّرحال.

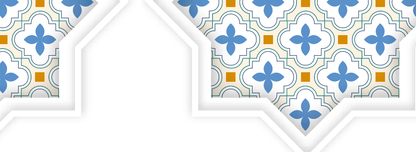
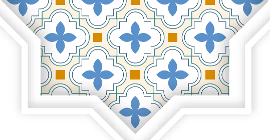
وفي شهر نوڤمبر من عام (١٦٦٣م = ١٠٧٤هـ) أبحر جان دى تيڤنو إلى الشّرق مجدّداً، فمرّ بالإسكندريّة ونزل في صَيدا بلبنان، التي توجّه منها برّاً إلى دمشق وحلب، ثم اجتاز عبر وادي الرّافدين إلى الموصل وبغداد ومندلي. ومن هنالك دخل بلاد فارس (٢٧ أغسطس ١٦٦٤م = ١٠٧٥هـ) فتابع عبر كَرَمنشاه وهَمَذان إلى أصفهان، حيث أمضى خمسة أشهر. ثم رافق التّاجر الفرنسي جان باتيست تاڤرنييه J. B. Tavernier، فتابع طريقه عبر شيراز ولار وصولاً إلى بندر عبّاس، أملاً باتّباع مسلَك إلى الهند.

غير أنّ ذلك الأمر كان متعذّراً بسبب معارضة الهولنديّين، ومع أنّ تاڤرنييه انطلق في طريقه إلا أن تيڤنو آثر العودة إلى شيراز. ثمّ بعد أن زار پرسيپوليس (تَخْت جَمْشيد)، توجّه إلى البَصرة، وفي دربه إلى الهند مرّ ببعض جزر الخليج العربي العائدة اليوم إلى دولة الإمارات العربيّة المتّحدة ومملكة البحرين، فوصف على نحو شائق كيف يتمّ صيد اللّؤلؤ بها، وزَيَّن كتابه بعدّة نُقيشات بديعة تمثّل مشاهد نادرة جداً من هذه الجزر.

ثّم من ميناء البّصرة أبحر إلى الهند في ٦ نوڤمبر (١٦٦٥ م = ١٠٧٦هـ) على متن السفينة «هوپويل» Hopewell، فوصل إلى ميناء سُورات في ١٠ يناير (١٦٦٦م = ١٠٧٧هـ).

أمضى في الهند ثلاثة عشر شهراً، واجتازها من ڤولكوندا إلى ماسوليپاتام، ثم عاد براً إلى سُورات، ومنها أبحر إلى بندر عبّاس وتابع طريقه صعوداً إلى شيراز. ثمّ أمضى صيف عام (١٦٦٧م = ١٠٧٨هـ) في أصفهان مُقعداً بسبب رصاصة انطلقت بالخطأ من غدّارة (طَبَنجة)، وفي أكتوبر انطلق في طريقه باتجاه تبريز، لكنّه مات على الطريق في ٢٨ نوڤمبر (١٦٦٧ م = ١٠٧٨هـ).

كان رحّالتنا جان دى تيڤنو لغويّاً مُجيداً، يُتقن العربيّة والتّركيّة والفارسيّة، ويتميّز بقوة الملاحظة، ولديه خبرة دراسيّة بالعلوم الطبيعيّة وبخاصّة علم النّبات، فقام بجمع مجموعة واسعة من النّباتات في الهند. وكانت شخصيّته تدعو للإعجاب، وما زالت كتاباته ذات شأن إلى يومنا الحاضر، مع أنّه اقتصر على رؤية الوجه الخارجي لحياة المشرق على عكس الرّحّالة الفرنسي جان شاردان Jean


Chardin مثـلاً.

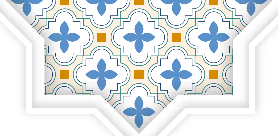
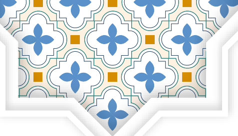
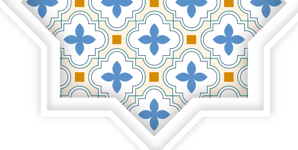
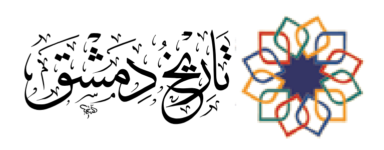
نُشرت رحلة تيڤنو الأولى في باريس عام (١٦٦٥م = ١٠٧٦هـ) بعنوان: «وقائع رحلة تمّت في المشرق» *Relation d'un Voyage fait au Levant*، وهي تُؤلّف القسم الأول من رحلاته، ويبدو من المقدّمة التي كتبها في عام (١٦٦٣م = ١٠٧٤هـ) أنه هو الذي قام بإعداد الكتاب للنّشر قبل أن ينطلق في رحلته الثانية.

أمّا القسم الثّاني والثّالث من رحلاته فقد نُشرا بعد وفاته، اعتماداً على مذكراته اليوميّة في عامي (١٦٧٤م = ١٠٨٥هـ) و(١٦٨٤م = ١٠٩٦هـ). ثمّ ظهرت طبعة جامعة لهما في باريس عام (١٦٨٩م = ١١٠١هـ)، وعنها طبعة ثالثة في أمستردام بهولندا عام (١٧٢٧م = ١١٤٠هـ) في ٥ أجزاء صغيرة. كما صدرت في عام (١٦٨٧م = ١٠٠٩هـ) ترجمة إنكليزية قام بها أ. لوڤِل A. Lovell في لندن.


من كتاب جان دى تيڤنو

في الجزء الرّابع من تتمّة رحلات جان دى تيڤنو المعنونة: «تتمّة الرّحلة إلى المشرق» *Suite du Voyage de Levant* يروي المؤلّف وقائع رحلته إلى دمشق قادماً من صيدا، فأمضى فيها ٢٤ يوماً (٢٨ مارس – ٢١ أبريل ١٦٦٤م = ١٠٧٥هـ) ثمّ توجه منها إلى حمص عبر القَلَمون، ثمّ حماة وحلب. ويتميّز وصف تيڤنو بالاستفاضة والدقة والتوسُع، وبالنسبة لوصفه لدمشق فأعتقد أنه الأفضل في القرن السّابع عشر، إذ فاق به حتى وصف مواطنه الفرنسي لوران دارڤيو الذي زارها قبل أربعة أعوام. والسبب في ذلك الرّسالة التي أتت دارڤيو من مرسيليا فاضطرّته لمغادرة دمشق على عجل، وكذلك تمكُن تيڤنو من اللغتين العربيّة والتركيّة ودقة ملاحظاته.

قُمتُ بنقل وصف تيڤنو لرحلته إلى دمشق، ثم رحلته منها إلى حلب، مع مشاهداته خلال ذلك، ورجعت إلى طبعة باريسية نُشرت عام (١٧٧٤م = ١٠٨٥هـ)، محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس. والنص الذي ترجمته هنا يقع بين الصفحات ٢٤–٥٧ من الطبعة. ويبقى أن أذكر أنني أنوي ترجمة النصّ الكامل لتتمّة رحلة تيڤنو إلى المشرق، والذي يتجاوز ٤٠٠ صفحة.

كذلك يُقدّم لنا تيڤنو معلومات جديدة حول أثر محيّر بدمشق، هو البرج المنفصل عن سور دمشق الشرقي، وما كان يحمله من رنوك. كما يفيدنا بتفاصيل جديدة تتعلّق بالواجهة الشرقيّة لقلعة دمشق، وبمعلومات حول خندقها. وأمّا وصفه لبعض مقاهي دمشق التي يحدّدها بالاسم: قهوة السّنانيّة (القهوة الكبيرة)، قهوة الجسر، قهوة النّهرين، فهو وصف حيّ أنيق يجعل القارئ ينتقل على سطوره إلى أواسط القرن السّابع عشر، فيرى دمشق ترفل بحلّة ماتعة جميلة، لم يبق منها اليوم مع الأسف إلا القليل.

ثانياً ـ رحلات جان دى تيڤنو في برّ الشام من دمشق إلى حلب:

يروي تيفنو تفاصيل رحلته هنا، فيقول: بعد أن سرنا هكذا لغاية الساعة الثالثة من بعض الظهر تقريباً، عثرنا على قرية تُدعى كفر حَوَر، وقال لي المكاريّة الذين تدخّلوا في القصّة، إنه هنا كان يعيش في الماضي نمور، ومن هنا أُطلقت السّهام باتجاه السماء. اجتزنا تلك القرية بعد نزولنا في واد صغير، من ثمّ وبقليل من الحيوية بلغنا قرية تدعى بيتيما[5]، وهناك اتخذنا لأنفسنا مأوًى في إصطبلٍ راقٍ لأنه يضمّ مكاناً يرتفع عن الأرض مسافة قدمين، كي يُقيم فيه الناس بعيداً عن الحيوانات.

غادرنا تلك القرية في اليوم التالي، الجمعة ٢٨ من شهر مارس، في الساعة الخامسة والنصف. في البداية لم يكن أمامنا سوى الصعود والنزول لمدة ساعتين؛ بعد ذلك وصلنا إلى سهل مترامي الأرجاء مليء بالحجارة، ما خلا بعض الأمكنة التي كانت مزروعة، وهذا السهل يُؤدّي إلى دمشق. ويضمّ عدداً من القرى. أول ما رأينا منها قرية تدعى قَطَنا، وتبعد نصف فرسخ تقريباً عنا من جهة اليسار. مررنا بعد ذلك قرب قرية تدعى عرطوز، بعد ذلك بقليل لمحنا إلى اليمين قرية اسمها المعظّمية[6]، وكذلك العديد من القرى الأخرى. بعد ذلك تركنا الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة ومشينا باتجاه اليسار، إلى قرية كبيرة اسمها سليمان Soliman، ومن بعدها إلى قرية أخرى تدعى الصّالحية Salaïa، قرية المكاريّة، حيث أرادوني أن أنام إن لم أُحدِث الكثير من الصّخب؛ يذهب الناس إلى تلك القرية عادة ليتركوا بهائمهم ويأخذوا غيرها.

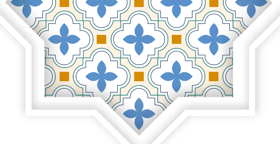
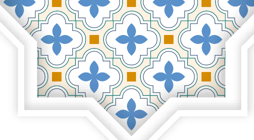
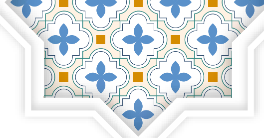
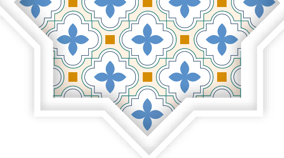
تابعنا إذن مسيرنا بعد المرور بعديد من البساتين، وبلغتُ دمشق في الساعة الثالثة من بعد الظهر. لم نرَ طوال هذه الرحلة سوى أربعة ذئاب لونها رمادي مائل إلى البياض، كانت في مجموعة واحدة ولم تُبدِ الخوف منا، لأنها تراجعت على مهل عوضاً عن الهرب. ورأينا هناك العديد من أسراب الحجَل.

بعد أن استرحتُ بضعة أيام في دمشق، عزمت على زيارة المدينة؛ لكنني قبل البدء بتلك الزيارة، اتّخذت إجراءاتي من أجل ذلك؛ وباعتبار أنه كان ضروريّاً بالنسبة لي أن ألقى حماية من قبل شخص صاحب نفوذ، لم أتردَّد في زيارة طوپجي باشي الذي استقبلني بحفاوة ولطف شديدين، وفيما بعد أخبرته عن الخدمات الهامّة التي قُدّمت لي.

لمدينة دمشق ثمانية أبواب، هي: باب الشّرق أو باب شرقي الذي يُطِلُّ من جهة الجنوب على

[5] **هكذا اسمها القديم، واليوم تعرف باسم:** بيت تيما، والنسبة إليها: بيتموني.

[6] **نسبة الاسم إلى الملك الأيّوبي المعظّم عيسى،** وثمّة معظّمية أخرى قرب جيرود.





من كتاب جان دى تيڤنو

امتداد الأسوار المقابلة للشرق؛ وباب الشّاغور[٧]، المُطلّ على الجنوب، وباب الجابية المُطل على الغرب والمائل قليلاً إلى الجنوب، وباب السّروجيّة (شوكاروِيا)[٨] Choucaroüa أو باب سپاهي (باب السپاهيّة) لأنه كانت تُباع فيه السّروج اللازمة للفرسان، وهو يطلّ على الغرب، كما أُطلق عليه اسم (باب السَّرايا) بسبب وجوده مقابل السّراي، وباب البابوج Baboutch (البوابجيّة)[٩]، وسُميّ هكذا لأنه المكان الذي تُباع فيه البوابيج أو الأحذية، ويُطلُ على المنطقة الواقعة بين الغرب والشّمال لكنه يميل أكثر قليلاً نحو الشّمال؛ وباب الفراديس، ويَعني باب الجنان، والمُطل على الغرب والشّمال، إنما يطلّ أكثر باتجاه الشّمال؛ وباب سلام، أو باب السّلام، وسُميّ بذلك لعدم وجود رسوم لقاء الدّخول أو الخروج منه، وقد منحه هذا الإعفاء سلطان عظيم، وهو يُطلُ على الشّمال؛ وأخيراً باب توما الذي يحمل اسم هذا القديس، وذلك بسبب وجود كنيسة مهدّمة مكرّسة باسم القديس توما، وهو يُواجه الشّمال.

دُرتُ المدينة من الخارج خلال ساعة وربع، متتبِّعاً الأسوار وبخُطاً حثيثة، لكن الضّواحي أكبر مرّتين من المدينة، ومن بينها باب اللّه، وهي ضاحية واقعة خارج باب الجابية، تمتدّ على طول ٣ أو ٤ أميال. تُسمّى باب اللّه أو كما يُقال الباب الإلهي؛ لأنه من هنا تمُرّ الهبات المرسلة من دمشق إلى مكّة.

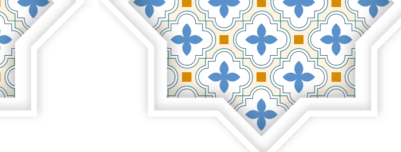
في هذه الجولة لاحظتُ أنَّنا لا نرى أسواراً من الخارج، إلّا من باب الشّاغور، وصولاً إلى أمام باب شرقي، ثم أمام باب توما ولغاية باب السّلام Salem، باعتبار أنّ الباقي مُغطًّى بالمنازل المبنية من الخارج.

والأسوار مزدوجة ابتداءً من باب الشّاغور ولغاية باب توما، وعالية جدّاً، ومبنية بإتقان

(٧) **هو المعروف عموماً حتى اليوم بالباب الصغير**، وكانت العامّة تدعوه فعلاً باب الشّاغور.

(٨) **تسمية مُصحَّفة عن السّروجيّة**، والمراد باب النّصر الذي كان موضع مدخل سوق الحميديّة.

(٩) **الاسم كانت تُطلقه العامّة بدمشق على باب الفرج** (إلى شرقي القلعة)، وهو من بناء نور الدّين.

باستخدام حجارة ضخمة، ومزيّنة بشراريف جميلة وأبراج رائعة تفصل بينها مسافات[10]، معظمها دائريٌ؛ وبعضُها مُربَّع لكنها قليلة. يبلغ ارتفاع الأسوار الداخلية تقريباً أربع قامات (وكل قامة تعادل ٦ أقدام)، والأسوار الخارجية تبعد ما يقارب قامتين، ويبلغ ارتفاعها ثلاث قامات، ويمتلئ ما بينهما بالتراب بارتفاع أربعة أقدام أو خمسة نحو الأعلى. ويوجد أمام تلك الأسوار خندق، يبلغ عرضه حوالي خمس قامات وعمقه قامتين أو قامتين ونصف.

تبعد أبراج السّور الداخلية بعضها عن بعض مسافة أربعين خطوة تقريباً، وكل خطوة تبلغ قدمين، ويبلغ قطرها حوالي ثماني خطوات. وتبعد أبراج السّور الخارجية بعضها عن بعض مسافة ستين خطوة، ويبلغ قطرها حوالي عشر خطوات؛ لكن هذا ليس صحيحاً بالإجمال. إذ يبلغ عرض الأبراج المربَّعة خمس عشرة أو ستَّ عشرة خطوة على الأقل. والأسوار من باب توما حتى باب السّلام بسيطة ويوجد أمامها خندق.

قمتُ مرة بقياس طول المدينة، اعتباراً من باب شرقي وحتى باب الجابية، على امتداد الطريق الرّوماني المستقيم Rectus، فاستغرق ذلك ربع ساعة، وعددتُ ألفين ومئة خطوة.

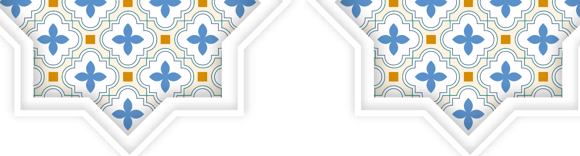
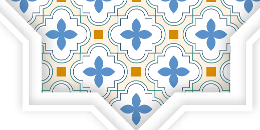
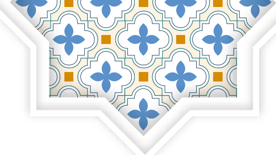
لننظر إلى الأمكنة والأشياء بتفاصيلها. ما يزوره المرء عادة قبل كلّ شيء في دمشق هو منزل حنانيا، الذي كان يقطنه شيخ. ذهبتُ إلى هناك مع عدد من الأصدقاء، دخلنا إلى هناك بدفع بعض القروش الفضيّة. وبعد أن اجتزنا الباب واستدرنا نحو اليسار نزلنا أربع درجات لنصل إلى قبو كان في الماضي كنيسة، سقفها وأرضيّتُها من الفسيفساء، وما زلنا نرى بعض البقايا على الأرضية. وهو حاليّاً مسجد مُضاء بما فيه الكفاية، فلا يستقيم أن يكون من قبل تحت مستوى الأرض. ويُقال إن هذا المكان هو الغرفة التي كان يعيش فيها حنانيا عندما أمره الله أن يذهب لملاقاة شاول، هذا ما ورد في أعمال الرّسل.

بعد زيارة هذا المنزل حيث لا يوجد شيء يُثير الفضول سوى القدم، ذهبنا إلى الباب المسمى باب شرقي، أي باب الشرق، ويُسمَّى أيضاً باب القديس بولس، وذلك لقَربه من المكان الذي نزل منه هذا القديس الرّسول في سلّة. يبدأ من هذا الباب الطريق المستقيم الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس، الذي يصل إلى باب الجابية.

بعد أن اجتزنا هذا الباب واتجهنا يميناً وسرنا بضع خطوات، رأينا في أحد الأبراج المربَّعة الموجودة على سور المدينة، ويبلغ ارتفاعها مسافة مقياسين تقريباً، حجرين منحوتين، نُقش على كل واحد منهما زهرة زنبق fleur-de-lis، وبين هذين الحجرين، حيث توجد الزهرتان، هناك زهرة ثالثة ومعها نقش باللغة الفرنجيّة[11]، لكن الأحرف مهترئة جداً بحيث لا يمكن قراءتها. وقرب كل

(10) لا ريب أنّ هذا الوصف لسور دمشق وأبراجه المشيّدة في القرون الوسطى هو الأهم بين جميع نصوص الرّحّالين، بدقته وشموله.

(11) **هذه المعلومات حول البرج ذي الرّنوك جديدة تماماً على ما أورده دارڤيو عام 1660** كما رأينا في نصّه الذي نشرتُه عام 1982 والدّراسة التي أضفتها إليه. فهنا ذكر لزهرة زنبق ثالثة ونقش باللغة الفرنسيّة القديمة. ويبدو لي أن رأيه حول جلب هذا النقش الأخير من حصن بانياس بالجولان معقول، وتبقى نسبة الزنبقتين الأخريَين غالباً لنور الدّين الذي شيّد أسوار دمشق، والأسدين للمعظّم عيسى الأيّوبي الذي رمّم كثيراً من الأبواب والتحصينات. لكن ما تجدر الإشارة إليه أيضاً وجود حجر يحمل نقشاً مُشابهاً تماماً لما يصف دارڤيو وتيڤنو في حديقة المتحف الوطني، وقد جُلب من المدرسة الجهاركسيّة في صالحيّة دمشق، ولعلّ هذا يحسم نسبته.

قاسيون وصالحية دمشق في نقيشة معدنية غربية من القرن التاسع عشر

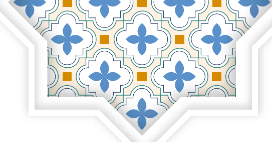
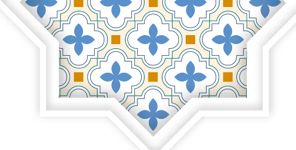
زنبقة هناك حجران آخران، وأسدان محفوران، وقرب كل أسد يوجد نقش على شكل تعريق نباتي شائك chardon كبير.

هناك مَن يدَّعي أن الفرنسيين هم من شيّد هذا البرج، هذا أمر محتمل، لكن الأقرب إلى المعقول هو أن الأتراك هم من أحضروا هذه الحجارة منحوتة جاهزة ومنقوشة أيضاً من بانياس أو من أماكن أخرى كانت للفرنسيين، وقام الأتراك بهدمها، لأنهم كسالى لدرجة أنهم يُؤثرون أن يأتوا بالحجارة منحوتة جاهزة على أن ينحتوها في أمكنة العمل.

بعد ذلك وصلنا إلى الرّيف، وعلى بعد بضعة مئات من الخطوات، يقع المكان الذي يُدفن فيه المسيحيون واليهود، بيد أن لكل ديانة مقبرتها، وتفصلها عن غيرها مساحة معينة.

عندما ابتعدنا بعد ذلك عدة خطوات عن الأسوار وصلنا إلى المكان الذي رجم فيه اليهود القديس جرجس البواب بتهمة إنقاذ القديس بولس. هذا المكان هو عبارة عن باحة يتوسَّطُها ضريح هذا القديس، وهو مُقامٌ بالحجارة المنحوتة، وله غطاء صغير على شكل هرم؛ ويوجد في الأسفل فتحة صغيرة يُضيء فيها المسيحيون عادة مصباحاً.

إن إجلالهم لهذا القديس كبير، ويتّبعهم في ذلك الأتراك أنفسهم الذين قالوا مثلما قال المسيحيون، بأنه كان يصنع العجائب كل يوم، وأن الكثير من الأتراك المرضى، الذين أمضوا ليلة هناك، خرجوا

صباحاً بصحة جيدة. في يوم عيد هذا القديس نرى جموعاً غفيرة من الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً؛ مسيحيين وأتراكاً يأتون إلى هذا القبر. وفي مدخل الباحة من جهة اليسار، هناك مكان مُخصّص لدفن مَن يموتون من أجل إيمانهم بيسوع المسيح، عند وفاة أحد المسيحيين يُؤتى بجثمانه أولاً إلى هذا المكان، وبعد تلاوة صلاة الجنازة يُحمل إلى المكان المخصص للقبر.

عندما خرجنا من هذا المكان تابعنا السير حسب النّسق المستقيم لأسوار المدينة؛ بعد ذلك بقليل انضممنا إليهم في المكان الذي نزل فيه القديس بولس في سلة من على السّور. يوجد هناك باب قام الأتراك بسدّه لاقتناعهم أن الاستيلاء على المدينة لن يتم سوى من هذا الباب؛ ووضعوا في الأعلى حجراً ضخماً، مع بعض الأسطر العربية المنقوشة، التي تقول إنه هنا، في هذا المكان، نزل القديس بولس رسول المسيح كي يهرب من اليهود.

عدنا بعد ذلك إلى المدينة عبر باب الشّاغور[١٢] Bab Tchiaour، وسرنا في الطريق المستقيم، وعندما سلكنا هذا الطريق مررنا بسوق جميل وكبير جداً ومغطًّى بهياكل خشبية محدَّبة، والدّكاكين مصطفة على جانبيه؛ ويُدعى سوق الأقمشة لأنه لا يُباع فيه أيُّ شيء آخر، وعلمت عند مروري من هناك أن رطل دمشق la rotte هو وحدة وزن تعادل خمسة أرطال في فرنسا.

بعد أن اجتزنا نصف السّوق، وهو سوق طويل جداً، اتجهنا يساراً، وسلكنا طريقاً ضيقاً يُؤدّي إلى بيت يهوذا القريب من هنا[١٣]، وكما هو معروف في هذا البلد، فإنّ القديس بولس اختبأ فيه لمدة ثلاثة أيام، وأنّ حنانيا ذهب للقائه هناك.

دخلنا إلى هذا المنزل الذي كان فيما مضى كنيسة كبيرة وجميلة، وإلى اليوم يرى فيها المرء باباً حديديّاً جميلاً دخلنا منه، ثم وصلنا بعد ذلك إلى غرفة صغيرة تضمّ قبر حنانيا، مُسنداً إلى السور، وهو مغطًّى بقماش أخضر، خيطت عليه أحرف عربية، قرأتُ منها هذه الكلمات: *Veli allah, el ahmed rivan* وهي تعني: وليّ اللّه أحمد يرقد هنا، أو مدفون هنا[١٤]. ويُكنّ له الأتراك الكثير من الإجلال، وهم يحافظون على هذا المنزل لأجل المنفعة التي يتلقّونها من الفرنجة الذين يُعطونهم شيئاً ما عندما يذهبون إلى هناك.

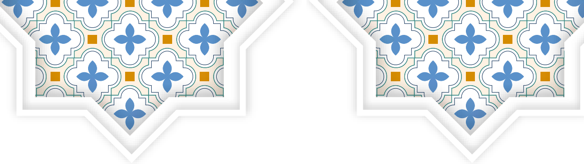
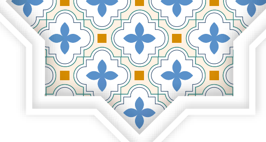
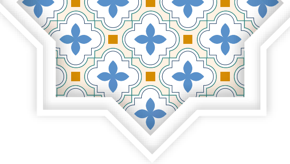
عُدنا بعد ذلك إلى سوق الأقمشة، أو الطريق المستقيم؛ وعلى بعد منه باتجاه اليسار، اقتربنا من باب يفصل سوق الأقمشة هذا عن سوق آخر يقع في الطرف، حيث يوجد ينبوع ماء، يقال إنّ حنانيا عمّد القديس بولس فيه. وبعد أن مررنا من هذا الباب دخلنا إلى سوق آخر، يقع أيضاً في الطريق المستقيم، بدايتُه مُغطّاة بشكل مُحدَّب، والسّقف الذي يُغطّي ما تبقى منه مُسطَّح ومصنوع من عوارض دائرية، وتُباع فيه أقمشة أيضاً. في النهاية وصلنا إلى باب المدينة المسمّى باب الجابية، حيث ينتهي الطريق المستقيم.

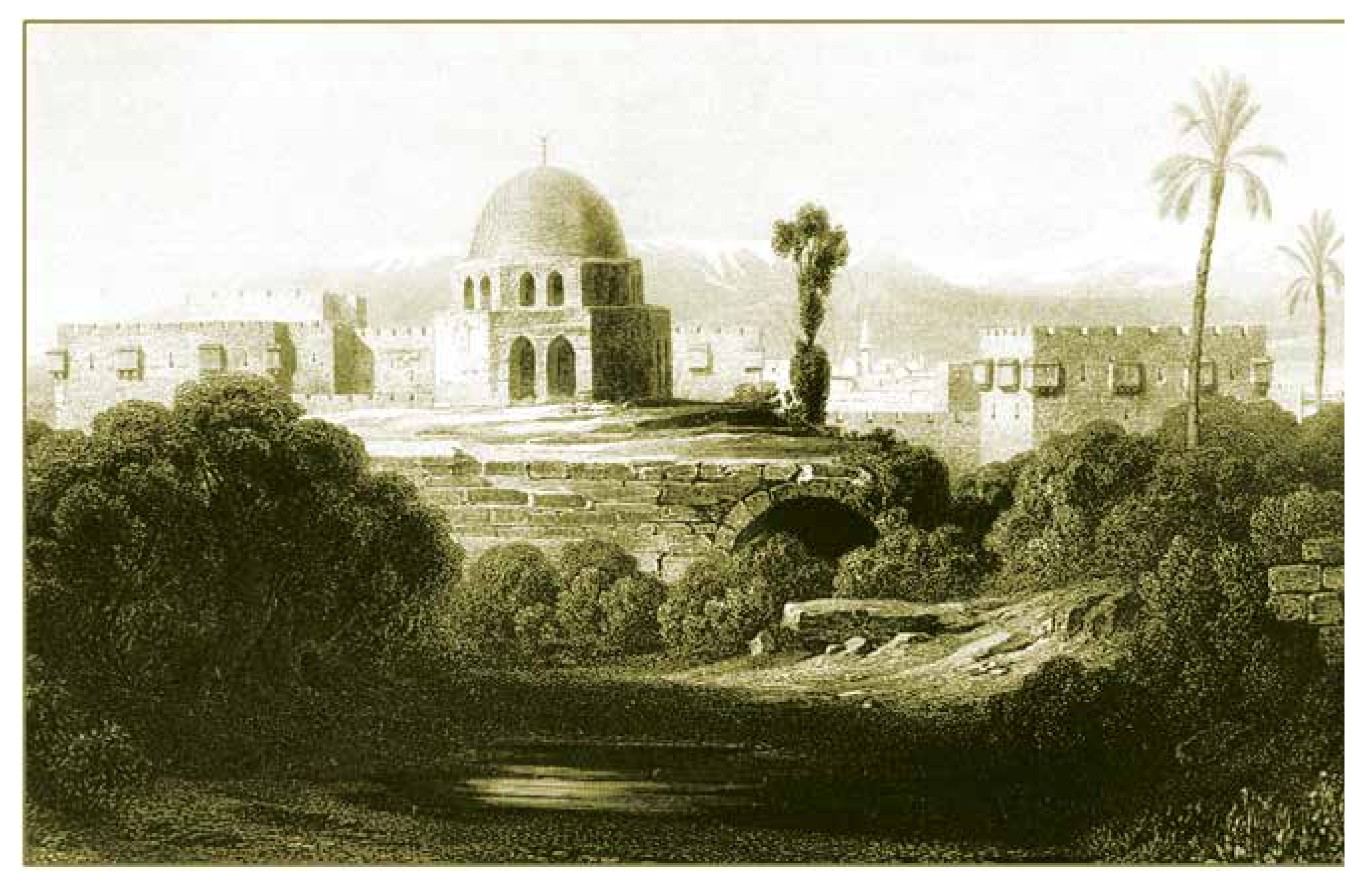
---

(12) **أي الباب الصّغير**، وكان يدعوه أهل دمشق آنذاك باب الشّاغور.

(13) **بيت يهوذا كان مكاناً يقدّسه مسيحيّو دمشق**، وذكره الرّحّالة الفرنسي لوران دارڤيو عام 1660 م، ويوجد في سوق مدحت باشا. تحوّل في مطلع القرن العشرين إلى دار سكني لأحدّ أطباء السّلك العسكري، وأفضل من بحث فيه كان الخوري أيّوب سميا في سلسلة مقالاته عن الطّريق المستقيم.

(14) **لا وجود له اليوم**، ولعله زال بقصف الفرنسيين حيّ سيدي عامود (الحريقة) عام 1925.



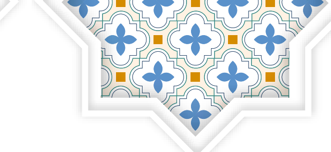
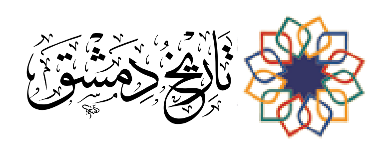
المدرسة الظاهرية وقلعة دمشق في نقيشة معدنية غربية من القرن التاسع عشر

بعد أن اجتزنا هذا الباب، على بعد عدّة خطوات، اتجهنا يساراً فوجدنا أنفسنا في سوق كبير تُصنع فيه علب خشبية. هذا السوق أكبر من الأسواق الأخرى ومُغطّى بهياكل خشبية مُحدَّبة، مُدعَّمة بعدة قناطر خشبية كبيرة على مسافة من بعضها. يُسمّى هذا المكان السّنانية نسبة لپاشا دمشق الذي يُدعى سنان، وهو الذي أمر ببنائه، مثلما أمر بتشييد العديد من الأبنية العامة في مناطق مختلفة من تركيَة، وهذه الأبنية كلُّها تحمل اسمه.

اجتزنا الباب، وعندما دخلنا هذا السّوق رأينا «الجامع الأخضر»[15]، وقد سُمّي هكذا بسبب وجود مئذنة مكسوّة تماماً بالآجرّ الأخضر المشوي، فتبدو برّاقة للغاية؛ يُغطّي القسمَ العلويَ سُرادقُ من المادّة ذاتها، ما عدا رأس المئذنة فهو مغطى بالرّصاص. مررنا أمام باب هذا الجامع، ورأيت خلال برهة قصيرة ما أجرؤ أن اعتبره باحة كبيرة مبلّطة بحجارة جميلة، وسبيل ماء يتوسطه ينبوع، وفي طرف هذه الباحة يوجد رواق مدعّم بثمانية أعمدة رخامية من الطراز الكورنثي، والأعمدة الستة الموجودة في الوسط مُخدَّدة، وتحمل تلك الأعمدة الثمانية كذلك قباباً صغيرة مكسوّة بالرصاص، وتُغطّي الرواق الذي ندخل منه إلى الجامع عبر ثلاثة أبواب. وله قبة ضخمة مغطاة تماماً بالرّصاص، وعلى الجانب باتجاه الغرب، يوجد منارة مكسوّة بالرّصاص أيضاً، ومغطاة بسُرادق من المادة نفسها.

يقول الأتراك إنّ هذا الجامع شُيِّد في هذا المكان لأنه عندما أتى النبي محمّد إلى هنا، لم يُرِد

(15) **المقصود به جامع السّنانيّة ذو القيشاني**، ولعل أهل دمشق كانوا يسمّونه بالأخضر آنذاك.

الدخول إلى المدينة قائلاً إنها بالغة الجمال، وكي يبتعد بسرعة وضع قدماً على جبل ليس ببعيد، ويوجد فوقه برج صغير، وبعده وبقفزة واحدة وصل إلى مكّة. فمن أجل هذا السبب سعَوا إلى كسوة هذا الجامع بالأخضر، وهو اللون المميّز لهذا النّبي. اعترف آخرون أنه رغم قدوم النبي محمّد إلى هذا المكان، رفض دخول المدينة بتاتاً، إنما يقولون إن عليّاً هو من قام بهذه القفزة القويّة. وعلى أيّ حال فهم يُسمُّون دمشق «شام شريف» وتعني: دمشق المشرّفة، وذلك لأن النّبي محمّداً أتى إليها.

من هناك عدنا إلى أسوار المدينة وسرنا على امتداد شارع السّراي؛ فرأينا[١٦] إلى يسارنا ضريحاً جميلاً له قبّة يبلغ ارتفاعها عدّة قامات ومصفّحة بالرّصاص، ويليه جامع جميل له صحن، واجهته شماليّة وفي طرف الصّحن رواق يقوم على ستة أعمدة، يُدخل منه إلى الجامع المغطى بقبّة كبيرة جداً، وله قبّة أخرى أصغر في كل جهة من جهاته، والقباب الثلاث مُغطّاة بالرّصاص. شَيَّد هذا الجامع باشا يدعى حَسَن، ترك بعد مماته مالاً لبناء هذا المسجد وضريحاً له.

تابعنا طريقنا، فوصلنا إلى مكان في الشارع يوجد فيه على اليسار سراي الباشا الذي يبدو جميلاً إلى حدّ ما. ويوجد فوق الباب جناح على شكل هرم مُقامٍ بالآجرّ فقط وغير مُغطًّى البتة[١٧]، إنه جناح كاخيا Kiaya الباشا، ويقع السّراي في الجهة اليمنى. وفي هذا المكان يوجد الباب المسمّى بباب السّپاهي Bab-Espahi أو باب سوق السّپاهي[١٨].

دخلنا إلى المدينة ومشينا على طول القلعة الموجودة إلى يسارنا، ولها خندق على مسافة وفيه ماء، تُستخدم هذه القلعة كسور للمدينة من تلك الجهة، ويصل امتدادها لغاية باب البوابيج (البوابجيّة)؛ وهي كبيرة ومُربَّعة الشكل ومبنية بشكل متين من الحجارة المنحوتة بشكل ألواح محفّفة، وأسوارها بالغة العلو، ولها على مسافات متساوية أبراج عالية وضخمة مبنية على نفس طراز الأبراج الأخرى، والقريبة جداً بعضها من بعض.

وبعد أن سرنا على طول تلك الجهة، مشينا في الجهة الأخرى المستخدمة أيضاً كسور للمدينة[١٩]. ورأينا فيها سلسلة حجريّة مصنوعة من حجر مفرد، وإن كانت مركبة من عدة حلقات منحوتة الواحدة في قلب الأخرى، وهي معلقة في أعلى السور.

وهناك أيضاً سلسلة أطول، لكنها وقعت في الخندق منذ ستة أعوام بسبب سوء الطقس وانكسرت[٢٠].

من هنا مررنا من أمام باب القلعة، ورأينا عدّة مدافع مخصّصة لحماية القلعة، من ثمّ عدنا إلى سوق البوابيج (البوابجيّة)، وبعد أن اجتزناه ذهبنا عبر طرق فرعية لنصل إلى شارع يوجد فيه

---

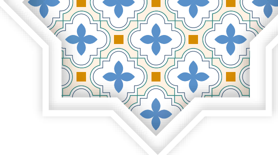
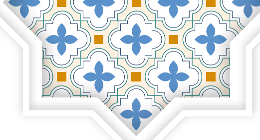
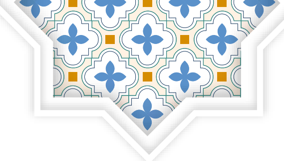
(16) **المقصود جامع الدّرويشيّة**، وبانيه درويش باشا عام 979 هـ وليس اسمه حسن كما يروي.

(17) **هذا وصف نادر جدّاً للسراي العثماني القديم**، لا نجده عند غير تيڤنو.

(18) **المقصود باب النّصر الذي كان في موضع مدخل سوق الحميديّة**، فتحه النّاصر صلاح الدّين، وذكره ابن جُبير 580 هـ. كان يُعرف في العهد العثماني بباب السّرايا نسبة للسّرايا العثمانيّة القديمة موضع القصر العدلي الحالي. هدمه الوالي شروانلي باشا عام 1863 م.

(19) **يقصد الواجهة الشرقيّة للقلعة**، وفيها حلقتان منحوتتان شوّهتا عام 2010 بنافثات الرّمل.

(20) **هذه معلومة جديدة تماماً ينفرد بها تيڤنو**، ويبدو أن هذه السّلسلة الحجريّة كانت فوق البوّابة الشرقيّة للقلعة؟ كم هو ثمين هذا النصّ بالإضافة إلى نصّ معاصره دارڤيو.





دمشق من الجهة الشرقية في نقيشة معدنية غربية من القرن التاسع عشر

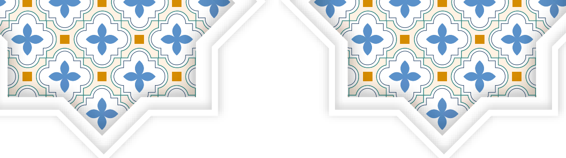
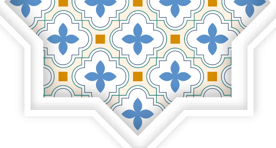
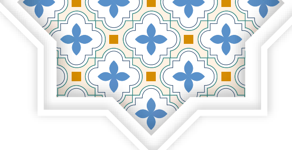
مسجدان يضمّان قبور بعض ملوك دمشق[٢١]، كانا في السابق كنيستَين للمسيحيين.

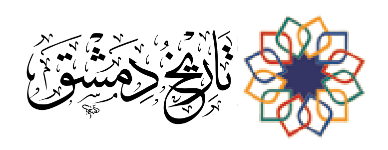
هناك كنيسة لم نستطع رؤيتها، لكننا رأينا في الجهة الأخرى حاجزاً فولاذيّاً مصقولاً جيِّداً. هذا المسجد دائريُّ الشكل ومغطًّى بقبّة جميلة مصنوعة من الحجارة المنحوتة، تعلوها عدّة نوافذ بشكل دائري، وهو مكسوٌّ برخام متعدِّد الألوان، من الأرضية وعلى ارتفاع ثلاثة مقاييس تقريباً؛ ومن هذا المكان وحتى النوافذ توجد عدة لوحات جميلة تُمثِّل كنائس وأشجاراً من الموزاييك.

نرى في وسط المسجد ضريحين واحداً إلى جانب الآخر، فوق منبر بارتفاع نصف قدم: يتكوّن هذان الضريحان من خشب الأرز المُتقَن الصنع، ويرتفعان عن الأرض مسافة تقارب الأربعة أو الخمسة أقدام بشكل محدّب. يقال إنّ أحدهما يضمّ جثمان الملك الظاهر، الذي تحوّل من مسيحي إلى تركي، واضطهد المسيحيين بشدّة، ويقول الأتراك إنه لا يمكن الإبقاء على شمعة مضاءة ولا على مصباح مضاء، ومن المؤكد أنه في المرتين اللّتين مررت فيهما هناك لم أر شيئاً من هذا القبيل.

تُوجد قرب هذين الضريحين عدّة نسخ من القرآن الكريم معلقة على مقارئ مصنوعة من مادة الضريحين ذاتها. وفي كل المرّات التي ذهبتُ فيها إلى هناك لم أر أحداً، بَيد أنني أتخيَّل بأنه هناك أناس مأجورون من أجل قراءة القرآن على روحيّ هذين الملكَين، كما هي العادة بالنسبة لسلاطين الديانة المحمّدية الذين يتركون بعد موتهم مالاً وفيراً لإقامة تلك الصلوات.

[21] **يعني المدرستين الجقمقيّة والظاهريّة**، وفي الثانية قبرا الظاهر وابنه الملك السّعيد بركة خان.



بعد أن أمعنّا النظر في هذا المسجد قدر استطاعتنا، وصلنا إلى جامع آخر يُدعى الجامع الكبير. درتُ حوله كي أستطيع رؤيته من خلال الأبواب التي كانت مفتوحة، لأن المسيحي لا يجرؤ أن يدخل إلى هناك ولا حتى أن يتوقّف أمام الباب. عَرض عليّ بعض الأتراك أن يدخلوني معتمراً عمامة تركية، لكنني لم أرغب أبداً بقبول هذا العرض، لأنه في حال انكشفت سيتوجّب علي الموت، ولا أريد (بفضل نعمة الله) أن أتخلّى عن ديني.



قلعة دمشق

يتمُّ الدّخول إلى هذا المسجد من جهة الغرب، عبر بابين برونزيين كبيرين، يبلغ ارتفاعهما ما يقارب أربعَ قامات، متقنيّ الصنع، وتغطيهما أشكال غريبة، يتوسّط كل منها كأس محفور بإتقان[٢٢]. ورأيتُ من خلال تلك الأبواب عرض هذا المسجد الذي يمكن أن يصل إلى حوالي ثمانية عشر مقياساً، وفيه صفّان من الأعمدة الرّخامية الضخمة والعالية، رمادية اللون ومن الطراز الكورنثي، تَقسمُه إلى ثلاثة أجنحة، وكل عمودين من هذه الأعمدة يحملان قنطرة، وفوق كل قنطرة توجد قنطرتَان صغيرتان تفصلهما أعمدة صغيرة تشبه إلى حدّ ما النوافذ؛ والأرضية مصنوعة من الحجارة الجميلة التي تلمع مثل المرايا.

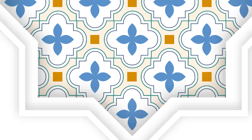
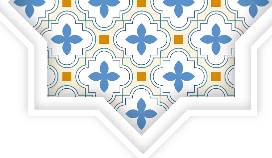
وتُغطّي الهياكلُ الخشبية المحدّبة هذا المسجدَ الكبير الممتدّ من الشرق إلى الغرب، وتقع قبّته الكبيرة جداً في الوسط، لكن من جهة الشمال، في أعرض مكان في القبة، توجد نوافذ صغيرة مُقبَّبة على محيطها؛ وابتداءً من النوافذ وعلى ارتفاع مماثل لارتفاع النوافذ الذي يُمكن أن يصل إلى ثلاث أو أربع أقدام: يُغطّي القبّةَ حجر أخضر مشويٌّ، يجعلها متعةً للنظر، وما تبقى مُغطًّى بالجير.

في كل جهة من جهات المسجد توجد منارة مربعة ونوافذ مماثلة لنوافذنا، لكن المنارة الموجودة في جهة الشرق أعلى وأعرض، ويُقال إنه بُني بعدما شيّدت في بادئ الأمر هذه الكنيسة وتحوّلت بعد ذلك إلى جامع. يؤكد الأتراك أنه من هذه المنارة سيعود المسيح إلى هذا العالم. وثمّة منارة ثالثة خلف القبة، التي تُقابل بشكل قطري منارةَ عيسى، هذه الأخيرة دائرية شيّدها الأتراك رغم أن المربع أصغر.

صعدتُ في إحدى ليالي رمضان إلى الشرفات، حتى وصلتُ إلى نوافذ هذا المسجد، المماثلة في صنعها لنوافذ كنائسنا، ولها مربعات زجاجية مثبتة في أشكال جصّية مزخرفة. نظرت من خلال زجاج إحدى تلك النوافذ، فرأيت طرف المسجد، ولم أستطع أن أرى ذلك من خلال النوافذ الأخرى لأنها مزيّنة من الخارج بمشبّك نحاسي. لمحت على ضوء القناديل في القبلة المتَّجهة نحو الجنوب

---

(22) **الكأس هو رنك السّلطان المملوكي** الملك النّاصر فَرَج بن الظاهر برقوق.



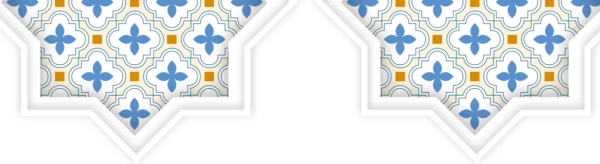
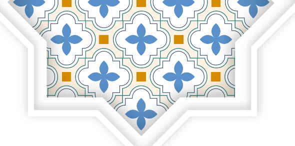
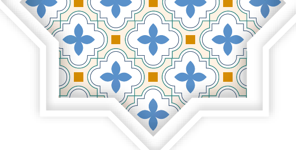
صورة منظورية نادرة تمثل خريطة لمدينة دمشق

حفرة مغلقة بحاجز من الشبك الحديدي المُذهَّب، يقال إنّ رأس القديس زكريّا موجود فيها[٢٣]، لم أتمكَّن من رؤية الزخارف الأخرى، باستثناء المصابيح المتوفرة بكميات كبيرة، والأعمدة التي تحدثت عنها.

وفيما عدا صفَّي الأعمدة الموجودين في هيكل المسجد، والتي يتراوح عددها ما بين ثمانية وثلاثين إلى تسعة عشر عموداً في كل صفّ، هناك أيضاً ستون عموداً على الأقل في الفناء وفي الأروقة الموجودة في مدخل الباحة على حدّ سواء. وإليكم ما تمكّنتُ من ملاحظته في هذا الفناء وفي الأروقة، ومن مجمل ما رأيتُه خارج هذا المسجد بعد أن دُرتُ حوله عدة مرات:

يوجد من جهة الغرب ثلاثة أبواب برونزية مزيّنة بعدّة أشغال، وأمام هذه الأبواب من داخل

(23) بل الواقع أنه رأس النبي يحيى بن زكريّا، عليهما السّلام.


الفناء، يوجد رواق مقسَّم إلى ممرَّين بثمانية أعمدة ضخمة، تصطفُ أربعة منها بشكل طولاني والأربعة الأخرى بشكل عرضاني؛ تحمل هذه الأعمدة قناطر، وفوقها توجد قنطرتان أُخريان صغيرتان، مصمّمتان على شكل نوافذ منصّفة بعمود صغير.

من هذا الرواق يتمُ الدخول إلى الفناء وهو فناء كبير جداً وواسع ومُبلّط بأحجار رخامية كبيرة رمادية اللون شديدة اللمعان، مماثلة لحجارة أرضية الجامع والأروقة. وفي آخر الفناء تقريباً يوجد نوع من مُصلّى صغير، له قبّة مغطاة محمولة على عدد من الأعمدة الرخامية، ويُروى أنها كانت بيت العمادة[٢٤]. ومن مدخل الغرب هذا، نرى في طرف الباحة باب الشرق، وفي الجهة اليمنى كتلة حرم الجامع.

من جهة الجنوب، يوجد في سوق البيك[٢٥] pic (سُمِّي هكذا لأنه يُباع فيه قماش يُقاس بالبيك، وحدة قياس تعادل تقريباً ثلثي الأون)، مدخل للمسجد وبابان جميلان مكسوّان بالبرونز، يتوسّط كل منهما بضع كؤوس[٢٦].

يوجد من جهة الشرق ثلاثة أبواب برونزية ورواق يماثل الرّواق الذي كنتُ أتحدّث عنه، ومن ثم باحة يوجد في آخرها تقريباً قرب الباب الغربي، وما زال يوجد، نوع من كنيسة صغيرة أعلى بكثير من تلك الكنيسة الموجودة في الجهة الشرقية، ومحمولة ومغطاة بنفس الطريقة؛ ونرى من هذا الباب، الباب الغربي، عندئذ يكون الجامع من الجهة اليسرى.

من جهة الشمال يوجد أيضاً باب برونزيٌ، يتمُ الدخول إلى الفناء من خلاله، ونرى قبالته جهة الجامع المواجهة له: يضم السّور من هذه الجهة عدّة نوافذ مصنوعة بشكل يُماثل شكلَ النوافذ الموجودة في كنائسنا، غير أنها ترتفع مسافة قدمَين أو ثلاثة عن الأرض، ولها ألواح زجاجية مزينة من الخارج بتشبيك نحاسيّ. ويوجد في هذه الباحة أيضاً خزّان ماء موضوع على كؤيس، يستند على عدد من الأعمدة، بالإضافة إلى ذلك هناك فانوس يستند على عمودين فقط. هذا كل ما استطعت رؤيته من هذا الجامع.

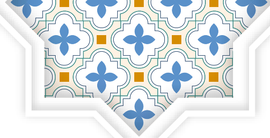
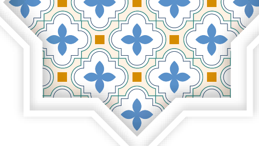
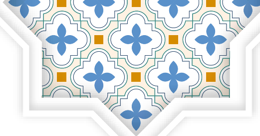
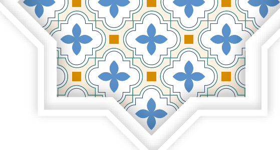
في أحد الأيام، خرجتُ من المدينة عبر الباب المسمّى باب توما، وبالقرب منه رأيت الكنيسة المكرّسة للقديس توما. كان الباب مغلقاً لأنها مهدّمة تماماً من الداخل، وتبدو حديقة أكثر منها كنيسة، باعتبار أن كل ما فيها مكشوف ويملؤه العشب. إلا أنه ما يزال فيها شكل ما لبوّابة، وهي عبارة عن قنطرة ترتكز على عمودين، وبالإضافة إلى أن ارتفاع هذين العمودين لا يزيد عن قدم فوق التاج، فهما مغروزان بالسّور. يوجد في الأسفل ثلاث قناطر أخرى ترتكز على ثلاثة أعمدة في كل جهة، وتستند عارضة الباب على عمود من كل جهة، وكافة هذه الأعمدة مصنوعة من الرُخام ومُخدَّدة طوليّاً.

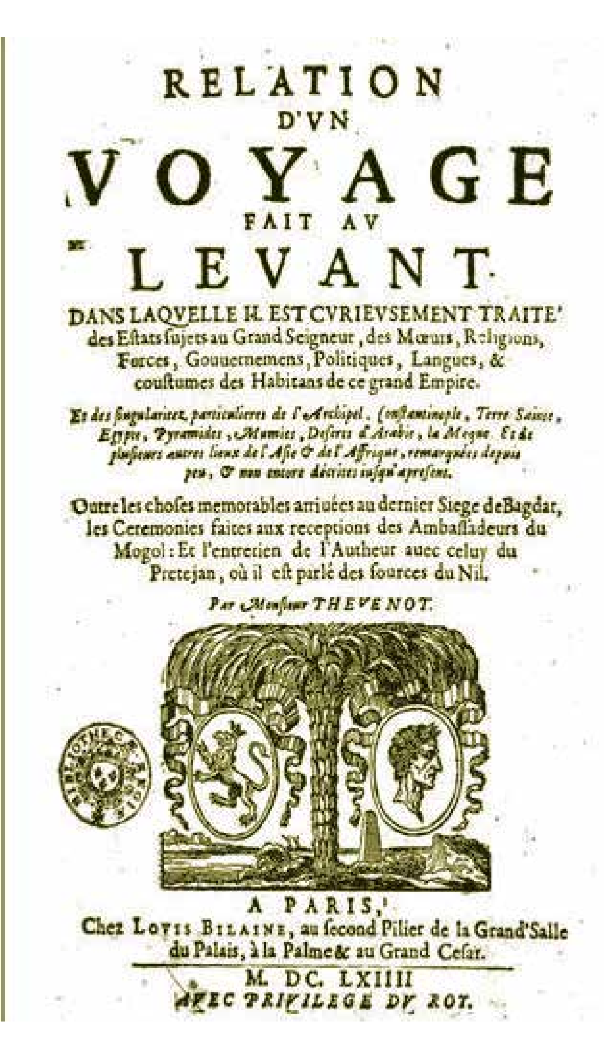
ويوجد مقابل هذا الباب برج صغير دائريٌ مصنوع على شكل مربّعات منسّقة، لأنه مبني من حجارة يبلغ كلُ مربع منها نصفَ قدم تقريباً، لكنها موضوعة بهذه الطريقة: بعد كل حجر هناك

(24) **الغالب أنّ هذه القبّة صومعة بيزنطيّة قديمة**، والمصطلح فيما بعد تسميتها: قبّة بيت المال.

(25) **العبارة كما يذكرها طبعاً بالفرنسيّة**، واسم السّوق بدمشق: سوق الذّراع.

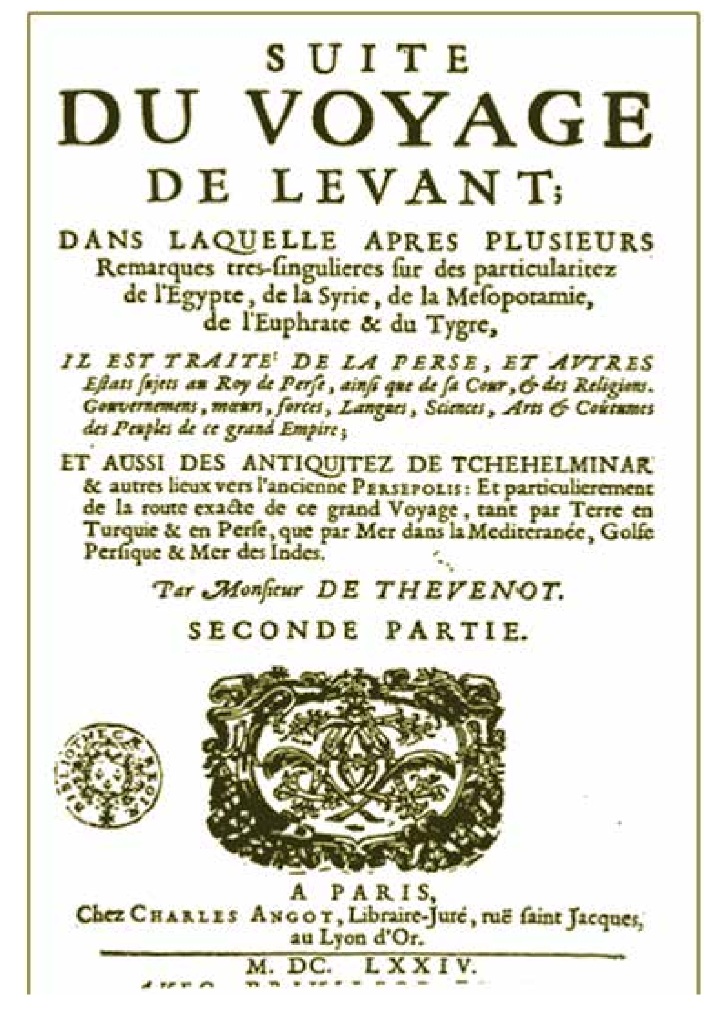
(26) ذكرنا أعلاه أنّ هذا رنك السّلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق.



RELATION
D'VN
VOYAGE
FAIT AV
LEVANT.
DANS LAQVELLE IL EST CVRIEVSEMENT TRAITE'
des Estats sujets au Grand Seigneur, des Mœurs, Religions,
Forces, Gouuernemens, Politiques, Langues, &
coustumes des Habitans de ce grand Empire.
Et des singularitez particulieres de l'Archipel, Constantinople, Terre Sainte,
Egypte, Pyramides, Mumies, Deserts d'Arabie, la Meque. Et de
plusieurs autres lieux de l'Asie & de l'Affrique, remarquées depuis
peu, & non encore décrites jusqu'à present.
Outre les choses memorables arriuées au dernier Siege de Bagdat,
les Ceremonies faites aux receptions des Ambassadeurs du
Mogol: Et l'entretien de l'Autheur auec celuy du
Pretejan, où il est parlé des sources du Nil.
Par Monsieur THEVENOT.
A PARIS,
Chez LOVIS BILAINE, au second Pilier de la Grand'Salle
du Palais, à la Palme & au Grand Cesar.
M. DC. LXIIII.
AVEC PRIVILEGE DV ROY.

نموذج للرحلة الأولى لتيڤنو، طبعة باريس 1664



SUITE
DU VOYAGE
DE LEVANT;
DANS LAQUELLE APRES PLUSIEURS
Remarques tres-singulieres sur des particularitez
de l'Égypte, de la Syrie, de la Mesopotamie,
de l'Euphrate & du Tygre,
IL EST TRAITE' DE LA PERSE, ET AUTRES
Estats sujets au Roy de Perse, ainsi que de sa Cour, & des Religions,
Gouvernemens, mœurs, forces, Langues, Sciences, Arts & Coutumes
des Peuples de ce grand Empire;
ET AUSSI DES ANTIQUITEZ DE TCHEHELMINAR
& autres lieux vers l'ancienne PERSEPOLIS: Et particulierement
de la route exacte de ce grand Voyage, tant par Terre en
Turquie & en Perse, que par Mer dans la Mediteranée, Golfe
Persique & Mer des Indes.
Par Monsieur DE THEVENOT.
SECONDE PARTIE.
A PARIS,
Chez CHARLES ANGOT, Libraire-Juré, ruë saint Jacques,
au Lyon d'Or.
M. DC. LXXIV.

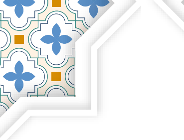
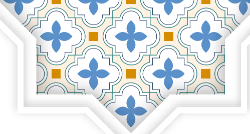
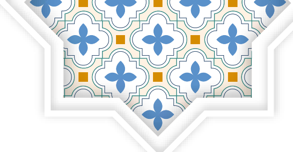
نموذج لتتمّة رحلة تيڤنو، طبعة باريس 1674 الجزء الثاني

فتحة مربعة بذات القياس وهكذا بالتناوب في كل مكان. يُسمّى هذا البرجُ برجَ الرؤوس، لأنه منذ عدّة سنوات شُنّت حرب شعواء ضد العديد من الخارجين الدّروز، ولما تمّ القضاء عليهم وُضعت رؤوسُهم في هذا الفتحات لدرجة أنها امتلأت(٢٧).

من هنا انعطفنا يساراً وسرنا على طول الأسوار، ووصلنا إلى مسجد يُقال إنه كان معبد سيرافين، بيد أن هناك من يدّعي أن جثمان سمعان العمودي مدفون هنا بعد إحضاره من أنطاكية. وكما يقول الأتراك، لا يستطيع المؤذن الدّعوة إلى الصلاة، كما هو الحال في المساجد الأخرى، وعندما يريد أن يدعو الناس إلى الصلاة يخونه صوتُه، فلذا يُكنُّون له جزيل الاحترام.

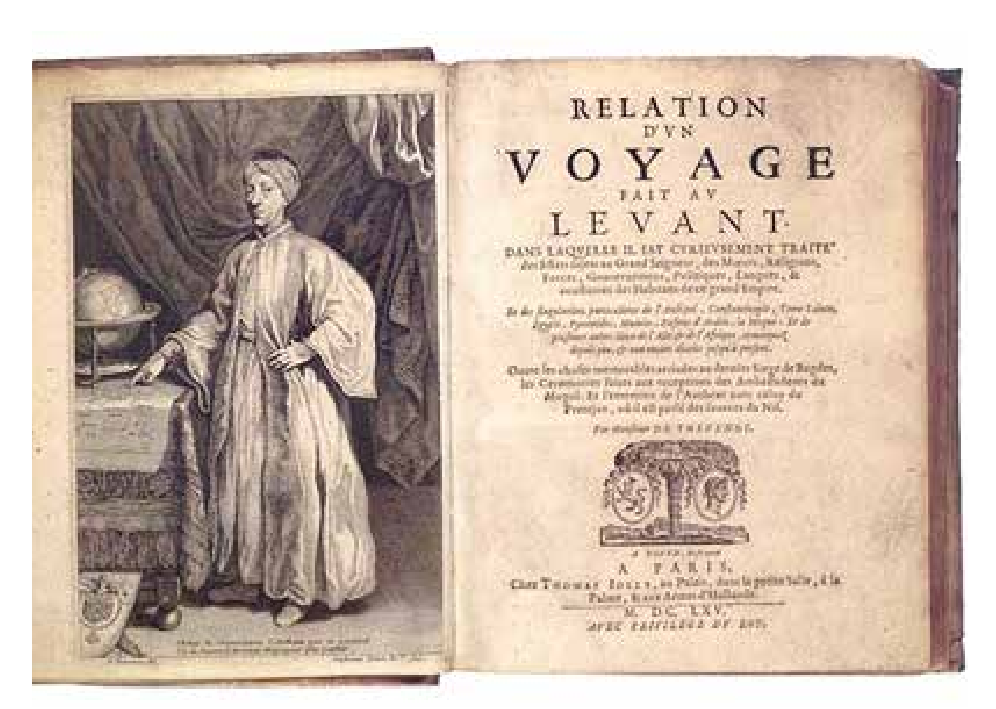
ورُوي لي أنه في يوم من الأيام قام أحد سكّان البندقية برشوة أتباع الشيخ الذين يُديرون المكان، بغية استخراج جثمان القديس سمعان وأخذه إلى البندقية، لكن عندما ساورت الشيخَ بعضُ الشكوك، وجّه إهانة كبيرة لذاك البندقيّ وذلك بإعطائه بضعة آلاف من الريالات؛ ومنذ ذلك الحين أُقيم سور

(27) **هذه معلومة جديدة تماماً في تاريخ دمشق**، وكان الدّارسون يظنون برج الرؤوس يعود إلى كارثة تيمورلنك عام 1400 م، فتبيّنت حقيقتها الآن. راجع مؤرخ دمشق ابن طولون.

حول ضريح هذا الجثمان، بالإضافة إلى وجود أشراف يقرؤون القرآن باستمرار.

خرجنا من هذا المعبد باتجاه مكان خارج المدينة تلتقي فيه الأنهر الثلاثة التي تمرّ بدمشق، والتي تُدير مطاحن الطحين.



نموذج للطّبعة القديمة لرحلة تيڤنو الأولى، طبعة پاريس 1665

وذهبنا بعد ذلك إلى مستشفى الجذماء الذي يقع ما بين باب توما وباب شرقي، لكنه أقرب إلى هذا الأخير ويقع إلى جانبه تقريباً، ولا يبعد عن أسوار المدينة سوى بضع خطوات. يقول سكان المدينة إنها ذات المستشفى التي أمر ببنائها نعمان قائد جيش ملك دمشق جحازي خادم اليَشَع، وتوجد قصته في كتاب الملوك الرابع، الفصل الخامس. وكانت لهذه المستشفى عائدات ضخمة.

عند العودة إلى المدينة رأيتُ في سوق الخياطين، ومن خلال شبك حديد، غرفة تضمّ جثمانَين، قال المسلمون إنهما وليّان[٢٨] حسب شريعتهم. وعلى بعد بضع خطوات من هناك، توجد غرفة أخرى فيها تضم جثماناً آخر[٢٩] يُكنّون له الاحترام ذاته؛ ولم أتمكّن من معرفة أسماء هؤلاء الأولياء[٣٠].

يوجد في دمشق عدد من عيون المياه الجميلة، ومن بينها العين[٣١] الموجودة قبالة باب المسجد الكبير الذي يطلّ على الشّرق، وتقع تحت قبة مسطحة تقريباً. وهي عبارة عن حوض دائري يبلغ قطره مقاسين، في وسطها أنبوب يقذف كميات من المياه في الوقت نفسه وبقوة كبيرة تكاد معها تصل إلى سقف القبّة، ولو أرادوا لكان من السّهل جعله يقذف المياه إلى مستوى أعلى لأن المنبع أعلى بكثير.

ثالثاً _ تتمّة الملاحظات عن دمشق:

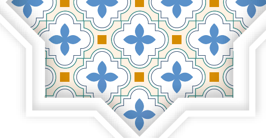
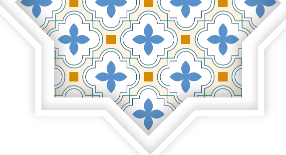
يتابع رحّالتنا الحديث عن دمشق في الفصل الخامس، فيذكر: بما أنني نويتُ خلال إقامتي في دمشق أن أرى كلَّ ما هو مُثير للاهتمام بها، فقد ذهبتُ مع صَحبي إلى مكان يُدعى بالأربعين شهيداً.

[28] لا ريب أنّ المقصود تربة ستيتة زوجة الأمير المملوكي سيف الدّين تنكز النّاصري.

[29] وهنا المقصود تربة السّلطان نور الدّين محمود بن زنكي في المدرسة النّوريّة الكبرى.

[30] قولـه أولياء ليس فيه غلط، لأن بسطاء دمشق كانوا قديماً يظنون كل قبر يجهلون صاحبه قبر ولي من الأولياء، ومن ذلك مثلًا قبر (الشيخ أبو رمّانة) شرقي جامع العدس بالصّالحيّة، الذي ليس أكثر من واحد من مجموعة قبور لأمراء أيوبيّين زالت في بدايات القرن العشرين. وصفها لي أحد معمّري الصّالحيّة الحاج سليمان طبنّج (أبو نبيل) من مواليد سنة 1910 رحمه الله.

[31] يعني نوفرة باب جيرون الشهيرة، انظر ما ورد في نصّ دارڤيو وعبد الرّحمن الخياري.





نُقيشة خشبيّة لريموننديني G. A. Remondini تمثل مدينة دمشق عام 1675

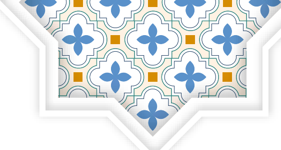
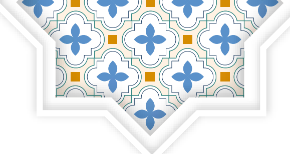
تركنا المدينة من باب السّراي، بعد أن اجتزنا سوق الخيل، وسرنا في طريق جميلة عريضة وطويلة ومُبلّطة وتُشبه إلى حدّ ما جادة باب الشعب (Porte di Popolo) في روما، أدّت بنا قريباً إلى قرية اسمها عين الكرش[٣٢] Salaïn Crache، وبعد أن اجتزناها صعدنا جبلاً شديد الانحدار والخصوبة لأنه ليس سوى صخرة حيّة. كان علينا أن ننزل من فوق حميرنا ونسير على الأقدام في طرقات شبه عموديّة يتوجب ارتقاؤها. وصلنا بعد جهد جهيد إلى مكان الأربعين شهيداً الذي يبعد عن المدينة نصف فرسخ تماماً، لم أتسلّق في حياتي جبلاً أكثر منه تحدُراً.

هناك منزل يسكنه شيخ، أخذنا إلى مغارة محفورة في الصخر، وأرانا مكاناً يقال إنّ إيليا (إلياس) صام فيه ردحاً من الزمن وأطعمه فيه غراب. وفي حفرة قريبة دلّنا على المكان الذي يقول الناس إنّ الأربعين شهيداً مدفونون فيه، لكن لا يوجد فيه لا قبر ولا عظام ولا رُفات. وأرانا أيضاً في سقفيّة هذه المغارة، وهي عبارة عن صخرة حيّة شديدة الصلابة، ومن حجر يشبه الحجر الذي نُشعل فيه النار ويرشح منها الماء بغزارة، شكلَ يد يقولون إنها يد إيليا (إلياس)، وهي ليست سوى عروق الصخرة التي تُمثِّل بشكل غير متقن إلى حدّ ما أصابع طويلة وثخينة جداً وعددها أكثر من خمسة، وحتى أكثر من ستةأأأ، ولا أدري إن كان إيليا (إلياس) قد أتى إلى هنا في يوم من الأيام.

بالنسبة للأربعين شهيداً، إليكم كيف يَروُون القصّة:

قام أحد اليهود بوضع خَبَثه سرّاً في جامع، وعندما علم الملك أو الباشا أنهم وجدوا تلك اللفافة صباح اليوم التالي غضب غضباً شديداً، وأمر بالبحث عن الفاعل. قال اليهودي الذي كان عدواً للمسيحيِّين، إنهم بالتأكيد مَن اقترفوا ذلك اتضاعاً منهم للدّين، وبناءً عليه زُجّ بهم جميعاً في السجن. وبعد فترة من الزّمن اعترف أربعون منهم بهذه الجريمة المزعومة بدافع من الحميّة والعطف، لكي يُنقذوا حياة الآخرين، مما أدّى إلى موتهم جميعاً، رغم معرفته التامّة أنهم ليسوا جميعهم مذنبين. وعلى نفس الجبل، إنما على بعد بضع مئات من الخطوات يوجد مكان السّبع نيام، حسب ما يظن

(32) هذا هو فعلاً طريق الصّالحية القديم، من بوّابة الصّالحيّة إلى عين الكرش إلى سفح قاسيون. ومقام الأربعين في جبل قاسيون ما زال معروفاً إلى يومنا الحاضر، وكثير من النّاس يصعدون لزيارته في ارتقاء صعب ومُنهِك. وكان الشّيخ فتحي الصّافي المعروف بدمشق قيّماً على المقام في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، وقد نشر عنه مؤلفاً لطيفاً، ما زال يتداوله الناس.



قارن الحجر الموجود اليوم في حديقة المتحف، من الجهاركسيّة

أهل البلد. يوجد في هذا المكان مغارة[٣٣] فيها سبعة كوى مسدودة، يظنُّ الناس أن النيام السبعة يَرقدون هناك، حتى أن بعضهم يقول إنهم ما زالوا نياماً، لكنهم عندما يَروُون هذا الأشياء يخلطون بين الكثير من القصص، فيصبح من الصعب معرفة حقيقة ما يظنُّون. وبعدها عدنا إلى المدينة عبر باب البوابيج (البوابجيّة).

من أجل رؤية دمشق بشكل جيد، ينبغي الذهاب إلى مكان الأربعين شهيداً هذا. وهو يقع في وسط جبل موجود في الشمال بالنسبة للمدينة، الممتدة من الشرق إلى الغرب وهي طويلة وضيقة: وهي من جهة الشرق مدبّبة، ومن جهة الغرب نرى الضاحية التي تُسمَّى بابَ الله، الذي سبق أن تحدثتُ عنه، والتي تمتدّ طولاً نحو الغرب أكثر من ثلاثة أو أربعة أميال.

تقع هذه المدينة وسط سهل تُحيط به الجبال من كل جانب، لكنها بعيدة عن المدينة على مدّ البصر، أقربها هي الجبال الموجودة من جهة الشمال حيث يوجد الأربعون شهيداً. من جهة الشمال يوجد عدد وافر من الحدائق الغنية بالأشجار ومعظمها مثمرة؛ تشغل هذه الحدائق الأرض الممتدة من جبل الأربعين شهيداً وحتى المدينة، بحيث تبدو من بعيد كأنها غابة.

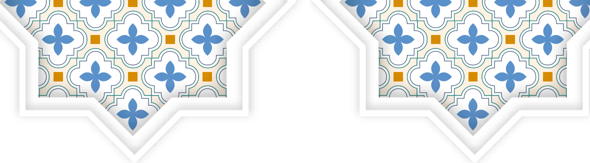
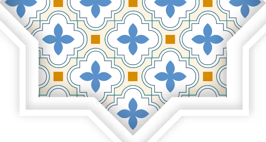
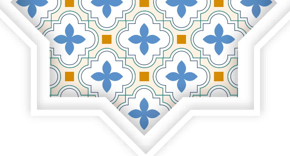
مررتُ مرة أخرى من أمام سراي الباشا، وبعد أن سرتُ بضع خطوات أخرى نحو الشمال، وجدت في الدّرب الأول إلى جهة اليسار مسجداً[٣٤] كان في الماضي كنيسة مكرّسة للقديس نقولا، دخلتُ إليه ولاحظت أنّ المسجد كبير جداً ورائع، له باحة واسعة جداً يحيط بها رواق، وقبابه محمولة على عدّة أعمدة رخامية ضخمة. هذا الرّواق بأكمله، والباحة التي ما زالت مبلطة بحجارة كبيرة جميلة، كانا في السّابق جزءاً من الكنيسة بالإضافة إلى مساحة كبيرة مغلقة ومغطاة حوّلوها إلى مسجد. لقد هدموا جميع القباب التي كانت تُغطّي ما أسميتُه باحة، وأدخلوا أحد أنهار دمشق الذي يجري بشكل طولاني والمسمى بانياس. من هنا تُحمَّل الجمالُ الذاهبة إلى مكة بالمياه، ولهذا السبب فقط جعلوا النهر يمرّ من هنا. وهناك أيضاً العديد من الأشجار التي أضفت على المكان جمالاً بالغاً.

بعد خروجي من هذا المكان، ذهبت إلى الدّراويش الموجودين على بُعد عدّة خطوات من هنا، من نفس الجهة[٣٥]. سكنهم جيّد جدّاً، ولديهم العديد من البساتين التي يمرّ فيها نهر بانياس قبل

(33) **تشتهر بقاسيون مغارة أهل الكهف ومقام الأربعين**، وتسمّى: مغارة الجوع.

(34) المقصود جامع تنكز في حكر السّمّاق (شارع النّصر اليوم)، وكلامه عن كنيسة قديمة غريب.

(35) هذا جامع وتكيّة المولويّة الواقع إلى الغرب من جامع تنكز.

أن يذهب إلى كنيسة القديس نقولا. تتألف كلمة درويش من كلمتين فارسيتين: وهما دَر التي تعني باب وويش التي تعني عتبة، مثلما يُقال عتبة الباب، أخذ معلمهم هذا الاسم ليُظهر ما مفاده أن هذه الطبقة تركن إلى إذلال النّفس عندما تقارن نفسَها بعتبة الباب التي يَطؤها جميع الناس بأقدامهم.

بعد زيارتي لهذا المنزل تابعتُ مسيري، فوصلت إلى المرج الدّمشقي Champs Damascène البعيد بعض الشيء. إنه مرج واسع مغطًّى بالعشب يُسمَّى الميدان، تحيط به الحدائق ويمرُّ منه نهر بانياس. يوجد باتجاه الوسط تقريباً عمود ترابي صغير، يقارب ارتفاعه الأربعة أقدام، يقولون إنه في هذا المكان خلق اللّهُ الإنسانَ الأوّل. وهذا المكان ماتع وجميل جداً، لذلك عندما يمرُّ أحد النبلاء من دمشق، ينصب خيامه فيه.

عندما وصلنا إلى هذا الحقل، استدرتُ يميناً ودخلت المرستان Morestan الذي يقع في وسط إحدى جهات هذا الحقل[٣٦]. وجدتُ نفسي في رواق مربَّع، مغطًّى بقباب صغيرة محمولة على أعمدة رخامية، قواعدها من البرونز؛ ويوجد في الجهة التي دخلتُ منها، وفي الجهة المقابلة، غرفٌ لاستقبال الحجّاج مهما كانت ديانتهم. كل غرفة مغطاة بقبّة ضخمة وفيها وجاق وخزانتان ونافذتان، واحدة منها مطلّة على الفناء والثانية على الجهة الأخرى.

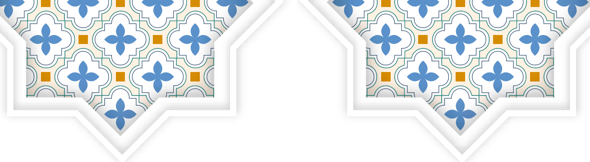
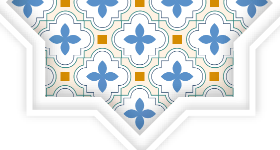
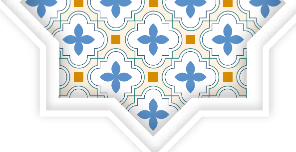
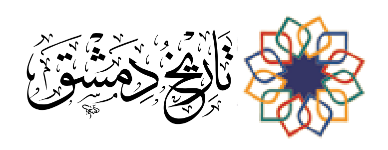
أما الرّواق فهو مغطًّى بضعفي عدد القباب التي تُغطّي الغرف. خُصّصت الجهة الواقعة يميناً للمطابخ، التي تحتوي على قدور كبيرة يُطبَخ فيها كلَّ يوم، حتى خلال رمضان، البيلاف Pilav وأنواع أخرى من اللّحوم، ويوزعونها على كل قادم مهما كانت ديانته.

وفي الجهة المقابلة للمطابخ الجامع، وأمامه رواق جميل مغطًى بالقباب كرواق الكنيسة، لكنها أعلى منها بقليل ومحمولة على أعمدة أكثر ارتفاعاً. تغطّي هذا الجامع قبّة ضخمة جداً لها على جانبيها مئذنتان جميلتان، وكل هذه القباب والمئذنتان مغطاة بالرّصاص. وعلى طول الرّواق الموجود داخل الفناء حديقة غنّاء زُرع فيها عديد من الأشجار، وهي مُسوَّرة من جهاتها الأربع بواسطة درابزين خشبي، يبلغ ارتفاعه خمسة وستة أقدام، بحيث يترك في المنتصف باحة كبيرة مبلطة بأحجار كبيرة وجميلة، يتوسّطها حوض مستطيل الشكل، أو بالأحرى قناة عريضة جدّاً يمرُّ عبرها نهر بانياس. قام ببناء هذه المستشفى سليمان خان الثاني فاتح رودُس Rhodes لكي يأوي إليها الحجّاج الفقراء من كافة الأديان.

وعندما مررتُ، كان قد وصل إلى هناك العديد من الأشخاص الذين أتَوا للقيام برحلة إلى مكة. خرجتُ من هذه المستشفى عبر الباب المقابل للباب الذي دخلت منه؛ ورأيت إلى جهة اليسار الإصطبلات التي تُوضع فيها أحصنة الحجّاج، في حال وُجدت. ثم تابعتُ مسيرتي ورأيت في الجهة اليمنى رواقاً مماثلاً في هندسته المعمارية للرّواق السابق، وهو تابع للمستشفى ذاتها ومخصّص للتلاميذ الفقراء وله مسجده أيضاً.

خرجتُ من المرستان وسرتُ بشكل مستقيم، ومررت في طريق يوجد على جانبيه غرف صغيرة مخصّصة أيضاً للحجّاج الفقراء، وفوقها غرف للحجّاج الفقراء. وصلت بعد ذلك إلى منزل كبير، له

(36) المقصود به تكيّة السّلطان سليمان الشهيرة، التي بناها المعمار سِنان الذّائع الصّيت 962 هـ. وهي إلى اليوم من أجمل وأهمّ آثار دمشق القديمة.

باحة واسعة تُصنع فيها الحلوى من أجل الرَّكب الذّاهب إلى مكّة، ورأيتُ عدّة مئات من الأكياس الكبيرة، رغم أنه ما زالت هناك ثلاثة أسابيع للرحلة، يتمّ إعداد هذه المؤونة لأن هذه هي العادة، إذ يُحمّلُ في دمشق مئتا جمل بالحلوى على نفقة السّلاطين، ومثلها ماء، وذلك من أجل التصدّق على الحجّاج الفقراء أثناء الطريق.

أثناء متابعة طريقي، مررتُ بسوق الخيل حيث ينتصب حجرٌ كبير، يتراوح ارتفاعه من أربع إلى خمس أقدام وعرضه ثلاث أقدام تقريباً وسماكته نصف قدم، ومحفور عليه عدة أسطر بالعربية، لكنه متآكل لدرجة أنه لا يُمكن قراءتها بغير عناء؛ وتقول هذه الأسطر إنه عندما تغمر المياه هذا الحجر تُحتلّ دمشق. إلا أنّ السّيد دى بيرمون de Bermond الذي صحبني إلى هذه الأمكنة قال لي إنه شهد قبل عدة سنوات فيضاناً غزيراً، حتى أنه ظنّ بأن هذا الحجر غُمر بالماء، على الأقل هذا ما تمكّن من مشاهدته من مكان عال قريب إلى حد ما، ومنه اكتشف كل هذا المكان حيث لم يعد يرى هذا الحجر الذي قُتل بقربه في ماضي الزمان العديد من رهبان القديس فرنسيس من أجل المعتقد.

ذهبنا بعد ذلك إلى سوق سُروج الخيل، سُمّي هكذا قديماً لأنها البضاعة الوحيدة التي تُباع فيه. وبعد أن مشينا بضع خطوات، رأينا إلى اليسار الحمّام الكبير الذي سأقوم بوصفه. ثم بعد ذلك، دخلنا إلى المدينة عبر باب البوابيج؛ ويوجد في كلّ جهة من جهتي هذا الباب زنبقة كبيرة محفورة في الحجر[٣٧]. مررنا من أمام الباب المسمّى باب الفراديس الذي يقع على يسارنا، لنصل عبر باب السّلام إلى ملتقى الأنهر الثلاثة الذي يقع خارجه إنما قريباً جداً منه، ويوجد في هذه المنطقة عدّة حدائق، جعلت المكان يبدو في غاية الجمال.

تابعنا المسير بمحاذاة الأسوار، وعدنا إلى المدينة عبر الباب المسمّى باب توما، ووصلنا إلى منازلنا.

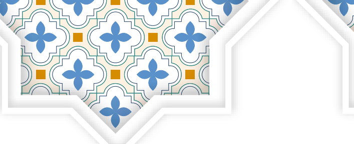
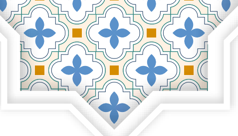
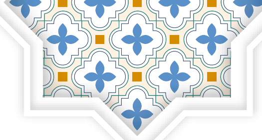
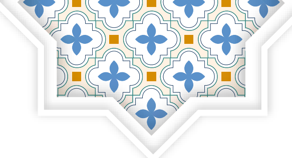
جميع المقاهي les cavez في دمشق جميلة، وماؤها غزير، لكن أجملها موجود في الضّواحي. ومن بينها المقهى الموجود في السّنانية، المسمّى القهوة الكبيرة، لأنه ممتدّ على مساحة شاسعة، وهو خلاّب بكمّية الينابيع المتدفقة التي نراها محاطة بأحواض مليئة بالماء. أما المقهى القريب من باب السّراي المسمّى مقهى الجسر، لقربه من جسر فوق نهر، فهو أكثر روعة لأن النهر يحيط به من جهة وهناك أشجار على امتداده، حيث يستمتع مَن يجلسون على مصاطب المقهى تحت ظلالها بالرّطوبة العذبة وبمنظر النهر المارّ من تحتهم.

أمّا مقهى النهرين[٣٨] القريب من باب البوابيج (البوابجيّة) عند نهاية الضلع الطويل للقلعة فيتصف بالجمال والاتساع أيضاً، ويمرّ منه نهران ويشكّلان في طرف قاعة مغطاة جزيرةً مليئة بأشجار الورد وبنباتات أخرى، فاللون الأخضر وألوان الورود المتنوعة ورائحتها الزكية تُمتّع حواسّ المرء المختلفة في آن واحد، وتُشيع بهجة عارمة في حالة فائقة التَّميُّز.

---

(37) حتى أواسط القرن العشرين كانت على عضادة باب الفرج زهرة زنبق رآها بعينه مؤرخ دمشق د. صلاح الدّين المنجّد، لكنها مخفية اليوم بسبب تعدّي الدّكاكين.

(38) **هذا المقهى يُعرف بقهوة العصرونيّة**، إلى اليمين من الحديقة البيئيّة اليوم، وكان راكباً على نهري بردى والعقرباني. راجع التعليق على ما ورد في الملحق الثالث لرحلة دارڤيو.



حوض الماء لسقاية الدّواب في بلدة القطيفة
نُقيشة من كتاب تيڤنو

لكن ينبغي معرفة أنّ هذين النهرين، اللذين قلت إنهما صغيران، لا يقلّ عرضهما عن الأربع قامات، وعادةً ما يكون ست أو خمس. والكلّ يعرف ما هي حبّة القهوة التي تُسمّى بها هذه الأمكنة، فقد ذكرتُها في رحلتي الأولى، وأُضيف هنا فقط ما تعلّمته عن فوائد هذا المشروب: فتناوُله ساخناً يطرد الأبخرة من الرأس، وفاتراً يقبض المعدة، وبارداً يُسهلها.

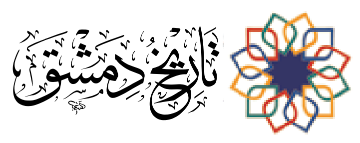
يعيش في دمشق رُهبان من الكبّوشيين، ورهبان من الأراضي المقدّسة، ويسكنون في منازل بعضها قريب من بعض في منطقة الموارنة، مقابل كنيستهم حيث يقيمون القدّاس الإلهي، لأن كل رهبانية لها كنيستها. وهناك أيضاً الآباء اليسوعيون (الجزويت)، لكنهم يقطنون في مكان بعيد نسبيّاً عن هنا في منطقة اليونان (الرّوم)، ويُقيمون القدّاس في منزلهم الخاص.

بقيتُ في دمشق ٢٤ يوماً، لكنني لم أرغب بالبقاء هذه المدة الطويلة بسبب الإهانات التي أصابتني، فمن جرّاء خُبث أحد الأشخاص، ولعلّه الخادم الذي طردتُه، انتشرت شائعة كاذبة في المدينة مفادها أنني أملك ثلاثة آلاف سيكان sequin[٣٩]، وحاولوا بشتى الوسائل العثور على بعض هذه النقود المزعومة، لذلك علمتُ أنّ القيبقول والإنكشاريّة راقبوني عدّة مرات لإلقاء القبض عليَّ بأيّة حجة، وهناك أيضاً الشّربَجي الذي صادفتُه على الطريق عند عودتي من صيدا، والذي طلب السّيد بيرمون مارشان فرانسوا Bermond Marchand François، وهو صديق لي، وقال له، ربما ليعرف رأيه في هذه القضية، بأنني جعلته يظنُّ أنّني قريب له، إنما في النهاية عرف أنني رجل نبيل وغنيّ، وأنني تامّ الحذر لكثرة مَن يتهدّدني، وقال إنه سيخدمني بكل ما يستطيع في حال احتجتُ إليه.

ومع زيادة انتشار هذه الشائعة غدا وجهي معروفاً، والحلّ الوحيد هو أن أترك دمشق. إنما لعدم وجود أيّة قافلة مغادرة، لم أتمكن من أن أُنقذ نفسي بهذه الوسيلة بالسّرعة التي تمنّيتُها، فقرّرت

---

(39) **عملة نقدية ذهبية قديمة** كانت مستخدمة في البندقية وفي الشرق.

رغماً عني أن أبقى حبيس المنزل، أو على الأقل أُقلل من خروجي قدر الإمكان بانتظار قافلة مغادرة. لم يساورني شك في مدى الخطر الذي يتهدّدني، لأنني علمتُ حتى أنهم يراقبون الأب المحترم جورج اليسوعي الذي كان من جملة أفضاله علي يُحمِّل نفسَه عناء المجيء إلى منزلي ليعلّمني الأسطرلاب، مما أجبرنا على التواصل فقط بالرّسائل. لم تمنع كل هذه الاحتياطات الناس من زيادة الكلام عن وضعي وثروتي بشكل مستمرّ.

بيد أن القدر شاء في آخر ليلة قبل رحيلي، أن يأتيني رسول عاجل من قبل السّيد بيرتيه Ber-tet أحد كبار تجار حلب، وكنت قد كتبتُ إليه كي يُعلمني عندما يكون ثمّة قافلة جاهزة للسّفر إلى بغداد. وفي لحظة علمتِ المدينة بأسرها بقدوم هذا الرجل، رغم أنّ الوقت كان ليلاً. الكلّ قال بأنه آت في طلب جميع الفرنجة، لكن في صباح اليوم التالي سَرَت شائعة تقول إنه آت فقط من أجل هذا الإفرنجي الواسع الثراء! وقال لي أحد الأتراك إنّ الجنون بلغ بأحدهم ليقول إنني شقيق ملك فرنسا.

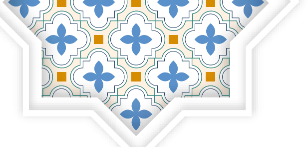
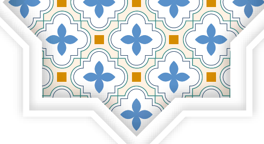
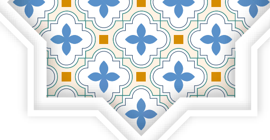
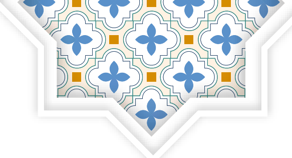
باعتبار أنّ كلّ هذا الشّرف سائني جداً، ولعلمي بقافلة مستعدة للرّحيل، فقد عقدتُ صفقة مع مكاري ليأخذني إلى حلب وينقل أسمالي ويدفع الإتاوة، واتفقنا على سعر وقدره ثلاثة عشر بوكيل boquelles وهو سعر رخيص جداً، كان هذا لأجل السّفر مع قافلة تنقل خزنة البارود من القاهرة إلى القسطنطينية، وفيها مئة وخمسون شحنة، وتتراوح كل واحدة منها ما بين سبعين إلى ثمانين أقّة (أوك) oques، محمّلة على ظهور الجمال والبغال. يقود هذه القافلة آغا، ويجب أن يحرسها خمسون أو ستون فارساً؛ حتى عندما علمت أنه سيكون فيها مئتا شخص، سواءٌ من السّادة أو الخدم، كنت مرتاحاً تماماً للقائها.

بعد أن حمّلتُ أمتعتي، ذهبت لأستأذن الأب المحترم جورج بالرحيل، ولاحظتُ عند خروجي من المنزل أن الشرفات تغصّ بالنسوة اللواتي اجتمعن ليرينني ماراً، ثم ذهبت للقاء السيد ميشيل طوبجي لأشكره على كل اللباقة التي أبداها تجاهي في دمشق ولأودّعه. أراد هذا الرجل المهذب أن يكمل فضله معي حتى النهاية، فأعطاني رسالتين واحدة باللغة العربية والأخرى بالتركية على شكل جواز سفر، موجّهتين إلى كل السّلاطين والحكام من دمشق إلى بغداد.

ويقول في الرسالتين إنني شقيقه ويُسمّيني باسم «فرانسوا لوكانونيه» (المدفعي) François le Canonier، لا أدري إن كنت أستطيع تحمُّل مسؤولية هذه الرّتبة لو سنحت لي الفرصة. وبما أنه كان يخاف أن يعتقلوني أو يكيلوا لي إهانة أخرى، فلقد أصرّ أن أمتطي الحصان على بابه، رغم رجائي له بأن يدعني أذهب سيراً على الأقدام، لأن المسيحيين لا يجرؤون على ركوب الأحصنة في المدينة، لكنه أراد ذلك وسيّر معي فارسين ليقوما على حراستي وأمرهما أن يسيرا في المدينة، أحدهما أمامي والآخر خلفي، وأن يرافقاني بعد ذلك إلى أول مرحلة لي، وهذا ما فعلاه بكل أمانة.

كتبوا إليَّ في ذلك الحين وأخبروني أنه عندما أتى عيد البَيرَم [الفطر]، طلب معاون الباشا هدية من رهباننا ومن السيد بيرمون، لكن السّيد ميشيل نبّهه أن الهدايا لا تُقدَّم في حال عدم وجود قنصل، فقنع بذلك؛ وظنّ الجميع أن هذا الرجل طلب هديّة لاعتقاده بأني ما زلت في دمشق.

إنّ طوبجي باشي هذا، ومهما قال فرانسوا، هو مواطن كانديّ Candiot قدّم خدمات جليلة



سبيل ماء السنانية نُقيشة من كتاب تيڤنو

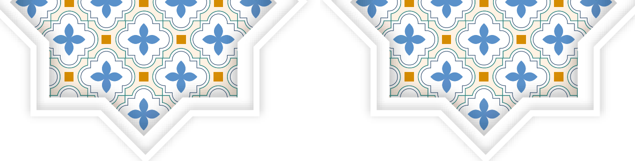
للسّلطان مُراد في سلاح المدفعية عند الاستيلاء على بغداد، كافأه الأمير بقرية كبيرة كإقطاع تيمار Timar إضافة إلى العديد من الامتيازات، ومن بينها امتياز السّير في المدن على صهوة الحصان، رغم أن هذا محظور على المسيحيين، وعُدّ في منزلة كبار أسياد البلاد. كان يتوجّب عليه الذهاب كلّ سنة ليتفقّد حصون بغداد، فيذهب إلى هناك عبر الصّحراء، راياته منشورة، مصطحباً معه فرخي صقر كي يروّع العرب الذين يمكث بينهم بحذر، وفي كلّ مدينة يستأجر عامداً جنوداً لحراسته ليصل إلى المدينة التالية، حيث يأخذ غيرهم، وهكذا إلى أن يصل إلى بغداد.

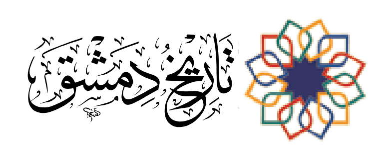
كان هؤلاء العرب يُضمرون له الشرّ فعلاً، وكان يتعامل معهم بقليل من الفظاظة، لكن عندما يعلم أنهم ينتظرونه في مكان ما، يذهب ليجد مأوًى في مكان آخر، هذا ليس لأنهم لم يريدوا قتله، لأنّ أحد أقاربه قال لي إنه في أحد الأيام وفي معركة صغيرة خاضها ضدهم، مع أنها لم تتعدَّ بضعة ضربات بالحجارة والعصي، ورغم إطلاق بضعة طلقات نار، أتى أحد شيوخ العرب في ثلاث مرات مختلفة ووضع رمحه بين كتفيه، مكتفياً بأن يُبيّن له أنه كان بإمكانه قتله. إلا أنهم لم يجرؤوا على فعل ذلك، لأنهم يعلمون أنهم سيرسلون لهم إثر ذلك جنوداً لمحاربتهم، وسيُبيدونهم إن لم يغادروا البلاد تماماً. إن هؤلاء لصوص كبار ولا يختلفون عن آبائهم السّارازان[٤٠] Sarazins الذين لُقّبوا بذلك دون شكّ بسبب المهنة التي يمارسونها.

عمل هذا الرجل، الذي حمّله الرّهبان الكبوشيون من الملك رسائل القنصل إلى الفرنسيين في بغداد، على حمايتهم بقدر الثقة التي يمكن أن يحوز عليها، رغم أنه من السّهل أن يظنه الأتراك فرنسيّاً، لكنه متكبّر بعض الشيء، ويجب أن يأتي الإفرنجي القادم حديثاً لزيارته إذا أراد أن يحظى بالنعم، وأن يقدّم له هدية من أوروبا، وهو يقدّر الهدية أكثر حسب جدّتها وطريقة تقديمها إليه، وليس حسب قيمتها، وبعدها يكون تحت تصرُّفه؛ ففي حال عدم ذهابه لزيارته، يمكن أن يَلقى

---

[40] عبارة **Sarazin** بالفرنسيّة تعني العرب ومُسلمي الشّرق بالإجمال، وزعموا أنّها تعني: السّراقين.





معاملة سيِّئة، ويمكن أن يردَّها له بعدة طرق.

وقد أثبتَ في وقتي أن حمايته ليست دونما طائل، سواءٌ بالنسبة لي عندما أرسل أحدَ الإنكشاريين لحراستي عندما ذهبتُ للقائه وتعرضت لخطر الاعتقال من قبل القپيقول[41]، أو بالنسبة لرهباننا؛ وبشأن القپيقول في منطقة المسيحيين الذين يُطالبون في عيد الفصح من كلّ عام الموارنةَ بشيء ما، لم يعد بإمكانهم امتلاك أيّ شيء بسبب فقرهم المدقع، حتى إنني عندما وصلت إلى دمشق كان كاهنهم مُلقًى في السجن منذ مدة طويلة من أجل ثلاثة قروش، أرادوا الحصول على هذه النقود من الفرنجة لأنهم يُقيمون القدّاس في نفس الكنيسة، لكن الطّويجي منعهم وكان دائما يطلق سراح الأب المحترم رئيس الرهبانية من السّجن الذي وضعه فيه القپيقول مرات عدّة؛ إلى حدّ أنه عندما وُضع الختم على منزل الكپّوشيين، أتى بالقاضي وجعله ينزعه.

والقپيقول في دمشق هم الذين يُسمّون الإنكشاريّة، ويوجد منهم من ثلاثة إلى أربعة آلاف في دمشق، أحياناً أكثر وأحياناً أقل، وينتشر خمسون ألفاً في أرجاء الإمبراطورية، اثنا عشر ألفاً في القسطنطينية، وستة آلاف في بغداد، ومثلها في القاهرة، وفي بودا Bude، ويجب أن يُحسب هؤلاء الخمسون ألف إنكشاري من بين الثلاثمئة ألف رجل الذين يُقال إن السّلطان يحوزهم على الدّوام.

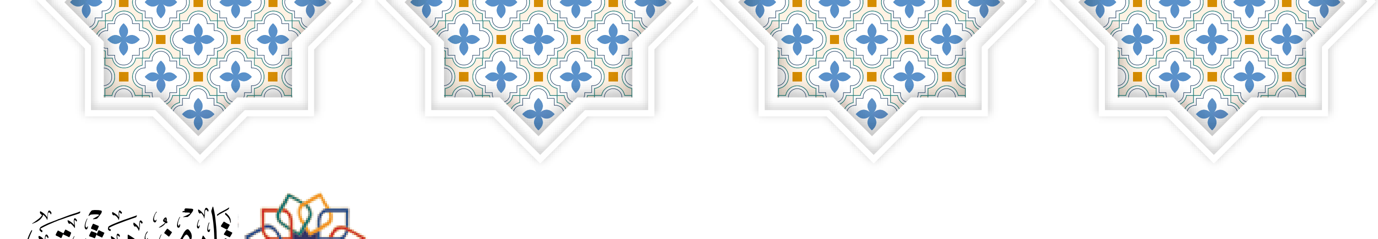
قبل أن أترك دمشق نهائيّاً، عليَّ أن أكتب بعض الملاحظات التي أخذتُها، حتى لو كانت خارج سياق الموضوع، لكن ببعض الترتيب. مثلاً: في هذا البلد وفي باقي تركية لا شيء يُكدّر كرؤية أحد يمتطي حصاناً وساقاه في جهة واحدة، كما تفعل السّيدات في فرنسا عندما غادرتُها. وسبب هذه العادة الغريبة هو اعتقاد الأتراك أنّ العملاقين يأجوج ومأجوج اللذين عصيا الله كانا يمتطيان الخيل بهذه الطريقة، فكانوا شديدي التشبّث بهذه التقوى، فبمجرّد أن يروا أحداً ما في هذه الوضعية يرجمونه بالحجارة إلى أن يعدّل وضعيّة ركوبه.

عندما يريد المرء في دمشق وحلب أن يُبيّض الجدران بالكلس، يقطع القنّب قطعاً صغيرة، ويخلطه بالكلس المنقوع، ويُوضع على الحائط الذي لن يثبت دون هذا الكلس لأنّ الجدران مصنوعة من التراب.

لاحظتُ في دمشق أن الأتراك يتركون على قبورهم ثقباً قطره ثلاث أصابع، حيث يوجد قناة ترابية تُفضي إلى جثمان الميت، ويُستخدم في ترطيب الأموات، لأنّ النساء يذهبن يوم الخميس للصّلاة على أرواحهم، ولا يتخلّفنَ عن ذلك أبداً، فيَصبُبنَ لهم الماء من خلال هذا الثقب لسقايتهم وترطيبهم، ويزرعون في طرف القبر غصناً كبيراً من البقس، يجلبنه عمداً ويتركنه هناك لترطيب الجو من أجل الأموات.

ولديهن أيضاً عادة لا تقلّ طرافة، فعندما تفقد المرأة زوجها لا تكفّ عن طلب النُصح منه في شؤونها. فهناك امرأة مثلاً تذهب أحياناً وبعد عامين من وفاة زوجها إلى قبره وتقول له فلان ظلمني وفلان يريد الزّواج مني، وتسأله النصيحة فيما يجب أن تفعله، وعلى هذا تعود إلى المنزل وتنتظر

(41) القپيقول كلمة تركيّة: **Kapı-Kul** ومعناها الحرفي: عبيد الباب، واصطلاحاً: وجاق الإنكشاريّة المؤلف من العسكر القادم من إسطنبول. وبدمشق إلى اليوم أسرة صغيرة تسمّى: قَبَه قولي. أمّا الوجاق الثاني في فرقة الإنكشاريّة بدمشق فهم: اليرليّة **Yerli** أي العسكر المحلّي من أبناء البلد. انظر حول الفرقتين ما يذكره باستفاضة البديري الحلّاق في حوادثه اليوميّة في القرن الثامن عشر للميلاد.



الإجابة التي لن يتخلّف زوجها الراحل عن إعطائها في الليلة التالية، والتي تأتي دائماً مطابقة لما ترغب به الأرملة.

هناك أيضاً أمرٌ غريب إلى حدّ ما، وهو ثياب الحداد التي تلبسها النساء في دمشق، عند وفاة أحد أقاربهنّ وحتى المسيحيات منهن.

تسلّيت في أحد الأيام لما كنتُ في الساعة الثامنة مساء أمام منزل الكيّوشيين، لمحت عدة نساء مارونيات عائدات من منزل أحد أقربائهن الذي انتقل إلى رحمته تعالى قبل ثلاث ساعات، كان عددهن يفوق العشرين، ويُحدثن ضجّة عارمة، بعضهنَّ يُغنّي والبعض الآخر يصرخ؛ وهناك رجلان يحملان شمعتين لإنارة الطريق، أياديهن مضمومة ويضربن صدورهنّ. وعندما وصلن مقابل الكنيسة المارونية الواقعة أمام منزل الكيّوشيين، توقّفنَ ووقف عددٌ منهن بشكل دائري وأخذن يطرقن أنوف بعضهن البعض، ولمدة طويلة، بأصابع اليد اليمنى على طريقة الصنجات، وعلى إيقاع الأغاني التي يردّدنّها خلال القداس، والغبطة بادية عليهن، في حين كانت بعضهن تصرخ من وقت لآخر على طريقة كاهنات باخوس.

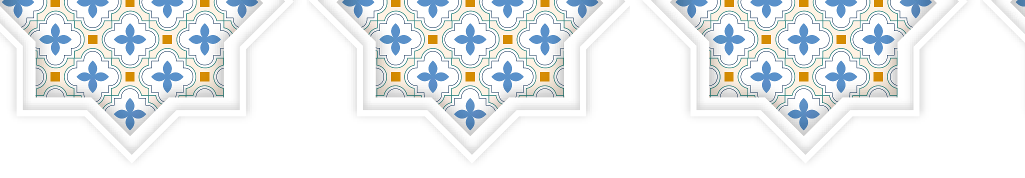
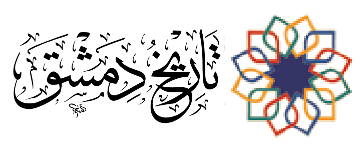
في الختام، وبعد عزف هذه الموسيقى لفترة لا بأس بها من الزمن، يقدّمن عدّة تحيات باتجاه الشرق، وذلك برفع اليد اليمنى على الرأس ثم على الأرض مع الانحناء في نفس الوقت، بعد ذلك يتابعن مسيرهنّ ترافقهن الموسيقى ذاتها.

في دمشق وفي كافة بلاد تُركية[٤٢]، لا يُدرس القمح، إنما بعد حصاده يُكوّم في مكان ما بعضه فوق بعض، وحول الكومة يفرشونه بشكل دائري على عرض أربع أو خمس أقدام وسماكة قدمين، بعد ذلك، لديهم شكل من أشكال الزلاجة مركبة من أربع قطع خشبية مربعة، تُستخدم اثنتان منها كمحاور لهما لفيفتان، تدخل أطرافها في هاتين القطعتين الخشبيتين، بحيث تدوران بسهولة. وحول كل لفيفة من هاتين اللفيفتين يوجد ثلاثة مسننات (تروس) حديدية، سماكتها نصف قدم تقريباً وقطرها قدم واحد، ولها أسنان مثل أسنان المنشار، وهناك مقعد موضوع على قطعتي الخشب الرئيسيتين، يجلس عليه رجل يسوق الأحصنة التي تجرّ باستمرار هذه الآلة بشكل دائري فوق الكومة التي ترتفع بعلوّ قدمين، وهذا يساعد على تقطيع القش بشكل بالغ الدقة، وإخراج الحبة من السنبلة دون كسرها لأنها تنزلق ما بين الأسنان الحديدية. وعندما يُطحن القش جيداً يضعون غيره، من ثم يفصلون الحبة بواسطة هذا القش المفروم، ويذرون كل شيء في الهواء بوساطة مجرفة خشبية، لأن الرّيح تجرف القش إلى مسافة أبعد بقليل فيقع القمح وحده؛ ويقدّمون هذا القش المقطّع طعاماً للأحصنة.

تختلف هذه الآلة من مكان إلى آخر: فكما رأيت في بلاد ما بين النهرين، بدلاً من المسنّنات المحيطة باللفائف، ثمّة عدّة قطع حديدية طولها ستُّ بوصات وعرضها ثلاث، على شكل سكك تقريباً لكنها أعرض بقليل من الأسفل أكثر من الأعلى ومغروزة لا على التعيين في اللفائف، بعضها بشكل مستقيم والبعض الآخر بشكل موارب؛ ويغطي الحديد في هذه الآلة الأخيرة ألواح خشبية يجلس عليها الشخص الذي يسوق لأنه لا يوجد مقعد سواه.

---

(42) اكتب اسم تركية هكذا لأنه يلفظ في اللغة التركية بإمالة الياء **Türkiye** وليس تركيّا.

وهـي الآلـة ذاتهـا في بـلاد فـارس، إلا أنـه في بعـض المناطـق لا يقطّعـون القـش أبـداً، إنمـا يجعلـون الثـيران أو الأحصنـة تسـير فوقـه كـي يُخرجـوا الحبّـة ويفصلوهـا مثلمـا ذكـرت.

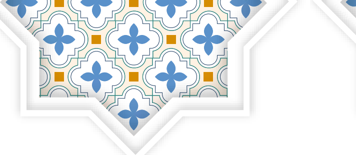
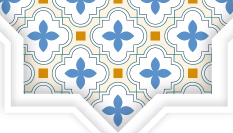
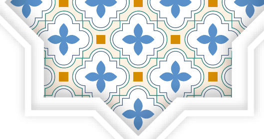
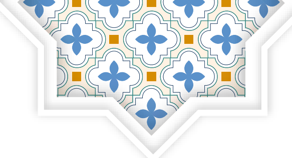
ومـن بـين جميـع الحبـوب الـتي يسـتخرجونها بهـذه الطريقـة، يسـتخدمون الشـعير كغـذاء لجيادهـم، فيقدّمـون لـكل حصـان في الصبـاح oque (أقّـة) حزمـة مـن هـذا الشـعير، وفي المسـاء أربـع حـزم ممزوجـة بالقـش المُقطّـع، ولا يقدّمـون لهـا أي شـيء آخـر طـوال النهـار. أمـا في بـلاد فـارس فـلا يقـدّم الشـعير إلى الأحصنـة إلا مسـاء، لكـن خـلال النهـار تُقـدّم إليهـا مخـلاة مـن التّبـن.

لنـرَ بأيـة طريقـة تُصنـع الزبـدة في دمشـق، وهـي نفسـها في باقـي تركيـة. تُعلَّـق عصـاً مـن طرفيهـا في الزاويتـين الخلفيتـين لقربـة، أي كل طـرف مـن أطـراف العصـا في إحـدى الزاويتـين، وكذلـك الأمـر بالنسـبة للزاويتـين الخلفيتَـين كـي تسـتخدم هـذه العصـي كمقابـض. ثـم يُسـكب الحليـب في القربـة، بعـد ذلـك يغلقونهـا بإحـكام، يمسـكونها بالعصـي ويحرّكونهـا، وبعـد فـترة مـن الزمـن يضيفـون إليهـا قَليـلاً مـن المـاء ويسـتمرّون في تحريكهـا إلى أن تتشـكل الزبـدة، عندئـذ يفرغـون منهـا المـاء أو المخيـض ويسـمونه لبنـاً ويشـربونه. وعندمـا يريـدون أن يكـون طعـم هـذا اللـبن ألـذّ، يضيفـون إلى الحليـب بعـد تسـخينه ملعقـة صغـيرة مـن اللـبن الحامـض، الـذي جعلـوه يحمـض بإضافـة المنفحـة؛ وعندمـا يصبـح الحليـب مـع هـذا الخليـط لبنـاً، يتركونـه حتـى يـبرد ويأكلونـه؛ وإذا أرادوا أن يحتفظـوا بـه يضيفـون إليـه الملـح ويضعونـه في كيـس مـن القمـاش ويربطونـه بإحـكام لعصـر محتـواه ويتركونـه يسـيل، حتـى لا يبقـى فيـه أي شـيء يخـرج. بهـذه الطريقـة لا يبقـى في الكيـس سـوى نـوع مـن الزبـدة أو مـن الجـبن الأبيـض. وعندمـا يريـدون الحصـول علـى اللـبن، يأخـذون قطعـة منـه ويمزجونهـا بالمـاء ويأكلونهـا بشـهية كبـيرة؛ ويسـتهلكون منهـا كميـات كبـيرة للشـعور بالانتعـاش، وبشـكل رئيسـي في القوافـل الـتي تجـد فيـه دائمـاً مؤونـة جيـدة. وهـذا اللـبن شـديد الحموضـة، وخاصـة اللـبن المتبقـي بعـد اسـتخراج الزبـدة.

وأُنهـي ملاحظاتـي عـن دمشـق بهـذا التحذيـر، بـأنّ النّبيـذ بهـا حـاذق ويغـدر بشـاربه. وكذلـك أُشـير إلى أن نبـات السّـميرنيوم كريتيكـوم ينمـو في هـذه المدينـة علـى كافـة أسـطحة المنـازل.

رابعاً ـ حول الرّحلة من دمشق إلى حلب:

يتابـع رحّالتنـا حديثـه في الفصـل السـادس قائـلاً: غـادرتُ دمشـق في صبـاح يـوم الإثنـين في ٢١ أبريـل برفقـة فارسَـيّ الطوپجـي علـى النّحـو الـذي ذكرتـه. مررنـا عـبر البـاب الـذي يُدعـى بـاب تومـا، وذهبنـا بشـكل مسـتقيم نحـو الشـرق، وفي ثـلاث سـاعات وصلنـا إلى القُصَـير Essaïr، وهـي قريـة صغـيرة يمـر منهـا نهـر ينقسـم في الأعلـى إلى نهريـن، وهنـا يوجـد خـان وفيـه باحتـان. وجدنـا هنـاك كامـل القافلـة الـتي يجـب أن تحمـل البـارود، خيّمـتُ معهـا والمكاريُّ أيضـاً. سـتغادر اعتبـاراً مـن الغـد في السـاعة الخامسـة والنصـف صباحـاً وسنسـير نحـو الشـرق في سـهل مترامـي الأطـراف، رغـم أننـا كنـا قريبـين مـن جبـال مـن الصخـر الأبيـض تقـع علـى يسـارنا. وفي حـوالي السـاعة الثامنـة، بـدأت تحيـط بنـا الجبـال مـن الجانبـين، ويفصـل بينهـا سـهول قاحلـة. وبعـد ثـلاث سـاعات، أي حـوالي السـاعة الحاديـة عشـرة، وصلنـا إلى القُطَيفـة وخيّمنـا بهـا مقابـل الخـان.



والقُطَيفة قرية كبيرة، يوجد بقربها خانٌ كبير متقن البناء، أسواره جميلة وعالية، حجارتها منحوتة وفيها فتحات، ويوجد باب كبير في الجنوب وآخر في الشمال وبابان صغيران على الجانبين. يُعدّ باب الجنوب بداية مدخل طويل، تعلوه القباب، وعلى جانبيه تصطفّ المحالُ المزوّدة بكل ما يمكن أن يكون ضرورياً للقافلة، وهناك مقهى وحمّام. بعد ذلك تدخلون باحة كبيرة مربعة، محاطة بمصاطب أو نُزل حجرية لإيواء القافلة. ويوجد في داخل هذه الباحة أبواب ضخمة، باب واحد في كل واجهة، والبابان في جهتيّ الشرق والجنوب مكسوّان بالحديد.

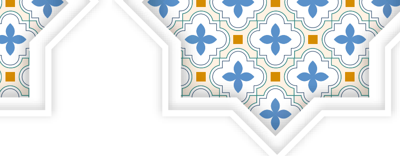
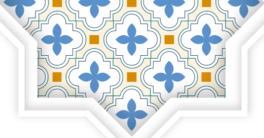
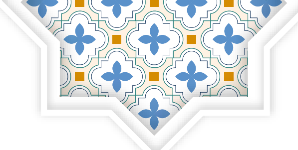
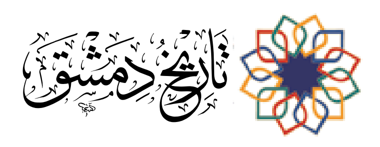


لوحة زيتيّة تمثّل جان دى تيڤنو، رُسمت حوالي عام 1660 - 1663، وتلاحظ المنسوجات الدمشقية على زيّه

لدى دخول الباحة، تجدون باباً يُفضي بكم إلى المسجد الذي تعلوه قبّة مغطاة بالكلس، ومئذنة جميلة. وعند الخروج من المسجد عبر الباحة تدخلون من باب الشرق: أولاً إلى ممرّ مقبّب على جانبيه مساكن، ومن هنا إلى باحة أخرى، متطاولة بعض الشيء ومبلطة جيداً، ويوجد في وسطها خزان ماء مربع الشكل مبني بالحجارة المنحوتة ويُستخدم في سقاية الدواب، تسيل المياه من قناة صغيرة تملأ الحوض بالمياه على الدّوام، وأظنها آتية من ساقية تجري خلف الخان من جهة الشرق، عند أسفل أسواره تقريباً.

وفي هذه الباحة مساكن تحت رواق مقبّب ممتدّ على المحيط ومدعّم من كلّ جهة بأحد عشر قوساً طولاً وتسعة أقواس عرضاً. ويوجد خلف هذا الرواق إصطبل مقبّب، ممتدّ أيضاً حول السّور، ويوجد في هذا الإصطبل أيضاً مساكن مخصّصة لإقامة الرجال بعيداً عن الدواب، تُقسم هذه المساكن إلى عدة شقق لكل منها مدفأتها الخاصة ويُدخل إليها من باب موجود في منتصف كل جهة. كلّ هذا مبنيّ بالحجارة المنحوتة وريعه جيد؛ ولقد أسّسه أحد الوزراء.

أمّا الحصن الذي قال پييترو دلاّ ڤالّه *Pietro della Valle* إنه موجود في هذه البلدة مع حامية قوية فهو غير موجود ويبدو أنه لم يكن موجوداً في يوم من الأيام؛ إلا إذا كان يقصد البرج الدائري الضخم الموجود في القرية، الذي يمكن رؤيته بسهولة من الخان وحتى من الطريق، لأنه أعلى

بكثير من كافة أسوار القرية التي لم أدخلها أبداً، لأنني لم أقرّر الذهاب إليها، فضلاً عن وجود مسافة كبيرة من الطريق بين الخان والقرية. قال لي أحد سكان البلدة إنها أُخذت من الفرنجة، ولذلك فيها كنيسة جميلة منذ ذلك الوقت في المكان الذي يوجد فيه الخان حالياً.

غادرنا القرية يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من شهر أبريل، قبل ثلاث ساعات من بزوغ الفجر، وكانت مغادرتنا سريعة، فبعد إيقاظي مباشرة ركبنا عربة المسافرين، وغادرنا للحاق بالقافلة التي باشرت المسير قبل أن نتمكّن من البدء بتحميل حاجياتنا. كنت أظنُّ أن القمر لا يظهر إلا قُبيل طلوع النهار، فانتظرناه ولكننا سرنا على ضوء قنديل استعرته.

كل ما استطعتُ أن أراه في هذه الظلمة هو أننا كنا نسير باتجاه gregal[٤٣]، وأننا ندخل في جبال دون أن نصعد مع ذلك إلا قليلاً جداً، لكن كانت فقط قريبة منا، من الجهتين، وكلها عبارة عن كتل صخرية مدبّبة. مررنا أيضاً بحافة هاوية، لكن لم يستمرَّ ذلك طويلاً. بعد ذلك بقليل وجدنا أنفسنا أمام خان، دون أي شيء آخر، كنت أعاني من البرد معاناة شديدة في تلك الليلة، رغم أنني كنت ألبس غطاءً واقياً، لكن الريح كانت تخترق كل شيء. عندما بدأ النهار بالإشراق، لاحظت أنه كلما تقدَّمنا ابتعدت عنا الجبال من الجهتين وتناقص ارتفاعها.

ألفينا أنفسنا نهاراً في سهل كبير يُغطّيه تماماً نبات الخلنج والأبروتونوم فامينا، التي يوجد منها كميات كبيرة على الطريق من دمشق إلى حلب، لكنها شديدة القصر. تابعنا مسيرنا في هذا السهل إلى النَّبْك، حيث يُدفع عادة عشرة قروش أجرة البغل، وكنا قد سبق أن مررنا أمام قرية فيها خان.

وصلنا النَّبْك حوالي الظهر، وهي قرية جميلة مبنية على مرتفع يجري تحته نهر صغير، يعلوه جسر له ثلاث قناطر، خيّمنا بقربه، كان هناك خان لم يعد له وجود منذ حين. وكلها مشيّدة بالحجارة المنحوتة المستخرجة من مقالع مجاورة ومتوفرة في هذا المكان تقدّم قدر ما يريدون من الحجارة. في هذه القرية كثير من اليونان، ويحفّ بضفاف النهر كثير من الحدائق المزروعة بالكروم.

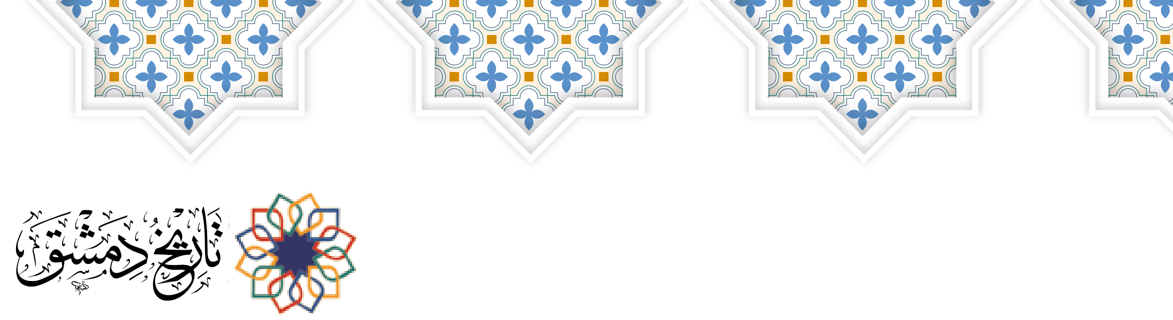
غادرنا النَّبك يوم الخميس في الرابع والعشرين من شهر أبريل، قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار سرنا شمالاً ومررنا عند الفجر في قارة، وهي بلدة جميلة ويمرّ بقربها جدول. ويوجد فيها آثار تدل على أنه كان لها شأن في الماضي. في الواقع يقول أهل البلد إنه عندما كان المكان مُلكاً للمسيحيين، كانت مدينة عظيمة. ما زال يوجد بضعة يونان، ولهم كنيسة مزيّنة بلوحات جميلة. بعد ذلك وجدنا قافلة من بضع مئات من الجمال والبغال المُحملة بالرجال والنساء والأطفال وأسمالهم، الذاهبين إلى دمشق كي يُسافروا إلى مكة.

مررنا في حوالي الساعة التاسعة قرب حصن مربَّع الشكل يُدعى البريجة[٤٤] El Bouraïdgé، أبوابه مكسوّة بالحديد، ورأيت على الأسوار فرخيّ صقر أو منجنيقين بارزين بين كوّات السور. بعد ذلك توجَّهنا نحو ماسترال mastral لأكثر من ساعة بين جبال صغيرة، ودخلنا حوالي الساعة العاشرة والنصف بين جبال صغيرة، ودخلنا حوالي الساعة العاشرة والنصف إلى سهل كبير لا يوجد

---

(43) **كذا ترد العبارة بالأصل**، ولا معنى لها، ولا يبدو حتى أنها اسم مكان فلعلها مصحفة.

(44) **تُعرف هذه القرية اليوم بالبريج**، صيغة تصغير البرج.



فيه إلا الخلنج والأبروتونوم فامينا. ما إن دخلنا إلى هذا السهل حتى اكتشفنا حسيا التي وصلنا إليها حوالي الساعة الواحدة والنصف.

خيّمنا قرب حسيا، وهو حصن صغير وهزيل جداً، لكنه متصل بخان مبنيّ بالحجارة المنحوتة، وتحت بابه يوجد السّوق، على غرار سوق القطيفة. على طول إحدى جهاته، وبالتحديد الجهة المقابلة للغرب، يمتدّ نُزل مغطًّى بعدّة قباب مقنطرة مخصَّص لإقامة الأشخاص، وكذلك الأمر بالنسبة لنصفي الجهتين المقابلتين للشمال وللشرق، ونصفا الجهتين الآخران تشغلهما الأبواب والمحلات والمقاهي. ويوجد في منتصف الجهة الرابعة المقابلة للشرق بابٌ يُدخل منه إلى الباحة التي ما زالت تضمّ عدة أجنحة ترتفع عن الأرض قدمين أو ثلاثة أقدام، كي يستقلّ الأشخاص عن الدّواب، وكل شقة منها لها مدفأتها، ويوجد منها على المحيط، خلف قناطر الباحة الأولى، وفي نهاية المطاف فهو تقريباً مثل خان القطيفة، لكنه ليس على نفس القدر من الجمال.

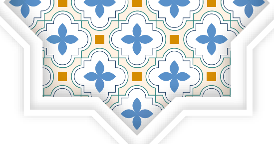
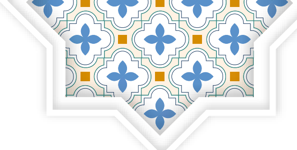
في وسط الباحة يوجد مسجد صغير مربَّع الشكل، مغطًّى بقبّة مكسوّة بالكلس، وبقربه يوجد مورد ترويه بشكل مستمرّ ثلاثة أحواض بماء رقراق يجري في مكان قريب إلى حدّ ما من الخان. ومن الباحة الثانية، يتمّ الدخول إلى مكان يُقال إنه القصر وهو مبني من حجارة الدّبش، لكن ليس له شكل قصر، فهو مجرد ميدان محاط بأسوار منخفضة إلى حدّ ما، ومع ذلك فالكثير من العائلات ومعظمها من اليونان (الرّوم) تقطن فيه.

وتقع على بعد خمسين خطوة من هذا الحصن المزعوم قرية صغيرة، لا تُرى إلا بالمصادفة، مثلما حدث معي عندما كنت أتمشى، لأنه يوجد عشرون منزلاً تقريباً، يبلغ ارتفاعها مقياساً واحداً، ومبنية بالتراب في حفرة مربعة وعميقة، لدرجة أن أسطحة المنازل وشرفاتها بحاجة إلى أكثر من مقياسين أو ثلاثة لتصل إلى مستوى القرية، وعندما أقف على حافة هذه الحفرة، تبدو المنازل منخفضة إلى حدّ أنني أظن في البداية أنها مقلع حجارة.

غادرنا حسيا يوم الجمعة في الخامس والعشرين من شهر أبريل، قبل ثلاث ساعات من طلوع النهار، عند الفجر، والتقينا بقافلة من البغال تنقل إلى دمشق حجّاجاً يريدون الذهاب إلى تلك المدينة من أجل السفر إلى مكة. بعد ذلك بقليل مررنا قرب قصر يُدعى شمسين.

من ثم تابعنا مسيرنا باتجاه الشمال في سهل واسع مليء بنبات البروق والرانونكول وشقائق النعمان ونبات السّرمج والزّوفا وأوراق الليتيو ونبات الأنارف الكبير، والعديد من أنواع الزهور الأخرى، التي يجعل منها تنوعُها وكثرتها مُتعةً للنظر. نجد أيضاً في هذا البلد كمية من الهارمولان، الذي رأيت الكثير منه في كل مكان من الأمكنة التي مررت فيها في آسيا.

وصلنا إلى حمص قبل الظهر وخيّمنا في ساحة على طول المدينة قريباً من المدفن. يظن السكان أن هذه المدينة كانت مدينة أيّوب، وعندما مررتُ رأيت القصر المتربّع على هضبة بيضاوية الشكل، تضيق كلما اقتربنا من القمة، ومغطاة بالعشب، لكنها شديدة الانحدار لدرجة الظّن أنه ليس هناك سوى طريق واحد يمكن تسلُقُها منه، وفوق الهضبة بُني أيضاً عن قصد قصر متصدّع في بعض الأمكنة، وكل القصور في هذه المناطق مبنية على الهضاب. رأيتُ بوضوح أن المدينة طويلة، لكن هذا كل

ما تمكّنتُ من ملاحظته؛ لأن المكاري جعلني أُقيم في خيمة أحد أصدقائه لتجنّب دفع الإتاوة البالغة عشرين قرشاً، حتى إنه أراد أن أضع عمامة بيضاء قبل الوصول إلى المدينة كي أُوهم الناس أنني تركيّ، لكنني لم أكن أريد أن أفعل شيئاً من ذلك.

يضمُّ هذا السّهل الذي خيّمنا به العديد من الأضرحة القديمة، على شكل هرم، ومن بينها ضريح أظن أن بولون Belon وبييترو دلاّ ڤالّه لاحظا وجود نقوش عليه، لكن بما أنني لم أذهب سوى بعد غروب الشمس، لا أستطيع أن أقول شيئاً. ويوجد في هذا المكان كاشف Cachef عيّنه باشا دمشق.

غادرنا حمص، يوم السبت في السادس والعشرين من شهر أبريل، بعد منتصف الليل بقليل وتابعنا المسير باتجاه الشمال، عبر السّهل ذاته الذي سرنا فيه البارحة، وحوالي الساعة الثامنة صباحاً مررنا قرب قرية صغيرة اسمها الرَّسْتَن يتوسَّطها مسجد مغطًّى بقبّة مكسوّة بالكلس. وعلى بعد بضع مئات من الخطوات وجدنا وراءه جسراً حجريّاً جميلاً، مبلّطاً بحجارة ضخمة، وللوصول إليه مررنا من أمام خان ممتدّ على طول النهر ويحيط به من كل زاوية برج دائري، ويوجد في الوسط مسجد مغطًّى بقبة مكسوّة بالكلس.

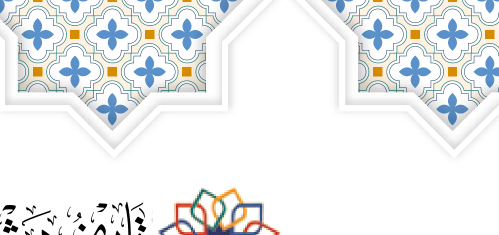
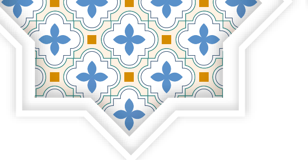
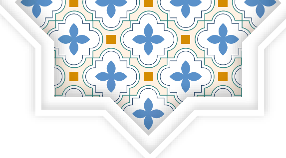
مررنا بعد ذلك بالجسر المسمى جسر الرَّستن Dgeser Restan. أظن أن هذا الجسر سُميّ على اسم القرية، لكن قيل لي إنّ النهر أيضاً يسمى الرَّستَن، رغم أن اسمه أصلاً العاصي Asi، أي المتمرّد، لأنه حسب ما قاله لي أحد ركاب القافلة، مياه هذا النهر سريعة جدّاً وبشكل رئيسي في هذا المكان. لهذا الجسر عشر قناطر عرضها أكثر بقليل من مقياس، وأكثر ارتفاعاً بقليل، ويمرّ تحته نهر العاصي (الأورونت Oronte قديماً)، وقبل الوصول إليه ثمّة جزيرتان صغيرتان على شكل حدائق بالغة الجمال. ويوجد مقابل نصف الجسر، من جهة الخان بناء مربّع ضخم وسط المياه، تخترقه في الجهة المقابلة خمس قناطر من الجسر، مما يسمح بمرور المياه من هناك، وعند خروجها من الجهة الأخرى تُشكّل شلالات جميلة، بحيث تبدو وكأن في قلبها بضع طواحين، لكنني لا أسمع ضجيجها أبداً. يشغل النهر في هذا المكان عرض الجسر، لكنه يضيق بعد ذلك بمقدار ستة أو سبعة مقاييس، وكما في السابق وأقل أيضاً، يمرّ متعرِّجاً بين الجبال ويروي سفوحها، لكن المياه فيه مُوحلة.

بعد أن اجتزنا الجسر غادرنا هذا النهر كي نتجه نحو الشمال، ورأينا عدّة رقاع من الأراضي الجرداء؛ وبعد ساعتين لمحنا حماة التي بلغناها بعد الظهر.

حماة هي أفاميا السّورية القديمة[45]، وهي مدينة كبيرة تقع على منحدر هضبة ولها باشا وقصر. ومسايرةً للمكاري Moucre، أقمتُ مثل اليوم السابق في خيمة صديق، وراء المقبرة حيث تُخيّم القافلة، وذهب هو ليخيّم في جهة أخرى من أجل أن يكسب الكفّارة caffare. واستدعاني بعد غروب الشمس، فاجتزتُ الجسر حيث توجد النواعير التي تحدّث عنها بيير بولون Pierre Belon وبييترو ديلاّ ڤالّه Pietro della Valle والتي تجرّ المياه وتحملها إلى كافة أرجاء المدينة، ونهر العاصي هو الذي يمر من هنا أيضاً، لكني لا أعرف كم هو عدد القناطر الموجودة، لأن الوقت كان

---

[45] ليس هذا بصحيح، **فأفاميا القديمة Apamea** ما تزال موجودة ومعروفة في محافظة حماة.

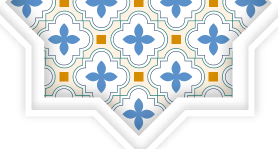
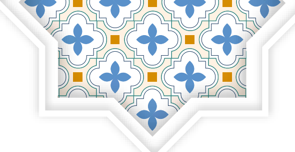
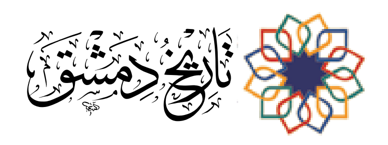

ليلاً عندما وصلت. كان المكاري يخيّم في مكان قريب لدرجة أننا كنا نستمع طوال الليل إلى موسيقى النواعير التي بدت عندما امتزجت بموسيقى أجراس بغالنا التي تصدرها عندما تأكل، كموسيقى أجراس كنيسة أجهر صوت فيها صوت النواعير.

غادرنا حماة يوم الأحد ٢٧ أبريل عند الفجر، تاركين قافلة البارود في حماة، حيث تنفصل الطريق الموصلة إلى القسطنطينية عن تلك المؤدية إلى حلب، تابعنا المسير باتجاه الشمال، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى نهر العاصي، لكننا غادرناه فوراً واتجهنا يميناً بين الجبال، وما إن سرنا فيها مدة نصف ساعة حتى دخلنا في سهل مترامي الأطراف على مدّ النظر، غزير بالمراعي النضرة. وفي الساعة الثامنة مررنا مقابل قرية تدعى طيّبة حماة Taïbit el Hama وعند الساعة العاشرة عبرنا بقرية أخرى اسمها Lacmi، لكنها مهجورة بسبب أعمال الغزو. ثم عند الساعة الحادية عشرة عثرنا على بضعة أشجار، ولم أرَ منها قدماً واحداً من دمشق وحتى هنا، باستثناء حدائق المدينة والقرى، والخشب أيضاً غالٍ جداً على هذه الطريق. من المؤكد أن الجَمال في هذا البلد ليس أجرد لهذا الحدّ.

بعد ذلك بقليل وحوالي الظهر، وصلنا إلى خان شيخون وخيّمنا مقابلها، وجدنا أنه من الأفضل لنا البقاء خارجاً تحت خيمة بدل الإقامة في الداخل، ورغم أن هذا هو الخان الوحيد، فهو مبني بشكل جيد إلى حدّ ما. يتم الدّخول إليه عبر باب مواجه للغرب، وعند الدخول نجد في باحة كبيرة مربعة باباً صغيراً في الجهة اليمنى، يُؤدّي إلى إصطبل، يقسمه عرضاً إلى قسمين صفٌ من القناطر الممتدة على كامل الطول، إنما لا يوجد أي سقف. وفي الطرف الآخر من الباحة، مقابل هذا الباب تقريباً، هناك منزل مسكون، وإلى اليسار في وسط الجدار باب كبير، ندخل من خلاله إلى باحة أخرى تماثل الباحة الأخرى في كبرها، ويوجد فيها نُزل لإيواء النّاس. ونرى فوق باب الباحة الثانية بناءً ضخماً مربَّعَ الشكل مبنيّاً إلى حدّ ما على شكل برج، ويوجد حصن في الأمام، وقبّة الجامع في الوسط حيث يعيش الآغا، لأن هذا المكان تابع لپاشا حلب.

وبالتوجه شمالاً، توجد خلف تلة، على بعد بضعة مئات من الخطوات، قرية تحمل نفس اسم الخان. غادرنا هذا المكان في اليوم ذاته، في الساعة العاشرة مساءً، ووجدنا على طريقنا أثناء الليل كمية من صهاريج قليلة العمق محفورة على تلال صغيرة لتلقّي مياه المطر، وعلى سفح التلة يوجد جُبّ آخر يُنزل منه مسافة ثلاث أو أربع خطوات للوصول إلى الماء من أجل استخراجه، وسبق أن وجدنا بعضاً منها في اليوم السابق، ويستخدمها العرب والرُعاة.

في اليوم التالي، الإثنين ٢٨ أبريل، مررنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل أمام خان مهدّم يدعى خان حرتة Han Hherte، وعند بزوغ النهار وصلنا إلى مدينة المعرّة، وخيّمنا أمام الخان بالضبط. لا تستحق هذه المدينة أن تكون قرية جيدة، فقد وجدنا صعوبة في الحصول على الخبز، ولا يوجد في كافة أرجائها سوى مقاهٍ وقباب مهدّمة، وأجمل ما فيها الخان المبني بحجارة منحوتة. إنه باحة كبيرة مربعة يحيط بها رواق ذو مَصاطب، وبما أنني مراراً ما أستخدم هذه العبارة، وهي كلمة خاصة بهذه البلد، يبدو لي أنني سبق وشرحت معناها، فإنني ومن أجل التبيان للقارئ سأشرحها هنا أيضاً: فالمصطبة نوع من المنصّة، أي أن البلاط يرتفع قدمين أو ثلاث أقدام عن الأرض، وهنا يُقيم

السّيّارة. وفي منتصف هذا الفناء يوجد مسجد له قبّة مغطاة بالرّصاص، وفي طرفه فناء صغير مربّع الشكل يمتدّ حوله رواق يستند سقفه من كل جهة إلى قنطرتين يفصلهما عمود يقع بينهما، وفي مكان قريب جداً يوجد حمّام ذو قبّة ضخمة مكسوة بالرّصاص، لكنه مغلق ولا فائدة منه لعدم وجود الماء.

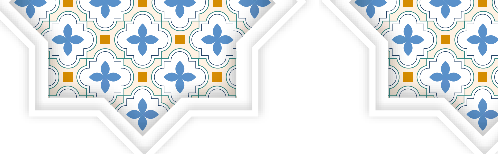
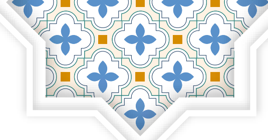
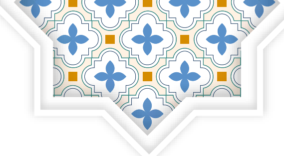
تجدون بعد ذلك شارعاً مغطًّى فيه مقهى، وخمسة أو ستة محلات في كل جهة، وفي طرفه نرى أربع قناطر وهي ما تبقى من مجرى مياه يُشكّل تقريباً زاوية قائمة في قناطره الأربع، وقد سيقَ من مسجد موجود في الرّيف على بُعد بضع مئات من الخطوات، حيث توجد ناعورة تجرّ المياه من جدول يمرّ هناك، وهذا الجدول آت من أنطاكية. يجرّ هذا المجرى المياه من خلف أعلى الشارع المغطَّى إلى الحمّام المتصل بالدّرب من جهة وبالخان من جهة أخرى، وهو مبنيّ بالدّبش كالقناطر المتبقية أيضاً، المتصلة من الجهة الأخرى بالجامع الكبير، ولهذا الجامع ستُ قباب صغيرة مكسوّة بالكلس، وفي طرفه مئذنة جميلة نوعاً ما.

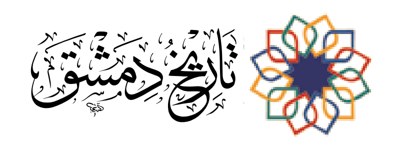
وكل ما تبقى من المدينة تعيس، وما زال يوجد خان لم يتبقَّ منه سوى الباب وبضع قناطر تتلاشى يوماً بعد يوم بسبب عدم إضافة بعض الحجارة إليها. المنازل مبعثرة هنا وهناك مثل قصور مهجورة، ترتفع أسوارها مسافة قدمين أو ثلاث أقدام، مركبة من عدّة حجارة موضوعة الواحدة فوق الأخرى دون أي شيء اصطناعي، ونرى في جميع الجهات الكثير من الحجارة المنحوتة الكبيرة والضخمة جدّاً، وأجزاء من أعمدة مازال بعضها يحمل قطعاً منقوشة. وما بين هذه الحجارة القديمة رأيتُ باباً، يبلغ ارتفاعه تقريباً أربع أقدام، وسماكته نصف قدم، نُقشت عليه صلبان وورود، وصُنع من قطعة واحدة، وله مفصّلات تدخل في ثقوب حُفرت عمداً في الأعلى وفي الأسفل. والباب من الحجر الضارب إلى اللون الرمادي، شديد الصّلابة، على غرار العضادة التي يُرتج عليها، ولا يمكن إلا لرجلين أن يفتحاه أو يغلقاه؛ وما زال حتى الآن على حاله ويستخدم باستمرار.

من المؤكد أن المعرّة كانت في الماضي مدينة جيدة، لكن الطغيان التركي كان سبب خرابها؛ يقولون إنه ما زال يوجد بقية كنيسة بناها المسيحيون في العصر الذي كانوا فيه أسياد هذه المدينة، لكن لبُعدها عن القرية لم أذهب إليها أبداً. يدفع الفرنجة في هذه المنطقة إتاوة قدرها أربعة قروش، وتوقَّفنا طيلة هذا النهار لأن الأتراك كانوا يحتفلون بالبَيرَم، باعتبار أن القمر ظهر مساء أمس.

لم نغادر إلا في يوم الثلاثاء في ٢٩ أبريل في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل، مررنا عند طلوع النهار أمام خان يسمى خان مرعي Han Meraï، يوجد بقربه قرية جميلة، وبعد ساعة تقريباً وجدنا واحداً آخر اسمه خان حربة Han Herbe، وقرية قريبة جدّاً منه، وغير بعيد عنه خان ثالث. وعند الساعة الثامنة صباحاً، خيّمنا قرب خان آخر يُدعى خان سراقب. الخانات الثلاثة الأخرى، بالإضافة إلى هذا الخان جميعها تُدعى خان سراقب، وتَعني خانات الآبار، بسبب وجود عدة آبار في القرية قرب هذه الخانات، وفتحات هذه الآبار على مستوى القرية؛ لكن الخان الأخير سُميّ بشكل خاص خان سراقب. وهو في حالة سيئة، ومعظم القباب مهدمة، يوجد بلدة قريبة منه. وقد رأينا في هذا الطريق كميات من شجر الزيتون، وهي المرة الثانية التي نصادف فيها شجراً من دمشق.

غادرنا هذا المستراح في نفس اليوم فور غياب الشمس، وعند الساعة العاشرة مساء مررنا من





أمام قرية اسمها زربل Zarbel وفيها خان. وفي هذا المكان تلقَّينا إنذاراً، لأن الشخص الذي يسير في المقدمة، حاملاً القنديل، صرخ قائلاً بأنه رأى فرساناً، مما يدعو للاستعداد من أجل استقبالهم كما يجب، لكنهم لم يأتوا أبداً.

ويوم الأربعاء في الثلاثين من شهر أبريل، مررنا عند الفجر أمام خان تومان، وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى مدينة حلب، وما إن وطئت قدماي أرضها، حتى صرت داخل الخان الكبير، مقيماً لدى المسيو بيرتيه Bertet، أحد أشرف الرّجال الذين يمكن أن يلقاهم المرء، ومن أكثرهم حميّة لخدمة أصدقائه على غرار ما يفعل السّادة إخوته الموجودون حالياً في مرسيليا، والذين كان لهم جميعاً عليَّ أفضال جُلّى.

لقد سرّني المسيو بيرتيه Bertet، الذي يعيش في حلب، بآرائه واهتمامه. ولقد قدّمتُ الشكر للمسيو بارون[٤٦] Baron الذي تكرّم بإعطائي مسكنه. كان المسيو بارون آنذاك قنصل فرنسا في تلك المدينة، وقد مارس مهامه باستقامة، وذلك بشهادة جميع الناس[٤٧].

ـ الخاتمة:

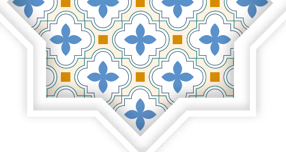
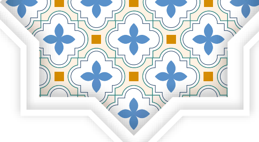
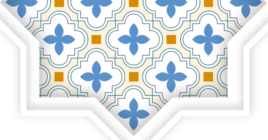
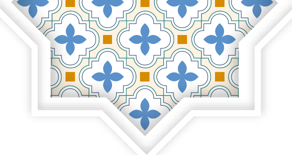
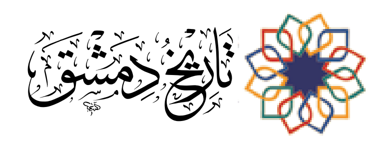
إنَّ رحلة جان دى تيڤنو غاية بالأهمية، ونبهتنا إلى ضرورة استكمال نشر أو ترجمة الرحلات الخاصة بدمشق، لما لها من أهمية توثيقية بالغة، وأختم بشهادة لرحَّالة آخر بهرته دمشق هو الفلورنسي ليوناردو فريسكوبالدي ـ Leonardo Frescobaldi (ت ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م) الذي كتب في عام ٧٨٧هـ = ١٣٨٥م: «إنَّ جميع الشَّوارع الواقعة داخل أسوار المدينة تُنيرها في اللَّيل مصابيح معلَّقة فيها. ودُورها مرتفعة ومبنيَّة من الخشب الَّذي لا يظهر للعيان، إذ إنَّ جُدُرها الدَّاخليَّة مطليَّة باللَّون الأزرق الفاتح، وأرضها مكسوَّة بالفُسيفساء. وتندر الدُّور الَّتي ليس بها نوافير منحوتة من الرُّخام، والَّتي هي متعة للنَّاظرين. أمَّا شوارع المدينة فتغصُّ بالنَّاس كما هي شوارع فلورنسا يوم عيد القدِّيس يوحنَّا. وكما أنَّ المدينة مزدحمة بالسُّكَّان فشوارعها مكتظَّة بالتُّجَّار والصنَّاع. وما يُصنع بدمشق هو أكثر ممَّا يُصنع في أيِّ مكان آخر في الدُّنيا، سواء في ذلك الأقمشة الحريريَّة والقطنيَّة والكتَّانيَّة والذَّهب والفضَّة والنُّحاس من جميع الأصناف»[٤٨].

---

(46) ظل هذا الاسم معروفاً حتى أيامنا، فثمّة فندق شهير وعريق بحلب يُدعى فندق بارون.

(47) يلي هذا النص الفصل السّابع الذي يضم ملاحظات تيڤنو عن حلب، لكننا سنؤجله إلى الترجمة الكاملة لتتمّة رحلات جان دى تيڤنو، بإذن الله.

(48) دمشق في عصر سلاطين المماليك، ص31 - 35.

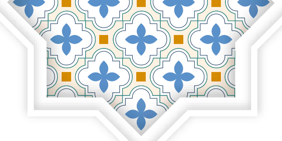
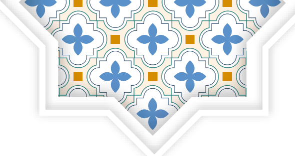



The Mufti of Damascus

Mahmud Effendi al-Hamzawi

(18201887-): His biography and role in the events of 1860.

Dr.Sami Moubayed

مُفتي الشام محمود أفندي الحمزاوي

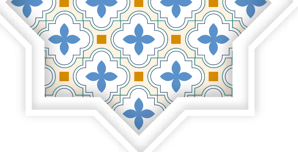
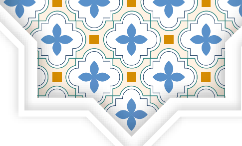
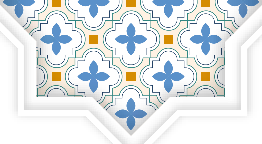
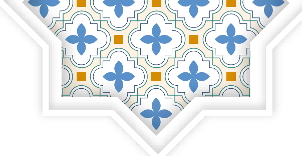
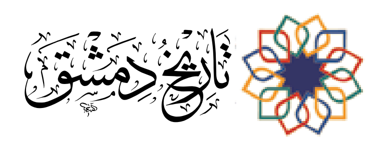
(١٨٢٠-١٨٨٧م / ١٢٣٦ - ١٣٠٥هـ)

حياته وعصره

ودوره في أحداث عام ١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ

الدكتور سامي مروان مبيِّض[١]

[1] رئيس مؤسسة تاريخ دمشق.

ملخص البحث

محمود أفندي حمزة، المعروف بالحمزاوي، كان أحد أعياد دمشق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد أدى دوراً مهماً ومحورياً في حماية المسيحيين خلال الأحداث الدامية التي شهدتها المنطقة سنة ١٨٦٠م = ١٢٧٧هـ، ولكن معظم المراجع والكتب التاريخية لم تعطه حقه، وفضّلت الحديث عن صديقه وجاره، الأمير عبد القادر الجزائري. يحاول هذا البحث إبراز الدور الذي أداه الحمزاوي يومها، ونشاطه في مرحلة لاحقة من عمره، بعد تعيينه مفتياً على المدينة سنة ١٨٦٨م = ١٢٨٥هـ. أيد العقاب الجماعي الذي فرضه العثمانيون على أهالي دمشق، وتحالف لاحقاً مع مدحت باشا، عند توليه الحكم في دمشق سنة ١٨٧٨م = ١٢٩٥هـ، لنشر العلم وافتتاح المدارس الحكومية بدلاً من الكُتَّاب والدروس القرائنية التي كانت سائدة في حينها . وقد اصطدم مع المحافظين من أهالي مدينته بسبب أفكاره المتحررة، ومن ثم مع السلطات العثمانية عند اتهامه بالضلوع في ثورة على السلطان عبد الحميد الثاني. قامت السلطات العثمانية بتحييده وسحب معظم صلاحياته، ولكنه بقي في منصبه مفتياً عاماً على المدينة حتى وفاته سنة ١٨٧٨م = ١٢٩٥م.

Research Summary

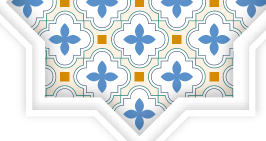
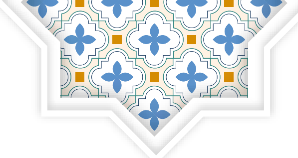
Mahmud Hamza, or often known by his original name “al-Hamzawi,” was a Damascene notable of the 19thCentury who played an important and yet forgotten role in the sectarian events of 1860. Most writings of these events focus mainly on the role of his friend and neighbor, Emir Abdul Qader El Djezairi. Here we reveal how these two men collaborated to save the Christians of Damascus, and how Hamzawi rose to become mufti of Damascus in 1868. In a later period of his career, Hamzawi allied himself with the Ottoman governor Midhat Pasha, and together they brought formal schooling to the children of Damascus.

_ تمهيد:

حدثت في عام (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ) فتنةٌ كبيرة في حارات دمشق القديمة، بين المسيحيِّين والمسلمين، امتدت من منطقة باب توما إلى بعض حارات القيمرية، وسقط فيها عدد كبير من القتلى من الطرفين، وكان بين القتلى عدد كبير من المسيحيين الوافدين من جبل لبنان وقرى سهل البقاع.

وقد كُتب الكثير عن هذا الفصل الدامي من تاريخ المشرق، الذي بدأ في لبنان وانتهى بدمشق، واحتفل العالم بالدور الذي أدّاه نزيل دمشق في حينها الأمير عبد القادر الجزائري، في تأمين حماية أهالي المدينة المسيحيين، ففتحَ لهم قصرَه في زقاق النقيب، خلف جامع بني أميَّة الكبير، وآواهم فيه.

ولم يكن الأمير عبد القادر الجزائري وحيداً في هذه المهمَّة، بل كان هناك عدد من أعيان دمشق ووجهائها، شاركوه في إخماد الفتنة وحماية المسيحيِّين، ولكن بقي دورُهم منسيّاً، ولم ينل أحدٌ منهم




الثناء العالمي نفسه الذي حظي به الأمير الجزائري، ومن أهم الذين آزروا الأمير عبد القادر، وأُغفِلت جهودُهم الشيخ محمود الحمزاوي.

أولاً _ إغفال دور الشَّيخ الحمزاوي وأسباب ذلك:

كان الشَّيخ محمود أفندي حمزة (١٨٢٠-١٨٨٧م / ١٢٣٦ - ١٣٠٥هـ)، الشهير بالحمزاوي، عضوَ مجلس ولاية دمشق، في أيام الفتنة المذكورة، وأدَّى دوراً رديفاً ومُتمِّماً لدور الأمير عبد القادر في ذلك الصيف المُظلم من تاريخ بلاد الشّام.

لقد جال الحمزاوي على حارات المدينة الموشَّحة بالسواد، بحثاً عن الأحياء من المسيحيِّين، وقام بنقلهم إلى مسكن آمن، إما في قلعة دمشق، أو في داره المجاورة لدار الأمير عبد القادر.

وقام هذا الرجل باستعمال النفوذ الواسع الذي كانت تتمتَّع به عائلة الحمزاوي، والسمعة الطيِّبة التي كان يَحظى بها هو شخصيّاً، فطافَ على المسلمين يكفُّهم عن إيذاء إخوتهم المسيحيِّين، ويلومُهم على الدخول في الفتنة، مبيِّناً لهم أنَّ تصرُّفَهم هذا يُغضب رسول الله ولا يُرضيه أبداً.

وكذلك وقف الحمزاوي على أبواب الكنائس والأديرة يُنادي بالخروج الآمن لمَن فيها، من الرهبان وعامة الناس، قائلاً لهم: «لا تخافوا واخرجوا بأمان ... فأنتم بحمايتي مَن بعد حماية ربِّ العالمين».

ونتيجة لهذا الموقف حصل الحمزاوي يومها على بُندقية صيد مطليَّة بالذهب، هدية من نابليون الثالث، اعترافاً بموقفه الإنساني الشجاع[٢]، في الوقت الذي كانت الهدايا تنهال على قصر الأمير عبد القادر من كلِّ قادة العالم:

_ إذ أرسل له الرئيس الأمريكي أبراهام لينكون مسدسين حربيَّين مَطليَّين بالذهب، اعترافاً به حامياً لمسيحيِّي الشرق.

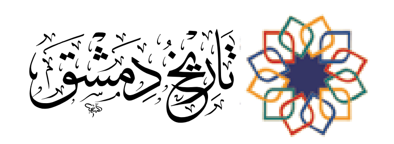
_ وقلَّده الحبر الأعظم في الفاتيكان قلادة نفيسة.

_ وأرسلت له ملكة بريطانيا سيفاً.

---

(2) **سيرة محمود أفندي حمزة:** خليل مردم بك.





ـ ومُنح وسامَ شرف من إمبراطور فرنسا.
ـ وفي عام ١٩١٥م / ١٣٣٤هـ سُمِّيت مدينة في ولاية أيوا الأميركية باسمه، مع منحة دراسية في جامعة فيرجينيا.
ـ ومُؤخَّراً، صار كرسي حقوق الإنسان في الأمم المتحدة يحمل اسم الأمير عبد القادر الجزائري، وقد نُصب له تمثال برونزي في إحدى قاعاتها.

أما الشَّيخ الحمزاوي، فكان نصيبه من العطايا تلك البندقية الفرنسيّة اليتيمة، تبعها عدة مناصب أوصلته بعد سبع سنوات إلى منصب مفتي دمشق، الذي بقي فيه حتى وفاته عام (١٨٨٧م / ١٣٠٥هـ).

وأمام هذا الواقع، وقلَّة المراجع التاريخية ونُدرتها عن سيرة محمود الحمزاوي، يحاول هذا البحث تسليط الضوء على حياته ودوره في أحداث عام (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ)، كونه أحد الأعيان المنسيِّين والمُغيَّبين عن تاريخ المدينة الحديث.

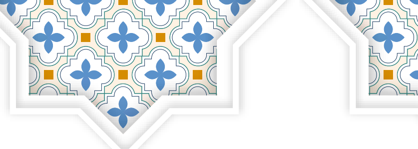
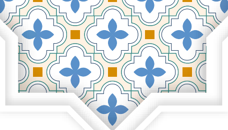
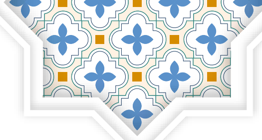
ولا يُمكننا تحديد سبب غياب اسم الحمزاوي عن كتب التاريخ المدرسية السورية، التي طُبعت في دمشق منذ سنة ١٨٦٠م، وإنما يُمكن إرجاع السبب إلى أحد الاعتبارات التالية:
ـ فقد يكون ذلك بسبب موقفه الناقد لأهالي مدينته من المسلمين، أبناء جلدته الذين وجَّه إليهم الحمزاوي أشدَّ اللَّوم، وحمَّلهم مسؤولية ما حلَّ بهم وبمدينتهم، وعدَّهم مخطئين بحقِّ اللّٰه ورسوله.
ـ وربَّما لأنَّه لم يُدافع عن المتورِّطين في الفتنة، ولم يتوسَّط في العفو عنهم، بل أثنى على قرارات الإعدام والاعتقال التي صدرت عن الدولة العثمانية يومها، وهذا خلقَ له الكثير من الأعداء بين الدمشقيِّين، وتحديداً لدى العائلات الكبرى.
ـ وقد يكون هذا النسيان المُنهج ناتجاً عن خلافه مع السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م / ١٢٩٣ – ١٣٢٧هـ) في مرحلة مُتقدِّمة من حياته، والذي أدَّى إلى تراجع كبير في نفوذه داخل المجتمع الدمشقي.
ـ ومن ثَمَّ جاء نظام الانتداب الفرنسي الذي فُرض سنة (١٩٢٠م / ١٣٣٩هـ)، وقام بضرب الكثير من العائلات الدينيَّة العريقة في دمشق، ومنها عائلة الحمزاوي، كما حاول التقليص من سطوتهم ونفوذهم الواسع في المجتمع، لكونهم من أشد المعارضين للجمهورية الفرنسية وسياساتها العلمانية في الشرق الأوسط.

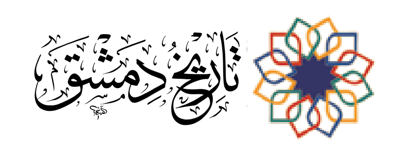
وفي النتيجة: فإنَّ الحمزاوي لم يُذكَر إلَّا في كتب تراجم القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري، وهي قليلة، ولم يُطلَق اسمُه لا على ميدان ولا على شارع في المدينة التي عاش فيها طوال حياته، وعَمل جاهداً على رفعتها ونفض غبار الجاهلية عنها.

ثانياً ـ البداية والأسرة:

وُلد محمود الحمزاوي في دمشق سنة (١٨٢٠م / ١٢٣٦هـ)، وهو سليل إحدى أقدم الأُسر الدمشقية التي جاءت إلى سورية قادمة من مدينة حرَّان في مطلع القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري.

استقرَّ أجداد الحمزاوي، وهم من أتباع المذهب الحنفي، في حيِّ العمارة خلف الجامع الأموي،



ونظراً لنسبهم الشريف إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، عبر ابنته فاطمة الزهراء، حصلوا على نقابة الأشراف ابتداءً من عام (٩٤١م / ٣٣٠هـ)، وتوارثوها عبر الأجيال[٣].

وكانت نقابة الأشراف مُكلَّفة بصيانة ذوي الأنساب الشريفة، ومنع دخول مَن ليس منهم على مجتمعهم المحافظ.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي / الثاني عشر الهجري كان عدد أشراف دمشق لا يتجاوز ٥٠٠ فرد، ولكنَّه وصل إلى حدود الألفي نسمة مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر الهجري[٤].

وحصل الأشراف ونقيبُهم على عدة مزايا في الدولة العثمانية، مثل إعفائهم من الخدمة العسكرية ومنحهم عائداً سنوياً من الأوقاف، مع معونات عينيَّة من الباب العالي خلال موسم الحج، كانت تصلهم مباشرة من إسطنبول[٥].

وتولَّى أبناء أسرة الحمزاوي ــ إضافة إلى نقابة الأشراف ــ التدريسَ في مدارس القيمرية، والقيام على مقام رأس الحسين داخل الجامع الأموي[٦].

وقد وصل أحد أبناء هذه الأسرة في القرن السابع عشر الميلادي / الحادي عشر الهجري، وهو الشَّيخ إبراهيم الحمزاوي (١٦٤٤-١٧٠٨م / ١٠٥٤ – ١١٢٠هـ)، إلى منصب نائب قاضي مدينة دمشق.

سكن مُعظم أبناء هذه العائلة في حارة ضيِّقة خلف الجامع الأموي، أُطلق عليها اسم «زقاق النقيب»، وأحياناً كانت تُسمَّى بحارة الحمزاوي، وهو اسم شائع ومُتعارف عليه شعبيّاً حتى اليوم[٧].

وأما عن اختلاف تسمية الأسرة بين «حمزة» و«الحمزاوي» فيقول السيد قتيبة مردم بك، حفيد محمود الحمزاوي، أن ذلك جاء بسبب ظهور أسرة جديدة باسم «حمزة» لم يكن أبناؤها من الأشراف، فقرَّر جدُّه اعتماد اسم «الحمزاوي» للتميُّز عنهم، وعُرفت العائلة من يومها بالحمزاوي[٨].

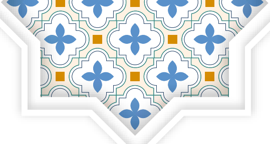
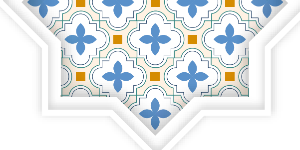
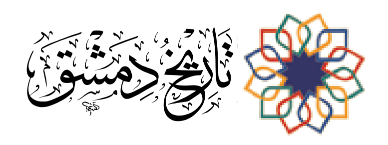
ثالثاً ــ وصول الحمزاوي إلى مجلس الولاية الكبير:

كان جدُّ محمود الحمزاوي ناظراً للجامع الأموي، أما والده نسيب (١٧٦٨-١٨٤٨م / ١١٨٢ – ١٢٦٥هـ) فقد كان عالماً مرموقاً ووجيهاً معروفاً، انتُخب نقيباً للأشراف وعُيِّن عضواً في مجلس ولاية دمشق منذ العام (١٨٤٠م / ١٢٥٦هـ) وحتى وفاته سنة (١٨٤٨م / ١٢٦٥هـ)[٩].

اكتسب نسيب الحمزاوي شهرة واسعة عام (١٨٣١م / ١٢٤٧هـ)، عند مشاركته في ثورة على الوالي العثماني سليم باشا، الذي حاول فرض ضريبة عقارية على أهالي دمشق من المُسلمين، عُرفت بالصليان، مما أدى إلى عصيان مُسلح ضدَّه، انتهى بمقتل الوالي في سوق العصرونية[١٠].

---

[3] **أصول الأنساب الدمشقية:** عبد الكريم الحمزاوي، 21.
[4] **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:** ليندا شيلشر، 154.
[5] **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر:** ليندا شيلشر، 154.
[6] **مُنتخبات من التواريخ لدمشق:** تقي الدين الحصني، 810.
[7] **أصول الأنساب الدمشقية:** الحمزاوي، 48.
[8] لقاء المؤلف مع قتيبة مردم بك، من أحفاد الشّيخ محمود الحمزاوي (دمشق، 21 تشرين الثاني 2020).
[9] **روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر:** محمد جميل الشطي، 352-353.
[10] **ثورة الدمشقيين سنة 1831:** محمد خالد صافي، 77-79.

وأدّت هذه الثورة إلى فراغ في مركز الحكم بدمشق، قام باستغلاله والي مصر محمد علي باشا، فأرسل جيشاً جرّاراً إلى سورية بقيادة ابنه إبراهيم باشا، فاحتلّها وفرض عليها الحكم المصري، الذي دام حتى سنة (١٨٤٠م / ١٢٥٦هـ).

وهنا سارع نسيب الحمزاوي إلى دعم المصريين، ونظَم قصيدة مديح عصماء بحق محمد علي، قبل أن ينفصل عنه ويعود إلى كنف الدولة العثمانية عند عودتها إلى حكم سورية سنة (١٨٤٠م / ١٢٥٦هـ)[١١].

ولكنَّ مدَّة الحكم المصري ألقت بظلالها على العثمانيين، الذين أُجبروا على اتّباع نهج إصلاحي في الحكم، عُرف بعهد التنظيمات، بدأ في عهد السلطان الشاب عبد المجيد الأول (١٨٣٩ – ١٨٦١م / ١٢٥٥ – ١٢٧٧هـ)، واستمرَّ في عهد شقيقه الأصغر السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦م / ١٢٧٧ – ١٢٩٣هـ).

كان إبراهيم باشا، أكبر أبناء محمد علي، قد عمل جاهداً على تطوير النظام الإداري والتعليمي في دمشق، فأمر بفتح المدارس وجعل التعليم الأساسي إلزاميّاً ومجانيّاً، وأعطى الكثير من الحقوق للمسيحيين السوريين، الذين باتوا شركاء في الحكم طوال فترة وجوده في سورية، فسمح لهم مثلاً بالاحتفال بأعيادهم الدينية، وباعتماد التقويم المسيحي، وصار بوسعهم ترميم كنائسهم دون الرجوع إلى السلطات المُسلمة، كما ألغى شرط تميُّزهم عن المسلمين بلباس كحلي داكن اللون، كان يُفرض عليهم منذ عصر المماليك (٦٤٨- ٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)[١٢]، وأخيراً، سمح لهم ببناء الكنائس ودخول الجيش، حيث أغدق عليهم بأعلى الرتب والأوسمة.

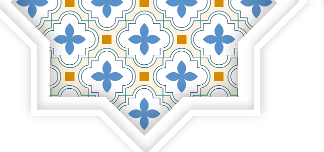
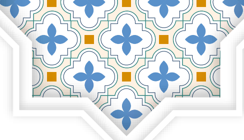
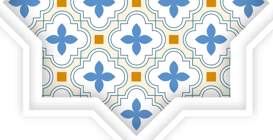
وقد أدَّت هذه الإصلاحات المصرية إلى صدور إرادة سلطانية، عُرفت بالخط الهمايوني، تكفَّلت بحماية الرعايا المسيحيين، بمالهم وعرضهم وحياتهم، في محاولة جادة من الباب العالي لخلق مجتمع مُتجانس لا يُفرِّق بين الأديان، هويته الجامعة هي الهوية العثمانية، وولاؤه للسلطان وحده دون غيره. وأُلغيت كلمة «نصراني» أو «ذمي» من السجلات الحكومية في دمشق، واستُبدلت بكلمة «كريستياني من رعايا الدولة العثمانية»[١٣].

ومن ضمن هذه الإصلاحات جاء مجلس ولاية دمشق، الذي شُكِّل في كانون الثاني (١٨٤٠م / ١٢٥٦هـ)، وكان يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع الواحد لمتابعة أمور المدينة والبت في شؤونها. وقد أُعطيت صلاحيات واسعة جداً لهذا المجلس، فصار مُستقلاً عن الوالي، له حرية اتِّخاذ القرار وجباية الضرائب ومراجعة الأمور القانونية والعسكرية كافة.

وهنا: كان نسيب الحمزاوي، والد محمود، عضواً في مجلس ولاية دمشق، معيَّناً بصفته نقيباً للأشراف، وكانت مُهمته فيه إدارة معونات الفقراء.

لم يكن لهذا المجلس رئيس في سنواته الأولى، وكانت الرئاسة تنتقل أسبوعيّاً بين الأعضاء، فتارة تكون بيد الحمزاوي وتارة مع زميله الشَّيخ حسن المرادي، إمام المذهب الشافعي، أو مع إمام

(11) **مُنتخبات من التواريخ لدمشق:** الحصني 698.
(12) **مجتمع مدينة دمشق:** يوسف جميل نعيسة، ج 2، 625.
(13) **مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان:** ميخائيل مشاقة، 349.

الأحناف الشَّيخ عُمر الغَزِّي، وأحياناً تذهب إما إلى خليل العظم أو إلى محمد العظمة، وهما ممثِّلَين عن كبرى العائلات السياسية بدمشق[١٤].

وعند وفاة نسيب الحمزاوي سنة (١٨٤٨م / ١٢٦٥هـ) ورث مكانه ابنه محمود، البالغ وقتها من العمر الثامنة والعشرين عاماً، ليكون أصغر الأعضاء سنّاً ومقاماً، إذ لم يكن يحمل لقب «نقيب الأشراف» مثل أبيه، وكان عمله ينحصر في إعطاء الدروس الدينية في جامع الأسرة بحيِّ العمارة.

رابعاً _ الحمزاوي قبل عام (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ):

كان محمود الحمزاوي قد تعلَّم أصول الشريعة، وقرأ على يد والده، ثم أخذ عن عُلماء دمشق الذين درَّسوه وأجازوه في علوم الفقه والحديث والنّحو والتفسير والصّرف[١٥].

وعمل الحمزاوي في شبابه قاضياً في محكمة البزورية.

وعُرف بكونه خطيباً مفوّهاً باللغتين العربية والتركية.

كما كان مُبدعاً بإتقانه للخط العربي، الذي تعلَّمه من أبيه، إذ كان يكتب سورة الفاتحة كاملة على حبة رز[١٦]. وذكر حفيده الشاعر خليل مردم بك أن ثلث الحبة كان يبقى فارغاً، وأن جدَّه تمكَّن أيضاً من كتابة أسماء شهداء معركة بدر، وعددهم (١٧)، على ورقة صغيرة بحجم الخاتم[١٧].

حافظَ الحمزاوي الفتى على منصبه في مجلس الولاية، وفي عام (١٨٥١م / ١٢٦٨هـ) أصبح مديراً لأوقاف دمشق، وناظراً للرسوم والتكاليف (الويركو)، وبعدها بعام عُيِّن مديراً لمجلس زراعة دمشق.[١٨]

وأخيراً وفي سنة (١٨٥٥م / ١٢٧٢هـ) أُوكلت إليه مأمورية الدفتر الخاقاني، المُكلَّفة بإحصاء الأملاك العقارية في دمشق ومراقبتها.

ولا يوجد أي إشارة إلى دور الحمزاوي في مجلس الولاية، لأن كل السجلات المتبقية في دمشق، والمحفوظة في دار الوثائق التاريخية بسوق ساروجا، تعود إلى الأعوام (١٨٤٠-١٨٤٥م / ١٢٥٦ – ١٢٦١هـ)، وهي تسبق زمنيّاً دخولَ الحمزاوي الابن في هذا المجلس.

والمعروف أنه في حزيران (١٨٥٠م / ١٢٧٢هـ) تم تعيين رئيس ثابت للمجلس بدمشق، وهو موظف عثماني رفيع يُدعى عثمان بك، الذي قام بإعادة تشكيل المجلس، وضَمَّ إليه كلاًّ من علي مردم بك، شقيق الوجيه عثمان مردم بك، وعبد الله العظم، سبط الوالي الأسبق أسعد باشا العظم، وصالح آغا المهايني، أحد زعماء حيِّ الميدان خارج المدينة القديمة.

وأُبقي محمود الحمزاوي في منصبه، ومعه كلٌّ من الشّيخ عُمر الغزي صديق أبيه، وناظر أوقاف دمشقَ الشَّيخ أحمد المالكي، ومحمد العظمة[١٩]، فكان هذا القرار بمثابة تجديد ثقة الدولة العثمانية بالحمزاوي، الذي بات من يومها عضواً أصيلاً في مجلس الولاية، وليس مجرَّد وريث لمنصب شاغر تركه أبوه.

---

(14) Ottoman political reform in the provinces: Elizabeth Thompson. The Damascus Advisory Council in 1844-1845. International Journal of Middle East Studies, volume 25, 457-475.

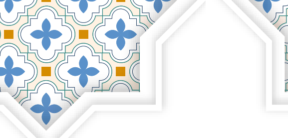
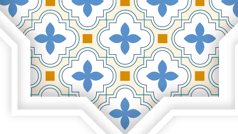
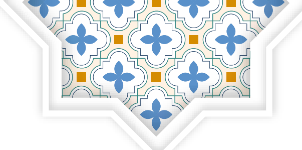
(15) **حلية البشرفي تاريخ القرن الثالث عشر:** عبد الرزاق البيطار، ج 3، 310-311.

(16) **دمشق:** شيلشر، 232.

(17) **سيرة محمود أفندي حمزة:** مردم بك (مخطوط غير منشور، كتب في دمشق سنة 1918).

(18) **حلية البشر:** عبد الرزاق البيطار، ج 3، 311.

(19) **مشاهد وأحداث دمشقيّة في منتصف القرن التاسع عشر:** محمّد سعيد الأسطواني، 149-150.

خامساً _ علاقة الحمزاوي مع الأمير عبد القادر الجزائري:

ومن هذا المنصب، وفي هذا المقام، طُلب من الشّيخ الحمزاوي المشاركة في استقبال الأمير عبد القادر الجزائري عند وصوله دمشق سنة (١٨٥٥م / ١٢٧٢هـ)، قادماً من السجون والمعتقلات الفرنسية.

زُيِّنت وقتها حارات الشّام احتفالاً بالضيف الكبير، ورُفع السجاد العجمي الفاخر فوق أسطح المباني الحكومية، وخرج جمع كبير من الأهالي لإلقاء نظرة على هذا البطل المُسلم الشهير، الذي قاد ثورة ضدّ الفرنسيِّين في بلاده، دامت سبع عشرة سنة.

وصل الأمير الجزائري إلى دمشق بعد خمس سنوات من الاعتقال في قلعة أمبواز الفرنسية، ومعه نحو مئتي رجل من كُتَّاب وخُدَّام وأتباع وبقايا من أفراد حكومة دولته الجزائرية.

كان الحمزاوي شديد الإعجاب بالأمير عبد القادر، فقد أحبَّه لعلمه الوسيع وإبحاره في الطرق الصوفية، ونظر إليه كقائد فذٍّ أجمع حوله المسلمون في كل أنحاءَ العالم، فتولَّدت صداقة متينة بينهما، وحلَّ الأمير ضيفاً على آل الحمزاوي في دارهم، قبل شرائه لخمسة قصور في حارتهم، كانت مُلكاً للشّيخ محمود وإخوته، بجانب باب الفراديس، ليُصبح جاراً إضافة لكونه صديقاً لمحمود الحمزاوي، وكانت هذه الدُور هي ذاتها التي استُعملت لحماية المسيحيين سنة (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ سليماً الحمزاوي، شقيق محمود الأكبر، قد دخل بمعيّة الأمير، وأصبح من أعوانه.

استطاع الأمير عبد القادر، بعلمه وماله وشخصيته القيادية، أن يُتوِّج نفسه زعيماً على دمشق، وأن يَبني لنفسه سُمعةً قلَّ مثيلُهَا في تاريخ المدينة الحديث.

فتأثَّر الحمزاوي بعلم الأمير وتقواه واستقامته وكرمه، ولقَّبه بأمير العُلماء، وقال: إنَّ دمشق كانت في أشدّ الحاجة إلى المَال، وإلى بطل مُسلم ورمز يُعطي أهلها الأمل، ويساعدهم على التخلُّص من حالة الركود الاقتصادي، ومن غطرسة آغوات الشّام ورجالهم المسلَّحين المسيطرين على المدينة، منذ ثورة عام (١٨٣١م / ١٢٤٧هـ)، فوجدَت كلَّ ما كانت تحتاجه من عون في شخص الأمير عبد القادر.

فعدّ الحمزاوي الأميرَ الجزائري بطلاً عظيماً، وأباً روحيّاً لفقراء المدينة وبسطائها، ومُعلِّماً لشيوخها وعُلمائها.

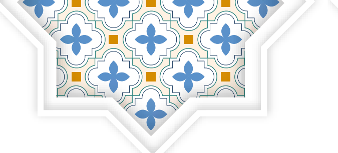
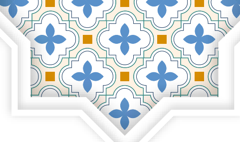
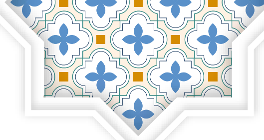
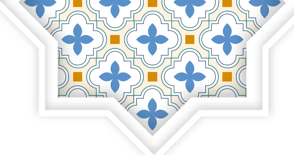
سادساً _ عام الفتنة:

في ربيع عام (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ) اندلعت أعمال شغب في جبل لبنان، بين الفلاحين الموارنة والملاَّكين الدروز، وصلت نيرانُها إلى جزّين وبعبدا ودير القمر، قبل أن تنتقل إلى قرى سهل البقاع القريبة من دمشق، التي توجَّه إليها المسيحيُّون هرباً من الدروز في مطلع صيف ذلك العام.

لحق الدروز بالمسيحيين فقتلوهم في مدينة زحلة يوم ١٨ حزيران (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ).

وعندما وصل الخبر إلى دمشق، قام بعض الأهالي بتزيين عتبة منازلهم بالمصابيح، كما جرت العادة في شهر رمضان، فرحاً بما وصفه البعض بأنَّه «فتح زحلة».

وهنا تميَّز الشيخ الحمزاوي بموقفه الواعي، فنزل إلى حارات الشَّام، ودار على بيوتها لإطفاء تلك

الأنوار، تجنُّباً للفتنة، واحتراماً لمشاعر المكوِّن المسيحي في مدينته[٢٠].

وكانت حجّة بعض الأهالي المحتفلين بمجزرة زحلة، كما أُشيع يومَها، أنَّ سكانها المسيحيين كانوا قد أساؤوا التعامل مع المُسلمين، وأطلقوا أسماء الصحابة على كلابهم، وكانوا كلَّما التفت عليهم «عمر» أو «عثمان» أو «علي» كانوا يقولون له: «لسنا نناديك بل نصرخ للكلب»[٢١].

أسهمت هذه الحوادث في تهييج المشاعر الطائفية، وأُضيفت إليها إشاعة كاذبة انتشرت بسرعة بأنَّ المسيحيين سحقوا الدروز في زحلة، وأنهم قادمون إلى دمشق للقضاء على سُكانها المسلمين، كما قيل أيضاً إنهم كانوا يتجهَّزون لتنصيب أحدهم أميراً على مناطقهم وسلخها عن بقية أحياء دمشق[٢٢].

ولم تأت هذه الإشاعات من فراغ، وإنما كانت تعبيراً عن الغضب المتزايد في المدينة من الإصلاحات التي مُنحتَ للمسيحيين منذ زمن إبراهيم باشا وفي عهد التنظيمات، ومنها تحديداً مساواتُهم مع المسلمين في الضرائب وفي الخدمة الإلزامية.

استمرَّ التوتر الرهيب في دمشق حتى صباح يوم ٧ تموز (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ)، عندما دخلت مجموعة من الفتيان إلى حيِّ باب توما، أحد أقدم أحياء دمشق المسيحيَّة في الطرف الشمالي الشرقي من السور الكبير، وبدؤوا يستفزُّون الأهالي بالصراخ والكلام البذيء، وبرسم الصليب بالدهان الأحمر على الأرض وعلى أبواب البيوت، ثم وضعوا سلسلة من الحجارة على شكل صليب وقاموا بدوسها بأقدامهم[٢٣].

أثار هذا التصرُّف غضبَ أهالي الحيِّ المسيحي، فشكَّلوا وفداً رفيعاً لمقابلة الوالي أحمد عزت باشا، الذي قام بدوره بإرسال قائد الشرطة لاعتقال الأولاد وإجبارهم على تكنيس الطرقات التي عبثوا بها، ونُقل بعضهم مُكبَّلاً إلى سجن القلعة، حيث قضَوا بضع ساعات قبل إطلاق سراحهم.

ثم تكرر المشهد ذاته على مدى يومين، وتم اعتقال الأولاد مجدَّداً، لكنَّ أهالي سوق الأروام (القسم الغربي من سوق الحميدية) احتجُّوا وطالبوا بإطلاق سراحهم بحجة أنهم قُصَّر، وأثناء ذلك نهض شقيق أحد المعتقلين وصاح أمام الجمع في وسط السوق: «يا مسلمين ... يا أمّة محمد، المسلمون يكنسون حارة النصارى ... سكِّروا دكاكينكم لكي نشتكي»[٢٤].

وعند خروج المعتقلين تحت حراسة طفيفة باتجاه مخفر الشرطة، صرخ أحد الناس: «يا غيرة الدِّين»، ثم هاجم عدد من الرجال، المجهولي الهوية، الفتيانَ وكسروا قيودهم، وعادوا بهم إلى منطقة باب توما في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم ٩ تموز (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ)، وهم يصرخون: «لم يبقَ إسلام في الشَّام»[٢٥]!

بدأ الطَّائشون يُخرجون سلاحَهم القديم من بيوتهم، من مسدسات حربية وسيوف وفؤوس،

---

(20) **مشهد العيان:** مشاقة، 353.

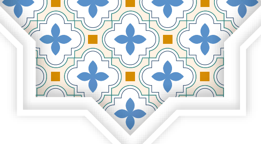
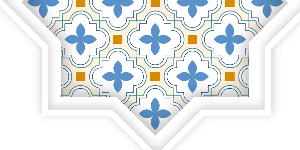
(21) **مُنتخبات من مذكرات محمّد أبو سعود الحسيبي الدمشقي:** سهيل زكار، 286.

(22) **وزارة الخارجية الفرنسية**، CPC/D16، مُرسل من لانوس إلى ثوفنيل (باريس) بتاريخ 4 حزيران 1860.

(23) **الأرشيف الوطني البريطاني**، تقرير مُرسل من السيد مور (دمشق) إلى السيد راسل (لندن)، رقم 27، بتاريخ 4 آب 1860.

(24) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني، 174.

(25) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني، 291.

ويتوجَّهون بها إلى منطقة باب توما، فانتشرت وقتَها إشاعة في دمشق أن أربعين مُسلماً قُتلوا في المواجهات.

والحقيقة أن اثنين فقط من المسلمين سقطوا في الساعات الأولى من الأحداث، ليس على يد المسيحييِّن بل بأمر من ضابط عثماني يُدعى صالح زكي بك، أراد منعهم من دخول الحيِّ المسيحي(٢٦).

ومُجرد انتشار الإشاعة بأن عدد القتلى المسلمين وصل إلى أربعين كان كافياً لتأجيج مشاعر الناس في طول المدينة وعرضها.

في هذه الأثناء، كان الأشقياء والمرتزقة يتدفَّقون على منطقة باب توما من كل حدب وصوب، يسرقون وينهبون ويذبحون كلَّ مَن مرَّ أمامهم من نساء وشيوخ وأطفال، ووصل عدد المهاجمين إلى عشرين ألفاً، وكان عدد سكان دمشق يومها لا يتجاوز ١٥٠ ألف.

وفي الساعة الخامسة عصراً انسحبت القوات العثمانية من الحيِّ المسيحي، مع ارتفاع عدد الرعاع والمجرمين الوافدين إليه، الذين أحرقوا جميع الكنائس، وتهجَّموا على الرُهبان وقتلوا ثمانية منهم، ثم على القنصليات والبعثات التبشيرية البروتستانتية والكاثوليكية، ودير الرهبان الإسباني ودير العازارية الفرنسي والمدرسة الآسية(٢٧).

وأُحرقت القنصلية الروسية أولاً، وتلتها القنصلية الأميركية، وذُبح فيها القنصل المقيم.

وسلمت القنصليتان البريطانية والبروسية وحدهما من الأذى، لكونهما موجودتين خارج المنطقة المسيحية، الأولى في سوق الأروام، والثانية شمال الجامع الأموي.

ثم جاء دور القنصلية الفرنسية، التي هرب أفراد طاقمها جميعاً إلى حيِّ العمارة، ونزلوا ضيوفاً في دور الأمير عبد القادر، وجاره الشَّيخ محمود الحمزاوي.

ولا بد أن نقول إنَّ كثيراً من الأسر المسلمة قد فتحت أبوابها للمسيحيِّين يومَها، بالإضافة لآل الجزائري والحمزاوي، وكذلك فعل الوجهاء، ومنهم: صالح آغا المهايني (زميل الحمزاوي في مجلس الولاية)، وصالح الموصللي، وعبد الله العمادي، وسعيد آغا النوري، وعُمر آغا العابد، جدُّ رئيس الجمهورية السورية فيما بعد محمد علي العابد.

وممّن كان له دور إيجابيٌّ أيضاً التاجر عُثمان جبري، والشَّيخ سليم العطَّار مُدرِّس البخاري في جامع سليمان باشا، والشَّيخ عبد الله البيطار جدُّ العلامة بهجت البيطار، الذي حذَّر من نار الفتنة من على محراب جامع الدقَّاق في حيِّ الميدان(٢٨).

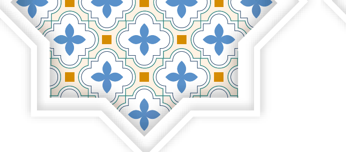
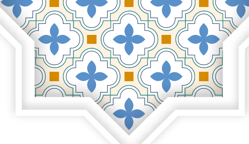
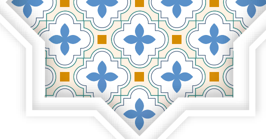
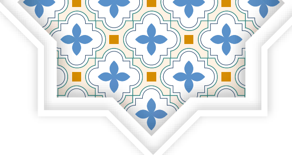
أما الأمير عبد القادر فقد حمل السلاح، وخرج أمام الجموع التي وصلت إلى باب داره، صائحاً: «أهكذا تُرضُون نبيكّم محمَّداً؟ لن تنالوا من مسيحيٍّ واحد من هنا، فجميعهم إخوتي».

وكان الحمزاوي يقف إلى جانب الأمير في هذه اللحظات، حليفاً وصديقاً وجاراً مُخلصاً، وأوكل إليه إنقاذ النساء والأطفال والمسنِّين من المسيحيِّين، وقام بنقل الآلاف منهم إلى داره تحت حراسة

(26) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني، 292.

(27) Sectarianism and Social Conflict in Damascus: The 1860 Events Reconsidered; Eugene Rogan, 493-511.

(28) **خطط الشّام:** محمّد كرد علي، ج 3، 85.

رجال الأمير عبد القادر القادمين معه من الجزائر[٢٩].

ومع ذلك، وبالرغم من كل المحاولات، وصل القتل إلى ذروته في الثلاثة أيام الأولى، وبدأ بالانحسار التدريجي مع حلول اليوم الثامن، بعد تدمير الحيِّ المسيحي بأكمله، وإحراق ١٢٠٠ منزل، إضافة لما قُدِّر يومها بخمسة آلاف شخص، دُفن جميعهم في المكان الذي قُتلوا فيه.

سابعاً _ وصول فؤاد باشا إلى دمشق:

بعد وقوع الفتنة بأسبوع، حصل تدخل مُباشر من السلطان عبد المجيد، الذي أرسل وفداً حكوميّاً للتحقيق بما جرى في الشّام، برئاسة وزير الخارجية فؤاد باشا.

وصل الباشا العثماني إلى دمشق قادماً من بيروت يوم ٢٩ تموز (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ)، برفقة ثلاثة آلاف جندي لاستعادة الأمن والأمان في المدينة المنكوبة، فكان في استقباله الشَّيخ الحمزاوي وأعيان المدينة كافة.

أراد الوفد الحكوميُّ سحبَ أي ذريعة لتدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العثمانية، بحجة حماية المسيحيين من إبادة جماعية، إذ كانت فرنسا قد حضّرت جيشاً كبيراً لهذا الغرض، ووضعته في حالة تأهُّب في سهل البقاع، كما أرسلت عشرين بارجة حربية إلى سواحل الشّام، وشُكِّلت لجنة دولية للتحقيق بالأحداث مؤلفة من روسيا وبريطانيا والنمسا وبروسيا، فعدَّه السلطان تدخُّلاً سافراً في شؤون بلاده.

وكان من المفترض أن يكون الجيش المُرسل مُؤَلَّفاً من ١٢ ألف جندي، وأن يضمَّ قوات من الدول الأوروبية كافة، ولكن فرنسا لوحدها خصَّصت قوات لهذا الغرض، مُلقية اللَّوم فيما حدَث في جبل لبنان ودمشق على الطائفة الدرزية وعلى أعيان الشَّام، ومنهم طبعاً الحمزاوي.

أما بريطانيا فقد حمَّلت الدولة العثمانية، والسلطان عبد المجيد شخصيّاً، مسؤولية ما حدث، ومعها المؤسسة الرهبانية المارونية بعد تأخُّر ملحوظ، فسارعت الدولة العثمانية لمعالجة الأوضاع المتدهورة في الشّام، للتغطية على فشلها في حماية الأهالي وضلوع بعض موظفيها الكبار في مسلسل الإرهاب والقتل.

تجوَّل فؤاد باشا في أحياء المدينة المدمَّرة، وجال على قلعة دمشق، التي تحوَّلت إلى مركز إيواء للمسيحيين، فوجدهم حفاة عراة يئنون من الجوع والخوف، فقام بنقلهم إلى جامع تنكز في محلَّة السنجقدار، وعرض عليهم الخروج الآمن إلى بيروت على نفقة الحكومة، كما أمر بفتح أبواب المساجد أمامهم، ولكنهم رفضوا ذلك، خوفاً من ردة فعل غاضبة من المسلمين[٣٠].

وطلب الوزير إيقاف جميع المعونات الفرنسية فوراً، لكيلا تكون ذريعة إضافية لتدخُّل من قبل حكومة باريس، وأمر بتعويض الأهالي بنصف قرش يوميّاً من مال الدولة العثمانية[٣١].

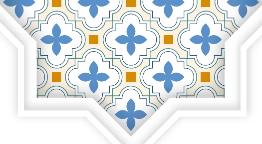
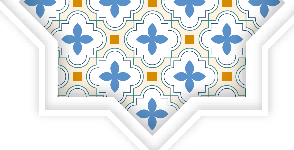
ثم انتقلت أولى القافلات المحمَّلة بالمسيحيين إلى بيروت، بحماية رجال الأمير عبد القادر، وكان على متنها ٣٠٠ شخص.

---

(29) **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر:** محمّد باشا الجزائري، 635.

(30) **مرآة الشّام، تاريخ دمشق وأهلها:** عبد العزيز العظمة، 181.

(31) **An occasion for war:** civil conflict in Lebanon and Damascus in 1860; Leila Tarazi Fawaz. p137.


ثم صدر بعد ذلك قرار بعزل الوالي أحمد عزت باشا، وهو ضابط عثماني رفيع، كان يحمل أرفع الأوسمة العسكرية، وكان يعرفه فؤاد باشا جيِّداً، منذ أن كان قائداً للمدرسة الحربية في إسطنبول وأحدَ ألمع مُدرِّسيها.[٣٢] وأُجري تحقيق سريع معه، وتمَّ إعدامُه رمياً بالرصاص يوم ٧ أيلول (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ)، بأمر من فؤاد باشا، ودُفن في دمشق[٣٣].

وقد قيل في سبب إعدامه أنَّه تأخَّر بإرسال الجيش إلى باب توما، وتسرَّع في سحبه يوم ٩ تموز، لكي يتمكَّن من حماية داره وعائلته، وأنَّه كان يَفرض خُوَّة (ضريبة) على المسيحيِّين، ويقوم بسجن كل من يرفض أن يدفعها[٣٤]، كما اتُّهم بتأجيج نار الفتنة بوضع المحارس والمدافع على أبواب الجامع الأموي، لحماية المسلمين من أي هجوم مسيحي، بعد انتشار شائعة أنهم ينوون مهاجمة المساجد خلال صلاة العيد، كما اتُّهم الوالي بإطلاق سراح (الرعاع) من السجون، ومعهم أصحاب السوابق والمجرمين، ليكونوا في طليعة المهاجمين[٣٥].

لقد كان إعدام هذا الوالي رسالة واضحة إلى الدمشقيين كافّةً، بأن أحداً منهم لن يَسلم من عقاب الدولة العليّة.

وجاء في أحد التقارير البريطانية المُرسلة يومها من دمشق إلى لندن خلال الأحداث ما يأتي: «لا الوالي ولا أعضاء مجلس الولاية أو العلماء ظهروا في الشوارع، ولا حتى أي شخص على اتصال مع الحكومة لا من قريب ولا من بعيد حاول الوقوف في وجه الفوضى»[٣٦].

وقد اتُّخذَت هذه الحجَّة ذريعةً لضرب أعيان المدينة واعتقال العديد منهم، وكان من بينهم الشّيخ الحمَزاوي الذي اتُّهم بداية بالتقصير في واجبه الوطني، فقضى ثلاثة أيام بالسجن في دار مهجور بحيِّ القنوات، قبل إطلاق سراحه بطلب وإلحاح من الأمير عبد القادر، الذي أصرَّ على أنَّه كان ممن حاولوا نزع فتيل الأزمة لا تأجيجها[٣٧].

أُخرج الحمزاوي من السجن بعد تقديم الاعتذار له، وعُيِّن عضواً في اللِّجان التي شكَّلها فؤاد باشا لاستعادة المسروقات من الحيِّ المسيحي، ومعاقبة المجرمين والمسؤولين عن المجزرة.

وقد قسَّم الوزير العثماني التُّهم إلى ثلاث فئات: سالب ومهيِّج وقاتل، وفي أول تصريح له أمام الناس أعلن فؤاد باشا أن جميع سُكان دمشق، مسيحيين ومُسلمين، كانوا مسؤولين عمَّا حدث، المسيحيون: لأنهم أساؤوا فهم التنظيمات وتطبيقها، والمسلمون: لأنهم شاركوا بالقتل ولم يَحمُوا أهلهم من المسيحيين[٣٨].

وعند انتشار شائعة جديدة بأن المسيحيين كانوا ينوون مهاجمة الجامع الأموي للثأر، رد فؤاد باشا بأنه على استعداد تامٍّ لتدمير ما بقي من دمشق، لو أكمل الدمشقيون السير في طريق العنف،

---

[32] **An occasion for war:** civil conflict in Lebanon and Damascus in 1860; Leila Tarazi Fawaz, p138.

[33] **تاريخ لبنان الحديث:** كمال الصليبي، 133-135.

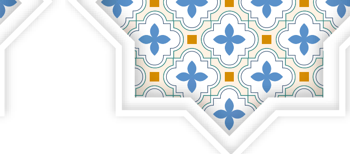
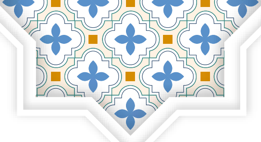
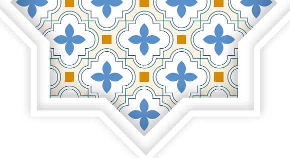
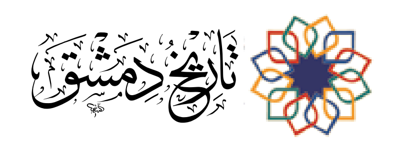
[34] **مشهد العيان:** مشاقة، 23.

[35] **مُنتخبات من مذكّرات:** الحسيبي، 283.

[36] **وزارة الخارجية البريطانية**، 195-601، مرسل من برانت إلى رسل، رقم 8، بتاريخ 16 تموز 1860.

[37] **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني، 189.

[38] **وزارة الخارجية الفرنسية**، أوتري في بيروت إلى ثوفونيل في باريس، رقم 90، بتاريخ 30 تموز 1860.

سواء أكانوا مسيحيين أم مسلمين[٣٩].

وبعد تزويد الوجيه الشاب عُمر العابد بالسلاح والرجال، وهو من تجَّار المواشي المعروفين في منطقة الميدان، أمر بإفراغ معظم بيوت حيِّ القنوات بالقوة، من القنطرة حتى القشلة، وإعطائها للمسيحيِّين، وتكرَّر المشهد ذاتُه في أحياء القيمرية والشاغور والعقيبة ومئذنة الشحم[٤٠].

ثامناً _ القصاص الجماعي:

شُكِّلت لجنة لاستعادة المسروقات، ضمَّت محمود الحمزاوي، وشقيقَه أسعد (١٨٢٢-١٨٩٠م / ١٢٣٨ – ١٣٠٨هـ) عضو محكمة الاستئناف، الذي تعاون معه ومع الأمير عبد القادر في حماية المسيحيين.

وكان من أعضائها الوجهاء متري شلهوب وإبراهيم طنوس وجبران بحري، ممثلين عن المسيحيين، ومعهم قاضي دمشق الشرعي محمد سعيد الأسطواني وعُمر العابد، ممثلين عن المسلمين مع الأخوين الحمزاوي[٤١].

جُمعت كلُّ المسروقات من البيوت المسيحية، من سجاد وتُحف ومجوهرات، ومعها خمسون ألف قطعة زجاجية، ووُضعت في مسجد يلبغا في سوق الخيل، جنوب ساروجا.

وقُدِّرت قيمة الأضرار بثلاثمئة مليون قرش، ولكن فؤاد باشا عدَّ المبلغ عالياً جداً، ولا يُمكن فرضُه على أهالي دمشق خوفاً من اندلاع ثورة جديدة، وأيَّده بذلك الشَّيخ الحمزاوي، الذي اقترح عليه الاكتفاء بخمسة وأربعين مليون قرش، ولكن المسيحيين رفضوا ذلك، فرُفع الأمر إلى السلطان عبد المجيد، الذي اكتفى بخمسة وسبعين مليون قرش، تُقسم على ثلاثة أقساط، اقتُطعت من طريق الضرائب من أهالي الشَّام[٤٢].

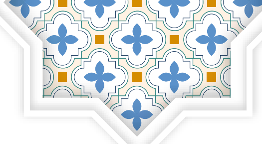
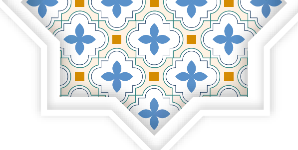
وبعد ذلك جاء قرار عزل مفتي المدينة وإمام الأحناف الشَّيخ طاهر الآمدي، وهو أستاذ محمود الحمزاوي، وعُزل أيضاً نقيب الأشراف أحمد درويش العجلاني. وعُيِّن بدلاً عنهما أمين الجندي مُفتياً والشَّيخ أحمد الكزبري نقيباً[٤٣].

كانت نقابة الأشراف يومها في أيدي عائلة العجلاني، التي كانت تتقاسم هذا المنصب الرفيع أحياناً مع آل الحمزاوي، فاعترض كلاهما على تعيين الكزبري في هذا المنصب، واصفين إياه بالدخيل على مجتمع العلماء.

ونُفي النقيب المعزول إلى جزيرة قبرص، بعد مصادرة أملاك أسرته في حيِّ العمارة، وكذلك الشَّيخ الآمدي الذي قضى سنتين في فامغوستا، ثم ثلاث سنوات في أزمير، قبل عودته إلى دمشق بوساطة الأمير عبد القادر والشَّيخ الحمزاوي، بعد أن رحل عنها فؤاد باشا[٤٤].

---

[39] **وزارة الخارجية البريطانية**، 78-1519، مُرسل من غراهام إلى مور (26-30 تموز 1860).
[40] **حلية البشر**: البيطار، ج 1، 269.
[41] **حلية البشر**: البيطار، ج 1، 269.
[42] **وزارة الخارجية البريطانية**، ملف رقم 57، من دوفيرين في بيروت إلى بولوار في لندن، بتاريخ 18 تشرين الثاني 1860.
[43] **الأعلام**: خير الدين الزركلي، ج 5، 169.
[44] **شام شريف: دور الفقهاء في المجتمع الدمشقي في العهد العثماني**: محمد شريف الصوّاف، 374.

ومن الجدير بالذكر أنَّ عقوبات الإعدام طالت التجار والمواطنين العاديين فقط، ولم تُطبَّق على رجال الدين، بحيث لم يُشنَق أحدٌ منهم، خوفاً من نفوذهم الواسع في المجتمع الدمشقي(٤٥).

أغلق بعدها فؤاد باشا جميع منافذ دمشق على العالم الخارجي، ومنع دخول وخروج أي شخص مهما علا شأنه إلا بتصريح خطي منه شخصياً(٤٦). وأمر بوضع المصابيح على مداخل كل البيوت، لأسباب أمنية، ومنع التجوال بعد المغيب إلا بتصريح ومرافقة أحد عناصر الدرك(٤٧).

ثم بدأ فؤاد باشا بمسلسل الاعتقالات التي طالَت المواطنين بتهمة المشاركة بالشغب أو عدم التعرُّض له، فكان على رأس المتَّهمين الذين تم اعتقالهم شيخ الشَّام عبد الله الحلبي، أحد خُطباء الجامع الأموي، الذي اتُّهم بتحريض الغوغاء على المسيحيين وإصدار فتوى ضدهم.

ولم يدافع الحمزاوي عن عبد الله الحلبي، ورفض الشفاعة له، مع أنَّه كان ابنَ سعيد الحلبي، صديق والده.

ووصل عدد المعتقلين بين أعيان ومشايخ ومواطنين عاديين إلى ١٣٠٠ شخصاً، وُضع التُّجار منهم في التكية، وأُرسل الوجهاء إلى منطقة القشلة، وسيق العوام إلى سجن القلعة(٤٨).

وكانت تهمة الكثير منهم مجرد «الفُرجة»، حيثَ وقفوا على أبواب الحيِّ المسيحي، وهم يشاهدون النيران تلتهمه، كما يفعل الدمشقيون عادة عند وقوع أي حادث في مدينتهم، خيراً كان أو شرّاً.

وفي يوم ٢٠ آب (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ) أُخرج من التكية عدد من السجناء، وأُعدموا شنقاً في منطقة الشاغور(٤٩).

وفي اليوم نفسه نُفِّذ حكم الإعدام في سوق الخيل على مختار القنوات الأسبق محمد رشيد البدوي، الذي أُدين بتزيين منطقته احتفالاً بسقوط زحلة قبل شهرين.

وطالت الإعداماتُ النظامية خمسةً وستِّين شَخصاً اتُّهموا بقتل المدنيين، ومئةً وأحد عشر شخصاً بتهمة قتل عسكر السلطان خلال الأحداث، وثلاثة وثمانين شخصاً بتهمة الفرار من وجه العدالة.

وحكم فؤاد باشا بالسجن المؤبد على مئة وتسعة وثلاثين دمشقيّاً، بتهمة السرقة والنهب وتحطيم ممتلكات عامة، وعلى مئة وخمسة وأربعينَ شخصاً بتهمة المشاركة في الشغب أو عدم اعتراضه، وبالسجن مع الأشغال الشاقة لمئةٍ وستة وثمانين شخصاً بتهمة تسهيل العنف، ستة وعشرون من المعتقلين كانوا من حيِّ القنوات، أُعدم ثمانية منهم، وحُكم على الآخرين بالسجن المؤبد(٥٠).

اعترض كثيرٌ من الأهالي على هذه القرارات التي وصفت بالعشوائية والظالمة، ووحده محمود الحمزاوي رفض الاعتراض، بل قام بمباركة كلِّ ما جاء من فرمانات بحق أهالي دمشق، والتي ضمَّت، إضافة للإعدام والسجن والنفي، فرضَ الخدمة الإلزامية على شبَّان المدينة.

ولم يكتفِ الحمزاويُ بالمباركة فحسب، بل اعتلى منبر الجامع الأموي يوم ٣١ آب (١٨٦٠م /

(45) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني 206.

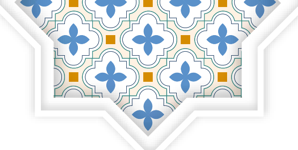
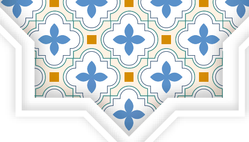
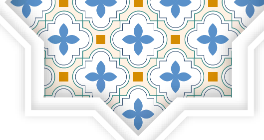
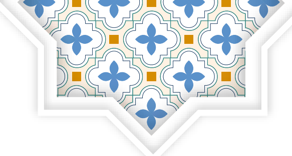
(46) Ottoman rule in the province of Damascus 1860-1909; Max Gross. p 45.

(47) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني، 202.

(48) **منتخبات من مذكرات:** زكار، 299.

(49) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني، 183.

(50) **خطط الشّام:** كرد علي، ج 3، 88.

١٢٧٧هـ)، وخطب قائلاً: «ذلك الفعل القبيح ... قتلُ أهل الكتاب ... هدمُ ركن من أركان الدين، وفاعله خارج بالكلية عن جمهور الموحِّدين، وكلُّ مَن أنكر العقوبة والقصاص على الفاعلين حكمه حكم أولئك الغادرين الباغين»[٥١].

ثم نظم الحمزاوي قصيدةً في مديح فؤاد باشا، أثارت الكثير من الغضب لدى الأهالي، جاء في مطلعها:

أشرقَت بالعَدل أنوارُ الشّآمْ   مُذ فؤادُ المُلك واليها نِظامْ

أشرَقَت من بَعدما أظلَمَت   بُرهةً لا ينجلي عنها ظلامْ

مُدّةً يَسطو بها قَومٌ على   مَعشَرِ الذِّمّة ظُلماً واحتكامْ

لا يُرَى أمرٌ بِمَعروفٍ ولا   نَهيُهُم عَن مُنكَرٍ أدَّى مَلامْ[٥٢]

تاسعاً _ الحمزاوي مفتياً لدمشق:

دخل الشَّيخ الحمزاوي عالم السياسة من أوسع أبوابه، بعد الأحداث المتقدِّمة، وبات أحد المُرشحين الدائمين لاعتلاء أرفع المناصب الحكومية.

وفي شباط (١٨٦١م / ١٢٧٨هـ) تقرَّب من الوالي الجديد أحمد مُخلص باشا، الذي أعادَ تعيينه عضواً في مجلس الولاية[٥٣].

وبعد انتهاء ولاية مخلص باشا، وعودته إلى إسطنبول، صار الحمزاوي صديقاً لخليفته محمد رشيد باشا، الذي عُيِّن والياً على دمشق في آب (١٨٦٦م / ١٢٨٣هـ).

وكان رشيد باشا من الإصلاحيِّين المحسوبين على فؤاد باشا، وقد عمل نائباً له في وزارة الخارجية، ومعاوناً له عندما أصبح الأخير صدراً أعظمَ في إسطنبول، وتميَّز عهده بالإصلاح، فقد مدَّ خطوط التلغراف في كافة أرجاء الولاية، وأصدر صحيفة رسمية باسم «سورية»، كان الحمزاوي يكتب فيها المقالات والأشعار، كما أمر بإتمام أول إحصاء جدِّي في مدينة دمشق بعد أحداث (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ)، ثم قام بإعادة ترتيب الأمور العقاريَّة في المدينة، التي أُوكلت إلى الشّيخ الحمزاوي[٥٤].

ثم عيَّن الوالي رشيد باشا الحمزاويَّ مسؤولاً عن إعادة جدولة الديون في ريف دمشق، وفي سنة (١٨٦٨م / ١٢٨٥هـ) قام بتعيينه مفتياً لدمشق، خلفاً للشيخ أمين الجندي، وهو في الثامنة والأربعين من العمر.

وخلال ذلك أسهم الحمزاوي في تهدئة مشاعر الناس خلال الثورة التي قادها يوسف كرم على الدولة العثمانية في جبل لبنان، والتي دبَّت الرعب في نفوس الدمشقيِّين المسيحيِّين، خوفاً من وصول نيرانها إليهم كما حصل سنة (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ).

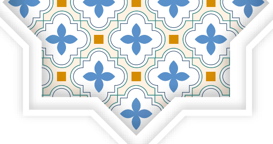
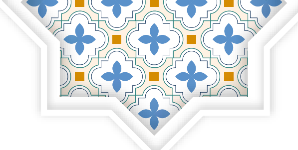
فأرسل الوالي رشيد باشا تعزيزات عسكرية إلى جبل لبنان، ووضع قواته في حالة تأهُّب قصوى

(51) **مشاهد وأحداث دمشقية:** الأسطواني 187

(52) **حلية البشر:** البيطار، ج 3، 313

(53) **دمشق:** شيلشر 233.

(54) **مُنتخبات من التواريخ:** الحصني، 269.

لمطاردة أي ثائر هارب من لبنان يريد اللجوء إلى دمشق[٥٥]، وهنا أفتى الحمزاوي بضرورة عدم مساندة يوسف كرم بثورته، لأنه شقَّ عصا الطاعة، مُستنداً إلى الآية الكريمة: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)) [النساء: ٥٩].

عاشراً _ الحمزاوي وعهد السلطان عبد الحميد الثاني:

في سنة (١٨٧٦م / ١٢٩٣هـ) تعاقب ثلاثة سلاطين على عرش بني عثمان في إسطنبول، بدءاً من عبد العزيز، الذي خُلع وقُتل خلال أيام معدودة، مروراً بمراد الخامس (١٨٧٦م / ١٢٩٣هـ) الذي نُحّي بسبب ضعف في عقله، وصولاً إلى السلطان عبد الحميد الثاني الذي اعتلى العرش في نهاية شهر آب واستمر في الحكم حتى نيسان (١٩٠٩م / ١٣٢٩هـ).

كانت علاقة الحمزاوي جيدة مع السلطان عبد الحميد في بداية عهده، إذ عمل جاهداً في دعمه ضد انتفاضة صربيا والجبل الأسود، التي كانت قد بدأت في عهد عمِّه السلطان عبد العزيز. ولعب العثمانيون على الوتر الطائفي والديني لاستنهاض مشاعر الناس ضد ثوار البلقان.

ولمَّا طُلب من أعضاء مجلس ولاية دمشق تأمين مبلغ، قدره عشرة آلاف ليرة عثمانية، دعماً للمجهود الحربي؛ عمل الحمزاوي على جمع تلك التبرعات دون أي اعتراض، ولكنه سرعان ما خالف السلطان في مطالبه عندما رفض إعلان الجهاد المُقدس في دمشق، خوفاً من ترددات هذه الفتوى على المسيحيين من أهل الشّام[٥٦]، فانزعج السلطان كثيراً من موقف المفتي، ولكنه أبى أن يعزله من منصبه، نظراً لمكانة الحمزاوي في قومه، ودوره في أحداث (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ).

وبذلك لم يعترض السلطان عبد الحميد على تسمية الحمزاوي عضواً في مجلس معارف دمشق سنة (١٨٧٨م / ١٢٩٥هـ)، ورئيساً لجمعية المقاصد الخيرية فيها، تحت طلب وإلحاح من الوالي الجديد مدحت باشا، الذي أحبَّه كثيراً، وحاول الاستفادة من فكره النيِّر والمتحرر[٥٧].

وجاء في مذكرات مدحت باشا: «وأول ما وقع عليه نظري في تلك الولاية هو أن مسلميها قد فشا بينهم الجهل ما عدا العلماء»، وقد يكون هذا التصريح لشدة إعجابه بالحمزاوي[٥٨]، يُضاف إلى ذلك أن تلك الجمعية التي ترأَّسها المفتي في عهده حوَّلت بعض الجوامع إلى مدارس، وقرَّرت أن تُجازي أهالي الأطفال إذا بلغوا سنَّ السادسة ولم يرسلوهم إلى المدرسة، كما خصَّصت إعانةً لهم من مال الأوقاف[٥٩].

حادي عشر _ الحمزاوي والمسرح:

وكان للحمزاوي موقف ثان، أغضب به رجالَ الدين في مدينته، عند احتضانه للممثِّل الشابِّ أبي خليل القباني، رائد المسرح الغِنائي (الميوزيكال) في العالم العربي.

كان الحمزاويُ صديقاً لوالد القباني، وقام بزيارة منزل الأسرة في حيِّ مئذنة الشحم لتهنئة عائلة

---

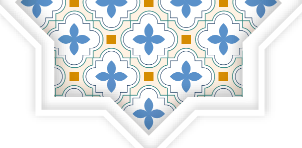
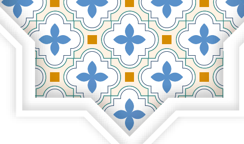
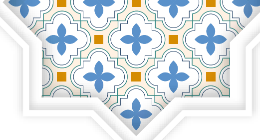
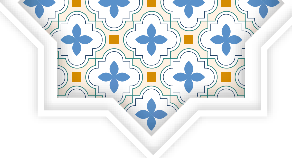
(55) **الأرشيف الوطني البريطاني**، 78-1927، من أيلريدج (بيروت) إلى أيرل كلاردون (لندن)، رقم 1، تاريخ 20 كانون الثاني 1866.

(56) Ottoman rule in the province of Damascus 1860-1909; Gross, 202.

(57) **مرآة الشام**: العظمة، 78.

(58) **مدحت باشا**: حياته، مذكراته، محاكمته: يوسف كمال بك حتاتة وصديق الدملوجي، ص49.

(59) **مدحت باشا: حياته، مذكراته، محاكمته**: يوسف كمال بك حتاتة وصديق الدملوجي، ص49.

القباني بإتمام أبي خليل حفظَ القرآن الكريم، مُتمنِّياً على الفتى أن يسلك طريق العلم أو أن يصبح تاجراً مثل معظم أفراد أسرَته، ولكن ميول أبي خليل الفنية كانت قد بدأت تظهر بوضوح من خلال زياراته السرية والمتكررة إلى مقهى العمارة، حيث كان يشاهد عروض كراكوز وعيواظ (خيال الظل)، التي كانت رائجة في دمشق في حينها[٦٠].

وعندما وصل هذا الخبر إلى مسامع شيوخه، غضبوا كثيراً وطردوه من حلقات التدريس في الجامع الأموي، بالرغم من اعتراض المفتي، بحجة أنه قد أصبح من روَّاد المقاهي، وأن مَن يسلك هذا الطريق لا مكان له في عالم المساجد[٦١].

قرَّر القباني أن يمتهنَ التمثيل والغناء والتأليف المسرحي، ضارباً بعرض الحائط كلَّ ما سيقال عنه في مجتمعه المحافظ[٦٢]، ولقي دعماً من الحمزاوي ووالي الشَّام صبحي باشا، الذي كان قد حضر عروض المسرح الفرنسي في إسطنبول وأُعجب بهذا الفن، فقرَّر أن يتبناه ويُشجِّعَه في دمشق عند تعيينه حاكماً عليها.

وكانت أُولى عروض القباني مسرحية قصيرة قُدِّمت في خان العصرونية، وانتقل مسرحه بعدها إلى سجن مهجور في محلَّة القنوات، ثم إلى خان الجمرك، بين سوق الحرير وباب البريد[٦٣].

وبعد سبع سنوات حصل القباني على دعم إضافي من المفتي، فقام بتأسيس مسرح صيفي لفرقته، كان مقرُّه في حيِّ باب توما، بعيداً عن رجال الدين وسلطتهم.

وكانت جميع العروض المسرحية من تأليف القباني وتلحينه وتمثيله، حيث اعتمدت كثيراً في بداياته على المسرح الأوروبي، ثم صار يُقدِّم عروضاً أقرب إلى الحياة اليومية، مستوحاة من التراث العربي، تتخلَّلها فقرات غنائية وعدد من الموشحات والأدوار.

واستعان القباني بالطقوس الدينية، بما فيها من أناشيد وأدعية، وقام بنقلها من زوايا دمشق وحضراتها إلى خشبات مسارحها، لتكون عُرضةً لتأمل الجمهور ونقده، فتضاعفت نقمةُ رجال الدين عليه، وكان على رأسهم الشّيخ سعيد الغبرا، أحد المدرسين القدامى في الجامع الأموي.

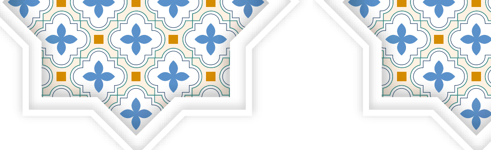
وزاد من حفيظة رجال الدين أن معظم أعمال القباني كانت تَحكي عن الحبِّ في علاقات خارجة عن المؤسسة الزوجية، وهو ما رآهُ رجال الدين مُخلاً بالآداب العامة.[٦٤]

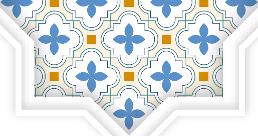
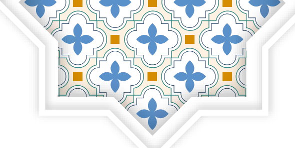
وقد حاول القباني إقناعهم بالحوار، ولكنهم رفضوا الاستماع إليه، فعرض عليهم مشاركتهم بعائدات شباك التذاكر، وقدم لهم بطاقات مجانية لكي يشاهدوا ما كان مسرحه يحتويه من قيم وعبَر أخلاقية، ولكنهم رفضوا التعاون معه، ووحده المفتي محمود الحمزاوي قبل الدعوة ولبَّاها، وظَلَّ داعماً للقباني حتى النهاية[٦٥].

وفيما بعد اصطدم المفتي الحمزاوي مع الشَّيخ سعيد الغبرا، الذي وصف القباني بالفاسق

---

(60) **أبو خليل القباني: باعث نهضتنا الفنية:** حسني كنعان، مجلّة الرسالة (القاهرة)، العدد 796 (4 نيسان 1946).
(61) **أبو خليل القباني: ريادة التجاوز:** محمد بري العواني، 15.
(62) **تاريخ المسرح السوري ومُذكّراتي:** وصفي المالح، 14.
(63) **أبو خليل القباني:** العواني، 16.
(64) **أبو خليل القباني:** العواني، 18.
(65) **أبو خليل القباني:** العواني، 24.



والزنديق، وسافر إلى إسطنبول للحصول على فرمان من السلطان عبد الحميد لمنع عروض مسرحيات القباني بدمشق.

ثاني عشر _ المفتي والسنيورة:

من الأمور التي ضاعفت من انتقاد المشايخ لمفتيهم الحمزاوي صداقته المعلنة والمتينة مع السيدة الأرستقراطية البريطانية المقيمة في دمشق جين دغبي، زوجة الشَّيخ مجول العنزي، أحد زعماء القبائل العربية، فكانت ديغبي تزوره بشكل متكرر مع زوجها، وكان الحمزاوي معجباً بذكائها وثقافتها وسرعة بديهتها، وكان يتبارز معها في لعبة الشطرنج، في مشهد خارج كليّاً عن المألوف، ولا يُقِرُّه العلماءُ والأئمة قطُّ، وكانت تقول له: «أنت من القلائل الذين يغلبوني في هذه اللعبة»[٦٦].

وهذه السيدة البريطانية جاءت بشجرة المانوليا من بلادها، وقامت بغرزها في حديقة منزلها بدمشق، مع الكثير من الورود والأزهار، ودعت الأعيان ذات يوم إلى الغداء في دارها، ومن ثَمَّ إلى تناول القهوة في الحديقة، وكان بينهم المفتي الحمزاوي.

وراح المدعُوُّون يقطفون الأزهار، وظهر على وجهها علامة الغضب الشديد، وتنبَّه إلى ذلك الحمزاوي، ووضع يديه خلف ظهره ليُمكِّنها من التدخل لإنقاذ أزهارها، فقالت له السيدة ديغبي: «هل من آداب الحدائق يا سيدي أن يسِير فيها المرء، ويداه معقودتان خلفَ ظهره؟» فأجابها الحمزاوي: «إن من يرى الأزهار الجميلة لا يأمن شرَّ يديه، ولما كان هذا يُؤذِيك على ما يبدو لي، ويُؤذي الأزهار أيضاً، فخير له ولك وللأزهار أن يعقدهما خلف ظهره»[٦٧].

وقد دخل المفتي ذات يوم على زوجته وقال لها: «لا أدري لم تُطيلين أثوابك حتى تمسَّ الأرض فتكنسها كيفما سرت، لقد زرتُ البارحة السنيورة ورأيتها ترتدي ثوباً جميلاً يرتفع عن الأرض مقدار شبر، سماويِّ اللون، محلًّى بقطيفة سوداء، تمنَّيتُ والله يا نظيرة أن تصنعي واحداً على شاكلته»[٦٨].

وبالفعل طلب المفتي الثوب من ديغبي لصناعة مثله لنساء داره، في إشارة على فكر مُتحرِّر ونيِّر، قَلَّ مَثيلُه بين رجال الدين في عصره.

_ النهاية:

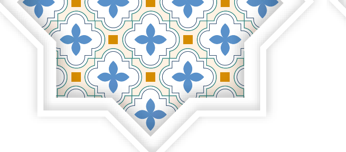
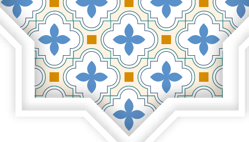
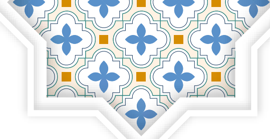
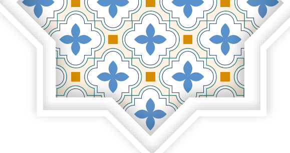
وجد الحمزاوي نفسه محاصراً من كل الأطراف:

_ زعماء دمشق القدامى لم ينسَوا موقفه الداعم لإعدامات فؤاد باشا.

_ ورجال الدين ضمروا له الشرَّ، بسبب موقفه المؤيد للقباني ومسرحه.

_ وزاد من هذه العُزلة غضب السلطان عبد الحميد منه ومن مواقفه، وتحديداً بعد أن قيل إنه أصبح من رجالات مدحت باشا المُخلصين، الداعمين لنظام المشروطية، الذي قيَّد من صلاحيات

(66) **المانوليا في دمشق:** ألفة الأدلبي، 14.
(67) **المانوليا في دمشق:** ألفة الأدلبي، 14.
(68) **المانوليا في دمشق:** ألفة الأدلبي، 15.





السلطان، وجعله خاضعاً لسلطة مجلس المبعوثان المُنتخب، فيما عُرف بالعهد الدستوري الأول[٦٩].

وبعد عزل مدحت باشا عن منصبه، واتّهامه بالضلوع في عملية خلع السلطان عبد العزيز، ومن ثمَّ مقتله، تمَّت محاكمته في إسطنبول، وحُكم عليه بالإعدام، قبل تخفيف الحكم إلى السجن المؤبد[٧٠].

وهنا لم يُخف الحمزاوي حُزنَه على مدحت باشا، الذي سيق مُكبَّلاً إلى السجن في مدينة الطائف، حيث مات خنقاً في حجرته سنة (١٨٨٤م / ١٣٠٢هـ)، وجرت عملية إبعاد وإقصاء ممنهجة لكافة أعوانه ومناصريه في كلٍّ من إسطنبول ودمشق.

وعمد كلُّ الولاة الجدد الذين عُيِّنوا على دمشق إلى تجاهُل الحمزاوي تجاهُلاً تامّاً من بعدها، خوفاً من غضب الذات الشاهانية عليهم، مما أجبر المفتي على الاعتكاف في داره، وعدم حضور اجتماعات مجلس الولاية، التي لم ينقطع عنها يوماً منذ عام (١٨٤٨م / ١٢٦٥هـ)[٧١].

ثم قام الوالي حمدي باشا بتقليص نفوذ جمعية المقاصد، التي كان يُديرها الحمزاوي منذ عهد مدحت باشا، وسُحبت منها صلاحيَّة جمع التبرعات وتوزيعها على الأهالي، كما فُرضت هيمنة حكومية كاملة على مجلس المعارف الذي كان يُديره المفتي، وصار مجلساً ضعيفاً وصوريّاً، لا سلطة له بالمطلق.

وأخيراً أُشيع أن محمود الحمزاوي كان يعمل على إثارة الفتنة في دمشق، بهدف الإطاحة بالسلطان عبد الحميد شخصيّاً، بالتعاون مع هولو باشا العابد رئيس مجلس الولاية وابن عمر العابد صديقه وحليفه في أحداث عام (١٨٦٠م / ١٢٧٧هـ).

فقيل إنهما كانا يعملان على إشعال ثورة مُسلحة، تبدأ في الصحراء العربية حيث كان مدحت باشا مُعتقَلاً، وتمتدُ إلى سورية والعراق وصولاً إلى مصر والسودان[٧٢].

تَخوَّف العثمانيون كثيراً من هذا الطرح، وقالوا إنه مدعوم من الدول الأوروبية، التي كانت قد سهَّلت الاحتلال البريطاني لمصر سنة (١٨٨٢م / ١٣٠٠هـ)، وعلى أثر هذه الإشاعة التي لم تثبت حقيقتُها بالمطلق، ولم يحصل بها أيُّ تحقيق عدلي، عُزل هولو العابد عن منصبه، وبقي المفتي الحمزاوي مُهمَّشاً وفاقداً لأي صلاحية حتى وفاته عن ثمانٍ وستين عاماً في أيلول من سنة (١٨٨٧م / ١٣٠٥هـ).

وفي أيامه الأخيرة عكف الحمزاوي على كتابة عدة مُؤلَّفات، كان من بينها تفسيرٌ للقرآن الكريم، وإجابات على أسئلة كانت تصله من مُدن بلاد الشَّام كافّةً.

وكان من بين مؤلَّفاته:

_ «الفرائد البهية في القواعد الفقهية» (دمشق ١٨٨١م / ١٢٩٩هـ).

_ «الطريقة الواضحة في البيئة الراجحة» (دمشق ١٨٨٢م / ١٣٠٠هـ).

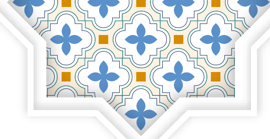
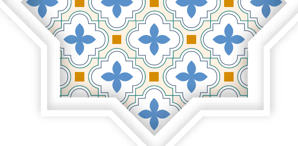
---

(69) **وكان العهد الدستوري الثاني** عندما أعاد عبد الحميد العمل بالدستور بعد انقلاب جمعية الاتحاد والترقي سنة 1908م.

(70) **مُذكِّرات السلطان عبد الحميد الثاني:** السلطان عبد الحميد الثاني، ص88-89.

(71) **دمشق:** شيلشر، 233.

(72) **دمشق:** شيلشر، 234.

ـ «فتوى الخواص في حلّ ما صيد بالرصاص»، وموضوع هذا الكتاب كان قريباً جدّاً من قلب المفتي الذي كان صيّاداً ماهراً، وهو ما يُفسِّر بندقية الصيد التي تلقاها هدية من نابليون الثالث.

وكان صديقُ الحمزاوي وربيبه الأميرُ عبد القادر الجزائري قد تُوفِّي في أيار سنة (١٨٨٣م/ ١٣٠١هـ)، وهذا سهَّل على العثمانيين التخلُّص من الحمزاوي ومن نفوذه الواسع في دمشق.

وكان الجزائري قبل وفاته قد كتب شعراً في صديقه قال فيه:

سرِّحْ سَوادَكَ والطُّروسُ سَماءُ	ما للسِّماك لدى العَروس عَلاءُ
حَمداً لُمُلهم أوحَدِ العُلماء مَحـ	ـمودَ علوماً مَا لها إحصاءُ
هو أعلمُ اَلعُلَماء وَاحدُ عَصره	هو طَودُ سرِّ هُدًى له إهداءُ

وبعد جنازة مهيبة أوصلت الحمزاوي إلى مرقده الأخير، في تربة مرجِ الدحداح، اشتعلت معركة خلافته في دار الإفتاء، فأنصار الحمزاوي أرادوا يبقى هذا المنصب في أسرته، ورشَّحوا شقيقَه أسعد لتولِّيه من بعده، ولكنَّ السلطان عبد الحميد اعترض بشدَّة وعبَّر عن موقفه الصارم عن طريق شيخ الإسلام في إسطنبول، الذي قام بتعيين محمد المنيني مفتياً على دمشق، مُنهياً بذلك الجدل حول دور آل الحمزاوي في هذا المنصب[٧٣].

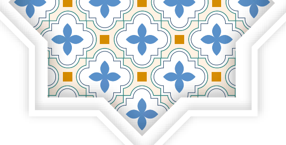
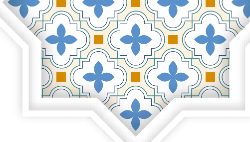
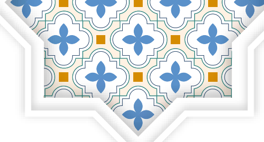
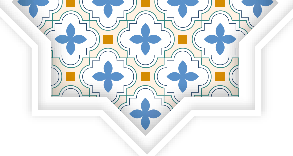
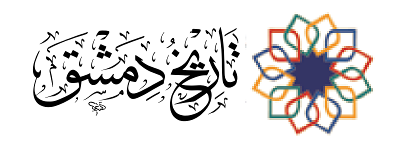
وقد غاب ذكر الحمزاوي من التداول الرسميّ من بعدها، وبقي مُختصَراً على الألسن، وذكريات أهالي حيِّ العمَارة، ممن عرفوه وعملوا معه واستفادوا من رعايته وعلمه.

ولعلَّ أكثر من حافظ على ذكره وأكرمه بعد وفاته كان سبطه الشاعر خليل مردم بك، صاحب النشيد الوطني السوري «حُماة الديار»، الذي لم يترك مناسبة وطنية وقومية إلا وذكَّر الناس بجَدِّه الكبير، سواء عندما كان وزيراً للمعارف في الأربعينيات، أو رئيساً لمجمع اللغة العربية بدمشق في مطلع عهد الاستقلال.

وقد وضع الشاعر مردم بك شجرة لأسرته، وكتب معها بخط اليد سيرة جدِّه المُفتي الحمزاوي، إلا أنها لم تُنشر حتى اليوم، وبقيت بين مقتنيات عائلة مردم بك[٧٤].

---

(73) **دمشق:** شيلشر، 234.
(74) قتيبة مردم بك (دمشق 21 تشرين الثاني 2020).

مصادر البحث ومراجعه

_ المراجع العربية:

_ الأعلام، الجزء الخامس، خير الدين الزركلي (دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٧).

_ أبو خليل القباني: باعث نهضتنا الفنية، حسني كنعان، مجلّة الرسالة (القاهرة)، العدد ٧٩٦ (٤ نيسان ١٩٤٦).

_ أبو خليل القباني: ريادة التجاوز، محمد بري العواني (وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٠).

_ أصول الأنساب الدمشقية، عبد الكريم الحمزاوي (دار الدقاق، دمشق ٢٠١٦).

_ المانوليا في دمشق، الفة الأدلبي (مطبعة ابن زيدون، دمشق ١٩٦٤).

_ تاريخ المسرح السوري ومُذكّراتي، وصفي المالح (دمشق ١٩٨٤).

_ تاريخ لبنان الحديث، كمال الصليبي (دار النهار، بيروت ٢٠٠٢).

_ تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، محمّد باشا الجزائري (القاهرة ١٩٠٣).

_ ثورة الدمشقيين سنة ١٨٣١، محمد خالد صافي (مجلّة جامع الأزهر، غزة ٢٠١٢ – مجلّد ١٤، العدد ٢).

_ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق البيطار (دار صادر، بيروت ١٩٩٣).

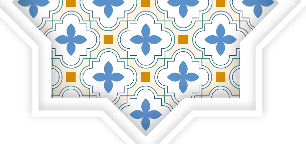
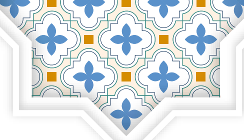
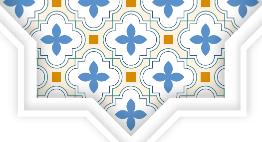
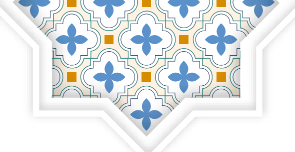
_ خطط الشّام، الجزء الثالث، محمّد كرد علي (مكتبة النوري، دمشق ٢٠٠٧).

_ دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ليندا شيلشر، (دار الجمهورية، دمشق ١٩٩٨).

_ روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر، محمد جميل الشطي (مطبعة اليقظة، دمشق ١٩٤٦).

_ سيرة المفتي محمود أفندي حمزة، خليل مردم بك. (مخطوط وُضع في دمشق سنة ١٩١٨).

_ شام شريف: دور الفقهاء في المجتمع الدمشقي في العهد العثماني، محمد شريف الصّواف (دمشق ٢٠١٤).



ـ مجتمع مدينة دمشق، الجزء الثاني، يوسف جميل نعيسة (دار طلاس، دمشق ١٩٨٦).

ـ مدحت باشا: حياته، مذكراته، محاكمته، يوسف كمال بك حتاتة وصديق الدملوجي (الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٢).

ـ مُذكّرات السلطان عبد الحميد الثاني، السلطان عبد الحميد الثاني (دار القلم، دمشق ١٩٩١).

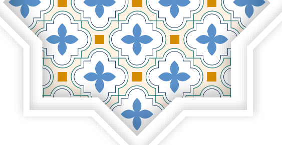
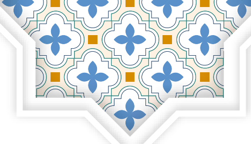
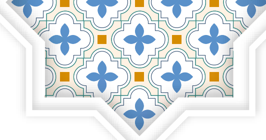
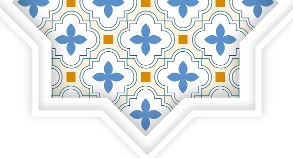
ـ مرآة الشّام: تاريخ دمشق وأهلها، عبد العزيز العظمة (دار رياض نجيب الريّس، لندن ١٩٨٧).

ـ مشاهد وأحداث دمشقيّة في منتصف القرن التاسع عشر، محمّد سعيد الاسطواني (دمشق ١٩٩٤).

ـ مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، ميخائيل مشاقة (دار بابيليون، جبيل ٢٠٠٧).

ـ مُنتخبات من التواريخ لدمشق، تقي الدين الحصني (دار الآفاق، بيروت ١٩٧٩).

ـ «مُنتخبات من مذكرات محمّد أبو سعود الحسيبي الدمشقي،» في كتاب بلاد الشام في القرن التاسع عشر، الدكتور سهيل زكار (دار حسّان، دمشق ١٩٨٢).

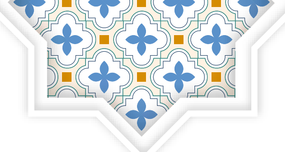
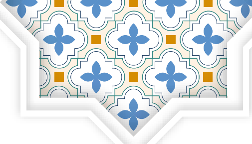
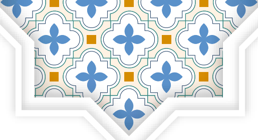
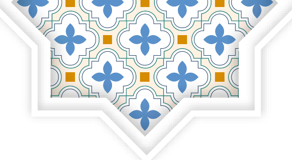
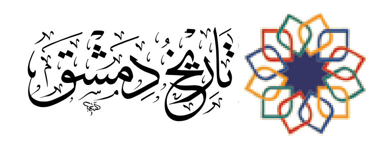





_ المراجع الأجنبية:

- Elizabeth Thompson; Ottoman political reform in the provinces: The Damascus Advisory Council in 18441845-. International Journal of Middle East Studies, volume 25 (1993), 457475-.
- Eugene Rogan; Sectarianism and Social Conflict in Damascus: The 1860 Events Reconsidered. Arabica, 51, (October 2004), 493511-.
- Leila Tarazi Fawaz; An occasion for war: civil conflict in Lebanon and Damascus in 1860 (University Press of California Press, 1995).
-

_ المراجع الحكومية:

- The National Archives of the United Kingdom of Great Britain, formerly known as the British Public Records Office (PRO).

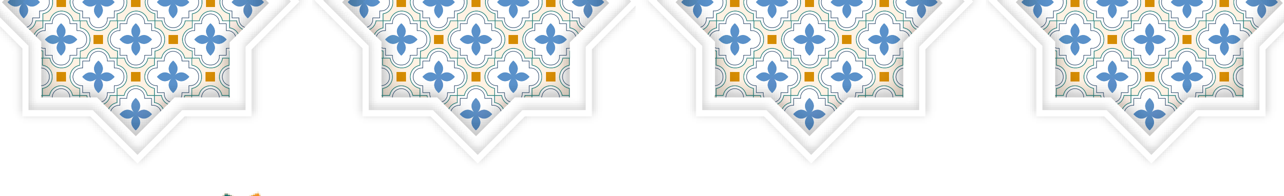









Sheikh Badr Al-Din Al-Hasani Library

History and reality

By: Iyad Khaled Al-Tabbaa

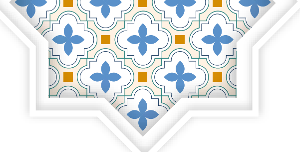
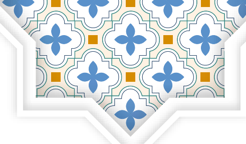
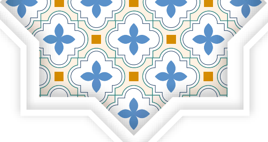
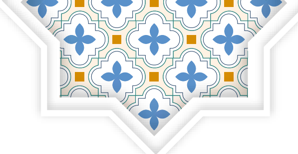


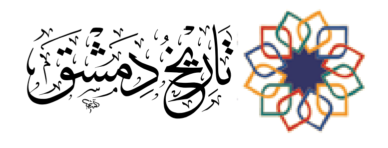


مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني التاريخ والواقع

إياد خالد الطبّاع[1]

(1) عضو هيئة المخطوطات الإسلامية في جامعة كامبريدج، وعضو هيئة البحث العلمي في جامعة بلاد الشام.



ملخص البحث

تُعَدّ مكتبة العلامة الشيخ بدر الدين الحسني إحدى المكتبات الخاصة المشهورة في أوساط العلماء بدمشق، ضمَّت عدداً من نوادر الكتب الخطية، وقد ذكرها عدد من الكتّاب والمؤرّخين وأشادوا بها ومدحوها، وقد انتقلت بالإرث إلى الأبناء ثم الأحفاد؛ ثم انتقل قسم منها إلى المكتبة الظاهرية ومجمع اللغة العربية.

Research Summary

Sheikh Bader al-Din al-Hasani was one of the greatest ulema of Damascus during the early years of the 20th Century. His private library in Damascus includes a number of rare books and manuscripts, often cited by scholars of contemporary Islam and the modern Middle East. Its ownership has inherited by his children and grandchildren, while many of his manuscripts and books found their way to the al-Zahiryeh Library and the Arabic Language Assembly in Damascus.

أولاً: ترجمة الشيخ بدر الدين الحسني (١٢٦٧ - ١٣٥٤هـ = ١٨٥١ - ١٩٣٥م):

هو العلامة الشيخ محمد بدر الدين الحسني، محدِّث الشام في عصره، مُسنِدٌ، مفسِّر، متكلِّم، نَحويّ، رياضيّ، بيانيّ، مشارك في العلوم، ووالدُه هو العلامة يوسف بن بدر الدين بَن عليّ بن شاهين بن عبد الله بن محمد بن مصطفى الحسني المدني، الحنفي مذهباً القادري طريقة، كما نسبه عبد الحي الكتّاني في «فهرس الفهارس»[٢]، ووَصَفَ والدَه بأنه من كبار المُسندين والعلماء الرحَّالين[٣].

وُلِد بدمشق، وحفظ كثيًرا من متون العلوم المختلفة، وانقطع للعبَادة والتدريس، وعلا شأنُه في الشام شأناً لم يبلغْه أحَدٌ من أقران عصره. وارتفعت مكانتُه عند الحكّام.

قام بالتدريس تحت قبّة النسر في الجامع الأمويّ، وهو آخر من تولَّى مشيخة دار الحديث.

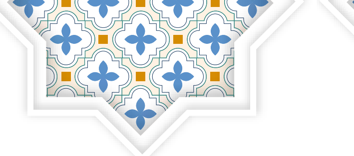
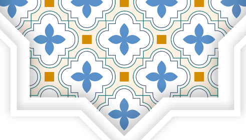
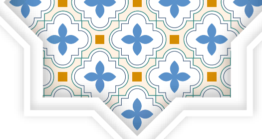
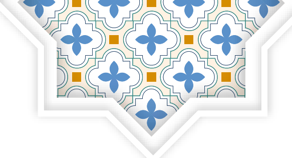
أقرأ الطلبة علوم التفسير والحديث والفقه والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والمنطق وغيرها، وقرأ درساً عامّاً بين العشاءَين، ثم اعتزل في غرفته بدار الحديث مُكبّاً على العلم والعبادة، ثم عاود التدريس بجامع سنان باشا، وبدار الحديث الأشرفية، وبداره بالقَيمرية، وبالجامع الأموي، وأمّا الإفتاء فكان يأباه ورعاً، ويُحيل إلى أقرانه أو تلاميذه من أهل العلم.

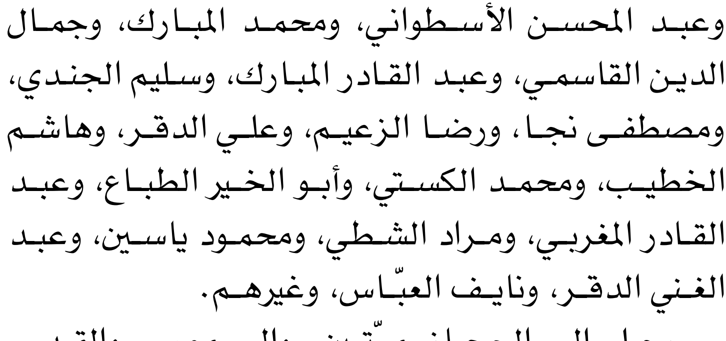
أخذ عنه جلّة علماء عصره؛ أمثال الشيوخ: طاهر الأتاسي، وأمين سويد، وتوفيق الأيوبي،

---

[2] **فهرس الفهارس**، محمد عبد الحي الكتاني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2: 1134. ونسبه عند الزركلي في «الأعلام» 7: 157: «محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد الغني المغربي المراكشي البيباني، بدر الدين الحسني».

[3] **فهرس الفهارس**، 2: 1134. وقال محمد عبد الحي الكتاني في ترجمة والده: 2: 1144: «وبكل أسف لا نعلم من ترجمة المترجم وأسماء شيوخه غير ما ذكرتُ بعد طول البحث مدة عشرين سنة في المشرق والمغرب،... وهذه الترجمة من التراجم التي لا تجدها مجموعة هكذا في كتاب، ولا في ذهن أحد من مؤرِّخي العصر، ولا أوراق أو حافظة ولد المترجم الشيخ بدر الدين المغربي الدمشقي المدَّعَى فيه اليوم أنه حافظ العصر ومُحدِّثه، فخذها شاكراً، فإني جمعتُ كل سطر منها وكلمة من بلد وفم في ظرف عشرين سنة».



وعبد المحسن الأسطواني، ومحمد المبارك، وجمال الدين القاسمي، وعبد القادر المبارك، وسليم الجندي، ومصطفى نجا، ورضا الزعيم، وعلي الدقر، وهاشم الخطيب، ومحمد الكستي، وأبو الخير الطباع، وعبد القادر المغربي، ومراد الشطي، ومحمود ياسين، وعبد الغني الدقر، ونايف العبّاس، وغيرهم.

رحل إلى الحجاز مرّتين، وإلى مصر والقدس وغيرها، وتُوفّي بدمشق.

قال مُعاصرُه الشيخ عبد الرزاق البيطار (ت١٩١٦)[٤] في وصفه: «عالمٌ إلا أنَّه عامل، وفاضل غير أنَّه كامل، قد اعتصم بحبل السنة والكتاب، وانتظم في سلك المتمسِّكين بأقوال الصحاب، واختار مذهب السلف الأعلى، ورأى سلوكه أروح لنفسه وأولى، لاتِّفاق الكل عليه بأنه أسلم، وحيث كان كذلك فهو أولى من غيره وأقوم، لا يُخالف صحيحَ النصّ وإن خالفته نصوص المتون، وكيف يَتّبع الرأي ويترك قولَ الصادق المأمون، فلله درُّه من عالم عابد، ناسك متّصف لا معاند، قد جمع الفصاحة في برود كلماته، والنباهة في مطاوي مبدعاته، إذا أخذ في إلقاء الأخبار، وجدته بحراً عجّاجاً، وإن تكلَّم في أنواع العلوم أبدع تقريراً وإنتاجاً، كأنما الأحكام في صدره مرقومة، وعوارف المعارف في خياله مصوّرة وفي لسانه منظومة، وله حافظة تُحصي له كلَّ ما يسمع، وإدراك هو أخفُّ من مرّ النسيم وأسرع.

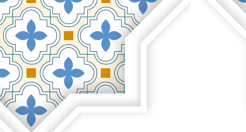
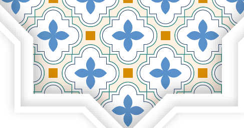
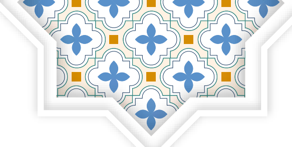
يقرأ في كل يوم جمعة بعد الصلاة «صحيح البخاري» في جامع بني أمية، ويزدحم الناس على درسه ازدحام الطالبين على العطيّة، غير أنه يسرد ما عَقلَه في ذهنه ولا سؤال من أحد ولا جواب، ومن رام إبداء إشكال فلا يجد لدخول حلِّه من باب.

وله حجرة في مدرسة دار الحديث قريبة من مقام ابن أبي عصرون، لا تكاد تجدها في وقت خالية من درس في فنّ من الفنون، وهو لا ينفكُّ في يومه عن صيامه، ولا في ليله عن قيامه، كثير الذكر قليل الكلام، دائم الصلاة على النبي عليه أفضل الصلاة وأتمُّ السلام. وقد عيَّنَت له الدولة في كل شهر ألفاً ومئتي قرش صاغاً»[٥].

---

[4] **عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقيّ (1253 - 1335 هـ = 1837 - 1916 م):** عالم بالدين، ضليع في الأدب والتاريخ، من دعاة الإصلاح في الإسلام، مُسنِد، مولده ووفاته في دمشق. حفظ القرآن في صباه، ومَهَر في علومه. من كتبه (حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر) ترجم به معاصريه، و(الرحلة) اشتمل على عدة رحلات إحداها القدسية والثانية البعلية، و(ساطع البرهان في ليس في الإمكان أبدع مما كان) في التصوّف والكلام، و(القصيدة الخمرية الميمية في مدح الشيخ الأكبر محيي الدين العربي). انظر الأعلام، خير الدين الزركلي، 3: 351، وفهرس الفهارس 1: 64، ومعجم التاريخ: التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)، إعداد علي الرضا قره بلوط، أحمد طوران قره بلوط، قيصري – تركيا: دار العقبة، 2001، 3: 1733.

[5] **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (المتوفى: 1335هـ)**، مجمع اللغة العربية

وكتب تلميذه الشيخ علي الطنطاوي عند موته في مجلة الرسالة القاهرية: «إنَّ أقلَّ مزايا الشيخ بدر الدين الحسني أنه يحفظ صحيحي البخاري ومسلم بأسانيدهما، وموطأ مالك، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة، ويروي لك منها ما تشاء كأنه ينظر في كتاب؛ وأنه يحفظ أسماء رجال الحديث وما قيل فيهم، وسنيَّ وفاتهم، ويُجيبكَ عمّا شئتَه منها، وأنه يحفظ عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة كالألفية والزبد والشاطبية والطيبةَ الخ... وأنّه ألَّف نحواً من خمسين مؤلَّفاً قبل أن يتجاوز عمره الثلاثين؛ وأن له اطلاعاً في كافة العلوم حتى الرياضيات العالية، فقد أقرأها لطلاب شعبة الرياضيات في المدرسة التجهيزية فأدهشهم وأدهش باطلاعه مُعلِّميهم؛ وأنه ما انقطع عن الدرس والتدريس يوماً واحداً منذ سبعين سنة على زهادة عجيبة، ووَرَع نادر، وَترفُّع عن الدنيا ولذاذاتها، مع الغنى الواسع والمال الكثير، وهو على الجملة آخر علماء السلف الصالح رضي الله عنهم»[٦].

ثانياً: مؤلّفات الشيخ بدر الدين الحسني وعنايته بجمع الكتب:

لم يكن علماءُ الشام من أهل الاعتناء بالتصنيف؛ إلا ما قلّ منهم؛ غير أنّه قد عرفت دمشق أساطين من أهل التصنيف، مَلَؤُوا العالم الإسلامي شهرة وسمعة، وكانت تصانيفهم قطب الرحى في موضوعاتها؛ مثل العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م)[٧]، ومحمد أمين عابدين (ت ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م)[٨]، وحسن الشطي (ت ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨ م)[٩]، وعبد الغني الغنيمي الميداني (ت

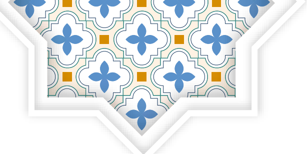
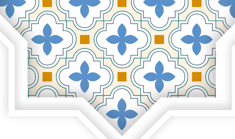
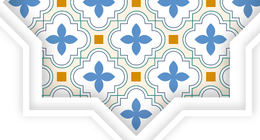
بدمشق، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار، ط2، 1993، 1: 376.

[6] **مجلة الرسالة،** أصدرها: أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: 1388هـ)، 105: 12.

[7] **عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي: (1050 - 1143 هـ = 1641 - 1731 م):** عالم بالدين والأدب والتصوف؛ ومعرفة بالموسيقا والألحان؛ له مصنفات كثيرة جدّاً، منها «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية» و»تعطير الأنام في تعبير المنام»، و»ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث» في أطراف كتب الحديث الستة، و»علم الفلاحة»، و»نفحات الأزهار على نسمات الأسحار»، و»إيضاح الدلالات في سماع الآلات»، و»ذيل نفحة الريحانة «، و»حلة الذهب الإبريز، في الرحلة إلى بعلبكّ وبقاع العزيز»، و»الحقيقة والمجاز، في رحلة الشام ومصر والحجاز «، و»قلائد المرجان في عقائد أهل الإيمان»، و»جواهر النصوص» جزآن، في شرح فصوص الحكم لابن عربي، و»شرح أنوار التنزيل للبيضاوي»، و» كفاية المستفيد في علم التجويد»، و»الاقتصاد في النطق بالضاد». انظر «الأعلام»، 4: 33.

[8] **محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقيّ: (1198 - 1252 هـ = 1784 - 1836 م):** الفقيه الشامي، وإمام الحنفية في عصره. مولده ووفاته في دمشق. له «رد المحتار على الدر المختار» خمس مجلدات، في الفقه الحنفيّ، يعرف بـ»حاشية ابن عابدين»، و»رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار»، و»العقود الدرية في تنقيح الفتاوي الحامدية» جزآن، و»نسمات الأسحار على شرح المنار» في أصول الفقه، و»حاشية على المطول» في البلاغة، و»الرحيق المختوم» في الفرائض، و»حواش على تفسير البيضاوي» التزم فيها ألا يذكر شيئاً ذكره المفسرون، و»مجموعة رسائل» وهي 32 رسالة، و»عقود اللآلي في الأسانيد العوالي» وهو ثَبَتُه. انظر **الأعلام**.

[9] **حسن بن عمر بن معروف الشطي الحنبلي:** (1205 - 1274هـ = 1790 - 1858م): فقيه فرضي. بغدادي الأصل، دمشقي المولد والوفاة. له تصانيف، منها «مختصر شرح عقيدة السفاريني»، ورسائل في «البسملة الشريفة، وفسخ النكاح، والتقليد والتلفيق». قال عبد الرزاق البيطار: «وله في مذهب الإمام أحمد بن حنبل التآليف المفيدة النافعة، وله أيضاً في بقية العلوم الشريفة من توحيد وبيان وحساب ومساحة. وقد شرح الإظهار في النحو، وله مولد شريف، ومعراج منيف، وشرح على حزب الإمام النووي، ومجلس في ختم البخاري». «حلية البشر»، 478، و»الأعلام» 2: 209.




١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م)[١٠]، ومحمود حمزة (=الحمزاوي) (ت ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م)[١١]، وسعيد القاسمي (ت ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م)[١٢]، وعبد الله الركابي السكري (ت ١٣٢٩هـ/ ١٩١٢م)[١٣]، وجمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)[١٤]، والشيخ عبد الرزاق البيطار (ت ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م)[١٥]، وجميل الشطي (ت ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م)[١٦]، على أنّ كثيراً ممّن ألّفوا كانوا من الذين صنّفوا التصانيف الصغيرة من الرسائل

---

[10] **عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقيّ الميداني:** (1222 - 1298هـ = 1807 - 1881م) فقيه حنفي مبرّز، له «اللباب» في الفقه الحنفي، في شرح القدوري، و» كشف الالتباس» في شرح البخاري، و»شرح العقيدة الطحاوية»، و»شروح ورسائل» في الصرف والتوحيد، و»إسعاف المريدين في إقامة فرائض الدين»، و»تحفة النسَّاك في فضل السواك»، و»رسالة في توضيح مسألة من كتاب المنار في مبحث الخاص في الأصول»، و»شرح العقيدة الطحاوية»، و»فتوى في شركاء اقتسموا المشترك بينهم»، و»كشف الالتباس عما أورده البخاري على بعض الناس» في الحديث، و»المطالب المستطابة في الحيض والنفاس والاستحاضة». انظر «الأعلام»، خير الدين الزركلي، 4: 33، و»معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»، علي الرضا قره بلوط، أحمد طوران قره بلوط، 3: 1808.

[11] **محمود بن محمد نسيب بن حسين بن يحيى حمزة الحسيني الحمزاوي الحنفي:** (1236 - 1305هـ = 1821 - 1887م)، مفتي الشام، مكثر من التصنيف؛ واشتهر شهرة عظيمة. وكان عجيباً في كتابة الخطوط الدقيقة، كتب سورة الفاتحة على ثلثي حبة أرز. وأُولع بالصيد فكان آية في حسن الرماية والتفنُّن بها. وكان فقيها أديباً شاعراً. من كتبه «در الأسرار» في تفسير القرآن الكريم بالحروف المهملة، مجلدان، و»الفتاوى» منظومة في مجلد، و «الفتاوى المحمودية» مجلدان ضخمان، و»الفرائد البهية في القواعد الفقهية»، و»قواعد الأوقاف» رسالة، و»العقيدة الإسلامية»، و»الكواكب الزاهرة في الأحاديث المتواترة»، و»عنوان الأسانيد»، و»الأجوبة الممضاة على أسئلة القضاة» و»الطريقة الواضحة إلى البينة الراجحة» في فقه الحنفية، و»مجموعة رسائل» إحدى عشرة رسالة، و»أرجوزة في علم الفراسة»، و»غنية الطالب، شرح رسالة أبي بكر الصديق لعلي بن أبي طالب»، و»الاستكشاف عن تعامل الأوقاف»، و»البرهان على بقاء ملك بني عثمان إلى آخر الزمان عثمان أركين»، و»التحرير في رمضان الآمر والمأمور»، و»ترجيح البيانات» في الفقه الحنفي، و»ثبت الحمزاوي» في الحديث. انظر «الأعلام»، خير الدين الزركلي، 7: 185، و»معجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»، 5: 3628.

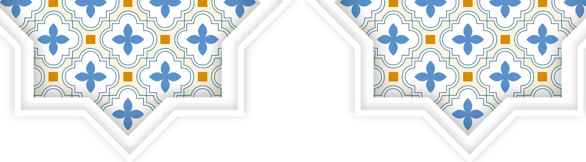
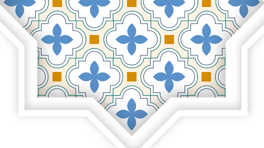
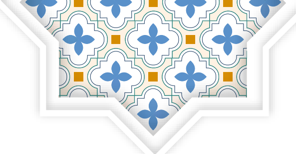
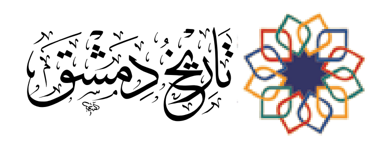
[12] **محمد سعيد بن قاسم بن صالح الحلاق القاسمي:** (1259 - 1317هـ = 1843 - 1900م): من علماء دمشق. عارف بالصناعات الشامية، وهو والد الشيخ المفسّر جمال الدين، أخذ عن الشيخ محمد الطنطاوي والشيخ سليم العطار والشيخ محمد المنير والشيخ عمر العطار، له فيها كتاب «بدائع الغرف في الصناعات والحرف»، رتبه على الحروف وبلغ فيه أواخر حرف السين، فأكمله ابنه الشيخ جمال الدين مشتركاً مع خليل بن أسعد العظم وسمياه «قاموس الصناعات الشامية» في مجلدين. وبقية كتبه المخطوطة ما زالت محفوظة في خزانة آل القاسمي بدمشق. وله مجموع سماه «سفينة الفرج فيما هبّ ودبّ ودرج» على نمط الكشكول، و»تنقيح الحوادث اليومية: الواقعة من سنة 1154هـ إلى سنة 1176هـ) نشرته كلية الآداب في جامعة عين شمس، باسم «حوادث دمشق اليومية»، و»الثغر الباسم في ترجمة والده الشيخ قاسم» في ترجمة والده، و»ديوان منظوماته»، و»الكنز المدفون والفلك المشحون». انظر: حلية البشر 655، والأعلام 6: 141، ومعجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»، علي الرضا قره بلوط، أحمد طوران قره بلوط، 5: 3438.

[13] **عبد الله بن درويش الركابي السكري: (1227 - 1329هـ = 1812 - 1911م):** من ذرية بني شيبة: فقيه حنفي، محدّث، خطيب الجامع الأموي، ومدرّس البخاري فيه. قال الشطي في وصفه: فقيه مدرس سوداوي بلغ المئة، له مجموع رسائل طبعه الدكتور محمد بسام عبد الكريم الحمزاوي بدمشق؛ من كتبه «الدرّ النفيس فيما يحتاج إليه في ابتداء التدريس» = «الجواهر والّلآل في مصطلح أهل الحديث ومراتب الرجال»، و»فتح الكريم في إعراب بسم الله الرحمن الرحيم»، وعائلة السكري عائلة علمية، وكان قد نشر محمد مطيع الحافظ في موقع الألوكة: وقفية مكتبة الشيخ محمد سعيد السكري في مدفن درويش باشا بدمشق، https://www.alukah.net/culture/0/107582/. انظر **الأعلام 4: 85، ومعجم التاريخ «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»**، علي الرضا قره بلوط، أحمد طوران قره بلوط، 2: 1281.

[14] **جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي:** (1283 - 1332هـ = 1866 - 1914م): فقيه، مفسّر، متكلّم، مصنّف، أديب، إمام الشام في عصره، علماً بالدين، وتضلّعاً من فنون الأدب، انقطع في منزله للتصنيف وإلقاء الدروس الخاصة والعامة، في التفسير وعلوم الشريعة الإسلامية والأدب. ونشر بحوثاً كثيرة في المجلات والصحف. له نحو اثنين وسبعين مصنفاً، منها «دلائل التوحيد»، و»ديوان خطب»، و»الفتوى في الإسلام»، و»إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق»، و»شرح لقطة العجلان»، و»نقد النصائح الكافية»، و»مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام في الجن»، و»موعظة المؤمنين» اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي، و»شرف الأسباط»، و»تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب»، و»جوامع الآداب في أخلاق الأنجاب»، و»إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، و»تعطير المشام في مآثر دمشق الشام» أربع مجلدات، و»قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث»، و»محاسن التأويل: تفسير القرآن العظيم»، في 17 مجلداً في تفسير القرآن الكريم. انظر: **الأعلام**، 3: 236، **وجمال الدين القاسمي**، لابنه ظافر القاسمي، **وجمال الدين القاسمي**، نزار أباظة، طبع دار: القلم بدمشق.

[15] سبقت ترجمته.

[16] **محمد جميل بن عمر بن محمد بن حسن بن عمر جلبي الشطي:** (1300 - 1379 هـ = 1882 - 1959 م): فقيه حنبلي، فرضي، مؤرّخ، عمل

ونحوها؛ ولم يكن للكثير منهم مؤلّفات معتبرة.

وأمّا المعتنون بجمع الكتب من العلماء بمدينة دمشق؛ فنذكر منهم: الشيخ عبد السلام الشطي[١٧] (ت ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م)، والتاجر العالم الشيخ محمد شريف النص (ت ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م)[١٨]، والعلامة المفسّر الشيخ جمال الدين القاسمي.

وأمَّا المترجَمُ فلم يعتن رحمه الله بالتأليف ولم يرغب فيه، رغم الحديث عن نحو أربعين كتاباً له، طُبع منها القليل، غير أنّه اعتنى بجمع الكتاب المخطوط والمطبوع عنايةً فائقة، وحصَّل مخطوطات نادرةً بالشراء، كما اعتنى بشراء الكتب الموقوفة ليخلّصها من أيدي المعتدين عليها بسرقتها، وليستفيد منها ثم يُعيدها إلى مكان وقفها بعد الانتهاء منها، وامتدّت عنايتُه إلى اقتناء الأواني الصينية الفاخرة إلى جانب الكتب[١٩].

وقال الزركلي[٢٠]: «وكان يأبى الإفتاء ولا يرغب في التصنيف، فلم نعرف له غير رسالتين مطبوعتين: إحداهما في سنده لصحيح البخاري، والثانية في شرح قصيدة «غرامي صحيح» في مصطلح الحديث. وله ثالثة مخطوطة سماها «الدرر البهية في شرح المنظومة البيقونية – مخطوط» في خزانة الرباط (١٢٩٥ كتاني)، جاء اسمه عليها (محمد بدر الدين بن يوسف بن بدر الدين)[٢١]. ويقول من قرؤوا عليه مدة طويلة إنه ألف نحو أربعين كتاباً قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره، ولا أعلم أين ذهبت. كتبتُ إلى السيد محمد سعيد الحمزاوي، نقيب الأشراف بدمشق، أسألُه عن تآليف الشيخ بدر الدين، فبعث إليّ بقصيدة من نظم طاهر الأتاسي يمدح بها الشيخ، ويذكر كتبه، منها:

له تآليفُ في نهج الهداية قد .... أضحَت من الفضل تَتلو أبلَغَ السُّوَر

على الجلالين في التفسير حاشيةٌ... أرقُّ من دَمعِ صَبٍّ لَجَّ في السَّحَرَ

ومُعرَبٌ جاءَ للقرآنِ بَيَّنَهُ.......... عليك فيه، وليس الخُبْرُ كالخَبَرَ

ثم يُعدِّد من تآليفه: «شرح البخاري»، و«شرح الشمائل»، و«شرح الشفا»، و«شرح البيقونية» في المصطلح،

موظفاً في المحاكم الشرعية إلى أن ولي إفتاء الحنابلة. وصنف كتباً، منها: «مختصر طبقات الحنابلة»، و«روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر»، ومعه «تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر» وقطعتان من نظمه لم يسمهما، و«الفتح المبين» رسالة في الفرائض على المذاهب الأربعة، و«المنظومات الشطية» منظومات له قبل سنة 1324، و«الضياء الموفور في أعيان بني فرفور»، و«الفتح الجلي في القضاء الحنبلي» ترجم فيه لمن تولَّوا القضاء في محاكم دمشق من الحنابلة ابتداء من ابن قدامة إلى مؤلفه، و«رسالة في أحكام الإرث»، و«قانون الصلح» ترجمه عن التركية.

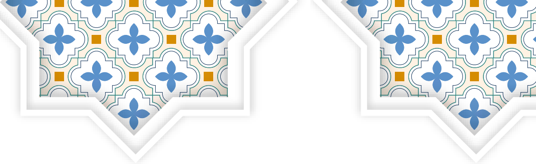
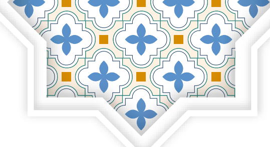
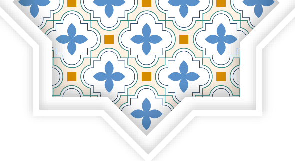
(17) **عبد السلام بن عبد الرحمن بن مصطفى الشطي:** (1256 - 1295 هـ = 1840 - 1878 م): كان إمام الحنابلة في الجامع الأموي. له نظم في ديوان صغير، و«الورد اللطيف في المولد الشريف» منظوم، ورسائل، قال ابن الشطي في «مختصر طبقات الحنابلة»: 193 - 195: هو العالم الفاضِلُ، العابد، النَّاسِكُ، الأديبُ الشَّاعر، اللَّوذَعيُّ اللطيفُ، كان من مَحاسِن دِمَشق وظُرَفائِها، حَسَنَ العِشرة، لَطِيفَ المُذاكَرة، مُفَنَّناً بالأدب، يَغلب عَلَيهِ الصَّلاح، واجتَمعَ عِنده من الكُتُب ما لَم يجتمعْ عند غيره. انظر أيضاً في ترجمته «حلية البشر»: 848، و«الأعلام» 4: 6.

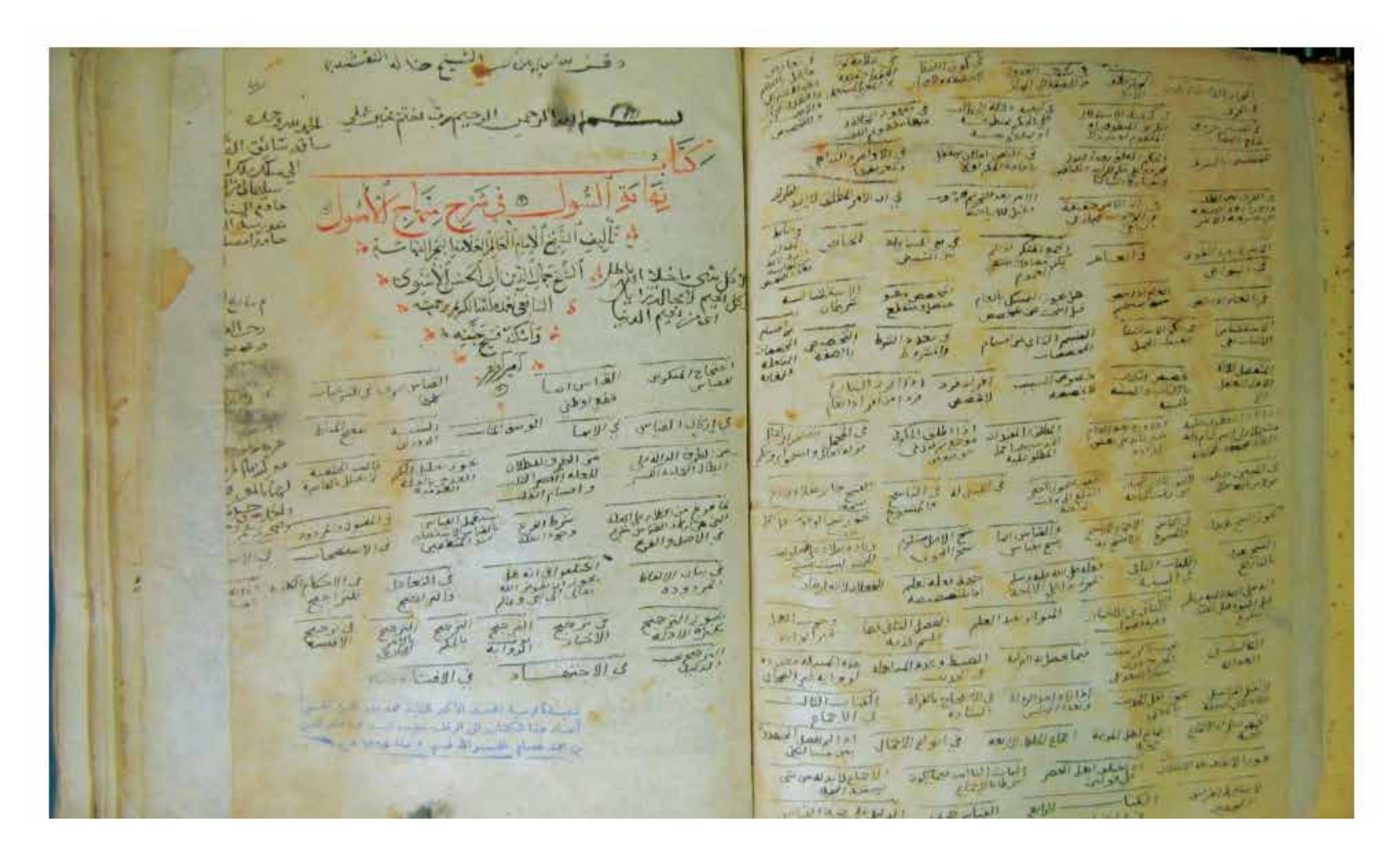
(18) **محمد شريف بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان النَّصّ الحنفي:** (1298-1359 ه = 1880- 1940 م)، عالم مشارك، من رؤساء التجار، جمع مكتبة عظيمة حوت كتباً نفيسة، وآثاراً خطيّة نادرة تُعدّ من أكبر المكتبات في دمشق، احترقت كلّها في الحريق الذي شبّ بحي سيدي عامود (الحريقة)، ثم ما لبث أن عوّضها، جامعاً النوادر من الكتب. انظر ترجمته في تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، نزار أباظة، 1: 624.

(19) أعلمني بذلك حفيدُه الأستاذ فخر الدين الحسني.

(20) **خير الدين بن محمود الزركلي:** (1310- 1396هـ = 1893- 1976م): مؤرّخ، دبلوماسي، شاعر، له كتاب «الأعلام» الكتاب الأشهر في القرن العشرين، و«عامان في عمان»، و«ديوان شعر»؛ انظر «**الأعلام**» 8: 268، «**تكملة معجم المؤلفين**»: 177.

(21) طبعت بدمشق في دار سعد الدين.

و«حاشية على شرح مختصر ابن الحاجب» في الأصول، و«حاشية على عقائد النسفي»، و«شرح نظم السنوسية»، و«شرح الخلاصة» في الحساب، وحواشيَ على شروح الشذور والقطر والجامي، في النحو، و«شرح مغني اللبيب»، و«شرح لامية الأفعال»، و«شرح السلم» في المنطق، و«حاشية على المطول» وكتباً أخرى. وذكر الحمزاوي أنه انتهى، بعد طول البحث، إلى رؤية اثنتي عشرة رسالة، مما بقي لصاحب الترجمة، في الحديث والتوحيد والتفسير.»[٢٢].

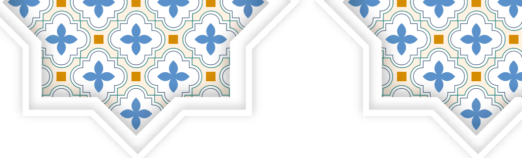
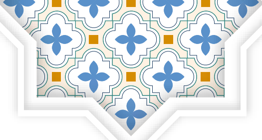
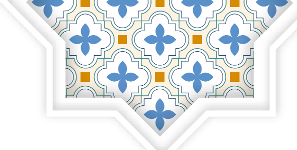
وكتب الشيخ علي الطنطاوي في مجلة «الرسالة» القاهرية: «كتب إليّ جماعة يسألونني عن مؤلفات الشيخ بدر الدين الحسني رحمة الله عليه فحقَّقتُ عنها، فإذا هي قد احترق مسوداتها حين احترقت مكتبة الشيخ. ولستُ أعرف للشيخ مؤلَّفاً باقياً. أما الفقرة التي سقتُها بين يدي مقالتي عن الشيخ في (الرسالة) الخامسة بعد المئة فهي من ترجمة الشيخ المنشورة في جريدة ألف باء الدمشقية صبيحة وفاته مكتوبة بقلم أستاذ كبير من كبار تلاميذ الشيخ رحمه الله. وقد كتبتُ هذا التنبيه كيلا يُسجَّل في (الرسالة) ما يُوهم غير الحقيقة. و(الرسالة) سجل خالد. ومن حقِّ (الرسالة) على كتَّابها ألا يكتبوا فيها إلا حقيقة، ومن حقّ قُرّائها عليها ألا يجدوا فيها إلا حقيقة. علي الطنطاوي»[٢٣].

ثالثاً: القيّمون على مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني:

توالى على المكتبة بحسب الزمان الذي آلت إليه تركةُ الشيخ المترجَم القيّمون الآتي ذكرهم؛ بحسب ما انتقلت إليهم بالإرث؛ وهم:

(22) **الأعلام**، 7: 158.

(23) **مجلة الرسالة**، أصدرها: أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: 1388هـ)، 107: 76.


ولده: الرئيس تاج الدين الحسني (١٣٠٧ - ١٣٦٢هـ = ١٨٩٠ - ١٩٤٣م): رئيس الجمهورية السورية الأسبق. ويظهر من بعض الوقفيَّات اسمه على بعض كتب جده.

ثم حفيده: الأستاذ العالم فخر الدين بن إبراهيم عصام الدين بن بدر الدين الحسني (١٣٢٩-١٤٠٧هـ =١٩١١-١٩٨٧م)[٢٤] : مدير الفتوى والتدريس الديني في وزارة الأوقاف.

ثم ابن حفيده: المهندس الفاضل بدر الدين بن فخر الدين بن إبراهيم عصام الدين بن بدر الدين الحسني[٢٥]، (على قيد الحياة) وهو من ثمانينيات القرن الماضي مغترب في الإمارات العربية المتحدة ثم في كندا.

ثم ابن حفيده: السيد عماد بن فخر الدين بن إبراهيم عصام الدين بن بدر الدين الحسني[٢٦] (على قيد الحياة)، وهو القيّم الفعلي على ما بقي من تراث جدّه.

ثالثاً: مكتبة بدر الدين الحسني في أدبيات الكتّاب والمؤرّخين:

ورد ذكر مكتبته عند عَلَمَين من أعلام الفكر والثقافة بدمشق في النصف الأول من القرن العشرين؛ هما: الأستاذ محمد كرد علي[٢٧] في كتابه «خطط الشام»، والأستاذ علي الطنطاوي[٢٨] في كتابه «فصول في الثقافة والأدب».

كما ورد ذكرها عند عدد من الأعلام المعاصرين المؤرّخين لدمشق وذاكرتها العلميّة والثقافية؛

---

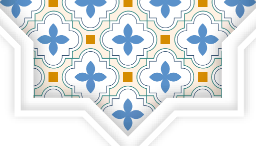
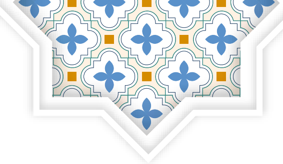
(24) **محمد فخر الدين بن إبراهيم عصام الدين بن بدر الدين الحسني:** (1329-1407هـ =1911-1987م): مدير الفتوى والتدريس الديني في وزارة الأوقاف، عالم فاضل، اعتنى بجمع تراث جده، وحضر عند جده وهو صغير، فقد نشأ في كفالة جده لوفاة أبيه شاباً، فعوّضه بالحنان والرعاية والاهتمام الخاص، وكان يصحبه معه دوماً، فألِفه العلماءُ الذين حفل بهم مجلس جدّه وألِفَهُم، وعليه قرأ أبرز تلاميذه كالشيخ محمود العطار وغيره. تولى وظيفة الكتابة في دائرة الفتوى بوزارة الأوقاف (1348هـ - 1367هـ)، ثم رئيس شعبة الفتوى العامة، ثم مديراً لإدارة الإفتاء العام والتدريس الديني، وكان يتولّى إضافة إلى ذلك الخطابة في جامع دار الحديث، وتولّى إدارة جمعيتها وإدارة معهد جمعية طلاب العلوم الإسلامية، وإدارة معهد الإسعاف الخيري. كان موضع ثقة العلماء وطلابهم وأهل الفضل. انظر ترجمته في **«علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري 1401-1425»**، نزار أباظة، دمشق: دار الفكر، 2007، ط1: 156، و«**تتمة الأعلام للزركلي:** وفيات (1396 - 1415 هـ) = (1976 - 1995 م) » محمد خير رمضان يوسف، 2: 89.

(25) **بدر الدين بن فخر الدين بن عصام الدين بن بدر الدين الحسني:** مهندس كهرباء، كان مديراً لشركة الخليج للتبادل التجاري في دبي، ثم تقاعد، ويعيش الآن في كندا.

(26) **عماد الدين بن فخر الدين بن عصام الدين بن بدر الدين الحسني**، ويعيش الآن في دمشق.

(27) **محمد كرد علي: (1293 - 1372 هـ = 1876 - 1953 م):** مؤسّس المجمع العلمي العربي، ورئيسه، ألّف وحقّق كثيراً من كتب العربية، شغل منصب وزير المعارف، توفِّي والده، وهو في الثانية عشرة من عمره، فابتدأ حياته الاستقلالية صغيراً. وأقبل على المطالعة والدروس الخاصة، فأحسن التركية والفرنسية، وتذوَّق الفارسية. وحفظ أكثر شعر المتنبي ومقامات الحريري. وتولّى تحرير جريدة (الشام) الأسبوعية الحكومية، سنة 1315 - 1318هـ، وكان يلتزم بها السجع في مقالاته. أسّس مجلة (المقتبس)، من كتبه «خطط الشام» ست مجلدات، و»الإسلام والحضارة العربية» مجلدان، وهو أجلّ كتبه، و»المذكرات» خمس مجلدات، «غرائب الغرب» مجلدان، و»أقوالنا وأفعالنا»، و»دمشق مدينة السحر والشعر»، و»غابر الأندلس وحاضرها»، و»أمراء البيان» جزآن، و»القديم والحديث» منتقيات من مقالاته، و»كنوز الأجداد» في سير بعض الأعلام، و «الإدارة الإسلامية في عز العرب» و»غوطة دمشق». **انظر محمد كرد علي:** المؤرخ البحاثة والصحافي الأديب، تأليف إياد خالد الطباع، طبع دار القلم، 2008.

(28) **علي بن مصطفى الطنطاوي: (1327-1420هـ = 1908- 1999):** أديب، خطيب، قاض، حقوقي، درّس في جامعة دمشق، وبغداد، والرياض، وعُرف رائداً إعلامياً في أحاديثه الإذاعية والتلفزية من دمشق وجدّة، صنّف الكثير مثل «دمشق: صور من جمالها وعبر من نضالها»، و»رجال من التاريخ»، و»قصص من التاريخ»، و»فصول إسلامية». عدّه الشيوخ وعلماء الدين من الأدباء، وعدّه الأدباء من علماء الدين، وهذا لا شك دليل على موسوعيته وثقافته الشاملة. انظر ترجمته في إتمام الأعلام، نزار أباظة، 2: 78.

نماذج مصوّرة من مجموعة الشيخ بدر الدين الحسني في مجمع اللغة العربية

وهم: الأستاذ المؤرّخ محمد رياض المالح[٢٩]، والدكتور محمد مطيع الحافظ، والدكتور نزار أباظة.

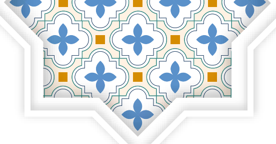
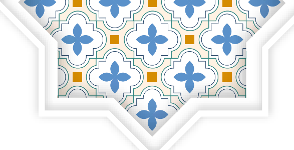
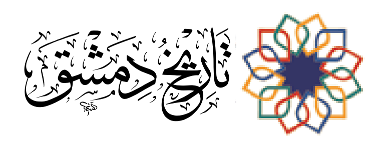
قال الأستاذ الرئيس محمد كرد علي في «خطط الشام» في فصل (خزائن الكتب): «وكان في دمشق عدة خزائن بُعثرت، منها خزانة آل حمزة، وخزانة الحضرة، وآل الحسني، وخزانة آل عبد القادر الحسني أهدت أسرته كثيراً مها للمجمع العلمي، فجعلها في خزانة الظاهرية. وحُرقت خزانة بدر الدين الحسني، وخزانة الشمعة، وآل مردم بك، وخزانة آل القوتلي»[٣٠].

وقال كرد علي في «خطط الشام»: في فصل (دور الحديث بدمشق): «[المدرسة] الأشرفية:..

---

(29) **محمد رياض بن خليل المالح: (1358-1419هـ = 1939-1998م):** مسند رحّالة باحث، من المشتغلين بتاريخ التصوف والأعلام والتراث والمخطوطات، عالم بالكتب وطبعاتها، ووفيات العلماء القدماء والمعاصرين، أتاح له عمله في الخطوط الجوية السورية زيارة دول العالم، والاتصال بعلمائها ومُسنديها وارتبط معهم بعلاقات متينة، ثم عمل باحثاً في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، تأثّر بالشيخ أبي الخير الميداني، وعبد الوهاب دبس وزيت، ألّف «عالم الأمة وزاهد العصر المحدّث الأكبر: الشيخ بدر الدين الحسني»، و«أربعون عاماً في محراب التوبة»، و«سلطان العارفين وإمام المحقِّقين: الشيخ محيي الدين بن العربي»، وحقّق «الخصال المكفرة للذنوب المتقدّمة والمتأخّرة» لابن حجر، وصنّف الشيخ محمد ياسين الفاداني «الروض الفائح وبغية الغادي والرائح: بإجازة فضيلة الأستاذ محمد رياض المالح» طبع في دار البشائر الإسلامية بتحقيق يوسف المرعشلي. انظر ترجمته في **«إتمام الأعلام»** 2: 428.

(30) **خطط الشام**، محمد كرد علي، في فصل (خزائن الكتب): 198/6.

وكانت يد التعدِّي تَسطو على هذه المدرسة في أواخر القرن الماضي، كما سطت على غيرها من المدارس فقام الشيخ يوسف البيباني المغربي واستخلصها، وأعادها مدرسة، وسكنها من بعدُ نجلُه الشيخ بدر الدين الحسني جعلها مقرَّه تُقرأ فيها دروسه، وقد حرقت في حريق سنة ١٣٣٠هـ، الذي دمّر أربعة شوارع من شوارع المدينة ودمّر ما فيها من مدارس، ثم رُمِّمَت ترميماً خفيفاً، وعاد بعض الطلبة والغرباء فسكنوها»[٣١].

وقال علي الطنطاوي في كتاب« فصول في الثقافة والأدب »[٣٢]: «وكنت قبل قدومي إلى المملكة من نحو خمس وعشرين سنة أزور مكتبة محدّث الشام، الشيخ بدر الدين الحسني (رحمه الله ورحم كل من ذكرت ومن سأذكر في هذا الفصل مَن مات منهم، ومن بقي فله مني التحيات) فوجدت كتاباً عظيماً هو ركيزة من ركائز علم اللغة، كان المعتقَد أنه فُقد فيما فُقد من كنوز مكتبنا الإسلامية، وهو «مُعجم الأصلين»، أي الكتاب والسنة، للإمام الهَرَوِيّ، أحد أئمة اللغة في القرن الرابع. وقد ذكره ابن الأثير في مقدمة «النهاية»، وعدّه خير ما أُلِّف في هذا الموضوع.

وجدتُ منه نسخة صحيحة، مشكولاً أكثرها، مكتوبة من ثمانمئة سنة، عليها خطوط بعض الأعلام، وقد سألت صديقنا الدكتور صلاح الدين المنجّد، وكان – يومئذ – مدير معهد المخطوطات، فعلمت أنه ليس في الدنيا من هذا الكتاب إلا نسخة ناقصة في جامعة بوسطن في أميركا، ونسخة أخرى ناقصة أيضاً في إسطنبول. وهذا الكتاب إذا طُبع كان أصلاً من الأصول وصُحِّح عليه القاموس ولسان العرب. وقد كتبت إلى كل جامعة أو مَجمع آمُل أن يعتني به وأن يطبعه، فما وجدت عند أحد اهتماماً ولا تلقَّيت منه جواباً!».

وأمّا الأستاذ محمد رياض المالح فقد قام بنشر قائمة عن مجموعة مخطوطات مجمع اللغة العربية بدمشق التي آلت إليه من مكتبة العلامة الشيخ بدر الدين الحسني، وذلك في «مجلة المورد» العراقيّة، المجلد (٦)، العدد (٢)، سنة ١٩٧٧، الصفحات (٢٢٩-٢٣٢).

وأمّا الأستاذان محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة فقد قالا في مقدمة تحقيق كتاب «النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل»:

«هذا ويعود الفضل إلى فضيلة السيد الأستاذ محمد فخر الدين الحسني حفظه الله؛ في ضمّ هذا المخطوط مع مجموعة قيمة من مخطوطات مكتبة جَدِّه العلامة المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني رحمه الله إلى مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، ولابد لنا هنا من تقديم شكرنا للأخ الأستاذ محمد رياض المالح لما يُقدِّمه من خدمات علمية في نشر تراثنا العلمي وحفظه»[٣٣].

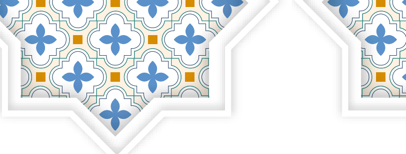
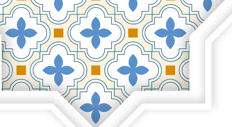
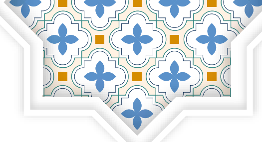
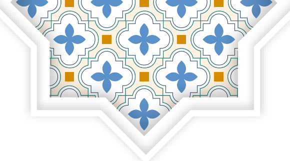
خامساً: مصورات (المكتبة الطبّاعيّة): مكتبة إياد خالد الطبّاع من مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني:

من المفيد في هذا البحث الإشارة إلى مجموعة من المقتنيات التي انتقلت إلى مكتبتنا تصويراً

(31) **خطط الشام**، في فصل (خزائن الكتب): 71/6.

(32) **فصول في الثقافة** والأدب، علي بن مصطفى الطنطاوي (ت 1420هـ)، جمع وترتيب: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص 92.

(33) النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل [من سنة 901 - 1207 هـ]، محمد كمال الدين بن محمد الغزي العامري (ت: 1214 هـ)، وعليه: زيادات واستدراكات حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، تحقيق وجمع: محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، دمشق: دار الفكر، ط1، 1982م، ص20.


عن طريق أحد أصدقاء السيد فخر الدين الحسني، وضَممناها إلى مجموعة بدر الدين الحسني إلينا؛ وهي:

١ــ مؤلفات الشيخ بدر الدين الحسني:

ــ البدور الجلية في شرح نظم السنوسية، لمحمد بدر الدين الحسني في ٣٠ ورقة، مقروءة، وعليها تصحيحات.

ــ حاشية محمد بدر الدين الحسني على شرح البردة، للجلال المحلي في ٣١ ورقة.

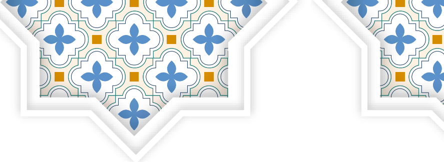
ــ شرح البيقونية، لمحمد بدر الدين الحسني، ٣١ ورقة.

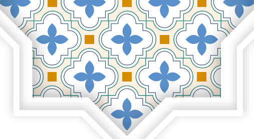
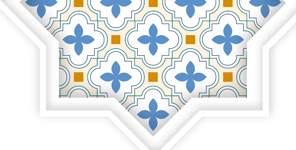
ــ شرح منظومة الشيباني في علم العقائد، لمحمد بدر الدين الحسني في ٩٠ ورقة.

ــ فيض الملك الوهاب على موافقة سيدنا عمر بن الخطاب، لمحمد بدر الدين الحسني في ١٤ ورقة.

٢ــ إجازات الشيخ بدر الدين الحسني من شيوخه:

ــ إجازة محمد شريف البخاري للشيخ يوسف بدر الدين المغربي في الطريقة النقشبندية، ٣أوراق.



ـ إجازة من حسن العدوي الحمزاوي المصري لمحمد بدر الدين الحسني.
ـ إجازة عبد القادر بن صالح الخطيب للشيخ محمد بدر الدين الحسني.
ـ إجازة إبراهيم السقا للشيخ محمد بدر الدين الحسني.
ـ إجازة الشيخ إبراهيم السقا للشيخ بدر الدين الحسني.
ـ إجازة الشيخ جعفر بن إسماعيل البرزنجي للشيخ محمد بدر الدين الحسني في الروضة الشريفة سنة ١٣٠٠هـ.
ـ إجازة محمد شريف البخاري للشيخ يوسف بدر الدين المغربي في الطريقة النقشبندية.

٣ـ إجازاته لتلاميذه:

ـ إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ عبد الحكيم كفتارو.
ـ إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ محمد سليم شخاشيرو.
ـ إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ محمد الهاشمي التلمساني.
ـ إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ محمود الرنكوسي.
ـ إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ زاهد الأتاسي الحمصي.
ـ إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ عبد القادر الخوجة الحمصي.
ـ منسوخة من إجازة الشيخ محمد بدر الدين الحسني للشيخ عبد الفتاح المسدي الحمصي.

٤ـ مؤلّفات في ترجمة الشيخ بدر الدين الحسني:

ـ الدرر اللؤلؤية في النعوت البدرية للرنكوسي، بخط محمد بن سليم شخاشيرو.
ـ ترجمة الشيخ محمد بدر الدين الحسني، كتبها تلميذه محمود بن رشيد العطار، نسخة الظاهرية.
ـ ترجمتان بغاية الاختصار للشيخ بدر الدين الحسني وغيره، للشيخ أحمد الصابوني.

٥ـ كتب مقروءة على الشيخ بدر الدين الحسني:

ـ سنن الترمذي مقروءة على الشيخ بدرالدين الحسني، قرأها عليه الشيخ هاشم الخطيب.

٦ـ توزّع مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني:

توزّعت مكتبته في القطاعات الآتية:

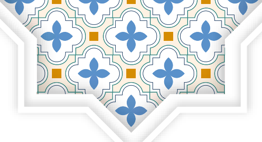
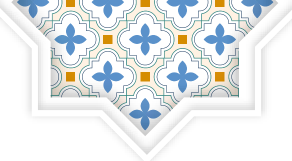
المجموعة الأولى: مجموعة المخطوطات لدى ولده تاج الدين الحسني، ثم حفيده فخر الدين:

قال الأستاذ محمد ياسين السواس: «مكتبة بدر الدين الحسني: وهو محمد بدر الدين، محدّث الديار الشامية الأكبر، توفي سنة ١٩٣٥ . ضمَّت مكتبته عدداً من المخطوطات والنفائس، أهدى منها (٧٩) مخطوطاً إلى المكتبة الظاهرية، وبقيت بقية تقدر بـ (٣٢) مخطوطاً، لعلها الآن قد بِيعت.

انظر:

١٩٧٧ : مخطوطات خزانة الشيخ بدر الدين الحسني. بقلم: محمد رياض المالح. المورد، مج٦، ع٢، ص ٢٢٩ – ٢٣٢.

وصف ٧٩ مخطوطاً اشتراها الشيخ بدر الدين الحسني، وذلك لإعادتها إلى الوقف حسب وصيته، وقد


قام بتنفيذ ذلك حفيده فخر الدين الحسني، وأهداها إلى المكتبة الظاهرية.

١٩٨٢ : ثبت مجموعة مخطوطات أهداها محمد فخر الدين الحسني إلى مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق. نشرة أخبار التراث العربي بالكويت، ع٣، ص٣.

١٩٨٦ : تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر. تأليف محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، جـ ١، ص ٤٧٣ – ٤٩٤ »[٣٤].

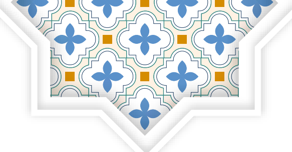
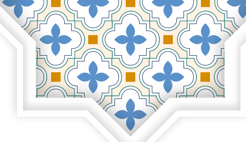
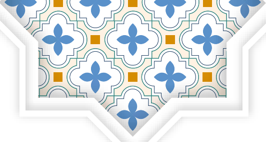
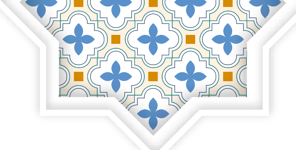
يتوفَّر لدى العائلة سجل للمخطوطات تبلغ فيه المخطوطات حوالي (؟)، وقد سبق أن أهدى مجمع اللغة العربية نحو (٧٩) مخطوطاً، واشترى المجمع نحو (٥٠٢) مخطوطة في فترة سابقة، وبقي لدى السيد فخر الدين الحسني (؟) مخطوطة، تعرّضت للسرقة نحو (٦٠) مخطوطة، تمكّن الورثة من استرجاع مخطوطتين.

المجموعة الثانية: مجموعة مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني في مجمع اللغة العربية بدمشق:

تبلغ هذه المجموعة نحو (٥٨٢) مخطوطة منها (٧٩) إهداء، والباقي (٥٠٣) شراء؛ فهي إذن قسمان؛ القسم الأول: (المجموعة المهداة من فخر الدين الحسني)، والقسم الثاني: (المخطوطات المشتراة

---

(34) كلام ياسين السواس في: **المخطوطات الإسلامية في العالم = (The Survey of Islamic Manuscripts)**، تحرير جيفري روبرت، ترجمة عبد الستار الحلوجي، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2002، 2: 813.


من مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني، عن طريق حفيده فخر الدين الحسني):

القسم الأول: المجموعة المهداة من فخر الدين الحسني:

كانت لدى حفيده فخر الدين، ثم نفَّذ وصية جدّه بدر الدين بإرجاع الموقوف منها إلى مجمع اللغة العربية بدمشق[٣٥]. إذ كان من عادة الشيخ بدر الدين الحسني أن يشتري الكتب التي تُعرض للبيع ويكون عليها وقف؛ بغرض الاستفادة منها وإرجاعها إلى مكانها الموقوفة عليه بعد الانتفاع منها، وقد أوصى بإرجاع كتبه التي عليها وقف بعد مماته، وقد نفّذ ذلك حفيده السيد فخر الدين الحسني وعاونه بذلك صديقنا ومُجيزنا الأستاذ محمد رياض المالح رحمهم الله تعالى. وهي (٧٩) مخطوطاً. كثير منها ورد من الأوقاف الآتية:

ـ وقف الملا عثمان الكردي.

ـ مكتبة أبي عمر الصالحي.

ـ وقف خالد النقشبندي.

ـ وقف سليمان باشا العظم.

ـ وقف أحمد باشا الجزار بعكا.

القسم الثاني: المخطوطات المشتراة من مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني لمجمع اللغة العربية بدمشق، عن طريق حفيده فخر الدين الحسني، وهي من رقم ٨١-٥٨٦، كما ذكر ياسين السواس في «المخطوطات الإسلامية في العالم»[٣٦]، ويذكر السواس أنّه بقي منها لدى الورثة ٣٢ مخطوطاً.

٧ـ نماذج من مجموعة بدر الدين الحسني في مجمع اللغة العربية:

فيما يأتي أنموذجات من مكتبته:

ـ كتاب في الاستعارات: مجلد مخروم الآخر أوله: الحمد لله الواجب وجوده، أقول: افتتح كتابه بالحمد.

ـ شرح مختصر المنتهى للعضد الإيجي في أصول الفقه: أوله: الحمد لله الذي بَرَأَ الأنام. تاريخ النسخ (١٠٥٢هـ) وقف الملا عثمان الكردي.

ـ الغيث الهامع في شرح جمع الجوامع لأبي زرعة العراقي: أوله: أما بعد حمد الله والصلاة على رسوله...

مجلد واحد.

ـ الترغيب والترهيب للحافظ المنذري: المجلد الثاني.

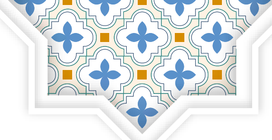
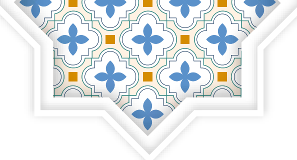
ـ شرح القسم الثالث من المفتاح للسيد الشريف: تاريخ النسخ (٨٦٣هـ)، وقف الملا عثمان الكردي.

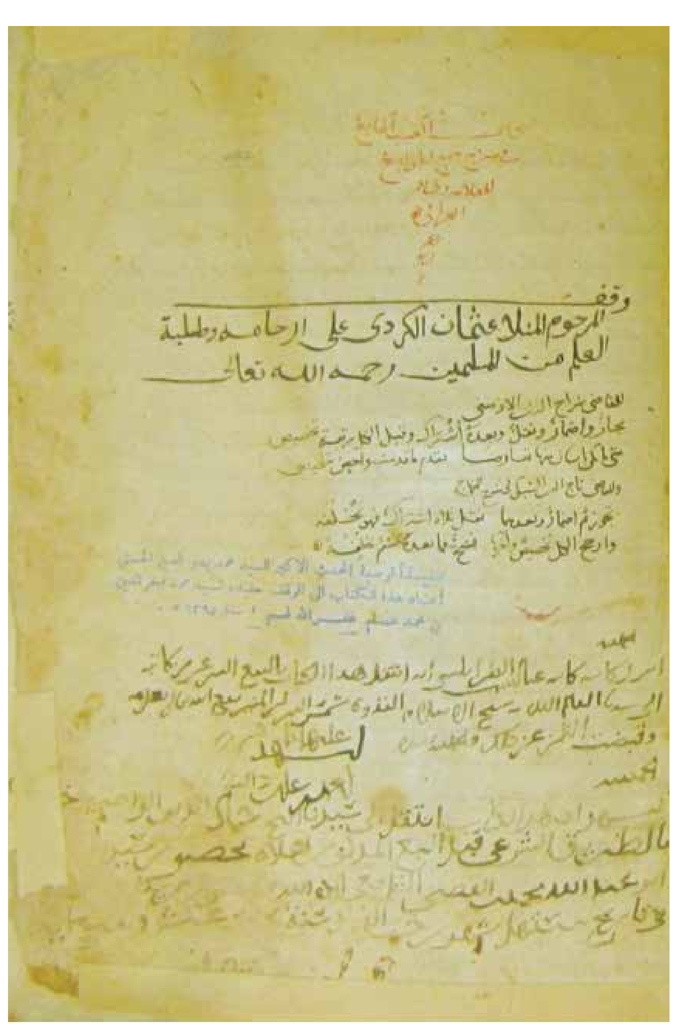
ـ تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد: لبدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر المخزومي الدماميني. الجزء الثاني فقط. تاريخ النسخ (٨٤٥هـ).

ـ النكت على ابن الصلاح للبدر الزركشي: أوله: الحمد لله الذي أعلى منار الإسلام. نسخة قديمة قيّمة.

(35) أخبرني بذلك حفيده السيد فخر الدين الحسني.

(36) المخطوطات الإسلامية في العالم = (The Survey of Islamic Manuscripts)، 2: 813.



وقف المرحوم المنلا عثمان الكردي على ارحامه وطلبة العلم من المسلمين رحمه الله تعالى

ـ شرح المحصول للرازي: تأليف شهاب الدين بن إدريس المالكي المعروف بالقرافي. أوله: الحمد للّه الذي تفرَّد في عظم أُلوهيّته. الجزء الأول.

ـ حاشية على شرح المختصر للعضد الأريجي: تأليف الأبهري، أوله: الحمد للّه الذي شرع الأحكام وربطها بدلائل. تاريخ النسخ (٨٢٠هـ).

ـ المجلد الثالث من تفسير القرطبي: من سورة التوبة. مخروم الأول والآخر. وقف مدرسة ابن النحاس.

ـ الفوائد شرح الزوائد وهي شرح على منهاج البيضاوي: للشيخ برهان الدين الأبناسي. أوله: الحمد للّه الذي أسَّس شريعة نبيه أحسن أساس. مخروم الآخر.

ـ تفسير ابن عروة الحنبلي المسمى بالكواكب الدراري: أوله: الحمد للّه نحمده ونستعينه... المجلد العشرون. تاريخ النسخ (٨٢٥هـ).

ـ شرح مختصر ابن الحاجب وسعد التفتازاني: أوله: الحمد للّه الذي وفقنا للوصول إلى منتهى أصول الشريعة الغراء. تاريخ النسخ (١٩٩٢هـ). وقف الملا عثمان الكردي.

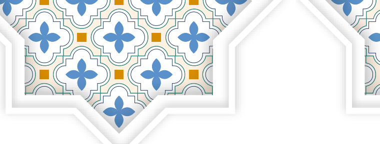
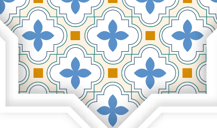
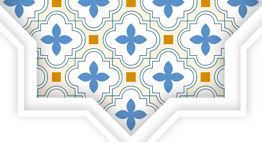
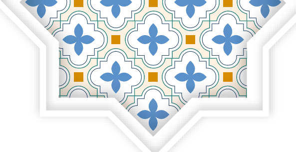
ـ النكت العرفية بما في شرح الألفية لبرهان الدين البقاعي. نسخة قيّمة قُرِئت على المؤلف. وقف خالد النقشبندي.

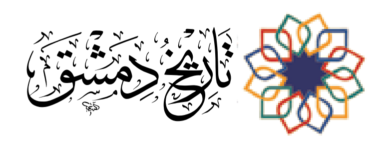
ـ إثبات الواجب للجلال الدواني: أوله: سبحانك ما أعظم شأنك. بهامشه تعليقات بخط دقيق.

الخلاصة

عدد المخطوطات	مكان حفظها	اسم المكتبة	
؟	دمشق	المكتبة الظاهرية	
٧٩	دمشق	مجمع اللغة العربية	
٥٠٢	دمشق	مجمع اللغة العربية	
٦٠	دمشق	فخر الدين الحسني	
٣٢	؟	؟	أشار إليهم السواس
٦٠	بيروت	كانت لدى حفيده ثم سُرِقت	

٨ـ نماذج مصوّرة من مجموعة الشيخ بدر الدين الحسني في مجمع اللغة العربية (قد أثبتنا صورها خلال سياق البحث).



مصادر البحث ومراجعه

ـ إتمام الأعلام، نزار أباظة، دمشق: دار الفكر.

ـ الأعلام، خير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٥.

ـ تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، تأليف محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، دمشق: دار الفكر، ٢٠١٦.

ـ تتمة الأعلام للزركلي: وفيات (١٣٩٦ - ١٤١٥هـ) = (١٩٧٦ - ١٩٩٥م)، محمد خير رمضان يوسف، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٨.

ـ تَكملة مُعجم المُؤلفين، وَفيات (١٣٩٧ - ١٤١٥هـ) = (١٩٧٧ - ١٩٩٥م)، محمد خير رمضان يوسف، بيروت: دار ابن حزم، ط١، ١٩٩٧.

ـ ثبت مجموعة مخطوطات أهداها محمد فخر الدين الحسني إلى مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق. نشرة أخبار التراث العربي بالكويت، ع٣، ص٣.

ـ جمال الدين القاسمي، نزار أباظة، طبع دار: القلم بدمشق.

ـ جمال الدين القاسمي، لابنه ظافر القاسمي.

ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٣٣٥هـ)، مجمع اللغة العربية بدمشق، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار، ط٢، ١٩٩٣.

ـ خطط الشام، محمد كرد علي، دمشق: مكتبة النوري، ط٣، ١٩٨٣.

ـ الروض الفائح وبغية الغادي والرائح: بإجازة فضيلة الأستاذ محمد رياض المالح، تأليف محمد ياسين الفاداني، تحقيق يوسف المرعشلي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٥.

ـ علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري ١٤٠١-١٤٢٥هـ، نزار أباظة، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٧.

ـ فصول في الثقافة والأدب، علي بن مصطفى الطنطاوي (ت ١٤٢٠هـ)، جمع وترتيب: حفيد المؤلف مجاهد مأمون ديرانية، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧.

ـ فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، محمد عبد الحي الكتاني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٢.

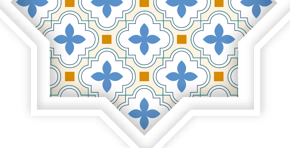
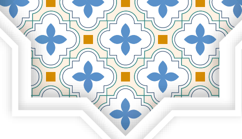
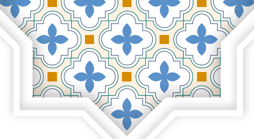
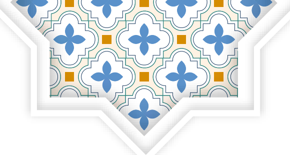
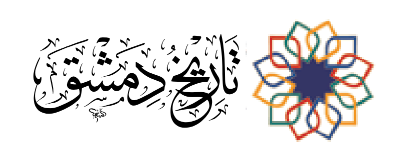
ـ مجلة الرسالة، أصدرها: أحمد حسن الزيات باشا (المتوفى: ١٣٨٨هـ).

ـ مجلة المورد العراقيّة (المجلد (٦)، العدد (٢)، سنة ١٩٧٧.

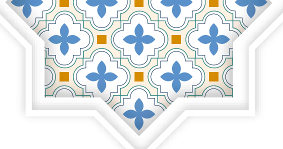
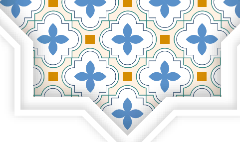
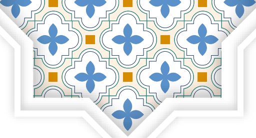
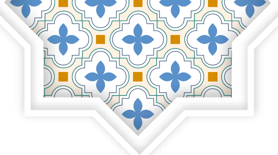
ـ محمد كرد علي: المؤرخ البحاثة والصحافي الأديب، تأليف إياد خالد الطباع، طبع دار القلم، ٢٠٠٨.

ـ المخطوطات الإسلامية في العالم = (The Survey of Islamic Manuscripts)، تحرير جيفري روبرت، ترجمة عبد الستار الحلوجي، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٢.

ـ مخطوطات خزانة الشيخ بدر الدين الحسني. بقلم: محمد رياض المالح. المورد، مج٦، ع٢.

ـ مصورات (المكتبة الطبّاعيّة): مكتبة إياد خالد الطبّاع من مكتبة الشيخ بدر الدين الحسني.
ـ معجم التاريخ: «التراث الإسلامي في مكتبات العالم (المخطوطات والمطبوعات)»، إعداد علي الرضا قره بلوط، أحمد طوران قره بلوط، قيصري – تركيا: دار العقبة، ٢٠٠١.
ـ النعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل [من سنة ٩٠١ - ١٢٠٧هـ]، محمد كمال الدين بن محمد الغزي العامري (ت: ١٢١٤هـ)، وعليه: زيادات واستدراكات حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري، تحقيق وجمع: محمد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٨٢م.
ـ وقفية مكتبة الشيخ محمد سعيد السكري في مدفن درويش باشا بدمشق، موقع الألوكة، https://www.alukah.net/culture/٠/١٠٧٥٨٢/.




An Introduction to Education Movement in Damascus

During the twentieth century AD = 14th Hijri Century

Dr. nezar Abaza



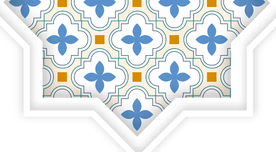
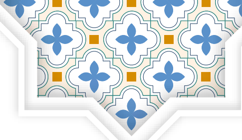
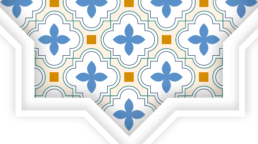


مدخل إلى حركة التعليم بدمشق

في القرن العشرين الميلادي - الرابع عشر الهجري

د. نزار أباظة[1]

(1) الباحث المتخصص في دراسات تاريخ دمشق وتراجم أعلامها.


ملخص البحث

يتناول البحث نشأة التعليم وتطوره بدمشق خلال القرن المذكور، فيعرضه عرضاً قريباً من ثلاثة مستويات:

١ـ التعليم الأهلي بشقيه الإسلامي (كتاتيب، مدارس، تعليم شرعي)، وغير الإسلامي (مدارس مسيحية ويهودية).

٢ـ مدارس البعثات الأجنبية.

٣ـ المدارس الرسمية. وينتهي إلى التعليم الجامعي. البحث يقدم صورة شاملة مجملة للتعليم بدمشق ليفيد في اعتماده أساساً للباحثين، وتمهيداً لهم في هذا الموضوع.

Research Summary

The paper covers the progress of education in Damascus during the years 19002000-, presenting it at three levels. The first is private education in two parts (Islamic and non-Islamic, the second being foreign schools/missionaries, third being public schools, and finally, higher education.

ـ مقدمة:

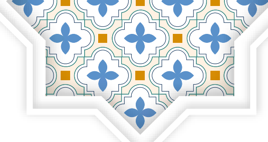
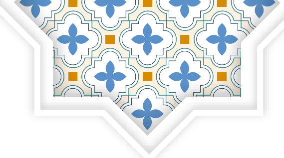
يتناول هذا البحث نظرةً عامة على حركة التعليم بدمشق خلال القرن الرابع عشر الهجري، سواء التعليم الخاص أو الرسمي بأنواعه وأسلوبه، تمهيداً لفتح المجال للبحوث المتأنية في بعض جوانبه؛ إذ إن كل جانب فيه يحتاج إلى وقفة متأنية للوصول إلى نتائج مفيدة في تاريخ التعليم بدمشق.

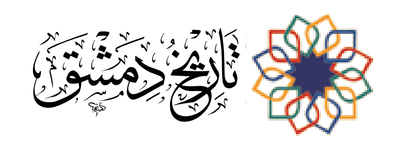
ومع وفرة الدراسات التي تناولت مجال التعليم بدمشق، إلا أنها اقتصرت على بعض الجوانب والإشارات في ثنايا المؤلَّفات التي تتحدَّث عن تاريخ دمشق وحضارتها، وما زال الكثير من جوانب التعليم بحاجة إلى بحث أعمق أو إلى استكمالات أو مذكرات شخصية.

ومن تلك الإشارات التي جاءت في ثنايا الكتب، على سبيل المشاركة مع موضوعات أخرى، كتاب نعمان قساطلي (-١٩٢٠م) «الروضة الغناء في دمشق الفيحاء»، ولعله من أقدمها، قدَّم في فصل منه كلاماً عن المدارس المختلفة للطوائف، وهو أشبه بإحصاء لها.

ومن تلك المشاركات جانب من كتاب عبد العزيز العظمة (-١٩٤٣م) «مرآة الشام»، أشار فيه إلى التعليم في الفصل الصغير الخاص به بنوع من التبصُّر أكثر.. فتحدَّث باختصار عن عدد المدارس لعهده، وقدَّم جدولاً في المناهج، وذكر ما أُسس من الكليات الجامعية آنذاك، وختم بكلمة عن العلوم الدينية.

وصدر عن مدرسة التجهيز الأولى بدمشق المسماة (مكتب إعدادية ملكية)، المشهورة باسم مكتب عنبر، كتابان: الأول «مكتب عنبر» لظافر القاسمي (-١٩٨٤م)، تحدث فيه عن الأساتذة والدروس لمعايشته فيه، وأعقبه كتاب «النور والنار في مكتب عنبر» لمطيع المرابط (-١٩٩٥م؟)، ثم شاركهما في الحديث عنه بفصل خاص الدكتور خالد قوطرش (-٢٠٠١م) في كتابه «التعليم في سورية»، الذي خصَّصه كلَّه لنشأة المدارس وبعض مناهجها.

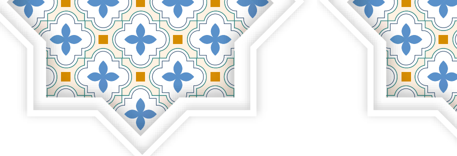
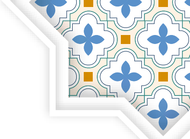
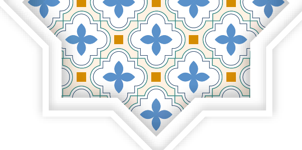
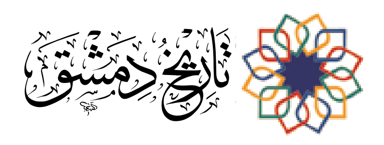


أعمال حفر مدرسة التجهيز الأولى

وهذا الكتاب وإن كان في عنوانه يشمل سورية إلا أنه لم يخرج عن دمشق سوى بإشارات عابرة، وقد تحدث عن التعليم في العاصمة خلال القرن الذي نحن بصدده، بدءاً بالكتاتيب حتى نهاية التعليم الثانوي، وقدّم معلومات جديدة ليست في غيره، وأشار إلى مدارس الإرساليات الأجنبية، وما أحدثه الفرنسيون في شهادتي الثانوية (البكالوريا) الأولى والثانية.. وسكت الكتاب عن أشياء كثيرة في التعليم الخاص الذي كان منتشراً بدمشق، والذي قدم جهوداً خيّرة، في حين عاب على التعليم الشرعي بما لم يقدّم فيه حجة ولا وثيقة. فكان كلامه غير علمي في هذا المجال، وفيه تشويش على الصورة الإسلامية آنذاك[٢].

وفي مقابل ذلك تناول الحديث عن المدارس مستفيضاً علي الطنطاوي (-١٩٩٩م) في ذكرياته التي أثار فيها كثيراً من التفصيلات عن المدارس التي كانت قائمة لعهده، والتي شارك هو بالتدريس فيها.. وقدم نقداً لاذعاً في بعض الأحيان للممارسات التربوية غير السوية فيها. فذكر ما للمدارس وما عليها إلا أنه اقتصر على المدارس الإسلامية دون غيرها، وأهمل ذكر مدارس كان لها وجودها، وإن أشار إلى بعضها إشارة ما.

(2) **التعليم في سورية**، خالد قوطرش، وانظر كلامه في ص34، 35.

أما الدكتور عزة مريدن (-٢٠٠٠م) فخصَّص كتاباً عن الدكتور أحمد منيف العائدي (-١٩٦٢م)، فتحدَّث في جانب مهمّ منه عن الكلية العلمية الوطنية إحدى ثانويات دمشق المبكرة.. ونسي مَن كان وراء هذه المدرسة من رجال.

أما بدايات التعليم الشرعي المنظم فتناوله في جانب منه كتابان، أولهما كتاب الدكتور محمد مطيع الحافظ (-١٩٤٠م) «جمعية العلماء»، الذي كشف فيه ملابسات تأسيس المعهد العلمي الديني المشهور باسم الكلية الشرعية، والثاني كتاب صاحب هذه السطور نزار أباظة (١٩٤٦م-) «الشيخ علي الدقر رجل أحيا الله به أمة» جلَّى فيه الحديث عن تأسيس «معهد العلوم الشرعية» للجمعية الغراء.

على أن كاتب هذه السطور أصدر كتاب «مدارس دمشق ومعاهدها في القرن الرابع عشر»، اقتصر فيه على خطة التعليم الأهلي في القرن المشار إليه، فتحدث عن أوليات التعليم وتطوره منذ الكتاتيب التي اختفت بعد منتصف القرن تقريباً، وبحث في المدارس الابتدائية والثانويات الرائدة، فالثانويات التالية لها، فمدارس المعاهد الشرعية، فمدارس الطوائف غير الإسلامية، وختم بمدارس الإرساليات التبشيرية. والكتاب يعطي صورة عامة للتعليم الخاص في هذه البلدة.

وأخيراً فإن «كتاب تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري» لمؤلفيه محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة يقدم جهود علماء الشريعة في نشر العلم من خلال حلقات المساجد، وهي جهود قديمة قدم الفتح الإسلامي، ومسؤولية حملها العلماء وأدَّوها بأمانة.

وهذا البحث يلملم أطراف ما سبق، ليقدم صورة عامة متكاملة تُمثِّل المدخل إلى البحث في التعليم بدمشق، خلال المئة الرابعة عشرة من تاريخ الإسلام.

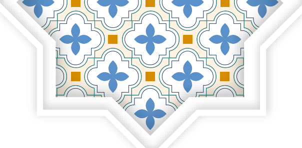
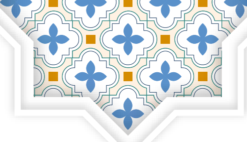
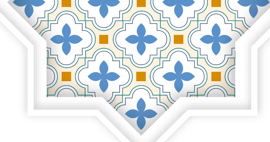
_ تمهيد:

كانت الأمية في أواخر عصر الدولة العثمانية منتشرة، والذين يقرؤون ويكتبون قلة قليلة، فربما وصلت رسالة إلى أحدهم من إسطنبول أو مصر فلا يكاد يجد أحداً يقرؤها إلا بشق الأنفس[٣]، وقد ذكر فخري البارودي (-١٩٦٦م) أن تجار سوق مدحت باشا، وهم محتاجون إلى تسجيل فعالياتهم اليومية بيعاً وشراء، كانوا يستعينون بطلاب مكتب عنبر الذين يفدون في طريقهم إلى المدرسة أو رجوعهم منها، ليسجلوا على دفاترهم الضروري من الحسابات، ريثما يحضر المحاسب آخر الأسبوع[٤].

ولم تكن الكتاتيب المنتشرة في الأحياء تعلّم غير القرآن وبعض الكتابات وشيئاً من الحساب البسيط، فضلاً عن أن بعض المعلمين وربما كثير من القائمين عليها شبه أميين بالمعنى الاصطلاحي للكلمة[٥]، وكان العلم محصوراً في حلقات العلماء بالمساجد عند المشايخ وطلابهم، وعند طلاب المدارس القليلة في المدينة[٦]، أما أصحاب الحرف والمهن اليدوية والآلية والباعة العاديُّون فما كانوا يدرون ما العلم. وإن كان كبارهم وأتقياؤهم لا يُحسنون سوى قراءة القرآن ودلائل الخيرات، ويعجزون عن قراءة أي نصّ آخر، وقد أدركت هذا عن جدتي وعماتي الكبيرات، وهذا من العجب الذي كنا نُدهش له نحن

---

(3) **التعليم في سورية**، 27.
(4) **مذكرات فخري البارودي**، 43/2.
(5) **التعليم في سورية**، 29.
(6) **مرآة دمشق**، **172**، **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء**، نعمان القساطلي.


الصغار[٧]. والمدهش الآخر أن الباعة، وخصوصاً باعة الخضار والفواكه، إذا اشترى منهم زبونٌ عدداً من المتفرقات المختلفات الأثمان يحسب المشتريات في ذهنه، دون الرجعة إلى ورقة أو قلم، ويكون حسابه صحيحاً... وهذا يُدعى الحساب الذهني[٨]، وهو من الدربة والممارسة.. وكان يفي بالحاجة، فيكتفون به ولا يتكلَّفون مشقة التعلم.

لم تكن الأمية تعني الجهل المطلق، وإن كان من لوازمها غالباً؛ فكثير من العامة تحفل محفوظاتهم بشيء واسع من التاريخ والسيرة النبوية والتفسير وغير ذلك، ولكنهم لا يعرفون القراءة إلا كلمات ربما، ويعجزون عن الكتابة إلا خطوطاً تُعينهم في حياتهم، ولا تَغني في العلم شيئاً[٩].

عندما غزا إبراهيم باشا سورية عام (١٨٣١م) وركز وجوده في الشام، وهدد الدولة العثمانية نحواً من عشر سنوات، ثم انسحب بضغط الدول الكبرى، فكَّرت الحكومة المعنيّة آنذاك في أسباب قوة المصريين، فتبيَّن لهم أن منها اهتمامهم بالتعليم، فعزمت على العناية بالعلم[١٠]. فتأسَّست المدارس الابتدائية والرشدية والعسكرية وأُنشئ مكتب عنبر. ولكن ذلك كان على تؤدة لا تُسايِر تبدُّلات العصر الذي لا ينتظر، ولا تستوعب أبناء المواطنين[١١].

كما تأخَّر إنشاء مدارس البنات بدمشق إلى نهاية القرن التاسع عشر[١٢]، وعلى قلة أيضاً.. وكان بسعي الشيخ طاهر الجزائري، الذي دعم عملَه الوالي مدحت باشا، وقد أحجم كثير من الأهالي عن إرسال بناتهم إلى المدرسة، إذ كانوا يتخوَّفون من تعليمهن[١٣]، أو لا يرون ضرورة لذلك، وغاية ما يفعلونه تعليم من عند الخجة[١٤]، وهذا أدَّى فيما بعد إلى نشوء نساء جاهلات لا يعرفن من العلم سوى الخرافات[١٥].

على أن المدارس في أواخر العهد العثماني كانت تُعلِّم جميعَ المواد الدرسية بالتركية، حتى النحو العربي والديانة الإسلامية[١٦]، وتمنع التلاميذ من الكلام بالعربية حتى في أوقات الاستراحة، وتُعاقب عليه[١٧].

وتغيَّرت الحال مع قيام الحكومة العربية التي حملت لواء العربية في المدارس والجامعة والدواوين، حتى انتقلت البلاد خلال سنتين إلى لغة عربية خالصة.. كانت كالمعجزة، واستطاع المجمع العلمي العربي أن يُسهم في هذه النقلة[١٨].

وحين وقعت البلاد تحت الانتداب الفرنسي لجأت المدارس الخاصة إلى فرض الحديث على تلاميذها

---

(7) من كتاب: وتلك الأيام، لكاتب هذه السطور (خ).

(8) وكان في المدارس الابتدائية لزمننا مادة تسمى الحساب الذهني يُدرّب فيه المعلمون تلاميذهم عليه، وجيل اليوم لا يستغني عن الآلة الحاسبة. انظر كتاب **محطات من غراس الياسمين:** موفق دعبول، 47/1.

(9) من مذكرات كاتب السطور، وفي أحاديث كبار أسرتنا.

(10) علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري، نزار أباظة، 443/1، **حلية البشر بتاريخ القرن الثالث عشر**، (1- 3)، **عبد الرزاق البيطار**، 15/1، خطط الشام، محمد كرد علي، 56/3.

(11) **جمال الدين القاسمي:** أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام، نزار أباظة، 52، النور والنار في **مكتب عنبر**، صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية، ظافر القاسمي، 51، تاريخ سورية أواخر الحكم التركي، علي سلطان، 119، التعليم في سورية، 43.

(12) **مرآة الشام**، تاريخ دمشق وأهلها، عبد العزيز العظمة، 172.

(13) التعليم في سورية، 43.

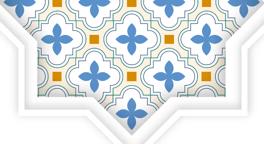
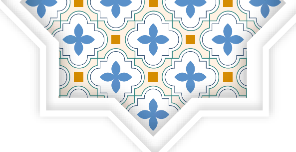
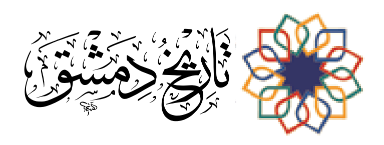
(14) الخجة: تقال لشيخ الكتاب الذي يعلم الصبيان.

(15) و هذا يعرفه أبناء جيلي في النساء حولنا.

(16) **ذكريات علي الطنطاوي**، 52/1.

(17) **ذكريات علي الطنطاوي.**

(18) انظر كتاب **حاضر اللغة العربية في بلاد الشام**، فهو يفصل هذا الموضوع.

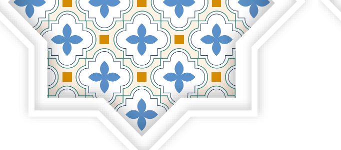
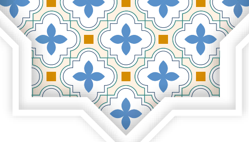
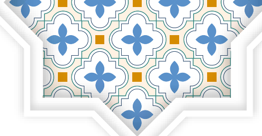
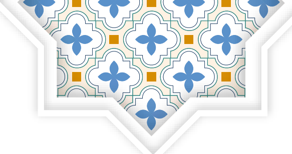
بالفرنسية، مثلما كانت تفعل المدارس الرسمية أيام الأتراك[١٩]، ومع هذا فقد كان للفرنسيين فضل في نشر المدارس، وإحداث نظام التعليم الثانوي[٢٠]، وظلَّ السوريون في منأًى من التأثُّر بالتغريب الفرنسي، الذي تأثَّرت به الجزائر والمغرب العربي كله، وحافظوا على نقاء لغتهم الفصحى، وكان للمجمع العلمي العربي الذي تأسس عام ١٩١٩م الفضل الكبير كذلك في سيادة العربية الفصحى بعيداً عن الفرنسية.
حتى إذا حصلت البلاد على استقلالها وجلا الفرنسيون عنها عام ١٩٤٦م انتشرت المدارس الرسمية، وطبَّقت وزارة المعارف سياسة تعليمية جيدة، ورفعت رواتب المعلمين، ووضعت آلية مناهج قوية، وكان التعليم فيها مجانيّاً تماماً من جهة، وجادّاً قويّاً من جهة أخرى، وفي المراحل كلها حتى الجامعة[٢١].
كانت المدارس لا تتساهل البتة في موضوع الامتحانات، وكثيراً ما كان يرسب الطلاب في الصفوف الانتقالية فضلاً عن صفوف الشهادات، ولا يتخرَّج إلا كلُّ طالب يستحقُّ النجاح، والمعلمون يشتدُّون في المراقبة وفي تصحيح أوراق الطلاب.. وهذا يعرفه أفراد جيلي والجيل الذي قبلي حتى تخرج في المدارس والجامعة رجال نفعوها في جميع التخصُّصات[٢٢].
نحن اليوم بحاجة إلى إعادة النظر في مناهج التعليم، وفي أسلوب الامتحانات، بعد الترهل الذي أصاب مؤسَّساتنا التربوية، ولهذا بحث له موضع آخر.
أما جامعة دمشق فقد تأخَّرت بداياتها حتى نهاية العقدين الأولين من القرن الرابع عشر الهجري/ بداية القرن العشرين الميلادي، ولم تقم كلياتها طفرة واحدة وإنما كانت تتَّئد في ظهورها، ويبدو أن الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية لعبت دوراً في هذا التأخير، خصوصاً أن الدولة العثمانية كانت تُعاني ضعفاً وشدة كما هو معلوم.
والتعليم في دمشق يُقسم إلى قسمين، الأول التعليم الأهلي غير الحكومي، وما يشمل من مدارس تعليمية قامت بجهود الأشخاص، وسيُعرض في القسم الأول من هذا البحث، والقسم الثاني التعليم الرسمي الحكومي، وما يضمُّ من مؤسسات تُديرها الدولة، وسيكون الحديث عنه في القسم الثاني من البحث.

التعليم الأهلي (غير الحكومي)

أولاً – الكتاتيب:

شاعت الكتاتيب[٢٣] في مختلف بلادنا منذ انتشار الفتح الإسلامي، وكان الغرض منها تعليم الأطفال القرآن والقراءة ومبادئ الحساب، وعند الباحثين أنّ الكُتَّاب أو المدرسة الأولية عُرفت زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وللكتّاب تسمية تختلف من بلد لآخر، فهي في الخليج العربي (المطوّع)، وفي الصومال (الدكس)، وفي موريتانيا (المحاضر)، وفي السودان (الخلوة)[٢٤].
ومَن يُطالع البحوث التي تناولت الحديث عن الكتاتيب يجد ما لا يَسُرُّه من الأوصاف فيها، من

[19] **ذكريات**، 52/1.
[20] **التعليم في سورية**، 63.
[21] **التعليم في سورية**، 148، 150.
[22] معايشات شخصية.
[23] مفردها كتّاب: وهو اصطلاح شائع، والصحيح في اللغة المكتب، كما قال شوقي:
ألا حبذا صحبة المكتب وأحبب بأيامه أحبب
[24] انظر **الموسوعة العربية**، سورية، 87/16.

حيث وجودها في ملحقات المساجد غير الصحية، أو في قاعات رطبة لا يتوفَّر فيها الجوُ المناسب للتعليم. فضلاً عن اتباع المعلمين فيها أساليب غير حسنة في التربية والتعليم، إضافة إلى فظاظتهم وقسوتهم ولجوئهم إلى وسائل عقاب أليمة[٢٥].



ثانوية السعادة

هل كان هذا الحال في الكتاتيب كلِّها؟ أهي على شاكلة واحدة؟ أم إنها تختلف؟ أظن كثيراً ممن كتبوا في الموضوع بالغوا فيه أو أنهم تحدَّثوا عن سلبيات جزئية وعلى نحو مُنفِّر[٢٦]، لا تتمتَّع بنظرة شاملة؛ وقلما أنصف الكتاتيب أحدٌ في كتاباته؛ فشيخ قراء الشام لزمنه، الشيخ أبو الحسن محيي الدين الكردي (-٢٠٠٩م) نشأ في كتّاب الشيخ عزي العرقسوسي (-١٩٥٩م)[٢٧]، وهو الذي صنعه على عينه وخرّجه التخريج اللائق[٢٨]، والشيخ جمال الدين القاسمي (-١٩١٤م) أحد مُجدِّدي القرن كان كثير الثناء على شيخه في الكتاب، يُقبِّل يدَه بعدما كبر[٢٩]. فهل يمكن للكتّاب إذا كان بؤرة جهل وقسوة أن يُخرِّج مثلَ هذين العلمَين اللذين انتفعت بهما دمشق مثلما انتفعت بغيرهما؟

وعلى أي حال فالكتّاب مرحلة مضت وانتهى دورها قبل منتصف القرن الرابع عشر تقريباً، واختفت بعد أن كانت منتشرة في أحياء دمشق كلها.

وكان الطفل إذا قرأ القرآن أو حفظه أو شدا شيئاً من مبادئ المعرفة، وتقدَّم به العُمر، تخرَّج من الكتّاب بمعرفة الشيخ، الذي يحضر حفلاً يُقيمه والد الصبي ويشهده معه رفاقه، يُنشدون الأناشيد مبتهجين جدّاً ويأكلون من الحلوى التي تُوزَّع عليهم[٣٠].

(25) اقرأ إن شئت لهذا الموضوع كتاب **التعليم في سورية**، 29، ومذكرات **فخري البارودي**، 29/1، واقرأ إن شئت كذلك لوحة مضحكة للكتّاب وشيخه صوَّرها طه حسين في الجزء الأول من كتابه الرائع **«الأيام»** وظهرت كذلك في مسرحية ساخرة قدمها الفنان عبد اللطيف فتحي (-1986م) بعنوان شيخ الكتّاب واشتهرت.

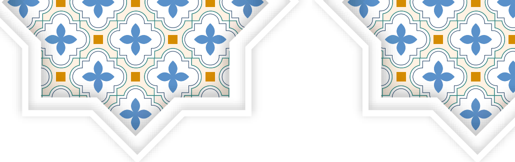
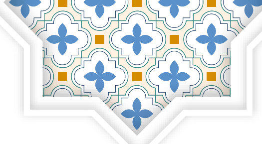
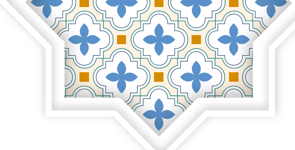
(26) **التعليم في سورية** مثال على ذلك، 29.

(27) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، 96/2.

(28) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**.

(29) **جمال الدين القاسمي**، 95.

(30) **التعليم في سورية**، 32.


وعلى أي حال فالكتّاب يعدُّ مرحلة كانت بدمشق، بها يبدأ الطفل حياته التعليمية الأولية، فإذا أنهاها بعد مدة يسيرة أو طويلة يتخرَّج بعدها إما إلى مهنة لا علاقة لها بالعلم، أو إلى مرحلة علمية أعلى[٣١].
أما البنات الصغيرات فكان الأب يسعى بهن إلى كتّاب آخر عند امرأة تسمى (الخجة)، وربما قبلت هذه الخجة الصبيان دون السابعة من العمر. والخجيات يُعلِّمن الأولاد القرآن دون سواه[٣٢].
ولا يفوتنا قبل أن نختم البحث الإشارة إلى وجود كتاتيب لغير المسلمين لم تكن أحسن حالاً؛ منها كتّاب أقامه خفيةً عن الدولة شابٌ تعلَّم بدايات العلوم في مدرسة الآسية يُدعى يوسف مهنا الحداد، فاتَّخذ غرفة يُعَلِّم فيها الأطفال، وهي غير صحية يمرُّ بها مجرور المياه المالحة[٣٣].
وهذا يعني أن كتاتيب أخرى ربما كانت للمسيحيين واليهود كانت تقوم بعيداً عن العيون أو في البيوت لتعليم الأطفال. ولكن أخبارها ضاعت ولم تُسجَّل.

ثانياً- المدارس الأهلية:

أ- المدارس الابتدائية:

(المدرسة السفرجلانية)

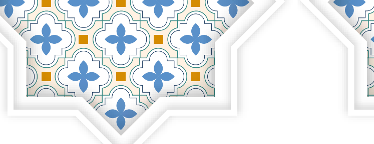
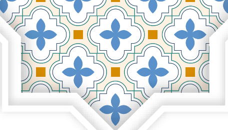
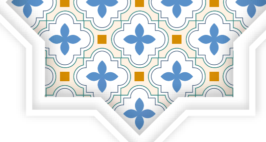
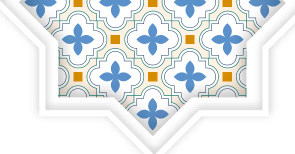
بقي الأمر بدمشق في تعليم الصغار على هذا الوضع حتى ظهر الشيخ عيد السفرجلاني (-١٩٣١م) الذي أنشأ مدرسته عام ١٨٦٨م[٣٤]، وفيها طوَّر أساليب التعليم المتأخِّرة في الكتاتيب، ليقيم مدرسة لها مناهجها وبرنامجها في صفوف منظمة ودوام معلوم ومدرسين أكفياء..[٣٥]
قال علي الطنطاوي: الشيخ عيد السفرجلاني معلم الشام حقيقة لا مجازاً، لبث يعلم أكثر من ٦٦ سنة، ولقد رأيتُ في سجلات مدرسته اسم التلميذ ثم اسم ابنه، ثم اسم حفيده، ثم اسم ابن الحفيد، علم أربعة بطون[٣٦].
أقول: ولو لم تكن هذه المدرسة على كفاية لما استمرَّت على هذه السنوات المتراخية.

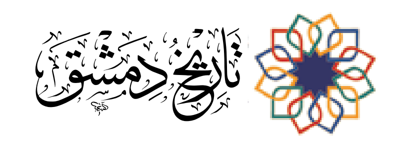
(المدرسة الريحانية)

أنشأها عام (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) الشيخ محمد المبارك (-١٩١٢م)[٣٧]، وعبد الجليل الدرا (-١٩٤٧)[٣٨]، توفَّر فيها التعليم الليلي إلى جانب النهاري لإتاحة الفرصة لأصحاب المهن المنشغلين بأعمالهم، وكانت تُدرِّس الموادَّ الشرعية والعربية والأدب، إلى جانب الجغرافية والتاريخ والهندسة ومبادئ المحاسبة التجارية واللغة التركية والفرنسية[٣٩]، واسمها من مدرسة أثرية كان مشهورة بهذا الاسم[٤٠].

---

(31) انظر مادة الكتاتيب في **الموسوعة العربية**، 86/16، ففيه تفصيل دقيق وواسع.
(32) **أوراق ومذكرات فخري البارودي**، 29/1.
(33) **مدارس دمشق ومعاهدها خلال القرن الرابع عشر الهجري**، التعليم الأهلي، نزار أباظة، 302، نقلًا عن الدكتور جوزيف زيتون.
(34) **التعليم في سورية**، 35. قامت أولًا في المدرسة السليمانية غرب خان الجمرك. **خطط الشام**، 270، ثم نقلها إلى المناخلية بجامع سنان باشا، فإلى المدرسة الجقمقية شمال الجامع الأموي، واستقرت في المدرسة الجوهرية التي بناها نجم الدين بن عياش (-694هـ). **مختصر تنبيه الطالب**، العلموي، 84. وسميت عندئذ المدرسة الجوهرية السفرجلانية. **تاريخ علماء دمشق**، 520/1.
(35) **تاريخ علماء دمشق**.
(36) **ذكريات علي الطنطاوي، 86/1، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، 025/1 ففيه تفصيل عن المدرسة.
(37) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 307/1.
(38) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 736/1.
(39) **مدارس دمشق**، 95، **تاريخ علماء دمشق**، 903/1، 737/2.
(40) المدرسة الريحانية بناها ريحان الطواشي (-575هـ) خادم نور الدين الشهيد (-965هـ) قرب المدرسة النورية بسوق الخياطين، **تنبيه الطالب**، 09، الدارس، النعيمي، 225/1، وهدمت هي والمنطقة كلها سنة 5731هـ/5591م. **خطط الشام**، 091.





(المدرسة الأمينية)

أنشأها في أربعينات القرن الرابع عشر الهجري/عشرينات القرن العشرين، الشيخ محمد شريف الخطيب[٤١] (-١٩٥٩م)، ونزلت في بناء أثري كان مدرسة للشافعية في الصاغة القديمة بهذا الاسم[٤٢] فنُسبت إليه. كانت تُطبِّق المنهج الدراسي المعتمد في مدارس الدولة، وتُضيف إليه المواد الشرعية. ويتقدَّم طلابها في نهاية المرحلة إلى الامتحانات الرسمية، ويحصل الناجح منهم على شهادة الدراسة الابتدائية من وزارة المعارف. كان أسلوبها في التعليم والإدارة والتربية سيِّئاً بل قاسيّاً جداً، كما ذكر علي الطنطاوي[٤٣].

(مدرسة الإسعاف الخيري)

أنشأتها الجمعية التي تحمل هذا الاسم عام (١٣٢٨هـ/١٩٠٧م)، وأشرفت عليها، وأقامتها في المدرسة الجوزية قرب قصر العظم أسفل سوق البذوريين. فلما قصفها الفرنسيون في الثورة السورية عام (١٩٢٥-١٩٢٧م) وتهدَّمت[٤٤] انتقلت إلى بناء خاصّ بها قرب مبنى البرلمان، وكانت المواد التعليمية فيها منهاج مدارس الدولة. وتُعنى بالأغراب وتوفر لهم إقامة ورعاية صحية[٤٥]، وفيها تخرَّج عدد من المشاهير، منهم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، (-٢٠٠٤م)[٤٦] وغيره.

(مدارس الجمعية الغراء)

اشتهرت هذه المدارس بدمشق عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) بعد أن قامت الجمعية بمعونة الوجهاء والتجار برئاسة الشيخ علي الدقر[٤٧] (-١٩٤٣م)، فأقامت مدرسة سعادة الأبناء في السميساطية[٤٨] شمال الجامع الأموي بمحلة الكلاسة، ومدرسة وقاية الأبناء في الميدان الوسطاني، ومدرسة روضة الحياء للإناث في زقاق البرغل بالشاغور. وقد اعتمدت هذه المدارس أيضاً منهاج مدارس الدولة وأضافت إليها المواد الشرعية واللغة الفرنسية[٤٩].

(مدرسة التربية الاستقلالية)

وجاءت بعد هذه المدارس مدارسُ أخرى على شاكلتها، أدَّت دورها في حركة التعليم، وكانت كلها على روح إسلامية وعربية، منها مدرسة التربية الاستقلالية، أسَّسها عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٥م) الشيخ محمود مهدي إستانبولي[٥٠] (-١٩٩٩م). كانت في منطقة سوق ساروجة، وضمَّت عشر شعب لخمسة صفوف ابتدائية. ثم نقلها إلى حي ركن الدين وأضاف إليها روضة أطفال لاهتمامه بتنشئة الصغار،

(41) انظر ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 329/2.

(42) بناها عام 415هـ أمين الدولة كمشتكين أتابك دمشق (-145هـ). الدارس، النعيمي، 961/1.

(43) **مدارس دمشق**، 07، **تاريخ علماء دمشق**، 329/2، ذكريات **علي الطنطاوي**، 903/8.

(44) بناها يوسف بن عبد الرحمن الجوزي (-656هـ) عام 256هـ. ثم أعيد بناؤها على العمارة البسيطة لتضم مع المسجد دكاكين. خطط دمشق، أكرم العلبي، 332.

(45) **مدارس دمشق**، 76.

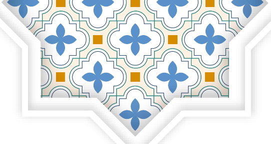
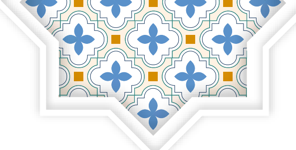
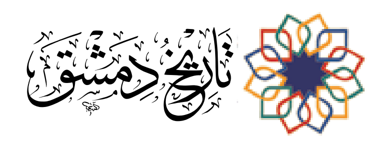
(46) انظر لترجمته **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 805.

(47) انظر ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 096/1.

(48) السميساطية: أشهر خوانق دمشق، عمرها أبو القاسم علي بن محمد السميساطي (-354هـ) نسبته إلى سميساط قلعة على الفرات، وقفها على فقراء الصوفية، ووقف عُلوّها على الجامع الأموي، كانت داراً لعبد العزيز بن مروان ولابنه عمر من بعده، وهي مدرسة كبيرة فيها 23 حجرة. الدارس، 151/2، **خطط دمشق**، 893.

(49) **تاريخ علماء دمشق**، 296/1، **مدارس دمشق**، **18**، **الشيخ علي الدقر: رجل أحيا الله به أمة**، نزار أباظة، 711، **ذكريات علي الطنطاوي**، 772/5.

(50) انظر لترجمته **إتمام الأعلام**، نزار أباظة، رياض المالح، 033/2، ط3، **وعلماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 404.

وكان أسَّس عام ١٩٤١م ما أسماه دار الطلبة، أحدث فيها دورات صيفية لتقوية تحصيل الطلاب في المرحلتين الإعدادية والثانوية، ولاستغلال العطلات في أعمال منتجة ومفيدة[٥١].

(المدرسة السعيدية العلمية)

افتتحها في محلة مسجد الأقصاب عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) مؤسسها ومديرها الشيخ محمد سعيد الشلاح (-١٩٧٣م)، الذي التزم فيها منهاج الدولة الرسمي، وأضاف إليه المواد الشرعية والأدب، وكان تلاميذها يتقدَّمون لامتحانات وزارة المعارف ويحصلون على شهاداتها[٥٢].

(المدرسة الهاشمية)

أسَّستها الجمعية الخيرية التي تحمل اسمها، وافتتحها عام (١٣٦٧هـ/١٩٤٧م) في حي الصادق غرب باب توما.. وقامت بتوجيه السيد محسن الأمين[٥٣] (-١٩٥٢م)، واشتُري البناء الذي نزلت فيه من أموال الزكاة والخمس والصدقات والهبات. اهتمَّت بالتلاميذ الفقراء والأيتام وأعانتهم في معيشتهم إلى جانب دراستهم. وهي كذلك تُطبِّق منهاج الدولة الدراسي[٥٤].

(مدرسة الإرشاد والتعليم)

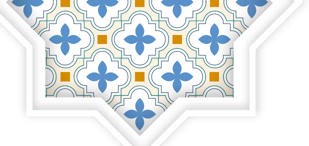
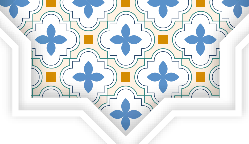
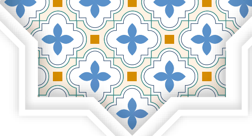
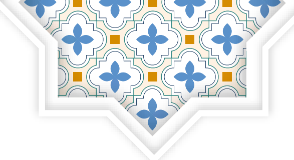
أنشأها في محلة مئذنة الشحم في ستينيات القرن الرابع عشر الهجري الشيخ أحمد بن محمد ابن يَلِّس (-١٩٥٩م)، وأسند العناية بها إلى الجمعية التي تحمل اسمها، بلغ عدد تلامذتها في بعض الأحيان ٣٠٠ متعلم، تعتمد منهاج الدولة الدراسي، بالإضافة إلى التعليم الديني الذي ألف الشيخ المذكور من أجله كتباً معيّنة. وقد استمرَّت المدرسة في عطائها حتى عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) حين أممتها الدولة، فتبعت وزارة التربية وتبدَّل اسمها[٥٥].

(المدرسة اليوسفية)

أنشأ هذه المدرسة للبنات التاجر الحاج يوسف بيضون (-١٩٢٧م)[٥٦] في حي الأمين، قامت بدايات عام (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م) حين كلَّف امرأة تقطن في دخلة الشرفاء في الحي تخصصَ غرفة في دارها لتعليم البنات القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة على نفقته الخاصة، ووفر لهن ما يلزمهن من كتب وأدوات[٥٧].

وكان سبب قيام المؤسس بهذه الخطوة أنه رأى في الحي بنتين مسلمتين ترسمان شارة الصليب على صدريهما كما تفعل المسيحيات، فساءه ذلك، فشجَّع البنات على الالتحاق بالمدرسة البدائية المذكورة[٥٨]. وتقلَّبت بالمدرسة الأحوال، وعُورض الحاج يوسف من أصحاب العقول المنغلقة بحجة أن تعليم البنات يُفسدهن، ولكنه صمد حتى عام ١٩٢٣م حين اشترى داراً واسعة للتدريس النظامي، وافتُتحت المدرسة بعد عامين في سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٥م. واعتمدت المدرسة حينئذ بعد الترخيص الحكومي منهاجَ الدولة،

(51) **مدارس دمشق**، 78.
(52) **مدارس دمشق**، 67، وفيه ترجمة المؤسس.
(53) انظر ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 987/2.
(54) **مدارس دمشق**، 98.
(55) **الرسالة اليلسية**، محمد عطاء الله يلس شاويش، 83. وفيها ترجمة مؤسس المدرسة.
(56) انظر لترجمته **مدارس دمشق**، 741.
(57) **مدارس دمشق. حكاية المحسنية: مسيرة نصف قرن من تاريخها**، 1901-1952م، بسام مرتضى.
(58) **حكاية المحسنية**.

ثانوية جودت الهاشمي – التجهيز

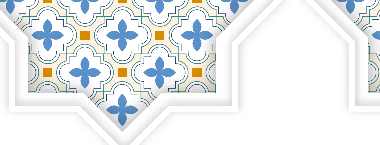
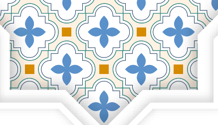
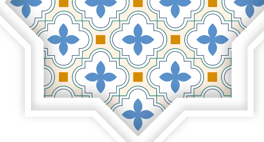
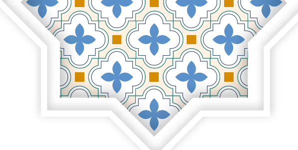
فكانت تُقدِّم تلميذاتها للامتحان الرسمي لينلن عليه شهادة الدراسة الابتدائية التي كانت تُسمَّى «السرتفيكا».

بقي المؤسِّس يُقدِّم للمدرسة ما يلزمها من مال حتى وفاته، وحينئذ أمر السيد محسن الأمين بتسميتها «المدرسة اليوسفية» اعترافاً بفضله، وقد افتتح في المدرسة فيما بعد قسماً للخياطة والأشغال النسائية، وقد ازدهرت المدرسة مع الأيام، وتتالت فيها الصفوف الإعدادية والثانوية، وهي على عطائها حتى اليوم، وتتبع في إدارتها للمدرسة المحسنية[٥٩].

(مدارس أخرى)

وكان في دمشق، في القرن الرابع عشر الهجري، مدارس بسيطة، تضم تلاميذ قلائل، منها مدرسة القيمرية للشيخ محمد المبارك (-١٩١١م)، والمدرسة السباهية للشيخ حسن الأسطواني (-١٩٣٠م)، وكانت في سدّة جامع السباهية بباب الجابية، ومدرسة الحيواطية بالشويكة للشيخ محمد المبارك كذلك، ومدرسة باب المصلى للشيخين محمد الشريف اليعقوبي (-١٩٤٣م) وصالح الطيب (-؟؟؟م)، ومدرسة زقاق المحكمة للشيخ محمود الحمامي (-؟؟؟م)، ومدرسة النهضة العلمية في حي العقيبة للشيخ عبد

[59] حكاية المحسنية.


الحمد اكريّم (-١٩٧٦م)، ومدرسة التوفيق في الميدان للشيخ محمد بهجة البيطار (-١٩٧٦م)[٦٠]، وغيرها.

وبعد:

- فقد سدّت هذه المدارس ثغرة كبيرة في نقص المدارس الرسمية، ولكنها لم تكن بعيدة عنها، فغالبها اعتمد مناهج الدولة، ونال طلابُها الشهادة الابتدائية العامة بمعرفة وزارة المعارف.

- احتلت معظم المدارس الأهلية أمكنة أثرية سُمِّيت بأسمائها كالمدرسة الريحانية والمدرسة الأمينية والمدرسة الجوهرية السفرجلانية. وما أظن الدولة كانت تُعارض ذلك.

اهتمت المدارس الأهلية باللغة العربية والعلوم الشرعية زيادة على مقررات مدارس الدولة.. فكانت رديفاً لها.

- كانت هذه المدارس تطوُّراً عن الكتاتيب التي أخذت تتأخَّر وتختفي رويداً رويداً.

- كانت الروح العربية والتاريخ الإسلامي هما الشائعين في المدارس الأهلية. وكان ذلك ردّاً على النزعة الطورانية التركمانية كما يبدو، فضلاً عن الغيرة الدينية التي كانت تُؤدِّي لذلك.

- لم تتقاضَ هذه المدارس من الأقساط إلا القليل، وما كان أحد يشكو من مطالباتها.

- لم نجد خلال المراجع والمصادر تدخُّل الدولة في أعمال المدارس الأهلية.

- من هذه المدارس ما كان بجهود أفراد كالمدرسة الأمينية والمدرسة الريحانية ومدرسة الإرشاد والتعليم، ومنها ما كان بجهود جمعيات كمدارس الجمعية الغراء ومدرسة الإسعاف الخيري.

- رأينا المدارس الأهلية كلها للذكور دون الإناث ما عدا مدارس الجمعية الغراء ففيها واحدة لهن.

- كان ديدن غالب المعلمين في هذه المدارس يعتمد الشدة في العنف الجسدي والإرهاب النفسي، أفاض في الحديث عنها علي الطنطاوي يحكي قصص المعلمين الذين يُعاقبون الطلاب عقابَ مجرم أو طالب ثأر يتشفَّى بالانتقام، وكانت عمدة التربية الفلق وعصا الخيزران، وكان الآباء يعاونون المعلمين على هذا فيقولون للمعلمين حينما يسلمون أولادهم إليهم «لك اللحم ولنا العظم» وذكر غير ذلك[٦١].

- كانت الامتحانات قاسية كتابية وشفوية، ولم يكن ينتقل التلميذ إلى صفٍّ أعلى إلا بعد جهد جهيد.. وكان الرسوب هو الشائع.

-لم تعرف هذه المدارس عطلة صيفية، وما كانت تُعطِّل إلا في الأعياد الدينية.. وكان الناس لا يحتملون تعطيل المدارس الرسمية، فكانوا يأخذون أولادهم في الصيف ليسجلوهم في المدارس الأهلية. (ذكريات علي الطنطاوي ٨/٣١٦)[٦٢].

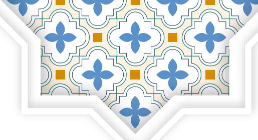
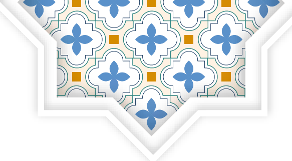
ب- المدارس الثانوية الرائدة:

عُرف من المدارس الثانوية الأهلية السابقة خلال هذا القرن الرابع عشر ثلاثُ ثانويات؛ المدرسة الكاملية، والمدرسة التجارية، والكلية العلمية الوطنية.

(60) انظر لهذه المدارس كتاب **مدارس دمشق**، 91. ولتراجم أصحابها **تاريخ علماء دمشق**، كل في تاريخ وفاته.

(61) **ذكريات علي الطنطاوي**، 31/1، 70، 223/3، 256/5، 309/8. وفي **مدارس دمشق**، 96 أنه أحد الأطفال بال في ثيابه مرعوباً من المعلم. وكانوا في سدة جامع المدرسة السباهية فقطرت على رؤوس بعض المصلين تحت السدة قطرات من بوله.

(62) انظر لمجمل التعليقات **مدارس دمشق**، 96 وما بعد.

مدرسة الجمعية الغراء

(المدرسة الكاملية)

نسبة إلى مؤسِّسها الشيخ كامل القصاب[٦٣] (-١٩٥٤)، افتتحها عام (١٣٢٣هـ/١٩٠٥م) في أحد تفرُّعات سوق البذوريين، وسماها المدرسة العثمانية، وعُرفت بين الناس باسمه. قال الزركلي: «وهي من أوائل العوامل في بثّ الروح القومية»[٦٤]، شملت المراحل التعليمية الثلاث، وافتتحت قسماً ليليّاً ليتمكن الشباب المشغولون بلقمة عيشهم من الدراسة فيها. اعتمدت المدرسة على العلوم العصرية كلِّها بلا استثناء، فضلاً عن علوم الشريعة والعربية واللغتين الفرنسية والإنكليزية، وعلَّم فيها خيرةُ علماء البلد، وقد قُبلت شهادات حامليها في دخول الجامعة[٦٥]، بعد حصولها على الترخيص.

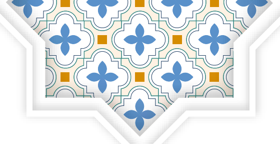
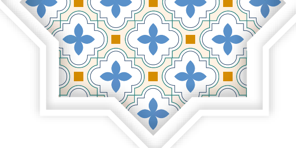
(المدرسة التجارية العلمية)

أسَّسها جماعة التجار الدمشقيِّين والوجهاء سنة (١٣٢٨هـ/١٩١٠م)، كانت تُسمَّى مدرسة الاتحاد والترقّي، فلما خرج الأتراك غُيِّر اسمُها لئلا تختلط بالحزب الذي انقلب على السلطان عبد الحميد الثاني وأسقطه، فنُسب اسمُها لمن أقاموها، لا لاعتبار آخر. كانت شرق الجامع الأموي، وشملت المراحل

(63) انظر ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 835/2، **والأعلام**، الزركلي، 13/7، وفي ثنايا كتاب **جمعية العلماء بدمشق**، محمد مطيع الحافظ.

(64) **الأعلام**، 13/7.

(65) **تاريخ علماء دمشق**، 836/2، **مدارس دمشق**، 108.

التعليمية الثلاث، وجُعل فيها قسم للحضانة، وكانت حين افتُتحت أكبر مدرسة في البلد. وعلَّم فيها أساتذة كبار العلومَ العصرية والشرعية والعربية[٦٦]، وكانت على ما تقول المصادر مدرسة متطورة، حتى إنها اعتنت بالتمثيل المسرحي يوم كان ذلك غير مقبول في دمشق، وكانت تلك بادرة غير مسبوقة[٦٧]. وقد تعلَّم الشيخ علي الطنطاوي في هذه المدرسة، إلا أنه رأى أسلوبها في التربية معوجّاً سيِّئاً[٦٨].

(الكلية العلمية الوطنية)

كان المحرك الأول في تأسيسها الشيخ محمد خير الطباع (-١٩١١م)[٦٩] فتأسَّست عام (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م)، قامت في بناء غرب قصر العظم، أسفل من سوق البذوريين. كانت متطورة في مناهجها وأسلوبها التعليمي، حيث نافست الثانويات الأخرى، واستقطبت طلاباً من الطبقة العليا في المجتمع، اشتهروا بعد تخرُّجهم في شغل الوظائف الإدارية العليا، وقادوا الحركة الاقتصادية والسياسية فيه، وكانت شهادتها معتمدة في الجامعة. وما إن قامت على سوقها حتى أُسندت إدارتُها إلى الطبيب الدكتور أحمد منيف العائدي (-١٩٦٢م)[٧٠]، فنهض بها نهضة شاملة، وقام على التدريس فيها أساتذة أكفياء.. ثم أُحدث بها وشيكاً فرع للبنات شمال سوق الهال القديم، شرق منطقة سوق ساروجة[٧١].

(المدرسة المحسنية)

أسَّس السيد محسن الأمين (-١٩٥٢م)[٧٢] مع جماعة وجهاء الشيعة المدرسة العلوية الإسلامية، التي افتُتحت سنة (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، ولم يُفتتح القسم الثانوي فيها إلا بعد عشر سنوات. وقد انفردت هذه المدرسة الثانوية عن سوابقها بإنشاء قسم داخلي لسكن الطلاب الغرباء، ثم إن الوجهاء الذين كانوا مع المؤسس غيروا اسمها إلى المدرسة المحسنية تكريماً له[٧٣].

ج- المدارس الثانوية اللاحقة:

منذ تطورت سورية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري/ثلاثينيات القرن العشرين، بسبب الحوادث السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها، وتطلُّعِ المجتمع حين حصلت البلاد على الاستقلال عام ١٩٣٦ وتهيأت لخروج الفرنسيين منها بعد عشر سنوات، أخذت تقوم حركة نشطة لتأسيس المدارس الأهلية، إذ لم تكن مدارس الحكومة لتَسُدَّ حاجة البلاد، فظهرت مدارس اشتهرت لتستوعب الطلاب المعنيين، وبعض هذه الثانويات أنشأها مدرسون أكفياء بأموالهم الخاصة التي تعاونوا عليها.

(دوحة الأدب)

لم يتعرَّض للحديث عنها من كتبوا عن مدارس دمشق سوى كاتب هذه السطور، وأشار إليها الشيخ علي الطنطاوي على خلفية فتنة حدثت في دمشق إثر حفلة رقص أقامتها المدرسة برمضان في قصر

---

(66) **مدارس دمشق**، 105، **من حارتي القيمرية**، حسان زكي النشواتي، 67، **ذكريات علي الطنطاوي**، 25/1، 103/2، 149/3، 259/5، 158/7، 35/8.

(67) **ذكريات علي الطنطاوي**، 149/3، 152، 307/8. والمعروف أن مسرح أبي خليل القباني رائد المسارح أغلق بشكوى من أحد الشيوخ. **تاريخ علماء دمشق**، 160/1.

(68) **ذكريات علي الطنطاوي**، 30/1.

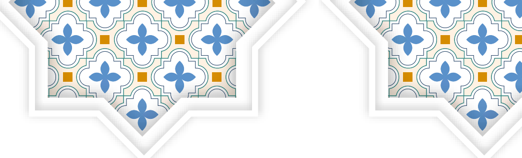
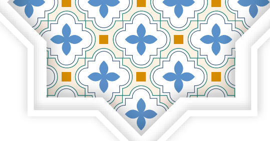
(69) انظر لترجمته **تاريخ علماء دمشق**، 294/1، وقال الزركلي فيه: أنشأ المدرسة الوطنية، وكان الناس في أشد الحاجة إلى مثلها، فنمت في أيامه نمواً سريعاً، وسميت بعد وفاته «الكلية العلمية الوطنية». ولا تزال إلى اليوم (خمسينات القرن العشرين) في طليعة المدارس الثانوية الأهلية. الأعلام، 119/6.

(70) انظر ترجمته في كتاب: **الأستاذ الدكتور محمد منيف العائدي**، لعزة مريدن.

(71) **الأستاذ الدكتور محمد منيف العائدي**، **107**، **مدارس دمشق**، 121.

(72) انظر لترجمته تاريخ علماء دمشق، 789/2، الأعلام، الزركلي، 287/5، أعلام مجمع اللغة العربية.

(73) **مدارس دمشق**، 133، وانظر كتاب **حكاية المدرسة المحسنية**.



العظم استنكرها علماء دمشق[٧٤]، أسَّست المعهد عادلة بيهم (-١٩٧٥م)[٧٥] هي وعدد من الناشطات بالعمل الاجتماعي من بنات الطبقة المخملية، وافتتح العام الدراسي (١٩٣٢/١٩٣١م) في حي أبي رمانة أرقى أحياء المدينة آنذاك وأغناه. بدأ بمدرسة ابتدائية فإعدادية ثم ثانوية في العام الدراسي (١٩٤٠/١٩٣٩م)، واعتمد في قيامه على منهاج العلوم المقررة في وزارة المعارف، مع اهتمامه بالتمثيل المسرحي والموسيقا والرقص وأدب الصحافة. وكان هدفه العام تنشئة الفتيات على الحياة العصرية الغربية تماماً، وتقوية الروح المعنوية فيهن[٧٦]. ولتأسيس هذه الأهداف التعليمية والمعنوية اعتمد المعهد مدرسين يتمتعون بانطلاقته وأهدافه.. ووضع له الشاعر سليم الزركلي نشيداً خاصّاً به، واختير للبنات زيٌ رسميٌ مُوحَّد، مما لم يُعرف في المدارس الأخرى[٧٧].

(المعهد العربي الإسلامي)

أنشأه عام (١٣٧٢هـ/١٩٥٢م) الدكتور مصطفى السباعي[٧٨] في منطقة طريق الصالحية قرب الجسر الأبيض، مستعيناً بجمعية حملَ المعهد اسمها ضمَّت أكثر من خمسين شخصية بارزة في دمشق ذات فعاليات اقتصادية وعلمية ومهنية.. فيهم رجال أعمال وأساتذة جامعات وأطباء وأدباء وكتاب، وهم كذلك خلاصة الأُسر الوطنية الكبيرة بدمشق، ولذا يُمكننا أن نعدّ المعهد أول هيئة تعليمية تُشرف عليها جمعية تُمثِّل الأطياف المختلفة للبلد.. وجاء في نظام الجمعية أنها على شاكلة منهاج المدارس الرسمية، وأنها تُعنى بوجه خاصٍّ بمواد الثقافة العربية والإسلامية. وأكد أن لا علاقة لها بالشؤون السياسية مطلقاً. قصد المعهد أبناء الأسر الدمشقية المحافظة رغبة فيه. وعلَّم فيه خيرة المدرسين، وكان مديروه بدءاً بالدكتور السباعي من أصحاب الشهرة. كما أُحدث في المعهد قسمٌ ليليٌّ لمن تمنعه ظروفه من الدراسة في النهار.. ثم أحدث المعهد فرعاً للبنات في منطقة نوريَ باشا، الحي الذي تسكنه أُسر راقية، وانتقل بعدئذ إلى ضاحية دمّر[٧٩].

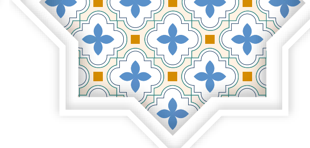
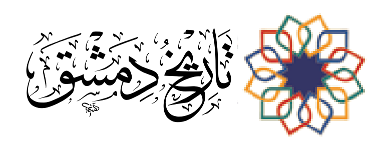
(ثانوية السعادة)

كانت فكرة إنشائها بعدما ضرب الفرنسيون معهد العلوم الشرعية للجمعية الغراء في ٢٩ أيار ١٩٤٥م، وجدّت الحاجة إلى التعويض عن المدارس المتعلقة بالجمعية المذكورة، فقررت إذ ذاك إنشاء ثانوية كونية[٨٠]، افتُتحت الثانوية في مبنى المدرسة السميساطية[٨١] شمال الجامع الأموي في منطقة الكلاسة العام الدراسي (١٩٤٦/١٩٤٥م)، بدأت بالصف الأول الإعدادي، وجعلت تُحدث صفّاً أعلى في كل سنة إلى أن استوفت صفوف المرحلتين الإعدادية والثانوية بعد ستِّ سنوات من إحداثها. انتقلت بعدها إلى جناح في جامع تنكز بجانب المعهد المذكور. التزمت الثانوية بمناهج الدولة كأمثالها.

كانت الجمعية المشار إليها تشرف على الثانوية، فلما أغلقت الدولة معهدَها في جامع تنكز خلال

---

(74) **ذكريات علي الطنطاوي**، 102/5.
(75) انظر لترجمتها **إتمام الأعلام**.
(76) **مدارس دمشق**، 153.
(77) **مدارس دمشق**، ولعل هذا لمنع الفتيات من التنافس في ارتداء الأزياء.
(78) انظر لترجمته **تاريخ علماء دمشق**، 1035/2، **الأعلام**، 231/7.
(79) **مدارس دمشق**، 174، **مقابلة د. مازن المبارك وكان أحد مدرسيها**، وكذلك مقابلة مديرها الأستاذ ماهر زنبركجي.
(80) المقصود بالكونية المصطلح الذي أطلقه علماء الشريعة بدمشق ليعني العلوم غير الشرعية.
(81) السميساطية: مضى التعريف بها في مدارس الجمعية الغراء.

الوحدة السورية – المصرية (١٩٦١-١٩٥٨م) استصدر الشيخ عبد الغني الدقر (-٢٠٠٢م)[٨٢] ترخيصاً رسميّاً لها باسمه، فاستأنفت الثانوية أعمالها، بعدما انتقلت إلى محلة قنوات – تعديل، وما لبث صاحب الترخيص أن تنازل عنه إلى الأستاذ فاروق الطباع الذي تنازل عنه عام (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م) إلى الأستاذ هشام الناشف (-٢٠٠٣م)، فنهض بالثانوية حتى كانت في المستوى الأول للثانويات الأهلية[٨٣].

(معهد جمعية الأنصار)

مدرسة إعدادية وثانوية أسَّسها في حي البحصة الشيخ أحمد كفتارو[٨٤] (-٢٠٠٤م)، وجعل الإشراف عليه لجمعية الأنصار الخيرية لرعاية الفقراء وطلبة العلم، وافتُتحت بالعام الدراسي (١٩٥٠/١٩٤٩م)، وتنقل المعهد لظروف آنذاك حتى استقرَّ قرب المدرسة الشامية أسفل محلة سوق ساروجة. اعتمد المعهد مقرَّرات المدارس الرسمية تماماً متوسعاً في الثقافة الإسلامية وما يلحقها، وأراده المؤسِّس أن يكون معهداً إسلاميّاً منفتحاً على روح العصر وبث الرجولة في الطلاب، واختار له نشيداً خاصّاً به. بقي المعهد على عطائه إلى أن أُغلق عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م حين سارت توجهات الشيخ العلمية في اتجاه أعلى[٨٥]. وإلى جانبه افتتحت الجمعية معهد بدر للإناث عام (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) في منطقة سوق ساروجة[٨٦].

(ثانوية دار الحكمة)

أسَّسها في منطقة القنوات (شاذبكية) أربعة عشر مدرساً بحصص مالية متساوية، وكانوا من جميع التخصُّصات، افتتحوها العام الدراسي (١٩٥٥/١٩٥٤) للمرحلتين الإعدادية والثانوية. ثم قرروا التدريس المسائي فيها العام التالي للطلاب الذين تمنعهم ظروفهم من الدراسة النهارية لانشغالهم بالعمل. ولما كان أصحاب الثانوية من المدرسين النابهين الذين يدرّسون بها فقد ارتفع شأنها وقصدها الطلاب من الأُسر المعروفة[٨٧].

(ثانويات أخرى)

عُرف إلى جانب هذه الثانويات نظيرات لها إلا أنها لم تحصل الشهرة ذاتها، منها ثانوية دمشق العربية، وثانوية دمشق الوطنية، وثانوية اليرموك، وثانوية دار الثقافة، والثانوية الأهلية، وثانوية دار الفكر، وثانوية الأندلس[٨٨].

ونظيراتها للإناث معهد النجاح في منطقة نوري باشا، ثم ثانوية الجمهور في جادة الرئيس بالجسر الأبيض، وثانوية تحرير الفتاة في عين الكرش، وثانوية المعري في حارة بندق بمنطقة الشهداء على طريق الصالحية[٨٩].

وبعد:

---

(82) انظر لترجمته **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 464.

(83) **مدارس دمشق**، 177، وفيها ترجمة الأستاذ هشام الناشف.

(84) انظر ترجمته في **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، وفيات 1425هـ، إتمام الأعلام، 102/1.

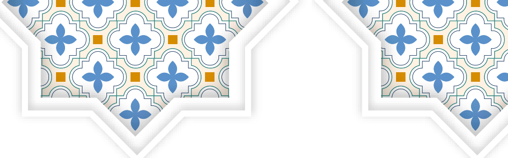
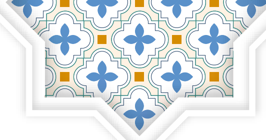
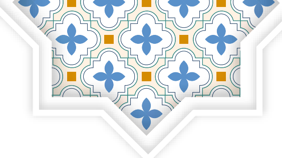
(85) **مدارس دمشق**، 179.

(86) **مدارس دمشق**، 202.

(87) **مدارس دمشق**، 186.

(88) **مدارس دمشق**، 200.

(89) **مدارس دمشق**.



مكتب عنبر

فهذه الكثرة من المدارس الثانوية قامت لسدّ حاجة البلد إليها، ولولا ذلك لما كان الإقبال عليها.. فماذا يمكن الاستخلاص من الملاحظات التي تُوجَّه لها؟[٩٠]

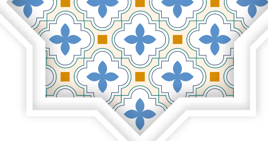
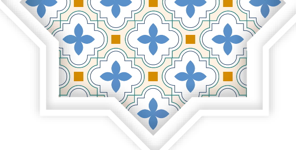
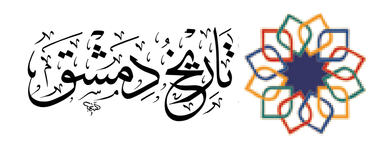
– سمحت الدولة باستحداث هذه المدارس؛ لأنّ مدارسها لم تكن تكفي لاستيعاب جميع الطلاب، ولهذا كانت وزارة التربية تنتقي طلاب المدارس الرسمية الإعدادية والثانوية ممن حصلوا على درجات معينة من درجات النجاح وفق ما يملأ مقاعدها، وتضطرُ الطلاب الآخرين إلى اللجوء للتعليم الخاص.

– حاولت المدارس الخاصة العناية بأسلوبها واستقدمت للعمل عندها مدرسين توخَّت فيهم الكفايات اللازمة، ودفعت لهم أجوراً مغرية لجذبهم.

– كان نصاب المدرس التعليمي في مدارس الحكومة ١٨ ساعة أسبوعياً بمعدل ٣ ساعات وسطيّاً لليوم، فكان لديه على الأقل ما يوازي مثله للعمل في الثانويات الأهلية، وطموحه المادي يدفعه للعمل كذلك في الأقسام المسائية.

– من أجل ذلك استقطبت المدارس غير الرسمية مُدرِّسين قدموا أحسن ما عندهم، وربما كان أداؤهم هنا متميِّزاً عن عملهم الأصلي.

(90) هذه الملاحظات من استعراض ما ذكر عن الثانويات الخاصة في المراجع والمصادر المشار إليها، ومن معايشة كاتب هذه السطور لها إذ كان طالباً في ثانوية دار الحكمة لثلاث سنوات.

- جعلت المدارس الأهلية تتنافس بعضها مع بعض في استقدام المدرسين الأكفياء، الذين يُغري وجودُهم طلاباً يريدون الدخول إلى الجامعة التي تتخيَّر أصحاب الدرجات العالية.
- مع الأيام تأخَّر عطاء المدارس الرسمية أمام المدارس الخاصة، إذ أثبتت الأخيرة أنها تُخرِّج طلاباً مؤهَّلين لدخول الجامعة بحصولهم على الدرجات المطلوبة.
- كانت المدارس الخاصة تفتقر إلى البيئة الصحية والملاعب الرياضية، لأنها نزلت في بيوت شعبية غير مؤهلة للخدمات التربوية اللائقة، والطلاب في بعضها محشورون باكتظاظ في صفوفها وفي باحتها الضيقة. ولم تكن الدولة تفرض عليها آنذاك عدداً مناسباً.
- لم تكن المدارس الأهلية تتقاضى رسوماً عالية، إذ كان الرسم السنوي لطالب المرحلة الثانوية لثانوية دار الحكمة – وهي معدودة في الطبقة الأولى من المدارس الخاصة – لا يتجاوز ٣٠٠ ليرة في السنة يُدفَع على قسطين متساويين[٩١].
- لم تأخذ هذه المدارس نفسها بالتوجُّه الإسلامي ولا التعليم الديني المغاير لمدارس الدولة إلا ما كان في بعضها مثل معهد الأنصار ومعهد بدر، وكذلك المعهد العربي في أول نشأته.
- لم تقم بهذه الثانويات الخاصة مؤسَّسات تجارية ولا دعمها رجال أعمال يوظفون أموالهم، وإنما أُنشئت بجهود شخصية وطنية من المدرسين. ولذا كانت أرباحها متواضعة.
- بعدما قامت ثورة ٨ آذار ١٩٦٣م أحجمت الدولة عن إعطاء تراخيص تربوية لثانويات جديدة، فأقبل الطلاب المضطرون على الثانويات الموجودة التي اكتظت بهم.. إلا ما جرى بعدئذ من استحداث تراخيص على خلفيات معينة.

ثالثاً- التعليم الإسلامي الخالص:

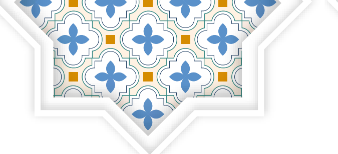
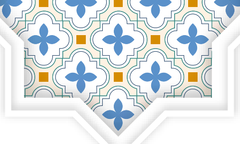
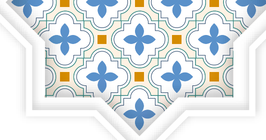
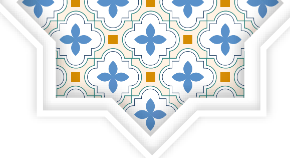
_ تمهيد :

هذا التعليم ذو شقين اثنين، تعليم تلقائي غير نظامي يُقرِّره الشيخ في المسجد أو بيته، ويتردَّد إليه الطلاب يتلقَّون عنه العلوم التي يُتقنها، وتعليم منظَّم مُستحدَث في معاهد ذات نظام مدرسي ومنهاج معين مقرر، وسيتناول البحث الحالتين.

أ- حلقات الشيوخ:

بدأت هذه الحلقات منذ الفتح الإسلامي، بادر بها أبو الدرداء رضي الله عنه (-٣٢هـ)[٩٢] في جامع دمشق عام ١٤ هجري، فجلس في الجانب الشرقي منه في محراب الصحابة حيث كان الصحابة يُعلِّمون الناس، فكان هو[٩٣] يعلِّم القرآن على ترتيب معين، فأقبل عليه الطلاب وكثروا حتى بلغوا أكثر من ١٦٠٠ نفس، فكان يقسمهم إلى حلقات، في كل حلقة عشرة، عليهم عريف يُلقِّنهم التلاوة. في حين يجلس هو يراقب المعلمين ويصوب لهم، فإذا أخطأ قارئ رجع إلى عريفه، فإذا أشكل حرف على العريف رجع إلى أبي الدرداء فصوبه[٩٤]. وكان إذا أحكم أحد القراء من العشرة القراءة تحول إلى أبي

(91) كان هذا المبلغ أقل من راتب مدرس المرحلة الثانوية المبتدئ.
(92) ترجمته في الإصابة، ابن حجر، الترجمة 6119، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ابن عبد البر، في حرفه.
(93) **القراءات وكبار القراء في دمشق**، محمد مطيع الحافظ، 97.
(94) **تاريخ مدينة دمشق**، ابن عساكر، 315/1. **الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة**، خليل الزرو.


الدرداء يعرض عليه[٩٥]، فلما مات أبو الدرداء، المعلم الدمشقي الأول، خلفه في التعليم جماعة، منهم عبد الله بن عامر.

كان عبد الله بن عامر (-١١٨هـ)[٩٦] عريفاً عند أبي الدرداء على عشرة، قرأ القرآن عليه، فاتخذه أهل الشام إماماً ورجعوا إلى قراءته، فكان أحد القراء المعتمدين[٩٧]، وعنه أخذ القراءة أهلُ الشام[٩٨].

ولم تنقطع الحلقات بعد أبي الدرداء وبعد الصحابة الذين كانوا يُعلِّمون الناس في جامع دمشق، كما مرّ، اتباعاً لأمر النبي (ص) «بلغوا عني ولو آية»[٩٩]، وقد حمَّلَهم مسؤولية التعليم في آخر خطبته العامة في حجة الوداع.

وإذ يتعلَّق هذا البحث بدمشق في القرن الرابع عشر الهجري فإننا نجد فيه أن القراءة آلت إلى بيت الحلواني على يد كبيرهم الشيخ أحمد الحلواني الرفاعي الكبير (-١٣٠٧هـ/١٨٨٩م) الذي جدَّد علم القراءات في الشام ونشره في أرجائها بعد أن خلت دمشق من القراء المتخصصين مدة طويلة من الزمن[١٠٠]، وعليه تخرَّج ولده محمد سليم (-١٩٤٣م) وعن الأخير وولده محمد سعيد (-١٩٦٩م) أخذ جيل من القراء نشروا القراءات بدمشق، وأقاموا حلقاتها في المساجد وفي البيوت.

فممن اشتهر من هؤلاء أحمد دهمان (-١٩٢٦م)، وعبد الرحيم دبس وزيت (-١٩٢٦م)، وعبد الله المنجد (-١٩٤٠م)، وياسين جويجاتي (-١٩٦٤م)، ومحمود فائز الديرعطاني (-١٩٦٥م)، وعزي العرقسوسي (-١٩٦٨م)، وعبد الوهاب دبس وزيت (-١٩٦٩م)، وحسين خطاب (-١٩٨٧م)، وقاسم هبة (-١٩٩٩م)، وخليل هبة (-٢٠٠٧م)، ومحمد سكر (-٢٠٠٨م)، ومحيي الدين الكردي (-٢٠٠٩م)، وبكري الطرابيشي (-٢٠١٢م)، وعبد الرزاق الحلبي (-٢٠١٢م)، وشكري لحفي (-٢٠١٥م)، واكريم راجح (١٩٢٨-)[١٠١].

وقد استمرَّت بهؤلاء حلقات القرآن يعلمونه في المساجد وفي بيوتهم، يبدؤون من بعد صلاة الغداة حتى العشاء الآخرة.

وأشهر المساجد التي أقرأ فيها هؤلاء جامع التوبة بالعقيبة، وجامع منجك في الميدان، وجامع زيد بن ثابت في باب السريجة، وجامع الخير في المهاجرين، فضلاً عن الجامع الأموي، وبيوت القراء.

وكان من أشهر القراء الذين قصدهم الطلاب الشيخ عبد القادر قويدر (-١٩٤٩م) في بلدة عربين بالغوطة، كانوا يأتون إليه من دمشق ومن الآفاق يقرؤون ويأخذون القراءات[١٠٢].

كانت الحلقة القرآنية قليلة العدد تضمُّ بضعة أفراد، وربما تقوم على طالب واحد يضرب له الشيخ موعداً محدَّداً يقرأ وينصرف. وكان الشيخ إذا اجتمع له العدد أقرأهم بالترتيب واحداً فواحداً يبدأ بمن جاء منهم أولاً، حتى إذا فرغ أمكنه أن يبقى أو ينصرف[١٠٣]، وكانت خطة القرآن أنه إذا استوفى

---

(95) السابقان.

(96) ترجمته في **القراءات وكبار القراء في دمشق**، 50.

(97) **جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي**، 454/2.

(98) **القراءات وكبار القراء في دمشق**، 51.

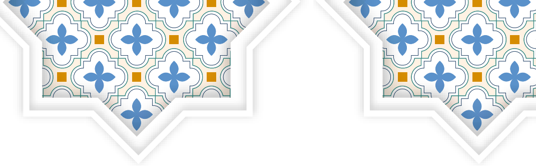
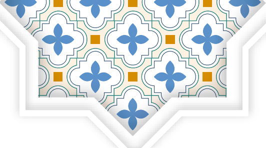
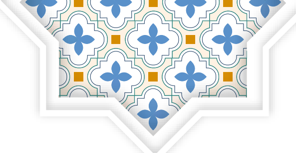
(99) الحديث في **صحيح البخاري**، 3461.

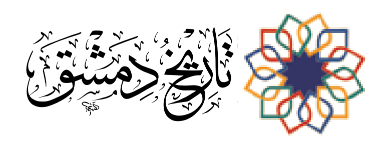
(100) القراءات **وكبار القراء بدمشق**، 14.

(101) تراجم هؤلاء في كتاب **تاريخ علماء دمشق**، بحسب وفياتهن، وفي كتاب **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري** على وفياتهم كذلك.

(102) **تاريخ علماء دمشق**، 762/2.

(103) **القراءات وكبار القراء بدمشق**، 227.



القارئ عرضه على الشيخ حفظاً انتقل إلى القراءات السبع أو العشر فإذا أتقنها أعطاه فيها إجازته المكتوبة.

ولذا كانت الإجازات على هذا قليلة نادرة لا ينالها إلا المهرة حتى اقترح الشيخ عبد الكريم الرفاعي (-١٩٧٣م)[١٠٤] على تلميذه الشيخ محيي الدين الكردي (-٢٠٠٩م) أن يعطي إجازته لمن يتقن قراءة حفص فقط، لتشجيع الطلاب[١٠٥].

أما حلقات العلوم الإسلامية الأخرى فكانت في القرن الذي يعالجه البحث أكثر وأعمَّ، ولذا سنقتصر فيه على أهم الحلقات بدمشق.

كانت الحلقات في المساجد كما حدثني صديقي محمد مطيع الحافظ نقلاً عن عمه شيخ الحنفية في زمنه الشيخ عبد الوهاب الحافظ (دبس وزيت) (-١٩٦٩م) تبدأ من بعد صلاة الفجر حتى ما بعد العشاء الآخرة لا تتوقف، وخصوصاً في المساجد الكبرى، وتداول أهل العلم أن في الجامع الأموي تقوم حلقة عند كل سارية في درس علم متنوع.

ونقل عنه كذلك أن طلاب العلم قبل دخول الكهرباء دمشق في أوائل القرن العشرين/عشرينيات القرن الرابع عشر الهجري كان كل منهم يصطحب مع كتابه فانوسه يستضيء به بجانب كتابه في الحلقة.

عُرف في دمشق حلقتا علم كبيرتان ذواتا شأن؛ الأولى درس قبة النسر في الجامع الأموي، والثاني درس التكية السليمانية يتولى كلاًّ منهما أكبر محدث في الشام.

أما درس قبة النسر[١٠٦]، فكان أول من قام فيه محمد الميداني (-١٠٣٣هـ)[١٠٧] قبل أن يترتَّب ماليّاً حسبة من عند نفسه[١٠٨].. ثم تتابع على البقعة المحدثون يُدرّسون فيها الحديث في أشهر رجب وشعبان ورمضان يوم الجمعة عقب الفريضة حتى العصر، حتى كان آخر من تولاها الشيخ محمد بدر الدين الحسني (-١٩٣٥م) يقرأ فيها صحيح البخاري، قال الشيخ عبد الرزاق البيطار (-١٩١٦م): يروي الأحاديث موصولة الأسانيد صحيحة الضبط تامّة الحفظ يتلوها من غير توقف ولا تلعثم ،كأنما يغترف من عُباب أو يقرأ في كتاب[١٠٩]، وكان هو آخر من تولى هذه الوظيفة التي توقفت بموته.

وأما درس التكية السليمانية فخُصِّص كذلك لقراءة صحيح البخاري في شهري رجب وشعبان من كل خميس[١١٠]. وأول من تولاه الشيخ المحدث أحمد العطار (-١٢١٨هـ/١٨٠٣م)[١١١]، فلما عجز قبل وفاته بثلاث سنوات قام بها ابنه حامد (-١٢٦٣هـ/١٨٤٦م)[١١٢]، ثم آلت إلى حفيده الشيخ سليم العطار

---

(104) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 1217/2.

(105) ترجمة الشيخ محيي الدين الكردي في **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، في تاريخ وفاته (خ)، ط2.

(106) رتبها بهرام آغا كتخذا وكيل والدة السلطان إبراهيم سنة 1050هـ/1640م وأوقف من أجلها الأوقاف وعين للمدرس ستين قرشاً وللمعيد ثلاثين، ولقارئ العشر عشرة، وقد كان من شروط قبة النسر أن يقوم على درس الحديث فيها أعلم علماء دمشق. **نتيجة الفكر فيمن درس تحت قبة النسر**، عبد الرزاق البيطار، 96.

(107) ترجمته في خلاصة الأثر، المحبي، 170/4. **منتخبات التواريخ لدمشق**، الحصني، 601/2.

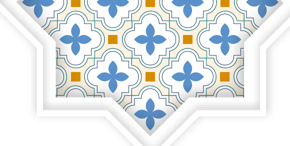
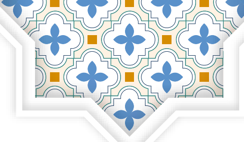
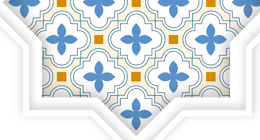
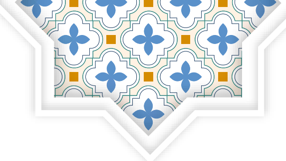
(108) **نتيجة الفكر**، 98.

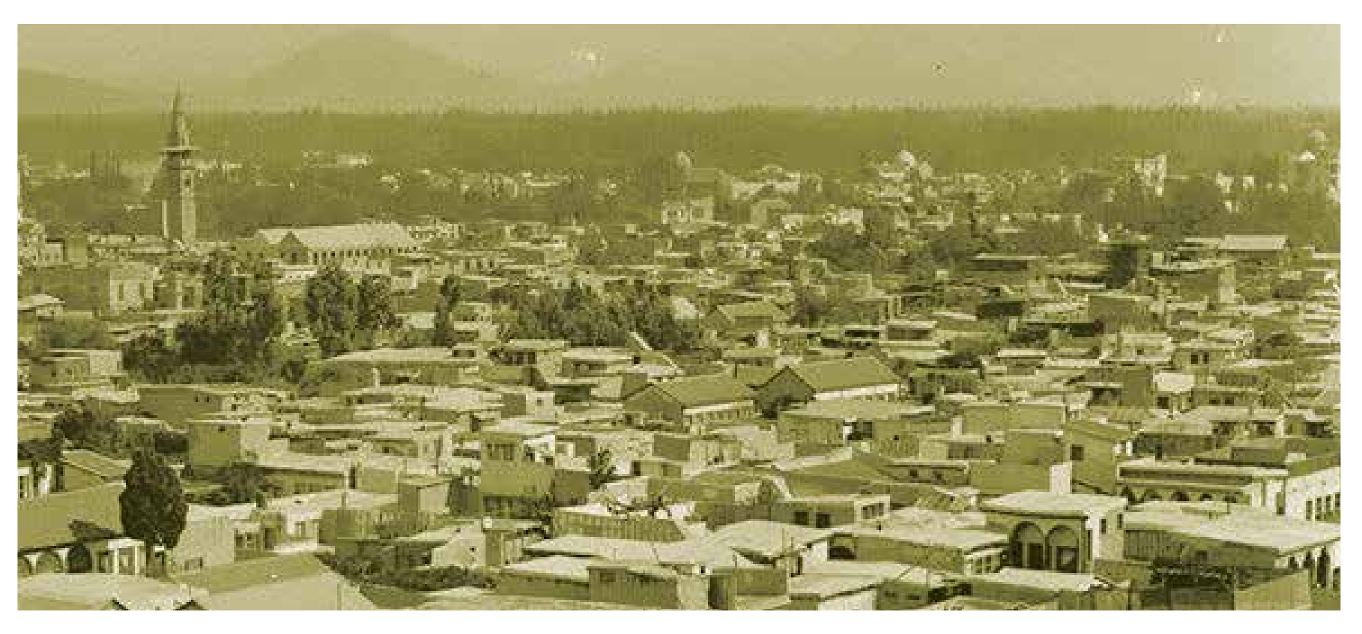
(109) **نتيجة الفكر**، 129، حلية البشر، 362/1، وانظر ترجمة الشيخ بدر الدين فيما سيأتي.

(110) يبدو أنه رتب الخميس لئلا يتعارض مع درس قبة النسر يوم الجمعة.

(111) انظر لترجمته **علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري**، 116/1، حلية البشر، 239/1، كان شيخ علماء دمشق ومرجع البلاد كلها في العلوم العقلية والنقلية، تفرد بالتفسير والحديث.

(112) ترجمته في **علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري**، 497/2، **حلية البشر**، 462/1، **منتخبات التواريخ**، 646.



حي السادات - مسجد الأقصاب وتوابعه

(-١٣٠٧هـ/١٨٨٩م)[١١٣]، ثم من بعده الشيخ بكري العطار (-١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)[١١٤].

وقد كان لهذا الدرس شأنه، يجتمع عليه علماء دمشق وأعيانها وتجارها خصوصاً يومي البدء والختام، وكان المُدرّس فيه يتلو الحديث بسنده ويُوفيه حقَّه من الشرح، ويتناوله من الوجهة العربية، ويتوسع بموضوعه من الفقه أو التوحيد أو غير ذلك مما يناسب المقام[١١٥].

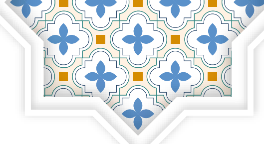
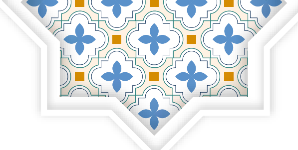
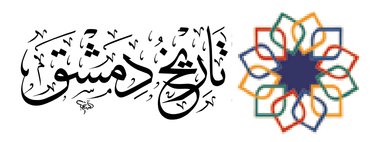
ومن أشهر من أقرأ العلوم الشرعية بدمشق للقرن الذي يتناوله البحث علماء بيت العطار المذكورون آنفاً، وخصوصاً الشيخ سليم (-١٣٠٧هـ/١٨٨٩م)[١١٦] والشيخ بكري (١٣٢٠هـ/١٩٠٢م) وبهما تخرج كثير من علماء دمشق، في حلقاتها المتتالية[١١٧].

والشيخ جمال الدين القاسمي (-١٩١٤م)[١١٨] في جامعي السنانية وحسان بباب الجابية.

والشيخ محمد بدر الدين الحسني (-١٩٣٥م)[١١٩] في دار الحديث بمحلة العصرونية، يُقيم دروسه خاصة في مختلف العلوم من الصباح حتى قبيل المغرب حين ينفتل إلى داره فيفطر وهو صائم غالباً، ثم يشرع بدرس عام ما بين المغرب والعشاء. ويفتخر أهل العلم بأخذهم عنه والانتساب إليه[١٢٠].

واشتهرت نهضةُ الشيخ علي الدقر (-١٩٤٣م)[١٢١] بجامع السادات في باب الجابية، واستقطب لحلقاته طلاباً من حوران والأردن والبقاع والغوطة، وكان هو يذهب للدعوة في تلك المناطق، ويرسل إليها

(113) **ترجمته في تاريخ علماء دمشق**، 108/1.
(114) **ترجمته في تاريخ علماء دمشق**، 222/1.
(115) **ترجمته في تاريخ علماء دمشق**.
(116) مر ذكره والإشارة إليه في درس التكية.
(117) **تاريخ علماء دمشق**، 107/1، 221.
(118) **ترجمته في تاريخ علماء دمشق**، 332/1، وانظر كتاب **جمال الدين القاسمي** لكاتب هذه السطور.
(119) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 554/1. ومما ألف فيه حلية البشر، 362/1، الأعلام، 38/8، **عالم الأمة وزاهد العصر**، **محمد رياض المالح**، **المحدث الأكبر وإمام العصر الشيخ محمد بدر الدين الحسني** كما عرفته، محمد صالح الفرفور، **المحدث الأكبر الشيخ محمد بدر الدين الحسني**، يسرى دركزللي، مجلة حضارة الإسلام، 817/4.
(120) المراجع السابقة.
(121) ترجمته في **كتاب الشيخ علي الدقر**، **وتاريخ علماء دمشق**، 690/1.

طلابه. ولما كثر عليه الطلاب جعلهم حلقات يقوم على كل حلقة أوائل طلابه الذين ارتضاهم في علمهم، ثم يتولَّى التوجيه العام، حتى أحدث لهم المدارس والمعاهد التي تستوعبهم، ووفر للأغراب الإقامة واحتياجاتها(١٢٢).

وتابع طلاب الشيخ علي الدقر تعليم الناس، والقيام بالدعوة في حياته وبعد مماته، فنشروا العلم في حلقات المساجد المختلفة، منهم الشيخ حسن حبنكة (-١٩٧٨م)(١٢٣) في جامع منجك بالميدان الوسطاني، والشيخ عبد الكريم الرفاعي (-١٩٧٣م)(١٢٤) في جامع زيد بن ثابت بباب السريجة. وقد سار هذا الشيخان على طريقة أستاذهما الشيخ علي الدقر المذكور، فعملا على تأليف حلقات يقوم عليها كبار طلابهما..

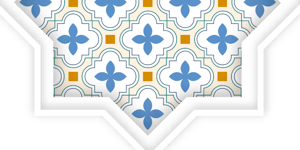
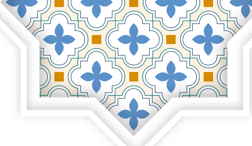
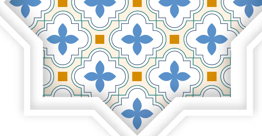
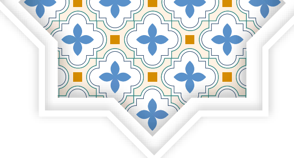
والشيخ خالد الجباوي (-٢٠٠٣م)، والشيخ نايف العباس (-١٩٨٧م)، كلاهما في جامع باب المصلى، والشيخ عبد الرحمن الزعبي الطيبي (-١٩٦٩م) في جامع الدقاق بالميدان الفوقاني، والشيخ أحمد المحاميد (-٢٠٠٠م) في جامع التوبة بحي العقيبة. وقد تخرَّج بهؤلاء الشيوخ علماء اشتهروا وخطباء تفرَّقوا على منابر دمشق يبثُّون الدعوة والعلم(١٢٥).

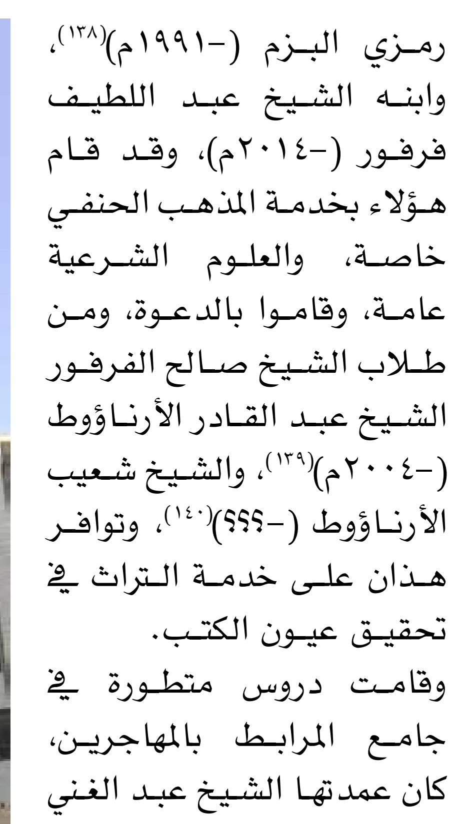
وقامت في جامع التوبة حركة نشطة للغاية على يد الشيخ سليم المسوتي (-١٩٠٦م)(١٢٦)، والشيخ أبي الخير الميداني (-١٩٦١م)(١٢٧)، وتلميذه الشيخ لطفي الفيومي (-١٩٠٩م)(١٢٨)، وآل البرهاني؛ سعيد الجد (-١٨٨٤م)(١٢٩)، وعبد الرحمن (-١٩٣٢م)(١٣٠)، ومحمد سعيد الحفيد (-١٩٦٧م)(١٣١)، والشيخ عبد الوهاب دبس وزيت (-١٩٦٩م)(١٣٢)، وقد نشط على يد هؤلاء في الجامع المذكور الفقه الحنفي، وكانوا فيه المرجع الأول، وأصدر الأخيران كتيِّبات في مبادئ العبادات والمعاملات للفقه المشار إليه لتعليم العامة(١٣٣).

وفي جامع فتحي بالقيمرية، وجامع السادات بمحلة الأقصاب، أقام الشيخ محمد صالح الفرفور (-١٩٨٦م)(١٣٤) حلقاته ودعوتَه، فاستقطب طلاب العلم الذين نبغ منهم الشيخ إبراهيم اليعقوبي (-١٩٨٥م)(١٣٥)، والشيخ عبد الرزاق الحلبي (-٢٠١٢م)(١٣٦)، والشيخ أديب الكلاس (-٢٠٠٩)(١٣٧)، والشيخ

---

(122) **تاريخ علماء دمشق.**
(123) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 1280/2.
(124) **تاريخ علماء دمشق**، 1217/2.
(125) لترجمة طلاب الشيخ علي الدقر ونشاطاتهم انظر كتاب الشيخ علي الدقر رجل أحيا الله به أمة، وعلماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري على وفاة كل منهم.
(126) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 253/1.
(127) **تاريخ علماء دمشق**، 948/2.
(128) ترجمته في **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 210.
(129) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 55/1.
(130) **تاريخ علماء دمشق**، 525/1.
(131) **تاريخ علماء دمشق**، 1081/2.
(132) **تاريخ علماء دمشق**، 1129/2.
(133) يظهر ذلك في تراجمهم السابقة.
(134) ترجمته في كتاب **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 150.
(135) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 109.
(136) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، وإتمام الأعلام.
(137) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، وإتمام الأعلام.



رمزي البزم (-١٩٩١م)[١٣٨]، وابنه الشيخ عبد اللطيف فرفور (-٢٠١٤م)، وقد قام هؤلاء بخدمة المذهب الحنفي خاصة، والعلوم الشرعية عامة، وقاموا بالدعوة، ومن طلاب الشيخ صالح الفرفور الشيخ عبد القادر الأرناؤوط (-٢٠٠٤م)[١٣٩]، والشيخ شعيب الأرناؤوط (-؟؟؟)[١٤٠]، وتوافر هذان على خدمة التراث في تحقيق عيون الكتب.

وقامت دروس متطورة في جامع المرابط بالمهاجرين، كان عمدتها الشيخ عبد الغني الدقر (-٢٠٠٢م)، والشيخ جودت سعيد، اتَّجه الأول فيها إلى اللغة والأدب، والثاني إلى التفسير الذي يُقرأ فيه التاريخ والدعوة والوعظ.

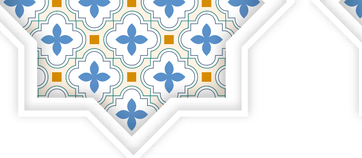
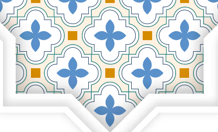
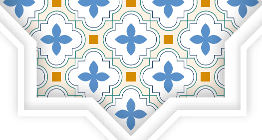
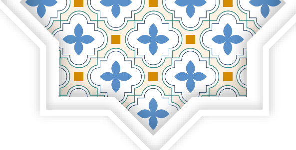


معهد جمعية الأنصار - معهد أبو النور

وفي جبل المهاجرين قامت دروس التصوف على يد الشيخ محمد الهاشمي (-١٩٦١م)[١٤١]، نشر معها الطريقة الشاذلية التي تقبلّها كثير من العلماء ولزموا دروسه. وليست دروسه هذه متفردة، فمن قبله أشاعها أستاذه الشيخ محمد بن يلّس (-١٩٢٧م)[١٤٢] في الزاوية الصمادية بالشاغور، وابنَه أحمد بن يلّس كذلك (-١٩٥٩م)[١٤٣]، ومن قبلهم آلَ علم التصوف إلى الأمير عبد القادر الجزائري (-١٣٠٠هـ/١٨٨٣م)[١٤٤] في داره بزقاق النقيب بالعمارة.

على أن علم التصوُّف على الطريقة النقشبندية وعلوم الشريعة انتشر عند علماء الأكراد في حي ركن الدين، اشتهر منهم في هذا القرن الشيخ عيسى الكردي (-١٩١٢م)[١٤٥]، وتلميذه الشيخ محمد أمين

(138) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 204.
(139) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 508.
(140) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**.
(141) ترجمته في **علماء دمشق**، 982/2.
(142) **علماء دمشق**، 480/1، وكتاب **الطريقة اليلّسية** في مواضع عدة وقد ألف الكتاب له.
(143) **علماء دمشق**.
(144) ترجمته في **الأعلام**، 45/4، **وعلماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري**، 788/2.
(145) **تاريخ علماء دمشق**، 318/1.

كفتارو (-١٩٣٨م)[١٤٦]، وابنه الشيخ أحمد كفتارو (-٢٠٠٤م)[١٤٧].
هذا مجمل ما اشتهرت به دمشق من الحلقات للعلوم الشرعية والعربية.. وإن كان في مساجدها حلقات أقل اشتهاراً.

وبعد:

فالذي يعود إلى المصادر التي تناولت البحث في هذه الحلقات المسجدية يمكن له أن يخرج بالتصورات الآتية[١٤٨]:

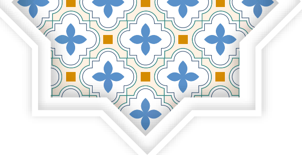
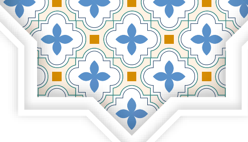
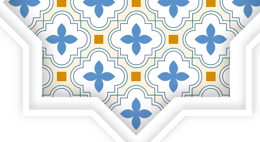
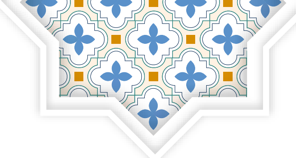
- تخرَّج في هذه الحلقات كبار العلماء على شيوخهم، وتسلَّموا الراية من بعدهم، ونشروا علمهم، ظهر من هؤلاء الطلبة خطباء مفوَّهون، انتشروا في مساجد دمشق القديمة والجديدة فأثَّروا في الناس، منهم الشيخ حسن حبنكة، والشيخ محمد عوض، والشيخ شوكت الجبالي، والشيخ أحمد المحاميد وغيرهم.
- كانت حلقات العلماء مجانية، لا يتقاضَون فيها أجوراً، ويرفضون الهدايا من طلابهم مع أن غالبهم كان يعيش عيشة كفاف وحاجة. ومن ثَمَّ فلم يُكلِّف الشيخُ منهم طالبَه حاجة يقضيها له.
- بقيت صلة الطالب بشيخه صلة حبّ ومودة وإخلاص وقداسة، يرى فيه أنموذجَ الرجل المسلم الصالح، ويحاول أن يتَّخذه أسوةً له.
- اعتمد علماء هذا القرن على كتب بعينها تشمل العلوم الإسلامية كلها، تتكامل فيها معلومات الطالب[١٤٩].
- حرص الطلاب على أخذ الإجازات من شيوخهم، فعمّ ذلك فيهم وهذه تحتاج إلى دراسة خاصة، تؤدي ولا شك إلى نتائج تُفيد حركة التأريخ العلمي.
- أخلص كبار الشيوخ للعلم، فلم يتخلَّفوا عن موعد الحلقات، وتفرَّغوا لها وتابعوا طلابهم المتابعة الحثيثة.
- قد تقوم حلقة مسجدية على بضعة طلاب، وربما قامت على طالب أو طالبين، لا يستنكف الشيخ عن المواظبة عليها، ولا ينقطع عنها أبداً؛ ذلك لأنه يحمل مسؤولية العلم «مَن كَتَمَ علماً أَلجَمَهُ اللّٰهُ يومَ القيامة بلجامٍ من نارٍ» [ابن حبّان والحاكم والبيهقي عن عبد اللّٰه بن عمرو].

ب- المَعَاهِدَ الشَرعيَةَ:

لعل الحلقات المسجدية التي ذكرناها آنفاً تطوَّرت إلى إنشاء المعاهد الشرعية التي نَظَّمت التحصيل العلمي والدوام، وقامت بتوفير الإقامة للطلاب الفقراء..
كانت المدارس القديمة تعتمد الأوقاف في كفاية الطلاب، وهي أوقاف دارّة، تُسهم في تفرّغهم للعلم منذ انتسابهم إليها حتى يتخرّجوا، في حين تقوم المعاهد الحالية على مساعدات المحسنين غير المنظمة، الأمر الذي يؤدي إلى الاضطراب، ويعود على الدارسين بشيء من عدم الاستقرار.

---

(146) **تاريخ علماء دمشق**، 599/1.
(147) **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الميلادي**، 492.
(148) هذه الملاحظات مستخلصة من تراجم العلماء المذكورين في كتاب تاريخ علماء دمشق، في وفاة كل منهم. واعتمدت على ملاحظاتي لترددي على شيوخي في حلقات العلم في أكثر من مسجد.
(149) انظر لمعرفة الكتب موضوع المعاهد الشرعية التالي ذكرها.





فكيف كان حال هذه المعاهد بدمشق في القرن الرابع عشر الهجري؟

(معهد جمعية التهذيب والتعليم)

أقدم هذه المعاهد معهد جمعية التهذيب والتعليم، الذي أسَّسه عام (١٣٤٩هـ/١٩٣١م) الشيخُ عبد الرحيم الخطيب (-١٩٤٨)[١٥٠] في منطقة القلبقجية[١٥١]، وكان قبل ذلك التاريخ مدرسة على نمط التعليم الشرعي في الحلقات، أوقفها الشيخ أبو الخير الخطيب (-١٨٩٠م)[١٥٢] لهذا الغرض. وما يزال المعهد قائماً حتى اليوم.

(معهد العلوم الشرعية)

ومنذ أربعينيات القرن الرابع عشر الهجري/عشرينات القرن العشرين الميلادي قامت نهضة الشيخ علي الدقر (-١٩٤٣م)[١٥٣]، فاجتمع له طلاب أغراب كثيرون من حوران والغوطة والبقاع يتعلَّمون في حلقاته، وكان يُؤويهم في غرف المساجد المخصَّصة لطلاب العلم، ولما تشتَّت أمرهم وقامت ضرورة للإشراف عليهم أسَّس (الجمعية الغراء لتعليم أولاد الفقراء)[١٥٤]، التي استولت عام (١٣٥٣هـ/١٩٣٤م) على مدرسة جامع تنكز، وكانت بيد الجنود الفرنسيين[١٥٥]، فانتقل إليها الطلاب الموزَّعون في غرف المساجد ليقيموا في مهاجع منظَّمة، وتُقدَّم لهم وجبات الطعام. وانتظمت الحلقات عندئذ في «معهد العلوم الشرعية».

ولكن الفرنسيين انتقموا من المعهد فقصفوه بالمدافع في حادثة ٢٩ أيام عام ١٩٤٥م[١٥٦]، وخرَّبوا جزءاً كبيراً منه، بحيث لم يعد صالحاً للإقامة، فعمل القائمون عليه فرمَّموه، وجمعوا فيه طلاب الحلقات العام التالي إلى صفوف منظمة مع إقامة الطلاب الأغراب. وبقي المعهد مستمرّاً في عطائه حتى ٢٥ أيلول عام ١٩٥٩م حين أمر وزير الداخلية عبد الحميد السراج (-٢٠١٢م) بالقوة[١٥٧]، بالاستيلاء على بناء المعهد.. ويبدو أن ذلك بسبب المواقف السياسية المناهضة المعروفة للقائمين عليه وللطلاب. وقد حاولت الجمعية بعد ذلك بمدة طويلة النهوض، فأعادت افتتاح المعهد في بناء الزاوية السميساطية[١٥٨].

(المعهد العلمي الديني)

وظهرت إثر دعوة الجمعية الغراء جمعية نشطة جدّاً هي جمعيّة العلماء، التي تألَّفتهم منذ عام (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) برئاسة الشيخ محمد كامل القصاب (-١٩٥٤م)[١٥٩]، فعملت على تأسيس المعهد العلمي الديني في السنة التي تلتها، وقد عُرف باسم الكلية الشرعية، وكان في زقاق النقيب بمحلة العمارة الجوانية، بهدف تخريج القضاة والمفتين والمدرِّسين والخطباء[١٦٠]، وكانت مواد الدراسة فيه

(150) انظر لترجمته **تاريخ علماء دمشق**، 749/2.

(151) القلبقجية: كانت سوقاً لصنع القلابق، مفردها قلبق نوع من لباس الرأس من الوبر مدبب وأسطواني وقد يصنع من جلد الخروف الناعم. **معجم الألفاظ التاريخية**، محمد أحمد دهمان، مادة قلبق. **وخطط دمشق**، 161.

(152) انظر ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 120/1، **مدارس دمشق**، 208.

(153) انظر التعريف به في كتاب **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، 690/1، وفي كتاب **الشيخ علي الدقر**.

(154) انظر التعريف بها في المصدرين السابقين.

(155) انظر قصة الاستيلاء عليها في كتاب الشيخ علي الدقر.

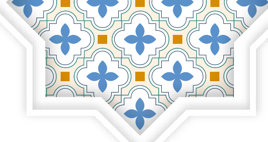
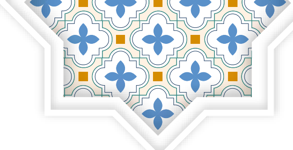
(156) **مدارس دمشق، 216، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري السابق، الشيخ علي الدقر.**

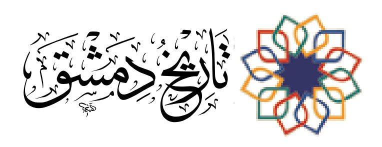
(157) **مدارس دمشق، 216، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري السابق، الشيخ علي الدقر.**

(158) سبق التعريف بها في الحديث عن مدارس الجمعية الغراء.

(159) ترجمته في **تاريخ علماء دمشق**، 835/2، وفي كتاب **جمعية العلماء بدمشق**، 11-19.

(160) **مدارس دمشق**، 233، **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، 835/2.



تعتمد الأسلوب العصري، وضمَّت مناهجُه العلوم الشرعية والعربية والكونية[١٦١]، ولذا كان في الهيئة التدريسية فيه أعلام من جميع التخصُّصات المعروفة في البلد[١٦٢].

(معهد جمعية التوجيه الإسلامي)

ونهض بالعلم في الميدان الوسطاني الشيخ حسن حبنكة (-١٩٧٨م)[١٦٣]، بدأ بحلقات مسجدية في جامع منجك[١٦٤]، ومع إقبال الطلاب عليه أسَّس جمعية التوجيه الإسلامي، التي أشرفت على تأسيس معهد باسمها عام (١٣٦٥هـ/١٩٤٦م) ضمن رخصة من وزارة المعارف، وكان فيه طلاب مقيمون يوفَّر لهم الطعام واللباس، وآخرون لا يحضرون سوى الدروس الصباحية. ولما اكتمل المعهد أسَّست الجمعية فرعاً للإناث على غراره ما عدا الإقامة[١٦٥]. بقي المعهد على عطائه حتى تأزَّم الوضع بدمشق بحوادث نيسان عام ١٩٦٧م، وكان للشيخ حسن مواقف جريئة، فصدر مرسوم بإلغاء رخصة المعهد ومصادرته ومصادرة ممتلكات الجمعية[١٦٦].

(معهد دار الحديث الأشرفية)

قام في سوق ابن أبي عصرون معهد دار الحديث الأشرفية[١٦٧]، الذي صدر مرسوم إحداثه في ١٩٤٩/٥/٣م، بطلب من الشيخ يحيى زميتا المكتبي (-١٩٥٨م)[١٦٨]، ويبدو أنها لم تكن على نشاط المعاهد الشرعية السابقة، حتى إذا كان عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م دعا الشيخ محمود بعيون الرنكوسي (-١٩٨٥م)[١٦٩] لفيفاً من التجار إلى إنشاء جمعية دار الحديث النبوي الشريف، بغرض افتتاح ثانوية بهذا الاسم، والإشراف عليها لتدريس العلوم الشرعية.. فتمَّ لهم ما أرادوا، وقامت في المكان المشار إليه صفوف نظامية، إضافة إلى مهاجع لإيواء الطلاب الأغراب عن دمشق. ولما توسَّعت الثانوية ضمَّ إليها بناءً لإقامتهم. وما تزال الثانوية قائمة[١٧٠].

(معهد جمعية الفتح الإسلامي)

أسَّس عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م) محمد صالح الفرفور (-١٩٨٦م)[١٧١] جمعية الفتح الإسلامي، التي أقام باسمها معهداً على غرار المعاهد السابقة، في محلة القيمرية عند باب السلام، ولعله استفاد من تجربته، وكان هو أحد مدرسي المعهد العلمي الديني (الكلية الشرعية) المذكور آنفاً، وقد ساعده في إنشائه عدد من التجار كان بعضهم أعضاء في مجلس إدارة الجمعية، واستقطب المعهد طلاباً أغراباً

---

(161) العلوم الكونية من اصطلاح المشايخ يدلون به على العلوم غير الشرعية.

(162) **مدارس دمشق**، 233، **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، 835/2.

(163) للتوسع في ترجمته المستفيضة انظر كتاب: **الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع**، عبد الرحمن حبنكة.

(164) جامع منجك، بناه الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن سيف الدين منجك الكبير، مجلة المجمع العلمي العربي، 318/48، خطط دمشق، 356، **منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، عبد القادر بدران**، 389.

(165) **مدارس دمشق**، 243، **وتاريخ علماء دمشق**.

(166) من كتاب: **الوالد الداعية**، المذكور وفيه تفصيل لحوادث العام المذكور، **مدارس دمشق**، 247.

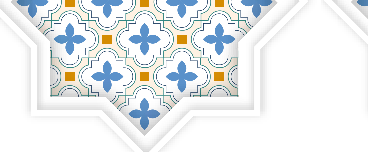
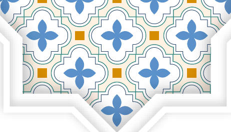
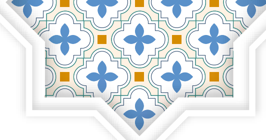
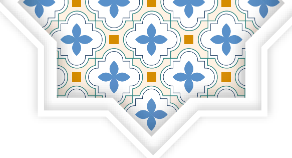
(167) بنى دار الحديث الأشرفية الجوانية بمحلة العصرونية عام 630هـ الملك الأشرف موسى (-635هـ) ابن الملك العادل أخي صلاح الدين. انظر: **خطط دمشق**، 75، **منادمة الأطلال**، 24.

(168) انظر لترجمته **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**، 934/2.

(169) انظر لترجمته **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 106.

(170) **مدارس دمشق**، 248، واعتمد البحث على وثائق محفوظة في الثانوية.

(171) لترجمته انظر **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 150، وكتاب العلامة **المربي الكبير الشيخ محمد صالح الفرفور**، عمر النشوقاتي.


من لبنان والأردن والمغرب وتركيا وبلاد إفريقيا ومناطق الأكراد وبلاد الاتحاد السوفييتي السابق وماليزيا وأندونيسيا، أُعينوا على ترتيب إقامتهم في غرف المساجد، ثم لما استقر وضع المعهد أنشأت الجمعية فرعاً آخر للإناث. ويُذكر أن جذور هذا المعهد بدأت في أواخر خمسينيات القرن الرابع عشر الهجري/ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي، بحلقات أقامها المؤسِّس في مساجد القيمرية..[١٧٢]. وما زال المعهد قائماً حتى اليوم..

(معهد المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني)

في عام (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) أنشأ الشيخ بدر عابدين (-١٩٨١م)[١٧٣] جمعية إسعاف طلاب العلوم الإسلامية التي افتتحت معهداً بهذا الاسم في منطقة باب الجابية، وكان الهدف رعاية طلاب العلم الأتراك الوافدين، وكان المؤسِّس يهتمُّ بهم لصلته بالأتراك وإتقانه التركية، وضمَّت إلى جانبهم طلاباً من اليونان ويوغوسلافيا السابقة وألمانيا وماليزيا وأندونيسيا والكاميرون وساحل العاج ونيجيريا ومالي وزائير وسيراليون وتشاد والسنغال والصومال وغانا وبلاد المغرب العربي.

وفي أوائل تسعينيات القرن العشرين دعم المعهد رجلُ الأعمال الدمشقي عبد الهادي الدبس (-١٩٩٣م)[١٧٤]، وأنشأ من أجله بناء فخماً من عدة طوابق وساحة ملاعب في منطقة الشاغور فانتقل إليه المعهد وتغيَّرت تسميته إلى معهد الشيخ بدر الدين الحسني، ليضم فرعين للذكور والإناث، وهو يعتمد المواد التدريسية الحكومية مضافاً إليها الدروس الإسلامية[١٧٥].

(معهد الفرقان)

وقد انسحب من جمعية إسعاف طلاب العلوم الإسلامية الشيخ بدر الدين عابدين المذكور ليعمل على تأسيس جمعية الفرقان عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) مع عدد من وجهاء حي المهاجرين، وافتتحت الجمعية معهداً باسمها في ملحقات جامع المرابط في الحي المشار إليه، كان في هيئتها التدريسية كبار العلماء، واستقطبت طلاباً مواطنين وأغراباً، وفَّرت للأخيرين منهم الإقامة والطعام والعناية الطبية. وقد توسَّعت أعمال الجمعية بعدئذ فافتتحت لها فروعاً في المزة ودمّر وغوطة دمشق وما تزال قائمة حتى اليوم على سعة[١٧٦].

(المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد)

وآخر هذه المعاهد المعهد الشرعي للدعوة والإرشاد، المعروف بين الناس بمعهد أبي النور[١٧٧]، أنشأه الشيخ أحمد كفتارو (-٢٠٠٤م)[١٧٨]، وافتتحه عام (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م). اعتمد أولاً النظام الأزهري من حيث قبوله الطالب الحائز على شهادة التعليم الابتدائي من خلال سنتين فقط، الأولى تُسمَّى التمهيدي والثانية تُسمَّى الإعدادية، ينتقل بعدها الطالب مباشرة إلى الصف الأول الثانوي لاستكمال المرحلة

(172) **مدارس دمشق**، 258، **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**.

(173) انظر ترجمته في **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 46.

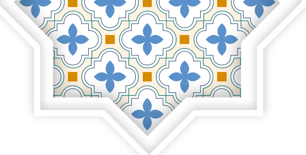
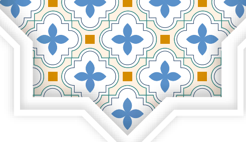
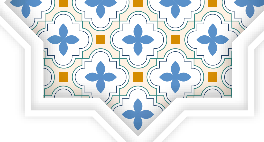
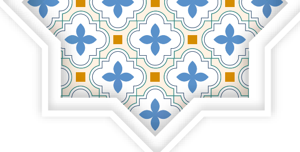
(174) ترجمته في **إتمام الأعلام**، 39/2.

(175) **مدارس دمشق**، 271، **مقابلة مع مدير المعهد الأستاذ جمال البحرة**.

(176) **مدارس دمشق**، 276، **مقابلة مع الأستاذ إياد الطباع أمين سر الجمعية**.

(177) لأنه أنشئ على أنقاض مسجد صغير في مدخل حي ركن الدين يسمى جامع أبي النور، بناه أحد قواد صلاح الدين الأيوبي سنة 614هـ. **خطط دمشق**، 305. ومن هذا المسجد بدأت دعوة الشيخ أحمد كفتارو منذ أربعينات القرن العشرين.

(178) انظر ترجمته في **إتمام الأعلام**، 102/2، **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 492.

الثانوية الشرعية، ويتبع المعهد إلى مجمع أبي النور الذي سُمِّي مؤخَّراً مجمع الشيخ أحمد كفتارو(١٧٩).

وبعد هذا الاستعراض السريع لهذه الجمعيات، التي أنشأت معاهد شرعية باسمها، وما يزال معظمها قائماً، يُمكن أن نُشير إلى الملاحظات الآتية، مُستخلَصةً من تراجم مؤسِّسيها، فليرجع إلى سيرهم في المصادر التي أشرنا إليها(١٨٠):

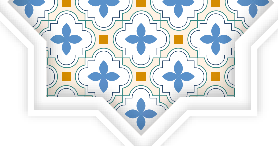
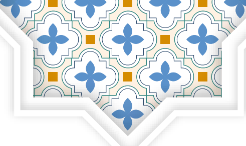
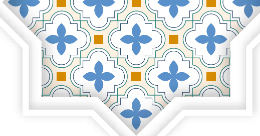
- قامت هذه المعاهد بجهود مؤسِّسيها ومعونة تجار دمشق وأهل الخير فيها بدعمهم المستمرّ.
- اعتمدت منهاجاً متكاملاً للعلوم الشرعية في الفقه وأصوله والتفسير والحديث والمصطلح والسيرة النبوية والنحو والفرائض، إضافة للخطابة والبلاغة والمنطق.
- هدف هذه المعاهد تخريج علماء دعاة إلى الله وخطباء وأئمة لسَدّ حاجة البلد.
- اهتمَّت المعاهد المذكورة باللغة العربية اهتماماً بالغاً لقدسيتها وللحاجة إليها في الخطابة.
- تولَّى التدريس في المعاهد علماء البلد المعروفون الذين يُدرِّسون بالأساس في حلقات المساجد وأحياناً في بيوتهم.
-لم تتطوَّر هذه المعاهد في منهاجها ولا في أسلوبها، وبقيت تعتمد الكتب التراثية في التدريس، تنظر إليها بقداسة، ولا تخرج عن نصوصها ولا عباراتها.
- خرَّجت هذه المعاهد في دفعاتها الأولى علماء أقوياء مُتمكِّنين، اشتهر كثير منهم بالدعوة إلا أن الأجيال التالية لهم ظهر فيهم ضعف.
- ضمَّت هذه المعاهد طلاباً وافدين من كثير من بلاد العالم شرقيه وغربيه، ورجعوا إلى بلادهم دعاة.
- اتَّبعت بعضُ هذه المعاهد المذهب الحنفي، كمعهد جمعية الفتح الإسلامي، إلا أن باقيها كان على المذهب الشافعي الغالب في البلد.
- لم تُولِ هذه المعاهد اهتمامَها كما ينبغي بمادة الأدب ونقده وقضاياه، وإنما انصبَّت عنايتُها على اللغة نحوَها وصرفها وبلاغتها، وإن كان لمعهد الفتح الإسلامي عناية خاصة به.
- لم تُعنَ هذه المعاهد بالعلوم العصرية ما عدا المعهد العلمي الديني.. كما لم تهتمَّ باللغات الأجنبية.
- نزلت هذه المعاهد في ملحقات المساجد والمدارس الأثرية القديمة.
- لم يُؤلِّف مدرسو هذه المعاهد كتباً إلا فيما ندر، وإنما اعتمدوا الكتب التراثية التي كانت تُدرَّس في الحلقات المسجدية، فكأنما نُقل علم الحلقات إلى مدارس منظمة تُعطي شهادات بدل الإجازات.
- استمرَّ أسلوب التعليم في المعاهد على فهم نصّ الكتاب المدروس وقلما كان الشيخ يخرج عنه.
- ومع هيمنة الدولة صارت تبعية هذه المعاهد لوزارة الأوقاف، وأشرفت عليها مديرية التعليم الشرعي، وهي تتولى التفتيش عليها وتنظيم أمورها.
- تحوَّل بعضُ هذه المعاهد إلى ثانويات شرعية، يتقدَّم طلابُها آخرَ المرحلة إلى امتحانات شهادة الدراسة الثانوية الشرعية، ويُقبَل المتفوّقون فيها للدخول إلى كلية الشريعة(١٨١).

---

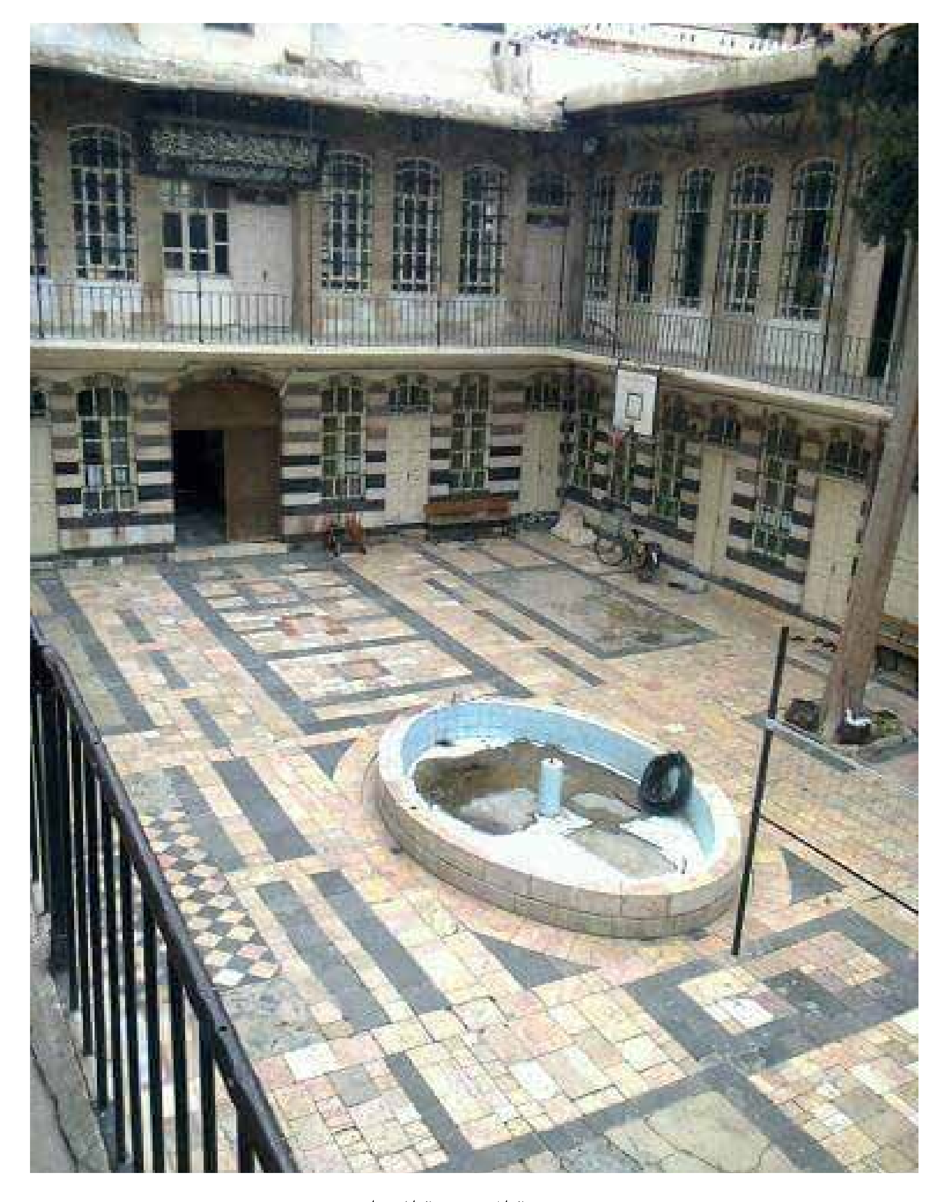
(179) **مدارس دمشق**، 286، **مقابلة مع الدكتور محمد شريف الصواف** رئيس مجلس إدارة المجمع الذي يضم المعهد المذكور ودار القرآن والحديث وثانوية الغد المشرق الشرعية ودار الرحمة لليتيمات وفرع جامعة بلاد الشام للعلوم الشرعية.

(180) **وأضيف إلى ذلك ملاحظاتي الخاصة لمعايشتي للمعاهد ومدرسيها**، وانظر **مدارس دمشق**، 289.

(181) يراجع لهذه الملاحظات كتاب **مدارس دمشق**، 289، وتراجم العلماء الذين أشرنا إليهم خلال البحث.


رابعاً- مدارس الطوائف الأهلية:



مدرسة الجمعية الغراء

لما كان للمسلمين مدارسهم الخاصة فإن المسيحيين واليهود سعَوا لإنشاء مدارس خاصة لأبنائهم تنسجم مع دينهم وتوجُّهاتهم، وهذا أمر طبيعيٌّ جداً[١٨٢]. وقد عَرفت دمشق تعايش الأديان بعضها مع بعض باحترام، وما جرى في فتنة ١٨٦٠م بين المسيحيين والمسلمين فإنه يُعدُّ شذوذاً عن القاعدة. والذي نفخ في ناره جماعات وافدة من خارجها وبأياد أجنبية، ولظروف طارئة، لا دخل للسكان فيها[١٨٣].

هذا وقد تَداعى إلى إنشاء هذه المدارس الجمعياتُ الخيرية المدعومة من الكنيسة، وذلك منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري، ونشطت أوائل القرن الرابع عشر، وازدهرت أواسطه وما بعد[١٨٤]، فأقبل الطلاب المسلمون عليها حتى من الأُسر المتدينة، طمعاً في اكتساب اللغة الأجنبية[١٨٥]، وقد عُنيت مدارس الطوائف هذه – بخلاف المدارس التبشيرية – باللغة العربية[١٨٦]. وقد بقيت هذه المدارس نشطة حتى ثورة آذار ١٩٦٣م، حين وضعت الدولة أيديها عليها، فصارت تابعة لوزارة التربية، واعتمدت برامجها كسائر المدارس[١٨٧].

(182) **ذكريات علي الطنطاوي**، 30/1.

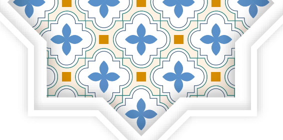
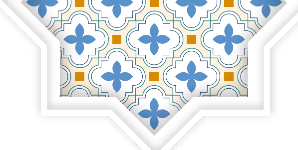
(183) انظر **مرآة الشام** وتحليل المؤلف للحادثة 316 وما بعد، **وخطط الشام**، 73/3 وما بعد.

(184) **مدارس دمشق**، 295.

(185) قال علي الطنطاوي: ومن أعجب العجب أن شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار تعلم مدة في المدرسة اللعازارية، وفيها تعلم اللسان الفرنسي 30/1. وقد تخرج في هذه المدرسة الأخيرة أربعة رجال، حكموا سورية؛ حقي العظم، والشيخ تاج الدين الحسني، وشكري القوتلي، وفوزي سلو، غير أدباء سورية ورجالاتها الكبار. **التعليم في سورية**، 337.

(186) من مقالة محمد المبارك: **المدارس الخاصة ووحدة الثقافة في البلاد العربية**، **مدارس دمشق**، 296.

(187) **مدارس دمشق**، 296.

أ- المدارس المسيحية:

ذكرَها الدكتور خالد قوطرش ذكراً سريعاً عابراً، في كتابه «التعليم في سورية»، ولم يتوقَّف عندها مليّاً[188]، ذكر من مدارس الذكور في حي القصاع، مسكن غالبية المسيحيين، مدرسة الروم الأرثوذكس، والمدرسة الإنجيلية [البروتستانتية]، والمدرسة البطريركية الكاثوليكية، والمدرسة الكاثوليكية السريانية، ومدرسة الأرمن القدماء[189].

وذكر من مدارس في حي الميدان الذي تسكنه أقلية مسيحية المدرسة الكاثوليكية والمدرسة الأرثوذكسية، وهاتان الأخيرتان بسيطتان في كل منهما معلم واحد وتلاميذ لا يتجاوزون بضع عشرات[190]، وذكر أن في حي القصاع من مدارس البنات مدرسة الروم والمدرسة اليسوعية. وفي الميدان مدرسة الكاثوليك[191].

(مدرسة الآسية المختلطة للروم الأرثوذكس)[192]

تُعدُّ هذه المدرسة أقدم مدارس دمشق المماثلة لها، أُسِّست سنة (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م)، وتتبع بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس. بدأت المدرسة بداية بسيطة، ومرت بظروف تقدُّم وتراجع[193]، حتى تطورت إبان حملة إبراهيم باشا المصري (-١٨٤٧م)[194]، حين صدرت موافقته على ترميم الكنائس القديمة، وبناء كنائس في منطقة المريمية المجاورة لشارع الأمين بالحارة التي تُسمَّى طالع القلقاس[195]، وتوسَّعت عام (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)، وحُدِّد لها نظام يتضمَّن قيام وكلاء أمناء يُشرفون عليها، وتَعيين رواتب للمعلمين بدل السبتية[196]، التي كانت تتقاضاها المدرسة من التلاميذ[197].

وانتَخبت المدرسة بعدئذ فرعاً عالياً للتعليم اللاهوتي الأكاديمي، بقصد إنشاء كلية لاهوتية تُضاهي الكليات الأرثوذكسية المماثلة في خالكي بالقسطنطينية وأثينا وبطرسبورغ وموسكو. كما افتُتح فيها فرع للموسيقا الكنسيّة البيزنطية مكمل للأكاديمية اللاهوتية[198].

وهكذا بدأت المدرسة تُعدُّ لتأسيس جامعة على شاكلة الجامعات الأوربية مزودة بمطبعة حجرية لإصدار الكتب اللازمة[199].

وحين قامت فتنة (١٢٧٧هـ/١٨٦٠م) توقَّفت المدرسة ودُمِّرت، ثم عادت بعد أعوام فأخذت تستأنف عملها، وتفتتح صنوفها من الأدنى حتى مستوى الشهادة الثانوية، وخطت خطوات بدعم الملك فيصل

---

(188) الصفحات 37-39.

(189) **التعليم في سورية**، 38.

(190) **التعليم في سورية**.

(191) **التعليم في سورية**، 39.

(192) اعتمدت في البحث على مقالة وافية قدمها إليّ الدكتور جوزيف زيتون أمين الوثائق البطريركية وعلى أكثر من لقاء معه. وقال: الأسية بتسهيل الياء المفتوحة تعني العمود وتجمع على أواسٍ، يقال ملك ثابت الأواسي أي راسخ الأركان. أما الآسيّة بالتشديد فشجرة الآس ذات الرائحة الزكية، وقصد المعنيون بالمؤسسة أن التسمية تجمع بين المعنيين.

(193) **مدارس دمشق**، 302.

(194) انظر ترجمته في **حلية البشر**، 15/1، **علماء دمشق وأعيانها في القرن الثالث عشر الهجري**، 443/1.

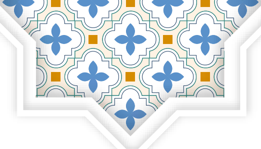
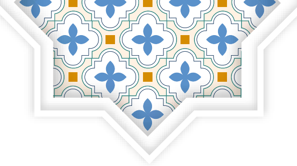
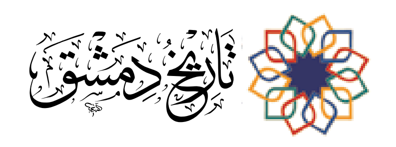
(195) الطالع اصطلاح يعني منهل الماء، كما أفادني الباحث الأستاذ إلياس بولاد.

(196) السبتية ما يقابل الخميسية التي يدفعها تلاميذ الكتاب أو المدارس الإسلامية.

(197) **مقالة د. زيتون**، **ومدارس دمشق**، 302.

(198) **مقالة د. زيتون**، **ومدارس دمشق**، 302.

(199) **مقالة د. زيتون**، **ومدارس دمشق**، 302. والطباعة الحجرية أو اللوحية بحيث يحفر النص على ألواح حجرية وتجري الطباعة عليها. انظر **الموسوعة العربية**، 279/4 مادة (الأوفست).

العدد ١ — السبت ٣٠ ايار سنة ١٩٣٦ ثمن العدد [٣] غروش سوري

المصور

حبيب كحالة

الاشتراك

Bassam Salam

بناية التجهيز الذي اقيم فيها المعرض الصناعي ، وقد كلفت ، والف ليرة ذهب ، — طالع المقال في الصفحة الثانية

مدرسة التجهيز في جريدة المصور

(-١٩٣٣م)[٢٠٠] الذي قدم لها دعماً ماليّاً ومعنويّاً[٢٠١].

اهتمَّت المدرسة بإقامة خزانة كتب، وأسَّست فرقة للكشافة، ووُضع لها نظام إداري جديد عُدّل به القديم[٢٠٢].

وتستأنف المدرعة اليوم أعمالها كسائر المدارس الخاصة باللغتين الفرنسية والإنكليزية[٢٠٣].

(المدرسة البطريركية للروم الملكيين الكاثوليك)[٢٠٤]

---

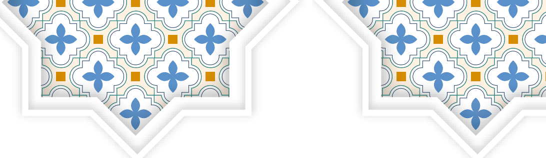
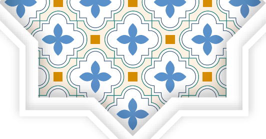
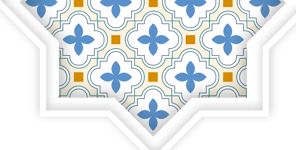
(200) ترجمة في الأعلام، 165/5، مذكرات محمد علي، 130/1.

(201) **مدارس دمشق**، 304.

(202) **مدارس دمشق**، 305.

(203) **مدارس دمشق**.

(204) اعتمدت في البحث على مقالة كتبه الأستاذ إلياس بولاد بعنوان «مدرسة الفضيلة والعلم المدرسة البطريركية نموذج الوحدة الوطنية» وعلى لقاءات معه.


أسَّسها في حارة الزيتون بمحلة باب شرقي، للذكور فقط، البطريركُ غريغوريوس الأول، وافتتحها عام (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، قامت أولاً على المرحلة الابتدائية، وانتهجت في برامجها المواد التعليمية في نظائرها الرسمية مع العناية باللغة الفرنسية، ثم توسَّعت وأضافت اللغة الإنكليزية، واهتمَّت بالرياضة والنشاط الكشفي والرحلات[٢٠٥].

ازدهرت المدرسة حتى بلغت أوجَ ازدهارها في ثمانينيات القرن الرابع عشر الهجري/ستينات القرن العشرين، وانتسب إليها بالإضافة إلى المسيحيين طلاب المسلمين واليهود، كما علَّم فيها مدرسون مسلمون. وتخرَّج فيها طلاب كان لهم شأنهم في المجتمع[٢٠٦].

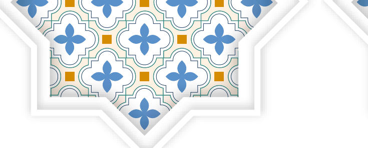
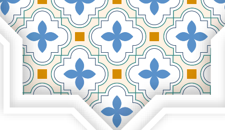
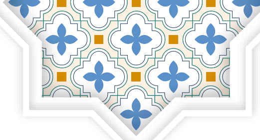
وفي عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) شملتها قرارات التأميم، وسُمِّيت عند ذلك مدرسة العناية الخاصة، فتحولت إلى مدرسة ابتدائية حتى أُغلقت في منتصف تسعينيات القرن الرابع عشر الهجري/سبعينيات القرن العشرين[٢٠٧]. هذا ولم يكن لها تأثير ديني في طلابها بالرغم من أن الذين أداروها هم الرهبان البولسيون[٢٠٨].

(مدارس الأرمن)[٢٠٩]

عُرف منها سبع مدارس:

- مدرسة التاركمانتشاتس لمطرانية الأرمن الأرثوذكس، وهي أكبر المدارس الأرمنية بدمشق وأقدمها، تأسَّست عام (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) على غير المرجح، وبدأت ابتدائية وانتهت ثانوية. وتُسمَّى «ثانوية الرسالة الخاصة».
- مدرسة باب المصلى، تأسَّست عام (١٣٤٠هـ/١٩٢١م) ولم تستمرَّ أكثر من ثماني سنوات.
- مدرسة مياتسيال، تأسَّست عام (١٣٤٨هـ/١٩٢٩م) في حي البحصة، بدأت بقسم الحضانة، فالابتدائي عام (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م).
- مدرسة ساهكيان، تأسَّست عام (١٣٤٨هـ/١٩٢٩م) في منطقة البحصة، وبدأت كذلك بقسم حضانة، وتنقَّلت في أكثر من مكان، ثم استقرَّت في محلة عرنوس في بناء من ثلاثة طوابق، وهي اليوم من أكبر مدارس الأرمن. وتُسمَّى «مدرسة الطليعة الخاصة».
- مدرسة طائفة الإنجيليِّين الأرمن، تأسَّست عام (١٣٤٢هـ/١٩٢٣م) في غرفة واحدة بحارة الجورة (حي الصادق اليوم)، من تفرُّعات باب توما، ثم استقرَّت قرب بطريركية الروم الأرثوذكس. وتُسمَّى «مدرسة الحياة الخاصة».
- مدرسة الزبلطاني، أُنشئت عام (١٣٦٨هـ/١٩٤٨م) في مخيم الزبلطاني للأرمن، بدأت بقسم للحضانة وصفَّين للمرحلة الابتدائية، رعتها الجمعية الخيرية العمومية، إلا أنها لم تستمرَّ أكثر من عشر سنوات.
- مدرسة زاغاكنتس، أسَّستها عام (١٩٥١/١٣٧١م) راهباتُ الأرمن في بناء جانب دير راهبات الحبل، وفيها حضانة إلى جانب المرحلة الابتدائية، عُرفت باسم مدرسة الراهبات الأرمن ثم أُغلقت عام

(205) **مقالة بولاد**، وانظر **مدارس دمشق**، 308.
(206) **مقالة بولاد**، وانظر **مدارس دمشق**، 308.
(207) مقالة بولاد، وانظر **مدارس دمشق**، 308.
(208) **مدارس دمشق**، 326.
(209) اعتمد هذا البحث على كتاب **أرمن دمشق**، سركيس بورنزسيان.


(١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) لتُفتتح بعدئذ للحضانة مدة عام لتعرف بمدرسة الزهور.

- مدرسة باروس، تأسست عام (١٣٨١هـ/١٩٦١م) في منطقة باب توما ضمن مجمع مطرانية الأرمن الكاثوليك. بقيت تعمل ابتدائية حتى توقفت عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، وأُعيد افتتاحها عام (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) باسم «مدرسة المنار الخاصة»، وتوسَّعت عام (١٣٩٩هـ/١٩٨٧) في بناء جديد فضمَّت المرحلتين الإعدادية والثانوية باسم «ثانوية النور الخاصة».

ب- مدارس اليهود:

قال نعمان القساطلي (-١٩٢٠م)[٢١٠]: «لليهود [بدمشق] اثنتا عشرة مدرسة بسيطة، فيها ٣٥٠ تلميذاً، يدرسون مبادئ دينهم باللغة العبرانية، والعلم عندهم في درجة دَنِيّة مع أنهم أغنياء، وفي وسعهم أن يُنشئوا مدارس عالية»[٢١١].

وأهم مدرسة لهم مدرسة الإليانس، أسَّسها الاتحاد الإسرائيلي العالمي شرق حي الشاغور أسفل حارة اليهود في بناء كبير نُقش عليه في أعلاه ١٩٣٢، ولا شيء غير ذلك[٢١٢].

وفي تقرير عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م) أنها تأسَّست عام (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م)، والتعليم فيها مجانيٌ للأيتام، وما عداهم يدفعون قسطاً شهرياً بسيطاً. والمدرسة تُعلِّم التعليم الابتدائي بالعبرية والعربية، وتُعلِّم الفرنسية بالمرحلة الثانوية، فيها أيام ازدهارها ٢٦٠ تلميذاً، وللبنات مدرسة من ٦ صفوف فيها ٤٤ تلميذة[٢١٣]. هذا وأُقيم إلى جانب المدرسة مستوصف للعناية الطبية[٢١٤].

وبعد:

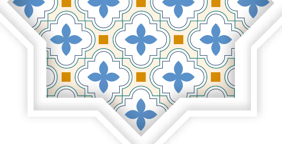
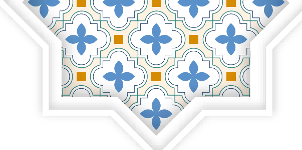
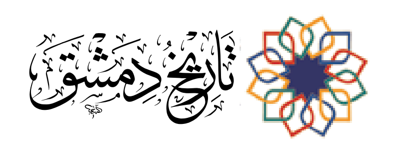
فنذكر الملاحظات الآتية عن مدارس هذه الطوائف مأخوذة من استقراء المدارس السابقة في المراجع المشار إليها:

- لم تقم حولها مشكلة طائفية.
- كان بعضها يضمُّ مُدرِّسين وطلاباً مسلمين، وهم طلاب من الطبقة العليا في المجتمع والمنفتحة على الحياة العصرية.
- تتبع مدارسُ الطوائف الجمعيات الخيريةَ المسيحية، التي تُموِّلها وتُشرف عليها.
- لم تنخرط مدارس الطوائف في بَوتقة واحدة، وإنما قامت بحسب الطائفة الدينية التي تُمثِّلها.
- لم تكن مدارس الطوائف مختلطة، ما عدا المدرسة الآسية.
- بقيت هذه المدارس وطنية خالصة.

خامساً- مدارس البعثات التبشيرية

نشطت منذ القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي منذ تطلَّعت الدولُ الأجنبية إلى الشرق، وخصوصاً بعد خروج الأتراك عام (١٩١٨م). وكان أهم الإرساليات من فرنسا، يبدو أنها وجدت

(210) نعمان القساطلي مسيحي من الروم الأرثوذكس من أهل دمشق.
(211) **الروضة الغناء**، 207.
(212) **مدارس دمشق**، 233. عن كتاب: **اليهود في البلدان الإسلامية**، صموئيل أتنيجر.
(213) **مدارس دمشق**، 233. عن كتاب: **اليهود في البلدان الإسلامية**.
(214) **مدارس دمشق**، 233. عن كتاب: **اليهود في البلدان الإسلامية**.

تسهيلات.. وأهم مدارسها:

(اللعازارية)[٢١٥]

أرسل الآباء اللعازاريون الكاثوليك من فرنسا إلى دمشق عام (١١٩٨هـ/١٧٨٣) مبعوثين، فتَملَّكا داراً في محلة أسفل التلة بمنطقة باب توما، أنشأا فيها ديراً ومدرسة.. ثم انقطعت الإرسالية بموتهما عام (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م). ثم عاود الآباء إرسال مبعوث واحد عام (١٢٤٣هـ/١٨٢٧م)، فأقام مدرسة ابتدائية أقبل عليها الطلاب ووصل عددهم عام (١٣٣١هـ/١٩١٢م) إلى ٢٠٥ طلاب منهم ٨٥ طالباً من المسلمين[٢١٦]، وبسبب إقبال الأهالي استَحدثت المدرسة صفوفاً تدرَّجت حتى نهاية المرحلة الثانوية. كان منهاج التعليم فيها يعتمد المواد المقررة في فرنسا، إلى جانب الاهتمام باللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية واللغة العربية، وكانت المدرسة تهتمّ بتعليم التركية أيام الحكم التركي[٢١٧].

وكان الرهبان اللعازاريون يُديرون في حي الميدان مدرسةَ القديس يوسف، كانت تنتقي الطلاب الموهوبين والمتفوقين[٢١٨].

بقيت اللعازارية على وتيرتها حتى عام (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) حين قام العدوان الثلاثي على مصر (إنكلترة وفرنسة وإسرائيل)، فوُضعت المؤسَّسات الأجنبية تحت مراقبة الحكومة، فخضعت لبرنامج وزارة المعارف (التربية اليوم) وعَيَّنت عليها مشرفاً من قبلها[٢١٩].

ومنذ عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) إثر نكسة حزيران أُطلق عليها اسم «مدرسة المنصور الخاصة»، وأُحدث فرع مختلط للمرحلة المتوسطة سُمِّي «إعدادية الفجر»، تعارف الناس عليها باسم «اللورد»[٢٢٠]، تُدرِّس مقررات وزارة التربية مع العناية باللغتين الإنكليزية والفرنسية، وفرع آخر للمرحلتين المتوسطة والثانوية خُصِّص للإناث سُمِّي «مدرسة المحبة»[٢٢١]. وقد تخرَّج سابقاً باللعازارية عدد من الشخصيات التي كان لها دور فعّال في سورية[٢٢٢].

(المدرسة الإنجيلية)

وتُسمَّى كذلك مدرسة القديس بولس الإنكليزية للبروتستانت، إثر انقضاء فتنة النصارى عام (١٢٧٧هـ/١٨٦٠م)، وافتتحت في محلة أسفل التلة بمنطقة باب توما بعد ستّ سنوات. وهي تُعلِّم الحساب والجبر والهندسة واللوغاريتمات والفلسفة إلى جانب العربية وآدابها والإنكليزية، ويُنفق عليها مجمع كنيسة إيرلندا القسوسية[٢٢٣].

وفي تقرير عن البروتستانت أن بعثة تبشيرية وصلت دمشق أواخر سنة ١٨٤٣م، افتتحت عيادة مجانية،

---

(215) اعتمد البحث على كتاب **التعليم في سورية**، 47، وانظر مدارس دمشق، 335.

(216) انظر تعليق الشيخ علي الطنطاوي في الحديث على مدارس الطوائف الأهلية.

(217) **التعليم في سورية**، 47، وانظر **مدارس دمشق**، 335.

(218) **التعليم في سورية**، 47، وانظر **مدارس دمشق**، 335.

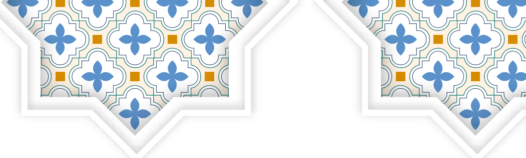
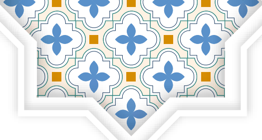
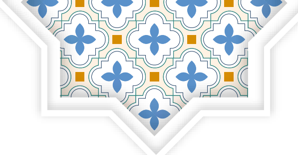
(219) **التعليم في سورية**، 41، **مدارس دمشق**، 336.

(220) **مدارس دمشق**، 337، وقد كنت أحد مدرسيها للعربية في بعض السنوات.

(221) **مدارس دمشق**، 337. وفيه أن رجل الأعمال أكرم العجة (-1991م) ساهم بمبلغ 200 ألف فرنك فرنسي لتجديد المدرسة، وانظر لترجمته **علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري**، 220.

(222) انظر مدارس الطوائف الأهلية.

(223) **الروضة الغناء**، 204، مدارس دمشق، 338، وقد اتصلت بكنيسة البروتستانت في ساحة الدوامنه بحي القصاع لمعرفة ما يتعلق بالمدرسة، فما أفادني القساوسة خبراً رغم إلحاحي عليهم. وقال الباحث الأستاذ إلياس بولاد: لعل هذه المدرسة امتداد للمدرسة الإنجيلية في بيروت التي تطورت إلى الجامعة الأمريكية في المنطقة المشار إليها.



وبعد أربع سنوات أسَّست المدرسة الإنجيلية، انضمَّ إليها طلاب من مختلف الطوائف، وافتتحت مدرسة أخرى باسم «مدرسة القديس بولس»[٢٢٤].

هذا وبدأت اللَّجنة منذ وصولها توزيع الكتاب المقدس على الأهلين والوعظ في المنازل[٢٢٥].

أُممِّت هذه المدرسة مع مدارس البعثات بعد عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، وأُتبعت لوزارة التربية، ثم تحوَّلت إلى مدرسة للفلسطينيين باسم «مدرسة تل الفحم»، ثم تهدمت في المدة الأخيرة، ولم تعد صالحة للاستعمال[٢٢٦].

(المدرسة الإيطالية)[٢٢٧]

قامت ضمن تجمُّع ضَمَّ مستشفًى وكنيسة وديراً للرهبان السالزيانيين، بإشراف البعثة الإيطالية. قامت المدرسة ابتداء في مقر القنصلية الإيطالية عام (١٣٣٩هـ/١٩٢٠م)، وكانت للبنات دون الذكور، كانت أولاً للمرحلة الابتدائية، ثم أُضيفت إليها المرحلة الثانوية على التراخي. اضطربت المدرسة في الثورة السورية (١٩٢٥– ١٩٢٧م)، حتى عادت فانتظمت بعد هذا التاريخ، وعندئذ انتقلت إلى مقرها في منطقة عرنوس قرب المستشفى. كانت موادها التعليمية المواد المعروفة في المدارس الحديثة مع التركيز على اللغة الإيطالية والفرنسية.. وكانت امتحانات آخر العام تجري بإشراف القنصل الإيطالي.

ولما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩– ١٩٤٥م) أغلقت المدرسة، ولم تفتح حتى عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م). وبقي الحال مستقراً حتى عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) إثر حرب حزيران، حين تحولت المدرسة إلى سلطة وزارة التربية، وسُمِّيت «مدرسة العرفان الرسمية».

(مدرسة الفرنسيسكين)[٢٢٨]

أنشأها الكاثوليك، وحملت اسم «معهد جان دارك»[٢٢٩] في حي الشعلان، ببناء باذخ على الطراز الفرنسي، من ثلاث طبقات وملاعب واسعة، تحدُّه أربع طرقات من جهاته كلها، شُيِّد المعهد خلال الانتداب الفرنسي (١٣٣٩–١٣٦٦هـ/١٩٢٠–١٩٤٦م)، ومعه دير للراهبات وسكنهن، وبجانبه كنيسة وميتم للأطفال، وخُصِّص الطابق الأخير لسكن الطالبات الداخليات.

استوعَب البناء ٤٧ صفّاً دراسيّاً لجميع المراحل التعليمية التي اقتصرت على الإناث، بالإضافة إلى قسم الحضانة المختلط. كان التدريس بالمعهد على المنهاجين السوري والفرنسي، وباللغتين العربية والفرنسية، تحصل الطالبات على الشهادتين الإعدادية والثانوية من وزارتي التربية السورية والفرنسية على السواء.

كانت الهيئة التعليمية من الراهبات أساساً، ثم انضمَّ إليهنَّ فريق من غيرهنَّ من المدرِّسين والمدرسات. وأقبلَت الأُسَر الدمشقية على المدرسة من الطبقة الاجتماعية الأولى، وكان أَغلب الطالبات من المسلمين. وقد جَعلت المدرسةُ تَعتذر عن قبول الطالبات الضعيفات في اللغة الفرنسية وتُطالبهنَّ بالانتقال إلى

---

[224] **مدارس دمشق**، 339. وقد اتصلت بكنيسة البروتستانت في ساحة الدوامنه بحي القصاع لمعرفة ما يتعلق بالمدرسة، فما أفادني القساوسة خبراً يعتمد. وقال الأستاذ الباحث إلياس بولاد: لعل هذه المدرسة امتداد للمدرسة الإنجيلية.

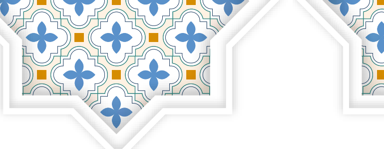
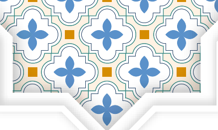
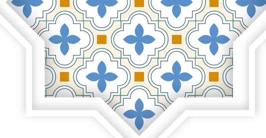
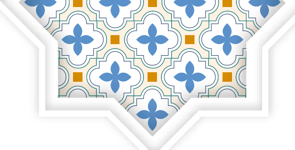
[225] **مدارس دمشق**، 339.

[226] **زيارة ميدانية للمدرسة.**

[227] اعتمد البحث على **لقاء مع الراهبة الأخت كارول طحان** مسؤولة المدرسة والدير السال‍يزياني.

[228] اعتمد البحث على **لقاء مع الزميلة هيلدا جداوي** خريجة المدرسة.

[229] فرنسية (-1431م) ساعدت الملك شارل السابع، فردَّت الإنكليز عن مدينة أورليان عام 1429، فقبضوا عليها وأحرقوها في روان (المنجد).

مدرسة أخرى.

اعتمدَت المدرسة زِيّاً مُوحَّداً داخل المدرسة، وزِيّاً مُوحَّداً آخرَ خارجَ المدرسة، مع مراعاة تغييره بين الفصول.

استولَت وزارة التربية على المدرسة إثر نكسة حزيران عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) في جملة تأميم المدارس الأجنبية، وتغيَّر اسمُها إلى «دار السلام»، وبقي الدير والكنيسة بتصرُف الراهبات.

(مدرسة اللاييك المختلطة)[٢٣٠]

أنشأت هذا المعهدَ البعثةُ العَلْمانية الفرنسية عام (١٣٤٤هـ/١٩٢٥م) مع قيام الثورة السورية.

بدأ أعمالَه في دار مستأجرة بحارة شرف المتفرعة عن شارع العابد، وما كانت داراً مناسبة، فاشترت البعثةُ أرضاً واسعة على شارع بغداد[٢٣١]، افتُتح البناء الذي قام عليها عام (١٣٥١هـ/١٩٣٢م)، كان من ثلاثة طوابق، بلغت مساحتها ٢٦٨٠م٢ غير الباحات بمساحة ٧٠٠٠م٢، وقد اجتذب المعهد شباباً من مختلف المدن السورية، حين أُحدث قسم للإقامة الداخلية، وضمَّ روضةً للأطفال.

كانت برامج المعهد تنسجم مع المدارس الفرنسية والسورية، ولذلك كان يُسمح للطلاب بالتقدُم إلى نيل الشهادة من كليهما.

وأُحدث في المعهد مخبران للفيزياء والكيمياء، وآخر للعلوم الطبيعية، وقاعة للجغرافية، ومكتبة ضمَّت نحوَ ٢٥٠٠ كتاب، غير المكتبات الخاصة بالصفوف.

وضمَّ المعهد كذلك استراحة خاصة بالبنات، وقاعة محاضرات، وعروض مسرحية وحفلات موسيقية، وملعباً للتنس وآخر للسلة، وفسحة لكرة الطائرة، وساحة للرياضة والرقص للبنات، وقاعة للجمباز.

خضع المعهد لحركة التأميم التي طالت المدارس الأجنبية منذ عام (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م). وأشرفت عليه وزارة التربية فطُبِّقت عليه البرامج الوطنية.

وبعد:

فالملاحَظ بعد الاستعراض السريع لهذه المدارس ما يأتي:

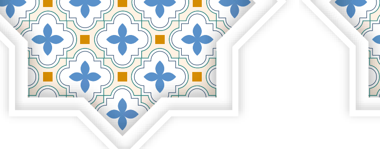
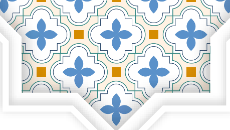
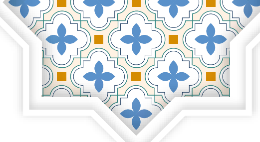
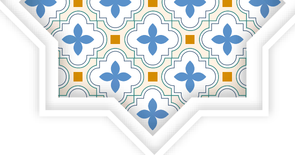
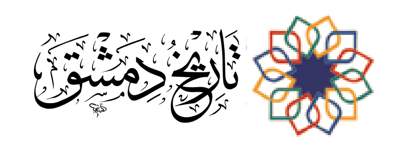
- أهم الإرساليات الأجنبية تستند إلى تبعيّة فرنسية، لأن سورية ولبنان كانتا من حظّ الفرنسيين، كما تبيَّن تماماً فيما بعد باتفاقية سايكس – بيكو[٢٣٢].
- كثير من المسلمين كانوا يرسلون أبناءهم وبناتهم إلى هذه المدارس ومدارس الطوائف[٢٣٣]، طمعاً في تعلُم اللغة الأجنبية ولمتابعة الدراسة العصرية.
- لم تكن مدارس البعثات التبشيرية مختلطة ما عدا معهد اللاييك.
- نزلت مدارس البعثات الأجنبية في أبنية فخمة واسعة، كما مر في اللعازارية والفرنسيسكين والإيطالية.

(230) اللاييك Laique تعني العلماني، غير الديني. اعتمدت معلومات هذا البحث على كتاب التعليم في سورية 126.

(231) افتتح الشارع عام 1925م لتسهيل وصول القوات الفرنسية إلى مشارف الغوطة، حيث معقل الثورة السورية. **ذكريات علي الطنطاوي**، 66/2. أما الأرض التي اشترتها البعثة فتبيَّن أنها أملاك أوقاف، فقام خلاف مع الدولة سُوِّي فيما بعد. **التعليم في سورية**، 126.

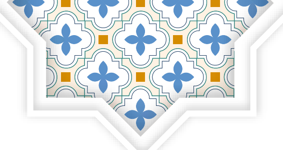
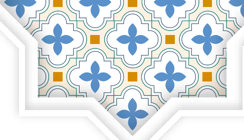
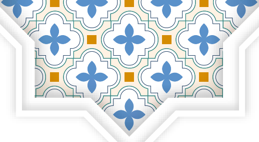
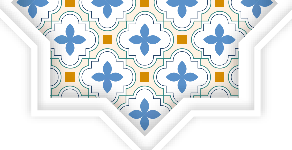
(232) انظر **الموسوعة العربية**، 642/10.

(233) كان الطلاب المسلمون يشكلون أربعة أخماس المسجلين في مدرسة اللاييك. **ذكريات علي الطنطاوي**، 141/2.

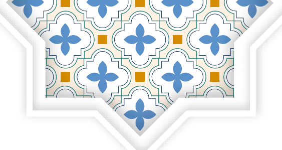
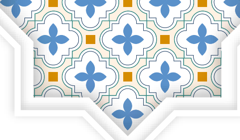
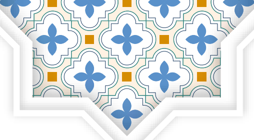
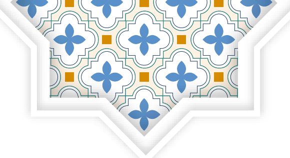
مصادر البحث ومراجعه

- أرمن دمشق، سركيس بورنزسيان، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م.
- الأستاذ الدكتور أحمد منيف العائدي، عزة مريدن، دمشق، مطابع ألف باء – الأديب، ١٩٩٦م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي (١- ٨)، بيروت، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٦٩م.
- إتمام الأعلام، نزار أباظة، رياض المالح، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٩٩٩م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥ هـ.
- أوراق ومذكرات فخري البارودي (١- ٢)، تحقيق وعد الحكيم، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩م.
- تاريخ سورية أواخر الحكم التركي علي سلطان، دمشق، ١٩٩١ .
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، طبع المجمع العلمي العربي بتحقيق صلاح الدين المنجد.
- التعليم في سورية: نشأته وتطوره، خالد قوطرش، ترجمة نزار أباظة، دمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- جمال الدين القاسمي: أحد علماء الإصلاح الحديث في الشام، نزار أباظة، دمشق، دار القلم، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي، تحقيق علي حسين البواب، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- جمعية العلماء بدمشق، محمد مطيع الحافظ، دمشق، دار طيبة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- خطط دمشق، أكرم العلبي، دمشق، دار الطباع، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- خطط الشام (١- ٦)، محمد كرد علي، دمشق، ١٩٦٩م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين المحبي، المطبعة الوهبية، ١٢٨٤ هـ.
- حكاية المحسنية: مسيرة نصف قرن من تاريخها، ١٩٥٢-١٩٠١م، بسام مرتضى، دمشق المؤلف، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- حلية البشر بتاريخ القرن الثالث عشر (١- ٣)، عبد الرزاق البيطار، تحقيق محمد بهجة البيطار، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٦١م.
- الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، لخليل الزرو، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧١.
- الدارس في تاريخ المدارس، عبد القادر النعيمي، تحقيق: جعفر الحسني، مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٨م.



- الرسالة اليلسية، محمد عطاء الله يلس شاويش، دمشق، دار الفكر.
- ذكريات علي الطنطاوي (١- ٨)، جدّة، دار المنارة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، نعمان القساطلي، دمشق، دار طلاس، ط٢، ٢٠٠٤م.
- الشيخ علي الدقر: رجل أحيا الله به أمة، نزار أباظة، دمشق، دار الفكر، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- عبقريات من بلادي، عبد الغني العطري، دمشق، دار البشائر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- العلامة المربي الكبير الشيخ محمد صالح الفرفور، عمر النشوقاتي، دمشق، دار الفرفور، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري، نزار أباظة، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
- القراءات وكبار القراء في دمشق، محمد مطيع الحافظ، دمشق، دار الفكر، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- مختصر تنبيه الطالب، عبد الباسط العلموي، تحقيق صلاح المنجد، دمشق، ١٩٤٧م.
- مدارس دمشق ومعاهدها خلال القرن الرابع عشر الهجري، التعليم الأهلي، نزار أباظة، دمشق، دار الفكر، ١٤٤١هـ/٢٠١٩م.
- المذكرات، محمد كرد علي (١- ٤)، دمشق، مطبعة الترقي، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
- مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، عبد العزيز العظمة، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- مكتب عنبر، صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية، ظافر القاسمي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٤م.
- معجم الألفاظ التاريخية: محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق.
- من حارتي القيمرية، حسان زكي النشواتي، دمشق، المؤلف، ٢٠١٦م.



- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، عبد القادر بدران، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٣٧٩هـ.
- منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب الحصني، دار الاتفاق، ١٩٧٩م.
- الموسوعة العربية (١- ٢٣)، باحثون، دمشق، هيئة الموسوعة العربية، ١٩٩٨م.
- نتيجة الفكر فيمن درس تحت قبة النسر، عبد الرزاق البيطار، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
- نشرة المدرسة الجوهرية السفرجلانية، المدرسة، دمشق، د.ن، د.ت.
- الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني قصة عالم مجاهد حكيم شجاع، عبد الرحمن حبنكة، جدة، دار البشير، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- اليهود في البلدان الإسلامية، لصموئيل أنتيجر، الكويت، عالم المعرفة.

لقاءات شخصية

أ. الياس بولاد: باحث دمشقي.
أ. إياد طباع: باحث، أمين سر جمعية الفرقان.
القس بطرس زاعور: رئيس الكنيسة البروتستانتية.
أ. جمال البحرة: مدير معهد المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني.
د. جوزيف زيتون: أمين الوثائق البطريركية.
الأخت كارول طحان: مديرة المدرسة الإيطالية.
الزميلة ليندا صيداوي: معلمة وإدارية في مدرسة الفرنسيسكين.

صورة لجسر ابن شواش من
تصوير مستشرق سنة ١٩١٧

تـوثيـق

بقلم وتصوير: رئيس التَّحرير

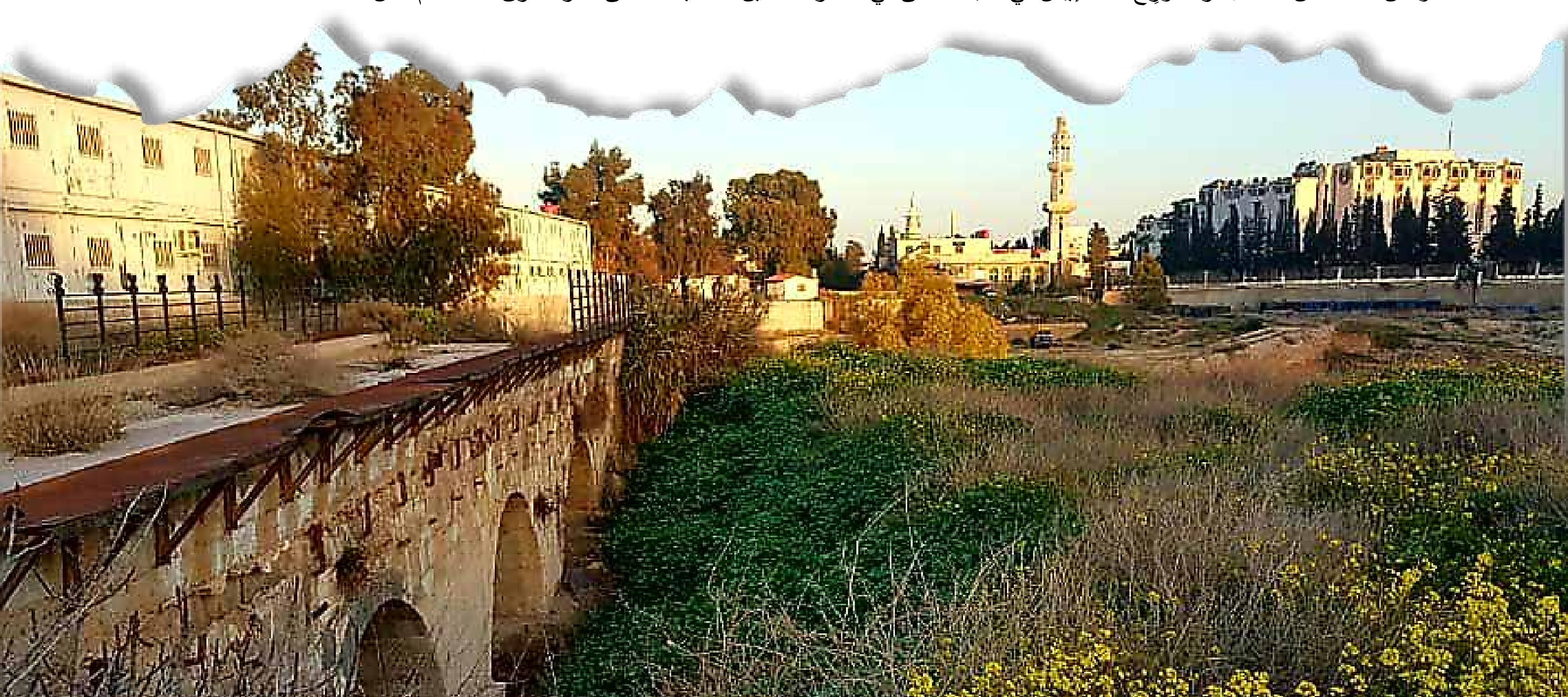
اكتشاف جسر ابن شواش

يقـع جسـر ابـن شـواش فـوق نهـر بـردى في منطقـة كيـوان (الـوادي التَّحتانـي) الواقعـة إلى الجنـوب الشَّرقي من الرَّبوة فيما يُعرف ببساتين كيوان، إلى الغرب من فندق الشِّيراتون، ويُنسب إلى الحسن بن علي بن شواش المقرئ (ت ٤٣٧هـ = ١٠٤٥م).

وقد جزم الباحثون والمؤرِّخون باندثاره، وقال قتيبة الشهابي عنه: «كان فوق نهر بردى في منطقة كيوان، إلى الشرق المجاور لمسبح سريانا الحالي ... »[١].

وقد عاينته فوجدته ما زال باقياً إلى اليوم بقناطره، وكان اكتشافي له ووصولي إليه بصعوبة كبيرة لوقوعه في منتهى الوادي غائباً بين الأعشاب والتَّضاريس[٢].

(1) معجم دمشق التَّاريخي: قتيبة الشهابي، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1999م، ج1، ص140.
(2) وممَّن تحدَّث عن هذا الجسر المؤرِّخ أحمد إيبش في كتابه: دمشق في عصر سلاطين المماليك، دمشق، دار الشرق، 2005م، ص545.





ـ أن يكون البحث المقدَّم للمجلة مكتوباً باللغة العربية، وخالياً من الأخطاء النحوية والإملائية والمطبعية، وأن يكون مشفوعاً بملخَّص بالعربية، وآخر بالإنكليزية أو الفرنسية.

– أن يكون موضوع البحث من ضمن اهتمامات المجلة وأغراضها.

ـ أن يكون عدد كلمات البحث بين ٦٠٠٠ و٨٠٠٠ كلمة، وأن يكون مطبوعاً على الحاسوب، ومُرفَقاً بالسيرة الذاتية للباحث.

ـ أن يلتزم الباحث بمنهجية البحث العلمي وخطواته، وبالمناهج والأدوات والوسائل العلمية المعتبرة بحسب مجال بحثه.

ـ أن يتَّسم البحث بالعلمية والأصالة والجدّة والتَّنظيم والتَّرابط، وأن يستوفي شروط التوثيق والتخريج، واستعمال المصادر والمراجع، وفق الأسس العلمية.

ـ ألا يكون البحث جزءاً من رسالة علمية، وألا يكون منشوراً سابقاً، أو مُرسَلاً إلى جهة للنشر.

ـ يتحمل الباحث المسؤولية الكاملة تجاه كل المعلومات والبيانات والحقائق الواردة في بحثه.

– ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

– تُحال البحوث المرسلة إلى المجلة على التقويم، ويُوافَى الباحثُ برسالة تتضمَّن مصير بحثه.

– يتقاضى الباحث تعويضاً ماليّاً عن بحثه، ويستحقُ التعويض عند إبلاغه بقبول البحث.

– تُرسل البحوث إلى رئيس التحرير على أحد البريدين الالكترونيين:

publishing@dimashq.cc
dimashq@damascus-foundation.org

– يمكن متابعة تفاصيل قواعد التوثيق على موقع مجلة تاريخ دمشق أو موقع مؤسسة تاريخ دمشق:

www.dimashq.cc
www.damascus-foundation.org

لوحة زيتيّة تمثّل جان دى تيڤنو، رُسمت حوالي عام 1660 - 1663، وتلاحظ المنسوجات الدمشقية على زيّه

